

الجامعة الإسلامية العالمية - إسلام آباد - باكستان

كلية الدراسات الإسلامية (أصول الدين)

قسم التفسير وعلوم القرآن

منهج القرآن في الترغيب والترهيب وأثره في إصلاح الفرد والمجتمع

(دراسة موضوعية)

بحث مقيم لنيل درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن

إشراف

أ. د. محمد سليم شاه

رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات الإسلامية (سابقاً)

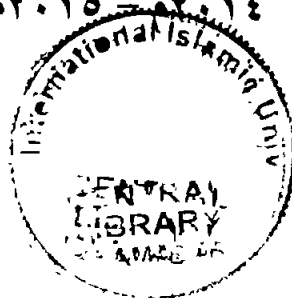
إعداد

الباحث: عبد الرشيد عبيد أحمد

رقم التسجيل: (89-FU/PHD/F07)

العام الجامعي

٢٠١٤م - ٢٠١٥م



Session No 242560

(موقوفہ)

PHD
۲۹۷۷/۲۲۰۷

ع ب م

- قرآن کریم - بحوث
- قرآن کریم - مناہج
- قرآن کریم - تخریب
- قرآن کریم - ترہیب
- قرآن کریم - اصلاح
- قرآن کریم - فرد
- قرآن کریم - مجتمع
- قرآن کریم - آثار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجاً، قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً. والصلاة والسلام على خير من أُرْسِلَ إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى آله وأصحابه الأخيار، الذين عبدوا الله رغبا ورهبا، ومن اهتدى بهديه واستنّ بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ الله عزّ وجلّ علّم بشؤون خلقه، خير بمصالح عبادته، أنزل كتابه المجيد وفقا لما تقتضيه مصالحهم في الدارين، فخطب به العقول والمشاعر، قاصدا بذلك مواقع التأثير في الإنسان، إذ البشر مجبولون على حب المنافع العاجلة والآجلة، والحرص على اجتلابها، ومطبوعون على كره المضارّ في الحال والمآل، والاجتهاد في دفعها. فهو كتاب تربية وتهذيب، وقانون وأحكام، وتفكّر واعتبار، أنزله الله لسعادة البشرية جمعاء، كي يخرجها من ظلمات الجهل والكفر والضلال إلى نور العلم والهدى والإيمان.

وفي هذا العصر، الذي اضطربت فيه نار المادّية، واستشرى داء النفعيّة، وازدحمت على الإنسان مشاغل الحياة، ومتطلّبات المعيشة، واستولى على النفوس حبّ الدنيا، والحرص على وسائل الترفيه، ومن ثمّ صار الإنسان أسير شهواته، ورهن حاجياته، وكمالياته، فلا يفكّر إلا فيما يراه نافعا له في العاجل، ولا يعمل إلا فيما يرجو فائدته في الحال، في هذا العصر اشتدّت الحاجة إلى طرق موضوع الترغيب والترهيب، الذي يقصد به تذكير النفوس بالمنافع الدنيوية والأخروية، والتحذير من المضارّ العاجلة والآجلة من خلال بيان الوعد على عمل الخير من الثواب الجزيل، وعلى عمل الشرّ من العقاب الشديد، كما في قوله تعالى: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)^(١).

والتوجيه الأخروي هو السمة البارزة في منهج القرآن الكريم في الترغيب والترهيب، من غير أن يكون محصورا عليه، بل يشمل في الوقت ذاته الترغيب في المنافع العاجلة، التي تترتب على العمل بالخير، والترهيب من المضارّ الآنيّة، التي تكون نتيجة العمل بالشرّ. كما في قوله تعالى:

^١ سورة الحم: ٣١

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى)^(١). وقوله تعالى: (فَإِنْ أَغْرَضُوا فَقُلْ أَذْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)^(٢).

والانتفاع بهذا المسلك القرآني، والتأثر بهذا المنهج الرباني يتطلب إيماناً بالغيب، وبقينا بالموعود، فمن لا يؤمن إلا بما يراه من المشاهد الكونية، والمناظر الدنيوية، والتجارب المحسوسة لا ينفع فيه هذا المنهج، ولا يتأثر بالوعد والوعيد. ومن هنا خصّ الله سبحانه المؤمنين بالذكر، والانتفاع بالقرآن المجيد. كما في قوله: (وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)^(٣). وقوله تعالى: (كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنَذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ)^(٤).

ومن هنا كان منهج الترغيب والترهيب في القرآن وسيلة للتأثير في وجدان الإنسان، حتى يثير فيه مشاعر الطمع والخوف، فيترتب على ذلك تربيته على الأخلاق الفاضلة، وتهذيبه من الأخلاق السيئة؛ ليعيش حياة طيبة في هذه الدنيا، يكون أساسها الإيمان والعمل الصالح، وتقديم مرضاة الله على شهوات النفس واتباع الهوى، وبالتالي يفوز بنعيم الجنة ورضوان الله تعالى، والنجاة من عقابه وغضبه في الآخرة.

ولقد اهتم علماء التفسير وعلوم القرآن بإبراز وجوه الترغيب والترهيب في القرآن، غير أنها مبثوثة في ثنايا الشروح المطوّلة، وفي تضاعيف المسائل المتعدّدة، التي اشتمل عليها الترتيل، ولم يفرّدوا لها بحوث خاصة، وتأليفات مستقلة. والجدير بالذكر أنّ علماء التفسير وعلوم القرآن أعطوا لهذا المنهج نصيباً وافراً من حديثهم عنه في ثنايا كتبهم، وإبراز أهميته ومكانته في الدعوة والتبليغ، فالإمام ابن كثير^(٥) يقول: "وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن،

^١ سورة هود: ٣

^٢ سورة فصلت: ١٣

^٣ سورة الإسراء: ٨٢

^٤ سورة الأعراف: ٢

^٥ إسماعيل بن عمر بن كثير، القرشي البصري، أبو العلاء عماد الدين. جمع التفسير، والتاريخ الذي سماه البداية والنهاية، وشرح أحاديث أدلة النبوة، وأحاديث مختصر ابن الحاحب، وشرح في شرح البحاري، ولارم المري وقرأ عليه تقيدي الكمال وصاهره على استه، وأحد عن ابن تيمية ففتن محم وامتحن لسه، وكان كثير الاستحصار حسن المفاكهة. وقال الذهبي: الإمام المصنف المحدث البار فقيه متقن محدث متقن مفسر. توفي سنة ٧٧٤. انظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ١/ ٤٤٥ وما بعدها. للحافظ أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، ط: الثانية، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الهند، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

كما قال تعالى في آخر هذه السورة: (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)^(١) ... والآيات في هذا كثيرة جداً^(٢). ويرى الإمام أبو السعود^(٣) أن أسلوب الترغيب والترهيب طريقة سنّية في الدعوة والتبشير، فيقول: "من السنّة السنّية القرآنية شفّع الوعد بالوعيد، والجمع بين الترغيب والترهيب، إيفاءً لحق الدعوة بالتبشير والإنذار"^(٤). وجعله الزركشي^(٥) أحد أقسام علوم القرآن الثلاثة، فقال: "وأمّ علوم القرآن ثلاثة أقسام: توحيد وتذكير وأحكام، فالتوحيد: تدخل فيه معرفة المخلوقات، ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله. والتذكير: ومنه الوعد والوعيد والجنة والنار، وتصفية الظاهر والباطن. والأحكام: ومنها التكاليف كلها وتبيين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب"^(٦). وذكر الشيخ الطاهر ابن عاشور^(٧) في معرض حديثه حول المقاصد الأصلية التي نزل لتبليها القرآن، وعدّها منها الترغيب والترهيب، فقال: "المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك الحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب

^١ سورة الأنعام: ١٦٥

^٢ تفسير ابن كثير: ٣/٣٥٧، المسمى بـ "تفسير القرآن العظيم"، لاس كثير، ط: الثانية، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م. تحقيق: سامي بن محمد سلامة.

^٣ أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي الإمام العلامة. قرأ على والده كثيرًا، وتنقل في المدارس، ثم فلد قضاء برسه، ثم قضاء قسطنطينية، وقد حصل له من المحدث والافعال والشرف والأفضال ما لا يمكن شرحه بالمقال، وقد عاينه الدرس والفتوى والاستعمال كما هو أهم وأقوى عن التفرغ للتصنيف سوى أنه احتلّس فرصا وصرّفها إلى التفسير الشريف، وقد أتى فيه بما لم تسمح به الإدهان ولم تفرغ مثله الآذان، وسماه بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، توفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة. انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ١٠/٥٨٤، وما بعدها، لاس العماد الحسلي، ط: الأولى، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

^٤ تفسير أبي السعود: ٢/٢٠٩، واسمه: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

^٥ بدر الدين محمد بن عبد الله بن مهادر الزركشي. أحد عن الإسوي ومعلّطي واس كثير والأدرعي وغيرهم. وألف تصانيف كثيرة في عدة فروع، منها شرح المهاج، والديباح، وشرح جمع الخوامع، وشرح البحاري، والتفقيح على البحاري، وشرح التسيه، والبرهان في علوم القرآن، والقواعد في العقده، وتاريخ أحاديث الرافعي، والبحر في الأصول. توفي سنة أربع وتسعين وسعمائة. انظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: ١/٤٣٧، خلال الدين السيوطي، ط: الأولى، دار إحياء الكتب العربية - مصر، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م. تحقيق: محمد أبو العصل إبراهيم

^٦ البرهان في علوم القرآن: ١/١٧، لبدر الدين الزركشتي، ط: الأولى، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م. تحقيق: محمد أبو العصل إبراهيم.

^٧ محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس. مولده ووفاته ودراسته بها. كان من أعضاء الجمعيين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات مطبوعة، من أشهرها: مقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، والتحرير والتبوير في تفسير القرآن، والوقف وآثاره في الإسلام، وأصول الانشاء والحطانة، وموحر البلاغة، وكتب كثيرا في المجلات. توفي عام: ١٣٩٣هـ. انظر: الأعلام: ٦/١٧٤، لخير الدين الزركلي، ط: الخامسة عشر، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.

والترهيب"^(١). وهكذا ديدن علماء التفسير والقرآن في النظر إلى أهمية الترغيب والترهيب وأنه جزء أصيل من أساليب الدعوة وتبليغ الرسالة.

واهتم أيضاً علماء الحديث بجانب التربية والتركيب في مؤلفاتهم الحديثة، فنجدهم في الغالب يعقدون كتاب الرقاق في جوامعهم، قاصدين بذلك إيراد الأحاديث التي ترقق القلوب، وتوجه الناس إلى الله والدار الآخرة، وتحذّرهم من محبة الدنيا والانجرار وراء المعاصي والشهوات. كما أن بعضهم ألف مصنفات^(٢) مستقلة تجمع الأحاديث المتعلقة بالترغيب والترهيب بين مختصر ومطول هادفين إلى تربية الأمة وإصلاحها عن طريق تنمية الوازع الديني في الرغبة والرغبة. وبهذا كانوا أسبق من علماء التفسير كما يبدو لي في إفراد هذا المنهج بالتأليف والعناية المستقلة.

ومعظم الآيات القرآنية تفيد الترغيب أو الترهيب بشكل مباشر أو غير مباشر. فتارة تدلّ على ذلك بعبارة واضحة، تحتّ على عمل خير مع بيان فضائله، أو تترجّع عن عمل شرّ مع ذكر مساوئه. وتارة تفيد ذلك بإشارة بعيدة أو قريبة. وذلك أن القرآن أنزل لهداية البشرية، من خلال الإيمان بالغيب، فالأحكام العملية في الغالب مصدّرة بخطاب المؤمنين بوصف الإيمان، ومختومة ببعض أسماء الله، التي فيها إشارة إلى الترغيب، أو الترهيب. والقصص والأمثال الواردة في القرآن مقصودها الاعتبار، والادّكار، اللذين هما بعض مسالك الترغيب والترهيب.

وهذا كلّه يستدعي دراسة شاملة لهذا النوع من الآيات، مع تحليل معانيها، والإفادة منها في تزكية النفوس، وتربيتها، وتثبيتها على الحقّ، ويستخلص من ذلك منهاج تربويّ، ونبراس دعويّ يستضيء به الدعاة، والمرشدون، والعاملون في حقل التربية والتعليم.

أسباب اختيار الموضوع:

نظراً لأهمية هذا الموضوع في الدعوة، وارتباطه الوثيق بالتربية تحمّست لمحاولة الكتابة فيه. هذا، ومن الأسباب التي دعتني إلى اختيار الموضوع ما يأتي:

^١ التحرير والتوير: ٣٩ / ١، واسمه الكامل: "تحرير المعنى السديد وتوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المحيد"، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط: الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤م.

^٢ ومن أشهر الكتب الحديثة، التي ألفت في هذا الموضوع على وجه الاستقلال: الترغيب: لأبي الحسن التميمي، نشر بن شميل الصري، ت: ٢٠٤هـ. والترغيب والترهيب لابن رنويه: حميد بن محمد بن قتيبة الأردني. ت: ٢٤٨هـ. والترغيب والترهيب: لقوام السفة، أبي القاسم. إسماعيل بن محمد الأصهباني. ت: ٥٣٥هـ. والترغيب والترهيب: للحافظ محمد بن أبي بكر، أبو موسى المديني، الأصهباني. ت: ٥٨١هـ. والترغيب والترهيب: للحافظ، ركي الدين، أبي محمد: عبد العظيم بن عبد القوي المدرني. ت: ٦٥٦هـ. انظر: كشف الطوب عن أسامي الكتب والفنون: ٤٠١/١، لحاجي خليفة، ط: مكتبة المثنى - بغداد، ١٩٤١م.

أولاً: ارتباط الموضوع بكتاب الله عزّ وجل بشكل مباشر، مما يبعث الباحث على التأمل والتفكير في آيات الذكر الحكيم، ومن ثمّ يترتب على أن يكون متعظاً بوعده ووعيده، ومتفعلاً بالعمل بأحكامه، والتحلّي بآدابه وأخلاقه، والتخلّي عن مناهيه وزواجره.

ثانياً: الترغيب والترهيب هما الركيزة الأولى في الدعوة إلى الله، وتربية الأمة على الأخلاق الفاضلة وتزكيتهم من الأخلاق الرذيلة.

ثالثاً: استخلاص الفوائد، والمناهج التربوية، النافعة للفرد والمجتمع - بإذن الله تعالى - من خلال دراسة آيات الترغيب والترهيب، التي تشغل مساحة واسعة في القرآن الحكيم، وهذا يقتضي تتبعها وإفرادها بالبحث والكتابة.

رابعاً: المشاركة في إتمام جهود علماء التفسير وعلوم القرآن في إبراز منهج القرآن في الترغيب والترهيب بدراسة مستقلة على ضوء الدراسات المنتشرة في ثنايا كتبهم.

خامساً: حاجة الأمة اليوم إلى أن يكون بين يدي معلّميها ومربيها ودعاةها منهج مستقلّ يرشدهم إلى منهج القرآن في التربية والتعليم.

سادساً: إعادة الثقة إلى الأمة بكمال منهجها القرآني في التربية وإصلاح الفرد والمجتمع، من خلال عرض أساليب الترغيب والترهيب في القرآن الكريم.

سابعاً: الموضوع لم يكتب فيه -حسبما توفر لي من مراجع- بالشكل الذي يستوعبه من جوانبه كلها، والبحوث التي عثرت عليها تناولت الجانب البلاغي، والجانب الأخروي.

أهداف البحث:

١. إبراز أسلوب القرآن اللغوي في عرض مبدء الترغيب والترهيب.
٢. إظهار أهمية الترغيب والترهيب في الدعوة والتربية
٣. بيان مواضع استخدام المفسرين الترغيب والترهيب في بيان معاني كتاب الله
٤. التعرّض لأهم أنواع الترغيب والترهيب الواردة في القرآن الكريم
٥. بيان أثر الترغيب والترهيب في إصلاح الفرد والمجتمع

إشكالية البحث

وتتمثل إشكالية البحث في الأسئلة التالية:

١. ما هو المنهج العام للقرآن الكريم في مبدء الترغيب والترهيب؟

٢. ما هو أثر الترغيب والترهيب القرآني في إصلاح الفرد والمجتمع؟
٣. ما هي الأساليب اللغوية المستعملة في القرآن الكريم للترغيب والترهيب؟
٤. كيف دلت أسماء الله وصفاته الواردة في القرآن على الترغيب والترهيب؟
٥. ما هي أنواع الترغيب والترهيب، التي اشتمل عليها القرآن الكريم؟

الدراسات السابقة في الموضوع:

لم أعثر على دراسة شاملة للموضوع فيما اطلعت عليه، إلا أنه يوجد بعض البحوث التي تناولت بعض الزوايا من الموضوع، وفيما يلي إشارة إلى ما وصلني منها:

١- نصوص الترغيب والترهيب في القرآن الحكيم من وجهة بلاغية: إعداد الطالب/ يوسف عبد الله الأنصاري، وهو بحث تقدم به الطالب للحصول على درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد، من كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ١٤١٣هـ. وتناول الباحث في فصول الدراسة نصوصا كثيرة للترغيب والترهيب في القرآن بالدراسة، مبينا ما حوته من أسرار البلاغة وروائع البيان في نظم القرآن.

٢- أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن الكريم: وهي رسالة ماجستير للباحث/ طه عبد الرحيم عبد الله، قسم البلاغة والنقد - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر - أسيوط، ١٩٨٦م. ولم أتمكن من الاطلاع على فصول البحث، إلا أن الظاهر من عنوان الرسالة، والقسم الذي كان الباحث منتسبا إليه أنه تناول الناحية البلاغية لنصوص الترغيب والترهيب.

٣- طرق القرآن في الترغيب والترهيب: وهو بحث تكميلي، تقدم به الطالب/ زاهر بن سيف الفرعي لنيل درجة الماجستير في علوم الوحي والتراث - قسم الحديث والقرآن - الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا، ٢٠٠٤م. وقد عثرت على مقدمة البحث المشتملة على الخطة أثناء كتابتي للبحث. وعلمت من ذلك أن الباحث ركز على دراسة أساليب القرآن في الترغيب في نعيم الآخرة، والترهيب من عذابها، من خلال بيان ألوان النعيم والعذاب الأخرويين. أما هذا البحث فيتناول معظم أنواع الترغيب والترهيب في القرآن بما في ذلك الأخروي، والدنيوي، والمستفاد منه بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، كالمستنتج من أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، وقصص الرسل وأممهم من قبلنا. ولكل باحث طريقة تناوله وعرضه وأهدافه والله أعلم بالصواب.

منهج البحث:

وإني إذ أكتب هذا البحث سوف أتبع المنهج الاستقرائي الذي يقوم على تتبع الآيات المتعلقة بالموضوع، وتصنيفها حسب دلالاتها، مستعينا بالمنهج الاستنباطي الذي يقوم على استنباط الفوائد والأحكام من الآيات، الدالة على الترغيب والترهيب، كما أستخدم المنهج التحليلي في ذكر النتائج وتطبيقها في الحياة الواقعية للإنسان، وعلى هذا أتبع الخطوات التالية:

- ١- عزو الآيات إلى الكتاب العزيز، بذكر اسم السورة، ورقم الآية.
- ٢- تخريج الأحاديث الواردة في البحث وتوثيقها، بذكر المصدر الأصلي، والجزء، والصفحة، وتعيين الكتاب والباب إن وجد، بالإضافة إلى بيان درجة الحديث ما لم يكن في الصحيحين، من خلال نقل كلام المحدثين، أو المحققين في الحكم على الحديث.
- ٣- تعريف المصطلحات العلمية، وشرح الكلمات الغريبة، والعبارات الغامضة.
- ٤- ترجمة الأعلام، الواردة أسماءهم في صلب البحث غير الصحابة الكرام استغناء بشهرتهم، وعدم الحاجة إلى تعديلهم.
- ٥- توثيق المعلومات والمقتبسات بنسبتها إلى مراجعها الأصلية، فإن أخذتُ بنصّها وضعتها بين علامتي التنصيص، وإن تصرفت فيها بإضافة أو حذف أو اختصار أو أدّيت المعنى بغير ألفاظ المصنّف، وثّقْتُها بكلمة: "انظر" قبل ذكر المصدر والصفحة في الهامش.

خطة البحث:

هذا وقسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد و باين وخاتمة كالتالي:

- **المقدمة** وفيها: أهمية الموضوع وأسباب اختياري له، ومشكلة البحث، والدراسات السابقة في الموضوع، ومنهجي في كتابة البحث، وذكر خطة البحث.
- **التمهيد** وفيه: بيان معاني الترغيب والترهيب في اللغة والاصطلاح، وأهميتهما في الدين.
- **الباب الأول:** أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن، وموقف المفسرين منه. وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الأسلوب اللغوي للقرآن الكريم في الترغيب والترهيب، ويتضمّن مبحثين.

الفصل الثاني: أسلوب الترغيب والترهيب للقرآن في الدعوة والتربية. ويشتمل على ثلاثة مباحث.

الفصل الثالث: موقف المفسرين من أسلوب القرآن في الترغيب والترهيب. وفيه مبحثان.
➤ **الباب الثاني:** أنواع الترغيب والترهيب في القرآن الكريم وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع، وفيه خمسة فصول.

الفصل الأول: الترغيب والترهيب بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، ويشمل أربعة مباحث.
الفصل الثاني: الترغيب والترهيب بأحوال القبر والموت والقيامة ومصير العباد، ويتضمن أربعة مباحث.

الفصل الثالث: الترغيب والترهيب بذكر أحوال الأمم السابقة، وفيه ثلاثة مباحث.
الفصل الرابع: الترغيب في الطاعات والترهيب من المعاصي، وفيه خمسة مباحث.
الفصل الخامس: أثر الترغيب والترهيب في إصلاح الفرد والمجتمع، ويشتمل على خمسة مباحث.

الخاتمة: فيها ذكر لأهم نتائج البحث، والتوصيات.
وفي الختام أشكر الله تعالى وأحمده على ما يسّر وأعان على إتمام البحث، سائلا أن يجعله صالحا، ولوجهه خالصا. كما أشكر بعد ذلك الجامعة الإسلامية، بإسلام أباد، ممثلة في كلية أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن، والتي أتاحت لي هذه الفرصة في مواصلة الدراسة فيها. وأتوجه أيضا بالشكر إلى فضيلة الشيخ الدكتور محمد سليم شاه - حفظه الله تعالى - الأستاذ المشارك، ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن سابقا، والذي تفضل بقبول الإشراف عليّ في هذا البحث، فله الشكر والامتنان على ما بذل من جهد ووقت، ونصح وتوجيه، سائلا المولى عزّ وجل أن يجعل ذلك في ميزان حسناته. وأشكر كذلك جميع من ساعدني وأفادني من الأساتذة والزملاء، وكلّ من ساهم وأعان من أهل بيتي وغيرهم، راغبا إلى الله تعالى أن يجزل ثوبتهم، ويدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة. وبعد فهذا جهد المقلّ وأستغفر الله وأتوب إليه من الزلل والتقصير، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلّم.

عبد الرشيد حيدر (أحمد) (إسلام أباد) - باكستان

٢/٥/١٤٣٦ هـ، الموافق ١٣/٣/٢٠١٥ م.

التمهيد

ويشتمل على المطالب التالية:

١ - بيان معنى الترغيب لغة واصطلاحاً

٢ - بيان معنى الترهيب لغة واصطلاحاً

٣ - بيان أهمية الترغيب والترهيب

المطلب الأول: بيان معنى الترغيب لغة واصطلاحاً

الترغيب لغة:

الترغيب مصدر للفعل الرباعي المزيد بتضعيف العين، وأصله الفعل الثلاثي المحرد: رَغِبَ. ولهذه المادة (الراء والغين والباء) معنيان:

الأول: الإرادة والطلب والحرص على الشيء، ويأتي على وزن (فَعَلَ) بكسر العين، فيقال: "رَغِبَ في الشيء رَغْباً ورَغْبَةً ورَغْبِي على قياس سَكَّرَى ورَغْباً بالتحريك: أرادته فهو رَاغِبٌ"^(١). وهذا المعنى يضطرر إذا كان الفعل متعدياً بحرف الجرّ "في". وأما إذا كان الفعل متعدياً بحرف الجرّ "إلى" فيكون بمعنى السؤال والضراعة^(٢)، كما ورد في التثنية: "وإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ"^(٣) أي "بالسؤال ولا تسأل غيره فإنه القادر على إسعافك لا غيره"^(٤). وإذا كان متعدياً بحرف الجرّ "عن" فيدلّ على عدم الإرادة للشئ وتتركه عمداً والزهد فيه^(٥).

الثاني: السعة والكثرة. ويأتي على وزن: (فَعَلَ) بضم العين، فيقال: رَغِبَ رُغْباً ورُغْبَةً ورَغَابَةً: اتسع وعظم فهو رَغِيبٌ وهي رَغِيبَةٌ، ورُغِبَ البطن: كثرة الأكل^(٦). ويقال في العطاء الكثير: رَغِيبَةٌ^(٧)، وللرجل الواسع الجوف الكثير الأكل: رَغِيبٌ، وكذا الوادي الواسع، الكثير الأخذ للماء، ويقال أيضاً للحوض الواسع وللسقاء: رَغِيب. ويقال للطريق الواسع: رَغِيبٌ، ويقال: تراغب المكان إذا اتسع وكل ما اتسع فقد رَغِبَ^(٨).

^١ لسان العرب: ٤٢٣/١، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط: الثالثة، دار صادر - بيروت، ١٤١٤هـ.

^٢ انظر: تاج العروس من جواهر القاموس ٥٠٨/٢، لمرتضى الزبيدي، الناشر دار الهداية.

^٣ سورة الشرح: ٨

^٤ تفسير أبي السعود: ١٧٣/٩.

^٥ انظر تاج العروس: ٥٠٨/٢

^٦ انظر: لسان العرب لابن منظور: ٤٢٣/١، وانظر أيضاً: المعجم الوسيط: ٣٥٦/١، المؤلفون: إبراهيم مصطفى، أحمد الريات، حامد عد القادر، محمد الحار، ط: دار الدعوة تحقيق: مجمع اللغة العربية، القاهرة.

^٧ انظر: تاج اللغة وصحاح العربية: ١٣٧/١، لإسماعيل بن حماد الجوهري، ط: الرابعة، دار العلم للملايين - بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

^٨ انظر: لسان العرب لابن منظور: ٤٢٣/١ وما بعدها.

وجعل الإمام الراغب الأصفهاني^(١) الأصل في معنى الرغبة: السعة في الشيء، كما جعل دلالة الرغبة على الطلب والإرادة مأخوذاً من المعنى الأصلي الذي هو السعة، وفي هذا يقول: "أصل الرغبة السعة في الشيء، يقال رَغِبَ الشيء اتسع وحوض رَغِيب، وفلان رَغِيب الخوف وفرس رَغِيب العدو. والرغبة والرَغَبُ والرَغْيُ: السعة في الإرادة قال تعالى: (وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا)^(٢)، فإذا قيل رَغِبَ فيه وإليه يقتضى الحرص عليه، قال تعالى: "إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ"^(٣) وإذا قيل رَغِبَ عنه اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه، نحو قوله تعالى: (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ)^(٤)، (أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي)^(٥) والرغبة العطاء الكثير، إما لكونه مرغوباً فيه فتكون مشتقة من الرغبة، وإما لسعته فتكون مشتقة من الرغبة بالأصل"^(٦).

أما الإمام أحمد ابن فارس^(٧)، فجعل مادة رغب تدلّ على المعين بطريق الأصالة، وفي هذا يقول: "الراء والغين والباء أصلان: أحدهما طلبٌ لشيء والآخر سعةٌ في شيء. فالأوّل الرَغْبَةُ في الشيء: الإرادة له. رَغِبْتُ في الشيء. فإذا لم تُرْده قلتَ رَغِبْتُ عنه. ويقال من الرَغْبَةِ: رَغِبَ يَرْغَبُ رَغْبًا ورُغْبًا ورَغْبَةً ورَغْبِي مثل شكوى. والآخر الشيء الرَغِيب: الواسع الجوف. يقال حوضٌ رَغِيب، وسقاءٌ رَغِيب. ويقال فرسٌ رَغِيب الشَّحْوَةِ. والرَغِيبَةُ: العطاء الكثير"^(٨). ويبدو أنّ هذا هو الأقرب للصواب، حيث إن الصيغة: رَغِبَ بكسر العين وردت بمعنى الإرادة والطلب،

^١ الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني أو الأصمعي المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء، من أهل أصبهان، سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام العراقي. له التفسير الكبير في عشرة أسفار غاية في التحقيق، وله معجمات القرآن لا نظير له في معناه، وله الدرعية إلى أسرار الشريعة. توفي عام: ٥٠٢ هـ. انظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص: ١٢٢، لحد الدين محمد بن يعقوب العمري وأنادي، ط: الأولى، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م. والأعلام للزركلي: ٢/٢٥٥.

^٢ سورة الأنبياء: ٩٠

^٣ سورة التوبة: ٥٩

^٤ سورة البقرة: ١٢٠

^٥ سورة مريم: ٤٦

^٦ المعجمات في غريب القرآن: ٢٦٢/١ - ٢٦٣، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ط: الأولى، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، ١٤١٢ هـ. تحقيق: صفوان عدنان الداودي.

^٧ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن محمد بن حبيب الرازي اللعوي، كان إماماً في علوم شتى، وخصوصاً اللغة فإنه أنقها، وألف كتابه المحمل في اللغة، وهو على اختصاره جمع شياً كثيراً، وله كتاب حلية الفقهاء، وله رسائل أفيقة، ومسائل في اللغة... توفي سنة تسعين وثلثمائة. انظر: وفيات الأعيان وأساء أساء الزمان ١/ ١١٨، وما بعدها، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن حلكان، ط: الأولى، دار صادر - بيروت، ١٩٩٤ م. بتحقيق إحسان عباس.

^٨ معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٤١٥ - ٤١٦، لأبي الحسين أحمد بن فارس، ط: دار الفكر، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م. تحقيق عبد السلام هارون.

كما أن الصيغة: رَغِبَ بضم العين وردت بمعنى السعة والكثرة، والله أعلم، كما يقول الإمام الجوهري^(١): "رَغِبْتُ فِي الشَّيْءِ، إِذَا أَرَدْتَهُ، رَغْبَةً وَرَغْبًا بِالتَّحْرِيكِ"^(٢). ويقول الإمام ابن منظور^(٣): "رَغِبَ رُغْبًا وَرُغْبًا: وَكَلَّ مَا اتَّسَعَ فَقَدِ رَغِبَ رُغْبًا"^(٤).

والترغيب من باب التفعيل مصدر للفعل الرباعي، المزيد بالتضعيف. والتضعيف والهمزة في الغالب يجعلان الفعل اللازم متعدياً^(٥)، فيكون معناه: أوجد الرغبة في غيره، فجعله يَرُغِبُ في الشيء. كما يقول ابن منظور: "وَأَرُغِبْنِي فِي الشَّيْءِ وَرُغِبْنِي بِمَعْنَى وَرَغَبَهُ أَعْطَاهُ مَا رَغِبَ"^(٦). وفي تاج العروس: "وَأَرُغِبَ فِي الشَّيْءِ غَيْرَهُ وَرُغِبَ إِلَيْهِ وَرُغِبَ تَرْغِيًا: أَعْطَاهُ مَا رَغِبَ"^(٧). والمشهور في الاستعمال التفعيل، أي: الترغيب، دون الإفعال، أي: الإرغاب.

الترغيب اصطلاحاً:

هو الأسلوب الدعويّ، المشتغل على موعودات آجلة، أو عاجلة، تشوّق المدعوين إلى القيام بعمل ما ابتغاء وجه الله. قال الأستاذ عبد الكريم الزيدان^(٨): "نقصد بالترغيب: كل ما يشوّق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه"^(٩). وقال الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي^(١٠):

^١ إمام اللغة، أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي، مصنف كتاب الصحاح، وأحد من بصرت به المثل في صسط اللغة، وفي الخط المسروب، وكان يحب الأسعار والتعرب، دخل بلاد ربيعة ومضر في تطلب لسان العرب. مات الجوهري متردياً من سطوح داره بيسانور، في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة. انظر: سير أعلام السلاء ٨٠/١٧-٨٢، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ط: الثالثة، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٩٨٥م.

^٢ صحاح الجوهري: ١/١٣٧

^٣ محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، صاحب لسان العرب: الإمام اللعوي الحجة. ولد بمصر وحدهم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي القضاء في طرابلس. وعاد إلى مصر فتوفي فيها عام ٧١١هـ. وقد ترك خطه نحو خمسمائة مجلد، وعمي في آخر عمره. انظر الأعلام للزركلي: ١٠٨/٧

^٤ لسان العرب لابن منظور: ١/٤٢٤

^٥ انظر: المفاتيح في الصرف، ص: ٤٩، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، ط: الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.

^٦ لسان العرب: ١/٤٢٢

^٧ تاج العروس: ٥٠٩/٢

^٨ د. عبد الكريم زيدان ولد في عام ١٩١٧م بعباد، وهو المراقب العام السابق لجماعة الإخوان المسلمين في العراق، وأحد علماء أهل السنة في العراق. كان أستاذ الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق بجامعة بغداد، وأستاذ الشريعة الإسلامية جامعة صغاء، وأستاذ الفقه وأصوله بجامعة الإيمان بصغاء. ومن مؤلفاته: المعصل في أحكام المرأة وبيت المسلم في الشريعة الإسلامية، والوحي في أصول الفقه، وأصول الدعوة، وغيرها كثيرة. توفي عام ١٤٣٥هـ - الموافق ٢٠١٤م. انظر: الموسوعة الحرة في الشبكة العنكبوتية، <http://ar.wikipedia.org>

^٩ أصول الدعوة، ص: ٤٣٧، لعبد الكريم زيدان، ط: التاسعة، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

^{١٠} عبد الرحمن النحلاوي، من مواليد دمشق، عام ١٩٢٧م، متخصص في الفلسفة والتربية، عمل في جامعة دمشق، وجامعة الإمام محمد بن سعود، ومكتب التربية لدول الخليج، ومن مؤلفاته: التربية الإسلامية، والمشكلات المعاصرة، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، التربية الاجتماعية في

في التعريف به: "وعد يصحبه تحبيب وإغراء، بمصلحة أو لذة أو متعة آجلة... خالصة من الشوائب، مقابل القيام بعمل صالح، أو الامتناع عن لذة ضارة أو عمل سيئ ابتغاء مرضاة الله"^(١). الشارح الحكيم خبير بكوامن النفس البشرية في حرصها دائماً على المنافع العاجلة والآجلة، واجتهادها في السعي على تحصيل المطالب المرغوبة، فاستعمل هذا الأسلوب لتحريض الإنسان على الأعمال الصالحة، التي تتيح له الفوز في الحياة الدنيا، وتحلّ مشاكله المتنوعة فيها، كما تؤدّي إلى الراحة الأبدية، والنعيم المقيم في الحياة الأخروية، مبيناً في كتابه العزيز تفاصيل النتائج المترتبة على تلك الأعمال في العاجل، والآجل.

وقال أبو الوليد الباجي^(٢) في إيضاح معنى الترغيب: "معنى الترغيب في الجهاد الإعلام بعظيم ثوابه وجزيل أجره ليرغب الناس فيه. وأكثر ما يوصف بالرغائب ما قصر عن رتبة الوجوب؛ لأن العمل إنما يوصف بأتم أحواله، إلا أنه لم يقصد ههنا للوصف له بوجوب ولا غيره، وإنما قصد الحض على فعله بالإخبار عن جزيل ثوابه"^(٣). وأساليب الترغيب وأنواعها كثيرة في نصوص القرآن الكريم، سأذكر طرفاً منها في هذا البحث إن شاء الله تعالى.

موارد "رغب" في القرآن الكريم:

وردت هذه المادة في القرآن الكريم على صيغ متنوعة، وتصاريف مختلفة، سأذكر فيما يلي مواضع ورودها في الكتاب العزيز، مبيناً المعاني التي دلّت عليها في كلّ آية:

١- اسم الفاعل من الثلاثي المجرد: رَاغِب. ورد ذلك في ثلاث مواضع من القرآن. الأول: قوله تعالى: (قَالَ أَرَأِغِبْ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)^(٤). ومعناه

الإسلام، سلسلة أعلام التربية في تاريخ الإسلام. توفي عام: ٢٠٠١م. انظر: كلمة الناشر لكتابه: التربية الاجتماعية في الإسلام، ص: ١٤، ط: الأولى، دار العكر - دمشق، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

^١ أصول التربية الإسلامية، ص: ٢٣٠، لعد الرحمن الحللوي، ط: الخامسة والعشرون، دار العكر - بيروت، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

^٢ أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف بن سعد الإمام، العلامة، الحافظ، ذو العيون، القاضي، الأندلسي، القرطبي، الباجي. برر في أحدث والفقه والكلام والأصول والأدب. وصف التصانيف الفيسية، التي منها: كتاب المتقى في الفقه، وكتاب المعاني في شرح الموطأ، والاستيعاء، والإيماء في الفقه خمس مجلدات، ومختصر المحتصر في مسائل المدونة، وكتاب في الحرج والتعديل، وكتاب التيسيد إلى معرفة التوحيد، وكتاب الإشارة في أصول الفقه، وكتاب إحكام الفصول في أحكام الأصول، وكتاب الحدود، وكتاب شرح المهاج. مات أبو الوليد بالمدينة في تاسع عشر رجب، سنة أربع وسبعين وأربع مائة. انظر: سير أعلام السلاء للدهي ١٨ / ٥٣٥، وما بعدها.

^٣ المتقى شرح الموطأ: ١٥٩/٣، لأبي الوليد الباجي، ط: الأولى، مطبعة السعادة - نواير محافظة مصر، ١٣٣٢ هـ.

^٤ سورة مريم: ٤٦

في هذا الموضع: صرف الرغبة عن الآلهة والزهد فيها^(١). والثاني: قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)^(٢). أي: "متضرعون في جلب منافعنا، ودفع مضارنا"^(٣). والثالث: قوله تعالى: (عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ)^(٤). أي: "طالبون بإصالح الخير إلينا منه"^(٥).

٢- مصدر الفعل الثلاثي المجرد: رَغِبًا، وذلك في موضع واحد من القرآن وهو قوله تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)^(٦). أي: "أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله"^(٧).

٣- فعل الأمر من الثلاثي المجرد: ارْغَبْ، وهذا ورد في موضع واحد من القرآن في قوله تعالى: (وَالِي رَبِّكَ فَارْغَبْ)^(٨). أي: "بالسؤال ولا تسأل غيره فإنه القادر وحده على إسعافك"^(٩).

٤- فعل المضارع من الثلاثي المجرد: يَرْغَبْ، وقد ورد في مواضع ثلاثة من القرآن، الأول: قوله تعالى: (وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ)^(١٠). ولما كان الفعل في هذا الموضع خاليا من التعدية بحرف جرّ احتمل المعنيين، الرغبة في النكاح، أو الرغبة عنه، كما قال أبو عبيدة^(١١): "هذا اللفظ يحتمل الرغبة والنفرة، فالمعنى في الرغبة: في أن تنكحوهن لماهن أو لجمالهن،

^١ انظر: معجمات الرابع، ص: ٣٥٨

^٢ سورة التوبة: ٥٩

^٣ تفسير الكرم الرحمن في تفسير كلام المباح، ص: ٣٤١، وهو المسمى بـ "تفسير السعدي" لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط: الأولى، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م.

^٤ سورة القلم: ٣٢

^٥ البحر المحيط في التفسير: ٢٤٤/١٠، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، ط: دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠ هـ، تحقيق صدقي محمد.

^٦ سورة الأنبياء: ٩٠

^٧ تفسير الطبري: ٥٢١/١٨، المسمى بـ "جامع البيان في تأويل القرآن" لمحمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري، ط: الأولى، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

^٨ سورة الشرح: ٨

^٩ تفسير البصاوي: ٣٢٢/٥، المسمى بـ "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" لمناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي البصاوي. ط: الأولى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤١٨ هـ. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي.

^{١٠} سورة النساء: ١٢٧

^{١١} الإمام، العلامة، البحر، أبو عبيدة معمر بن المنثي التيمي مولاها، المصري، الحوي، صاحب التصانيف. قال الذهبي: "قد كان هذا المرء من بحور العلم، ومع ذلك فلم يكن بالماهر بكتاب الله، ولا العارف بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا البصير بالفقه واختلاف أئمة الاجتهاد، بل، وكان معافى من معرفة حكمة الأوائل، والمطلق، وأقسام الفلسفة، وله نظر في العقول". ومن مؤلفاته: محار القرآن، وكتاب غريب الحديث، مات سنة تسع ومائتين. انظر: سير أعلام السلاء للذهبي ٤٤٥/٩، وما بعدها.

والنفرة: وترغبون عن أن تنكحوهن لقبحهن فتمسكوهن رغبة في أموالهن^(١). والثاني: قوله تعالى: (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)^(٢). والمعنى: "وأَيُّ الناس يزهد في ملة إبراهيم، ويتركها رغبة عنها إلى غيرها"^(٣). والثالث: قوله تعالى: (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)^(٤). ومعنى الرغبة عن نفسه: عدم الحرص على سلامتها، كما يقول الطاهر بن عاشور: "أريد برغبتهم عن نفسه محبتهم أنفسهم وحرصهم على سلامتها دون الحرص على سلامة نفس الرسول، فكأنهم رغبوا عن نفسه إذ لم يخرجوا معه"^(٥). وبهذا يتبين أن هذه المادة وردت في القرآن الكريم ثماني مرّات^(٦)، على صيغ مختلفة، ومعانٍ متعدّدة، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

^١ البحر المحيط لأبي حيان: ٨٤/٤

^٢ سورة القرة: ١٣٠

^٣ تفسير الطبري: ٨٩/٣

^٤ سورة التوبة: ١٢٠

^٥ التحرير والتنوير لاس عاشور: ٥٦/١١

^٦ انظر: المعجم المفسر لألفاظ القرآن الكريم، ص: ٣٢٢، محمد فؤاد عبد الباقي، ط: الثانية، دار الحديث - القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

المطلب الثاني: بيان معنى الترهيب لغة واصطلاحاً

الترهيب لغة:

الترهيب لغة: هو مصدر للفعل الرباعي، المزيد بالتضعيف "رَهَبَ"، والذي كان أصله الثلاثي: "رَهَبَ"، كعلم وفرح. ولهذه المادة (الراء والهاء والباء) أصلان^(١):

أحدهما: يدلّ على مخافة مع تحرّز واضطراب، كما قال تعالى: (وَأَيُّيَ فَارْهُبُونَ^(٢)) أي فخافون. يقال: رَهَبَ يَرْهَبُ رَهَبَةً وَرَهَبًا وَرُهْبًا وَرُهْبًا بِالَّتَحْرِيكِ، أي: خاف. وَرَهَبَهُ رَهَبًا: خافه. والاسم: الرُّهْبُ بالضم، والرَّهْبِيُّ بالفتح ويضمُّ، ويمدّان أي الرَّهْبَاءُ والرُّهْبَاءُ^(٣). ويظهر من سياق اللغويين لمعنى الثلاثي المجرد من هذا الفعل أنّه يرد تارة على اللزوم من غير احتياج إلى مفعول به، فيقال: رَهَبَ فلان، أي: خاف، وتارة يتعدّى إلى مفعول به، فيقال: رَهَبَهُ، أي: خاف غيره. ويقال عند زيادة الفعل ببعض الزيادات: "أَرْهَبُهُ واسترْهَبُهُ: أخافه، وتَرَهَّبُهُ: توعدّه"^(٤). ويقال: "تَرَهَّبَ الرَّجُلُ إذا صار رَاهِبًا يخشى الله تعالى"^(٥).

والثاني: يدلّ على الدقّة والخفّة^(٦)، فالرَّهْبُ: الناقة المهزولة جداً، وكذا الضامر من الإبل، كما يقال للسهم الرقيق: رَهَبٌ، والرَّهَابَةُ كالسحابة: عظم صغير في الصدر مشرف على البطن^(٧). والمعنى الأول هو الذي يتناسب مع المعنى الاصطلاحي للترهيب.

والتَّرهيب: مصدر قياسيّ من: رَهَبَ ترهيباً، وهذه الصيغة لم أجدها - حسب اطلاعي - في معظم كتب اللغويين القدامى للدلالة على التخويف، وإنّما وجدتها تأتي لمعنى لازم كما أثر من قول العرب: "رَهَبَ الجمل: نهض ثم برك من ضعف بصلبه"^(٨). وكذا قولهم: "رَهَبَتْ ناقة فلان، فقعد عليها يحايها"^(٩): أي جهدها السير فعلفها، وأحسن إليها حتى ثابت إليها نفسها"^(١٠). وأما

^١ انظر: معجم مقاييس اللغة لاس فارس ٢/ ٤٤٧

^٢ النقرة: ٤٠

^٣ انظر: معجمات الراء: ٣٦٧/١، و تاج العروس من حواهر القاموس: ٥٣٧/٢

^٤ القاموس المحيط: ١٩٢/١، محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ط: الثامنة، مؤسسة الرسالة، بيروت-لسان، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥ م.

^٥ تاج العروس من حواهر القاموس: ٥٣٨/٢

^٦ انظر: معجم مقاييس اللغة لاس فارس ٢/ ٤٤٧

^٧ انظر: المصدر السابق: ٥٣٨-٥٣٩

^٨ تاج العروس من حواهر القاموس: ٥٣٨/٢

^٩ من حايا الصبي: عدّاه، وحايا فلانا: نعت فيه الحياة. انظر: المعجم الوسيط ٢١٣/١

دلالتها على معني التخويف والتفزع فقد جاءت في إحدى القراءات العشر لقوله تعالى: (تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)^(٢). كما قرأ بذلك رويس^(٣) عن يعقوب^(٤)، وكفى بها حجة. وفي هذا يقول الإمام الأزهري^(٥): "قرأ يعقوب: تُرْهِبُونَ، بفتح الراء وتشديد الهاء، وقرأ الباقر: تُرْهِبُونَ بسكون الراء"، ثم قال: "المعنى واحد في تُرْهِبُونَ و تُرْهِبُونَ"^(٦). وقد أورد ابن منظور صيغة الترهيب، الدالة على التخويف في لسان العرب، قائلا: "وَأَرْهَبَهُ وَرَهَبَهُ وَاسْتَرْهَبَهُ: أَخَافَهُ وَفَزَعَهُ"^(٧). والجدير بالذكر أن معظم اللغويين أوردوا صيغتي الإرهاب، والاسترهاب فقط، للدلالة على الإخافة والتفزع. كما جاء في صحاح الجوهري: "أَرْهَبَهُ وَاسْتَرْهَبَهُ، إِذَا أَخَافَهُ"^(٨)، وتاج العروس: "وَأَرْهَبَهُ وَاسْتَرْهَبَهُ ؛ أَخَافَهُ وَفَزَعَهُ"^(٩). وعلى هذا فالترهيب مصدر ثابت قياسا ولغة؛ للدلالة على تخويف الغير، وإيصال الرهبة إلى قلبه، والله أعلم.

^١ تهذيب اللغة للأزهري: ١٥٧/٦، أبي مصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، ط: الأولى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ٢٠٠١م. تحقيق: محمد عوض مرعب.

^٢ سورة الأنفال: ٦٠.

^٣ محمد بن المتوكل، أبو عبد الله اللؤلؤي المقرئ، صاحب يعقوب الخضرمي وتلميذه، المعروف برويس، حادق ضابط مشهور. أحد القراء عن يعقوب الخضرمي. توفي بالبصرة سنة ثمان وثلاثين ومائتين. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ٩٢٩/٥، واسمه الكامل: "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"، لمحمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ط: الأولى، دار العرب الإسلامي، ٢٠٠٣ م. التحقيق: الدكتور بنشار عواد معروف. وهداية القاري إلى تحويد كلام الباري ٧١٩/٢، لعبد العناح بن السيد عجمي المرصفي المصري الشافعي، ط: الثانية، مكتبة طيبة، المدينة المنورة.

^٤ أبو محمد يعقوب بن إسحاق الخضرمي بالولاء، البصري المقرئ المشهور، وهو أحد القراء العشرة، وهو المقرئ الثامن وله في القراءات رواية مشهورة منقولة عنه، وهو من أهل بيت العلم بالقراءات والعربية وكلام العرب والروايات الكثيرة للحروف والفقه. وتوفي سنة خمس مائتين. انظر: وفيات الأعيان ٣٩٠/٦-٣٩١.

^٥ محمد بن أحمد بن الأهر بن طلحة، أبو مصور الأزهري، الهروي. كان إماما في اللغة، بصيرا بالفقه، عارفا بالمدح الشافعي، كثير العبادة والمراقبة، شديد الانتصار لألفاظ الشافعي. وله كتاب تهذيب اللغة المشهور، وكتاب التفسير، وكتاب تفسير ألفاظ المري، ومعاني القراءات، وكتاب الروح، وكتاب الأسماء الحسنى، و شرح ديوان أبي تمام، و تفسير إصلاح المنطق. مات: سنة سبعين وثلاث مائة. انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٦٣/٣، لتاج الدين السبكي، ط: الثانية، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ. التحقيق: د. محمود محمد الطحاوي. وسير أعلام السلاء للذهبي: ٣١٦/١٦، وما بعدها.

^٦ معاني القراءات: ٤٤٣/١، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو مصور، ط: الأولى، مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م. وانظر كذلك: السمر في القراءات العشر ٢٧٧/٢، لشمس الدين أبو الخير ابن الحرري، محمد بن محمد بن يوسف، ط: المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية، التحقيق: علي محمد الضلع.

^٧ لسان العرب ٤٣٦ / ١

^٨ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ١ / ١٤٠

^٩ تاج العروس من جواهر القاموس: ٢ / ٥٣٨

الترهيب اصطلاحاً:

هو إيصال الرهبة في قلوب السامعين عن طريق ذكر الوعيد والتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف ذنب، أو تفريط في فريضة، أو عن طريق ذكر صفات العظمة الإلهية، وفي ذلك يقول الأستاذ عبد الكريم زيدان: "كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة، أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله"^(١). وقال الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي أيضاً: "وعيد، وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم، أو ذنب مما نهى الله عنه أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد من الله يقصد به تخويف عباده، وإظهار صفة من صفات الجبروت، والعظمة الإلهية، ليكونوا دائماً على حذر من ارتكاب المفوات والمعاصي"^(٢).

ولما كان الإنسان مجبولا على كراهية ما يضره في العاجل والآجل استعمل الباري جلّ وعلا سوط التخويف والترهيب في محكم تنزيله ليقوم أعوجاج الإنسان، ويحذره من مزالق الهلاك، حتى يبتعد عن انتهاك الحرمات خوفاً من العقاب والنكال، فصار هذا الأسلوب مع مقابله الترغيب من أنجع وسائل الدعوة للنفس البشرية عبر التاريخ وسير الأنبياء والمصلحين.

موارد "رهب" في القرآن الكريم:

وردت هذه المادة في القرآن الكريم على صيغ متنوعة وأبنية مختلفة، أذكرها فيما يلي على طريقة الحصر والاستقصاء، مشفوعة بمعانيها التي دلت عليها في كل آية.

١- مصدر الفعل الثلاثي المجرد: رَهَبٌ، وَرَهْبَةٌ، وَرَهَبًا، وَرَهْبَانِيَّةً، وذلك في مواضع أربعة من القرآن الكريم، فالأول: قوله تعالى: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)^(٣). أي: "من الخوف والفرق، الذي قد نالك من معايتك ما عاينت من هول الحية"^(٤). والثاني: قوله تعالى: (لَأَتْنُمُ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)^(٥). "الرهبة هي الخوف، والمعنى: أن

^١ أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان: ٤٣٧

^٢ أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي، ص: ٢٣١

^٣ سورة القصص: ٣٢

^٤ تفسير الطبري: ٥٧٥/١٩

^٥ سورة الحنتر: ١٣

المنافقين واليهود يخافون الناس أكثر مما يخافون الله^(١). والثالث: قوله تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)^(٢). "يعني رهبة منهم من عذابه وعقابه، بتركهم عبادته وركوبهم معصيته"^(٣). والرابع: قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا)^(٤). والمراد بالرهبانة في الآية: "المبالغة في العبادة بالرياضة، والانتقطاع عن الناس، ومعناها: الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، وهو الخائف، فعُلان من رَهَب كَخَشْيَانٍ مِنْ خَشْيٍ"^(٥).

٢- فعل المضارع من الثلاثي المجرد: يَرْهَبُونَ، وذلك في قوله تعالى: (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)^(٦). أي: "للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه"^(٧).

٣- فعل المضارع من الرباعي المزيد بالهمزة في أوله: تُرْهَبُونَ، وذلك في قوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)^(٨). أي: "تخيفون بإعدادكم ذلك عدوَّ الله وعدوكم من المشركين"^(٩).

٤- فعل الماضي المزيد بالهمزة والسين والتاء في أوله: اسْتَرْهَبَ، (قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ)^(١٠). أي: "حملوهم على أن يَرْهَبُوا"^(١١).

٥- فعل الأمر من الثلاثي المجرد، ورد ذلك في موضعين من القرآن الكريم. الأول: قوله تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ)^(١٢). قال البقاعي^(١٣): "أي: ولا تزلوا اجعلكم في

^١ تفسير ابن حزي: ٣٦١/٢-٣٦٢، المسمى بـ "التسهيل لعلوم التنزيل"، لأبي القاسم، محمد بن أحمد المعروف بناس حري العرناطي، ط: الأولى، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ١٤١٦ هـ، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي.

^٢ سورة الأنبياء: ٩٠.

^٣ تفسير الطبري: ٥٢١/١٨.

^٤ سورة الحديد: ٢٧.

^٥ تفسير أبي السعود: ٢١٣/٨.

^٦ سورة الأعراف: ١٥٤.

^٧ تفسير الطبري: ١٣٨/١٣.

^٨ سورة الأنفال: ٦٠.

^٩ تفسير الطبري: ٣١/١٤.

^{١٠} سورة الأعراف: ١١٦.

^{١١} مفردات الراغب، ص: ٣٦٧.

في مصير الكافرين بعد الضرب بأنواع الهوان في الدنيا، والرهب حذر النفس مما شأنها منه الهرب لأذى تتوقعه، وخطوبوا بالرهبة لاستبطانها فيما يختص لمخالفة العلم^(٣). والثاني: قوله تعالى: (إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِذَا يَ فَارَهُبُونَ)^(٤). أي: "خافوني وامثلوا أمري، واجتنبوا فھبي، من غير أن تشركوا بي شيئاً من المخلوقات، فإنَّها كلُّها لله تعالى مملوكة"^(٥).

٦- جمع التكسير: الرُّهْبَان. ورد ذلك في ثلاثة مواضع من القرآن، الأول: قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)^(٦). والثاني: قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)^(٧). والثالث: قوله تعالى: (اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)^(٨). يقول ابن عاشور: "والرُّهْبَان هنا جمع رَاهِب، مثل رَكْبَان جمع رَاكِب، وفُرْسَان جمع فَارِس، وهو غير مقيس في الوصف على فاعل. والرَّاهِب من النصارى: المنقطع في دير أو صومعة للعبادة"^(٩).

وعلى هذا، فقد وردت هذه المادّة في القرآن اثنتي عشرة مرّة^(١٠)، والله أعلم.

^١ سورة البقرة: ٤٠

^٢ الإمام برهان الدّين إبراهيم بن عمر بن حسن الرناط القاعلي الشافعي المحدث المفسّر الإمام العلامة المؤرّخ. وصّف تصانيف عديدة، من أحلّها «الملابسات القرآنية»، و«عنوان الزّمان تراجم التّيوح والأقوال»، و«تسبيح العبي تكبير عمر بن العارض وابن عربي»، وانتقد عليه بسب هذا التّأليف، وتناولته الألس، وكثر الرّدّ عليه، فمع رّدّ عليه العلامة السيوطي بكتابه «تسبيح العبي تنبئة ابن العربي». وبالجملة فقد كان من أعاجيب الدّهر وحسناته. وتوفي بدمشق في رجب عن ست وسعين سنة. انظر: شذرات الذهب لابن عماد: ٥٠٩/٩-٥١٠.

^٣ نظم الدرر: ٣١٥/١، المسمّى: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، لإبراهيم بن عمر القاعلي، ط: دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.

^٤ سورة البقرة: ٥١

^٥ تفسير السعدي، ص: ٤٤٢

^٦ سورة التوبة: ٣٤

^٧ سورة المائدة: ٨٢

^٨ سورة التوبة: ٣١

^٩ التحرير والتنوير لابن عاشور: ٧/٧

^{١٠} انظر: المعجم المهرس، ص: ٣٢٥

المطلب الثالث: بيان أهمية الترغيب والترهيب

لا تخفى أهمية الترغيب والترهيب في الدعوة إلى الله تعالى، وتربية المجتمع على الخير والفضيلة. فلقد استهدف القرآن الكريم في خطابه الدعوي النفس البشرية التي جبلت على حبّ الخير، والحرص على اجتلابه وتحصيله، إلى جانب كراهية الشرّ، والاجتهاد على دفعه والتوقّي منه، قصداً منه لإصلاحها وتربيتها على الأخلاق الفاضلة، وتركيتها من الأخلاق الذميمة، ودلالاتها على الحقّ، والثبات عليه. ومن هنا نجد القرآن الكريم مشحوناً بهذا الأسلوب في جميع سورته وآياته، كما أنّ السنّة النبوية زاخرة بالأحاديث المفيدة للترغيب والترهيب. ولما نزل القرآن المجيد لهداية البشرية جمعاء، فلا عجب أن كان هذا الأسلوب هو المرجّح على غيره من الأساليب، إذ هو العلاج المستمرّ لأمراض الإنسان، يستخدم عند أول وهلة في دعوته إلى الإسلام، ويستمرّ معه في حياته كلّها، للترقي به إلى المراتب العليّة، والدرجات السنيّة من مقامات الإيمان. وقد تابعت الرسل عليهم السلام والسلام في الاهتمام بهذا الأسلوب في دعوة أقوامهم إلى الله مبشرين ومنذرين؛ إذ القرآن الكريم حافل بتاريخ جهودهم الدعوية، ومعالجتهم لأقوامهم في التقويم والإصلاح، والهداية والإرشاد. وتظهر أهمية هذا الأسلوب مفصّلة في النقاط التالية:

أولاً: إنّ هذا الأسلوب من أهمّ مقاصد نزول القرآن، إذ كان من أعظم مهامّه التي نزل من أجل تحقيقها تذكير الناس برّبهم، وبمصالحهم الدنيوية والدنيوية، إلى جانب إنذارهم وتحذيرهم مما يسبّب لهم الشقاء وسوء العاقبة، حتى إذا تأثّرت قلوبهم، وتذكّروا أسرعوا إلى العمل بما يكفل لهم الفلاح والفوز في الدارين، وتجنّبوا ما يسبّب لهم الغبن والخسار في الدنيا والآخرة. وفي ذلك يقول الله عزّ وجلّ: **(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا. وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)**^(١). يقول الشيخ السعدي^(٢): "فالقرآن مشتمل على البشارة والندارة، وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة، وهو الإيمان والعمل

^١ سورة الإسراء: ٩-١٠

^٢ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي النعيمي: معسر، من علماء الحنابلة، من أهل نجد. مولده ووفاته في عبيدة، بالقصيم. من مؤلفاته: تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن، وتيسير النظيف المنان في خلاصة مقاصد القرآن، والقواعد الحسان في تفسير القرآن، و طريق الوصول إلى العلم المأمول من الأصول، والأدلة القواطع والراهن في إبطال أصول الملحدين، والقواعد والأصول الجامعة في أصول العقده، و التوضيح والبيان لمتحررة الإيمان. توفي: ١٣٧٦ هـ، ١٩٥٦ م. انظر: الأعلام للزركلي ٣/٣٤٠

الصالح، والتي تستحقّ بها النذارة وهو ضدّ ذلك"^(١). وقال تعالى أيضا: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا)^(٢). ومعنى الآية: أن الله سبحانه وتعالى يسّر ألفاظ القرآن ومعانيه، ليحصل المقصود منه والانتفاع به، حتى يبشّر النبي صلى الله عليه وسلم المتّقين بترغيبهم في الثواب العاجل والآجل، وينذر الأشداء في الباطل من أهل الكفر والإجرام بتحذيرهم من عاقبة تماديهم في الباطل من الجزاء السيء في الدنيا والآخرة^(٣).

ولاشتمال القرآن على التذكرة العامة للعباد أوجه متعدّدة، كما يقول الإمام ابن القيم^(٤): "... فإنه يذكرّ العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم، ويذكرّهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرّهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وحقوقه على عباده، ويذكرّهم بالخير ليقصّده وبالشّر ليحتنبوه، ويذكرّهم بنفوسهم وأحوالها وآفاتهما وما تكمل به، ويذكرّهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أيّ الأبواب والطرق يأتي إليهم، ... ويذكرّهم بأسه وشدة بطشه وانتقامه ممن عصى أمره وكذب رسله، ويذكرّهم بثوابه وعقابه"^(٥).

ومن أهمّ العلوم التي حواها القرآن الكريم علم التذكير، الذي هو الترغيب والترهيب، كما يقول الإمام أبو بكر بن العربي^(٦): "وأما علوم القرآن فثلاثة: توحيد وتذكير وأحكام، فالتوحيد يدخل فيه معرفة المخلوقات، ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله. والتذكير: منه الوعد والوعيد والجنة والنار وتصفية الظاهر والباطن. والأحكام منها: التكاليف كلها، وتبيين المنافع والمضار،

^١ تفسير السعدي: ٤٥٤

^٢ سورة مريم: ٩٧

^٣ انظر: تفسير السعدي: ٣١٢

^٤ محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الحوزية الحسلي. كان حرّئ الحاد، واسع العلم، عارفا بالخلاف ومذاهب السلف، وعلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل يتصرّ له في جميع ذلك، وهو الذي هدب كتبه ونشر علمه. وقال ابن كثير عنه: كان ملازما للاشتغال ليلا نهارا، كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق، كثير التودد، لا يحسد ولا يتعقد. وله من التصانيف المدي، وإعلام الموقعين، وندائع الفوائد، وطرق السعادت، وشرح مارل الساترين، وغيرها كثير. توفي في سنة: ٧٥١. انظر: الدرر الكامنة لاس حجر ١٣٧/٥ وما بعدها.

^٥ التبيان في أقسام القرآن، ص: ١٢٨ - ١٢٩، لاس قيم الحوزية، ط: دار المعرفة - بيروت، لسان، تحقيق: محمد حامد العقبي.

^٦ أبو بكر محمد بن عبد الله، المعروف بابن العربي الحافظ المشهور. رحل إلى المشرق، وأحد العلم عن علمائه، ثم عاد إلى الأندلس. وكان من أهل التفنن في العلوم، ثاقب الدهن في تغيير الصواب منها، ويجمع إلى ذلك آداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة، ولين الكف، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الود. واستقصي سلدة، فمع الله به أهلها لصرامته وشدة وعود أحكامه، ثم صرف عن القصاء، وأقل على نشر العلم ونه. توفي في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى. انظر: وفيات الأعيان لاس حلكا ٢٩٦/٤، وما بعدها.

والأمر والنهي والندب، ولذلك كانت الفاتحة أمّ القرآن؛ لأنّ فيها الأقسام الثلاثة، وسورة الإخلاص ثلثه؛ لاشتمالها على أحد الأقسام الثلاثة، وهو التوحيد^(١).

ثانياً: وما يظهر أهمية الترغيب والترهيب أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم استخدمه، كأهمّ وسيلة من وسائل الدعوة منذ أمره الله بالتبليغ عند بزوغ فجر الإسلام، فلم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم في العهد المكي سلطة على الناس ليدعوا للإسلام غير وسيلة الترغيب والترهيب، كما يقول ابن قيم: "أول ما أوحى إليه ربّه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربّه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ"^(٢) فنبأه بقوله: اقرأ، وأرسله بـ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، ثم أمره أن يُنذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ، ثم أنذر قومه، ثم أنذر مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضْعَ عشرة سنة بعد نبوته يُنذِرُ بالدعوة بغير قتال ولا جِزْيَةٍ، ويُؤمر بالكفّ والصبر والصّفح"^(٣).

ومن القصص التي توضّح مواقفه الدعوية مع قريش في استخدام الإنذار والترهيب ما رواه الصحابي الجليل عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لَمَّا نَزَلَتْ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)^(٤) صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: "يَا بَنِي فَهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: "أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيٍّ" قَالُوا: نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا قَالَ: "فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ" فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ الْهَذَا جَمَعْتَنَا فَنَزَلَتْ (تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)^(٥)»^(٦). هذا في الترهيب، وفي الترغيب نثّل بقصة أخرى وقعت للنبي صلى

^١ الإتقان في علوم القرآن: ٣٧/٤، لعبد الرحمن بن أبي بكر، حلال الدين السيوطي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

تحقيق: محمد أبو العصل إبراهيم.

^٢ سورة المدثر: ١-٢

^٣ زاد المعاد في هدي حير المعاد: ١٤٣/٣، لمحمد بن أبي بكر بن أبيوب المعروف بابن قيم الحواري، ط: المساعة والعشرون، مؤسسة الرسالة - بيروت، ومكتبة المار الإسلامية - الكويت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

^٤ سورة الشعراء: ٢١٤

^٥ سورة المسد: ١-٢

^٦ أحرجه الحارثي في صحيحه: ١١١/٦، (لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله الحارثي الجمعي، ط: الأولى، دار طوق الحاقة، ١٤٢٢هـ)، كتاب التفسير، باب وأنذر عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ واحفض حياحك لمن اتعك من المؤمنين.

الله عليه وسلم في مسيرته الدعوية الأولى، كما يرويها طارق المحاربي^(١)، رضي الله عنه، حيث يقول: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حُمْرَاءُ، وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»، وَرَجُلٌ يَتَّبِعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ قَدْ أَدْمَى كَعْبَتَهُ وَغَرَّقُوْبَتَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: غُلَامٌ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَتَّبِعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ؟ قَالُوا: هَذَا عَبْدُ الْعَزَّى أَبُو لَهَبٍ"^(٢).

وقد ذكر الله عز وجل في غير آية وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالبشارة والندارة، مما يدل على أهميتهما في الدعوة إلى الله، وتبليغ دينه. ومن ذلك قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)^(٣). يقول ابن عاشور: "والمبشر: المخبر بالبشرى والبشارة، وهي الحادث المسرّ لمن يخبر به، والوعد بالعطية، والنبى صلى الله عليه وسلم مبشّر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم ... والنذير: مشتق من الإنذار وهو الإخبار بحلول حادث مسيء أو قرب حلوله، والنبى عليه الصلاة والسلام منذر للذين يخالفون عن دينه من كافرين به ومن أهل العصيان بمتفاوت مؤاخذتهم على عملهم"^(٤).

ثالثاً: يعتبر أسلوب الترغيب والترهيب أساساً لدعوة الرسل عليهم السلام. وكما سبق أن بيّنت أهمية هذا الأسلوب في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنّ الله تعالى أرسل الرسل مبشّرين ومنذرين، فلم يبعث رسول إلا وكان مبشّراً لقومه ومنذراً لهم، وكانوا مجتهدين في إصلاح البشرية ودلائتهم على ما ينفعهم في الدنيا والآخرة. قال تعالى: (وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(٥). أي "بالترغيب

^١ طارق بن عبد الله المحاربي، من محارب حصعة... نزل الكوفة. وروى عنه أبو الشعثاء، ورعي بن خراش، وأبو صمرة، قال ابن البرقي: له حديثان. وقال ابن السكّ: ثلاثة. حديثه في الكوفيين، وله صحة. الإصابة في تمييز الصحابة: ٣/ ٤١٤، وما بعدها، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥ هـ. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود.

^٢ أخرجه ابن حزيمة في صحيحه: ٨٢/١، (لأبي بكر محمد بن إسحاق بن حريمة السلمي البسابوري، ط: المكتب الإسلامي - بيروت. تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي)، كتاب الوصوء، باب ذكر الدليل على أن الكعبين اللذين أمر المتوصي بعسل الرحلين إليهما العظمان الناثان في حابي القدم. وقال الأعظمي: إسناده صحيح.

^٣ سورة الأحزاب: ٤٥-٤٦

^٤ التحرير والتوير لاس عاشور: ٢٢/ ٥٣

^٥ سورة الأنعام: ٤٨

والترهيب"^(١). فأخبر الله تعالى في هذه الآية عن غرض إرسال الرسل، وأنها الدعوة إليه بالبشارة والندارة، مؤكّداً على ذلك بأسلوب الحصر والاختصاص، فكأنّهم لا عمل لهم غير التبشير والإنذار. وهذا يؤكّد دور أسلوب الترغيب والترهيب وأهميته في دعوة الأنبياء والرسل.

رابعاً: أنّ الترغيب والترهيب موافق للجبلة الإنسانية، والطبيعة البشريّة، فالمرء دوماً مجبول على الطمع فيما يرجو نفعه في العاجل أو الآجل، كما أنّه مطبوع على الكره لما يتوقّع مضرّته في الحال أو المآل. ومن هنا تظهر أهمية الترغيب والترهيب، حيث إنّ الإنسان بوسيلة الترغيب يتشجّع إلى عمل الخير النافع له في الدنيا والآخرة، كما أنّه بوسيلة الترهيب يتزجر عن عمل الشرّ، الذي يؤدّي به إلى الهلاك والخسارة، خاصّة إذا كان المدعوّ مؤمناً بموادّ هذا الترغيب أو الترهيب، ومن ثمّ يجزم بصدق الوعد والوعيد، فحينئذ يؤتي الترغيب والترهيب ثماره.

ولما كان الباري جل وعلا خبيراً بكوامن النفوس البشريّة، وخفايا الصدور الإنسانية، وهمسات الخوطين، التي تجول في فؤاد الإنسان استخدم هذا الأسلوب في كتابه المجيد، فرغّب ورهّب، قاصداً بذلك إصلاح النفوس البشريّة، وتقويم اعوجاجها، وتركيتها من رواسب الجاهلية، ورذائل الشهوات، وأدران الشبهات، كما قال: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(٢). وفي هذا يقول الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي: "بني هذا الأسلوب التربوي الإسلامي على ما فطر الله عليه الإنسان من الرغبة في اللذة والنعيم، والرفاهية وحسن البقاء، والرغبة من الألم والشقاء وسوء المصير. ويشترك الحيوان مع الإنسان في أدنى درجات هذه الرغبة والرغبة، فجميع الكائنات الحية تقريباً، تتعدّد عما يؤذيها حال شعورها به، وتقبل على ما يلذّها، ويحقق استمرار الحياة لها أو لجنسها"^(٣). فغريزة حبّ الخير، وسجّية كراهية الشر متأصلة في فطرة الإنسان، إلا أنّ البشر غافلون عن المنافع الأخروية ومضارّها؛ إذ إنّها غائبة عن مبلغ علمهم، وآثارها لم تصل إليها رؤيتهم، وقد أخر الله موعداً إلى أجل مسمى.

خامساً: ومما يزيد من أهمية وسيلة الترغيب والترهيب تناسبه مع مبدأ التدرّج في الدعوة إلى الله تعالى، حيث إنّ الإنسان في بداية تقبّله للدعوة يحتاج إلى التعاهد المستمرّ، والتلطّف الدؤوب في

^١ تفسير القرطبي ٤٢٩/٦، المسمى بـ "الحامع لأحكام القرآن" لمحمد بن أحمد القرطبي، ط: الثانية، دار الكتب المصرية - القاهرة، ١٩٦٤ م.

^٢ سور الملك: ١٤

^٣ أصول التربية الإسلامية وأساليبها للنحلاوي، ص: ٢٣٠

توجيه الأوامر والنواهي إليه، فإنه انخلع للتو من ربة الجاهلية، التي نشأ عليها، وغُذي بآلبانها منذ نعومة أظفاره، ومن ثم فإن آثارها لا تنمحي عن النفس أول وهلة، وأوضارها لا تزول عن القلب بكل سهولة. ومن هنا يستدعي الأمر في البداية إلى حكمة وروية، وهدوء وتلطّف إلى حين يشتدّ عود الإيمان، ويستقيم اعوجاج الأخلاق، وتنظم النفس عن الشهوات. وعلى هذا فالترغيب والترهيب عامل مساعد في السير بالمدعوّ على سلّم التدرّج إلى حين الوصول به إلى الكمال والتمام، ولا يمكن الوصول إلى هذا الكمال إلا بتهئية النفوس أولاً، وتوطئتها على الأمر والنهي من خلال التشويق والترغيب إلى المنافع والمصالح العاجلة والآجلة أو التحذير والترهيب من المضار والمهلك التي تترتب من تضييع الأوامر وارتكاب المناهي.

وتما يؤكد على ذلك استقراء السور والآيات التي نزلت في العهد المكي، حيث كان عهد المؤمنين بالجاهلية قريباً، وانفصالهم عن الشرك بات وشيكاً، فكانت الوسيلة إلى الإقرار بالتوحيد والرسالة ذكر الجنة والنار، والرحمة والعذاب، والثواب والجزاء، وسير الأمم السابقة مع أنبيائهم وما حصل لهم في الدنيا من النكال والعقاب أو الرحمة والإنجاء. ويلاحظ في هذه الفترة أنّ الأحكام العملية لم تنزل حتى ترسخ الإيمان في قلوب المؤمنين عن طريق آيات الترغيب والترهيب. وإلى ذلك أشارت عائشة رضي الله عنها فيما يري عنها البخاري^(١) بسنده عن يوسف بن مَاهِك^(٢) قال: «إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِي فَقَالَ أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ قَالَتْ وَيَحَكَ وَمَا يَضُرُّكَ قَالَ يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَرِينِي مُصْحَفَكَ قَالَتْ لِمَ قَالَ لَعَلِّي أُوَلِّفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ قَالَتْ وَمَا يَضُرُّكَ أَيُّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةُ مِنَ الْمُفْصَلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ^(٣) النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا

^١ البخاري شيخ الإسلام وإمام الحفاظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المعيرة بن برد بن الحنفية مولاهم، صاحب الصحيح والتصانيف. كان رأساً في الدكاء، رأساً في العلم، ورأساً في الورع والعادة. قال البخاري: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح، وقال ابن حزم ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري. توفي سنة ست وخمسين ومائتين. انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي: ١٠٤ / ٢، وما بعدها. محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

^٢ يوسف بن مَاهِك بن همراد بصم الموحدة وسكون الماء بعدها راي، العارسي، المكي، ثقة، من الثالثة. مات سنة ست ومائة وقيل قبل ذلك.

تقريب التهذيب: ص: ٦١١. لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط: الأولى، دار الرشيد - سوريا، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

^٣ ثاب بثوب إذا رجع. النهاية في غريب الحديث والأثر: ١ / ٢٢٦، لأبي السعادات المبارك بن محمد الحزري، ط: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

لَا نَدْعُ الزُّنَا أَبَدًا لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: (بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ)^(١). وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ قَالَ فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ فَأَمَلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّورِ^(٢). ويقرر مبدأ التدرج بالترغيب والترهيب الإمام ابن حجر^(٣) في شرحه للحديث، فقال: "أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التزليل وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة وللکافر والعاصي بالنار فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام ولهذا قالت ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف"^(٤)

ومن هنا، فقد كثر في القرآن الذي نزل بمكة سياق آيات الترغيب والترهيب؛ إذ كانت هذه المرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية بمثابة الأساس للبناء الشاهق الذي سيبنى عليه لاحقاً، مما اقتضى تقوية الإيمان، الذي يمثل ذلك الأساس من خلال الترغيب والترهيب، ليكون الدافع القوي إلى امتثال الأوامر، والاجتناب عن النواهي. ومن ثم نزل القرآن الكريم منجماً على مقتضى النوازل والأحوال، فلو نزل جملة واحدة كما طلبه بعض المشركين^(٥) لاستصعب الناس العمل بأحكامه، والتأدب بآدابه، كما قال تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا)^(٦). ومما سبق شرحه يتبين أهمية أسلوب الترغيب والترهيب في الدعوة إلى الله وتبليغ هذا الدين، حيث يسهل للمدعو تقبل أحكام الإسلام بيسر وسهولة، والله أعلم.

سادساً: إن خلط الرغبة بالرهبة، والجمع بين الخوف والرجاء من أكمل صفات عباد الرحمن^(٧). فالأنبياء والرسل عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم قد اتصفوا بعبودية الرغبة والرهبة، كما مدحهم

^١ سورة القمر: ٤٦

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن: ١٨٥/٦

^٣ أحمد بن علي بن محمد بن الفضل العسقلاني الشافعي المعروف بابن حجر، الحافظ الكبير الشهير بالإمام المعتمد معرفة الحديث وعمله في الأرملة المتأخرة. ارتحل إلى بلاد الشام والحجاز واليمن ومكة وما بين هذه الواحي، وأكثر حداً من المسموع والسموع، وسمع العالي والدارل، واجتمع له من ذلك ما لم يجتمع لغيره، وأدرك من الشيوخ جماعة كل واحد رأس في مه الذي اشتهر به. ومن تصانيفه: فتح الباري، والدرر الكامنة، ولسان الميزان، تهذيب التهذيب. توفي سنة ٨٥٢هـ. انظر: الدر الطالع للشوكاني: ٨٧/١، وكذا الأعلام للزركلي: ١٧٨/١

^٤ فتح الباري لاس حجر ٤٠/٩

^٥ إشارة إلى قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)، سورة الفرقان: ٣٢

^٦ سورة الإسراء: ١٠٦

^٧ انظر: مهج السلف في الوعد، ص: ٢٨٨، لأبي يزيد سليمان بن صفيّة، ط: الأولى، مكتبة دار المهاج، الرياض - السعودية، ١٤٣١هـ.

رَبَّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)^(١). ويقول الإمام الطبري في بيان معنى الآية: "ويعني بقوله: رَغَبًا، أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ رَغْبَةً مِنْهُمْ فِيمَا يَرْجُونَ مِنْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ. وَرَهَبًا، يَعْنِي رَهْبَةً مِنْهُمْ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ، بِتَرْكِهِمْ عِبَادَتَهُ وَرُكُوبِهِمْ مَعْصِيَتَهُ"^(٢). وقد كان السلف من هذه الأمة يتواصلون بمزج الرغبة بالرهبة في نصائحهم العامة والخاصة، فعن عبد الله بن عُكَيْم^(٣) أَنَّهُ قَالَ: "خَطَبْنَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَنْ تَتَنَاسَلُوا عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَأَنْ تَخْلُطُوا الرِّغْبَةَ بِالرَّهْبَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، أَثْنَى عَلَى زَكَرِيَّا، وَأَهْلَ بَيْتِهِ، فَقَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ"^(٤)(٥). وهذا إن دل على شيء فيدل على أهمية الترغيب والترهيب، اللذين من آثارهما ونتائجهما الرغبة والرهبة، والخوف والرجاء، وبهما تتحقق عبودية المرء لله تعالى، واتصافه بصفات المقربين، وهما مطيَّتان يسير عليهما العبد في طريقه إلى الله، كما يقول الإمام الغزالي^(٦): "فإنَّ الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقرَّبون إلى كلِّ مقام محمود، ومطيَّتان بهما يقطع من طرق الآخرة كلَّ عقبة كؤود، فلا يقود إلى قرب الرحمن، وروح الجنان، مع كونه بعيد الأرجاء، ثَقِيلُ الأعباء، مُحْفَوفًا بِمَكَارِهِ الْقُلُوبِ، وَمَشَاقِّ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ إِلَّا أَزِمَّةُ الرِّجَاءِ. وَلَا يَصْدَّ عَنْ نَارِ الْجَحِيمِ، وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، مَعَ كَوْنِهِ مُحْفَوفًا بِلَطَائِفِ الشَّهَوَاتِ، وَعَجَائِبِ اللَّذَاتِ إِلَّا سِيَاطُ التَّخْوِيفِ، وَسَطَوَاتُ التَّعْنِيفِ"^(٧). وتوضح بهذا أهمية الترغيب والترهيب، وأنَّ الداعية حريٌّ بأن يستثمر هذا الأسلوب في إصلاح النفوس،

^١ سورة الأنبياء: ٩٠.

^٢ تفسير الطبري: ٥٢١/١٨.

^٣ عبد الله ابن عكيم الجهني، أبو معد، الكوفي، محصرم، وقد سَمِعَ كِتَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى حَمِيَّةِ تَوَيْ فِي إِمْرَةِ الْحِجَاجِ. انظر: تقريب التهديد، ص: ٣١٤.

^٤ سورة الأنبياء: ٩٠.

^٥ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب الرهد وقصر الأمل: ١٣/١٦٢، لأحمد بن الحسين بن علي الحراساني، أبو بكر البيهقي، ط: الأولى، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م. التحقيق والتخريج: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد.

^٦ محمد بن محمد أبو حامد الطوسي المعروف بالعراقي الفقيه الشافعي، كان إماماً في علم الفقه مدتها وحلها، وفي أصول الدانات والفقه، وولى التدريس بالمدرسة النظامية بغداد، ثم حرج إلى الشام رائداً لبيت المقدس، فقدم دمشق وأقام بها مدة، ثم رجع إلى بغداد، ومضى إلى حراسان، ودرَّس مدة بطوس، ثم ترك التدريس والمناظرة، واشتغل بالعبادة. توفي سنة خمس وخمسمائة. انظر: تاريخ دمشق لاس عساكر: ٢٠٠/٥٥، لأبي القاسم المعروف بابن عساكر، ط: دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م. التحقيق: عمرو بن عرامة العمري.

^٧ إحياء علوم الدين: ١٤٢/٤، لأبي حامد محمد بن محمد العراقي الطوسي، ط: دار المعرفة - بيروت.

واستقامة سيرها على الطريق إلى الله، وشحذ همم المدعويين، حذراً أن يملّوا من طول الطريق، ويصابوا بالكلل والتعب والفتور.

سابعاً: ومن أعظم ما يدلّ على أهمية الترغيب والترهيب أنّ الله عزّ وجلّ جعل الخوف من وعيده وسخطه وعقابه، والرجاء لرحمته وعفوه وإحسانه سببان لانتفاع القلوب بالموعظة، وتأثيرها بهداية القرآن. فمهما اشتدّ خوف العبد وعظم رجاءه استتبع ذلك تأثر قلبه بالموعظة، ونشطت جوارحه في العمل بمقتضاها، كما يقول ابن القيم: "وأما تذكر الوعد والوعيد فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه، ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به، وخافه ورجاه، قال الله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ)^(١). وقال: (سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى)^(٢). وقال: (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا)^(٣). وأصرح من ذلك قوله تعالى: (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)^(٤). فالإيمان بالوعد والوعيد، وذكره: شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر"^(٥).

ومن خلال ما سردت من النقاط المتقدمة تبين أهمية الترغيب والترهيب، ومقامه في هذا الدين، وأنّه مبدأ أساسي استخدمه الرسل في دعوتهم، والصالحون في نصائحهم، والدعاة في تعاهدهم للمدعويين حال التدرّج بهم في سلّم الأولويات، كما أنّ آثاره من الخوف والرجاء من أعظم مقامات السالكين، وهما سببان لانتفاع العبد بالموعظة، وتأثره بالنصيحة. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وهو حسبي، ونعم الوكيل.

^١ سورة هود: ١٠٣

^٢ سورة الأعلى: ١٠

^٣ سورة المارعات: ٤٥

^٤ سورة ق: ٤٥

^٥ مدارح السالكين: ٤٤٦/١، واسمه الكامل: "مدارح السالكين بين مارل إياك بعد وإياك يستعين"، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية، ط: الثالثة، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م. تحقيق: محمد المعتصم بالله العدادي.

الباب الأول

أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن، وموقف المفسرين منه

ويشتمل على الفصول التالية :

١ - أسلوب اللغوي للقرآن الكريم في الترغيب والترهيب

٢ - أسلوب الترغيب والترهيب للقرآن في الدعوة والتربية

٣ - موقف المفسرين من أسلوب القرآن في الترغيب والترهيب

تمهيد:

في هذا التمهيد أتناول معنى الأسلوب من الناحية اللغوية والاصطلاحية، ثم أشرع بإذن الله في الكلام على محتويات الفصول بالتفصيل.

الأسلوب لغة

السين واللام والباء أصل واحد، وهو أخذ الشيء بخفة واختطاف. يقال: سَلَبَ الشيءَ يَسْلُبُهُ سَلْبًا وَسَلْبًا، واستلبه إياه. والاستلاب: الاختلاس. والسَلَبُ: مَا يُسَلَّبُ، والجمع أسلاب. ويقال للسطر من النخيل: أسلوب. والأسلوب: الطريق، والوجه، والمذهب والفن؛ ويجمع على أساليب. يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه^(١).

الأسلوب اصطلاحاً:

اصطلح الأدباء وعلماء العربية على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه. لذا كان الأسلوب غير المفردات والتراكيب التي يتألف منها الكلام، وإنما هو الطريقة التي انتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه. وهذا هو السر في أن الأساليب مختلفة باختلاف المتكلمين من ناثرين وناظمين مع أن المفردات التي يستخدمها الجميع واحدة، والتراكيب في جملتها واحدة، وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة^(٢).

وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر متعددة بتعدد الموضوعات التي يعالجونها^(٣). ومن أعظم الأساليب القرآنية في التأثير على النفوس أسلوب الترغيب والترهيب، حيث إن العليم الخبير بكوامن النفوس، وخبايا الصدور، ومواقع التأثير فيه استخدمه أوجه مختلفة، وطرائق متنوعة، بقصد الإصلاح والهداية.

^١ انظر: لسان العرب لاس مطور: ٤٧١/١، وما بعدها، وتقديم اللغة للأزهري: ٣٠٠/١٢، وما بعدها، ومقاييس اللغة لاس فارس: ٩٢/٣.

^٢ انظر: مآهل العرفان في علوم القرآن: ٣٠٣/٢، لحمد عند العظيم الرُّقَاقِي، ط: الثالثة، مطبعة عيسى النابلي الحلبي وشركاه.

^٣ انظر المصدر السابق: ٣٠٣/٢.

الفصل الأول

الأسلوب اللغوي للقرآن في الترغيب والترهيب

وفيه تمهيد ومبحثان :

١ - كلمات في القرآن الكريم ذات صلة بالترغيب والترهيب

٢ - طائفة من الأساليب اللغوية للقرآن في الترغيب والترهيب

تمهيد:

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، والألفاظ والتراكيب التي استعملها هذا الكتاب العظيم لا تخرج عن نطاق ما عهدته العرب في طرق تواصلها وخطاباتها العامة من نثر وشعر وغيرها من أساليب البيان، كما قال عز جل: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) "وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه"^(١).

ولم يجد العرب الذين خوطبوا بالقرآن الكريم أية صعوبة في تفهم معانيه ولا تذوق بيانه، فقد خاطبهم الله تعالى بخس ما يتواصلون به من الكلمات والتراكيب. كما أنهم لم يكونوا بحاجة في معرفة معاني كلام الله المجيد أن يتعلموا مشكل إعرابه وغريب ألفاظه وقواعده النحوية والصرفية والبلاغية كحاجتنا اليوم إلى ذلك كله. وبذلك قامت الحجة عليهم وآمن من آمن منهم على بينة وروية. ومن هنا يقول الإمام اللغوي أبو منصور الأزهري: "نزل القرآن الكريم والمخاطبون به قوم عرب، أولو بيان فاضل، وفهم بارع، أنزله جل ذكره بلسانهم، وصيغة كلامهم الذي نشئوا عليه، وجبلوا على النطق به، فتدربوا به، يعرفون وجوه خطابه، ويفهمون فنون نظامه، ولا يحتاجون إلى تعلم مشكله وغريب ألفاظه حاجة المولدين الناشئين ممن لا يعلم لسان العرب حتى يُعَلِّمَهُ، ولا يفهم ضروبه وأمثاله، وطرقه وأساليبه، حتى يُفَهِّمَهَا"^(٢).

ولم يعترض فصحاء العرب على القرآن العظيم وصاحبه النبي الكريم في زمن النزول بأنه غير عربي ولا غير فصيح. وذلك كان منهم بمثابة الإقرار بفصاحة القرآن وجودة بيانه وروعة أسلوبه. وأما الطاعنون في القرآن بعد هؤلاء المعاصرين لنزوله لم يتعرضوا للجانب اللغوي بأنه لا يرتقي إلى درجة الفصاحة والبلاغة أو فيه لحن أو غلط لغوي أو مخالفة للقواعد والأساليب التي اتفقت عليها العرب في البيان عن مقاصدها، وتوضيح مرامها.

^١ تفسير ابن كثير: ٣٦٥/٤

^٢ تهذيب اللغة للأزهري: ٦-٥/١

لذا كان للبحث في الجانب اللغوي للقرآن أهميته البالغة، حيث تعددت طرق البحث فيه من نواح متعددة، فمن باحث في كلماته واشتقاقها ومعانيها المختلفة، ومن مؤلف في نحوه وأوجه إعرابه المتعددة، ومن ناظر في صرفه والمباني الأصلية لكلماته، ومن مصنف في بلاغته وفصاحته وأوجه إعجازه المتنوعة. فكان لزاماً على أن أعرج على هذا الجانب المهم في القرآن الكريم، خاصة فيما يتعلق بالترغيب والترهيب، الذي دلت عليه آيات الذكر الحكيم. وسوف أتحدث في هذا الفصل إن شاء الله تعالى عن الألفاظ الواردة في القرآن، والتي لها صلة وثيقة بالترغيب والترهيب، كما أتعرض للكلام في الأساليب اللغوية العامة التي ورد بها القرآن الكريم في الترغيب والترهيب، كالاستفهام، والأمر، والنهي، والترجي، والتوكيد، والمدح والذم، والتقابل والطباق، والتعريض والتصريح، والتكرار، مدعمة بالشواهد من الآيات، وبأقوال جهابذة المفسرين، الذين هم عمدي في هذا المجال، بعد الاستعانة بالله والتوكل عليه.

المبحث الأول

كلمات في القرآن الكريم ذات صلة بالترغيب والترهيب

وفيه المطالب التالية :

المطلب الأول: التزكوة

المطلب الثاني: الموعظة

المطلب الثالث: النصيحة

المطلب الرابع: التبشير والإنذار

المطلب الخامس: الوعد والوعيد

المطلب الأول: التذكُّر

التذكُّر لغة:

هذه الكلمة مشتقة من الأصل الثلاثي المُكَوِّن من الذال والكاف والراء، والذي يدور حول معنيين أساسيين يتفرع عنهما بقية معاني الكلمة في تصاريفها المتعددة، الأول: ضد النسيان، والثاني: ضد الأنثى^(١). ويأتي من باب فَعَلَ يَفْعُلُ، فيقال: ذَكَرَ الشيءَ يَذْكُرُهُ ذِكْرًا وَذُكْرًا وَذِكْرَى وَتَذْكَارًا: حفظه واسحضره وَجَرى على لِسَانِهِ بعد نسيانه، وَذَكَرَ اللهُ: أثنى عليه، وَذَكَرَ النعمة: شكرها، وَذَكَرَ الناس: اغتابهم وَذَكَرَ عيوبهم. ويتعدى بالألف والتضعيف فيقال أذْكَرْتُهُ وَذَكَرْتُهُ ما كَانَ فَتَذَكَّرَ. وَالذِّكْرُ: خلاف الأنثى^(٢). أما التَّذْكَرَةُ فهي: مصدر من: ذَكَرٌ يُذَكِّرُ تَذْكَيرًا وَتَذْكَرَةً، كما يقال: قدمت تقديمًا وتقدمًا، وهي: ما تستذكر به الحاجة وما يدعو إلى الذكر والعبرة. وقد تكرر ورود الذكر في القرآن والحديث ويراد به تمجيد الله وتقديسه^(٣).

التذكُّر اصطلاحًا:

عرَّف الإمام ابن عاشور التذكُّر بقوله: "خطور المنسي بالذهن، فإن التوحيد مستقر في الفطرة والإشراك مناف لها، فالدعوة إلى الإسلام تذكُّر لما في الفطرة أو تذكُّر لملة إبراهيم عليه السلام"^(٤). وقيل إنها: "الموعظة التي تلين لها القلوب، فتمثل أمر الله، وتجتنب نهيه"^(٥).

وهذه الكلمة تدل على ما يقوم به الواعظ أو المبلغ أو الخطيب من التوجيهات والمواعظ التي تُذَكِّرُ السامعين بما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم. والتذكُّر تشمل أمور الدين كله، إلا أن الترغيب والترهيب من أهم ما يتناوله اللفظ في الاصطلاح الشرعي. وذلك أن الإنسان قد ابتلي بالنسيان لمصالحه الدنيوية والأخروية، فاحتاج إلى تذكُّر دائم بهذه المصالح، وأعظم ما ينبغي أن يُذَكَّرَ به خالقه ومولاه ومُدَبِّرُ شؤونه ومربيّه، كي يعرف حق الله عليه من التعظيم والتمجيد

^١ انظر: معجم مقاييس اللغة ٣٥٨/٢

^٢ انظر: المعجم الوسيط ٣١٣/١، والمصاحح المنير في غريب الشرح الكبير: ٢٠٨/١ لأحمد بن محمد الميمني، ط: المكتبة العلمية - بيروت.

^٣ انظر: درة التنزيل وعرة التأويل ١٣١٠/١، لمحمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي، ط: الأولى، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية - مكة المكرمة، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م. التحقيق: د/ محمد مصطفى آيدى، ولسان العرب لابن منظور: ٣٠٩/٤، وما بعدها.

والمعجم الوسيط ٣١٣/١

^٤ التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٨٥/١٦

^٥ أصواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٥/٤، لمحمد الأمين الشقيطي، ط: دار الفكر، بيروت - لسان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

والطاعة والانقياد، ثم ما يقربه إلى الله تعالى من التذكُّر للآخرة ونعيمها أو جحيمها، مما يبعث على الطاعة والالتزام، ويبعده عن المخالقة والعصيان. ولهذا سَمَّى الله سبحانه وتعالى القرآن موعظة وتذكُّرة في غير آية كما سنذكره لاحقاً. وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: "أخبر سبحانه أنَّ القرآن تذكُّرة للمتقين، يتذكر به المتقى، فيبصر ما ينفعه، فيأتيه، وما يضره فيجتنبه، ويتذكَّر به أسماء الرب تعالى وصفاته وأفعاله فيؤمن بها، ويتذكر به ثوابه وعقابه وووعيده وأمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه، ونفسه وما يزيكها ويطهرها ويعليها وما يذسيها ويخفيها ويخقرها، ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار، وعلم الخير والشر، فهو التذكُّرة على الحقيقة تذكُّرة وحجة للعالمين، ومنفعة وهداية للمتعلمين"^(١).

موارد التذكُّرة في الآيات بمعنى الترغيب أو الترهيب

لكي يتضح معنى التذكُّرة وعلاقته بالترغيب والترهيب أردت أن أسوق بعض النماذج من آيات الذكر الحكيم، التي من شأنها أن تعين القارئ على فهم المراد، وبيان المقصود، مع التعليق عليها بما يوضح معانيها من خلال أقوال المفسرين. من ذلك قوله تعالى: (طه). مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى^(٢). قال السعدي: "إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب إلى أجل المطالب، فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران، فيهرب منه"^(٣). ومنها قوله تعالى: (ودكَّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)^(٤). أي: "عظهم فإن الذكرى تنفع المؤمنين أي من قدر الله إيمانه، أو الذين آمنوا، فإنهم المقصودون من الخلق، لا من سواهم، إذ هم العابدون"^(٥). ومنها قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)^(٦). أي: "عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد. وقيل: أيام الله وقائه التي وقعت على الأمم قبلهم وأيام

^١ التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، ص: ١٩٠.

^٢ سورة طه: ١-٣.

^٣ تفسير السعدي، ص: ٥٠٢.

^٤ سورة الذاريات: ٥٥.

^٥ محاسن التأويل: ٤٦/٩، لمحمد حماد الدين القاسمي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٨هـ. تحقيق: محمد ناسل عيون السود.

^٦ سورة إبراهيم: ٥.

العرب وقائعها وحروبها وملاحمها أي أنذرهم وقائعه التي دهمت الأمم الدارجة^(١). ومنها قوله تعالى: (وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ)^(٢). ومعنى الآية: ذكرهم بالقرآن ومواعظه؛ لكي لا تهلك نفس في الآخرة، وتحرم الثواب، بسبب الجنايات التي اكتسبت في الدنيا^(٣). ومنها قوله تعالى: (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)^(٤). أي: "فأثبت على ما أنت عليه من التذكير بما أنزل إليك من الآيات والذكر الحكيم، ولا تكثر بما يقولون مما لا خير فيه من الأباطيل، فما أنت بنعمة ربك: بحمده وإنعامه بصدق النبوة ورجاحة العقل بكاهن ولا مجنون"^(٥). ومنها قوله تعالى: (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِيرِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ)^(٦). أي: "فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه، وتذكرهم به معرضين، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة، أي كأنهم في نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها"^(٧). وبهذا تبين معنى التذكيرة، وأنها تستعمل بمعنى الترغيب والترهيب في القرآن الكريم، مما يؤكد على أصالة هذا المنهج في الكتاب العزيز، إذ يكثر ورود كلمة التذكيرة في القرآن الكريم على طرق متنوعة، وأوجه متعددة.

أنواع التذكيرة

وهناك نوعان من التذكيرة، أحدهما: أن يُذَكَّرَ الإنسان بما لم يَعْرِفْ تفصيله عن طريق الشرع ولكن عَرَفَهُ بالإجمال عن طريق العقل الصحيح والفتوة السليمة. والثاني: أن يُذَكَّرَ بما عَرَفَ تفصيله من الشرع لكنه وقع عليه النسيان والغفلة ثم ترك العمل به وأعرض عنه، فصار كالمجهول الذي لم يعرفه قط. وفي ذلك يقول السعدي رحمه الله: "والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره،

^١ تفسير أبي السعود: ٣٣/٥

^٢ سورة الأعراف: ٧٠

^٣ انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل ١٢٣/٢، لعلي بن محمد الشيعي، المعروف بالخازن، ط: الأولى: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥ هـ، تحقيق: محمد علي شاهين.

^٤ سورة الطور: ٢٩

^٥ تفسير أبي السعود: ١٥٠/٨

^٦ سورة المدثر: ٤٩-٥٠

^٧ تفسير ابن كثير: ٢٨٢/٨

وكرهية الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل أمر ونهي من الشرع، فإنه من التذكير، وتام التذكير، أن يذكر ما في الأمور به، من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه، من المضار. والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون بذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، ويتنبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطا وهمة، توجب لهم الانتفاع^(١). وهذا يوضح أهمية التذكير في حياة الفرد والمجتمع، حيث إن بيان الأوامر والنواهي في الشرع نوع من التذكير، مما يؤكد حاجة المرء لهذا التذكير في كل حين وآن، وأنه كلما كثر التذكير، وأخذ حقه المناسب في مجال الدعوة أنتج ثماره المرجوة من وراء ذلك، فتلين القلوب، وتذرف العيون، وتستعد الجوارح للقيام بالأوامر، والانزجار عن النواهي، فيستقيم المرء على الدين، وينصلح المجتمع، فيضمحل فيه الانحراف، والفساد، ويسوده حب الخير، والتعاون على البر والتقوى.

^١ تفسير السعدي، ص: ٨١٢

المطلب الثاني: الموعظة

الموعظة لغة واصطلاحاً:

الموعظة لغة: مصدر ميمي للفعل وَعَظَ يَعِظُ وَعَظًا وَعِظَةً، وقد فسرهُ أهل اللغة بالنصح، والتذكير بالخير والعواقب مما يرقق القلوب من الثواب والعقاب، وكذا الأمر بالطاعة والوصية بها. تقول: وَعَظْتُهُ وَعَظًا وَعِظَةً فَأَتَّعِظُ، أي قَبْلَ الْمَوْعِظَةِ. ويقال في المثل: "السعيدُ من وَعِظَ بغيره، والشقيُّ من اتعظ به غيره"^(١). واختلفت عبارات العلماء في تعريف الموعظة اصطلاحاً، رغم كونها متقاربة في المعنى، قال ابن القيم: "هي الأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب"^(٢). وقال الشوكاني: "هو التذكير بالعواقب، سواء كان بالترغيب أو الترهيب"^(٣). وقال ابن عاشور: "الأمر بفعل الخير وترك الشر بطريقة فيها تخويف وترقيق يحملان على الامتثال"^(٤). وقال أحد المعاصرين هي: "الأقوال والأفعال الشرعية المشتملة على العظات والعبر، التي ترقق القلوب وتهدب النفوس وتوقظ من به غفلة، وترغب في طاعة الله وترهب من معصيته"^(٥).

ومن التعريفات السابقة يتبين علاقة الموعظة بالترغيب والترهيب، وإن كان ارتباطها بالترهيب أظهر. وذلك أن القرآن مليء بالمواعظ التي تشتمل على الترغيب والترهيب؛ لما أن قلوب بني آدم تحتاج إلى الوعظ والتذكير أكثر منها إلى التنظير والإقناع، كما يلاحظ في منهج الأنبياء مع أمهم، والذي سجله القرآن الكريم، ليكون نموذجاً للدعاة في كل زمان ومكان. ومن ذلك ما حكى القرآن الكريم عن عاد حين خاطبوا نبيهم هوداً بما يلي: (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ)^(٦). فوصفوا دعوة الرسول هود عليه السلام بالوعظ المجرد؛ لما اشتملت عليه من المواعظ التي هي أعظم وسيلة للإيمان والعمل الصالح.

^١ انظر: العبر لخليل بن أحمد: ٢/٢٢٨، وتغديب اللغة للأزهري: ٣/٩٣، والصحاح للحواري: ٣/١١٨١، والمصاحح المير للفيومي: ٢/٦٦٥،

والمعجم الوسيط: ٢/١٠٤٣، ولسان العرب لاس مطور: ٧/٤٦٦، والمفردات للراعي الأصمهازي، ص: ٨٧٦

^٢ مدارج السالكين: ١/٤٤٢

^٣ فتح القدير للشوكاني: ٢/٥١٥

^٤ التحرير والتوير لاس عاشور: ٥/١٠٨

^٥ منهج السلف في الوعظ لاس صفيّة، ص: ٦٣

^٦ سورة الشعراء: ١٣٦

معاني الموعظة في القرآن الكريم^(١):

وقد وردت كلمة الوعظ ومشتقاتها في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، واختلفت دلالاتها ومعانيها من موضع لآخر حسب السياق والمكان. ويظهر في أغلب معانيها ارتباطها الوثيق بالترغيب أو الترهيب. ومن أبرز تلك المعاني التي وردت بها الموعظة في القرآن ما يلي:

١- **التذكير**: وهو المعنى الذي يغلب على الآيات التي وردت فيها هذه اللفظة، ومن ذلك قوله تعالى: (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)^(٢). قال الطبري: "فتأويل الآية: فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وتذكيرة للمتقين، ليتعظوا بها، ويعتبروا، ويتذكروا بها"^(٣). وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)^(٤). "يعني: ذكرى تذكركم عقاب الله وتخوفكم وعيده"^(٥).

٢- **الزجر والتخويف**: والزجر والتخويف من الوسائل التي تستخدم في الوعظ للتأثير في المدعوين، ولذا كثر مجيء الموعظة في القرآن بهذا المعنى: فمن ذلك قوله تعالى: (هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)^(٦). أي: "زاجر عن المحارم والمآثم"^(٧). وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)^(٨). أي: "تركية نفوسكم بالوعد والوعيد، والإنذار والبشارة، والزجر عن الذنوب المورطة في العقاب"^(٩).

٣- **النصح والإرشاد**: والنصيحة أعم من الموعظة، فهي تشمل على الموعظة وغيرها من وجوه النصح والإرشاد. ومما جاء في القرآن من مشتقات الموعظة بمعنى النصيحة قوله تعالى: (وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ

^١ انظر في ذلك: مهج السلف في الوعظ لاس صعية، ص: ٥٢، وما بعدها.

^٢ سورة البقرة: ٦٦

^٣ تفسير الطبري: ١٨٠/٢

^٤ سورة يونس: ٥٧

^٥ تفسير الطبري: ١٠٤/١٥

^٦ سورة يونس: ١٣٨

^٧ تفسير ابن كثير: ١٢٦/٢

^٨ سورة يونس: ٥٧

^٩ محاسن التأويل للقاسمي: ٣٥/٦

سَبِيلًا^(١). أي: "فانصحوهم بالترغيب والترهيب"^(٢). وقوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خُفٍّ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)^(٣). أي: "ما أرشدكم وأنصح لكم إلا بخصلة واحدة"^(٤).

٤- الأمر والنهي: وقد جاء استعمال الوعظ في القرآن لمجرد الأمر والنهي كما قال ابن تيمية رحمه الله: "والوعظ في القرآن هو الأمر والنهي والترغيب والترهيب كقوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا). فقوله: مَا يُوعَظُونَ بِهِ أي ما يؤمرون به"^(٥). ومن ذلك قوله تعالى: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)^(٦). أي: "أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك لئلا تكون، أو كراهية أن تكون من الجاهلين، أي الآثمين"^(٧). وقوله تعالى: (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٨). "أي يحذركم الله وينهاكم"^(٩).

٥- الترغيب والترهيب: الترغيب والترهيب من أعظم الأساليب التي تؤدي بها الموعظة كما يدل عليه تعريف الموعظة بأنها: "الوصية بعمل الخير، واجتناب الشر بأسلوب الترغيب والترهيب الذي يرقق القلب ويلهب العاطفة. ويبعث على الإحسان في العمل"^(١٠). ومن ذلك قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ

^١ سورة النساء: ٣٨

^٢ تفسير أبي السعود: ١٧٤/٢

^٣ سورة ساء: ٤٦

^٤ روح المعاني للألويسي: ٣٢٧/١١

^٥ الرد على المطففين لاس تيمية، ص: ٤٦٧

^٦ سورة هود: ٤٦

^٧ تفسير القرطبي: ٤٨/٩

^٨ سورة النور: ١٧

^٩ تفسير القرطبي: ٤٨/٩

^{١٠} التفسير الواضح للحجاري: ٧٠/٢

ضَلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَغْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ^(١). أي: "وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ التَّخْوِيفُ وَالتَّرْجِيَةُ وَالتَّلَطُّفُ بِالْإِنْسَانِ بِأَنْ يَجْلِسَ وَيَسْطِطَهُ وَيَجْعَلَهُ بِصُورَةٍ مِنْ يَقْبَلُ الْفَضَائِلَ"^(٢).

ومما سبق يتبين أهمية الموعظة، وارتباطها بمبدأ الترغيب والترهيب. ومن أهم دلالاتها في القرآن: التذكير، والزجر، والنصح، والأمر والنهي، مما يؤكد على علاقتها الوثيقة بأسلوب الترغيب والترهيب، وإن كان ارتباطها بالترهيب أكثر منها بالترغيب.

^١ سورة الحل: ١٢٥

^٢ تفسير ابن عطية: ٤٣٢/٣

المطلب الثالث: النصيحة

النصيحة لغة واصطلاحاً:

النصيحة لغة: مصدر للفعل: نَصَحَ، وهذا الأصل يدل على ملائمة بين شيئين وإصلاحهما مع الخلوص من الغش. يقال في الفعل اللازم منه: نَصَحَ الشَّيْءُ نَصْحاً وَنُصُوحاً وَنَصَاحَةً: خلص، ومنه نصح المَعْدُن: خلص، ومنه أيضاً نَصَحَ قلبه: خلا من الغش. ويقال في الفعل المتعدي منه: نَصَحْتُ الثوب أَنْصَحُهُ نَصْحاً وَنَصَاحَةً، أي: خيطة. ومنه النُّصْحُ وَالنَّصِيحَةُ: خلاف الغش. يقال: نَصَحَ فلاناً وَنَصَحَ لَهُ يَنْصَحُهُ نَصْحاً وَنَصِيحَةً: أرشده إلى ما فيه صلاحه^(١). وفي الاصطلاح هي: كلمة جامعة لمعان عظيمة، ولذا تعددت تعريفات العلماء لها، ومن أهم هذه التعريفات مايلي: ١- تعريف الإمام الخطابي^(٢)، حيث قال: "النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة، هي إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر هذا المعنى بكلمة واحدة تحصرها وتجمع معناها غيرها"^(٣). ٢- وتعريف الإمام أبو عمرو بن الصلاح^(٤): "النصيحة كلمة جامعة تتضمن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً"^(٥).

وعلى كل حال فالتعريفات المتقدمة للنصيحة متقاربة، وتشمل معاني النصح المتعددة الجوانب. وذلك أن كلمة النصح تتضمن إرادة الخير للمنصوح له، وقيام الناصح بذلك قولاً وفعلاً. وهذا الخير يشمل حثه على ما فيه الصلاح، ونهيه عما فيه الفساد، بشرط أن تكون النية خالصة عند القيام بالنصح، ولا يكون للناصح غرض غير محبته الخير للمنصوح له. وأما علاقة النصيحة بالترغيب والترهيب فماثلة للعيان عند التأمل لمعاني النصح التي تقدم ذكرها آنفاً، حيث

^١ انظر: مقاييس اللغة لاس فارس ٤٣٥/٥، وقهيد اللغة للأزهري: ١٤٦/٤-١٤٧، والمعجم الوسيط: ٩٢٥/٢.

^٢ الإمام، العلامة، الحافظ، اللعوي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن حطاب السني، الخطابي. كان فقيهاً أديباً محدثاً، له التصانيف البديعة من أشهر كتبه: "عريب الحديث" و "معالم السنن في شرح سنن أبي داود" و "أعلام السنن في شرح البخاري". وكانت وفاته في سنة ٣٨٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للدعي ٢٣/١٧، ووفيات الأعيان لاس حلكان ٢١٤/٢-٢١٥.

^٣ معالم السنن: ١٢٥/٤، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، ط: الأولى، المطبعة العلمية - حلب، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

^٤ الإمام، الحافظ، العلامة، شيخ الإسلام، تقي الدين، أبو عمرو عثمان الكردى، الشهرروري، صاحب علوم الحديث، العقيد الشافعي، كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والعقود وأسماء الرجال، وما يتعلق بعلم الحديث ونقل اللغة، وكانت له مشاركة في فروع عديدة، وكانت فتاويه مسددة. توفي سنة ٦٤٣هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للدعي ١٤٠/٢٣، ووفيات الأعيان لاس حلكان: ٤٣٣/٣-٢٤٤.

^٥ جامع العلوم والحكم: ٢٢٢/١، لاس رحب الحسلي، ط: السابعة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م. تحقيق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم نحاس.

إن النصيح يتضمن الترغيب في الطاعة والترهيب من المعصية بذكر ما ورد فيها من الوعد والوعيد في الكتاب والسنة. ويصدق ذلك قول بعضهم: "وأما النصيحة فهو ترغيبهم في الطاعة، وتحذيرهم عن المعاصي"^(١).

موارد النصيحة في القرآن الكريم:

ورد لفظ النصيحة في القرآن بمشتقاته في مواضع عديدة، يتبين منها أهمية النصيحة في الإسلام، وأن النصيحة مبدأ إسلامي شامل، حتى سمي النبي صلى الله عليه وسلم الدين كله بالنصيحة، وذلك في قوله: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَنَّمَا الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»^(٢). وقد اعتمدت دعوات الرسل على هذا المبدأ، وتتابع على مواجهتهم لأقوامهم ومعالجتهم لعنادهم، وإنكارهم لما جاؤوا به من عند الله، كما حكى ذلك عنهم القرآن الكريم. ومن هنا نصح نوح عليه السلام قومه، وأبلغ في ذلك وصير عليهم في مدة مديدة، تذكّر فيها من كتب له السعادة في الدنيا والآخرة، كما لم يستفد منها من كتب عليه الشقاوة في الدنيا والآخرة. وفي ذلك يقول الله عز وجل: (أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأُنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٣). وقال مثل ذلك هود عليه السلام حينما وجه الدعوة لقومه عاد، وأمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عن الشرك والطغيان. وبعد أن أتهموه بالسفاهة وقلة الرأي وجه لهم هذا النداء الذي عبّر فيه عن إحاض النصيح لهم والسعي في صلاحهم، فحكى الله مقالته لقومه: (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)^(٤). ومن هذا القبيل ما قاله صالح عليه السلام عندما هلك قومه نتيجة عدم الإصغاء لنصحه ودعوته، فقال: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)^(٥). وقال مثل ذلك شعيب عندما يؤس من إيمان قومه وحلّ بهم من العذاب ما توعّدهم

^١ اللّٰب في علوم الكتاب: ١٨١/٩، لعمر بن علي بن عادل الحسلي الدمشقي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان، ١٤١٩ هـ -

١٩٩٨ م. تحقيق: الشيخ عادل أحمد، والشيخ علي محمد معوض.

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٧٤)، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة عن عويم الداري رضي الله عنه.

^٣ سورة الأعراف: ٦٢

^٤ السورة السابقة: ٦٧-٦٨

^٥ السورة السابقة: ٧٩

به إن لم يؤمنوا بالله ويتبعوا رسوله، وذلك في قوله تعالى: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ)^(١).

وقد وصف الله سبحانه المؤمنين بالنصح في كتابه العزيز، حين تخلفوا عن غزوة تبوك بأعذار حقيقية، فقال عز من قائل: (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٢). وهذا نصح عملي، ووصف لازم لهؤلاء المؤمنين، الذين كان لهم بعض الأعذار التي سببت لهم التخلف عن الغزو مع الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد قاموا بالنصح في إخلاص الإيمان، والعمل الصالح، وعدم الإرجاف، وإثارة الفتن، والقيام بمصالح بيوت المجاهدين.

^١ السورة السابقة: ٩٣

^٢ سورة التوبة: ٩١

المطلب الرابع: البشارة والندرة

مفهوم البشارة:

الباء والشين والراء أصل يدل على ظهور الشيء مع حسن وجمال. وَالْبَشْرَةُ ظاهر جلد الإنسان. يقال: بَشَّرَ بِهِ بَشْرًا، أي: فرح، وَبَشَّرَ فلانا بالأمر فرَّحه به، وَبَشَّرَ فلانا بوجه طلق لقيه به. وأصل هذا أن بَشْرَةَ الإنسان تنبسط عند السرور. وَالْبَشِيرُ الحسن الوجه. وَالْبَشَارَةُ: الجمال والخبر السار لا يعلمه المخبر به. ويقال: بَشَّرَ فلانا يُبَشِّرُهُ تَبَشِيرًا: أخبره بخبر مفرح، وَبَشَّرَ صاحب الدين الناس: وعدهم بثواب الله، وَبَشَّرَتِ الناقة أو النخلة: بدا أول نتائجها، وَالْمُبَشِّرَاتُ الرياح التي تُبَشِّرُ بالغيث^(١). ويظهر من المفهوم اللغوي لكلمة البشارة أنها تطلق على الجمال الظاهر، والخبر السار الذي لا يعلمه المخبر به. إذن فالبشارة: "كل خير صدق يتغير به بشرة الوجه. ويستعمل في الخير والشر ولكن في الخير أغلب"^(٢). وفي الاصطلاح الشرعي: هي الإخبار بمواعيد الله الغيبية السارة للمؤمنين جزاء قيامهم بالإيمان والأعمال الصالحة ابتغاء مرضاة الله والفوز بجنت النعيم. وقد ورد لفظ التبشير في القرآن في غير الأخبار السارة، غير أن العلماء أولوا ذلك بأنه وراد على وجه التهكم والسخرية من الكافرين، كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)^(٣). قال الألوسي^(٤): "والتعبير بالبشارة للتهكم"^(٥).

موارد البشارة في القرآن الكريم:

وردت البشارة في القرآن العظيم على أوجه متنوعة، ولأقوام معينين بسبب صفاتهم الطيبة وأعمالهم الصالحة، وفيما يلي أهم من وردت في حقهم البشارة في القرآن المجيد:

^١ انظر: مقاييس اللغة لاس فارس: ٢٥١/١، والمعجم الوسيط ٥٨/١، وما بعدها، وتقديم اللغة للأزهري: ٢٤٦/١١

^٢ جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: ١٦٨/١

^٣ سورة آل عمران: ٢١

^٤ محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، أبو النشاء: مفسر، محدث، أديب، من المحددين، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها. كان سلفي الاعتقاد، مجتهدا، تقلد الافتاء بلده وعزل، فانقطع للعلم. من كتبه: روح المعاني في التفسير، ودقائق التفسير، وكشف الطرة عن العرة، والاحوة العراقية عن الاسئلة الايرانية، والرسالة اللاهوتية. توفي عام: ١٢٧٠هـ. انظر: الأعلام للزركلي: ١٧٦/٧.

^٥ روح المعاني للألوسي: ٢٨٠/٥

١- **بشارة أصحاب الإنابة:** وهم الذين اجتنبوا الشرك وعبادة الطاغوت، وأحسنوا في استماع كلام الله المجيد، كما أحسنوا في اتباع أوامره ومحاسن طرقه. وذلك في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)^(١).

٢- **بشارة المخبئين:** وهم الذين تخاف قلوبهم عند سماع ذكر الله تعالى، ويصيرون على المصائب، ويؤدون الصلاة على حقيقتها، كما ينفقون مما رزقهم الله في وجوه الخير. وذلك في قوله تعالى: (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ. الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)^(٢).

٣- **بشارة أصحاب الاستقامة:** وهم الذين آمنوا بالله ربا، ثم استقاموا على دينه امتثالاً للأوامر، واجتناباً للنواهي. قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ. نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)^(٣).

٤- **بشارة الأولياء:** وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وبما جاء عنهما، وكانوا يتقون غضب الله وعقابه بامتنال أوامره واجتناب نواهيه. وذلك في قوله تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيََاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٤).

٥- **بشارة الخائفين من الرحمن:** وهم الذين خشوا رهم بالغيب مع اتباعهم لما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم: فقال تعالى: (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشْرَةٌ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)^(٥).

^١ سورة الزمر: ١٧-١٨

^٢ سورة الحج: ٣٤-٣٥

^٣ سورة فصلت: ٣٠-٣٢

^٤ سورة يونس: ٦٢-٦٤

^٥ سورة يس: ١١

٦- **بشارة المجاهدين في سبيل الله:** وهم الذين جمعوا بين الإيمان بالله، والهجرة والجهاد في سبيله؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، باذلين في ذلك أموالهم وأنفسهم. قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ^(١)). وغير ذلك من الآيات التي حملت البشارة لأصحاب الصفات النبيلة والأعمال الشريفة، التي أهلتهم لاستحقاق البشارة من الله العزيز الكريم.

مفهوم النذارة

وهو مصدر للفعل نَذَرَ نَذْرًا وَنِذَارَةً. وَنَذَرَ بِالشَّيْءِ وبالعدو، بكسر الهمزة: عَلِمَهُ فَحَذَرَهُ. أَنْذَرَهُ الشَّيْءُ: أَعْلَمَهُ بِهِ وَخَوْفَهُ مِنْهُ. النَّذَارَةُ: الْإِنْذَارُ، وهو: الإعلام بالشَّيْءِ الَّذِي يُحْذَرُ مِنْهُ. يُقَالُ: أَنْذَرْتُ الْقَوْمَ مَسِيرَ عَدُوِّهِمْ إِلَيْهِمْ فَتَحَرَّزُوا أَيْ: أَعْلَمْتُهُمْ ذَلِكَ فَتَحَرَّزُوا أَيْ: أَعْلَمْتُهُمْ ذَلِكَ فَتَحَرَّزُوا، وَالتَّنَادُرُ أَنْ يُنْذِرَ الْقَوْمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، شَرًّا مَخَوْفًا^(٢). ومن أمثال العرب: قَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ، أَيْ: مَنْ أَعْلَمَكَ أَنْ يَعَاقِبَكَ عَلَى الْمَكْرُوهِ مِنْكَ فِيمَا يَسْتَقْبَلُهُ، ثُمَّ أَتَيْتَ الْمَكْرُوهُ فَعَاقِبَكَ فَقَدْ جَعَلَ لِنَفْسِهِ عِذْرًا يَكْفِي بِهِ لَائِمَةُ النَّاسِ عَنْهُ^(٣).

ومن هنا يعلم أن النذارة تقابل البشارة فيما تدلّ عليه من المعنى، فكما أن التبشير: إخبار فيه سرور، كذلك الإنذار: إخبار فيه تخويف^(٤). ولذا وردت البشارة مقرونة بالنذارة في وصف النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في أكثر من موضع، من القرآن الكريم. قال تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ)^(٥). أَيْ: مَبْشَرًا مِنْ أَطَاعَكَ بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْذِرًا مِنْ عَصَاكَ بِالْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا، وَالذَّلِّ فِيهَا، وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ فِي الْآخِرَةِ^(٦). وَقَالَ تَعَالَى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

^١ سورة التوبة: ٢٠-٢١

^٢ وانظر: المعجم الوسيط: ٩١٢/٢، وتهديب اللغة للأزهري: ٣٠٣/١٤، ولسان العرب لابن مطور: ٢٠١/٥

^٣ انظر: تهذيب اللغة للأزهري: ٣٠٤/١٤

^٤ انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٧٩٧

^٥ سورة البقرة: ١١٩

^٦ انظر: تفسير الطبري ٥٥٧/٢، وما بعدها.

يَعْلَمُونَ^(١). أي: "تبشر من أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار"^(٢). وقال تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)^(٣). أي: "بشيرا لمن أطاعك بثواب الله العاجل والآجل، ونذيرا لمن عصاك بعقاب الله العاجل والآجل"^(٤). وقال تعالى: (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)^(٥). أي: "مبشرا بالجنة من أطاعنا، فانتهي إلى أمرنا ونهيّنا، ومنذرا لمن عصانا وخالف أمرنا ونهيّنا"^(٦).

موارد النذارة في القرآن الكريم

وردت هذه اللفظة بمشتقاتها في القرآن الكريم في مواضع عديدة، نذكر أهم مواردها في الكتاب العزيز على النقاط التالية:

١- أخبر الله سبحانه في القرآن أنّ مهمة الرسل عليهم السلام في إصلاح الأمم التي بعثوا فيها، كانت إخبارهم بما ينتظرهم في الغيب، حتى لا يكون لهم عذر يوم القيامة بأنهم لم يعلموا أو ينذروا، كما وصفهم ربهم حل وعلا بقوله: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)^(٧). وكان رسولنا صلى الله عليه وسلم قد أخذ قسطا كبيرا من هذا الإنذار، فقد أمره الله تعالى بذكر إنذار الرسل الذين مضوا من قبله لينهج نهجهم ويقتفي أثرهم. وذلك في قوله تعالى: (وَإِذْ كُنَّا أَهْلًا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)^(٨). أي: "واذكر لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم، وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه قومهم مثل ذلك فاذكروهم"^(٩). كما أمره الله عز وجل بإنذار قريش مثل إنذار الرسل الذين

^١ سورة ساء: ٢٨

^٢ تفسير ابن كثير: ٥١٨/٦

^٣ سورة فاطر: ٢٤

^٤ تفسير السعدي، ص: ٦٨٨

^٥ سورة الإسراء: ١٠٥

^٦ تفسير الطبري: ٥٧٣/١٧

^٧ سورة النساء: ١٦٥

^٨ سورة الأحقاف: ٢١

^٩ تفسير أبي السعود: ٨٥/٨

ترامت إلى أسماعهم أخبارهم وقصصهم من عاد وثمود، فقال عز من قائل: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ)^(١).

٢- وأخبر الله عز وجل في غير آية أن المقصد الأساس من إنزال الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم هو: الإنذار والتحذير لجميع أهل الأرض من غضب الله، وعقابه العاجل، أو الآجل. ومن ذلك قوله تعالى: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)^(٢). أي: "وأنزلناه أيضا لتنذر أم القرى، وهي: مكة المكرمة، ومن حولها، من ديار العرب، بل، ومن سائر البلدان. فتحذر الناس عقوبة الله، وأخذه الأمم، وتحذرهم مما يوجب ذلك"^(٣). وقوله تعالى: (وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنُكُمْ)^(٤). أي: "بما فيه من الوعيد، ومن بلغ أي: لأنذركم به، يا أهل مكة وسائر من بلغه من الناس كافة، فهو نذير لكل من بلغه"^(٥). وقوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلِ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)^(٦). أي: "لتنذر بالقرآن من يخاف الرحمن، ولتذكر وتعظ به المؤمنين لأنهم المتفعون به"^(٧). وقوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ)^(٨). أي: "أخوفكم وأحذركم ما تستعجلونه من الساعة بالوحي من الله أي بالقرآن لا من قبل نفسي، وذلك شأني وما أمرني الله به"^(٩). وقوله تعالى: (فَإِنَّمَا يَسِرَّنَاهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا)^(١٠). أي: "سهلنا القرآن بلسانك يا محمد لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ يعني المؤمنين وَتُنْذِرَ بِهِ أي القرآن قَوْمًا لُدًّا أي شدادا في

^١ سورة فصلت: ١٣

^٢ سورة الأنعام: ٩٢

^٣ تفسير السعدي، ص: ٢٦٤

^٤ سورة الأنعام: ١٩

^٥ انظر: تفسير القاسمي ٣٢٨/٤ - ٣٢٩

^٦ سورة الأعراف: ٢

^٧ صعوة النفاسير: ٤٠٥/١، محمد علي الصاوي، ط. الأولى، دار الصاوي للطباعة والنشر - القاهرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

^٨ سورة الأنبياء: ٤٥

^٩ فتح البيان في مقاصد القرآن: ٣٣٢/٨، محمد صديق حان الحارثي القُرشي، ط: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صبيدا - بيروت، ١٤١٢ هـ -

١٩٩٢ م. التحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.

^{١٠} سورة مريم: ٩٧

الخصومة"^(١). وقوله تعالى: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)^(٢). أي: "لتنذر قوما، هم العرب، لم يندروا قبل بأس الله وعذابه، إن لم يؤمنوا به، وظلوا على وثنياتهم وضلالهم، لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل، فيصبروا من أهل السعادة"^(٣). وقوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)^(٤). وقوله تعالى: (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)^(٥).

٣- وجاء لفظ الإنذار بخصوص العقوبات الأخروية. فأنذر الله جل وعلا من العذاب في الآخرة وسمّاه قريبا لتحقيق وقوعه، ولأن كل ما يأتي في المستقبل فهو قريب، فقال تعالى: (إِنَّا أُنْذِرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ ثَرَابًا)^(٦). ومن هذا القبيل إنذار المولى جل وعلا للبأس الشديد من عنده وهو العذاب العاجل، فقال: (فِيمَا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)^(٧). وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينذر الناس يوم الحسرة وهو يوم القيامة، الذي يندم الناس فيه ويتحسرون على ما ضيعوا من الفرص الثمينة في الدنيا ولم يقدموا فيها شيئا يقربهم إلى الله وينجيهم من عذابه، فقال: (وَأُنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)^(٨). أي: "يوم يتحسر الناس، المسيء على إساءته والمحسن على قلة إحسانه. إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ: فرغ من الحساب"^(٩).

٤- وتارة يأتي الإنذار بخصوص الأشخاص والأقوام الذين يوجه إليهم الإنذار، كما في قوله تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ. لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقِّ

^١ تفسير الحازن: ١٩٩/٣

^٢ سورة القصص: ٤٦

^٣ التفسير المير في العقيدة والتشريعة والمنهج. ١١٥/٢٠، للدكتور وهبة الزحيلي، ط: الثانية، دار الفكر المعاصر-دمشق، ١٤١٨ هـ.

^٤ سورة السجدة: ٣

^٥ سورة يس: ٥-٦

^٦ سورة الباء: ٤٠

^٧ سورة الكهف: ٢

^٨ سورة مريم: ٣٩

^٩ تفسير الصاوي: ١١/٤

الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ^(١). أي: "إن محمد إلا ذكر لكم لينذر منكم أيها الناس من كان حي القلب، يعقل ما يقال له، ويفهم ما يُبين له، غير ميت الفؤاد بليد"^(٢). وقوله تعالى: (إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)^(٣). أي: "أن إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم، فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار"^(٤). وقوله تعالى: (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)^(٥). أي: "ويخوف أولئك الكافرين الذين نسبوا لله الولد عذابه الأليم. وخصَّهم بالذكر وكرر الإنذار استعظاماً لكفرهم، وإنما لم يذكر المُنذَر به استغناءً بتقدم ذكره في الآيات السابقة"^(٦). وقوله تعالى: (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِّلْمُحْسِنِينَ)^(٧). وهذا إنذار للظلمة من قريش وغيرهم ممن أشركوا بالله، ووقعوا في الظلم، الذي هو وضع الشيء في غير محله، فجعلوا العبادة لغير الله.

^١ سورة يس: ٦٩-٧٠

^٢ تفسير الطبري: ٥٤٩/٢٠

^٣ سورة فاطر: ١٨

^٤ فتح القدير: ٣٩٦/٤، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط: الأولى، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ.

^٥ سورة الكهف: ٤

^٦ انظر: صفوة التفسير للصابوي ١٦٨/٢

^٧ سورة الأحقاف: ١٢

المطلب الخامس: الوعد والوعيد

مفهوم الوعد والوعيد لغة:

الوعد والوعيد مصدران للفعل الثلاثي: وَعَدَ، ويستعمل في الخير والشر، فإذا استعمل في الخير يقال: وَعَدَهُ وَعْدًا أي منّاه بالخير، وإذا استعمل في الشر يقال: وَعَدَهُ وَعِيدًا أي هددته. وفي هذا يقول الأزهري: "وكلام العرب وَعَدْتُ الرجل خيرا، ووَعَدْتُهُ شرا، وأوَعَدْتُهُ خيرا وأوَعَدْتُهُ شرا، فإذا لم يذكروا الخير قالوا: وعدته فلم يدخلوا ألفا، وإذا لم يذكروا الشر قالوا: أوعدته فلم يسقطوا الألف"^(١). وتابعه ابن الأثير^(٢) على ذلك، فقال: "وقد تكرر ذكر الوعد والوعيد، فالوعد يستعمل في الخير والشر. يقال: وعدته خيرا ووعدته شرا، فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا في الخير: الوعد والعدة، وفي الشر الإيعاد والوعيد"^(٣).

مفهوم الوعد والوعيد شرعا:

الوعد في الشرع ما أخبر الله تعالى في كتابه أو رسوله صلى الله عليه في سنته من الأجر والثواب في الدنيا أو الآخرة على الإيمان والأعمال الصالحة. كما أن الوعيد في الشرع هو ما أخبر الله تعالى ورسوله من العقاب والنكال في العاجل أو الآجل جزاء ما يرتكبه المرؤ من مخالفة أوامر الله وارتكاب نواهيه. ولذا قال أهل السنة في معرض تقريرهم لقاعدة أنه لا يجب على الإنسان شيء من أوامر الشريعة بالعقل: "الوعد والوعيد كلامه الأزلي، وعد على ما أمر، وأوعد على ما نهي، فكل من نجا واستوجب الثواب فبوعده، وكل من هلك واستوجب العقاب فبوعيده، فلا يجب عليه شيء من قضية العقل"^(٤).

^١ تهذيب اللغة للأزهري: ٨٦/٣

^٢ المبارك بن محمد الشَّيبَانِي، أبو السعادات ابن الأثير الْحَرَرِيّ، العلامة القاسمي، الكاتب البليغ، مصنف "جامع الأصول"، ومصنف "غريب الحديث"، وغير ذلك. ولد بحريّة ابن عُمَرَ ثم انتقل إلى الموصل وأصل نخدمة الأمير الكبير محاهد الدين قايمار الحادم إلى أن أُهْلِكَ. تُؤمِّي في سنة ست وست مائة بالموصل ودُفِنَ برباطه. انظر: تاريخ الإسلام للدهلي ١٣/١٤٦، و سير أعلام السلاء للدهلي: ٤٨٨/٢١

^٣ النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٠٦/٥

^٤ الملل والنحل: ٤٢/١، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ط: مؤسسة الحلبي، بدون تاريخ. وانظر التفصيل في الفصل في الملل والأهواء والنحل ٣٦/٤، وما بعدها لأبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، ط: مكتبة الخانجي - القاهرة، بدون تاريخ.

موارد الوعد والوعيد في القرآن الكريم

ورد لفظ الوعد والوعيد في القرآن المجيد في مواضع متعددة وآيات متنوعة، فتارة يأتي الوعد من الله للمؤمنين بجنات النعيم في الآخرة، وتارة يعدهم ربهم بصلاح الأحوال والأموال والمعاش والتمكين في الأرض، والأمن من الخوف، والرغد في العيش، والطمأنينة في القلوب. وذلك كله في مقابل اتصافهم بمقامات الإيمان وأدائهم للفرائض والواجبات والمستحبات على الطريقة التي ورد بها الشرع من كتاب وسنة، مع تجريد النية من شوائب الشرك والرياء والسمعة وحب الجاه والثناء. وأما من حاد عن الصراط المستقيم بالكفر والشرك والعناد لرب الأرباب أو بالفسق والفجور والعصيان، فقد أوعدهم الملك الجبار بإيقاع العقوبة والنكال في الآخرة من جحيم وحميم وسموم وزمهرير، كما أوعدهم في هذه الدنيا بأنواع من العقوبات العاجلة من الخسف والزلازل، والخوف والتقاتل والاختلاف، والقحط وشح الأمطار. وفيما يلي التفصيل لذلك بالشواهد والأمثلة من آيات الذكر الحكيم.

أولاً: الوعد من الله في القرآن الكريم:

الآيات الوارد في الوعد من الله كثيرة، نكتفي ببعض منها، مع الإشارة إلى نوع الثواب والجزاء الذي ورد في الآية بخصوصه، وذلك فيما يأتي:

١- الوعد بالحسنى، قال تعالى: (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)^(١). ويعني جل ثناؤه بالحسنى: الجنة، كما في تفسير الطبري^(٢).

٢- الوعد بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار، كما في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا)^(٣).

^١ سورة النساء: ٩٥

^٢ تفسير الطبري: ٩٦/٩

^٣ سورة النساء: ١٢٢

٣- المغفرة والأجر العظيم، وذلك في قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)^(١).

٤- المساكن الطيبة والرضوان من الله، كما في قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٢).

٥- الاستخلاف في الأرض للمؤمنين والتمكين لدينهم، وحصول الأمن من الخوف، كما قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)^(٣).

٦- النصر على الأعداء، كما في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَتَقَمَّتْ مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)^(٤).

٧- بركات السماء والأرض من الأمطار والثمار والزروع وغيرها، كما قال عز وجل: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)^(٥).

٨- الحياة الطيبة في الدنيا والجزاء الحسن في الآخرة، كما قال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٦).

٩- إذهاب الخوف والحزن من قلوب المؤمنين، وذلك في قوله تعالى: (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(٧).

^١ سورة المائدة: ٩

^٢ سورة التوبة: ٧٢

^٣ سورة البور: ٥٥

^٤ السورة السابقة: ٤٧

^٥ سورة الأعراف: ٩٦

^٦ سورة الحل: ٩٧

^٧ سورة القرة: ١١٢

ثانياً: الوعيد من الله في القرآن الحكيم

والآيات الواردة في الوعيد كثيرة أيضاً، نكتفي بالنماذج التالية، مع ذكر العقوبات التي أشارت إليها الآيات في مقام الوعيد:

١- دخول النار والخلود فيها والعذاب المهيّن، وذلك في قوله تعالى: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)^(١).

٢- اللعنة والعذاب المقيم، كما قال عز وجل: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)^(٢).

٣- النار التي وقودها الناس والحجارة، كما في قوله تعالى: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)^(٣).

٤- الخزي في الدنيا والعذاب الشديد يوم القيامة، كما في قوله: (فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)^(٤).

٥- صلي النار، وتحديد جلودهم كلما احترقت، ليزيد إحساسهم بالألم والعذاب، كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا)^(٥).

٦- تسليط الأعداء عليهم، وإذاقتهم أنواع الذل من الأسر والجزية وغيرها، كما قال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ)^(٦).

٧- العذاب الأدنى، وهو مصائب الدنيا في الأنفس والأموال^(٧)، كما في قوله عز وجل: (وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)^(٨).

^١ سورة النساء: ١٤

^٢ سورة التوبة: ٦٨

^٣ سورة البقرة: ٢٤

^٤ سورة البقرة: ٨٥

^٥ سورة النساء: ٥٦

^٦ سورة الأعراف: ١٦٧

^٧ انظر: تفسير الطبري ١٨٨/٢٠

^٨ سورة السجدة: ٢١

المبحث الثاني:

طائفة من الأساليب اللغوية للقرآن الكريم في الترغيب والترهيب

وفيه المطالب التالية :

المطلب الأول: الأمر

المطلب الثاني: النهي

المطلب الثالث: الاستفهام

المطلب الرابع: الترجي

المطلب الخامس: المرح والزم

المطلب السادس: التوكيد

المطلب السابع: التقابل والطباق

المطلب الثامن: التعريض والتصريح

المطلب التاسع: التكرار

المطلب الأول: الأمر

الأمر لغة:

هذا البناء يدور حول معان عدة، منها: الأمر من الأمور، و الأمر: ضد النهي، والأمر بفتح الميم: النماء والبركة. يقال: أمر عليهم أمراً وإمارة وإمرة: صار أميراً عليهم. وأمر فلاناً أمراً وإمارةً وأميرةً: كلفه شيئاً، والأمر منه: أمر. والإمارة: منصب الأمير وجزء من الأرض يحكمه أمير. والأمر: الحال والشأن. والأمر: الطلب أو المأمور به، وجمعه: أوامر^(١).

الأمر اصطلاحاً:

الأمر في الاصطلاح: هو طلب حصول الفعل على وجه الاستعلاء. وهو طلب تحقيق شيء ما، ماديٍّ أو معنويٍّ^(٢). وللأمر صيغ أربع، كل منها تفيد طلب حصول الفعل، وهي:

١- فعل الأمر: كقوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)^(٣). وقوله عز وجل: (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا)^(٤).

٢- الفعل المضارع المقرون بلام الأمر: كما في الآية: (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ)^(٥). وقوله: (فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ)^(٦).

٣- اسم فعل الأمر: نحو: صه بمعنى: اسكت، ومه بمعنى: اكفف، وعليك بمعنى: الزم. ومنه: قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)^(٧).

٤- المصدر النائب عن فعل الأمر: كقوله تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)^(٨) أي: وأحسنوا بهما.

^١ انظر: مقاييس اللغة لسان فارس ١/١٣٧، والمعجم الوسيط: ٢٦/١

^٢ انظر: حواهر البلاغة، ص: ٧١، لأحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ط: المكتبة العصرية - بيروت، التحقيق: د. يوسف الصميلي، والبلاغة العربية: ٢٢٨/١، لعبد الرحمن بن حسن حنكة الميداوي الدمشقي، ط: الأولى، دار القلم - دمشق، والدار الشامية - بيروت، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، وعلوم البلاغة، ص: ٧٥، لأحمد بن مصطفى المراغي، ط: الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت - لسان، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

^٣ سورة الأنفال: ٦٠

^٤ سورة هود: ٣٧

^٥ سورة الطلاق: ٧

^٦ سورة البقرة: ٢٨٢

^٧ سورة المائدة: ١٠٥

^٨ سورة النساء: ٣٦

أسلوب الأمر في آيات الترغيب أو الترهيب

للعرب أساليب متنوعة في تأدية المعاني وإيصالها للآخرين، فلا غرو أن القرآن الكريم نزل على تلك الأساليب، يختار منها أحسنها وأجودها. وأسلوب الأمر من أهم الأساليب العربية التي يتأذى بها المعنى. ولما كانت هذه الصيغة كما مر: طلب حصول الفعل على وجه الاستعلاء أي من جهة عليا إلى جهة سفلى في المرتبة، كثر ورود الآيات بها، لكثرة الأوامر التي يتلقى العباد من الله عز وجل في جميع المجالات لإصلاح معاشهم ومعادهم. وأغلب هذه الأوامر والأحكام تشتمل على الترغيب أو الترهيب صراحة أو إشارة.

أولا: آيات الترغيب الواردة على أسلوب الأمر

صيغة الأمر الواردة في الآيات لا تدل على الترغيب بنفسها غالبا، وإنما تكون الدلالة على الترغيب عند النظر إلى ما اشتملت عليه الآية من الجزاء والثواب لمن امتثل هذا الأمر أو نفذ هذا الحكم. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)^(١). في الآية أمر من الله تعالى للمؤمنين بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة. وفيها أيضا ترغيب في القيام بهذه الأوامر بذكر ثواب ذلك عند الله، الذي لا يضيع أجر المحسنين. وقوله تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٢). الأمر هنا قوله: "فاتبعوني"، ثم ذكر نتيجة الاتباع، التي هي استحقاق العبد لمحبة الله والحصول على مغفرة الذنوب. كما قال الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسير الآية: "انتقال إلى الترغيب بعد الترهيب على عادة القرآن"^(٣). وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(٤). في قوله: "لعلكم تفلحون" ترغيب لتنفيذ الأوامر السابقة، كما يقول الإمام ابن كثير: "لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، التاركين للدين القويم، ورغبهم في ذلك بالذي أعدّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة

^١ سورة البقرة: ١١٠

^٢ سورة آل عمران: ٣١

^٣ التحرير والتوير لاس عاشور: ٢٢٤/٣

^٤ سورة المائدة: ٣٥

العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحول ولا تزول^(١). وقوله تعالى: (افْرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)^(٢). في هذا الأمر ترغيب في الجهاد بالمال والنفس بما يترتب على القيام به من الخير العظيم والأجر الجزيل. وقوله تعالى: (قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(٣). في الآية ترغيب لتقوى الله من خلال صيغة الأمر، مع ذكر الفلاح الذي هو مُسَبَّب عن التقوى، كما يقول الإمام الرازي: "أي فاتقوا الله بعد هذه البيانات الجلية، والتعريفات القوية، ولا تقدموا على مخالفته لعلكم تصيرون فائزين بالمطالب الدنيوية والدينية العاجلة والآجلة"^(٤). والقرآن مليء بتلك الأوامر المشتملة على الترغيب في ثواب الله، الحاصل لهم بسبب تنفيذ الأوامر، والعمل بالأحكام.

ثانياً: آيات الترهيب الواردة على أسلوب الأمر

ترد صيغة الأمر في القرآن للترهيب والتهديد، وذلك في مقام عدم الرضا بالمأمور به، لأن المعنى الحقيقي لصيغة الأمر: طلب فعل الشيء، وهو يكون غير مراد في بعض الأحيان باعتبار القرائن المحيطة بالسياق^(٥)، كما في قوله تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)^(٦). يقول ابن كثير: "هذا من باب التهديد والوعيد الشديد"^(٧). ومثل ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)^(٨). في الآية ترهيب

^١ تفسير ابن كثير: ١٠٥/٣

^٢ سورة التوبة: ٤١

^٣ سورة المائدة: ١٠٠

^٤ تفسير الرازي: ٤٤٢/١٢

^٥ انظر: معناه العلوم للسكاكي، ص: ٣١٨، ليوسف بن أبي بكر السكاكي الحواري أبو يعقوب، ط: الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م. التحقيق والتعليق: نعيم ررور.

^٦ سورة الكهف: ٢٩

^٧ تفسير ابن كثير ١٥٤/٥

^٨ سورة فصلت: ٤٠

من الإلحاد في آيات الله على صيغة الأمر. والدلالة على ذلك أن الأمر الوارد في الآية ليس المقصود منه أن ينفذ، وإنما هو وارد على إراد التهديد لمن يتناوله، بدلالة أنه غير مرضي عند الله. كما يقول الألوسي رحمه الله تعالى: "تهديد شديد للكفرة الملحددين الذين يلقون في النار وليس المقصود حقيقة الأمر إنه بما تعملون بصير فيجازيكم بحسب أعمالكم"^(١). وقوله تعالى: (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)^(٢). في الآية ترهيب من عبادة غير الله تعالى على صيغة الأمر، الذي هو غير مراد تنفيذه، بل المقصود منه التهديد، والتنفير، كما يقول أبو السعود: "وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم مالا يخفي كأهم لما لم ينتهوا عما هموا عنه أمروا به كي يحل بهم العقاب"^(٣). وقوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُلْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)^(٤). في الآية أمر بالتمتع في هذه الدنيا، وإرخاء العنان لشهوات النفس، المخالفة لدين الله تعالى، تهديدا لهم وترهيبا؛ لأن ذلك يؤدي إلى سخط الله تعالى، وأليم عقابه، كما يقول أبو السعود في تفسير الآية: "تهديدا لأولئك الضالين المضلين ونعيا عليهم وإيذانا بأنهم لشدة إبائهم قبول الحق وفرط انهماكهم في الباطل وعدم ارعوائهم عن ذلك بحال أحقاء بأن يضرب عنهم صفحا ويعطف عنهم عنان العظة ويخلوا وشأنهم ولا ينهاهم عنه، بل يؤمروا بمباشرته مبالغة في التخلية والخذلان ومسارة إلى بيان عاقبته الوخيمة... وفيه من التهديد الشديد والوعيد الأكيد مالا يوصف"^(٥). وقوله تعالى: (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)^(٦). أي "استهزئوا بدين الله كما تشتهون وهو أمر للتهديد"^(٧). وقوله تعالى: (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)^(٨). في الآية الأمر بالثبات على الكفر. وهذا الثبات ليس بمقصود حقيقة، بل المراد به

^١ روح المعاني للألوسي: ٣٧٨/١٢

^٢ سورة الرمر: ١٥

^٣ تفسير أبي السعود: ٢٤٧/٧

^٤ سورة إبراهيم: ٣٠

^٥ تفسير أبي السعود: ٤٦/٥

^٦ سورة التوبة: ٦٤

^٧ صموة التفاسير للصابوي: ٥٠٨/١

^٨ سورة الأنعام: ١٣٥

الترهيب من الكفر، الذي يؤدي إلى العاقبة السيئة في العاجل والآجل، كما يقول الإمام أبو السعود: "والمعنى اثبتوا على كفرهم ومعاداتكم إني عامل ما أمرت به من الثبات على الإسلام والاستمرار على الأعمال الصالحة والمصابرة وإيراد التهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد كأن المهدّد يريد تعذيبه مجمعاً عليه فيحمله بالأمر على ما يؤدي إليه، وتسجيل بأن المهدّد لا يتأتى منه إلا الشرُّ كالذي أمر به بحيث لا يجد إلى التقصّي عنه سبيلاً"^(١).

وفيما ذكرته من الأمثلة كفاية للدلالة على الأوامر الواردة في القرآن، على وجه التهديد، والترهيب. وذلك عندما يكون المأمور به من مساخط الله، التي لا يتصور توجيه الأمر إليه؛ لأن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعاصي، فتعين بيان الغرض الذي من أجله ورد الأمر، وهو التحذير من فعل هذا المأمور، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع، والمآب.

^١ تفسير أبي السعود: ١٨٨/٣

المطلب الثاني: النهي

النهي لغة:

النون والهاء والياء أصل يدل على البلوع إلى الغاية والنهاية. يقال: نَهَى الشيء إليه نَهْيًا: بلغ، ومنه أَنتَهَيْتُ إليه الخبر: بلغتَه إياه. ونَهَى عن الشيء: زجر. ونَهَى الله عن كذا: حرّمه. أَنتَهَى الشيء: بلغ نهايته، وأنتَهَى الشيء إليه: وصل، وأنتَهَى عن الشيء: كف عنه. تَنَاهَى الشيء: بلغ نهايته، وتَنَاهَى عن الشيء: كف عنه، وتَنَاهَى القوم عن المنكر: هَمى بعضهم بعضا عنه. والتُّهْيَةُ: العقل، لأنه يَنْهَى عن قبيح الفعل والجمع نُهْيٌ^(١).

النهي في الاصطلاح:

النهي هو طلب الكف عن الشيء على وجه الاستعلاء مع الإلزام، وله صيغة واحدة، وهي المضارع المقرون بلا الناهية. وقد تخرج هذه الصيغة عن أصل معناها إلى معانٍ أخرى، تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال^(٢). فإن استعمل على سبيل التضرع كقول المبتهل على الله: لا تكلني إلى نفسي، سمي دعاء، وإن استعمل في حق المساوي الرتبة سمي التماسا، وإن استعمل في حق المستأذن سمي إباحة، وإن استعمل في مقام التسخط سمي تهديدا^(٣).

أسلوب النهي في آيات الترهيب:

يكثر أسلوب النهي في القرآن الكريم، فكما أن أسلوب الأمر يقتضي الوجوب، أي الاتيان بفعل المأمور وجوبا، فكذلك أسلوب النهي يقتضي التحريم، أي كون الفعل المنهي عنه محرما في الغالب. والوجوب والتحريم من أعظم الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال المكلفين. ومن هنا جاء القرآن بهذه الصيغة، مقرونة بما يترتب على عدم الانصياع لها من نتائج وخيمة. وذلك يقتضي الوعيد والترهيب، لما أنّ النهي يفيد الترهيب من خلال ما اقترن به من الوعيد أو عن طريق الصيغة المجردة، مع استحضر عظمة الناهي وشدة سطوته. وفيما يلي نذكر أمثلة لأسلوب النهي الذي يستفاد منه الترهيب والتخويف. ومن هذا القبيل قوله تعالى: (وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا

^١ انظر: معجم مقاييس اللغة لاس فارس ٣٥٩/٥-٣٦٠، والمعجم الوسيط: ٩٦٠/٢

^٢ انظر: حواهر البلاغة للهاشمي، ص: ٧٦

^٣ انظر: معجم العلوم للسكاكي، ص: ٣٢٠

لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ^(١). هذه الآية الكريمة فيها من الترهب ما يردع المخالف أيما ردع، فأسلوب النهي قد تضمن هذا الترهب، وذلك بالنهي عن الابتعاد عن إمساك المطلقة، إرادة إلحاق الضرر بها، والاعتداء عليها، ثم ذكر نتيجة من يقترب هذا الفعل المنهي عنه، ووصفه بالظلم، الذي تكون عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)^(٢). في الآية النهي عن التفرق، والاختلاف، مع ذكر الوعيد بالعذاب العظيم، كما يقول الألوسي: "وأولئك إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما في حيز الصلة لهم عَذَابٌ عَظِيمٌ لا يكتفه على تفرقهم واختلافهم المذكور، وفي ذلك وعيد لهم وتهديد للمتشبهين بهم لأن التشبيه بالمغضوب عليه يستدعي الغضب"^(٣). وقوله تعالى: (وَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا)^(٤). فهي الله تعالى في الآية عن أخذ الحرام من أموال اليتامى بدل الحلال من مال الرجل، كما هي عن أكل أموال اليتامى مضمومة إلى أموالهم، ورتب عليه كون هذا الأمر المنهي عنه ذنبا عظيما، وجرمًا كبيرًا، يستحق صاحبه العقوبة والإذلال. وفي ذلك من التهديد مالا يخفى. وقوله تعالى: (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا)^(٥). والجملة "إنه كان فاحشة": تعليل للنهي مما يقتضي التهديد والوعيد، كما يقول الخازن^(٦) رحمه الله: "إنما سماه فاحشة لأن زوجة الأب في منزلة الأم، ونكاح الأمهات حرام. فلما كان ذلك كذلك سماه الله فاحشة لأنه من أقبح المعاصي. وَمَقْتًا يعني: أنه يورث المقت من الله وهو أشد الغضب وغاية الخزي والخسارة. وَسَاءَ سَبِيلًا أي وبئس طريقا لأنه يؤدي إلى مقت الله"^(٧). وقوله تعالى: (هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ

^١ سورة البقرة: ٢٣١

^٢ سورة آل عمران: ١٠٥

^٣ تفسير الألوسي: ٢٤٠/٢

^٤ سورة النساء: ٢

^٥ سورة النساء: ٢٢

^٦ علي بن محمد بن إبراهيم الشيعي علاء الدين المعروف بالخازن. عالم بالتفسير والحديث، من فقهاء الشافعية. بغدادى الاصل. وكان حارن الكتب بالمدرسة السمساطية فيها. سمع الحديث، وكان صالحا، حَيِّراً. جمع، وألف، فمن أهم كتبه: «للب التأويل في معاني التبريل» في التفسير، و«شرح عمدة الأحكام»، وكان صوفيا بالخانقاه المذكورة، وكان نبوش الوجه، ذا تودد وسمت حسن. وتوفي بخل عام: ٧٤١هـ. انظر:

شذرات الذهب لابن عماد الحسلي ٢٢٩/٨، والأعلام للزركلي: ٥/٥

^٧ تفسير الخازن: ٣٥٨/١

فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١). يقول أبو السعود رحمه الله في تفسير الآية: "نهي عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذية، ونكر السوء، مبالغة في النهي، أي لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوءها أصلاً ولا تطردوها ولا ترييوها إكراماً لآية الله تعالى. «فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»: جواب النهي"^(٢). وقوله تعالى: (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ)^(٣). في الآية النهي عن دعاء غير الله مما لا ينفع، ولا يضر، مع ذكر ما يترتب على فعل ذلك المنهي من وسم صاحبه بالظلم، المعروف عاقبته في الدنيا والآخرة. وذلك صريح في الترهيب والتهديد. وقوله تعالى: (وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ)^(٤). يقول أبو السعود رحمه الله: "والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم، والتهديد عليه"^(٥).

أسلوب النهي في آيات الترغيب

وقد يفيد أسلوب النهي التشويق والترغيب، خاصة إذا اقترن بالشرط المعلق بالنهي، المؤكّد لما أفاده النهي من ترك بعض الصفات، التي لا ينبغي أن يتصف بها المؤمن الحقيقي. ومن ذلك قوله تعالى: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٦). نهي الله تعالى المؤمنين عن أن يصيبهم الوهن، أو ينتابهم الحزن؛ إذ هم المستحقون للعلو المطلق على الأعداء، والانتصار عليهم عند اتصافهم بالإيمان الحقيقي. وفي ذلك ترغيب وتشويق للمؤمنين في الثبات على الجهاد، والصبر على تكاليفه، ومشقاته. وفي ذلك يقول أبو السعود رحمه الله في تفسير الآية: "تشجيع للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتسليّة عما أصابهم يوم أحد من القتل والقرح"^(٧). وقوله تعالى: (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً)^(٨). في الآية النهي للمؤمنين عن التواني والضعف في مواجهة

^١ سورة الأعراف: ٧٣

^٢ تفسير أبي السعود: ٢٤٢/٣

^٣ سورة يونس: ١٠٦

^٤ سورة هود: ١١٣

^٥ تفسير أبي السعود: ٢٤٥/٤

^٦ سورة آل عمران: ١٣٩

^٧ تفسير أبي السعود: ٨٨/٢

^٨ سورة النساء: ١٠٤

الكفار، مع الحثّ على الصبر في الألم، الذي ينالهم من جراء ذلك، فإن هذا الألم يصيب الأعداء أيضاً، مع زيادة رجاء المؤمنين من الله مالا يرجوه الكفار من ثواب الآخرة. وفي هذا ترغيب لهم في مقاتلة الكفار، والصبر على ذلك رجاء ثواب الله، وحسن جزائه في الآخرة.

ودلالة النهي على الترهب ظاهرة، يفهمها القارئ من الآيات المشتملة عليه بأدنى تأمل. أما دلالة النهي على الترغيب، فتحتاج إلى إعمال فكر، وزيادة تأمل. وقد أشرت آنفاً إلى مسلك اشتغال النهي على الترغيب، وذلك بأن يتوجّه النهي إلى صفات وأفعال، يجب على المؤمن اجتنابها، والحذر من اقترافها، فيترتب على هذا الاجتناب من ثواب الله، وحسن عطائه ما يجعل المؤمن راغباً في الاجتناب عن هذه المنهيات، والابتعاد عن هذه المخالفات طوعية من غير إكراه، رغبة فيما يترتب عليها من الثواب الجزيل، والنعيم المقيم.

المطلب الثالث: الاستفهام

الاستفهام لغة

الاستفهام: مأخوذ من فَهَمَ فَهْمًا: حسن تصوّره وجاد استعداده للاستنباط، ويقال: فَهَمْتُ عَنْ فلان وَفَهِمْتُ مِنْهُ، فهو فَاهِمٌ وهو فَهِمٌ وَفَهِيمٌ. اسْتَفْهَمَهُ: سَأَلَهُ أَنْ يُفْهِمَهُ، ويقال: اسْتَفْهَمَ مِنْ فلان عَنِ الأَمْرِ: طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُ. الْفَهْمُ: حَسَنُ تَصَوُّرِ الْمَعْنَى وَجُودَةُ اسْتِعْدَادِ الذَّهْنِ لِلِاسْتِنْبَاطِ، وَجَمْعُهُ: أَفْهَامٌ وَفُؤُومٌ^(١).

الاستفهام اصطلاحاً

الاستفهام هو: "استعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين، فحصولها هو التصديق وإلا فالتصور"^(٢). وقيل: هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل وذلك بأداة من إحدى أدواته الآتية، وهي: الهمزة، وهل، وما، ومتى، وأيان، وكيف، وأين، وأنى، وكم، وأي^(٣).

الاستفهام في آيات الترغيب والترهيب

قد تخرج أدوات الاستفهام عن معناها الأصلي، الذي هو طلب العلم بالجهول، فيستفهم بها عن الشيء مع العلم به لأغراض أخرى تفهم من سياق الكلام ودلالته. ومن أهم هذه الأغراض التشويق والتهديد^(٤). أما التشويق فهو الترغيب إلى عمل محبوب أو خبر مفيد عن طريق عرض السؤال على الشخص الذي يراد ترغيبه في العمل أو الخير. وفي القرآن أمثلة عديدة للاستفهام الذي غرضه التشويق والترغيب في العمل كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)^(٥). يقول الطاهر ابن عاشور رحمه الله: "والاستفهام مستعمل في العرض مجازاً لأن العارض قد يسأل المعروض عليه ليعلم رغبته في الأمر المعروض كما يقال: هل لك في كذا، أو هل لك إلى كذا، والعارض هنا كناية عن التشويق إلى الأمر المعروض،

^١ انظر: المعجم الوسيط ٧٠٤/٢

^٢ التوقيف على مهمات التعاريف للماوي، ص: ٤٩

^٣ جواهر البلاغة للهاشمي، ص: ٧٨

^٤ انظر: جواهر البلاغة للهاشمي، ص: ٧٩

^٥ سورة الصف: ١٠

وهو دلالة إياهم على تجارة نافلة^(١). ومن ذلك قوله تعالى: (قُلْ أُوْبِتُّكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ آتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)^(٢). يقول أبو السعود: "إثر ما بين شأن مزخرفات الدنيا وذكر ما عنده تعالى من حسن المآب إجمالا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتفاصيل ذلك المحمل للناس مبالغة في الترغيب. والخطاب للجميع والهمزة للتقرير، أي: أأخبركم بما هو خير مما فصل من تلك المستلذات المزيّنة لكم. وإيهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق إليه"^(٣). وقوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)^(٤). يقول الإمام الرازي رحمه الله تعالى في تفسير الآية: "إن قيل: فما معنى قوله تعالى: من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ولأي فائدة جرى الكلام على طريق الاستفهام. قلنا: إن ذلك في الترغيب في الدعاء إلى الفعل أقرب من ظاهر الأمر"^(٥).

ومن الاستفهام المستعمل في التشويق إلى الأخبار المفيدة قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ)^(٦). في الآية: "الاستفهام مستعمل في التشويق إلى رؤية ذلك"^(٧). ومن هذا القبيل قوله تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)^(٨). يقول ابن عاشور رحمه الله: "والاستفهام مستعمل في التشويق إلى الخبر مجازا، وليس مستعملا في حقيقته، سواء كانت هذه القصة قد قصت على النبي صلى الله عليه وسلم من قبل، أم كان هذا أول قصصها عليه. وفي قوله: إذ رأى نارا زيادة في التشويق كما يأتي قريبا. وأوثر حرف هل في هذا المقام لما فيه من معنى التحقيق لأن هل في الاستفهام مثل قد في

^١ التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٨/١٩٣-١٩٤

^٢ سورة آل عمران: ١٥

^٣ تفسير أبي السعود: ١٥/٢

^٤ سورة القرة: ٢٤٥

^٥ تفسير الرازي: ٥٠٠/٦

^٦ سورة الرعد: ٢٨-٢٩

^٧ التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٣/٢٢٧

^٨ سورة طه: ٩-١٠

الإخبار^(١). ومثله قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ)^(٢). "الافتتاح بالاستفهام عن بلوغ خبر العاشية مستعمل في التشويق إلى معرفة هذا الخبر لما يترتب عليه من الموعظة"^(٣).

وقد يرد الاستفهام في معنى التهديد والترهيب، فيكون معنى الاستفهام الحقيقي غير مراد، وإن سياق الجملة يؤكد على أن الغرض من هذا التركيب هو التهديد والتخويف، لا السؤال وطلب الكشف عن المجهول. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)^(٤). يقول ابن عاشور: "والاستفهام في بأي ذنب تقرير، وإنما سئلت عن تعيين الذنب الموجب قتلها دون أن تسأل عن قاتلها لزيادة التهديد؛ لأن السؤال عن تعيين الذنب، مع تحقق الوائد الذي يسمع ذلك السؤال أن لا ذنب لها إشعار للوائد بأنه غير معذور فيما صنع بها"^(٥). وقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)^(٦). "فالاستفهام في قوله: ألم تر تقرير، والمخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم تثبيتا له ووعدا بالنصر، وتعريضا للمعاندين بالإنذار بمثله، فإن ما فعل بهذه الأمم الثلاث موعظة وإنذار للقوم الذين فعلوا مثل فعلهم من تكذيب رسل الله، قصد منه تقريب وقوع ذلك وتوقع حلوله"^(٧). وقوله تعالى: (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)^(٨). يقول أبو السعود: "وفيه من المبالغة في تسليية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشديد التهديد لقومه مالا يخفى"^(٩).

^١ التحرير والتوير لاس عاشور: ١٦/١٩٣

^٢ سورة العاشية: ١

^٣ التحرير والتوير لاس عاشور: ٣٠/٢٩٤

^٤ سورة التكوين: ٨-٩

^٥ التحرير والتوير لاس عاشور: ٣٠/١٤٦

^٦ سورة الفجر: ٦

^٧ التحرير والتوير لاس عاشور: ٣٠/٣١٧

^٨ سورة الملك: ١٨

^٩ تفسير أبي السعود: ٨/٩

المطلب الرابع: الترجيبي

الترجيبي لغة:

الترجيبي لغة من الفعل رجا يرجو رجاء، وذلك بعد أن زيد عليه التاء في البداية والتضعيف في عينه، فصار ترجى يترجى ترجياً. والرجاء في أصل اللغة يأتي لمعنيين، يدل أحدهما على الأمل، والآخر على ناحية الشيء. فالأول الرجاء، وهو الأمل. يقال رجوت الأمر أرجوه رجاء. ثم اتسع في ذلك، فرمما عبر عن الخوف بالرجاء. كما قال الله تعالى: (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)^(١)، أي لا تخافون له عظمة. وأما الآخر فهو الرجا بالقصر: أي الناحية من البئر؛ وكل ناحية رجا^(٢).

الترجيبي اصطلاحاً:

أما الترجيبي اصطلاحاً فهو: ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله، ومن ثم لا يقال: لعل الشمس تغرب؛ لأن فيه وثوق بحصوله. والارتقاب الانتظار، ويدخل فيه الطمع والإشفاق فالطمع ارتقاب المحبوب، نحو: لعلك تعطينا. والإشفاق ارتقاب المكروه، نحو: لعلي أموت الساعة^(٣). ولهذا الأسلوب حرفان، هما: لعل، وعسى، فيستعمل في المتوقع فيه لعل، وفي المطموع فيه عسى، وكلاهما حرفان للترجيبي، وقد يردان مجازاً لتوقع محذور، ويسمى الإشفاق، نحو: (وَمَا يُذْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)^(٤). وقد يقول الراجي إذا قوي رجاءه: سأفعل كذا، وسيكون كذا^(٥). وقال سيويه^(٦): لعل وعسى: طمع وإشفاق^(٧).

أسلوب الترجيبي في آيات الترغيب والترهيب

في القرآن الكريم آيات عديدة وردت على أسلوب الترجيبي، مستعملاً فيها "لعل وعسى"، وأشارت فيما سبق أن هذين الحرفين يدلان على التوقع لمرجو محبوب أو مكروه مخوف، على أن كلا منهما يستعمل في الطمع وفي الإشفاق معاً. ومن الأمثلة الواردة في الترغيب على أسلوب

^١ سورة يوح: ١٣

^٢ انظر: معجم مقاييس اللغة لاس فارس ٤٩٤/٢

^٣ انظر: دستور العلماء ١٩٦/١

^٤ سورة الرحرف: ١٧

^٥ انظر: الكليات لأبي الفداء الحفصي، ص: ٤٦٩

^٦ أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر العارسي ثم البصري. إمام النحو، حجة العرب. وقد طلب الفقه والحديث مدة، ثم أقبل على العربية، فرع وصاد أهل العصر، وألف فيها كتابه الكبير، الذي لا يدرك شأوه فيه. مات سنة ثمانين ومائة. انظر: سير أعلام السلاء للدهي ٣٥١/٨-٣٥٢/٨

^٧ الأصول في النحو لاس سراج: ٢٢٩/١-٢٣٠

الترجي بحرف لعلّ قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(١). في الآية ترغيب وحث على الثبات عند لقاء العدو، ولزوم ذكر الله تعالى، مشيراً إلى أن القيام بما ذكر يترتب عليه الفلاح، والظفر بالمطلوب في الدنيا والآخرة. يقول الرمحشري^(٢) في الآية: "لعلكم تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة. وفيه إشعار بأنّ على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون هما، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك، وإن كانت متوزعة عن غيره"^(٣). وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(٤). "أي: افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه، غير مستيقنين ولا تتكلموا على أعمالكم"^(٥). وقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(٦). دلت الآية على الترغيب في تقوى الله عز وجل، والحث عليها، ورتبت على ذلك أن يكون صاحب التقوى راجياً للفلاح الأبدي والفوز السرمدي.

أما الترغيب بأسلوب الترجي بحرف "عسى"، فقد وردت بخصوص ذلك آيات كثيرة، نذكر منها ما يلي: قال تعالى: (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا)^(٧). حث الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على مقاتلة الأعداء، ومجاهدة الكفار، وتحريض المؤمنين على ذلك، موضحاً النتيجة الحتمية لهذه الأعمال، وهي حماية الله للمؤمنين من بأس الكافرين وأذاهم، كما يقول الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى: "فعسى هنا مستعارة للوعد. والمراد بهم هنا كفار مكة،

^١ سورة الأنفال: ٤٥

^٢ محمود بن عمر بن محمد بن عمر، أبو القاسم، الرمحشري، العلامة، كبير المعتزلة، وكان داعية إلى الاعتزال، وصنف التصانيف البديعة، منها: "الكشاف في تفسير القرآن العظيم" لم يصف قلبه مثله. و"العائق في تفسير الحديث" و"أساس البلاغة" في اللغة، وغيرها من الكتب المفيدة. حاور مكة رمانا، فكان يسمى "حار الله" لذلك. وتوفي ليلة عرفة، سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة نحر حياية حواررم، بعد رجوعه من مكة. انظر: تاج التراجم، ص: ٢٩١-٢٩٢، لأبي العلاء قاسم بن فطلويعا السودوي الحنفي، ط: الأولى، دار القلم - دمشق، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م. التحقيق: محمد حير رمضان يوسف. وسير أعلام السلاء للذهبي: ١٥١/٢٠

^٣ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٢/٢٢٦، محمود بن عمرو، الرمحشري، ط: الثالثة، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٧ هـ.

^٤ سورة الحج: ٧٧

^٥ الكشاف للرمحشري: ١٧٢/٣

^٦ سورة البقرة: ١٨٩

^٧ سورة النساء: ٨٤

فآلايات ثمينة لفتح مكة. وجملة والله أشد بأسا وأشد تنكيلا تذيل لتحقيق الرجاء أو الوعد^(١). وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)^(٢). "والرجاء المستفاد من فعل عسى مستعمل في الوعد الصادر عن المتفضل على طريقة الاستعارة. وذلك التائب لا حق له في أن يعفى عنه ما اقترفه لأن العصيان قد حصل، وإنما التوبة عزم على عدم العودة إلى الذنب، ولكن ما لصاحبها من الندم والخوف الذي بعث على العزم دل على زكاء النفس فجعل الله جزاءه أن يحو عنه ما سلف من الذنوب تفضلا من الله فذلك معنى الرجاء المستفاد من عسى"^(٣). وقال تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا)^(٤). حث الله سبحانه في الآية نبيه صلى الله عليه وسلم على ملازمة صلاة التهجد في الليل، رجاء أن يعطيه الله يوم القيامة الشفاعة العظمى والمقام المحمود. وفي تفسير البحر المحيط: "وعسى مدلولها في المحبوبات الترجي. فقليل: هي على باهما في الترجي تقديره لتكن على رجاء من أن يبعثك"^(٥).

وكما يستعمل لعل وعسى في الترغيب والإطماع، كذلك يستعملان في الترهيب والإشفاق. وفي القرآن الكريم آيات بهذا الخصوص، كما في قوله تعالى: (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُذِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)^(٦). قال الزمخشري: "كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء، واليهود يسألونه امتحانا، لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة وفي كل كتاب، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به، لم يطلع عليه ملكا ولا نبيا، ثم بين لرسوله أنها قرية الوقوع، تهديدا للمستعجلين، وإسكاتا للممتحنين"^(٧). وقوله تعالى: (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ

^١ التحرير والتنوير لاس عاشور: ١٤٣/٥

^٢ سورة التحريم: ٨

^٣ التحرير والتنوير لاس عاشور: ٣٦٩/٢٨

^٤ سورة الإسراء: ٧٩

^٥ البحر المحيط لأبي حيان: ١٠٠/٧

^٦ سورة الأحزاب: ٦٣

^٧ الكشف للزمخشري: ٥٦٢/٣

أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا^(١). ولما استنكر الكفار إعادة خلقهم من جديد بقولهم: متى يكون ذلك، خوّفهم الله بأنه سيكون قريباً واستعمل "عسى" في ذلك التخويف، كما قال الألوسي: "فالمعنى يرجى ويتوقع كونه قريباً يَوْمَ يَدْعُوكُمْ"^(٢). وقوله تعالى: (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ)^(٣). في الآية تخويف وترهيب من اقتراب ما استعجله المجرمون من نزول عذاب الله، مستعملاً فيه أسلوب الترجي بعسى، الدالة أحياناً على توقّع المخوف، وارتقاب المكروه.

وفيما ذكرته هنا من الآيات كفاية؛ للتدليل على استعمال القرآن أسلوب الترجي في الترغيب والتخريض على ملازمة التقوى، وفعل الخيرات. كما أنه يستعمل أحياناً في الترهيب والتحذير من فعل السيئات، واجتناب المكروهات. والله أعلم بالصواب.

^١ سورة الإسراء: ٥٠-٥١

^٢ تفسير الألوسي: ٨٩/٨

^٣ سورة المل: ٧٢

المطلب الخامس: أسلوب المدح والذم

مفهوم المدم والذم

المدح: الوصف بالثناء الحسن أو الكلام الجميل. وقد مدَّحَه مدحاً وامتدحه بمعنى: أثني عليه بما له من الصفات. وكذلك المدحة، والمديح، والأمدوحة. وتمدَّح الرجل: تكلف أن يمدح. ورجل مُمدَّح، أي ممدوح جداً. امتدَّح المكان اتسع ويقال امتدَّحتْ خاصرة الماشية اتسعت شبعاً وتمدَّحتْ خواصر الماشية، أي اتسعت شبعاً^(١). والذم: خلاف المدح والرمي على الشخص بالعيب والملامة وذكر المساوي، يقال: ذمَّه يذمُّه ذمًّا ومذمَّةً، فهو مذمومٌ وذميمٌ وذمٌّ: ضدُّ مدَّحه. يقال ذمَّ فلاناً يذمُّه: عابه ولامه، فهو ذميم ومذموم، إذا كان غير حميد^(٢).

أما أسلوب المدح أو الذم في اللغة فيتم عن طريق استعمال الفعلين "نعم، وبئس" في الغالب. يقول ابن الجني^(٣) موضحاً معنى هذين الفعلين، مع بيان إعراب الجملة المصدرة بهما: "اعلم أن نعم وبئس فعلان ماضيان غير متصرفين، ومعناهما المبالغة في المدح أو الذم، ولا يكون فاعلها إلا اسمين معرفين باللام تعريف الجنس أو مضميرين على شريطة التفسير، ثم يذكر بعد ذلك المقصود بالمدح أو الذم، وذلك قولك: نعم الرجل زيد، وبئس الغلام جعفر"^(٤).

أسلوب المدم في آيات الترغيب

أسلوب المدح الذي تقدم ذكره ورد كثيراً في القرآن الكريم، وسأتي بأمثلة للآيات التي اشتملت على هذا الأسلوب مع دلالتها على الترغيب في عمل صالح أو خلق طيب أو ثواب حسن. كما في قوله تعالى: (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)^(٥). في الآية ترغيب وتشويق إلى تقوى الله تعالى بمدح دارهم التي يؤولون إليها، وهي الجنة، كما يقول أبو السعود: "وهذا كلام مبتدأ،

^١ انظر: الصحاح للحواري ٤٠٣/١، ومعجم مقاييس اللغة لاس فارس: ٣٠٨/٥، والمعجم الوسيط: ٨٥٧/٢

^٢ انظر: معجم مقاييس اللغة لاس فارس ٣٤٥/٢، والمعجم الوسيط: ٣١٥/١، تاج العروس لمرتضى الريدتي: ٢٠٣/٣٢

^٣ أبو الفتح عثمان بن حيي الموصلي: الحوي المشهور؛ كان إماماً في علم العربية، صاحب تصانيف مفيدة. لزم أنا علي الفارسي دهرًا، وسافر معه حتى برع وصف، وسكن بغداد، وتخرج به الكار. من أشهر مؤلفاته: سر الصناعة، واللمع، والخصائص، والتصريف. وله نظم جيد. توفي: في

سنة اثنتين وتسعين وثلاث مائة. انظر: سير أعلام السلاء للدهي ١٧/١٧-١٩، ووفيات الأعيان لاس حلكان: ٢٤٦/٣

^٤ اللمع في العربية، ص: ١٤٠، وما بعدها، لأبي الفتح عثمان بن حيي، ط: دار الكتب الثقافية - الكويت. المحقق: فائر فارس.

^٥ سورة الحل: ٣٠

مدح الله تعالى به المتقين، وعدّ جوابهم المحكي من جملة إحسانهم، ووعدهم بذلك ثوابي الدنيا والآخرة^(١). وقوله تعالى: (أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)^(٢). مدح الله تعالى في الآية أجر العاملين في مرضاة الله تعالى، وهي المغفرة منه، والخلود في جنات النعيم، مما يكون ترغيبا لغيرهم في العمل الصالح الذي يكون سببا لمثل هذا الجزاء العظيم. وقوله تعالى: (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَذْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُخَلِّدُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)^(٣). في الآية مدح الله عز وجل ثواب المؤمنين، بأن أعد لهم جنات، تجري من تحتها الأنهار، يلبسون فيها أنواع الحلي واللباس، والسرر والأرائك. وفي طيات هذا المدح ترغيب في الإيمان والعمل الصالح، الذين كانت نتيجهما ما ذكر.

أسلوب الذم في آيات الترغيب

أما أسلوب الذم في القرآن بكلمة بئس فكثير، يرد للتحذير والتخويف من أعمال المجرمين، والتنفير من الجزاء المترتب على ذلك في الدنيا والآخرة. فالتسجيل على عمل وخلق وجزاء بأنه سيئ وقبيح فيه من الدلالة والإشارة ما ينبغي للعقلاء أن يحذروا من العمل بمثله، أو التخلق بشبهه، خوفا من التعرض لما يترتب على ذلك من العقوبة القاسية، والنكال الشديد. وفيما يلي ذكر لأمثلة ذلك من آي الذكر الحكيم. قال الله تعالى إخبارا عن حال المعرضين عن الحق، وبيان ما يترتب على ذلك في الآخرة: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)^(٤). إن هذا الماء الذي يؤتى به للمجرمين فور استغاثتهم، وطلبهم للشرب، كي يخفف عنهم العطش المتناهي في الشدة يشبه الزيت المحروق، الذي من شأنه أن يحرق الوجوه. فجاء الذم ليزيد في توضيح المذموم، وتنفير السامعين منه، حتى لا يقعوا في مثله حين لا ينفع الندم. وذم الله تعالى مثوى الظالمين، تحذيرا من مصيرهم، وترهيبا من مزاوله أعمالهم، فقال تعالى: (سَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ

^١ تفسير أبي السعود: ١١٠/٥

^٢ سورة آل عمران: ١٣٦

^٣ سورة الكهف: ٣١

^٤ سورة الكهف: ٢٩

النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ^(١). وقال تعالى في التحذير عن خلق اليهود في تعاملهم مع الكتب المتزلة: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ^(٢)). وهذا التمثيل مقصود منه تشنيع حالهم، وتحذير السامعين من اقتفاء آثارهم. وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف، ولذلك ذيل بدم حالهم، أي ساء حال الذين كذبوا بكتاب الله فهم قد ضموا إلى جهلهم بمعاني التوراة تكذيبا بآيات الله وهي القرآن^(٣). وفيما ذكرته كفاية لبيان أسلوب المدح والذم ودلالتهما على الترغيب أو الترهيب في آيات الذكر الحكيم، والله أعلم بالصواب.

^١ سورة آل عمران: ١٥١

^٢ سورة الجمعة: ٥

^٣ انظر: التحرير والتبوير لاس عاشور ٢٨/٢١٤

المطلب السادس: التوكيد

مفهوم التوكيد لغة واصطلاحاً

التوكيد في اللغة من وَكَّدَ: وهي كلمة تدل على شدِّ وإحكام. وَأَوْكَيْدٌ عَقْدُكَ، أي شُدَّةٌ. وَالْوَكَاذُ: حبل تُشَدُّ به البقرة عند الحلب. يقال: وَكَّدَ الرَّحْلُ: شَدَّه، وَوَكَّدَ الْعَقْدُ: أوثقه وأحكمه. تَوَكَّدَ: اشتد وتوثق. التأكيد: لغة في التوكيد، تقول: أَكَّدْتَ الشَّيْءَ وَوَكَّدْتَهُ^(١). ومن المعنى اللغوي أُخِذَ التوكيد لتقوية صدق الكلام الخبري بما يؤكِّده من ألفاظ^(٢). إذن فالتوكيد عند علماء البلاغة: "تمكين الشيء في النفس وتقويته، لإزالة الشكوك وإمالة الشبهات عما أنت بصدد الإخبار عنه"^(٣).

والمؤكدات المشهورة هي: إنَّ، وأنَّ، ولام الابتداء، ونونا التوكيد، والقسم، وأما الشرطية، وأحرف التنبيه، وأحرف الزيادة، وضمير الفصل، وتقدم الفاعل في المعنى، والسين وسوف الداخلتان على فعل دال على وعد، أو وعيد، وقد التي للتحقيق، وتكرير النفي، وإنمّا^(٤).

التوكيد في القرآن الكريم

أما التوكيد في القرآن فقد يأتي لتحقيق الوعد أو الوعيد. إذ القرآن المجيد يشفع الوعد بالوعيد، والبشارة بالندارة لما في ذلك من الأثر القوي في تقويم النفوس وسياستها بالترهيب والترغيب. ومقام الوعد والوعيد من المقامات التي تحتاج إلى توثيق القول وتأكيده؛ ليتقرَّر في النفوس، ويتمكَّن منها فضل تمكَّن، فيزداد أنسها به وثقتها فيه، كما في قوله تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)^(٥). وقوله: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)^(٦). ومثل هذا كثير في القرآن الكريم^(٧).

^١ انظر: المعجم الوسيط ١٠٥٣/٢، ومعجم مقاييس اللغة لانس فارس: ١٣٨/٦، والصحاح للحواري: ٤٤٢/٢

^٢ البلاغة العربية للميداني: ١٨٦/١

^٣ علوم البلاغة للمراعي، ص: ٥٢

^٤ انظر: علوم البلاغة للمراعي، ص: ٥٢

^٥ سورة الانقطار: ١٣-١٤

^٦ سورة الحجر: ٤٩-٥٠

التوكيد الدال على الترغيب

الترغيب في القرآن وارد في أساليب متنوعة وألوان مختلفة. ومن ذلك التأكيد على مضمون الجملة بأنواع التأكيدات لزيادة التشويق إلى ما يحتويه النص من البشارات، وبعث النفوس على زيادة اليقين والاطمئنان، والتأكيد على ضمان الموعد وأنه لا محالة من وقوعه إذا توفرت الشروط المطلوبة من قبل الموعودين به. ويقول الإمام عبد القاهر الجرجاني^(١)، في معرض حديثه عن التوكيد: "ومما يحسن ذلك فيه ويكثر: الوعد والضمن، كقول الرجل: "أنا أعطيك، أنا أكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر"، وذلك أن من شأن من تعدده وتضمن له، أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به، فهو أحوج شيء إلى التأكيد"^(٢).

والأمثلة على ذلك من القرآن الكريم كثيرة غير منحصرة. ومن ذلك قوله تعالى: (فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)^(٣). "أكد به بأربع تأكيدات وهي: إن، وضمير الفصل، والمبالغة مع الصفتين له؛ ليدل على ترغيب الله العبد في التوبة فإنه إذا علم ذلك طمع في عفو"^(٤). وقوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِذْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِذْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)^(٥). أكد الله تعالى في خاتمة هذه الآية جزاء الشاكرين، فاستعمل أسلوب التأكيد بالسين، والذي يحض زمن الفعل المضارع، ويجعله خاصا بالمستقبل. وإهمام الجزاء يترك الذهن يسرح في موعودات عظيمة تتناسب مع نون العظمة. وقوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ)^(٦). قال أبو السعود رحمه الله: "وعادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير وعكسه... وتأكيد الخبر بأن للاهتمام به"^(٧). وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ. لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ

^١ انظر: البلاغة، المعاي، ص: ٩٥، لمهاج جامعة المدينة العالمية، ط: جامعة المدينة العالمية - السعودية.

^٢ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني: شمع العربية. صنف شرحا حافلا للإيضاح يكون ثلاثين مجلدا، وله إبحار القرآن، وكتاب العوامل المائة، وكتاب المفتاح، وغيرها. وكان شافعيًا، عالمًا، أشعريًا، دأب على سك ودين. وكان آية في النحو. توفي: سنة إحدى وسبعين وأربع مائة.

انظر: سير أعلام السلا للدهي ٤٣٢/١٨-٤٣٣

^٣ دلائل الإبحار: ١٣٤/١، لعبد القاهر الجرجاني، ط: الثالثة، مطبعة المدي - القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م. ت: محمود محمد شاكر.

^٤ سورة الفرقة: ٥٤

^٥ البرهان في علوم القرآن للركشي: ٣٨٩/٢

^٦ سورة آل عمران: ١٤٥

^٧ سورة الطور: ١٧

^٨ التحرير والتوير لاس عاشور: ٤٥/٢٧

وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ^(١). يقول ابن عاشور في بيان الوعد المؤكد بحرف التوكيد "إن"، الورد في الآية: "وأكد هذا الخبر بحرف التأكيد زيادة في تحقيقه، ولما في التأكيد من الإيدان بكون ذلك علة لتوفية الأجور والزيادة فيها"^(٢). وقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٣). يبين العلامة الألوسي وجه التأكيد، المصاحب لوعد الله بالمغفرة والرحمة، فقال: "وفي جعل خبر هذه الجملة هذين الوصفين الواردين على بناء المبالغة مع التأكيد باللام، مع جعل خبر الأولى صفة جارية على غير من هي له ما لا يخفى من التنبيه على أنه سبحانه غفور رحيم بالذات لا تتوقف مغفرته ورحمته على شيء"^(٤). وفي قوله تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)^(٥). ترغيب في الصبر بذكر توفية الصابرين أجورهم يوم القيامة من غير عد ولا حساب، مع التأكيد على مضمون الجملة بحرف "إنما"، الدال على الحصر والاختصاص، فكأن الصابرين هم المختصون بتوفية أجورهم من بين سائر العاملين. وقوله تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٦). وعد الله تعالى أوليائه بالأمن من الخوف والحزن، مؤكداً ذلك بحرف التنبيه وإن، كما يقول الطاهر بن عاشور: "وافتحاح الكلام بأداة التنبيه إيماء إلى أهمية شأنه... ولذلك أكدت الجملة بـ إن بعد أداة التنبيه"^(٧). وفي قوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ)^(٨). وعد منه لأصحاب الإيمان والعمل الصالح بتوفية أجورهم، والزيادة من فضله، وأكد ذلك بحرف التوكيد "أما"، ترغيباً للسامعين في الإيمان والعمل الصالح، وتشويقاً لا قفء آثارهم، والافتداء بفعالهم.

^١ سورة فاطر: ٢٩-٣٠

^٢ التحرير والتوير لاس عاشور: ٣٠٨/٢٢

^٣ سورة الأنعام: ١٦٥

^٤ تفسير الألوسي: ٣١٣/٤

^٥ سورة الرمر: ١٠

^٦ سورة يونس: ٦٢-٦٤

^٧ التحرير والتوير لاس عاشور: ٢١٥/١١-٢١٦

^٨ سورة النساء: ١٧٣

التوكيد الدالّ على الترهيب

يكثر ورود الآيات المشتملة على الترهيب والتخويف مؤكدة بأحد أساليب التوكيد المتقدمة ذكرها. وذلك أن الترهيب يراد به التخويف والزجر عن الأعمال القبيحة والشهوات الدنيئة، والتي يرتكبها الانسان ويتلبس بها بين الحين والآخر. ولما كان هذا العقاب الموعود به غائبا عن أعين المخاطبين، إلى جانب انهماك النفوس في الشهوات والمحجوبات التي تعمي وتصم عن رؤية عواقب المعاصي وتبعاتها الوخيمة احتاج الخطاب القرآني إلى استعمال أدوات التأكيد لإزالة الشكوك والشبهات حول وقوع هذا الجزاء وتنفيذ العقاب الموعود، كما أنه يبعث على الخوف والانزجار عن المعاصي والمنكرات لمن رزقه الله الإيمان وأنعم عليه بنعمة الهداية والإيقان.

وفيما يلي ذكر لبعض الأمثلة من الآيات المشتملة على الترهيب المؤكدة بأحد أساليب التوكيد. ومن ذلك قوله تعالى: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)^(١). أكد الله سبحانه في الآية وقوع توجيه السؤال إلى الذين أرسل إليهم، وهو سؤال تقرير وتوبيخ عن بلوغ الرسالة إليهم، كما أكد على سؤال المرسلين عن تبليغهم الرسالة سؤال تخويف لأمرهم، مما يبعث على الخوف والحذر من مواجهة تلك المواقف الرهيبة، والحوادث المخيفة. وقوله تعالى: (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)^(٢). يقول الإمام أبو السعود رحمه الله تعالى في بيان الوعيد الشديد، المؤكد بسوف، الوارد في الآية: "وعيد شديد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأحريك بما فعلت أي يجازيهم بما عملوا على الاستمرار من نقض الميثاق ونسيان الحظ الوافر مما ذكروا به. وسوف لتأكيد الوعيد والالتفات إلى ذكر الاسم الجديد لتربية المهابة وإدخال الروعة لتشديد الوعيد"^(٣). وقوله تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)^(٤). أكد الله تعالى في هذه الآية على أنه خلق لجهنم كثيرا من الجن والإنس بمؤكدتين، وهما لام الابتداء، وقد، ثم أخبر أن مسالكهم للفهم

^١ سورة الأعراف: ٦

^٢ سورة المائدة: ١٤

^٣ تفسير أبي السعود: ١٧/٣

^٤ سورة الأعراف: ١٧٩

عن رسله المبلغين مسدودة، فلا يفقهون الحق، ولا يبصرون الهدى، ولا يسمعون الخير، كما شبههم بالأنعام، ووصفهم بالضلال والغفلة، مما يستوجب الرهبة والخوف من الوقوع في زمرتهم، والانخراط في سلكهم. وقوله تعالى: (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)^(١). أخبر تعالى في هذه الآية عن الخسران الذي يتزل بالكافرين يوم القيامة، ووصفهم بأنهم غبنوا في المعاملة وخسروا أنفسهم وأهليهم، وضيعوا فرصة عظيمة لا تعوّض، ثم أكد في بيان عظم الخسارة التي وقعوا فيها بمؤكدات عدة من التصدير بألا التنبيهية، وتوسيط ضمير الفصل، وتعريف الخبر. وفي ذلك تخويف وتحذير من الوقوع في مثل ذلك الخسران. وقوله تعالى: (وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْفُسُهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)^(٢). أخبر تعالى في هذه الآية عن الاستدراج الذي ينخدع به الكفار في الدنيا. ذلك أنهم يظنون أن تأخير آجالهم في الدنيا، مصحوبةً بالخير والعافية وكثرة الأموال والأولاد ناتج عن إرادة الله لهم الخير، بل ذلك شر لهم، ثم أكد على أنه يريد لهم بسبب هذا الإملاء ازدياد آثامهم، فيشتد عذابهم بذلك، مستعملاً في ذلك أسلوب التوكيد الذي هو: إنما الدالة على الحصر.

وفيما أودرته من الأمثلة كفاية لبيان أسلوب التأكيد، الوارد في القرآن الكريم، وإفادته للترغيب، والترهيب، كي يرغب المطيعون في الازدياد من طاعة الرحمن، ويهرب العصاة من غضب الله وشدة عقابه، فيترجروا عن الذنوب والمخالفات، والله أعلم.

^١ سورة الزمر: ١٥

^٢ سورة آل عمران: ١٧٨

المطلب السابع: التقابل والطباق

مفهوم الطباق والتقابل لغوياً:

الطباق مأخوذ من أصل طَبَقَ، والذي يدل على وضع شيء مبسوط على مثله حتى يغطيه. تقول: أطبقت الشيء على الشيء، فالأول طَبَقٌ للثاني: وقد تطابقا. ومن هذا قولهم: أطبق الناس على كذا، كأن أقوالهم تساوت حتى لو صير أحدهما طبقاً للآخر لصلح^(١). فالطباق اللغوي: "هو قول العرب: طابق البعير في مشيه إذا وضع خف رجله موضع خف يده ... لأن القوم رأوا أن البعير قد جمع بين الرجل واليد في موطن واحد، والرجل واليد ضدان، أو في معنى الضدين، فرأوا أن الكلام الذي قد جمع فيه بين الضدين يحسن أن يسمى مطابقاً لأن المتكلم به قد طابق فيه بين الضدين"^(٢). أما التقابل فمن أصل قَبَلَ والذي يدور بناؤه حول مواجهة الشيء للشيء، فالقُبُل من كل شيء: خلاف دبره، وذلك أن مقدمه يقبل على الشيء^(٣).

مفهوم الطباق والتقابل اصطلاحاً

الطباق عند أهل البلاغة هو الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى، وهما قد يكونان اسمين، نحو قوله تعالى (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)^(٤)، أو فعلين، نحو قوله: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى. وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)^(٥)، أو حرفين، نحو قوله تعالى (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)^(٦)، أو مختلفين، نحو قوله تعالى (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)^(٧). وتقابل المعنيين وتخالفهما مما يزيد الكلام حسناً وطرافة^(٨).

^١ انظر: معجم مقاييس اللغة لاس فارس ٤٣٩/٣

^٢ تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر، ص: ١١١، لعد العظيم بن الواحد العدواني، العدادي ثم المصري، ط: لجنة إحياء التراث الإسلامي - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - جمهورية مصر العربية. تحقيق: الدكتور جعي محمد شرف.

^٣ انظر: معجم مقاييس اللغة لاس فارس ٥١/٥

^٤ سورة الحديد: ٣

^٥ سورة الحنم: ٤٣، ٤٤

^٦ سورة النقرة: ٢٢٨

^٧ سورة الرعد: ٣٣

^٨ انظر: حواهر البلاغة للهاشمي، ص: ٣٠٣

قال ابن الأثير^(١): "وقد أجمع أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده، كالسواد والبياض، والليل والنهار"^(٢). وأما المقابلة فهي: أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، كقوله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى)^(٣)، وكقوله تعالى (يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)^(٤). والمقابلة شبيهة بالمطابقة من حيث إنَّ في كل منهما جمعا بين معنيين متقابلين، غير أن الشرط في المقابلة أن يكون التقابل فيها بين معنيين على الأقل وبين ما يقابلهما، ويكون بين أكثر من ذلك، بخلاف المطابقة فإنما تكون بين معنى واحد ومقابلة^(٥).

أسلوب الطباق والتقابل في الترغيب والترهيب

الطباق والتقابل هما الإتيان بمعنيين متقابلين أو حالين متضادين، وقد كثر استخدامهما في الخطاب القرآني في مجال الترغيب والترهيب، لما يتضمنه الترغيب من التشويق والإغراء للقيام بأعمال الخير والعبادات، وما يشتمل عليه الترهيب من التخويف والتحذير من الأعمال السيئة، وذلك من خلال عرض الثواب والعقاب الأخروي والدنيوي، فصار هذا النوع من الأساليب البلاغية خير مطية، وأبلغ وسيلة للدعوة إلى الله، ونشر الفضيلة في المجتمع. وفي ذلك يقول الطاهر ابن عاشور: "وإثبات الوصفين المتقابلين للقوم صناعة عربية بديعية، وهي المسماة بالطباق، وبلغاء العرب يغربون بها، وهي عزيزة في كلامهم، وقد جاء كثير منها في القرآن"^(٦).

يقول ابن كثير في بيان أهمية هذا الأسلوب عند تفسيره لقوله تعالى: (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار)^(٧): "لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من

^١ العلامة، الورير، بصر الله بن محمد بن عبد الكريم، الشيباني، الحرري، صاحب كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. نشأ بالموصل، وحفظ القرآن، وأقل على النحو واللغة والشعر والأحبار. وله يد طول في الترسل. وقال ابن الحارث: قدم بعداد رسولا غير مرة، وحدث بها كنهانه، ومريض، فتوفي في سنة سبع وثلاثين وست مائة. انظر: سير أعلام السلاء للدهبي ٧٢/٢٣ - ٧٣

^٢ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٤٣/٣، لاس الأثير، بصر الله بن محمد، ط: دار مهصة مصر - القاهرة. تحقيق: أحمد الحوي.

^٣ سورة الليل: ١٠-٥

^٤ سورة الأعراف: ١٥٧

^٥ انظر: حواهر البلاغة للهاشمي، ص: ٣٠٤

^٦ انظر: المنهاج الواضح للبلاغة ١/١٦٥، لحامد عوى، ط: المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة.

^٧ التحرير والتوير لاس عاشور: ٢٣٧/٦

^٨ سورة القرة: ٢٥

الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، وهذا معنى تسمية القرآن "مثاني" على أصح أقوال العلماء... وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه. وحاصله ذكر الشيء ومقابله^(١).

أمثلة للطباق في الترغيب والترهيب

وفي الترهيب من مراقبة الله وعلمه بأحوال العباد الظاهرة والباطنة، ثم ضبطها وحسابها والثواب عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر يقول المولى جل في علاه: (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٢). يقول أبو حيان^(٣) في بيان الطباق الذي اشتملت عليه الآية: "وتضمنت هذه الآية من أنواع الفصاحة وضروب البلاغة أشياء، منها: الطباق في وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه والطباق المعنوي في: لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت لأن "لها"، إشارة إلى ما يحصل به نفع، و "عليها"، إشارة إلى ما يحصل به ضرر"^(٤). وفي الترغيب لثواب الإيمان والتقوى في هذه الدنيا ثم في الآخرة يقول الله تبارك وتعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٥). يقول الطاهر بن عاشور في تفسير الآية: "ومن البشرى الوعد بأن لهم عاقبة النصر على الأعداء، وتمكينهم من السلطان في الدنيا، وأن لهم النعيم الخالد في الآخرة. ومقابلة الحزن بالبشرى من محسنات الطباق"^(٦). وفي الترغيب لثواب الهجرة في سبيل الله والإشادة بما يحصل من جزائها من التمكين في الأرض والأجر العظيم في الآخرة يقول تعالى:

^١ تفسير ابن كثير: ٢٠٣/١

^٢ سورة البقرة: ٢٨٤

^٣ محمد س يوسف أبو حيان الأندلسي: الإمام الكبير في العربية والتفسير. نحر في اللغة والعربية والتفسير، وفاق الأقران وتفرّد بذلك في جميع أقطار الدنيا. وله اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم خصوصا المعاصرة. ومن تصانيفه: البحر المحيط في التفسير، وغريب القرآن، وشرح التسهيل، والتذكرة. وكان عربيا من العسقة والاعتزال والتجسيم على عطف السلف الصالح، كثير الخشوع والتلاوة والعبادة. توفي سنة ٧٤٥هـ. انظر: الدر الطالع محاسن من بعد القرن السابع للشوكاني: ٢٨٨/٢

^٤ البحر المحيط لابي حيان: ٧٦٧/٢

^٥ سورة يونس: ٦٢-٦٤

^٦ التحرير والتنوير لاس عاشور: ٢١٩/١١

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)^(١). يقول ابن عاشور في بيان ما شملت عليه الآية من الطباقي: "وفي الجمع بين هاجروا ولنبوْنَهُمْ محسن الطباقي. والمعنى: لنجازينهم جزاء حسناً. فعبّر عن الجزاء بالتبوة لأنه جزاء على ترك المباءة"^(٢). وفي قوله تعالى: (بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)^(٣). التبشير للمؤمنين والإنذار للكافرين على جهة الطباقي بين النذارة والبشارة، كما قال الشيخ الطاهر بن عاشور: "والجمع بين: بشيراً ونذيراً من قبيل محسن الطباقي"^(٤). وفي الترغيب في اتباع رضوان واجتناب سخطه يقول المولى عز وجل: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَخَبَتْ أَعْمَالُهُمْ)^(٥). وفسر الآية الشيخ ابن عاشور مبيناً ما فيها من المحسنات البديعية والمعاني البلاغية قائلاً: "وفي ذكر اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه محسن الطباقي مرتين للمضادة بين السخط والرضوان، والاتباع والكراهية"^(٦).

أمثلة للتقابل في الترغيب والترهيب

وفي الترغيب للمغفرة والجنة والترهيب من النار وسخط الله يقول المولى جل في علاه: (أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)^(٧). وفي بيان محسن المقابلة، الذي اشتملت عليه الآية يقول أبوحيان الأندلسي: "والأصل فيه تقدم المغفرة على الجنة، لأن دخول الجنة متسبب عن حصول المغفرة... وأما هنا، فتقدم ذكر الجنة على المغفرة لتحسن المقابلة، فإن قبله أولئك يدعون إلى النار فحاء والله يدعوا إلى الجنة، وليبدأ بما تتشوف إليه النفس حين ذكر دعاء الله، فأتى بالأشرف للأشرف، ثم أتبع بالمغفرة على سبيل التتمة في الإحسان، وتهيئة سبب دخول الجنة"^(٨). وفي الترغيب لاستجابة ما يدعو إليه الرب تبارك وتعالى والتحذير من عدم الاستجابة لذلك يقول المولى جل وعلا: (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا

^١ سورة النحل: ٤١

^٢ التحرير والتوير لاس عاشور: ١٥٨/١٤

^٣ سورة فصلت: ٤

^٤ التحرير والتوير لابن عاشور: ٢٣٢/٢٤

^٥ سورة محمد: ٢٨

^٦ التحرير والتوير لاس عاشور: ١١٩/٢٦

^٧ سورة البقرة: ٢٢١

^٨ البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: ٤٢٠/٢

لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ^(١). المقابلة في الآية حصلت بين الذي استجابوا لرهم، فأثابهم على ذلك الحسن، وهي الجنة ورضوانه، وبين الذين لم يستجيبوا له، فجازاهم بسوء الحساب، وجعل مأواهم جهنم، فتضمنت الآية الترغيب والترهيب في أسلوب المقابلة على أحسن وجه. وفي مقابلة من يؤتى كتابه بيمينه مع من يؤتى كتابه بشماله ترغيبا في أعمال الفريق الأول وترهيبا من أعمال الفريق الثاني قال عز وجل: (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا)^(٢). وأوضح ما في الآية من المقابلة بين المعنيين الإمام أبو السعود رحمه الله تعالى بقوله: "وهذا بعينه هو الذي أوتي كتابه بشماله، بدلالة حال ما سبق من الفريق المقابل له. ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان، مع أنه الذي يستدعيه حسن المقابلة، حسبما هو الواقع في سورة الحاقة وسورة الانشقاق: للإيذان بالعلة الموجبة له"^(٣). وفي مقابلة من تحرز عن سلطان الشيطان بالتوكل على الله مع من تسلط عليه الشيطان بعد أن تولاه وأشرك به ترغيبا في عمل الأول وتحذيرا من فعل الثاني قال عز وجل: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ)^(٤). وبين ذلك ابن عاشور بقوله: "وجملة إنما سلطانه على الذين يتولونه مستأنفة استثنافا بيانيا لأن مضمون الجملة قبلها يثير سؤال سائل يقول: فسلطانه على من، والقصر المستفاد من إنما قصر إضافي بقرينة المقابلة، أي دون الذين آمنوا وعلى رهم يتوكلون، فحصل به تأكيد جملة إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا لزيادة الاهتمام بتقرير مضمونها"^(٥). وفي الترغيب للآخرة والحث على السعي لها بالإيمان والعمل الصالح، مع الترهيب من تمحيض إرادة الدنيا والعمل وفق متطلباتها يقول تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا

^١ سورة الرعد: ١٨

^٢ سورة الإسراء: ٧١، ٧٢

^٣ تفسير أبي السعود: ١٨٧/٥

^٤ سورة الحل: ٩٩-١٠٠

^٥ التحرير والتوير لاس عاشور: ٢٧٩/١٤

مَذْخُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا^(١). ويقول ابن عاشور: "فمعنى كان يريد العاجلة أنه لا يريد إلا العاجلة، أي دون الدنيا بقرينة مقابله بقوله: ومن أراد الآخرة، لأن هذه المقابلة تقوم مقام الحصر الإضافي، إذ ليس الحصر الإضافي سوى جملتين إثبات لشيء ونفي لخلافه. والإتيان بفعل الكون هنا مؤذن بأن ذلك ديدنه وقصارى همه"^(٢). وفي المقارنة بين أهل الإيمان والتقوى مع المفسدين في الأرض والفجار يقول المولى جل وعلا: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)^(٣). وبين تلك المقابلة بين الفريقين ابن عاشور بقوله: "وقد أخذ في الاستدلال جانب المساواة بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض، لأنه يوجد كثير من الفريقين متساوين في حالة الحياة الدنيا في النعمة أو في التوسط أو في البؤس والخصاصة، فحالة المساواة كافية لتكون مناط الاستدلال على إبطال ظن الذين كفروا بقطع النظر عن حالة أخرى أولى بالدلالة، وهي المقابلة بين فريق المفسدين أولى النعمة وفريق الصالحين أولى البؤس"^(٤). وفي نهاية سورة التحريم ذكر الله مثلين: أحدهما للكافرين، والثاني للمؤمنين، ترغيبا لحال المؤمنين وترهيبا عن حال الكافرين، فقال تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظَّاهِرُ مِنَ الْقَانِئِينَ)^(٥). والله ولي التوفيق.

^١ سورة الإسراء: ١٨، ١٩

^٢ التحرير والتنوير لاس عاشور: ٥٨/١٥-٥٩

^٣ سورة ص: ٢٨

^٤ التحرير والتنوير لاس عاشور: ٢٣/٢٤٩-٢٥٠

^٥ سورة التحريم: ١٠-١٢

المطلب الثامن: التصريح والتعريض

مفهوم التصريح لغة واصطلاحاً

والتصريح أصله من صَرَحَ أو صَرَّحَ والذي يدور معناه حول ظهور الشيء وبروزه. يقال: صَرَحَ الأمرَ صَرَاحاً: بينه وأظهره. وصَرَّحَ الشيءَ صَرَاحَةً وصُرُوحَةً: صفا وخلص مما يشوبه فهو صَرِيحٌ. ويقال أيضاً: صَرَّحَ بما في نفسه: أظهره. والصَّرِيحُ: المحض، وجمعه صُرَحَاء. والصَّرَاحَةُ في الخبر: الوضوح فيه والخلوص من الالتواء^(١).

أما التصريح في الاصطلاح: "هو الإتيان بلفظ خالص للمعنى عار عن تعلقات غيره، لا يحتمل المجاز ولا التأويل"^(٢). والأصل في الكلام أن يكون بألفاظ صريحة واضحة يتأذى بها المعنى الذي أريد إظهاره للمخاطب، بحيث لا يلتبس عليه، ويفهمه تلقائياً، من غير احتياج إلى قرائن خارجية عن سياق النص وألفاظه. ولا شك أن المقصود من الكلام إظهار المعاني وعدم التباسها على المخاطبين. وعلى هذا لا يُعَدَّلُ عن الأصل إلا عند حاجة يستدعيها المقام لغرض بلاغي، فيعدل منه إلى التعريض والكناية ونحوهما، من أساليب الإشارة والتلويح.

مفهوم التعريض لغة واصطلاحاً

والتعريض لغة من عَرَضَ الشيءَ عَرَضاً وعَرُوضاً: ظهر وأشرف. يقال: سرت فَعَرَضَ لي في الطريق عارض: مانع. وعَرَضَ الشيءَ: أظهره وأبرزه، والكتاب: قرأه عن ظهر قلب، والمتاع للبيع: أظهره لذوي الرغبة ليشتروه، وعَرَضَ عليه الشيءَ: أراه إياه. ويقال: عَرَضَ لفلان وبفلان إذا قال قولاً وهو يعنيه. ومنه المعارض في الكلام وهي: التورية بالشيء عن الشيء^(٣). وأما في الاصطلاح فهو: "الكلام المشار به إلى جانب، وإيهام أن الغرض جانب آخر"^(٤). وقيل: "التعريض: الإيماء والتلويح من غير كشف ولا تبين"^(٥).

^١ انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٣٤٧، والمعجم الوسيط: ٥١١/١

^٢ الكليات لأبي القاء الحمفي: ص، ٣١١

^٣ انظر: المعجم الوسيط ٢/٥٩٣، وما بعدها، ومختار الصحاح للرازي، ص: ٢٠٥، وما بعدها.

^٤ معجم مقاييس العلوم في الحدود والرسوم، ص: ٩٨، لعبد الرحمن بن أبي نكر، حلال الدين السيوطي، ط: الأولى، مكتبة الآداب - القاهرة، مصر، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤ م. التحقيق: أ. د محمد إبراهيم عيادة.

^٥ عرب القرآن، ص: ، المسمى بزهة القلوب لمحمد بن عُزَيْر السجستاني، أبو نكر العُزَيْري، ط: الأولى، دار قتيبة - سوريا، ١٤١٦هـ -

١٩٩٥م، التحقيق: محمد أديب عبد الواحد حمرا. ٣٣١

وبالجملة فالعرب تستعمل التعريض في كلامها كثيرا، فتبلغ إرادتها بوجه هو أطف وأحسن من الكشف والتصريح، ويعيرون الرجل إذا كان يكشف في كل شيء ويقولون: لا يحسن التعريض إلّا ثلّبا. وقد جعله الله في خطبة النساء في العدة جائزا فقال: (وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ)^(١). ولم يجز التصريح^(٢). وقال الباقلاني^(٣): "والتعريض مذهب العرب في كلامها معروف مشهور، وكذلك يقولون: رُبَّ إشارة هي أفصح من عبارة، وتعريض أبلغ من تصريح، وقد يقول الرجل لمن يكذبه ويخالفه ... إن أصدنا لكاذب، وإن أصدنا لخاصّ وجبان، وإن أصدنا لجاهل غيبي، ويُقيم هذه الكناية مقام قوله لخصمه ومخالفه: أنت كاذب وجبان وجاهل، وربما كان هذا التعريض أبلغ من التصريح وأبعد وأنكى للقلب وأبلغ في الرد، وهو مع ذلك أحسن في اللفظ"^(٤).

أسلوب التصريح في الترغيب والترهيب

اعتنى القرآن المجيد بذكر أساليب الترغيب والترهيب في صور متعددة وطرق متنوعة، فتارة يكون الترغيب والترهيب مذكورا بصورة واضحة يفهم من خلال الكلمات والتراكيب الظاهرة في النص، وتارة أخرى يفهم معاني الترغيب والترهيب من تلويح النص وإشارته دون أن يكون هناك عبارة واضحة تدل على ذلك. وتقدم معنا في التعريف بمصطلح التصريح أنه الإتيان باللفظ الخالص للمعنى الذي يريد المتكلم إيضاحه، بحيث لا يحتمل المجاز ولا التأويل. إذن فالتصريح في القرآن هو الأصل الذي تدل عليه معظم الآيات القرآنية، وخاصة آيات الترغيب والترهيب، والتي هي من أهم مقاصد نزول القرآن. فالترغيب والترهيب الصريح هو المعنى المستفاد من آيات

^١ سورة القرة: ٢٣٥

^٢ انظر: تأويل مشكل القرآن، ص: ١٦٣، وما بعدها، لاس قنية الديبوري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لسان. ت: إبراهيم شمس الدين.

^٣ محمد بن الطيب بن محمد القاضي، أبو بكر الباقلاني المالكي، من كبار علماء الكلام. انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة. وكان حيد الاستساض، سريع الحوار. وله التصانيف الكثيرة في الرد على المخالفين من الرافضة، والمعتزلة، والهممية، والحوارج وغيرهم. من كتبه: إعجاز القرآن، والإصناف، ومناقب الأئمة، ودقائق الكلام، والملل والحل، والتمهيد في الرد على الملحدة والمعتزلة والحوارج والمعتزلة. توفي عام: ٤٠٣ هـ. انظر: تاريخ بغداد ٣/ ٣٦٤، لأبي بكر الخطيب البغدادي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٧ هـ. دراسة وتحقيق:

مصطفى عبد القادر عطا، والأعلام للزركلي: ١٧٦/٦، وما بعدها.

^٤ الانتصار للقرآن: ٥٢٦/٢، لأبي بكر الباقلاني المالكي، ط: الأولى، دار الفتح - عمّان، دار ابن حرم - بيروت. ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

التحقيق: د. محمد عصام القضاة.

الترغيب والترهيب بدلالة واضحة لا يتطرق إليها احتمال أو تأويل، بحيث إن العارف بلغة العرب يفهم من ظاهر الآية المراد منها ترغيباً أو ترهيباً من غير تحمل عناء أو إتعاب فكر.

الترغيب الصريح في القرآن الكريم

الأمثلة الواردة في القرآن الكريم على أسلوب التصريح في الترغيب كثيرة لا تدخل تحت الحصر، وهو الغالب في نظم القرآن وسياقه. وفيما يلي ذكر لطائفة من هذه الأمثلة:

أولاً: من الترغيب الصريح ما يُذكر في الآيات من الألفاظ الدالة على الترغيب المحض كالבشارة والوعد والدعوة، مما يدل دلالة واضحة على الترغيب الخالص فيما تتضمن عليه الآية من أعمال وصفات، وذلك يؤدي بدوره إلى الترغيب في الثواب المترتب على تلك الأعمال والصفات. ومن ذلك قوله تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(١). فلفظ البشارة صريح في الترغيب للإيمان، والعمل الصالح الذي تضمنته الآية، كما أنه يثير الرغبة في تحصيل الجنات، المشتملة على الأنهار، والثمرات، والأزواج، فيتم بذلك مقصود القرآن، الذي هو التحريض على ما يقرب الناس إلى الله من خلال إثارة رغبتهم فيما جبلوا عليه، من حب المنافع العاجلة والآجلة. وقوله تعالى: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)^(٢). وفي الآية أيضاً تصريح ببشارة المؤمنين، الذين تحلوا بهذه الصفات العظيمة، وذلك جعلهم أن يكون أهلاً للحصول على موعود الله، وهو الجنة. وقوله تعالى: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)^(٣). وقوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)^(٤). وصرح الله في هذه الآية بوعد المؤمنين، الذين عملوا الصالحات، أن لهم المغفرة لذنوبهم، والأجر العظيم بدخول الجنان. وقوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ

^١ سورة البقرة: ٢٥

^٢ سورة التوبة: ١١٢

^٣ سورة الحج: ٣٤

^٤ سورة المائدة: ٩

أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَجَاوَزُوا عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدِّيقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ^(١). والإشارة بأولئك إلى من ذكر في الآية المتقدمة ممن أسلم إلى الله وتاب إليه، فقد صرح الله تعالى بوعدهم أن يتقبل أحسن أعمالهم، ويتجاوز عن سيئاتهم وخطاياهم، وأن يدخلهم جنات النعيم، مبينا أن هذا الذي وعِدُوا به في الدنيا وعد صدق، لا يتغير ولا يتبدل. وقوله تعالى: (وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ^(٢)). فالدعاء إلى الجنة عبارة صريحة لترغيب الله تعالى الناس جميعا في التشمير عن ساعد الجدد، وبذل قصارى الجهد في اكتساب الأعمال المؤدية إلى دخول الجنان، والحصول على المغفرة والرضوان. وقوله تعالى: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٣)). يقول أبو السعود رحمه الله في تفسير الآية: "ترغيب للناس في الحياة الأخروية الباقية إثر ترغيبهم عن الحياة الدنيا الفانية. أي يدعو الناس جميعا إلى دار السلامة عن كل مكروه وآفة، وهي الجنة"^(٤).

ثانياً: ومن الترغيب الصريح الآيات التي يذكر فيه الثواب الآجل في الآخرة إثر القيام ببعض الأعمال والصفات التي ترشح صاحبها ليكون أهلاً لذلك الثواب. وفي ذلك ترغيب صريح في السعي الجاد للحصول على هذه الدرجة الرفيعة والمترلة العالية. ومن ذلك قوله تعالى في جزاء المتقين من الجنات والأزواج المطهرات والرضوان: (قُلْ أُوْبُّكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ آتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ^(٥)). وقوله تعالى في جزاء المهاجرين والمجاهدين في سبيله من تكفير السيئات وإدخال الجنان: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

^١ سورة الأحقاف: ١٦

^٢ سورة البقرة: ٢٢١

^٣ سورة يونس: ٢٥

^٤ تفسير أبي السعود: ١٣٧/٤-١٣٨

^٥ سورة آل عمران: ١٥

وَلَاذْخِلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ^(١).
 وقوله تعالى في ثواب أصحاب الإيمان والعمل الصالح من الجنات والتولية بالذهب وإلباس الحرير
 والانتكاء على الأرائك: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.
 أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَذْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ
 ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)^(٢).
 وهذه الآيات التي ذكرتها في هذه النقطة صرحت كلها بثواب المؤمنين في الآخرة، وما ينتظرهم
 هنالك من الجنات، التي تجري تحتها الأنهار. وفيها من أنواع النعم، وصنوف المن ما لا عين رأت
 ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثالثاً: ومن الترغيب الصريح ما يذكر في الآيات، من الثواب العاجل في هذه الدنيا، لأصحاب
 الإيمان والأعمال، من حصول الأمن، والرغد في العيش، وانفتاح بركات السماء والأرض عليهم،
 والتمكين لهم في الأرض، والانتصار على الأعداء. ومن هذا القبيل قوله تعالى في ثواب أهل الإيمان
 والتقوى من ساكني قرى الأرض، وذلك بفتح بركات السماء والأرض عليهم: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ
 الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ)^(٣). أي: "ولو أن أهل القرى التي أرسلنا إليها رسلنا آمنوا بالرسول المرسلين إليهم،
 واتقوا ما صمموا عليه من الكفر، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح، لفتحنا عليهم بركات من
 السماء والأرض، أي: يسرنا لهم خير السماء والأرض، كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح
 أبوابها"^(٤). وقوله تعالى في انتصار الرسل والمؤمنين على الأعداء في هذه الحياة وتمكينهم في الأرض:
 (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)^(٥). صرح الله تعالى في هذه
 الآية بنصر الرسل وأتباعهم من المؤمنين على الكفرة المجرمين في هذه الحياة الدنيا، بالحجة والبيان،
 والغلبة والاستئصال بالقتل والسبي وغير ذلك من العقوبات، التي تحل بالكفار على أيدي المرسلين
 وأتباعهم. وقوله تعالى في وعد أهل الصبر والتقوى أن يحميهم كيد الكافرين ولا يضرهم في هذه

^١ سورة آل عمران: ١٩٥

^٢ سورة الكهف: ٣٠، ٣١

^٣ سورة الأعراف: ٩٦

^٤ فتح القدير للشوكاني: ٢٥٩/٢

^٥ سورة عافر: ٥١

الدنيا: (إِنْ تَمَسَسْنَكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)^(١). أخبر الله في هذه الآية عما وعد به أهل الصبر والتقوى من المؤمنين، بأن يحفظهم من كيد الكافرين وغائلتهم ومكرهم في الصدّ عن الهدى ودين الحق، الأمر الذي يكون تصرّحاً بترغيب المؤمنين في الصبر والتقوى عن طريق ذكر فوائده العاجلة في هذه الدنيا، مع ما يدّخر لهم في الآخرة من الأجر الكبير، والثواب العظيم. وقوله تعالى في الحثّ على التوبة والاستغفار، مع ذكر جزائهما في هذه الدنيا، وهو كثرة الأمطار وزيادة القوة في المستغفرين: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)^(٢). قال أبو حيان الأندلسي في تفسير الآية: "قصد هود استمالتهم إلى الإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوة، لأنهم كانوا أصحاب زورع وبساتين وعمارات، حراساً عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين بما أوتوا من هذه القوة والبطش والبأس مهئين في كل ناحية"^(٣). والغالب في آيات الترغيب أن تكون صريحة في مضمونها، بينة في دلالاتها، كما اتضح مما سقته من الأمثلة القرآنية بخصوص هذا الموضوع. والقرآن الكريم مليء بأمثالها، مما يستعصي على الحصر والإحاطة في هذا البحث، فنكتفي بذلك، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

الترهيب الصريح في القرآن الكريم

هناك آيات كثيرة وردت على أسلوب الترهيب الصريح على النحو الذي تقدم في آيات الترغيب الصريح. وفيما يلي سنورد أمثلة على ذلك من آيات الذكر الحكيم:

أولاً: من الترهيب الصريح ما يرد في الآيات من الألفاظ الدالة على الترهيب الصريح. ومن تلك الألفاظ: الترهيب، والتخويف، والتحذير، والإنذار، وغيرها مما يدل دلالة واضحة على الترهيب، والتخويف للعباد، من سوء العواقب إذا أهملوا، ومن شديد العقاب في الدنيا والآخرة إذا قصرُوا. ومن هذا القبيل قوله تعالى: (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)^(٤). في هذه الآية أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يخوف

^١ سورة آل عمران: ١٢٠

^٢ سورة هود: ٥٢

^٣ البحر المحيط لأبي حيان ١٦٦/٦

^٤ سورة الأنعام: ٥١

بالقرآن، وينذر به من يعترف ويوقن بالمصير إليه يوم الحشر والمعاد. وهؤلاء هم الأجدرون بالانتفاع بذلك الإنذار والتحذير. ولفظ الإنذار الوارد في الآية صريح في أسلوب الترهيب، الذي هو منهج القرآن الكريم في تهذيب النفوس، وتقويمها، واستقامتها على الصراط المستقيم. وقوله تعالى: (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)^(١). والإرهاب في الآية من الألفاظ الصريحة في تخويف الناس من عقاب الله وشدة غضبه، والقصد من ذلك امتثال الأوامر الله، واجتناب النواهي، كما يشير إليه قول أبي السعود في تفسير الآية: "التفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب. ولذلك قدم وكرر الفعل، أي إن كنتم راهبين شيئاً فإياي ارهبوا، فارهبوا لا غير، فإني ذلك الواحد الذي يسجد له ما في السموات والارض"^(٢). وقوله تعالى: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)^(٣). وهكذا ينهي الله في هذه الآية المؤمنين عن موالاة الكفرة لقراءة وصداقة ونحوهما، حتى يكون حبهم وبغضهم في الله. والمراد بقوله: "وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ"، أي: فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه، وهو تهديد عظيم مشعر بتناهي النهي في القبح. وذكر النفس ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى فلا يؤبه دونه مما يحذر من الكفرة^(٤).

ثانياً: ومن الترهيب الصريح ذكر العقوبات التي تؤدي إلى المخافة والحذر من شديد بطش الله تعالى وأليم عذابه في الآخرة لمن اتبع هواه وعصى أمر ربه. ومن ذلك: قوله تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)^(٥). بين الله تبارك وتعالى في الآية عقوبة من قتل مسلماً متعمداً بغير حق، وأنه بذلك يستحق دخول جهنم، خالداً فيها، مع تعرضه لسخط الله وطرده من رحمته، كما أعد له أشد العذاب بسبب ما ارتكبه من هذه الجناية العظيمة. وفي ذلك تصريح بالعقوبة الأخروية، التي يقاسيها من ارتكب هذا الجرم العظيم، والعمل المشين. وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ

^١ سورة الحل: ٥١

^٢ تفسير أبي السعود: ١١٩/٥

^٣ سورة آل عمران: ٢٨

^٤ انظر: تفسير الصاوي: ١٢/٢

^٥ سورة النساء: ٩٣

أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ. لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ^(١). هكذا بين الله في هذه الآيات جزاء من كذب بآيات الله، ولم يعمل بها تكبرا واستعلاء، بأنه لا تفتح أبواب السماء لأعماله في الحياة، ولا لروحه عند الممات، ويستحيل دخوله الجنة كاستحالة دخول الجمل في ثقب الإبرة. ثم أخبر أيضا عن تخليد هؤلاء في النار، ومقاساتهم لألوان العذاب، من افتراش للنار من تحتهم، وتغطّي بها من فوقهم. وهذه من أشد العقوبات التي صرّح بها القرآن الكريم، تخويفا للناس من عقاب الله، كي يستقيموا على الصراط المستقيم، ويتقوا الانحراف عنه في كل آن وحين. وقوله تعالى في جزاء المجرمين يوم القيامة بأنهم يُصَفَّدُونَ بالسلاسل والأغلال، ويلتحفون بالقطران، وتغطّي وجوههم النار: (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ. سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتُغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ. لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)^(٢). ومعنى الآية أن بعضهم مقرون مع بعض في القيود والأغلال، أو مع شياطينهم، كل كافر مع شيطانه في غل، أو تقرن أيديهم إلى أرجلهم مغلّين. ويطلق بالقطران حلودهم حتى يعود طلاؤه لهم كالسرايل وهي القمص، لتجتمع عليهم لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في حلودهم، واللون الوحش، وتنن الرياح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. وكل ما وعده الله، أو أوعده به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهده من جنسه ما لا يقادر قدره^(٣). وفي هذا تصريح بالعقوبة التي أعدت لمن عصى الله في هذه الدنيا، وتمرد عليه، مما يخوّف، ويرهب السامعين من سلوك طريقهم، واقتفاء أثرهم.

ثالثا: ومن الترهب الصريح ذكر العقوبات التي تنال من عصى أمر الله تعالى، واتبع هواه، من ضنك العيش، وقحط السماء، وجذب الأرض، والزلازل، والخسف، والمسح، وغير ذلك، مما يصيب أهل الكفر والمعاصي في هذه الدنيا. وفي هذا تخويف مباشر لمن يعمل مثل عملهم ويقتدي بفعالهم. ومن ذلك قوله تعالى في تهديد أصحاب السيئات بالخسف أو مجيء العذاب لهم من حيث لا يشعرون أو يأخذهم على حين غفلة من أمرهم: (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ

^١ سورة الأعراف: ٤٠، ٤١

^٢ سورة إبراهيم: ٤٩-٥١

^٣ انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٤٥٨/٦-٤٥٩

اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ^(١). ومعنى الآية، أي: أفامن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض، كما فعل بقارون، أو يأتيهم العذاب في حالة غفلتهم أو من مأنهم أو من حيث يرجون إيثان ما يشتهون كما حكى سلف مما نزل بالماكرين، أو يأخذهم على مخافة وحذر عن الهلاك والعذاب بأن يهلك قوما قبلهم، فيتخوفوا، فيأخذهم العذاب وهم متخوفون^(٢). وقوله تعالى في عقوبة من كفر بنعم الله من أهل القرى بأن سلط عليهم الجوع والجوع: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)^(٣). ويتضح من الأمثلة التي سقتها في هذه النقطة الترهيب الصريح في الآيات القرآنية، والتي تستهدف مشاعر الإنسان وعواطفه وميوله، حتى يترجر عن المعاصي والمخالفات، لما يترتب عليها من العواقب السيئة، والنتائج المؤلمة، فيستقيم على الصراط المستقيم، والله أعلم.

أسلوب التعريض في الترغيب والترهيب

التعريض الوارد في القرآن في مجال الترغيب والترهيب يأخذ مناحي متعددة وطرقاً متنوعة، فليس لهذا الأسلوب ضوابط معينة أو قواعد مرسومة، وإنما هي موكولة إلى فهم المتأمل لكلام الله تعالى ومدى استيعابه لإشارات القرآن الكريم ودلالاته الخفية، بعد إحاطته بأساليب العربية في الكلام، وارتقاء مزاجه إلى درجة إعمال الفكر في كلام الله تعالى. وفي بعض الأحيان يكون التعريض والإشارة أقوى دلالة وأعظم نفعا لأصحاب العقول السليمة والفهوم المستقيمة، كما قيل: "ورب تعريض لا يقاومه التصريح"^(٤). يقول الإمام الدهلوي^(٥) في تقريب التعريض الوارد في

^١ سورة النحل: ٤٥-٤٧

^٢ انظر: تفسير أبي السعود: ١١٧/٥

^٣ سورة النحل: ١١٢

^٤ تفسير المرحشي: ٣٧٦/٤

^٥ شيخ الإسلام أحمد ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي. أحد العلوم عن والده، وورع من التحصيل وهو في الخامس عشر من سبه، ثم رحل إلى الحرمين الشريفين فأقام بها عامين كامليين، تتلمذ على مشايخهما، وتلقى منهم كتب السنة وغيرها من كتب الحديث. ومن مصنفاته: فتح الرحمن في ترجمة القرآن بالعربية، والفقر الكبير في أصول التفسير، والمصفي شرح الموطأ، والمسوي شرح الموطأ، وشرح تراجم الأنوار للخازني، وحنة الله البالغة في أسرار الشريعة وغيرها كثيرة. توفي سنة: ١١٧٦هـ. انظر: ردة الحواطر ٨٥٦/٦-٨٦٥، المسمى بالإعلام عن تاريخ الهند من الأعلام لعدد الحبي الحسيني، ط: الأولى، دار ابن حزم - بيروت، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

القرآن إلى الأفهام: "وأما التعريض فإنه ذكر حكم عام أو منكر مع القصد إلى الإشارة والتعريض بحال شخص خاص أو التنبيه إلى شخص معين، وترد بعض خصوصيات ذلك الشخص في الكلام، بحيث تُعرّف المخاطب به وتكشفه له، وينبغي في مثل هذه المواضع أن يكون قارئ القرآن الكريم متيقظا فطنا، ويحتاج إلى القصة أيضاً^(١)."

التعريض الوارد للترغيب

أشار القرآن الكريم في مواضع كثيرة إلى ترغيب السامعين، وتشويقهم إلى ثواب الله، وحسن جزائه، من خلال أسلوب التعريض، كما سأذكره في النقاط التالية:

أولاً: من هذا النوع ذكر قصص الأنبياء وأتباعهم، الذين كتب الله لهم الفوز في الدنيا والآخرة، وأنجاهم من العذاب، الذي حلّ بمن عصى وكذب الرسل، الأمر الذي يدلّ عن طريق الإشارة أن من سلك سبيلهم من المؤمنين بعدهم يكون مصيرهم مثل مصيرهم، فيحصل لهم من الفوز في الدنيا والآخرة مثل ما حصل للسابقين.

وقد اعتنى القرآن بمثل هذه القصص، كما في قوله تعالى: (وَكَايْنِ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)^(٢).
حكى الله تعالى في هذه القصة عن جموع كثيرة من أتباع الأنبياء السابقين قاتلوا الأعداء في صحبتهم، فلم يضعفوا لما نزل بهم من الجراح، أو القتل، حيث إن ذلك أصابهم في سبيل مرضاة الله، ونصرة دينه، وصبروا على ذلك أيما صبر. ثم نقل عنهم تضرعهم إلى الله، وطلبهم المغفرة لذنوبهم، وتجاوزاتهم في أمر دينهم، ورغبتهم إلى الله أن يثبت أقدامهم، وينصرهم على الكافرين. فأتى الله لهم الجزاء في الدنيا بالنصر على الأعداء، والتمكين في الأرض، والثواب الحسن في الآخرة بدخولهم الجنات، والجوار لربّ العالمين. وهذه القصة في طياتها تحمل بشارة، وترغيباً للمؤمنين أينما كانوا في الاقتداء بسنتهم، واقتفاء آثارهم، ليحصل لهم ما حصل لهؤلاء. وقوله تعالى: (تِلْكَ

^١ العور الكبير في أصول التفسير، ص: ١٣٤، لأحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ «ولي الله الدهلوي»، ط: الثانية، دار الصحوة - القاهرة،

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

^٢ سورة آل عمران: ١٤٦-١٤٨

مِنْ أُنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ^(١). والآية تدل من باب الإشارة، أن النصر الذي حصل لنوح ومن آمن معه سيكون لهذه الأمة، إذ هي سائرة في طريق الأنبياء وأتباعهم، فلزومهم الصبر والتقوى يؤدي في النهاية إلى ما نال أتباع نوح من النصر العظيم، والفوز المبين. وقوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)^(٢). في الآية إخبار عن أمر الله وحكمه بعذاب قوم هود أشد العذاب، وإنجاء نبي الله ومن معه من المؤمنين برحمته. وفي هذا إشارة إلى أن من آمن بالأنبياء، واتبع طريقهم أيا كان سيكون مصيره مثل مصيرهم، مما يكون ترغيبا في الاقتداء بسيرتهم من باب الإشارة والتلويح.

ثانياً: الذكر الجميل والثناء الحسن لبعض الصفات الطيبة والأعمال الصالحة، وأن المتصفين بها والقائمين عليها سيلقون جزاء من الله بالحب والرضا والمعية والنصرة، مما يستدعي عن طريق الإشارة والتلويح الترغيب والحث على الاتصاف بهذه الصفات والقيام بهذه الأعمال. ومن هذا القبيل قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)^(٣). وفي الآية إشارة إلى الترغيب في التقوى، والإحسان، كما يقول الرازي: "وقوله: الذين اتقوا إشارة إلى التعظيم لأمر الله تعالى، وقوله: والذين هم محسنون إشارة إلى الشفقة على خلق الله، وذلك يدل على أن كمال السعادة للإنسان في هذين الأمرين أعني التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله"^(٤). وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)^(٥). "فهذا إخبار منه تعالى بحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا لمواجهة أعداء الله في حومة الوغى، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان"^(٦). وفي هذا ترغيب إلى مقاتلة الأعداء، ومواجهتهم بالاصطفاف في قوة وتنظيم من باب الإشارة. وقوله تعالى: (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)^(٧). في الآية ترغيب، وحث على

^١ سورة هود: ٤٩

^٢ سورة هود: ٥٨

^٣ سورة الحل: ١٢٨

^٤ تفسير الرازي: ٢٩٠/٢٠

^٥ سورة الصف: ٤

^٦ تفسير ابن كثير: ١٠٧/٨

^٧ سورة آل عمران: ١٥٩

التوكل والاعتماد على الله. فمحنة الله تعالى لأهل هذه الصفة تتضمن ترغيب السامعين لها، وتطلع أنظارهم إلى الاتصاف بها، كي ينالوا هذه المرتبة العظيمة، والدرجة الرفيعة.

ثالثاً: ما يستخلص من أسماء الله تعالى الدالة على الرحمة والمغفرة واللفظ بعباده من الرجاء والرغبة والطمع في رحمة الله وعفوه وعميم إحسانه. وفي ذلك ترغيب للمؤمنين أن يجتهدوا في الوسائل المؤدية إلى ذلك من التوبة، والاستغفار، والإنابة إلى الله تعالى، والحرص على الأعمال الصالحة، والابتعاد عن الأعمال السيئة.

ومن ذلك قوله تعالى: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)^(١). أشار تعالى بذكر اسميه الغفور، والرحيم في ختام الآية إلى ترغيب المؤمنين في مقتضى هذين الاسمين، من أسباب الرحمة، والمغفرة، وذلك بالتوبة والاستغفار، ولزوم طاعة الرحمن، واتباع سنة الأنبياء. وقوله تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)^(٢). وفي ختم الآية بهذين الاسمين إشارة إلى ترغيب من كفر بنعمة الله تعالى في التدارك قبل فوات الأوان، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً، ويرحم من رجع إلى طاعته، وشكر نعمته، وإن سبق ذلك كفران وجحود لها، كما يقول ابن عاشور في تفسير الآية: "وجملة إن الله لغفور رحيم: استئناف عقب به تغليظ الكفر والتهديد عليه، تنبيهاً على تمكنهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك، ويتأهبوا للشكر بما يطيقون، على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون"^(٣). وقوله تعالى: (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)^(٤). وفي ذكر لطف الله بعباده إشارة إلى الترغيب في رجاء رحمة الله تعالى، وبرّه، وإحسانه، وعدم الاستسلام إلى اليأس، والقنوط، وإن بدر من المرء ما يقتضي ذلك من صنوف التقصير، وأنواع التفريط، فإن لطف الله شامل، ورحمته وسعت كل شيء.

التحريض الوارد للترهيب

ورد الكثير من الترهيب في القرآن غير مصرّح به، بل يفهم من خلال الإشارة إلى ذلك في مواضع عديدة من آي الذكر الحكيم، وسأذكر بعض الأنواع من ذلك كالتالي:

^١ سورة آل عمران: ١٢٩

^٢ سورة البحل: ١٨

^٣ التحرير والتنوير لاس عاشور: ١٢٣/١٤-١٢٤

^٤ سورة الشورى: ١٩

أولاً: ومن ذلك ما ورد في قصص الأنبياء مع أممهم، وما حل بهم من العذاب والنكال بهم عندما تردوا على أمر الله، واستعصوا على قبول نصيحة الرسل واتباعهم، مما يؤكد على أن ما أصابهم سيصيب حتما من يسلك طريقهم ويقتدي بفعالهم، وذلك يتضمن الترهب من الأعمال التي أهلكوا بسببها، والتحذير من المشابهة بهم.

ومن الآيات الواردة في هذا الشأن قوله تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)^(١). وقد نبه الله تعالى المكذبين بوحدانيته، ورسله على ما حلّ بالأمم المكذبة من قبله، من هلاك وتدمير، مع الإشارة إلى أنه مكّنهم في الأرض ما لم يمكن لهؤلاء المخاطبين، وأنعم عليهم بإنزال المطر، وجريان الأنهار من تحت مساكنهم استدراجاً وإملاء، فكفروا بنعم الله، وكذبوا رسله، فأهلكهم بسبب ذنوبهم، فلم يبق منهم أحداً. وفي ذلك إشارة إلى تخويف المخاطبين من الكفار، وإنذار لهم من أن يصيبهم ما أصاب أولئك. وفي تفسير الآية يقول أبو حيان: "وفيه تعريض للمخاطبين، بإهلاكهم إذا عصوا كما أهلك من قبلهم"^(٢). وقوله تعالى: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)^(٣). وقد أخبر المولى جل وعلا في هذه الآية أن عقوبة كل من المذكورين كانت تناسبه، فأرسل على عاد حاصبا من الريح، عاتية، شديدة الهبوب، فتركتهم موتى كأنهم أعجاز نخل خاوية. وأما ثمود، فجاءتهم صيحة أحمدت الأصوات منهم والحركات. ومنهم من خسف الله بهم الأرض، وهو قارون الذي طغى وعصى، ومشى في الأرض مرحاً، فهو يتجملحل فيها إلى يوم القيامة. ومنهم من أغرقه الله، وهم فرعون ووزيره هامان، وجنوده عن آخرهم، أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر، وما كان الله ليظلمهم إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم^(٤). وفي ذكر عقوبات القوم، وتنوعها، ووقعها الشديد في نفوس السامعين إشارة إلى الحذر والتحرز من اقتراف الظلم، الذي تسبب لهم في ذلك، والعياذ بالله. وقوله تعالى:

^١ سورة الأنعام: ٦

^٢ البحر المحيط لأبي حيان: ٤٤٠/٤

^٣ سورة العنكبوت: ٤٠

^٤ انظر: تفسير ابن كثير ٢٧٨/٦

(وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْنِ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ)^(١). أخبر الله تعالى في هذه الآية أن كثيرا من أهل القرى، الظالمين بإصرارهم على الكفر والمعاصي أمهلهم الله، فلم يعاجلهم بالعقوبة، فلما أصرروا على ذلك أوقع بهم عقوبته في الدنيا، وسيكون مرجعهم بعد هلاكهم إلى ربهم، فيعذبهم عذابا شديدا في الآخرة بما يستحقون. وفي ذلك إشارة إلى الترهب من الظلم والكفر لجميع ساكني القرى، حتى لا يجمع الله عليهم بين العذابين في الدنيا والآخرة.

ثانياً: ومن الترهب الوارد في القرآن عن طريق الإشارة والتعريض ما يذكر في الآيات من الصفات القبيحة والأعمال الفاجرة التي لا يحبها المولى جل وعلا ولا يرضاها لعباده ولا يهدي أصحابها إلى الصراط السوي، مما يؤكد بالضرورة على الزجر من هذه الأعمال والأوصاف، حذرا من الوقوع في غضب الله واستحقاق عقابه.

ومن ذلك قوله تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)^(٢). وفي نفي محبة الله للظالمين تعريض بالعقوبة النازلة على كل ظالم، فيشمل عقوبة من يسمع النص، ممن هو متلبس بشيء من الظلم، الأمر الذي يقتضي الخوف والحذر من غضب الله وشدة عقابه التي أعدّها للظالمين. وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)^(٣). قال أبو حيان في بيان التعريض الواقع في الآية، والذي يقتضي أن يثير خوف كل مسرف وكذاب: "وفيه تعريض بفرعون، إذ هو غاية الإسراف على نفسه بقتل أبناء المؤمنين، وفي غاية الكذب، إذ ادعى الإلهية والربوبية، ومن هذا شأنه لا يهديه الله"^(٤). وقوله تعالى: (يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)^(٥). في عدم رضا الله عن الفاسقين إشارة إلى تحذير كل فاسق من غضب الله وشدة عقابه، كما يقول أبو السعود: "ووضع الفاسقين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حلّ بهم من السخط، وللايذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك"^(٦). وقوله تعالى: (لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا

^١ سورة الحج: ٤٨

^٢ سورة آل عمران: ٥٧

^٣ سورة عاف: ٢٨

^٤ البحر المحيط لأبي حيان: ٢٥٣/٩

^٥ سورة التوبة: ٩٦

^٦ تفسير أبي السعود: ٩٤/٤-٩٥

يُسِرُّونَ وَمَا يُغْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ^(١). وفي ختام الآية إشارة إلى الترهيب من موجبات صفة الكبر، التي لا تنبغي إلا لله المتكبر الجبار، فمن رام منازعة الله فيها فليحذر حلول غضبه عليه، فإنه لا يحب من استكبر عن الحق، وتعالى على الخلق.

ثالثاً: ومن التعريض في الترهيب ما يذكر في الآيات من علم الله المحيط بكل شيء، الشامل لكل مكان وزمان، وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، مما يثير الخوف والحذر في نفوس السامعين، إذ إن هذا يؤكد على مراقبة الله الدقيقة التي تهيمن على حركات الإنسان وسكناته في هذا الكون. وعلى هذا فإن علمه الشامل في السر والعلن يدلّ بطريق الإشارة والتلويح الخوف والحذر من الوقوع في المخالفات والمعاصي.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: (قُلْ أُنْزِلَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)^(٢). قال الألوسي في بيان اقتضاء وصف الله تعالى بإحاطة العلم بالخوف والرهبة منه في جميع الأزمنة، والأمكنة: "وصفه تعالى بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية والجلية المعلومة من باب أولى، للإيذان بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر، مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التي هي من جملة معلوماته تعالى"^(٣). وقوله تعالى: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٤). وقوله تعالى: (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)^(٥). وفي تعليق علم الله تعالى بالسر والنجوى تعريض بالتخويف لمن سوّلت نفسه بافتراء المعاصي والمنكرات، مستخفياً بذلك عن الناس، غير مبال باطلاع الله عليه. وقوله تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)^(٦). وفي ذكر علم الله تعالى وإحاطته بأعمالهم، ونياتهم إشارة إلى الترهيب من أن يقع نظره على الإنسان، وهو مقترب لمحارمه. وفي ذلك تحذير غير مباشر من ارتكاب جميع المعاصي، والمخالفات؛ لأن علم الله محيط بكل ذلك.

^١ سورة الحل: ٢٣

^٢ سورة الفرقان: ٦

^٣ تفسير الألوسي: ٤٢٦/٩

^٤ سورة الققرة: ٢٢٠

^٥ سورة التوبة: ٧٨

^٦ سورة النور: ٢٩

المطلب التاسع: التكرار لآيات الترغيب والترهيب

التكرار لغة

والتكرار مأخوذ من الكَرَّ الذي هو: مصدر كَرَّ يَكُرُّ كَرًّا. والكُرُّ: الحبل الذي يصعد به النخيل، وحبل شراع السفينة، والكُرُّ أيضا: خلاف الفرّ والرجوع على الشيء. وكَرَّرَ الشيء تَكْرِيرًا وَتَكَرَّرَ: أعاده مرّة بعد أخرى، وهذا المعنى هو المناسب لما نحن بصددّه. يُقَالُ كَرَّرَ الفارس فهو كَرَّارٌ وَمِكْرٌ، وكَرَّرَ الشيءَ كَرًّا: رَدّه، وكَرَّرَ الليل والنهار: عاذا مرّة بعد أخرى، وكَرَّرَ عَلَى العدو: حمل عليه، وكَرَّرَ عنه: رجع، وكَرَّرَ عليه الحديث: أَعَادَهُ^(١).

التكرار اصطلاحاً

التكرار في اصطلاح أهل الأدب والبلاغة: أن يكرّر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى، مريداً بذلك تأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل، أو الوعيد أو الإنكار أو التوبيخ أو الاستبعاد أو لأيّ غرض من أغراض الكلام الأخرى^(٢). وقال ابن الأثير في تعريف التكرار: "وأما التكرير، فإنه: دلالة على المعنى مردّداً، كقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع، فإن المعنى مردّدٌ واللفظ واحد"^(٣). وفرّق ابن الأثير بينه وبين الإطناب والتطويل، فقال: "وإذا كان التكرير هو إيراد المعنى مردّداً، فمعه ما يأتي لفائدة، ومنه ما يأتي لغير فائدة. فأما الذي يأتي لفائدة، فإنه جزء من الإطناب، وهو أخص منه، فيقال حينئذ: إن كلّ تكرير يأتي لفائدة، فهو إطناب وليس كلّ إطناب تكريراً. وأما الذي يأتي من التكرير لغير فائدة فإنه جزء من التطويل، وهو أخص منه، فيقال حينئذ: إن كلّ تكرير يأتي لغير فائدة تطويل، وليس كلّ تطويل يأتي لغير فائدة"^(٤).

وأما ورود التكرار في القرآن الكريم والذي استشكله بعض ضعاف النفوس فلا يخلو عن فائدة ومعنى يقتضى هذا التكرار، كما بينه المختصون بعلوم القرآن، ومن بينهم الإمام ابن قتيبة^(٥).

^١ انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٣٢٧/٩، والمعجم الوسيط: ٧٨٢/٢

^٢ انظر: تحرير التحريم لعبد العظيم العدواني، ص: ٣٧٥، وحرارة الأدب وعناية الأثر: ٣٦١/١، لاس حجة الحموي، أبو بكر بن علي، ط: الأحيرة، مكتبة الهلال، ودار البحار — بيروت، ٢٠٠٤م. التحقيق: عصام شقيو.

^٣ المثل السائر لصباء الدين بن الأثير: ٢٨١/٢

^٤ المصدر السابق: الصفحة السابقة

^٥ عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد الديوري، الكاتب، بريل بغداد. كان رأساً في اللغة والعربية والأخبار، وأيام الناس. قال الخطيب: كان ثقة دينا فاضلاً. صنف: غريب القرآن، وغريب الحديث، وكتاب المعارف، وكتاب مشكل القرآن، وكتاب مشكل الحديث، وكتاب أدب الكاتب، وكتاب أعلام السوء، وكتاب أدب القاضي. توفي في سنة ست وسعين ومائتين. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ٥٦٥-٥٦٦

فقال في حل هذا الإشكال إذا كان الكلام المكرّر بألفاظ متفقة: "وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزىء عن بعض، كتكراره في: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، وفي سورة الرحمن بقوله: فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فقد أعلمتك أنّ القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم. ومن مذاهبهم التكرار: إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار: إرادة التخفيف والإيجاز، لأن افتنان المتكلم والخطيب في الفنون، وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فنّ واحد"^(١). وإذا كان الكلام بألفاظ مختلفة غير أن المعنى مكرر، فقال في دفع الإشكال عنه: "وأما تكرار المعنى بلفظين مختلفين، فلاشباع المعنى والاتساع في الألفاظ. وذلك كقول القائل: أمرك بالوفاء، وأنهاك عن الغدر. والأمر بالوفاء هو التّهي عن الغدر. وأمركم بالتواصل، وأنهاكم عن التقاطع. والأمر بالتواصل هو النهي عن التقاطع"^(٢). وتبيّن مما سبق معنى التكرار لغة واصطلاحاً، والفرق بينه وبين الإطناب والتطويل، مع إمكانية وروده في القرآن، ودفع الإشكال الوارد في ذلك، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

فوائد التكرار وأغراضه في القرآن

ولقد وجد التكرار في القرآن الكريم، في الألفاظ والمعاني، لما له من الفوائد الكثيرة، التي تخرج عن الحصر. وذلك أنّ القرآن نزل على أساليب العرب وعاداتها في الكلام والتخاطب، والمتأمل لما ثور كلامهم يرى كثرة التكرار في الألفاظ والمعاني عند الاهتمام بشيء إرادة لتحقيقه، أو قصداً للترغيب فيه. يقول المولى جل في علاه: (وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا)^(٣). ويقول الزركشي: "وعلى ذلك يحمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد لأن الإنسان مجبول من الطباع المختلفة وكلها داعية إلى الشهوات ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع"^(٤).

ولقد يسّر الله تعالى القرآن الكريم ليكون موعظة وذكرى للمؤمنين، بأن كرّر فيه الوعد والوعيد، والتبشير والإنذار، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ)^(٥).

^١ تأويل مشكل القرآن لابن فتيبة، ص: ١٤٩

^٢ المصدر السابق، ص: ١٥٢

^٣ سورة طه: ١١٣

^٤ البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٩/٣

^٥ سورة القمر: ١٧

والغالب في القرآن تكرار المضامين دون الألفاظ مما ينشط الأذهان ويمتدح الأفكار كما قال الإمام الدهلوي: "ولأجل ذلك أمرنا بتكرار التلاوة والإكثار منها، ولم يكتف بمحرد الفهم والإدراك... وقد روعي مع ذلك هذا القدر من الفرق أن المطالب التي تكررت جاءت كل مرة بعبارة طرية جديدة، وأسلوب جديد، حتى يكون له وقع أكثر في النفوس، وأمتع للأذهان والعقول. فلو كان التكرار مع اتحاد الألفاظ والعبارات لكان شيئاً من حقه أن يكرّر ويردّد فحسب، ولكنه مع اختلاف التعابير وتنوع الأساليب مدعاة للتفكير، وخوض العقل، واستجماع الخاطر"^(١). وأشار الألوسي إلى مجمل فوائد التكرار بقوله: "وأما التكرار اللفظي والمعنوي فلا يخلو عن فائدة لا تحصل من غير تكرار، كبيان اتساع العبارة، وإظهار البلاغة، وزيادة التأكيد والمبالغة، إلى غير ذلك مما قد أمعن المفسرون في تحقيقه وبيانه"^(٢).

وذكر الإمام الزركشي^(٣) للتكرار فوائد وأغراضا سامية، نختصرها فيما يلي:

أولاً: التأكيد، وذلك أن التكرير أبلغ من التأكيد؛ لأنّ في التكرار التأسيس، وهو أبلغ من التأكيد، فإنّ التأكيد يقرّر إرادة معنى الأول، وعدم التجوّز، كما قيل في قوله تعالى: (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)^(٤): إن الثانية تأسيس لا تأكيد، لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء، وفي ثم تنبيه على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول.

ثانياً: زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة؛ ليكمل تلقّي الكلام بالقبول ومنه قوله: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)^(٥). فإنه كرر فيه النداء لذلك.

ثالثاً: إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد مرّة أخرى، تطرية له وتجديدا لعهد، كقوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٦).

^١ الغور الكبير في أصول التفسير للدهلوي، ص: ١٦٠

^٢ تفسير الألوسي: ٣١/١

^٣ انظر في ذلك: البرهان في علوم القرآن للزركشي ١١/٣، وما بعدها.

^٤ سورة التكاثر: ٣، ٤

^٥ سورة عاfer: ٣٨، ٣٩

^٦ سورة النحل: ١١٠

رابعاً: يرد في مقام التعظيم والتهويل كقوله تعالى: (الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّةُ. وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ)^(١). وقال أبو حيان رحمه الله: "وأكثر ما يربط بتكرار المبتدأ إذا أريد، يعني التعظيم والتهويل. وما أدراك ما الحاقة: مبالغة في التهويل، والمعنى أن فيها ما لم يدر ولم يحيط به وصف من أمورها الشاقة وتفصيل أوصافها"^(٢).

خامساً: في مقام الوعيد والتهديد كقوله تعالى: (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)^(٣). يقول الطبري في تفسير الآية: "سيعلم هؤلاء الكفار المنكرون وعيد الله أعداءه، ما الله فاعل بهم يوم القيامة، ثم أكد الوعيد بتكرير آخر"^(٤).

سادساً: التعجب كقوله تعالى: (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرًا. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرًا)^(٥)، فأعيد تعجبا من تقديره وإصابته الغرض على حد قاتله الله ما أشجعه!.

سابعاً: لتعدد المتعلق كما في قوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)^(٦)، فإنها وإن تعددت، فكل واحد منها متعلق بما قبله. وإنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة، فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها وبخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: ألم أحسن إليك بأن خولتك في الأموال؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا؟ فيحسن فيه التكرير لاختلاف ما يقرر به، وهو كثير في كلام العرب.

هذا ويشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص التي تكررت في أكثر من موضع، فالقصة الواحدة ترد في القرآن مرارا وتكرارا، ولكنها تُعرض في صور مختلفة من التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، وما شابه ذلك من أساليب البلاغة والبيان. وقد أجمل صاحب الكشف الحِكَم التي من أجلها رددت هذه القصص في قوله: "ولأنّ في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس،

^١ سورة الحاقة: ١-٣

^٢ البحر المحيط لأبي حيان: ٢٥٤/١٠

^٣ سورة السأ: ٤، ٥

^٤ تفسير الطبري: ١٥٠/٢٤-١٥١

^٥ سورة المدثر: ١٩، ٢٠

^٦ سورة الرحمن: ١٣

وتثبيتها في الصدور. ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر وأبعد من النسيان^(١).

أسلوب التكرار في الترغيب والترهيب

ثبت أن التكرار جاء في القرآن الكريم لحكم عظيمة وفوائد جلية، ومن بين تلك الفوائد تثبيت القلوب على الإيمان، وتحريك النفوس وتشويقها إلى الأوامر والطاعات، وتنفيها عن المعاصي والمخالفات، وهو ما يسمى بالترغيب والترهيب، وذلك أن: "من عادة العرب التكرار والإطناب، كما في عادتهم الاقتصار والإيجاز، ولأن بسط الكلام في الترغيب والترهيب أدعى إلى إدراك البغية من الإيجاز"^(٢). وقال الإمام أبوبكر الباقلاني في استحسان التكرار في الترغيب والترهيب: "أن في ذلك مرة بعد مرة من التثبيت لرسوله عليه السلام والمؤمنين، والموعظة والتخويف لهم، والرغبة في طاعة الله والانزجار عن معصيته عند تكرار الكلام، وإعادة القصص وضرب الأمثال ما ليس في المرة الواحدة"^(٣). ويوجد في القرآن المجيد تكرار معنوي كثير لمفردات الترغيب والترهيب، وسآتي بأمثلة لهذه المفردات المكررة من آيات الذكر الحكيم.

أولاً: التكرار في آيات الترغيب:

ومن أمثلة الترغيب، التي تكررت في آيات الذكر الحكيم ما يلي:

١- ذكر الجنة ونعيمها، وأشجارها وأثمارها، وطعامها، وظلالها، وحورها، وولدها، وغير ذلك مما أعدّه الله للمؤمنين والمؤمنات من أنواع المن وأصناف النعم. وذكر الله تعالى الجنة في القرآن مرارا وتكرارا؛ لما في وصف الجنة من التشويق للمؤمنين وترغيبهم في تحصيلها من خلال الاجتهاد في الطاعات، والإكثار من أنواع القربات. ومن هذا النوع من الآيات قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٤). وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا

^١ تفسير الرمحشري، ٣/٣٣٤

^٢ أسرار التكرار في القرآن لمحمود الكرماي: ص: ٢٤٥، وهو المسمى أيضا: البرهان في توحيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة برهان الدين الكرماي، ط: دار العvisلة، التحقيق: عبد القادر أحمد عطا.

^٣ الانتصار للقرآن للباقلاني: ٨٠٢/٢

^٤ سورة البقرة: ٨٢

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا^(١).

٢- ذكر صفات الله الرحيم الغفور، الدالة على فضله العظيم، وعفوه الكريم ورحمته الواسعة، والتي تكررت في القرآن أيما تكرار، تحفيزاً للمتقين في طاعة الرحمن، وترغيباً للمخطئين في الإنابة والرجوع إلى العزيز الغفار، حتى لا يأسوا من روح الله، ورحمته الواسعة. ومن هذا النوع من الآيات قوله تعالى: (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)^(٢). وقوله تعالى: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)^(٣). وقوله تعالى: (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ)^(٤).

٣- النعم التي امتن الله بها على عباده في مختلف الأطوار والأحوال، وهي مبثوثة في القرآن بطرق متعددة، وأنحاء مختلفة، منها نعمة الخلق والإيجاد، ونعمة التربة والرزق، ونعمة إنزال المطر وإنبات الأرض، وتسخير الأرض والسماء وما بينهما، وغير ذلك مما يُقرّ به المؤمن والكافر، والفاجر، وذلك يقتضي الشكر عليها وصرفها في طاعة المنعم بها، والاجتهاد في مرضيه، والابتعاد عن الكفر بها ونكران الجميل. وقد تكررت هذه النعم في القرآن الكريم بكثرة من غير حصر، كما قال تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٥). وذكرت هذه النعم في القرآن الكريم في غير آية، وسوف نأتي بأمثلة عابرة لبعضها، فقال تعالى في تسخير السموات والأرض للإنسان: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)^(٦). وقال في خلق الإنسان والأنعام وذكر منافعها: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْإِنْسَانِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ

^١ سورة النساء: ٥٧

^٢ سورة التوبة: ١٠٤

^٣ سورة يونس: ١٠٧

^٤ سورة الحزم: ٣٢

^٥ سورة الحل: ١٨

^٦ سورة الحاثية: ١٣

لَرءَوْفٌ رَحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(١). وقال في إنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها: (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ. فَأَنْظِرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٢). وقال في نعمة الرزق من الطيبات، والتناسل بين الأزواج، وإعطاء الذرية من الحفدة والبنين: (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)^(٣).

ثانياً: التكرار في آيات الترهيب:

ومن مفردات الترهيب التي تكررت في القرآن الكريم ما يلي:

١- ذكر النار وجحيمها، وإحراقها، وحميمها، وزقومها، وسلاسلها، وعويل أهلها وندمهم وحسرتهم وخسراتهم، مما يبعث في النفوس الخوف والانزعاج، ويدفع الإنسان إلى الابتعاد عن الأسباب المؤدية إلى استحقاقها، والاصطلاء بجحيمها، من تضييع الفرائض والواجبات، واقتراف الشرك والكبائر والمحرمات، فقال تعالى في التحذير منها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)^(٤). وقال تعالى في الذل الذي يحتم على أهلها، والظلمة التي تغشى وجوههم، وكوفهم يدومون في مقاساة حرّها وشدائدّها: (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٥). وقال تعالى في السلاسل التي يسحبون بها، والأغلال التي تغلّ في أعناقهم، والحميم الذي يسحرون به: (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا

^١ سورة الحل: ٤-٨

^٢ سورة الروم: ٤٨-٥٠

^٣ سورة الحل: ٧١-٧٢

^٤ سورة التحريم: ٦

^٥ سورة يوس: ٢٧

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ^(١).

٢- ذكر صفات الله الدالة على العزة والغلبة والقهر والعظمة، والعلم بدقائق الأمور ومخايئ الصدور، وسرعة الجزاء وشدة الانتقام، مما يبعث على الخوف والحذر وعدم التفريط في الواجبات أو التهاون في المحرمات، فقال تعالى في شدة العقاب وقوة البطش وسرعة الأخذ: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)^(٢). وقال تعالى في عزته وغلبته على ما يشاء وانتقامه وشدة بأسه وعقابه: (عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)^(٣).

٣- التخويف بذكر العذاب الدنيوي والعقوبة العاجلة، سواء حلت بالأمم السابقة أو جاء التخويف بها لهذه الأمة إن خالفت أمر الله، وقد تكرر هذا التخويف بهذا النوع من العذاب في القرآن المجيد، كي يترجر العباد عن المخالفات، ولا يتمادوا في الطغيان والعصيان، فقال تعالى محذرا الأمة من بأسه العاجل في هذه الدنيا: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)^(٤). وقال تعالى في التحذير من الخسف والحصب والقصف في البر والبحر: (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا. أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا)^(٥). وإلى هنا انتهى الفصل الأول بخصوص أسلوب القرآن اللغوي في الترغيب والترهيب، تحدثت فيه عن طائفة من الكلمات لها صلة وثيقة بالترغيب والترهيب، بالإضافة إلى الأساليب اللغوية المستعملة في الترغيب والترهيب، والله الموفق للصواب.

^١ سورة عاف: ٧٠-٧٢

^٢ سورة عاف: ٢٢

^٣ سورة المائدة: ٩٥

^٤ سورة الأعمام: ٦٥

^٥ سورة الإسراء: ٦٨-٦٩

الفصل الثاني

أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن الكريم وأثره في الدعوة والتربية.

ويشتمل على المباحث التالية :

- ١ - أهمية الترغيب والترهيب في الدعوة والتربية
- ٢ - الترغيب والترهيب نهج الرسل في دعوتهم
- ٣ - آثار الترغيب والترهيب في النفس البشرية

المبحث الأول:

أهمية الترغيب والترهيب في الدعوة والتربية

ويتضمن المطالب التالية:

المطلب الأول: مفهوم الدعوة إلى الله وفضلها

المطلب الثاني: أهمية الترغيب والترهيب في الدعوة

المطلب الثالث: مفهوم التربية وأهميتها في الدين

المطلب الرابع: أهمية الترغيب والترهيب في التربية

المطلب الأول: مفهوم الدعوة إلى الله وفضلها

مفهوم الدعوة لغة واصطلاحاً:

هي مصدر للفعل دعا المعتل اللام، وإذا تأملنا أصل الكلمة والمعنى الذي تدور حوله في جميع مشتقاتها، فإنها تدل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك^(١). يقال: دعا بالشيء دعوا ودعوة ودُعَاء ودَعْوَى: طلب إخضاره، ودعا فلاناً: صاح به وناداه، ودعاً فلاناً استعان به ورغب إليه وابتهل. ويُقال: دعا الله: رجا منه، وفلاناً: رجا منه الخير، وفلاناً: طلب الخير له، ودعا على فلان: طلب له الشر، ودعا إلى الشيء: حثه على قصده^(٢).

لم يتعرض المتقدمون من العلماء — حسب علمي — لتعريف الدعوة الإسلامية استقلالاً إلا ما جاء عرضاً في ثنايا كلامهم لشرح كتاب الله أو حديث رسوله صلى الله عليه وسلم. ومن هذا القبيل ما قاله الإمام ابن تيمية^(٣) رحمه الله تعالى في تعريفها: "الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه"^(٤). وعرفها بعض المعاصرين بقوله: "حث الناس على الخير والهدى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل"^(٥). ومن هنا يمكن القول

^١ انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٢٧٩ / ٢

^٢ انظر: المعجم الوسيط: ٢٨٦ / ١

^٣ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي الحسلي تقي الدين أبو العباس. نظر في الرجال والعلل وتفقّه وتمييز وتمييز وتقدم وصف ودرس وأفتى وفاق الأقران، وصار عجا في سرعة الاستحضار، وقوة الجنان، والتوسع في المقول والمقول، والإطالة على مذاهب السلف والخلف. واعتقل بالقلعة فلم يزل بها إلى أن مات في سنة ٧٢٨هـ. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر: ١ / ١٦٨ - ١٧٥. والدرر الطالع: ٦٣ / ١ وما بعدها، لمحمد بن علي الشوكاني، ط: دار المعرفة - بيروت.

^٤ مجموع الفتاوى: ١٥ / ١٥٧ - ١٥٨، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م. التحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم.

^٥ هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، ص: ٢١، للشيخ علي محمود، ط: دار الاعتصام، القاهرة.

بتعريف الدعوة على أنها هي: الحث على تطبيق تعاليم الدين بأكمله في حياة الأفراد والجماعات من خلال الوسائل المشروعة التي من شأنها أن تؤدي إلى النتائج المطلوبة.

فضل الدعوة إلى الله:

الدعوة من أحب الأعمال إلى الله تعالى، وأنفعها للعباد، حيث إن نفعها متعدد إلى الآخرين، بخلاف العبادة التي يقتصر نفعها على صاحبها فقط كما في قوله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)^(١). تلا الحسن البصري^(٢) رحمه الله تعالى هذه الآية ثم قال: "هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب الخلق إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا في إجابته، وقال: إني من المسلمين، فهذا خليفة الله"^(٣). وليس بعد وصف الله تعالى الدعوة في القرآن بأحسن الأقوال تشوّف لمزيد فضائلها، فإن ذلك يكفي في بيان فضلها، ومزيتها على غيرها من الأقوال والأعمال. وقد أمر الله عزّ وجلّ رسوله صلى الله عليه وسلم في آيات كثيرة بالدعوة إليه، فقال عزّ من قائل: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)^(٤). أي: ادع من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلى طاعته بالكتاب الذي أنزله عليك، وبالعبر التي جعلها حجة عليهم، وذكرهم بها في تنزيله، وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها^(٥).

ونبه الله عزّ وجلّ على أهمية الدعوة، وعظّم من شأنها والمسؤولية عنها في كتابه، فجعلها سبيل رسوله صلى الله عليه وسلم، ومنهج حياته، ووظيفة عمره، كما جعلها منهاج من اتبعه من

^١ سورة فصلت: ٣٣

^٢ الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت الأنصاري. رأى: عثمان، وطلحة، والكار. وروى عن: عمران بن حصين، والمعيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن سمرة، وسمرة بن حديد، وأبي بكره النخعي، والعمان بن بشير، وحابر، وحديث الحلبي، وابن عباس، وعمرو بن تغلب، ومعقل بن يسار، والأسود بن سريع، وأنس، وحلق من الصحابة. كان الحسن حامعا، عالما، رفيعا، فقيها، ثقة، حجة، مأمونا، عادلا، ناسكا، كثير العلم، فصيحاً، حميلاً، وسيما. مات سنة عشر ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٤/ ٥٦٣ وما بعدها.

^٣ أخرج هذا الأثر الطبري بسنده في تفسيره جامع البيان: ٤٦٩/٢١

^٤ سورة النحل: ١٢٥

^٥ انظر: تفسير الطبري ٣٢١/١٧

أمته، في حياة الرسول وبعد وفاته، فقال: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)^(١).

وأكد النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديثه على فضل الدعوة، وبيّن أن الداعي إلى عمل الخير يحصل له من الأجر مثل أجور من استجاب لدعوته من غير أن ينقص ذلك من أجر الداعي والمدعو شيئاً. كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً»^(٢). وفي بيان هذه الفضيلة يقول ابن القيم: "والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ووراثه النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علم غيره شيئاً من ذلك كان له مثل أجره ما دام ذلك جارياً في الأمة على آباد الدهور... فيالها من مرتبة ما أعلاها، ومنقبة ما أجلها وأسناها، أن يكون المرء في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقاً وأوصالاً متفرقة، وصحف حسناته متزايدة يملئ فيها الحسنات كل وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب"^(٣).

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بتبليغ دينه، وإن كان هذا المبلغ قدر آية، حتى لا يكون لأحد منهم عذر في ترك الدعوة بحجة أنه ليس بعالم، إذ إنه لا يوجد في الغالب أحد من أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم لا يحفظ سورة الفاتحة. كما يروي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٤).

وقرّر النبي صلى الله عليه وسلم أن هداية الناس غاية نبيلة، ووظيفة شريفة، وتجارة رابحة، مفضلاً إياها على حطام الدنيا وملذّاتها، ترغيباً منه في الاهتمام بدعوة الناس وهدايتهم إلى الصراط

^١ سورة يوسف: ١٠٨.

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٩)، كتاب العلم، باب من سب سبحة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري البسماوري، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت. المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي.

^٣ طريق المحترفين ونبات السعادات، ص: ٣٥٣ - ٣٥٤، لاس القيم الحورية، ط: الثانية، دار السلعية، القاهرة - مصر، ١٣٩٤هـ.

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٠)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

المستقيم، فقال لعلّي رضي الله عنه يوم خير: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ»^(١) حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»^(٢). في هذا الحديث بيان فضيلة العلم والدعاء إلى الهدى، وسنّ السنن الحسنة. وحمّر النعم: هي الإبل الحمرة، وهي أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء، وأنه ليس هناك أعظم منه. وأما تشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا إنما هو للتقريب من الأفهام وإلا فذرة من الآخرة الباقية خير من الأرض بأسرها، وأمثالها^(٣).

وتبيّن مما سقته من الآيات والأحاديث فضيلة الدعوة وأهميتها، وأنها من أحسن الأقوال التي تصدر من الإنسان، وقد أمر الله بها نبيّه في أكثر من آية، وجعلها سبيله ووظيفته الدائمة، كما جعل الأمة بأجمعها تقتدي النبيّ صلى الله عليه وسلم في أداء هذه الوظيفة، وخاصة بعد مماته، إلى جانب إثبات النبيّ صلى الله عليه وسلم أجر المدعوّ للداعي، من غير أن ينقص من أجرهما شيء، وتقديره أن اهتداء رجل واحد خير للداعي من أن تحصل له الدنيا بخذافيرها.

^١ والرسول بالكسر: الهبة والتأيي. قال الجوهري: يقال افعل كذا وكذا على رسلك بالكسر: أي اتقد فيه. النهاية في غريب الحديث: ٢/٢٢٢، لاس

الأثير المارك بن محمد، ط: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. تحقيق: طاهر أحمد الراوي - محمود محمد الطاحي.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠/٤)، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل. ومسلم في صحيحه (١٨٧٢/٤)، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. كلاهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

^٣ انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٧٨/١٥-١٧٩، للووي، ط: الثانية، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٣٩٢هـ.

المطلب الثاني: أهمية الترغيب والترهيب في الدعوة

من أهم الوسائل التي تُعتمد في الدعوة إلى الله تعالى وسيلة الترغيب والترهيب، فلا يتصور القيام بالدعوة إلى الله بدونهما، إذ إنهما الدعامتان الأساسيتان لدعوة الإسلام. فالقرآن الكريم وهو المصدر الأساس للدعوة إلى الله تعالى قد ركّز بشكل كبير على هذا الأسلوب باديء ذي بدء، ونقذ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ذلك في حياته الدعوية المليئة بالترغيب والترهيب، والتخويف، والترجية، سيرا منه على المسلك الإلهي والمنهج الرباني.

وعند إلقاء نظرة سريعة على أول آية نزلت في أمر الدعوة يتضح هذا الأمر في ذهن المتأمل لكتاب الله عز وجل. وذلك قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)^(١). فأول أمر اشتملت عليه السورة هو الإنذار الذي هو جزء مهم من أسلوب الترغيب والترهيب. وقد يبين لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما الظرف الذي نزلت فيه هذه الآيات، والملابس التي أحاطت بها، فقال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتِنَا السَّمَاءَ فَرَفَعَتْ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِجَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ^(٢) مِنْهُ رُعْبًا، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَرُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ إِلَى وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَاةُ»^(٣).

يقول سيد قطب في بيان أهمية الإنذار في الدعوة: "والإنذار هو أظهر ما في الرسالة، فهو تنبيه للخطر القريب الذي يترصد للغافلين السادرين في الضلال وهم لا يشعرون. وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد، وهم لا ينقصون في ملكه شيئا حين يضلون، ولا يزيدون في ملكه شيئا حين يهتدون. غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة، ومن الشر الموبق في الدنيا. وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله"^(٤). ومن هنا يتبين أن الترغيب والترهيب من أعظم السمات، التي امتازت بها الرسالة المحمدية، حتى صارت

^١ سورة المدثر: ١-٧

^٢ أي ذعرت وحفت. النهاية في غريب الحديث للحرري: ٢٣٢/١

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه (١٦٢/٦) كتاب التفسير، باب وثيابك فطهر.

^٤ في طلال القرآن لسيد قطب: ٣٧٥٤/٦، لسيد قطب إبراهيم الشاربي، ط: الساعة عشر، دار الشروق - بيروت، القاهرة، ١٤١٢هـ.

وصفا لازما للرسول صلى الله عليه وسلم، حيث وصفه الله بالبشير النذير في غير ما آية، وذلك لأهمية هذا المبدأ في الدعوة إلى الله، وحثهم على الاستقامة والطاعة.

إثبات القرآن لأهمية الترغيب والترهيب في الدعوة

أثبت القرآن الكريم في ثنايا توجيهاته ودلالاته على الصراط السوي أهمية هذا الأسلوب الذي يخاطب به الإنسان في أعظم ما يملكه من مواقع التأثير، يحاور عقله وفكره، كما يخاطب شعوره ووجدانه، فحينما يجب إليه السلوك القويم بإيراد ما يترتب عليه من المنافع العاجلة والآجلة، وتارة ينفره من السلوك المنحرف ببيان ما يؤدي إليه هذا السلوك من العواقب الوخيمة، حتى يكون الإنسان راغبا وراهما في آن واحد، ويستقيم على الصراط السوي مدى الحياة.

وفيما يلي نورد طائفة من الآيات الدالة على أهمية البشارة والنذارة في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فمنها ما يجمع بين البشارة والنذارة كما في قوله تعالى:

١- (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)^(١). أي: مبشرا لمن أطاع الله بالثواب العاجل والآجل ومنذرا لمن عصى الله بالعقاب العاجل والآجل^(٢). وقد أكد الله عز وجل على هذه المهمة التي أثبتتها للرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق النفي والاستثناء^(٣). وذلك من أهم أساليب القصر والتخصيص، وكأنه قال: لم ترسل لوظيفة أخرى غير التبشير والإنذار.

٢- وقوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ)^(٤). في هذه الآية وصف الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالبشارة والنذارة، فكونه بشيرا لمن أطاع بالجنة ونذيرا لمن عصاه من النار وصف لازم، لا ينفك عنه بحال من الأحوال.

٣- (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)^(٥). أي "تبشر من أطاعك بالجنة وتنذر من عصاك بالنار"^(٦).

^١ سورة الإسراء: ١٠٥

^٢ انظر: تفسير السعدي، ص: ٤٦٨

^٣ انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقروي: ٢٣ / ٣

^٤ سورة القرة: ١١٩

^٥ سورة السأ: ٢٨

^٦ تفسير اس كثير: ٤٥٨ / ٦

٤- وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)^(١). في هذه الآية يقرّر الله تعالى أن النبي صلى الله عليه وسلم يبشّر المؤمنين بالجنة، وينذر الكافرين بالنار، ويدعو إلى ما يجب الإيمان به من صفات الله وأفعاله، بتيسير منه وتوفيق. وجعله سراجاً منيراً، يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية^(٢).

ومنها ما يختصّ بالبشارة دون ذكر النذارة، كما في قوله تعالى:

١- (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٣).

والآيات القرآنية التي تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالبشارة لأصحاب الأعمال الصالحة والصفات الإيمانية كثيرة، فأكثرها تبشر العباد بما قاموا به من الإيمان والعمل الصالح بشكل عام، لأنها متضمنة لغيرها من الصفات والأعمال بطريق الإجمال. وأحياناً تبشرهم على أعمال وصفات مخصوصة كالصبر، وذلك في قوله تعالى:

٢- (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)^(٤).

٣- والإخبارات لله تعالى كما في قوله: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)^(٥).

٤- والإحسان، كما قال تعالى: (لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)^(٦).

^١ سورة الأحراب: ٤٥-٤٦

^٢ انظر: تفسير أبي السعود: ١٠٧/٧

^٣ سورة البقرة: ٢٥

^٤ سورة البقرة: ١٥٥-١٥٧

^٥ سورة الحج: ٣٤-٣٥

^٦ سورة الحج: ٣٧

ومنها ما ورد في النذارة خاصة دون ذكر البشارة، كما في قوله تعالى:

- ١- (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)^(١).
- ٢- وقوله تعالى: (وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ لَّحِجِّ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَٰمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ)^(٢).
- ٣- وقوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)^(٣).

ويتضح من خلال ما سبق أن كون النبي صلى الله عليه وسلم بشيرا ونذيرا من أهم صفاته الرسالية، والتي قررها الله تعالى في الآيات المتقدمة، مما يؤكد أهمية هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى، وأنه لا نجاح لدعوة خالية من الترغيب والترهيب، لأن فاطر الناس، الخير بأحوالهم الخفية والجلية اختار هذه الوسيلة لدعوة العباد إلى رب العباد. بالإضافة إلى أن هذا الأسلوب هو الطريق المضمون لإيصالهم إلى الخير وإبعادهم عن الشر. ولم تُصَبَّ الأمة بما أصيبت من الانحراف وقسوة القلوب والتهاون بالفرائض إلا عندما خلت دروسهم ومواعظهم عن مبدأ الترغيب والترهيب. وذلك أدى إلى طغيان العلوم الفلسفية، والتفريط في الرقائق، التي تزيد الإيمان بالغيب، وتحث على التفكير في الآخرة ونعيمها وعذابها، مما غشيتهم ببرود في العواطف والمشاعر، وأفقدتهم قوة الاندفاع إلى الأعمال الصالحة، والانزجار عن المعاصي.

أهمية الترغيب والترهيب في حياة الرسول الدعوية:

من الممكن إظهار بعض النماذج من السنة العملية، التي تمثلت فيها وسيلة الترغيب والترهيب، مما يؤكد على أهمية هذا المبدأ. وهذا يظهر جليا في تطبيق الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك في مسيرته الدعوية، امتثالا لأمر الله عز وجل، واختيارا لمنهج القرآن الكريم، وقد استمر يدعو إلى الله تعالى في مكة والمدينة زهاء ثلاث وعشرين سنة، سواء عند توجيه الدعوة إلى أعدائه أو إلى أصحابه. وإليك بعضا من هذه الأمثلة: ١- عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ،

^١ سورة الفرقان: ١

^٢ سورة إبراهيم: ٤٤

^٣ سورة التورى: ٧

إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا التَّنْذِيرُ الْعَرِيَانُ، فَالْتَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَذْلَجُوا^(١) فَأَنْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَتَجَوَّا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَنَحَهُمْ^(٢)، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ^(٣). والتزام النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الأسلوب طوال دعوته يؤكد لنا أهميته في الدعوة، إذ إننا نرى في الحديث التصوير البليغ الذي قدّمه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته، ومدى شفقتة عليهم، حيث جعل نفسه كمنذر قوم، اقترب العدو منهم ليستأصلهم، فلم ينتظر أن يشافهمهم بالإنذار إلى حين الوصول إليهم، حتى جرّد نفسه من الثياب عن بعد، ليوقن القوم بخطورة الموقف، وأن الأمر لا يحتاج إلى روية وإعمال فكر، وأنه لا فرصة لاستفسار أو سؤال، بل الشأن المسارعة إلى الرحيل، والاستعداد للسفر البعيد، لأن الموقف جدّ خطير، والخطب غير يسير. وفي توضيح هذا المثل العجيب يقول الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى: "شبهه صلى الله عليه وسلم نفسه بالرجل، وإنذاره بالعذاب القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصباح، وشبهه من أطاعه من أمته ومن عصاه بمن كذب الرجل في إنذاره ومن صدّقه^(٤)".

٢- عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره، قال: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»^(٥). وأوضح معنى التبشير والتيسير، الخالي من التنفير والتعسير الإمام النووي^(٦) رحمه الله بقوله: "وفي هذا الحديث الأمر

^١ يقال: أذلج بالتحفيف إذا سار من أول الليل. النهاية في غريب الحديث لاس الأثير: ١٢٩/٢

^٢ أي: استأصلهم، ومه الحائحة التي تفسد الثمار وتهلكها. شرح السنة: ١٩٥/١، لمحبي السنة الحسين بن مسعود العوي الشافعي، ط: الثانية، المكتب الإسلامي، دمشق - بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد رهير الشاويش.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه (٩٣/٩)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٨٨/٤)، كتاب الفضائل، باب شفقتة صلى الله عليه وسلم على أمته ومالعتة في تخديرهم مما يضرهم.

^٤ فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٣١٧/١١، لاس حجر العسقلاني ط: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، ت: مح الدين الخطيب.

^٥ أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٥٨/٣)، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التعسير

^٦ النووي الإمام الحافظ الأوحى القدوة شيخ الإسلام، محيي الدين أبو ركريا، نبى بن شرف الحارمي الحوراني الشافعي، صاحب التصانيف النافعة: قدم دمشق، وقرأ الفقه والحديث والنحو على مشايخ رمانه، واحتهد في تحصيل العلم اجتهدا بالعلم. ثم لارم الاشتغال والتصنيف وستر العلم والعادة والأوراد والصيام والذكر. كان حافظاً للحديث وفوه ورحاله وصحيحه وعليه، رأساً في معرفة المذهب. وكان شديد الورع والرهة تاركاً لجميع الرعائ. توفي في سنة ست وسعين وستمائة. انظر: تذكرة الحفاظ للدهي، ١٧٤/٤، وما بعدها.

بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير ضمها إلى التبشير^(١).

٣- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ اخْمَرَتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّكُمْ»، وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ، وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٢). وفي امرار العين، وعلو الصوت، واشتداد الغضب دلالة على أهمية أسلوب الإنذار، وفعاليته في تنبيه العافلين، وزجر المفرطين، وتحريك عواطف المستمعين للمواعظ العامة، كما يقول النووي في شرح الحديث: "يستدل به على أنه يستحب للخطيب أن يفخم أمر الخطبة، ويرفع صوته، ويجزل كلامه، ويكون مطابقاً للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب أو ترهيب. ولعل اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمراً عظيماً، وتحذيره خطباً جسيماً"^(٣).

٤- عن العرياض بن سارية، قال: «وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةٌ مُودَّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: "قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ"^(٤)، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ^(٥) حَيْثُمَا اتَّقَيْدَ الْقَادِ»^(٦). كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يعظ أصحابه في غير الخطب الراتبة، كخطب الجمع والأعياد، حيث أمره الله تعالى بذلك، فقال: (وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)^(٧)، إلا أنه لم يكن يملأهم بتكرار الوعظ، بل يتخوّلهم به أحياناً، كما يقول ابن مسعود رضي

^١ شرح النووي على مسلم: ٤١/١٢

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٥٩٢/٢)، كتاب الجمعة، باب تعقيب الصلاة والخطبة.

^٣ شرح صحيح مسلم للنووي: ١٥٥/٦، وما بعدها.

^٤ الواحد من الأسان الضواحك، وهي التي تدو عند الضحك. والأكثر الأشهر أنها أقصى الأسان. النهاية في غريب الحديث للحريري ٢٠/٥

^٥ الأنف: الذي قد عقره الحطام أو البرة، فلا يمنع على قائده في شيء للوحع الذي به. شرح السنة للمعوي: ٨٦/١٣

^٦ أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٢٨) وكذا ابن ماجة في سننه (١٦/١) في المقدمة، باب اتناع سنة الخلفاء الراشدين المهديين.

^٧ سورة النساء: ٦٣

الله عنه: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ، كَرَاهَةً السَّامَةِ عَلَيْنَا»^(١). والمعنى أنه: "كان يراعي الأوقات في تذكيرنا، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نمل"^(٢).

٥- عن حنظلة الأسدي رضي الله عنه قال: "لَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَافَسْنَا^(٣) الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ^(٤)، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَأُطْلِقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَذَوُّمُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحْتُكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٥).

في قوله: يذكرنا بالنار والجنة أي: يعظنا بعذاب النار تارة ويشوقنا بنعيم الجنة أخرى ترهيباً وترغيباً. كأننا رأي عين أي: حتى صرنا كأننا نرى الله تعالى، أو الجنة والنار رأي عين^(٦). ومن خلال هذه الآثار التي أوردتها يتبين مدى تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم لمبدأ الترغيب والترهيب في حياته الدعوية، امتثالاً للمنهج القرآني في الدعوة إلى الله تعالى. وأهمية ذلك في التأثير على الناس خوفاً وطماً جليلة، لا تحتاج إلى برهان، والله أعلم.

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (٢٥/١)، كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحولهم بالموعظة والعلم كي لا يفروا. ومسلم في صحيحه (٢١٧٢/٤)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الاقتصاد في الموعظة.

^٢ فتح الباري لاس حجر: ١٦٢/١

^٣ المعافسة: المعالجة والممارسة والملاعبة. النهاية في غريب الحديث للحرري: ٢٦٣/٣.

^٤ صيغة الرجل: ما يكون منه معاشه، كالصعة والتجارة والزراعة وغير ذلك. المصدر السابق: ١٠٨/٣.

^٥ أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٠٦/٤)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فصل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وحوار ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا.

^٦ انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ١٥٤٩/٤، لملا على القاري، ط: الأولى، دار الفكر، بيروت - لسان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

المطلب الثالث: مفهوم التربية وأهميتها في الإسلام

التربية لغة واصطلاحاً:

التربية لغة: "إنشاء الشيء حالاً فحالا إلى حدّ التمام، يقال رَبَّه، وربّاه وربَّه"^(١). أو هي "هي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً"^(٢). أما التربية في اصطلاح التربويين فهي: المحافظة على فطرة الناشئ وتنمية مواهبه واستعداداته، مع توجيه هذه الفطرة، وهذه المواهب نحو صلاحها، وكمالها اللائق بها، على أن تتم هذه العملية بالتدرّج"^(٣). وهذا تعريف التربية على وجه العموم. أما التربية الإسلامية، فيمكن أن يقال بأنها: "تنمية فكر الإنسان، وتنظيم سلوكه، وعواطفه، على أساس الدين الإسلامي"^(٤).

ويأتي مفهوم التربية في القرآن الكريم بلفظ التزكية التي يكون معناها اللغوي الطهارة والنماء، ويراد في القرآن بمعنى تطهير النفوس وإصلاحها بالعلم النافع والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المنهيات، كما قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)^(٥). وقد ورد في آيات عدة أن التزكية من أهم وظائف بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال عز من قائل: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)^(٦). فالرسول صلى الله عليه وسلم كان من أعظم مهماته تربية جيل الصحابة على عينيّه، وتعاهدهم بالإصلاح والتطهير من دنس الشرك والمعاصي، مع تربيتهم على الإيمان والعمل الصالح. لذا يقول الإمام الطبري^(٧) في معنى قوله "يُزَكِّيهِمْ":

^١ المفردات لأصمغامي، ص: ٣٣٦، وانظر أيضاً: التوقيف على مهمات التعاريف، ص: ٩٥، لربيع الدين عبد الرؤوف الماوي القاهري، ط: الأولى، عالم الكتب - القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

^٢ الكلبيات، ص: ٣١٤، وهو معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبيوت بن موسى الحسي، الكفوي، أبو القاء الحنفي، ط: مؤسسة الرسالة - بيروت، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري.

^٣ انظر: أصول التربية الإسلامية للحلاوي، ص: ١٧.

^٤ المصدر السابق، ص: ٢٨.

^٥ سورة التمتن: ٩-١٠.

^٦ سورة الجمعة: ٢.

^٧ الإمام، العلم، المجتهد، عالم العصر، محمد بن حريز بن يزيد بن كثير بن غالت الأملي، أبو جعفر الطبري. طلب العلم، وأكثر الترحال، ولقي بلاء الرجال، وكان من أفراد الدهر علماً، ودكاً، وكثرة تصايف. قل أن ترى العيون مثله. صاحب التصايف البديعة، التي منها: كتاب التفسير، ومنها كتاب التاريخ، وكتاب تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين، وكتاب لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام وهو مدحه الذي احتاره،

"ويطهّرهم من الشرك بالله وعبادة الأوثان، وينميهم ويكثرهم بطاعة الله"^(١). ومن هنا يظهر اهتمام القرآن بالتربية؛ إذ المقصود من إنزاله أن يكون نبراسا للتربية الصحيحة، على أسس ومعايير منضبطة، تفي بحاجة الدعاة والمربين في حقل العمل الإسلامي، والميدان التربوي.

أهمية التربية في الإسلام:

لا شك أن التربية قضية في غاية الأهمية، بالنسبة للإنسان، فلا يمكن أن يعيش في هذه الدنيا عيشة مرضية، يقضي فيها حياة تملأها السعادة والهناء إلا بالحصول على تربية يمارسها الجميع على مستوى الأفراد والجماعات، والأبناء والآباء، والصغار والكبار، بحيث يعرف كل ما له وما عليه من الحقوق والواجبات، إلى جانب الاستعداد لتنفيذ مقتضيات هذه التربية ومتطلباتها. والإسلام جاء بتربية متكاملة، تعنى بجميع جوانب الإنسان من النواحي الجسمية، والعقلية، والوجدانية، والاجتماعية، حيث فرض على الإنسان أن يكون عبداً لله في كل ما يأتي ويذر في هذه الحياة، فيغذي ضميره بالعقائد الصحيحة تجاه الخالق والرسل والكتب واليوم الآخر، كما ألزمه بالشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصيام وحج وغيرها، على نحو مقيد بالأزمة والأمكنة والشروط والآداب، إلى جانب تهذيب سلوكه العام في نفسه وأهله ومجتمعه الذي يعيش وسطه. كل ذلك بواسطة الإقناع الفكري والإقرار بعظمة الخالق، الذي خلق الإنسان، وعلمه ما لم يكن يعلم، وعن طريق التشويق إلى نتائج هذه التربية وجزائها العاجل في هذه الدنيا بالحياة الطيبة، والسعادة النفسية، والبركات الإلهية، وعن طريق التبشير أيضاً بالجزاء الآجل في الآخرة برضوان الله تعالى، والنعيم المقيم، ومن خلال الترهيب من العقوبات الدنيوية، والأخروية، التي تترتب على عدم الانصياع لهذه التربية الربانية.

والإسلام شريعة الله للبشر، أنزلها لهم ليحققوا عبوديته في الأرض، وإن العمل بهذه الشريعة يقتضي تنمية الإنسان وتهذيبه، حتى يصلح لحمل هذه الأمانة، وتحقيق هذه الخلافة. والتربية الإسلامية هي التي تمثل هذه التنمية والتهذيب. فلا تحقيق لشريعة الإسلام إلا بتربية النفس والمجتمع على الإيمان بالله ومراقبته والخضوع له وحده. ومن هنا كانت التربية الإسلامية فريضة على أكتاف جميع الآباء والمعلمين والمسؤولين، وأمانة في أعناق الجميع يحملها كل جيل إلى الذي بعده،

وجوده، واحتج له، وهو ثلاثة ومائون كتابا، وكتاب اختلاف علماء الأمصار. توفي ابن حريز رحمه الله تعالى سنة عشر وثلاث مائة. انظر: سير

أعلام السلاء: ٢٧ / ٢٩٨ - ٣١٥.

^١ تفسير الطبري: ٨٨ / ٣.

فالويل كل الويل لمن يخون هذه الأمانة، أو ينحرف بها عن هدفها أو يسيء تفسيرها، أو يغير محتواها^١. ولما كان الهدف الأول في التربية تكوين شخصية متكاملة روحيا وجسديا وعقليا واجتماعيا اهتم الإسلام بالفرد المسلم قبل الجماعة المسلمة، فحيث يوجد الفرد المسلم توجد أيضا الجماعة المسلمة. ومن هنا حرص الإسلام أن تكون عبودية الفرد لله تعالى، فلا يستسلم ولا يخضع إلا لله، ولا يخاف إلا منه، ولا يرجو إلا إياه، فيفرده بالعبادة، خوفا وطمعا، ورجاء ومحبة، وإنابة وتوكلًا، فإن وجد هذا الفرد الموصوف بتلك الصفات، فمن السهل إيجاد المجتمع المسلم، الذي يمثل الحياة الإسلامية، المؤسسة على العبودية لله تعالى في امتثال الأوامر واجتناب النواهي، رغبة في ثوب الله تعالى ورضوانه، ورهبة من سخطه وأليم عقابه.

^١ انظر: أصول التربية الإسلامية للحلاوي، ص: ٢٠

المطلب الرابع: أهمية الترغيب والترهيب في التربية

من أهم الوسائل التربوية لتحقيق الهدف الأسمى للتربية الإسلامية، والذي هو تعبيد الأمة لربها وإعدادها إعداداً يتناسب مع كونها خير أمة أخرجت للناس: وسيلة الترغيب والترهيب والتي كانت من أعظم السمات البارزة للمنهج القرآني. فما من آية فيها تربية للأمة يرد فيها حكم عقدي أو شعيرة تعبدية أو حكم مدني أو أدب خلقي إلا ويتضمن ترغيباً أو ترهيباً، تارة بالتصريح، وأخرى بالإشارة، ليندفع المؤمنون إلى الامتثال للحكم، راغبين إلى رحمة الله وحسن ثوابه، أو يترجروا عن ذلك النهي، متخوفين من غضب الله وشديد عقابه.

والحدير بالذكر أن نتأمل النماذج التالية من آي الذكر الحكيم، حيث اشتملت على هذا الأسلوب للحث على الأحكام الواردة فيها أو التحذير من المناهي الواقعة فيها:

١- قال تعالى في التحريض على أداء الصلوات في أوقاتها وإيتاء الزكاة لمستحقيها: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)^(١). يقول الطبري في بيان وجه الترغيب في الصلاة والزكاة: "كانت إقامة الصلوات كفارة للذنوب، وإيتاء الزكاة تطهيراً للنفوس والأبدان من أدناس الآثام، وفي تقديم الخيرات إدراك الفوز برضوان الله"^(٢). وقال أيضاً في استنباط وجه الترغيب، والترهيب من خاتمة السورة، (إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ): "وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الخير، فإن فيه وعداً ووعداً، وأمرًا وزجراً. وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم، ليحدثوا في طاعته، إذ كان ذلك مذكوراً لهم عنده حتى يثيبهم عليه ... وليحذروا معصيته، إذ كان مطلعاً على رآكبها، بعد تقدمه إليه فيها بالوعيد عليها، وما أوعده عليه ربنا جل ثناؤه فمنهي عنه، وما وعد عليه فمأمور به"^(٣).

انظر كيف استنبط هذا الإمام من الآية تربية الأمة بالأعمال الصالحة في استدارك الأخطاء التي وقعوا فيها من موالاة الكفار، والجفاء الحاصل منهم في خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بما لا ينبغي، ثم التصريح بالثواب على ذلك أن يجدوه عند الله وافراً مذكراً. وفي الختام أشار إلى

^١ سورة البقرة: ١١٠

^٢ تفسير الطبري: ٥٠٦/٢

^٣ تفسير الطبري: ٥٠٦/٢

الوعد والوعيد الذي تضمنته الإسم الكريم "بصير" من علم الله عز وجل، المحيط بما يصدر من أفعال العباد، مما يقتضي المجازاة عليهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

٢- وقال تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)^(١). أفادت هاتان الآيتان في ختام أحكام الموارث والأيتام، التربية الهادفة بالترغيب والترهيب، ليكون الناس على علم وبصيرة بما يترتب على إنفاذها من ثواب جزيل في الآخرة، وفوز عظيم بالجنات، إلى جانب ما يؤدي إليه التفريط في العمل بها من عقوبة بالنار، وعذاب مهين، لا يعلم كنهه إلا الله الواحد القهار.

٣- وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)^(٢). في هذه الآيات يربي الله تعالى الأمة، وقيمهم على خلق العدل والإنصاف، مع العدو والصديق على حد سواء. ولا شك أن هذا الخلق من أشد ما يستعصي على النفوس من الأخلاق، ويحتاج إلى رياضة، وكبح لما جبل عليه الإنسان من حبّ الأولياء، وكراهية الأعداء، فتميل نفسه إلى أقربائه وإن كانوا ظالمين، وتحرف عن الأعداء وإن كانوا محقين. وقد اتفقت الشرائع السماوية، والأنظمة الوضعية على حسن العدل، وكونه من أجمل ما اتصف به الإنسان، كما أجمعت الأمم قاطبة على ذم الظلم وكونه من أقبح ما اتصف به الإنسان. لذا نوّه الإسلام من خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية بشأن العدل، ورفعة درجة العدل في الحال والمآل.

بيد أن الحثّ على هذا الخلق أخذ في الإسلام منحى آخر غير ما هو في النظم الأخرى. فالله عز وجل في هذه الآية وغيرها يؤكد على وسيلة الترغيب والترهيب، لتثبيت هذا السلوك في نفوس المسلمين، وتأصيله في أفكارهم، ثم تطبيقه في تصرفاتهم، فيوجه الأنظار إلى علم الله عز وجل بما يصدر عنهم من الأعمال، مما يقتضي المجازاة عليها بالثواب إن كانت صالحة، وبالعقاب إن كانت سيئة. ومن النماذج السابقة، يتبين أهمية الترغيب والترغيب في التربية، وأنه لا يستغني عنها أيّ مرب ناجح في المجال التربوي.

^١ سورة النساء: ١٣-١٤

^٢ سورة المائدة: ٨

البحث الثاني

الترغيب والترهيب نهج الرسل في دعوتهم

ويتضمن المطالب التالية :

المطلب الأول: مفهوم الرسل، عليهم السلام ومقامهم في الدين

المطلب الثاني: مهمة الرسل عليهم السلام، ووظيفتهم

المطلب الثالث: أسلوب الترغيب والترهيب في وعدة الرسل

المطلب الأول: مفهوم الرسل ومقامهم في الدين

الرسول لغة:

مأخوذ من مادة: رَسَلَ، وهو يدل على الانبعاث والامتداد. فَالرَّسُلُ: السير السهل. وناقاة رَسَلَةٌ: لا تكلفك سيقا. وشعر رَسَلٌ، إذا كان مسترسلا. وَالرَّسُلُ: ما أرسل من الغنم إلى الرعي^(١). ويقال: أَرْسَلْتُ فلاناً في رسالةٍ، فهو مُرْسَلٌ ورَسُولٌ، والجمع رُسُلٌ ورُسُلٌ^(٢).

الرسول شرعا:

أما الرسول في الشرع فهو: "ذكر حر، بعثه الله تعالى بشرع جديد يدعو الناس إليه"^(٣). كما أن الرسالة في الاصطلاح هي: "سفارة العبد بين الله وبين ذوي العقول؛ ليزيل بها عنهم، ويعلمهم ما قصرت عنه عقولهم من مصالح الدنيا والآخرة"^(٤). وقد بين الله تعالى في القرآن المجيد في غير آية أن الرسول ذكر من البشر يوحى إليه من قبل الله تعالى، كما في قوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)^(٥). وذلك أن عادة الله جرت من بدء خلق الناس أن يبعث إليهم رسولا من البشر، يكون ذكرا. ودلت الآية بمفهومها أن الله لم يرسل أحد من النساء، ولا من الملائكة.

مقام الرسالة في الدين:

لا شك أن الرسالة في الدين تحتل منزلة عالية، ومقاما ساميا، فلا يتصور وجود دين سماوي بدون رسالة، بل لا يصح الإيمان لأي عبد من العباد قديما، أو حديثا بدون الإيمان برسالة الأنبياء والرسل. إذ إنهم الواسطة بين الله وبين عباده فيما أراد الله أن ينقله إلى العباد. فمن لم يؤمن بالواسطة ويعتقد صدق ما أحبرت به عن الله تعالى، فكيف يصح إيمانه ويزكو عمله.

^١ انظر: معجم مقاييس اللغة لاس فارس: ٣٩٢/٢

^٢ انظر: الصحاح للحواري: ١٧٠٨/٤، وما بعدها

^٣ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ١٦٥/٩ محمود بن عبد الله الألوسي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية-بيروت، ٤١٥ هـ.

^٤ جامع العلوم في اصطلاحات العلوم: ٩٧/٢ للفاصي عبد الله الأحمدي نكري، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - لسان، بيروت، ١٤٢١ هـ -

٢٠٠٠م، عرب عباراته الفارسية: حسن هادي.

^٥ سورة الحل: ٤٣

والرسل عليهم الصلاة والسلام هم خير البشر أصلاً، وأصفاهم نفساً، وأزكاهاهم عقلاً، وأسرعهم إيماناً، وأحسنهم طاعة واستقامة. اصطفاهم ربهم سبحانه وتعالى، وأمدّهم بعلم لا يعلمه سواهم، وأحاطهم بالأمان والحفظ، وأفاء عليهم بالنعمة الوافرة، والهداية السابعة، واختارهم لرسالته التي هم بفضل الله أحق بها وأهلها، قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا بُكْيًا)^(١)، فقاموا بهذه المهمة خير قيام^(٢).

وترتكز دعوة الرسل أولاً على أساس الإيمان برسالة الرسول الذي أرسل إلى أولئك القوم، إذ كل ما يدعوهم إليه بعد ذلك مرتّب على هذه النقطة المحورية الأساسية. لذا تجد القرآن الكريم يحكي عن الرسل حوارهم مع أقوامهم، وهم يدعوهم إلى اعترافهم بالرسالة قبل كل شيء. فهذا هو رسولنا ونبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ينادي الأمة جمعاء قائلاً: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُمِينُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)^(٣). أي: "فصدقوا بآيات الله الذي هذه صفته، وأقروا بوحدانيته، وأنه الذي له الألوهة والعبادة، وصدقوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم أنه مبعوث إلى خلقه، داع إلى توحيده وطاعته"^(٤).

وعند إحالة النظر في آيات القرآن الحكيم نجد الرسل عليهم الصلاة والسلام دعوا أقوامهم إلى الإيمان برسالتهم أول شيء طالبوا به، فقال تعالى حاكياً عن قوم نوح: (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)^(٥). ومن بعد نوح تابع الله إرسال الرسل إلى أهل الأرض، فقال هود لقومه أيضاً: (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)^(٦). وبعده صالح لقومه ثمود، ثم لوط لقومه، ثم شعيب لقومه^(٧).

^١ سورة مريم: ٥٨

^٢ انظر: دعوة الرسل، ص: ٣٦، لأحمد أحمد علوش، ط: الأولى، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

^٣ سورة الأعراف: ١٥٨

^٤ تفسير الطبري: ١٧٠/١٣

^٥ سورة الشعراء: ١٠٥-١٠٧

^٦ سورة الشعراء: ١٢٥

^٧ انظر الآيات من سورة الشعراء: ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨

أما في الإسلام فقضية الإيمان بالرسول من أهم أركان الإيمان، والتي لا يصح الإيمان بدونها، وذلك في قوله تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)^(١). قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: "والمؤمنون كلهم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا يفرق الكل منهم بين أحد من رسله، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض، ولكنهم يصدقون بجميعهم، ويقرون أن ما جاءوا به كان من عند الله"^(٢).

وقرن الله تعالى بين الإيمان به والإيمان بالرسول في أكثر من آية إشعاراً بأن التصديق بالرسالة جزء لا يتجزأ من الإيمان. فقال تعالى: (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)^(٣). وقال في مكان آخر: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)^(٤). كما قرن تعالى بين الكفر به والكفر بالرسول، مما يؤكد على اعتبار الكفر برسول واحد من الرسل كفراً بجميعهم، وذلك مخرج لصاحبه من الملة، لا يقبل له عمل ولا تنفعه عبادة إلا إذا تاب وأتاب وآمن بالرسول جميعاً. قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا. أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)^(٥).

ولقد جرت حكمة الله تعالى أن جعل الرسول من جنس البشر، فإنهم المقصودون بالإنذار والتبشير في الأساس، فجعل الرسول ينتسب إلى القوم الذين أرسل فيهم، يتكلم بلسانهم، ويعرفونه قبل أن يتزل عليه الوحي معرفة كاملة؛ كي تقوم الحجة عليهم، ولا يكون لهم عذر في قبول الرسالة، فقال عز من قائل: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)^(٦). أي: "من جنسكم عربي مثلكم من بني إسماعيل عليه السلام

^١ سورة البقرة: ٢٥٨

^٢ تفسير الطبري: ١٢٦/٦

^٣ سورة آل عمران: ١٧٩

^٤ سورة النساء: ١٣٦

^٥ سورة النساء: ١٥٠-١٥١

^٦ سورة التوبة: ١٢٨

تعرفون نسبه وحسبه"^(١). وقال أيضا: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)^(٢). أي: "من جنس بني آدم، والامتنان بذلك لحصول الأنس بكونه من الإنس، فيسهل التلقى منه، وتزول الوحشة والنفرة الطبيعية التي بين الجنسين المختلفين"^(٣). وقال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٤). يقول ابن كثير في تفسير الآية: "هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم؛ ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم ... وقد كانت هذه سنة الله في خلقه: أنه ما بعث نبيا في أمة إلا أن يكون بلغتهم"^(٥).

ومما سقته من النصوص القرآنية يتضح مقام الرسالة في الدين، وأنها جزء منه، لا يتصور وجود الدين بدونها. فالرسالة ركن أساسي من أركان الإيمان، ووسيلة كبرى لنشر تعاليم الدين، فلا عجب أن احتلت هذه المرتبة العالية من الدين.

^١ التفسير المظهري: ٣٢٧/٤، محمد ثناء الله المطهري، ط: مكتبة الرشدية - باكستان، ١٤١٢ هـ، تحقيق: غلام بي التوسي.

^٢ سورة آل عمران: ١٦٤

^٣ البحر المحيط لأبي حيان: ٤١٥/٣

^٤ سورة إبراهيم: ٤

^٥ تفسير ابن كثير: ٤٧٧/٤

المطلب الثاني : مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام

بعث الله الرسل عليهم الصلاة والسلام لمهمة عظيمة ووظيفة كبيرة. فإن الله عز وجل خلق السموات والأرض وما بينهما، ثم خلق الإنسان، وسخر له كل ما في الكون ليستعين به في تدبير شؤون الحياة، كما قال: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)^(١). ومن الضرورة بمكان حاجة الناس إلى من يعرفهم بالله الخالق لهذا الكون، ويرشدهم إلى مصالحهم الدينية والدنيوية، ويخبرهم بالأمور الغيبية التي تكون بعد الممات من البعث والنشر والحشر والحساب والجنة والنار وغيرها. ولا يستقل بمعرفة هذه الأمور العقل، ولا يُتصَوَّر الإحاطة بها إلا من خلال الوحي والرسالة. لذا فقد كان لزاما بعث الرسل، وإنزال الكتب لهداية البشرية ودلالاتها على ما ينفعها في الدنيا والآخرة. ومن هنا صار لبعثة الرسل أهمية كبيرة، ولوظيفتهم شأن عظيم. وفيما يلي نبرز أعظم مهماتهم وأهم وظائفهم:

١ - الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده ونبذ الشرك

الدعوة إلى عبادة الله سبحانه وتعالى هي الركيزة الأولى في مهمة الرسل والأنبياء، عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، فما من نبي إلا ودعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ ما سواه من الأصنام والأوثان والأنداد وغيرها، مما تعلقت به قلوب العباد في جلب النفع ودفع الضرر، والتقرب إليها بالفرايين والنذور، والتذلل لها بالسجود والركوع، والانحناء والطواف، وغير ذلك من أنواع العبادات التي يجب اختصاصها بالله عز وجل.

ولما كانت العبادة هي المقصود الأعظم، الذي من أجله خلق الله الخلق: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)^(٢)، بعث الرسل عليهم السلام لإقامتها في هذا الكون، فما من رسول إلا وكان ديدنه الحث على عبادة الله تعالى وحده ونبذ الشرك. ولهذا قرّر سبحانه وتعالى في أكثر من آية بطريق الحصر والتأكيد أن بعثة الرسل كانت لمهمة عظيمة وغرض نبيل، وذلك دعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، واجتناب ما يعبد من دون الله تعالى، كما في قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)^(٣). أي "فكل الرسل

^١ سورة الحاثية: ١٣

^٢ سورة الداريات: ٥٦

^٣ سورة الأنبياء: ٢٥

الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة^(١).

وقال أيضا: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)^(٢). قال ابن كثير في تفسير الآية: "فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغرب"^(٣). وحكى الله تعالى المقولة التي اتفقت عليها ألسنة الرسل عليهم السلام عند القيام بدعوة أقوامهم، فقال عن نوح لقومه: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)^(٤). وقال عن هود لقومه: (وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)^(٥). وقال عن صالح لقومه: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)^(٦). وقال عن شعيب لقومه: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)^(٧). وهكذا تتابعت جماعة الأنبياء ترى، متفقة على دعوة التوحيد، وتحذير أممهم من الشرك، الذي لا يقبل الله من صاحبه عملا، ولا يستحق الجنة والمغفرة، بل يستوجب النار والخلود فيها.

٢- الدعوة إلى مكارم الأخلاق

لا شك أن الأمم قاطبة في القديم والحديث اتفقت كلمتهم على استحسان مكارم الأخلاق، واسقباح مساوئها، حيث ينسجم ذلك مع الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها. كما يقر أصحاب العقول الصحيحة بأصول الأخلاق، مع اختلاف أجناسهم، وأقطارهم، ولغاتهم، وعاداتهم، على مرّ الأيام والدهور. لذا بعثت الرسل لدعم ما وافق الفطرة من الخلال الحميدة

^١ تفسير السعدي، ص: ٥٢١

^٢ سورة الحل: ٣٦

^٣ تفسير ابن كثير: ٥٧٠/٤

^٤ سورة الأعراف: ٥٩

^٥ السورة الساقطة: ٦٥

^٦ السورة الساقطة: ٧٣

^٧ السورة الساقطة: ٨٥

والتنفير عما خالفها من الأخلاق الرذيلة. وقد قال إمامهم وسيدهم وخاتمهم صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»^(١).

وحكى الله عن الرسل في القرآن أنهم قاموا بعد التوحيد بدعوة أقوامهم إلى الأخلاق الحميدة والنهي عن الأخلاق الرذيلة. ويشهد لذلك قصصهم المبثوثة في القرآن. ولما كان الكبر والجبروت والطغيان متفشيا في قوم عاد بدأ رسولهم هود عليه السلام أن يذكرهم بقوة الله وجبروته، وخوفهم ببطشه وانتقامه، فلم ينجع فيهم هذا التحذير، بل تمادوا في طغيانهم وغيهم. وفي ذلك يقول الله تعالى: (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)^(٢). كما ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم، والتي من بينها هذه البسطة في الجسم، والقوة في العمل، كي يؤدّوا شكر الله عليها، ويرجعوا عما هم فيه من عبادة غيره، ويستعملوا قواهم في طاعته، حتى يتحقق لهم الفوز والفلاح في الدارين. وفي ذلك يقول المولى جل وعلا: (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(٣). وهكذا دعا صالح قومه ثمود إلى ترك الفساد والاستكبار في الأرض، كما في قوله تعالى: (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)^(٤). والفساد في الأرض يشمل المعاصي عموما والتعدي على حقوق الآخرين بشئ أنواع الظلم من القتل والنهب وقطع الطريق.

وأما لوط عليه السلام فقد تصدى لفساد خلقي دخيل على الجنس البشري، والذي تمثل في اكتفاء الرجال بالرجال شهوة من دون النساء. وذلك انحراف طرأ على الفطرة السوية، التي تقتضي ميل الذكر إلى الأنثى في قضاء شهوة الجنس، وامتداد النسل، والتكاثر البشري لضمان بقاء النوع الانساني على وجه الأرض. فقال الله عز وجل حكاية لنداء لوط عليه السلام حين أنذر

^١ أخرجه أحمد في مسنده: ٥١٣/١٤، عن أبي هريرة، وهو حديث صحيح كما قاله محققو المسند. وفي رواية البراء: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". (ط: الأولى، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون. إشراف: د/ عبد

الله بن عبد المحسن التركي)

^٢ سورة فصلت: ١٥

^٣ سورة الأعراف: ٦٩

^٤ السورة السابقة: ٧٤

قومه، فقال: (وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)^(١).

ونرى شعبيا عليه السلام دعا قومه إلى إيفاء الكيل، والميزان، والذي يمثل رمز العدالة والإنصاف، وحذرهم من مغبة تطفيف الوزن وإنقاص المكيال، كما أُنذِرهم من عواقب الإفساد في الأرض وقطع الطريق على المسافرين، وفي كل ذلك مخالفة لأصول الأخلاق السوية وفق الموازين والمعايير العالمية. قال تعالى حكاية لدعوة شعيب حين أُنذر قومه ونصحهم: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)^(٢). ومما سردته من الأمثلة اتضحت أهمية الأخلاق في دعوة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، بعد توحيد الله عز وجل، وكيف كانت الدعوة إلى الأخلاق الحسنة والتحذير من الأخلاق السيئة من أهم وظائفهم وأعظم إصلاحاتهم.

٣- إقامة الحجة على الناس:

لم تقتصر وظيفة الأنبياء على الدعوة إلى التوحيد والعبادة ومكارم الأخلاق، بل من أعظم مهماتهم إقامة الحجة على الناس، وإعذارهم أمام الله تعالى، كي لا يتعلل أحد بعدم بلوغ الرسالة إليه، وأنه لم يتلقَ دين الله الصحيح من أحد، فقال تعالى: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)^(٣).

ولو نظر العقلاء إلى هذا الكون وما فيه من آيات ساطعة لعرفوا توحيد الله، وأنه المستحق للعبادة وحده، إلا أن الله تعالى لم يؤخذ أحدا بدلالة الفطرة بل أرسل إليهم الرسل وأقام عليهم الحجة. وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "ولو لم يكن إلا ما فطر عباده عليه من توحيد ربوبيته المستلزم لتوحيد إلهيته، وأنه يستحيل في كل فطرة وعقل أن يكون معه إله آخر، وإن كان

^١ السورة السابقة: ٨٠-٨١

^٢ السورة السابقة: ٨٥-٨٦

^٣ سورة النساء: ١٦٥

سبحانه لا يعذب بمقتضى هذه الفطرة وحدها، فلم تزل دعوة الرسل إلى التوحيد في الأرض معلومة لأهلها، فالمشرك يستحق العذاب بمخالفته دعوة الرسل^(١). ولم يكن الله تعالى يترك الناس هملاً في الدنيا، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، بل أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وضمن لهم أن لا يعذب أحداً إلا بعد الإنذار والإعذار، كما في قوله سبحانه وتعالى: (مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)^(٢). قال أبو السعود في تفسير الآية: "ما كان في حكمنا الماضي وقضائنا السابق أن نعذب أحداً من أهل الضلال والأوزار اكتفاءً بقضية العقل، حتى نبعث إليهم رسولا، يهديهم إلى الحق، ويردعهم عن الضلال، ويقيم الحجج، ويمهد الشرائع، حسبما في تضاعيف الكتاب المزل عليه"^(٣).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ الْمُرْسَلِينَ، مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحَةُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ»^(٤). قال القاضي عياض^(٥) رحمه الله تعالى: "المعنى بعث المرسلين للإعذار والإنذار لخلقهم قبل أخذهم بالعقوبة، وهو كقوله تعالى لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل"^(٦). ومهمة الرسل ووظيفتهم لم تكن منحصرة على ما ذكرته فقط، بل شملت إصلاح جميع نواحي حياة الإنسان، كي تدوم له السعادة والهناء في الدنيا، والآخرة.

^١ راد المعاد لاس القيم: ٥٩٩/٣

^٢ سورة الإسراء: ١٥

^٣ تفسير أبي السعود: ١٦٢/٥

^٤ أخرجه مسلم في صحيحه: (١١٣٦/٢)، كتاب اللعان، واللفظ له، وأخرجه البخاري في صحيحه: (١٢٣/٩)، كتاب التوحيد، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا شخص أعير من الله»

^٥ القاضي أبو العصل عياض بن موسى البحصي السني؛ كان إماماً وقته في الحديث وعلومه والحج واللمعة وكلام العرب وأيامهم وأسماهم وصف التصانيف المفيدة، التي منها: الإكمال في شرح كتاب مسلم، ومشارك الأبوار، والشفاء تعريف حقوق المصطفى. تولى القضاء بغرناطة، وتوفي بمراكش سنة أربع وأربعين وخمسمائة. انظر: وفيات الأعيان لاس حلكان: ٤٨٣/٣

^٦ فتح الباري لاس حجر: ٤٠٠/١٣

المطلب الثالث: أسلوب الترغيب والترهيب في دعوة الرسل

التمهيد:

كان من أهم السمات البارزة والمميزات الظاهرة في دعوة الرسل أسلوب الترغيب والترهيب. فلقد كانت الرسل عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم على علم تام بمصالح الأمم، التي أرسلت إليهم، وعلى يقين كامل بمستقبلهم العاجل والآجل، ولم يكن لديهم وسيلة مادية للضغط على أقوامهم في تبصيرهم بما جاؤوا به من عند الله، غير الوعظ والتذكير والإنذار والتبشير، فكانت هذه هي الوسيلة المؤثرة والأسلوب الناجع.

ومن أوصافهم اللازمة التي وردت في القرآن الكريم صفة التبشير والإنذار، مما يدل على أن هذه الوسيلة من أهم ركائز دعوتهم المباركة. يقول الله تعالى: (وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(١). قال الإمام الرازي^(٢) رحمه الله في تفسير الآية: "والمقصود منها أن الأنبياء والرسل بعثوا مبشرين ومنذرين ولا قدرة لهم على إظهار الآيات وإنزال المعجزات، بل ذاك مفوض إلى مشيئة الله تعالى وكلمته وحكمته، فقال: وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، مبشرين بالثواب على الطاعات، ومنذرين بالعقاب على المعاصي، فمن قبل قولهم وأتى بالإيمان الذي هو عمل القلب، والإصلاح الذي هو عمل الجسد فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون"^(٣).

نماذج من دعوات الرسل

وفيما يلي أعرض بعض النماذج، والأمثلة الواردة في القرآن الكريم، والتي تدل على اعتماد الرسل والأنبياء على مبدأ الترغيب والترهيب كوسيلة دعوية لخطاب أقوامهم، وتذكيرهم بحقوق الله، وحقوق العباد، ومن ثم فقد شغل هذا المبدأ حيزا كبيرا من خطاباتهم الدعوية، كما جاء في مواضع كثيرة من الفرقان المجيد.

^١ سورة الأنعام: ٤٨

^٢ فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي الكري الرازي، الفقيه الشافعي، فريد عصره وسيح وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمفكرات وعلم الأوائل، له التصانيف المفيدة، التي منها تفسير القرآن الكريم، والمطالب العالية، وهماية العقول، والمحصل، وكتاب البيان، والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان. توفي سنة ست وستمئة بمدينة هراة. انظر: وفيات الأعيان لأسر حلكان: ٤ / ٢٤٨ - ٢٥١

^٣ التفسير الكبير: ٥٣٧/١٢، المسمى بمعاني العيب لعمر الدين الرازي، ط: الثالثة، دار إحياء التراث العربي - بيروت، - ١٤٢٠ هـ.

دعوة محمد صلى الله عليه وسلم

استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب في جميع حياته الدعوية، غير أن الأمثلة البارزة تكثر في الآيات التي نزلت في العهد المكي، حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقارع المشركين بالحجة والبيان، فيرغبهم تارة في رحمة الله وعظيم ثوابه إن آمنوا وأحسنوا، كما كان يرهبهم أخرى من عقاب الله وعذابه الأليم إن استمروا على الكفر والطغيان. وفي الأغلب الأعم تقترن آيات الترغيب مع آيات الترهيب، وأحيانا يأتي الترغيب منفردا، والترهيب كذلك. وقد صرح الرسول صلى الله عليه وسلم بمهمته ومنهج دعوته من أول يوم أمره الله تعالى بالإنداز والقيام بأعباء الرسالة في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)^(١). فامثل أمر الله تعالى وسلك النهج الذي رسمه له، فكان لدعوته تأثير ملموس لمن اتبع طريقه واهتدى بهداه.

ومن ذلك ما أمره الله تعالى في آيات عديدة أن يبين للناس وظيفته ومنهج دعوته كما في قوله تعالى: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ عَلِيمَ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)^(٢). ولما طلب الكفار من الرسول صلى الله عليه وسلم تعيين وقت الساعة، لقنه الله تعالى هذا الجواب، المتضمن لأسلوب الترغيب والترهيب، والذي يوضح فيه مهمته، ومنهج دعوته، وأنها البشارة والندارة.

ولما كان القرآن الكريم قد اشتمل على مفردات المنهج، الذي اتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته الدعوية، يلزمنا هنا أن أوضح بعض النماذج، التي وردت في القرآن الكريم، والتي تضمنت أسلوب الترغيب والترهيب. ففي سورة النبأ نرى كيف أخبر المولى جل وعلا بمصير الطغاة الكفرة في الآخرة، وبين أثناء ذلك ما ينتظرهم من النكال والعذاب، مما يكون تحذيرا سافرا لكل من اقترف جريمة الكفر والطغيان، فقال عز من قائل: (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا. لِلطَّاغِينَ مَأْبًا. لَا يَبِثْنَ فِيهَا أَخْقَابًا. لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا. إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا. جَزَاءً وَفَاقًا. إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا. وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا. وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا. فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا)^(٣). ثم أعقب الله ذلك بمصير المتقين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح من الثواب

^١ سورة المدثر: ١-٢

^٢ سورة الأعراف: ٨٨

^٣ سورة النبأ: ٢١-٣٠

العظيم والفوز المبين في حدائق غناء، مع جوار حسان، وكؤوس مترعة، وهدوء مريح، فقال تعالى: (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا. حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا. وَكَوَاعِبَ أَثَرَابًا. وَكَأَسًا دِهَاقًا. لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا. جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا)^(١). وفيما أتيت به من النموذجين، الذين أحدهما يشتمل على أسلوب الترهيب في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، والآخر على أسلوب الترغيب دلالة واضحة على أن أساس دعوة الإسلام كانت مبنية على أسلوب الترغيب والترهيب.

دعوة نوح عليه السلام

كانت البشرية بعد آدم عليه السلام على التوحيد وعبادة الله وحده، لفترة من الزمن، إلى أن اجتالتهم الشياطين عن منهج الحق، وسوّلت لهم عبادة الأصنام والتوجه لغير الله في دفع الضرر وجلب النفع. وحينئذ أرسل الله نوحا عليه السلام؛ كي يعيد البشرية إلى الحق الذي انحرفوا عنه، ويقىمهم على عبادة الله الواحد القهار.

كان نوح عليه السلام أول الرسل إلى أهل الأرض كما في حديث الشفاعة: «أُتِيَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»^(٢)، ومكث في قومه مدة طويلة (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)^(٣)، يدعوهم إلى الله بشتى الوسائل، ومختلف الطرق. قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)^(٤). وقد اتضح من هذه الآية منهج نوح في جهاده الطويل، وأن دعوته مبنية على أسلوب الإنذار لقومه إنذارا بيّنا واضحا، بحيث يحدّد لهم المصير الذي ينتظرهم إن كفروا به، كما يشرهم بالمآل الذي يؤولون إليه إن اتبعوه. فلم يترك طريقا يتوقع أنه يدفعهم إلى الاستجابة لدعوته إلا سلكه كما وضحت سورة نوح، في قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا. يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)^(٥).

^١ سورة السأ: ٣١-٣٦

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه: (٤/ ١٣٤)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: إنا أرسلنا نوحا إلى قومه، واللفظ له. وأخرجه مسلم أيضا في صحيحه (١/ ١٨٤)، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

^٣ سورة العنكبوت: ١٤

^٤ سورة هود: ٢٥

^٥ سورة نوح: ١-٤

ولما يئس نوح عليه السلام من استجابة قومه توجه إلى الله تعالى، مخبراً أنه طرق كل الأبواب، واستخدم جميع الوسائل لإيصال دعوة الحق إلى قومه، ولم يفتر في ذلك، ولم يتقيد بوقت معين في ممارسة عمل الدعوة، حتى واصل الليل بالنهار، غير أنها لم تجد فيهم آذانا صاغية، وعقولا واعية، فامتنعوا من مجرد الاستماع، حتى سدّوا آذانهم بالأصابع، وتغطوا بشياهم خوفاً من رؤية صاحب الدعوة، واستمروا على استكبارهم وامتناعهم. وأخبر عليه السلام أنه سلك معهم في الدعوة مختلف المسالك، فدعاهم علانية كما نصّحهم خفية. ثم حاول معهم في الترغيب بعد التخويف، فرغّبهم في الرجوع إلى الله تعالى والاستغفار، ليحصلوا على ثوابه العاجل من هطول الأمطار الغزيرة، وتوفير الأموال والأولاد، والتمتع بالبساتين، المشتملة على الثمار اللينة، والأثمار الجارية بين القصور والحدائق. وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا. فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا^(١)). ثم سلك معهم مسلك الترهب من عظمة الله وقدرته، مع رؤيتهم وإقرارهم لأنارها في الأنفس والآفاق، من خلق الله تعالى لهذا الإنسان على مراحل وأطوار، وخلق السموات السبع، بعضها فوق بعض، وجعله القمر والشمس في السماء، ينتفع بهما الإنسان في إضاءتهما وأنوارهما. ثم ذكرهم بابتداء خلق الإنسان من الأرض، وأكد لهم البعث والنشور، استدلالاً بالخلق الأول. كما لفت أنظارهم إلى هذه الأرض المبسوطة، ينتفعون بها، ويسلكون طرقها. وفي هذا المشهد يقول تعالى: (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا. وَاللَّهُ أَلْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا. لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا^(٢)).

^١ السورة السابقة: ١٢-٥

^٢ السورة السابقة: ٢٠-١٣

دعوة هود عليه السلام

عندما تباعد الزمان بعد نوح عليه السلام نسي الناس دعوته، وأضلّتهم الشياطين عن اتباع الحق، فاتخذوا الأصنام والأنداد آلهة من دون الله تعالى. ومن القبائل التي انحرفت عن الجادة، وظهر كفرها وضلالها قبيلة "عاد"، حيث أرسل الله إليهم أخاهم، هودا عليه السلام، يبلغهم دين الله، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

وقد أخبر الله تعالى أنه أرسل هودا إلى قومه، يأمرهم بعبادة الله وحده، ويوبّخهم على افتراءهم على الله تعالى في تجويزهم عبادة غير الله. ويبيّن لهم أنه لا يتقاضى منهم أجرا مقابل هذا العمل العظيم، كما رغبهم في الاستغفار والرجوع إلى الله تعالى بالتوبة؛ ليستتبع ذلك تيسير الرزق عليهم، بإنزال الأمطار الغزيرة، وزيادة القوة الجسمانية لهم، إلى جانب تحذيرهم من التماادي في الباطل، والإعراض عن الحق، والبقاء في الإجمام الذي كانوا فيه. وفي ذلك يقول سبحانه: (وَالْيَاسِينَ ١٠٠ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ. ١٠١ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ. ١٠٢ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ^(١)). وفي سورة الشعراء حثّهم على تقوى الله تعالى وطاعة رسوله، وذكرهم بالنعم المشهورة السابعة عليهم، والتي أمدّهم بها المولى جل وعلا من المواشي الدارّة عليهم بالحليب واللحوم، والأبناء الذين تقرّب بهم عيولهم، والبساتين التي تسديهم الثمار والظلال. وهذا ترغيب في حفظ الآلاء المتنوعة واستدامتها من خلال طاعة المولى جل وعلا، المتفضّل عليهم بهذه النعم، ثم أبدى لهم شعوره بالخوف عليهم تجاه ما ينتظرهم من العذاب العظيم في الحال والمآل لعلهم يتعظون، فكانت إجابتهم سلبية، وصار التذكير وعدمه سيّان لديهم، تعتّا وإصرارا منهم على الكفر والطغيان. وفي هذا يقول المولى جل وعلا: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. ١٢١ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. ١٢٢ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. ١٢٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. ١٢٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. ١٢٥ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ^(٢)).

^١ سورة هود: ٥٠-٥٢

^٢ سورة الشعراء: ١٣١-١٣٦

ولما طرق هود عليه السلام جميع الأبواب لهداية قومه، ولم ينجع فيهم ذلك توعدّهم أخيراً، إن تمادوا في الإعراض عن الحق، وأخبرهم بأنه أدّى ما كان عليه - وما على الرسول إلا البلاغ - كما خوفهم بأنّ الله ليس بحاجة إلى عمارتهم الأرض، بل يهلكهم ويستخلف أقواماً آخرين، يطيعون الله ورسله، ولن يكون في عنادهم أيّ ضرر على الله. وفي هذا يقول المولى جل وعلا: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ)^(١). ومن خلال الآيات المتقدمة اتضح اتباع هود عليه السلام مسلك الترغيب والترهيب في حثهم على عبادة الله وحده، ونبد عبادة الأصنام، وتحذيرهم من سخط الله وعقابه العاجل والآجل. وهذا يدلّ على منهجية دعوة الرسل وتشابهها في طرق العرض والتوجيه، مما يؤكّد على وحدة المصدر والتلقي في المنهج والأسلوب.

دعوة موسى عليه السلام:

كان موسى عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل. وهو أحد أولى العزم من الرسل. أرسله الله إلى قوم فرعون، وإلى بني إسرائيل معاً. وقد مرّ في طفولته بمراحل مثيرة للاستغراب، ظهرت فيها آيات الله ومعجزاته في تربية الرسل، فعاش وترعرع في بيت فرعون، محاطاً بأنواع النعم والتكريمات. ثم لجأ إلى أرض مدين بعد حادثة القبطي، وتهديد قوم فرعون له بالقتل، فبقي فيها فترة من الزمن، حتى عاد منها إلى مصر. وفي الطريق أدركته عناية الله فأوحى إليه، وأرسله إلى فرعون وقومه، ليدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينذرهم من بأسه الشديد.

ولما عدّد الله تعالى نعمه الكثيرة وامتنانه على موسى في مختلف مراحل حياته لخصّ ذلك كله بقوله: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)^(٢). أي: "أنعمت عليك يا موسى هذه النعم، ومننت عليك هذه المنن، اجتباء مني لك، واختياراً لرسالتي والبلاغ عني، والقيام بأمري ونهي"^(٣). ثم أمره الله تعالى وأخاه هارون أن يتوجّها إلى فرعون بسبب طغيانه وتجبّره على أهل الأرض وتنكيلهم، على أن يعظاه موعظة بليغة، مصحوبة باللين واللطف، رجاء أن يلين قلبه فيتذكّر أو يخشى. وفي ذلك يقول تعالى: (اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ)^(٤). ولقّنهما

^١ سورة هود: ٥٧

^٢ سورة طه: ٤١

^٣ تفسير الطبري: ٣١٢/١٨

^٤ سورة طه: ٤٣-٤٤

سبحانه منهج الدعوة، وطريقة المواجهة لفرعون وجبروته، فأمرهما أن يقولوا لفرعون: إنا مرسلون من قبل ربك الذي خلقك ورباك، وأن يطلبنا منه تسريح بني إسرائيل من الاستعباد والقهر والتعذيب، وأنهم قد جاؤوا إليه بآيات ومعجزات تشهد على صدق دعوتكما. وفي ذلك يقول المولى جل وعلا: (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى^(١)). وإلى جانب الترغيب والتشويق سلكا معه مسلك الترهيب والتخويف من عقاب الله وعذابه الدنيوي والأخروي، وأنه واقع على من كذب بآيات الله وأعرض عن أوامره، وهم ينسبون هذا الأمر إلى وحي الله وإخباره، كما قال عز وجل: (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى^(٢)). ثم تلطفاً مع فرعون في توضيح آيات الله وعجائب قدرته الماثلة في هذا الكون الفسيح، الدالة على ألوهيته ووحدانيته، من تمهيد الأرض وتهيتها للعيش وال عمران، وشق الطرق المتخللة بين جبالها ووديانها، وإنزال المطر الذي ينبت أنواعا من النباتات والزرع والثمار، مما تكأله الأنعام ويقتاته الإنسان، وأشارا إلى أن هذه الآيات ينتفع بها أصحاب العقول الصحيحة والفطر السليمة. قال تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ^(٣)). وتوجد أمثال هذه النماذج في القرآن بوفرة من خلال دعوة الرسل والأنبياء. وهذا يكون نبراسا للحركات الدعوية والبعثات الإصلاحية؛ كي تعتمد على أسلوب الترغيب والترهيب، وتعني بقلب الإنسان وعواطفه؛ ليدفعه ذلك إلى عمل الخير، ويزجره عن عمل الشر، فتعم الهداية، وينتشر الصلاح، ويضمحل الفساد والضلال.

مسالك الترغيب عند الرسل

للمسالك التي انتهجتها الرسل عليهم السلام عند تذكيرهم لأمتهم وأقوامهم دور كبير في تحفيزهم على تحقيق مقاصد الرسالة وأهدافها، وتشويقهم إلى امتثال الأوامر واجتناب النواهي، على أساس الثواب العاجل والآجل، والمكتسبات المادية والروحية، التي تعود عليهم بالنفع، والخير الكثير. وأذكر فيما يلي أهم تلك المسالك:

^١ السورة السابقة: ٤٧

^٢ سورة طه: ٤٨

^٣ السورة السابقة: ٥٣-٥٤

١ - الترغيب بالإمداد بأنواع الخيرات العاجلة

لما كان الإنسان محباً للخير العاجل في الدنيا، مؤثراً للرفاهية فيها، كارهاً للمتاعب والمشاكل المنغصة لراحته، استهدفت دعوة الرسل هذه العاطفة المؤثرة، وأولتها عناية خاصة، حيث إن أكثر الناس يفضلون النتائج والمكاسب الحاضرة على الآتية؛ لرؤيتهم القصيرة في تقدير الأمور، ولأن النفوس جبلت على حب العاجل وعدم اكتراثها بما هو غائب عن أعينها من الفوائد والمكاسب الموعودة في المستقبل. ومن هنا رصد القرآن الكريم خطاب كثير من الرسل، وهم يوجهون أقوامهم إلى عبادة الله تعالى والاستقامة على الصراط المستقيم والاستغفار للذنوب الماضية والتوبة إلى الله في المستقبل، مرغبين في ذلك عن طريق الوعد بالرفاهية في المعيشة، والحياة الطيبة، والشعور بالأمن والسلامة في هذه الدنيا.

وهذا نوح عليه السلام يرغب قومه في الاستغفار المستتب لدرّ السماء بالأمطار، والإمداد بالأموال والبنين، وشقّ الأنهار والعيون، فقال: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)^(١). كما رغب هود عليه السلام قومه في ذلك مشيراً إلى النتائج الطيبة التي تترتب على ذلك، فقال تعالى حكاية لقوله: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)^(٢).

٢ - الترغيب بالزيادة في الأعمار، وعدم المعالجة بالعقوبة

وهذا مسلك آخر من مسالك الترغيب عند الرسل، إذ النفوس مجبولة على حب البقاء في هذه الدنيا، والمدّ في الأعمار، وكراهية المصائب والجوائح المستأصلة. فالرسل عليهم الصلاة والسلام بشّروا أقوامهم بالوعد بمدّ الآجال في الأعمار، والنجاة من الهلاك العام إن استجابوا لدعوتهم، والتزموا عبادة الواحد الأحد، واستقاموا على الصراط المستقيم، وأطاعوا الرسل فيما يأمرون وينهون. وفي هذا يقول نوح عليه السلام لقومه: (قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا. يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ

^١ سورة نوح: ١٠-١٢

^٢ سورة هود: ٥٢

إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(١). أي "يتمتعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى"^(٢). وقال نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: (أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)^(٣). قال أبو السعود في تفسير المتاع: "وهو اسم لما يُتمتع به من منافع الدنيا من الأموال والبنين وغير ذلك والمعنى يعشكم عيشاً مرضياً لا يفوتكم فيه شيء مما تشتهون ولا ينغصه شيء من المكدرات"^(٤).

٣- الترغيب في الوعد باستخلاف الأرض والتمكين والنصر

لا شك أن التمكين في الأرض والانتصار على الأعداء والسيطرة على البلاد وفتحها، مع استتباب الأمن وعدم الفتن والقلقل من أكبر النعم التي وعد الله المؤمنين، إن حصلوا التقوى واستقاموا على دين الله، بل ذلك أحب الأشياء إلى نفوس بني آدم، كما قال تعالى: (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ)^(٥). وقد وعد الله المرسلين جميعاً بالغلبة والنصر على الأعداء، وجعل ذلك مما سبقت به كلمته وإرادته في الأزل. قال تعالى: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)^(٦). في هذه الآية قد أخبر الله "بأن القضاء قد سبق، والكلمة قد حقت في الأزل بأن رسل الله تعالى إلى أرضه هم الْمَنْصُورُونَ على من ناوأهم، المظفرون بإرادتهم، المستوجبون الفلاح في الدارين"^(٧).

ولما تم إرسال نبي الله موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وإلى بني إسرائيل، اشتدّ أذى فرعون لبني إسرائيل، وتضاعف العذاب ووصل إلى الذرة في الأيام التي رجع موسى عليه السلام إلى مصر، وكان مشغولاً بدعوة الطاغية فرعون. فقال بنو إسرائيل يشكون إليه عما لحق بهم من الأذى والاستدلال من قبل الفراعنة، آمليين من موسى أن يأتي بالفرج القريب لهذا الكرب

^١ سورة نوح: ٢-٤

^٢ تفسير السعدي، ص: ٨٨٨

^٣ سورة هود: ٢-٣

^٤ تفسير أبي السعود: ١٨٤/٤

^٥ سورة الصف: ١٣

^٦ سورة الصافات: ١٧١-١٧٣

^٧ المحرر الوحيد في تفسير الكتاب العزيز: ٤٨٩/٤-٤٩٠، المعروف بتفسير ابن عطية لأبي محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٢٢ هـ، تحقيق: عبد السلام عبد التقي محمد.

الشديد: (قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا)^(١)، فأجابهم موسى عليه السلام مرغبا لهم في الصبر والتقوى، ومُعْلِماً بأن هلاك عدوهم بات وشيكاً، وأن استخلافهم في الأرض ليس ببعيد، قائلاً: (قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)^(٢). يقول ابن عاشور: "وجاء بفعل الرجاء دون الجزم تأدبا مع الله تعالى، وإقصاء للتكال على أعمالهم ليزدادوا من التقوى والتعرض إلى رضى الله تعالى ونصره"^(٣).

وذكر صالح عليه السلام قومه "ثمود" بأن الله استخلفهم في هذه الأرض ومكنهم فيها، يستفيدون من خيراتها ويتصرفون في شؤونها، ترغيباً لهم في عبادة الله تعالى، والامثال لأمره، والشكر على نعمائه، حتى يدوم لهم هذا الاستخلاف والتمكين، مذكراً إياهم بهلاك "عاد" قبلهم عندما لم يشكروا الله تعالى بعبادته وطاعة رسوله. فقال تعالى: (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَغْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)^(٤). وكان هذا المسلك من أعظم مسالك الترغيب في التأثير، إذ النفوس جبلت على حبّ المنافع العاجلة، فاستغلت الرسل هذه الفرصة، ووعدوا أقوامهم بتحصيل هذه المقاصد السامية، والمقامات العالية، إن استجابوا لدعوتهم، واستقاموا على طريق الحق، مما يؤهلهم للتمكين في الأرض، والانتصار على الأعداء.

٤ - الترغيب بذكر الجنة وأنها مأوى المؤمنين

الجنة وذكر أحوالها من أكبر الحوافز على الإيمان والعمل الصالح، حيث إنها المستقر الأخير للمؤمنين كما قال تعالى: (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا)^(٥). كما أنها منتهى آمال العابدين، الذي بذلوا جهودهم في مرضاة الله تعالى، وهجروا ملذات الدنيا ومتاعها، رجاء أن يشيهم على ذلك بجنات تجري تحتها الأنهار، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقد استخدمت الرسل عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم في دعوتهم الترغيب في الجنة؛ لحمل الناس على عبادة الله تعالى والقيام بأمره، وذلك أن المرء يطمع في الخير ويكره الشر بطبعه،

^١ سورة الأعراف: ١٢٩

^٢ السورة والآية السابعة

^٣ التحرير والتوير لاس عاشور: ٦٢/٩

^٤ سورة الأعراف: ٧٤

^٥ سورة العرقان: ٢٤

فالإخبار عن الجنة وما فيها من جلائل النعم وعظائم المنن من أهم الوسائل في دعوة الرسل وتحقيق مقاصدها، من عبادة الله تعالى، وامتنال أوامره، واجتناب نواهيه.

وهؤلاء رسل بني إسرائيل وأنبياءهم واجهوا عناد اليهود وتمردهم على أوامر الله وأحكامه بترغيبهم في الجنة ونعيمها، وأنها ستكون الجزاء الأوفى لمن قام بالإيمان والعمل الصالح. قال تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)^(١). وعيسى عليه السلام قد حثَّ بني إسرائيل على عبادة الله تعالى وحده، وترك الشرك من خلال الترغيب بالجنة، وأن من أشرك بالله فقد استحال عليه دخول الجنة، التي هي دار الكرامة والإحسان، واستحق أن يكون مأواه نار جهنم التي هي دار الهوان والبور، كما في قوله تعالى: (وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)^(٢).

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد رغب في الجنة أيمًا ترغيب، امتثالاً لأمر الله تعالى له في القرآن الكريم. وقد كان الترغيب في الجنة ونعيمها من أهم السمات البارزة في دعوته، حيث أمره الله تعالى بالتبشير بالجنة في آيات عديدة، منها قوله تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٣). وامتثل الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الأمر، فبشّر بالجنة، بذكر أنواع النعم فيها، مفصلة في أحاديثه، المدونة في كتب السنة، مما كان له الدور الأكبر في المسارعة إلى الفضائل، المؤدية إليها.

مسالك الترهيب عند الرسل

أما مسلك الترهيب، فقد أخذ حيزاً كبيراً من مساحة دعوة الرسل، عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم. ولقد كانت الرسل من أشفق الناس، وأكثرهم حرقة على أقومهم خوفاً من العقاب

^١ سورة المائدة: ١٢

^٢ سورة المائدة: ٧٢

^٣ سورة البقرة: ٢٥

العاجل والآجل، بسبب إنكارهم للدعوة واستهزائهم بالدين، وانغماسهم في الشرك والمعاصي. وفيما يلي أذكر طائفة من تلك المسالك بإذن الله تعالى:

١ - الترهيب بالإذاز من حلول العذاب العاجل

الإنسان بطبعه يحب النجاة من المكروه العاجل، والمضرة الآنية. لذا ركزت دعوة الرسل على هذا المسلك من مسالك الترهيب للتأثير على المرء، كي يترجر عن الشرك والمعاصي، ويلتزم بأوامر الله تعالى. والمعروف أنّ عامل الخوف في الإنسان له جوانب إيجابية، وذلك عندما يكون الخوف سببا محذرا يمنعه من المخالفات التي فيها هلاكه في الدنيا والآخرة. ومن هنا فإنّ الرسل عليهم السلام حذّروا أقوامهم من حلول العذاب العاجل، بأن يكون مستأصلا يأتي عليهم ولا يبقى منهم أحد، كالطوفان الذي قضى على قوم نوح، والريح العاتية لعاد قوم هود، والصاعقة المدمّرة لثمود قوم صالح، والرجفة الساحقة لأهل مدين قوم شعيب، أو يكون غير مستأصل كما أصاب قوم فرعون الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، مما أرهقهم ونقص حياتهم، غير أنهم لم يهلكوا بسببه، بل أعطاهم الله فرصة أخرى للتفكّر في دعوة موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجّة بأن مدّ لهم في العمر، ومتّعهم إلى حين.

وهذا نوح عليه السلام يحذّر قومه من الخزي والعذاب، الذي يُتَوَقَّع أن يترل عليهم إن استمروا على غيهم وتمادوا في باطلهم. قال تعالى: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)^(١). قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير الآية: "وعيد شديد، وتهديد أكيد، "من يأتيه عذاب يخزيه"، أي: يهينه في الدنيا"^(٢).

وقد حذّر صالح قومه ثمود من العقاب الذي يترل عليهم إن تعرّضوا للناقة بسوء، وهي الآية التي اقترحوها عليه بأنفسهم، فاستجاب الله لطلبهم، فجعلها ناقة مباركة، يكفي حليبها للقوم جميعا. فكان هذا التحذير بمثابة الخط الأحمر الذي لا يمكن تجاوزه، وإلا فالخطب كبير والأمر جدّ خطير. وحكى الله تعالى عن هذا التحذير في كتابه المجيد، فقال: (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)^(٣)

^١ سورة هود: ٣٩

^٢ تفسير ابن كثير: ٣٢٠/٤

^٣ سورة هود: ٦٤

كما أُنذر شعيب قومه أن يصابوا بالعذاب المحيط، إن لم يترجوا عن عبادة غير الله تعالى، والعادات القبيحة، التي كانوا يمارسونها ضدّ الآخرين، من بحس الناس أشياءهم، بنقص المكيال والميزان، والإخلال بإيفاء الحقوق. وهذا العذاب قد يكون بحرمانهم من النعم التي كانوا فيها، أو يكون عذاب استئصال، كما حدث لهم في الأخير من الرحمة القاضية عليهم. وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)^(١).

ويأخذ هذا التحذير في بعض الأحيان منحى آخر، وذلك بأن يذكر الرسول قومه بما حدث لمن كان قبلهم، ممن عصوا رسلهم، وحق بهم العذاب الشديد. كما قال شعيب لقومه: (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)^(٢). "المراد من الآية لا تكسبنكم معاداتكم إياي أن يصيبكم عذاب الاستئصال في الدنيا مثل ما حصل لقوم نوح عليه السلام من الغرق، ولقوم هود من الريح العقيم ولقوم صالح من الرجفة، ولقوم لوط من الخسف"^(٣).

وحذر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قومه مثل هذا التحذير كما في قوله: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)^(٤). أي: "فإن أعرض هؤلاء المشركون عن هذه الحجة التي بيّنتها لهم يا محمد، ونبهتهم عليها فلم يؤمنوا بها ولم يقرروا أن فاعل ذلك هو الله الذي لا إله غيره، فقل لهم: أنذرتكم أيها الناس صاعقة تهلككم مثل صاعقة عاد وثمود"^(٥).

٢ - الترهيب بذكر الوعيد بالعذاب الآجل في الآخرة

لا شك أن عذاب الآخرة من أخوف العقوبات وأشدّها على النفوس، خاصّة إذا قورن بعذاب الدنيا، الذي يزول في يوم من الأيام وإن طال أمدّه. وكانت الرسل عليهم السلام يصفون لأممهم هذا العذاب، بحيث لو تصوّرها العاقل لعرف خطورته وأنه أشد من عذاب الدنيا. كما قارن النبي صلى الله عليه وسلم بين نار الدنيا ونار الآخرة في الحديث الذي قال فيه «نَارُكُمْ جُزْءٌ

^١ سورة هود: ٨٤

^٢ سورة هود: ٨٩

^٣ تفسير الرازي: ٣٨٩/١٨

^٤ سورة فصلت: ١٣

^٥ تفسير الطبري: ٤٤٢/٢١

مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارٍ جَهَنَّمَ»^(١). لذا حذرت الرسل أممهم وأقوامهم أيما تحذير، بحيث لا يبقى لمعتذر عذر. وذلك واضح في السؤال الذي يوجّه لأهل النار عما إذا جاءهم الرسل بالتحذير مما هم فيه الآن، فقال تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)^(٢). وقد حذر إبراهيم عليه السلام قومه من النار، وأنها ستكون مأواهم، وأنهم لن يجدوا هناك من ينصرهم، ويدفع عنهم حرّ النار، إن هم استمروا على اتخاذ الأوثان من دون الله، فحكى الله سبحانه لنا هذه المقولة في كتابه: (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بِيَعُضٍ بِيَعُضٍ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)^(٣). وقد تكررت هذه الجملة (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)^(٤) في القرآن عن كثير من الرسل لأممهم، تحذيرا لهم من مغبة ما هم عليه من الضلال والكفر والطغيان، مما تتحلّى فيه رافة الرسل، وشفقتهم على أقوامهم من العذاب، وكأنّ الرسل يروّهم رأي العين حال اقتحامهم على النار. أما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أمره الله تعالى أن يحاور المشركين، ويعظهم بأن يتفكروا في أمره، متجربين من أحكامهم المسبقة، وينذرهم من العذاب الشديد. فقال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى وُقِرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)^(٥). ومما تقدم يُعلم أنّ منهج الأنبياء يتحلّى في التحذير المتكرّر من عذاب الآخرة لأقوامهم وأممهم، ممّا يؤكد على أنّ هذا كان من أهمّ مسالك الترهيب عندهم.

٣- الترهيب بوصف حال المجرمين وما حلّ بهم من العقوبة العاجلة

هذا مسلك آخر من مسالك الترهيب عند الرسل، فإن وصف حال المجرمين في هذه الدنيا وما أصابهم من النكال والعقاب هو أعظم هزّة تذكيرية، وصرخة تحذيرية للآخرين من المشاهدة

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢١)، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأما مخلوقة عن أبي هريرة واللفظ له، وأخرجه مسلم في صحيحه

(٤/ ٢١٨) كتاب الحجة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعدنين

^٢ سورة الأعراف: ١٣٠

^٣ سورة العنكبوت: ٢٥

^٤ سورة الأعراف: ٥٩، والشعراء: ١٣٥، والأحقاف: ٢١

^٥ سورة السجدة: ٤٦

لخالهم وعملهم، حتى لا يكون مصيرهم إلى ما صار إليه المجرمون، كما قيل في المثل المشهور: "السعيد من اتعظ بغيره"^(١). وإذا استعرضنا قصص الرسل السابقين نجد النماذج الدالة على سلوكهم هذا المسلك من مسالك الترهيب مع أممهم. ومن حكي القرآن قوله في ذلك من الرسل نبي الله شعيب عليه السلام، حيث حذر قومه مما أصاب الأمم قبلهم فقال: (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)^(٢). ومن ذكر قومه بما حلّ بالأمم السالفة مؤمن آل فرعون، عندما حذر قومه من العقوبة السيئة التي تنتظرهم إن لم يستجيبوا لرسول الله موسى عليه السلام. ومما يلاحظ في هذا النموذج أن مستعمل هذا المسلك من مسالك الترهيب لم يكن الرسول نفسه المرسل إلى ذلك القوم. وإنما الذي ألقى هذا التوجيه إلى قوم فرعون هو أحد أفرادهم، ممن آمن بموسى عليه السلام، وتعلم منه طريقة الدعوة والتوجيه. ومن هنا لما كان هذا التوجيه صادرا من أحد أتباع الرسول اعتبرناه كأنه صادر من الرسول نفسه، لما أنه من الأمور الغيبية التي يُرجع في بيانها إلى وحي الرسل والأنبياء. قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ. مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)^(٣).

ولما كان منهج الرسل في الدعوة متشابها، فقد ظهر هذا المسلك من مسالك الترهيب في دعوة الرسول، صلى الله عليه وسلم، كما حكي القرآن المجيد في أكثر من موضع، وذلك حين واجه مشركي مكة بالتحذير من مصير الأمم السالفة، وخاصة تلك الأمم التي كانت أخبارها في متناول العرب كقوم عاد وهود، لأن آثارهم وديارهم كانت في الجزيرة العربية، وأحوالهم وأخبارهم قد تناقلتها الأجيال تلو الأجيال. قال تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَذْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)^(٤). وفي بعض الأحيان يتم تحذير المدعوين، الذين خاطبهم القرآن بمصير الأمم السابقة من غير تعيين لقبائلهم أو تسمية لأماكنهم. ويغلب في سياق هذه الآيات استخدام أسلوب التكرير، مما يدل على كثرتهم، وأن حصرهم غير يسير. قال تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا

^١ التمثيل والمحاصرة: ص: ٢٨، لعد الملك تعالى، ط: الثانية، الدار العربية للكتاب، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلوي.

^٢ سورة هود: ٨٩

^٣ سورة غافر: ٣٠-٣١

^٤ سورة فصلت: ١٣

مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا
الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ^(١).

وقد كثر التحذير من مصير الأمم السالفة في القرآن، لتأخذ هذه الأمة حذرهما، وتتجنب
أخطاءهم، أن لا يصيبهم مثل ما أصابهم. وذلك الأمر وارد في القرآن، رغم كل ما وعد الله
رسوله صلى الله عليه وسلم على أن لا يستأصل أمته بعذاب عام^(٢) كما حدث للأمم الماضية. إلا
أن العذاب الجزئي لبعض الأمة لا يدخل تحت هذا الموعود. قال الله تعالى: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ
مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا)^(٣).

وفيما سقته من النماذج لدعوة الرسل، ومسالكتهم في الترغيب والترهيب عند القيام
بدعوتهم كفاية، مما يؤكد على التزام الرسل باستخدام أسلوبي الترغيب والترهيب، وأنه كان من
أهم ركائز دعوتهم، ولم يكن نبي من الأنبياء تخلو دعوته من استخدام هذا الأسلوب عند تذكير
الناس، ودعوتهم إلى الله تعالى. والله تعالى أعلم بالصواب.

^١ سورة الأنعام: ٦

^٢ وذلك في الحديث الذي أخرجه أحمد في مسنده (٥٣٣/٣٤) من حديث حباب بن الأرت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "سألتُ ربِّي ثلاثَ خصال: فَأَعْطَانِي اثْنَيْنِ، وَمَتَّعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَنَا بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَنَا، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَيْنَا عَدُوًّا غَيْرَنَا، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يَلْسَنَنَا شَيْعًا فَمَتَّعَنِيهَا"، وكذا أخرجه السائي في سته: المسمى بالسلس الصعري لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الحارثي السائي، ط: الثانية، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، تحقيق: عبد الفتاح أبو عدة: ٢١٦/٣، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب إحياء الليل عن حباب بن الأرت.

^٣ سورة مريم: ٩٨

المبحث الثالث

آثار الترغيب والترهيب في النفس البشرية

ويشتمل على المطالب التالية :

المطلب الأول: مفهوم الأثر النفسي

المطلب الثاني: الآثار النفسية الإيجابية

المطلب الثالث: الآثار النفسية السلبية

المطلب الأول: مفهوم الأثر والنفس البشرية

مفهوم الأثر

أَثَرَ الحديث: ذكره عن غيره فهو آثَرٌ. ومنه حديث مأثور أي ينقله خلف عن سلف. وخرج في إثره بكسر الهمزة أي في أثره. والأثر: ما بقي من رسم الشيء، وضربة السيف. وأثر فيه تأثيراً: ترك فيه أثراً. والتأثير: إبقاء الأثر في الشيء. والمآثرة: بفتح الثاء وضمها المكرمة لأنها تُؤثّر أي: يذكرها قرن عن قرن. وأثارة من علم بقية منه^(١).

والمعنى الذي يتناسب مع ما نحن بصدده، من بين ما ذكر من المعاني هو: رسم الشيء الباقي، حيث إن الأثر النفسي هو ما يبقى في النفس من الانفعالات والعواطف وغيرها عن طريق المؤثرات الخارجية من الترغيب والترهيب وغيرها من وسائل التأثير والتوجيه.

النفس لغة:

يدل هذا المبنى على خروج النسيم من ريح أو غيرها، ومنه التنفس: خروج النسيم من الجوف. ونفس الله كربه، وذلك أن في خروج النسيم رَوْحاً وراحة. والنَّفْس: الروح^(٢).

النفس اصطلاحاً:

النفس: هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، فهو جوهر مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن وباطنه. وأمّا في وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه^(٣). وفي تفسير ابن كثير: أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر. وهي التي ينفخها الملك في الجنين، وهي النَّفْس بشرط اتصالها بالبدن. فالحاصل أن الروح أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه لا من كل وجه^(٤).

ولم تعرف حقيقة النفس بالضبط، بل لم يعرف موقعها من الإنسان، وكلّ الذي يعرف عنها ما يلاحظ على المرء من سكنات وحركات ونشاط حيوي، سواء أكان ذلك خاصاً

^١ انظر: مختار الصحاح، ص: ١٣ لمحمد بن أبي بكر الرازي، ط: الحامسة، المكتبة العصرية - الدار المودحية، بيروت - صيدا، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م. التحقيق: يوسف الشيع محمد، وتاج العروس للريدي: ١٣/١٠، وما بعدها.

^٢ انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٤٦٠/٥، ومختار الصحاح للرازي، ص: ٣١٦.

^٣ انظر: التعريفات، ص: ٢٤٢، لعلي بن محمد الشريف الخرجاني ط: الأولى، دار الكتب العلمية بيروت - لسان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

^٤ انظر: تفسير ابن كثير: ١١٦/٥.

باحتكأكه بغيره من الكائنات، أم خاصا به وحده^(١). وذلك أن معرفة كنه الروح والنفس ليست معلومة لأحد غير خالقها وبارئها، كما في قوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)^(٢). ولا شك أنها موجودة في الإنسان الحي، وعلامات وجودها من حركات وسكنات وأعراض يتميز بها الإنسان الحي عن الميب.

المعنى التركيبي للأثر النفسي

بعد أن استعرضت مفهوم الأثر والنفس، كلا على حدة، وتبينت مجالات استعمال كلا اللفظين وتعدد المدلولات لكل منهما، ينبغي الآن تحديد المعنى التركيبي لمجموع الكلمتين وصفا وموصوفا: "الأثر النفسي". إذن فالأثر النفسي هو: كل ما يؤثر في نفس الإنسان سلبا أو إيجابا من الانفعالات والعواطف كالخوف والرجاء والمحبة والكراهة والغضب والفرح والحزن والهم وغير ذلك، مما يظهر أعراضه أحيانا في الجسم الخارجي، ثم يتحول إلى سلوك معين تجاه بعض المواقف التي تمرّ بالإنسان. ولما كان موضوع النفس، وتغييرها إلى الأفضل محلّ اهتمام القرآن ركّز على تأثير النفس من خلال إيراد آيات الترغيب والترهيب، لتتفاعل معها النفوس البشرية ويعلق بها الأثر المناسب لكل توجيه من توجيهات الآيات، فيسهل بعد هذا التأثير التقويم والإصلاح المنشود، والتي طالما استعصت على المصلحين والمرشدين. ومن ثم يقول الله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)^(٣). وهذه الآثار تتنوع إلى سلبية وإيجابية، حيث "أن في النفس عواطف سلبية ترافق التربية بالترهيب كالخوف، والخشوع، كذلك في النفس عواطف إيجابية ترافق التربية بالترغيب"^(٤).

وفيما يلي أتحدث عن بعض تلك الآثار النفسية، الناتجة عن التأثير بآيات الترغيب وألترهيب سلبا وإيجابا، وهي تؤثر بدورها في سلوك المرء، وحياته.

^١ انظر: علم النفس، أصوله ومادّوه، ص: ١١، للدكتور أحمد محمد عبد الخالق، ط: دار المعرفة الجامعية، الشاطي، مصر، ١٩٩٩م.

^٢ سورة الإسراء: ٨٥

^٣ سورة الرعد: ١١

^٤ أصول التربية الإسلامية لعد الرحمن الحلاوي، ص: ٢٣٤

المطلب الثاني: الآثار النفسية الإيجابية

الآثار النفسية الإيجابية هي: عواطف، وانفعالات، وقوى مثيرة ومغذية لطاقات الإنسان، ودافعة إلى السلوك الإيجابي كالحبة والرجاء والفرح والرحمة وغيرها. وفيما يلي أذكر طائفة من الآثار، التي توجد في نفوس المؤمنين نتيجة لتأثرها بآيات الترغيب كالحبة والرجاء والفرح.

١- المحبة والمودة

إن مفهوم المحبة هو: "الميل إلى الشيء السار"^(١). ويقول الغزالي رحمه الله تعالى: "فالحبّ عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملدّ فإن تأكد ذلك الميل وقوي سميّ عشقا"^(٢). ثم ذكر أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، فإن الإنسان لا يحبّ إلا ما يعرفه، كما أنه لا يتصور من الجماد حبّ، إذ ليس له إدراك. إذن فالمحبة خاصيّة الحيّ المدرك، فكلّ ما في إدراكه لذّة وراحة فهو محبوب عند المدرك"^(٣).

والمحبة الشرعية: هي حبّ الله تعالى وحبّ ما يحبه من العباد والأعمال. وليست محبة العبد لله تعالى مجرد الطاعة والامتثال، كما فسّر بها بعض العلماء، وإنما هي محبة حقيقية يتلذذ بها العبد عند تحصيلها، وفي ذلك يقول الألوسي رحمه الله: "وليس معلوم أكمل ولا أجلّ من المعبود الحقّ، فاللذة الحاصلة من معرفته ومعرفة جلاله وكمالته تكون أعظم، والمحبة المنبعثة عنها تكون أمكن، وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات. فقد تحصّل من ذلك أن محبة العبد لربه سبحانه ممكنة واقعة من كلّ مؤمن، فهي من لوازم الإيمان وشروطه، والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم، وإذا كان كذلك وجب تفسير محبة العبد لله عزّ وجلّ بمعناها الحقيقي لغة، وكانت الطاعات والموافقات كالمسبّب عنها والمغاير لها"^(٤). وقد وردت المحبة الشرعية في مواضع كثيرة من القرآن الكريم. منها: ما يشير إلى أن محبة المؤمنين لله تعالى أشدّ من محبة المشركين لأنّهم، كما في قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلَدًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)^(٥). ومنها: ما يقضي أن علامة حبّ العبد لله تعالى اتباعه للرسول صلى الله

^١ المعجم الوسيط: ١٥١/١

^٢ إحياء علوم الدين للرازي: ٢٩٦/٤

^٣ انظر: المصدر السابق ٢٩٦/٤

^٤ روح المعاني للألوسي: ٣٣٠/٣

^٥ سورة البقرة: ١٦٥

عليه وسلم، كما في قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(١). ومنها: ما يقرّر أن تقدم المحابّ الفطرية من الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والأموال والمساكن على المحابّ الشرعية من الله ورسوله والجهاد في سبيله مستوجب للعقوبة العاجلة والآجلة، كما في قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)^(٢). يقول الشوكاني^(٣): "وفي هذا وعيد شديد، ويؤكد إهمام الأمر وعدم التصريح به؛ لتذهب أنفسهم كلّ مذهب، وتتردّد بين أنواع العقوبات"^(٤).

آيات الترغيب في المحبة

وعند التأمل في آيات الذكر الحكيم نجد في كثير منها ترغيب المؤمنين في محبة الله، ومحبة رسوله، ومحبة ما يحبه الله ورسوله، ومحبة عباده المؤمنين، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

الأولى: أن جميع الآيات التي تتحدث عن نعم الله تعالى وكثرة آلائه وإحسانه على هذا الإنسان تستوجب أن يحبّ الإنسان المنعم عليه بهذه النعم، وهو الله تعالى لا غير، إذ الجبلة الصحيحة والفطرة السليمة تقتضي الحب والتقدير والميل إلى من أحسن إليها. وفي هذا ترغيب وتشويق إلى حب الله تعالى وأنه ينبغي أن يكون مقدما على سائر المحبوبات. والآيات في هذا الأمر كثيرة جدا، فنشير إلى طرف منها للدلالة على الباقي.

وتعتبر سورة الرحمن من أروع الأمثلة في تعداد النعم الربانية، التي لا تعدّ ولا تحصى على الإنس والجانّ، واحدة تلو الأخرى، فقال عز من قائل: (الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ. الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ. وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ. وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ. وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا

^١ سورة آل عمران: ٣١

^٢ سورة التوبة: ٢٤

^٣ محمد بن علي الشوكاني: فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء، وولي قضاها. وكان يرى تحريم التقليد. وله مؤلفات كثيرة، منها: نيل الأوطار، والدر الطالع، والفوائد المجموعة في الاحاديث الموضوعة، وفتح القدير في التفسير، وإرشاد الصحول في أصول الفقه، وغير ذلك. توفي سنة ١٢٥٠هـ. انظر: موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمهج والتربية ٩٦/٩، وما بعدها، لمحمد بن عبد الرحمن المعراوي، ط: الأولى، المكتبة الإسلامية للشر والتوريع، القاهرة - مصر، السلاء للكتاب، مراكش - المغرب. والأعلام للزركلي: ٦ / ٢٩٨

^٤ فتح القدير للشوكاني: ٣٩٦/٢

لِلنَّامِ. فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالتَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ. وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ^(١). ثم يستمر سرد نعم الله تعالى على الإنس والجان في الدنيا والآخرة إلى نهاية السورة، محتتما بعد كل مقطع من مقاطعها بهذه الجملة التي يظهر فيها التحدي السافر للثقلين إن كان يمكنهما التكذيب بهذه الآلاء: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)^(٢). يقول الإمام أبو السعود رحمه الله تعالى: "ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى كفرهم بها إما بإنكار كونه نعمة في نفسه كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية وإما بإنكار كونه من الله تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالاً أو اشتراكاً، صريحاً أو دلالة"^(٣).

الثانية: من الآيات ما اشتمل على أعمال وصفات محبوبة لله تعالى، مما يكون حافزاً للمؤمن على القيام بها، ليظهر بمحبة الله تعالى وقربه وإكرامه في الدارين. والقيام بهذه الأعمال والصفات من علامات حبّ العبد لله تعالى، فكون العبد متصفاً أو عاملاً بما يحبه الله تعالى دليل قاطع على أن هذا العبد يحب الله، كما في قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)^(٤). ومن الأعمال والصفات المقتضية لهذه المحبة الإحسان في قوله تعالى: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)^(٥). ومنها التوبة والطهارة في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)^(٦). ومنها التقوى في قوله تعالى: (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)^(٧). ومنها الصبر في قوله تعالى: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)^(٨). ومنها التوكل في قوله تعالى: (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)^(٩). ومنها القسط والعدل في قوله تعالى: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)^(١٠). ومنها الجهاد في سبيل

^١ سورة الرحمن: ١-١٢

^٢ السورة السابقة: ١٣

^٣ تفسير أبي السعود: ١٧٨/٨

^٤ سورة آل عمران: ٣١

^٥ سورة البقرة: ١٩٥

^٦ السورة السابقة: ٢٢٢

^٧ سورة آل عمران: ٧٦

^٨ السورة السابقة: ١٤٦

^٩ السورة السابقة: ١٥٩

^{١٠} سورة المائدة: ٤٢

الله في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)^(١). وتوجد آيات أخرى ذكرت أن الله لا يحبّ بعض الصفات والأعمال الصادرة من العباد، مما يدل على أن من اتصف بهذه الصفات أو عمل هذه الأعمال لا يكون محبوباً عند الله تعالى، وبالتالي لا يكون هو محباً لله تعالى، فالله لا يحبّ الفساد والمفسدين، والكافرين، والظالمين، والمختالين، والفخوريين، والخائنين، والآثمين، والمعتدين، والمسرّفين، والمستكبرين، والفرحين إلى آخر ما ذكر في القرآن، من الصفات التي تنتفي المحبة معها.

الثالثة: الآيات التي ترغّب في الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته في الأمر والنهي متضمنة للحثّ على حبّه صلى الله عليه وسلم، وأن حبّه هو الذي يقتضي الإيمان والطاعة، كما أن الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم يتطلب تقديم حبّه على سائر المحبوبات الفطرية من الأبناء والآباء والأمهات وغيرهم مما جبلت القلوب على حبهم وإيثارهم والتفاني في خدمتهم. كما جاء في الحديث الصحيح: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٢). ومن الآيات التي تأمر العباد بالإيمان بالله ورسوله، مما يتضمن الحث على حب الله ورسوله، إذ الإيمان لا يتحقق إلا مع كون العبد محباً لهما مؤثراً لهما على سائر المحبوبات. كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)^(٣). ومنها الآيات التي تأمر المؤمنين بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، والالتزام بسنته، والافتداء بهديه، الأمر الذي يتضمن الترغيب في حبّه، وحبّ طريقته، وذلك بدوره يؤكد على أن اتباعه من العلامات الدالة على حبّه، والميل إلى مسلكه، وإيثاره على سائر الطرق والمسالك. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)^(٤).

^١ سورة الصف: ٤

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه (١٢/١)، كتاب الإيمان، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان لفظه، ومسلم في صحيحه (٦٧/١)، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل والولد لفظ مقارب، كلاهما عن أنس رضي الله عنه.

^٣ سورة النساء: ١٣٦

^٤ سورة النساء: ٥٩

الرابع: الآيات التي تحتّ على موالاة المؤمنين ونصرتهم وعقد الصداقة والأخوة معهم ترغّب في نفس الوقت على محبتهم ومودّتهم، كما في الحديث الصحيح: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاخُمِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى»^(١). وقال تعالى في بيان اختصاص ولاية المؤمنين بعضهم ببعض، وأن هذا من مقتضيات الإيمان: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٢). وقال أيضا: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)^(٣). وهذا بيان للأخوة الإسلامية، الأمر الذي يقتضى الترغيب في نشر المحبة بين المؤمنين، واعتناء بعضهم ببعض في جميع الشؤون، من النصرة والموالاة، والتعاون والتكافل.

٢- الرجاء والأمل

الرجاء: "ظنّ يقتضي حصول ما فيه مسرة"^(٤). وذلك بأن يظن الإنسان وقوع خبر في نوع شك بحصوله إلا أن الظن بحصوله أرجح من عدمه، وليس هو علما، لأنه لا يمكنك أن تقول: أرجو أن يدخل النبي الجنة، لأن دخوله الجنة أمر متيقن، ولكن يمكنك أن تقول: أرجو أن يدخل فلان الجنة، إذا لم تعلم بذلك^(٥). وفي بيان معنى الرجاء، والفرق بينه وبين الغرور والتمني يقول الغزالي رحمه الله تعالى: "فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فالرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظارا مع انخراط أسبابه واضطرابها، فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب"^(٦).

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠)، باب رحمة الناس والهائم، كتاب الأدب لفظه، ومسلم في صحيحه: (٤/ ١٩٩٩)، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، كتاب البر والصلة والآداب لفظ مقارب، كلاهما عن العمام بن بشير رضي الله عنهما.

^٢ سورة التوبة: ٧١

^٣ سورة الحجرات: ١٠

^٤ المفردات لأصفهائي، ص: ٣٤٦

^٥ الفروق اللغوية، ص: ٢٤٤، لأبي هلال العسكري، ط: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، التحقيق: محمد إبراهيم سليم.

^٦ إحياء علوم الدين للبرالي: ١٤٢/٤

في بعض الآيات يرد الطمع في مقابلة الخوف بمعنى الرجاء كما في قوله تعالى: (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)^(١)، وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)^(٢)، وقوله تعالى: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)^(٣). يقول ابن القيم: "وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه؛ إذ طلب ما لا طمع فيه ممتنع"^(٤). وفي السنة النبوية يرد الرجاء في عبارة حسن الظن كما جاء في الحديث الصحيح: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»^(٥). وفي حديث آخر: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيُظَنَّ بِي مَا شَاءَ»^(٦). يقول النووي رحمه الله تعالى في معنى حسن الظن بالله: "معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه. قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفا راجيا ويكونان سواء، وقيل يكون الخوف أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه؛ لأن مقصود الخوف الانكشاف عن المعاصي والقبائح والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له"^(٧). ومما سبق يعلم أن الرجاء تعلق القلب بما يحصل في المستقبل من الأمور المحبوبة، مع الظن الراجح لحصولها، على أساس القيام بالأسباب الموجبة لهذا المحبوب، كالزراع يصلح الأرض، ويلقي البذر فيها، ويقوم بما يلزم من الرعاية، ثم ينتظر ويرجو من الله أن يرزقه الحبوب النافعة، مع الخوف من الآفات، والجوائح المهلكة للزرع.

^١ سورة الأعراف: ٥٦

^٢ سورة الرعد: ١٢

^٣ سورة السجدة: ١٦

^٤ بدائع العوائد لاس القيم: ١٢/٣

^٥ أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٠٥/٤)، كتاب الحجة وصفة بعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، عن حابر بن عبد الله رضي الله عنه.

^٦ أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (١٨٧/٢٨)، وإسناده صحيح كما قال محققو الكتاب، عن واثلة بن الأسقع. وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب ذكر الإحسان عما يجب على المرء من الثقة بالله حل وعلا بحسن الظن في أحواله به عن واثلة بن الأسقع أيضا، انظر: الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان: (٤٠١/٢). لأبي حاتم ابن حبان وترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلال الفارسي، ط: الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م. حققه وحرر أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط.

^٧ شرح النووي على مسلم: ٢١٠/١٧

ومن هنا يتأكد أن الرجاء الشرعي من الآثار النفسية الإيجابية التي تحدث في القلب من خلال الآيات المرغبة في رحمة الله تعالى وكرمه وإحسانه لمن أطاعه وعمل بمقتضى شرعه، كما يقول ابن عاشور: "والرجاء: ترقّب الخير مع تغليب ظن حصوله، فإن وعد الله وإن كان لا يخلف فضلاً منه وصدقا، ولكن الخواتم بجهولة، ومصادفة العمل لمراد الله قد تفوت؛ لموانع لا يدرها المكلف، ولئلا يتكلوا في الاعتماد على العمل"^(١).

آيات الترغيب في الرجاء

وردت في القرآن الكريم آيات في الرجاء، بعضها ظاهر في الترجية، والبعض الآخر مستنبط منها بطريق الاستدلال^(٢).

فالأول: يشمل الآيات التي ذكر فيها الرجاء بلفظه أو بالفاظ قريبة منه في المعنى. كقوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)^(٣). وقد جعل الله من صفات عباده الصالحين الجمع بين الخوف والرجاء، وذلك بعد أن قدّموا كلّ ما بوسعهم من الوسائل التي تقرّبهم إلى الله تعالى من الواجبات والمندوبات وترك المنهيات. وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٤). "أثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجو للإيدان بأنهم عالمون بأن العمل غير موجب للأجر وإنما هو على طريق التفضّل منه سبحانه لا لأنّ في فوزهم اشتباهاً"^(٥). وقوله تعالى: (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)^(٦). أي: "أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه"^(٧). وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ)^(٨). يقول

^١ التحرير والتوير لاس عاشور: ٣٣٨/٢

^٢ انظر: طريق المحرّتين ويات السعادت لاس القيم، ص: ٣٤٥

^٣ سورة الإسراء: ٥٧

^٤ سورة القرة: ٢١٨

^٥ تفسير أبي السعود: ٢١٨/١

^٦ سورة النساء: ١٠٤

^٧ تفسير السعدي، ص: ١٩٩

^٨ سورة فاطر: ٢٩

أبو السعود: "والإخبارُ برجائهم من أكرم الأكرمين عِدَّةٌ قطعيةٌ بحصولِ مرجوهم"^(١). وقوله تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)^(٢).

والثاني من آيات الترجية: ما هو مستنبط من آيات البشارة والرحمة وغيرها مما يدل على سعة فضل الله تعالى وشمول رحمته لعباده على وجه العموم، وعلى وجه الخصوص لمن جدّ في طاعة الله تعالى وخدمته وانتهى عن المعاصي والمخالفات. وهذا النوع من الآيات يؤثر في نفس المؤمن ويزرع في قلبه الرجاء والأمل، وينشطه في طاعة الله تعالى وعبادته، ويحدوه إلى أن يجدّ في السير على الصراط المستقيم، ولا يستسلم إلى الملل والكسل. وهي كثيرة نذكر أمثلة منها فيما يلي: وذلك في قوله تعالى: (وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)^(٣). وقوله: (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)^(٤). وقوله: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)^(٥). وقوله تعالى: (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا)^(٦). أي: "بأن لهم من ثواب الله على طاعتهم إياه تضييفا كثيرا، وذلك هو الفضل الكبير"^(٧). وقوله: (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)^(٨).

٣- الفرح والسرور

الفرح مأخوذ من: فَرَحَ به: سُرَّ. وهو: نقيض الحزن، وانشراح الصدر بلذة عاجلة. وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية الدنيوية. ويقال: فرح بكذا سرّ وابتهج، فهو فرح وفرحان، وهي فرحة وفرحى. والفرح أيضا: البطر^(٩). يقول ابن القيم: "والفرح لذة تقع في

^١ تفسير أبي السعود: ١٥٢/٧، وما بعدها

^٢ سورة الكهف: ١١٠

^٣ سورة الأعراف: ١٥٦

^٤ سورة الأنعام: ١٤٧

^٥ سورة الرمر: ٥٣

^٦ الأحزاب: ٤٧

^٧ تفسير الطبري: ٢٨٢/٢٠

^٨ سورة التثوري: ٢٣

^٩ انظر: الصحاح للحواري: ٣٩٠/١، المعجم الوسيط: ٦٧٩/٢، لسان العرب لابن مطور: ٥٤١/٢، والمفردات في غريب القرآن للأصمعي،

القلب بإدراك المحبوب ونيل المشتهى. فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور. كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب. فإذا فقده: تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم^(١).

فالفرح أمر نسبي يدور مع هدف الإنسان، فمن كان هدفه الحصول على الدنيا وملذاتها من مطعم ومشرب ومنكح فرح به وابتهج إن حصل له ذلك. وإن كان هدفه البلوغ إلى الرئاسة والسلطة والجاه، فإن تمكن من ذلك فرح به أشد الفرح. وإن كانت أمنيته رضا الله والوصول إلى الحقائق الإيمانية، فإن تحصل على ذلك أو شيء منه سرّ به سرورا عظيما أشد من سرور صاحب الدنيا بدنياء. والفرح من أعظم أنواع الراحة النفسية والنعم القلبية.

أنواع الغرم الوارد في القرآن الكريم وهو على نوعين:

الأول: فرح أهل الدنيا بدنياتهم من مال وعلم وأولاد وأمن وصحة وغير ذلك من منافع الدنيا وملذاتها العاجلة. قال تعالى: (اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)^(٢). وقال تعالى: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)^(٣). أي: "حتى إذا فرحوا فرح بطر بما أُوتوا من النعم ولم يقوموا بحق المنعم جل شأنه أَخَذْنَاهُمْ: عاقبناهم وأنزلنا بهم العذاب بَغْتَةً أي فجأة"^(٤). وقال تعالى: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)^(٥). في هذه الآية بين الله تعالى أن المشركين لما جاءهم حجج الله، وبراهينه الواضحة فرحوا بما كان لديهم من العلوم والمعارف، المتمثلة في الشبهات الزائفة، والتي اعتقدوا بها علما نافعا، فأحاط بهم العذاب من كل جهة، ودمّرهم تدميرا.

الثاني: فرح المؤمنين بتحصيل الحقائق الإيمانية والصفات الحميدة التي ندب إليها الشرع ورتب عليها الثواب العظيم. وهذا من أعظم مقامات الإيمان كما يقول ابن القيم رحمه الله: "ومن أعظم مقامات الإيمان: الفرح بالله، والسرور به. فيفرح به إذ هو عبده ومحبه. ويفرح به سبحانه ربا

^١ مدارح السالكين لاس القيم: ١٤٨/٣

^٢ سورة الرعد: ٢٦

^٣ سورة الأنعام: ٤٤

^٤ روح المعاني للألويسي: ١٤٤/٤

^٥ سورة عافر: ٨٣

والها، ومنعما ومريبا، أشد من فرح العبد بسيده المخلوق المشفق عليه، القادر على ما يريده العبد ويطلبه منه^(١). وكذا الفرح بالحصول على الموعودات الربانية في الدنيا وفي الآخرة.

ومن الآيات الواردة في هذا الفرح قوله تعالى: (فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)^(٢). أي: "يوم إذ يغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم يفرح المؤمنون بنصر الله وتغلبه من له كتاب على من لا كتاب له، وغيظ من شمت بهم من كفار مكة"^(٣). وقوله تعالى: (فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا)^(٤). أي: "جعل لهم نضرة وهي حسن البشارة، وذلك يحصل من فرح النفس ورفاهية العيش"^(٥). وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)^(٦). يقول السعدي: "وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم"^(٧).

آيات الترغيب في الفرح

وتأثير آيات الترغيب في نفس المؤمن بالفرح والسرور واضح، من حيث إن إكسابها الثروة الإيمانية المتنوعة يجعلها تطير فرحا، وتبتهج سرورا، بسبب ما يحصل لها من الراحة النفسية والاطمئنان القلبي. كما قال تعالى: (وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)^(٨). والموعودات الربانية في القرآن تؤثر في النفوس فرحا وسروا، سواء كانت موعودات عاجلة في هذه الدنيا، من طيب العيش، والطمأنينة

^١ مدارح السالكين لاس القيم: ١٠٦/٣

^٢ سورة الروم: ٤

^٣ تفسير أبي السعود: ٥٠/٧

^٤ سورة الإنسان: ١١

^٥ التحرير والتبوير لاس عاشور: ٣٨٨/٢٩، وما بعدها.

^٦ سورة يونس: ٥٧-٥٨

^٧ تفسير السعدي، ص: ٣٦٧

^٨ سورة التوبة: ١٢٤

النفسية، ونزول البركات الإلهية في الأرض، أو موعودات آجلة من نعيم الجنة، ورضا المولى جل في علاه، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم.

فأما الثواب العاجل الوارد في القرآن فأكثر من أن يحصر، وإنما أذكر بعض الأمثلة، الدالة على غيرها. ومن ذلك ما وعد الله على ذكره من الطمأنينة القلبية والراحة النفسية، التي يتولد منها الفرح والسرور. كما قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)^(١). ومنه ما وعد الله لأهل الإيمان والتقوى من الظفر بركات السماء والأرض، والتي هي أصل كل نعمة في هذه الدنيا كما قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)^(٢). ومنه ما وعد الله تعالى عباده المؤمنين من النصر على الأعداء والتمكين في الأرض وحصول الأمن والاستقرار، والتصرف في مقاليد الكون، مما يهيج النفوس ويسر القلوب، كما قال تعالى: (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)^(٣).

وأما الثواب الآجل في الآخرة فيفرح المؤمنون به في الدنيا عند سماعهم للآيات الدالة عليه، كما يفرحون به عند حصول ذلك لهم في الآخرة. ويشبه ذلك ما يشاهد في الواقع من أن الإنسان إذا وعدته جهة مسؤولة، يثق بإنجاز وعدّها أجرا مغريا في مقابل ما يقوم به من العمل شهريا فرح بهذا الوعد، واستمر في العمل بحموية ونشاط قبل أن يستلم هذا الأجر الموعود، ثم فرح به عند الاستلام أشد من فرحه بالوعد المجرد. وفي ذلك يقول الله تعالى: (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا)^(٤). وقال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)^(٥). وكذلك تبشّر الملائكة المؤمنين عند الموت بأن لا يخافوا من المستقبل الذي يقدمون عليه، وألا يحزنوا على ما تركوه في الدنيا من الأهل والأولاد، وتبشّرهم أيضا باستحقاقهم الجنة، التي وعِدُوا بها على ألسنة الرسل، فيفرحون

^١ سورة الرعد: ٢٨

^٢ سورة الأعراف: ٩٦

^٣ سورة الصف: ١٣

^٤ سورة الإسراء: ١١

^٥ سورة الحاقة: ١٩-٢٤

بذلك أشد الفرح، وتغشاهم البهجة والسرور، فيلتذون بذلك أكثر مما كانوا يلتذون في الدنيا بأنواع الملذات المادية، من المأكولات، والمشروبات، والمناكح، وغيرها، وفي ذلك يقول المولى جل وعلا: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ. نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)^(١).

وقد أوردت في هذا المطلب ثلاثة من الآثار النفسية الإيجابية "المحبة، الرجاء، الفرح"، والتي تكون نتيجة لتأثر النفس بآيات الترغيب، مما يرشد إلى غيرها من الآثار النفسية الإيجابية، التي لم أذكرها، عن طريق الاعتبار والقياس بالمثل. والله أعلم بالصواب.

^١ سورة فصلت: ٣٠-٣٢

المطلب الثالث: الآثار النفسية السلبية

الآثار النفسية السلبية تتمثل في انفعالات كامنة في النفوس، تحدث عند مرور الإنسان ببعض المواقف المثيرة، كما تدفعه إلى سلوك سلبى عند حدوثها في النفس، كالخوف والخشوع والكره والندم والحزن والهم والغضب والغيرة والحسد وغيرها. وفيما يلي ذكر لطائفة منها، مشيراً إلى الآيات التي تثير هذه الانفعالات في نفس الإنسان.

١- الخوف

هذه المادة تدلّ على الذعر والفرع. وهي مأخوذة من خَافَ يَخَافُه خَوْفاً وَخِيفَةً وَمَخَافَةً. وهو خَائِفٌ، والمفعول مَخُوفٌ. والخوف: انفعال يحدث في النفس لتوقع حلول مكروه أو فوت محبوب^(١). وقال الغزالي في تعريف الخوف بأنه: "عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال"^(٢)، فخصّه بما يكون في المستقبل، وهو الأولى. ويرد الخوف في القرآن الكريم بألفاظ أخرى نحو: الوجل والخشية والرعبة والإشفاق.

أنواع الخوف في القرآن الكريم

الأول: خوف طبيعي يحدث للإنسان عندما يتوقع أو يواجه خطراً حقيقياً يهدد نفسه أو ماله أو أهله، كما مثل الغزالي ذلك بقوله: "وذلك كمن جنى على ملك، ثم وقع في يده، فيخاف القتل مثلاً، ويجوز العفو والإفلات، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله، وهو تفاحش جنايته"^(٣). والخوف الطبيعي يشمل جميع المخاوف سوى الله وعقابه، كالخوف من الأعداء والموت والفقر. قال تعالى في الخوف من الأعداء: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٤). وقال تعالى في الخوف من الفقر: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنصَلِقُوا بِكُم مِّنْهُم وَإِن يَكُنْ لَّكُم مِّنْهُم نَفْسٌ فَحَرِّمُوا أَوْلَادَكُمْ مِثْلَ نَفْسِهِمْ كَانَتْ خَطِئًا كَبِيرًا)^(٥). وقال تعالى في الخوف من الموت: (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَّا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا

^١ انظر: مقاييس اللغة لاس فارس ٢/٢٣٠، ولسان العرب لاس مطور: ٩/٩٩، والمعجم الوسيط: ١/٢٦٢

^٢ إحياء علوم الدين للغزالي: ٤/١٥٥

^٣ المصدر السابق: ٤/١٥٥

^٤ سورة آل عمران: ١٧٥

^٥ سورة الإسراء: ٣١

الْفِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ^(١). وهذه بعض من المخاوف الطبيعية، التي تحدث بمقتضى الطبيعة الإنسانية، فالإنسان جبل على الخوف من كل ما يتوقع منه حصول الأذى في المستقبل.

الثاني: خوف شرعي، وهو الخوف من الله عز وجل وعقابه وسائر المواقف المغيبة عن حس الإنسان من القبر والحشر والحساب والصراط والعذاب والوقوف بين يدي الله عز وجل. وهذا النوع من الخوف هو سوط الله تعالى يسوق به العباد إلى امتثال الأوامر والانتهاز عن المعاصي، وهو الذي امتاز به عباد الله المخلصون عن غيرهم من البطالين، فساقهم إلى مقامات الإيمان والإحسان، وحثهم على الجد والسير في منازل السائرين ومدارج السالكين.

ومن هنا مدح الله تعالى أصحاب الخشية من العلماء، ونبه على أن العلم الحقيقي هو الذي تصحبه الخشية من الله وعقابه، فقال: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)^(٢). أي: "إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما... كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر"^(٣). وقد خصّ الله تعالى في غير آية التذكّر والاتعاظ بآيات الله الكونية والقرآنية بأصحاب الخشية والخوف من عباده المتقين، لانتفاعهم بذلك وعملهم بمقتضاه، فقال عز وجل: (مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلَّا تَذِكْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)^(٤). كما وعد المولى جلّ في علاه أهل الخشية من عباده المغفرة والأجر العظيم، فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)^(٥).

آيات الترغيب في الخوف

تكثر الآيات المسببة للخوف من الله تعالى وعقابه، وتأخذ أشكالا وألوانا من الأساليب، التي تحوّل عباده رحمة بهم ورأفة، فيعبده حقّ عبادته.

^١ سورة محمد: ٢٠

^٢ سورة فاطر: ٢٨

^٣ تفسير ابن كثير: ٥٤٤/٦

^٤ سورة طه: ١٠٢

^٥ سورة الملك: ١٢

١- منها ما يشتمل على الخطاب الموجّه مباشرة إلى العباد، يأمرهم بالخوف، كي يجعلوه وقاية بينهم وبين أليم عذابه وشديد عقابه، فقال تعالى: (إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)^(١). وقال تعالى: (الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ)^(٢).

٢- ومنها ما يربّي المؤمن على الخوف والمهابة، فيُذكر في القرآن تفاصيل عقاب الله تعالى وشدة بأسه يوم القيامة، وما بعده من نار جهنم ولببها وحميمها وسلاسلها وزقومها وزمهريرها، من أنواع النكال وأشكال العذاب. فعندما تقرر آذان المرء سماع هذه المشاهد والمناظر، وآمن بحلولها على من تعرّض للمعاصي والنواهي، أثّرت حتما في نفسه، وأحدثت فيها الرعب والرهبة والخشية، مما يجعله يستقيم على الصراط السوي، ويتّجر عن المعاصي والمخالفات. ومن ذلك قوله تعالى في ذكر النكال العظيم، والجحيم، والطعام المصحوب بالغصة: (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا. وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا)^(٣). وقد هيأ الله لأهل الكفر نارا عظيمة، أحاط بهم لهبها من جميع الجهات، فإن استغاثوا من العطش أغيثوا بالمهل، الذي هو ما أذيب من جواهر الأرض، فيشوي وجوههم إذا أرادوا الشرب منها، من شدة حرارته، حتّى إنّ جلودها لتتساقط^(٤). وفي هذا يقول المولى جلّ في علاه: (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)^(٥). وقال تعالى: (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا. لِلطَّاغِينَ مَابًا. لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا. لَا يَذُقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا. إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا)^(٦). الأحقاب جمع حقب، وهو ثمانون سنة على ما قاله أكثر المفسرين. والحميم: الماء الحارّ، الذي يشوي وجوههم، ويقطّع أمعاءهم. والغساق: صديد أهل النار، الذي هو في غاية التنّ، وكراهة المذاق^(٧).

٣- ومن آيات الترهيب التي تشتمل على تربية المهابة والخوف من الله في قلوب العباد ما ورد في بعضها من وصف عباد الله المتقين، والملائكة المقرّبين بالخوف والوجل والإشفاق، مع بلوغهم

^١ سورة الحل: ٥١

^٢ سورة المائدة: ٣

^٣ سورة المزمل: ١٢، ١٣

^٤ انظر: روح المعاني للألوسي ٢٥٥/٨

^٥ سورة الكهف: ٢٩

^٦ سورة البقرة: ٢١-٢٥

^٧ انظر: تفسير السعدي، ص: ٩٠٧

الرتب العالية في الطاعة والعمل، مما يثير الخوف عند غيرهم من المهملين والمتوسطين. ويلاحظ في ذلك أن المقرّبين إذا صاحبهم الخوف، مع ما هم عليه من التقوى والإنابة فغيرهم أولى وأحرى بالخوف والوجل؛ لملاستهم الأسباب الجالبة للعقوبة، الموجبة للعذاب. وفي ذلك مظنة الخوف والوجل. ومن هذا القبيل ما ذكر الله سبحانه في القرآن من الحالات التي تطرأ لأهل الخشية عند تلاوتهم أو سماعهم لكتابه العزيز من تغيّرات نفسية وتشنّجات عضوية، تحدث لقلوبهم وجلودهم، فقال عز من قائل: (اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)^(١). ذلك عندما يسمعون قوارع آيات التخويف أصابتهم الرهبة والخشية، فتقشعرّ منها جلودهم خوفاً ووجلاً. وإذا ذكروا رحمة الله تعالى عند سماع آيات الوعد، والطفاف الرغبة تبدلت خشيتهم رجاء، ورهبتهم رغبة، فتسكن قلوبهم إلى رحمة الله^(٢).

وذكر الله تعالى أن من صفات عباده المؤمنين الإشفاق من عذابه، كما في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ)^(٣). وقال أيضاً في وصفهم بالإشفاق من الساعة، وخشيتهم من ربهم في الخلوات والنجوات: (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)^(٤). وقد سألت عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم عن معنى هذه الآية: (الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَتُّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)^(٥) يا رسول الله هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله؟ قال: «لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يُخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»^(٦). وقد وصف الله عز وجل الملائكة بالخشية والإشفاف من عقاب ربهم، مع كونهم معصومون من سائر الخطايا والذنوب: فقال تعالى: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ

^١ سورة الرمر: ٢٣

^٢ انظر: روح المعاني للألوسي ٢٤٨/١٢

^٣ سورة المعارج: ٢٨، ٢٧

^٤ سورة الأنبياء: ٤٩

^٥ سورة المؤمنون: ٦٠

^٦ أخرجه أحمد في مسنده: (١٥٦/٤٢)، والحاكم في مستدركه: (لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله اليسانوري، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١١ - ١٩٩٠. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا)، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المؤمنون، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافق عليه الذهبي.

خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ^(١). أي: "وهم من خوف الله، وحذار عقابه أن يحلّ بهم مشفقون، يقول: حذرون أن يعصوه ويخالفوا أمره ونهيه"^(٢). والآيات في وصف عباد الله المتصفين بالخوف كثيرة نكتفي منها بهذا القدر، والعلم عند الله تعالى وله الحمد والمنة.

٢- الخشوع

أصل هذه الكلمة في اللغة يدل على التظامن والانخفاض والذل والسكون، كما قال تعالى: (وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)^(٣). أي سكنت، وذلت، وخضعت. ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو ييسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالريّ والنبات، كما قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَلَّا تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)^(٤). يقال: خشع إذا تظامن وطأطأ رأسه يخشع خشوعا. وخشع ببصره أي غصّه، وخفض صوته، ولربه: استكان وركع، وهو خاشع، والجمع خُشَع. والخشوع قريب المعنى من الخضوع، إلا أن الخضوع في البدن والإقرار بالاستحذاء، والخشوع في الصوت والبصر^(٥).

والخشوع الوارد في الشرع: ما يتصف به القلب والبدن من الخضوع لله والشعور بالانقياد التام له والتذلل بين يديه عند الصلاة والذكر وقراءة القرآن، بل إذا قوي إيمان العبد يصاحبه الخشوع عند سائر أحواله. وقال الجنيد^(٦) رحمه الله: "الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب"^(٧). يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "والخشوع: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه"^(٨). وقال ابن رجب^(٩) رحمه الله تعالى في التفصيل لمعاني الخشوع: "وأصل الخشوع هو: لين

^١ سورة الأنبياء: ٢٨

^٢ تفسير الطبري: ٤٢٩/١٨

^٣ سورة طه: ١٠٨

^٤ سورة فصلت: ٣٩

^٥ انظر: كتاب العين للتحليل بن أحمد الفراهيدي المصري، ط: دار ومكتبة الهلال. التحقيق: د مهدي المحرومي، ود إبراهيم السامرائي: ١١٢/١،

ومعجم مقاييس اللغة لاس فارس ١٨٢/٢، وتاج العروس للريدي: ٥٠٧/٢٠، ولسان العرب لاس مطور: ٧١/٨، والمعجم الوسيط: ٢٣٥/١

^٦ الحيد بن محمد بن الحيد أبو القاسم الحرار أصله من هراوند إلا أن مولده ومشاؤه سعداء، وسمعها الحديث، ولقي العلماء، ودرس الفقه على أبي ثور، وصحب جماعة من الصالحين، ثم اشتغل بالعبادة ولزمها حتى صار شيخ وقته، وفريد عصره في علم الأحوال والكلام على لسان الصوفية، وطريقة الوعط. وله أحبار مشهورة، وكرامات مأثورة. توفي سنة ثمان وتسعين ومائتين. انظر: تاريخ بغداد ١٦٨/٨. لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ط: الأولى، دار العرب الإسلامي - بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م. تحقيق: الدكتور شتار عواد معروف.

^٧ طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٢٦٤/٢

^٨ مدارج السالكين لاس القيم: ٥١٦/١

القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له، كما قال صلى الله عليه وسلم: «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١)، فإذا خشع القلب خشع السمع والبصر والرأس والوجه، وسائر الأعضاء وما ينشأ منها حتى الكلام. لهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه في الصلاة: "خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي"^(٢).

ويقول الغزالي رحمه الله تعالى في بيان الأسباب التي تجلب الخشوع: "اعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل، ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعاً في الصلاة، وفي غير الصلاة، بل في خلوته، وفي بيت الماء عند الحاجة؛ فإن موجب الخشوع معرفته اطلاع الله تعالى على العبد، ومعرفة جلاله، ومعرفة تقصير العبد، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع، وليست مختصة بالصلاة"^(٣).

آيات الترغيب في الخشوع:

الخشوع من أعظم الآثار التي تحدث لنفس المؤمن من جرّاء الخشية والذلّ والانكسار للعلي الجبار. وللآيات القرآنية دور كبير في إيجاد هذا الأثر الطيب في قلوب من شاء من عباده، الذين خشعت قلوبهم لله، فامتثلوا أمره، وانتهوا عن عصيانه. وقد سجّل الله تعالى في كتابه أن الذين أوتوا العلم النافع إذا سمعوا القرآن يتلى عليهم يزدادون خشوعاً فوق خشوعهم. وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزْرُهُمْ خُشُوعًا)^(٤). أي: "يزيدهم القرآن تواضعاً لله تعالى. وهذه مبالغة في صفتهم،

^١ أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد المعدادي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن رجب، الشيخ الإمام العلامة، الراشد، الخافط، الحجة. كانت محالس تذكيره للقلوب صارعة، وللناس عامة مباركة نافعة، احتضنت العرق عليه، ومالت القلوب بالحمّة إليه، وله مصنفات معيدة، منها «شرح جامع أبي عيسى الترمذي» و «شرح أربعين التّواوي»، وكتاب «اللطائف» في الوعظ وأحوال القيامة، و «القواعد الفقهية» تدل على معرفة تامة بالمذهب. وله غير ذلك من المصنفات. توفي سنة خمس وتسعين وسعمائة. انظر: شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ٥٧٨/٨، وما بعدها.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠/١)، كتاب الإيمان، باب فصل من استبرأ لدينه. وأخرجه مسلم في صحيحه (٣/١٢١٩)، كتاب المساقاة، باب أحد الحلال وترك الشبهات، كلاهما عن العماد بن بشير رضي الله عنهما.

^٣ مجموع رسائل ابن رجب: ٢٩٠/١، للحافظ ابن رجب الحنبلي، ط: الأولى، المعارف الحديثة للطباعة والنشر. ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤. تحقيق: طلعت بن فؤاد الحلواني.

^٤ إحياء علوم الدين للبرقي: ١٧١/١

^٥ سورة الإسراء: ١٠٧-١٠٩

ومدح لهم، وحضّ لكل من توسّم بالعلم، وحصل منه شيئاً أن يصل إلى هذه الرتبة، وهي رتبة الخشوع والخضوع لله عز وجل^(١).

ومدح الله تعالى المؤمنين بالخشوع في أعظم العبادات وهي الصلاة، ورّتب على أدائها بهذه الصفة الفلاح في الدارين، الأمر الذي يدعوهم إلى الاهتمام بالخشوع، وتحقيقه في النفوس، وخاصة عند القيام بين يدي المولى جل وعلا. كما قال ابن رجب: "وقد شرع الله تعالى لعباده من أنواع العبادات ما يظهر فيه خشوع الأبدان، الناشئ عن خشوع القلب وذله وانكساره، ومن أعظم ما يظهر فيه خشوع الأبدان لله تعالى من العبادات الصلاة، وقد مدح الله تعالى الخاشعين فيها بقوله عز وجل: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)"^(٢).

كما شدّد الله النكير على القاسية قلوبهم عند سماع كلامه، وعاتبهم على عدم تأثر قلوبهم بذكر الله، وحذّره من أن يكونوا على شاكلة كثير من أهل الكتابين قبلنا، ممّن خيّم على قلوبهم القسوة، وغشي عليها طول الأمل، فقال عز من قائل: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)"^(٣). ولذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله" إلا أربع سنين"^(٤). وهناك عتاب آخر لطيف خاطب الله به عباده المؤمنين عن طريق الإشارة والتمثيل، مما يستدعي التفكير والتأمل، فقال تعالى: "معظما لأمر القرآن، ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي وأن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد"^(٥): (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدَّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)"^(٦). ووصف الله سبحانه وتعالى عباده الأنبياء بملازمة صفة الخشوع، حتى صارت من أهم أوصافهم التي قارنتهم في الحضر والسفر والمنشط والمكره وسائر أحوالهم، إلا أن ظهورها

^١ التفسير الوسيط: ١٣٩٧/٢، للدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط: الأولى، دار الفكر - دمشق، ١٤٢٢هـ.

^٢ سورة المؤمنون: ١-٢

^٣ مجموع رسائل ابن رجب: ٣٠٠/١

^٤ سورة الحديد: ١٦

^٥ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٣١٩) كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله.

^٦ تفسير ابن كثير: ٧٨/٨

^٧ سورة الحشر: ٢١

كان أشد وأقوى عند دعائهم وتضرعهم إلى الله تعالى رغبا ورهبا، كما قال تعالى في وصف نبي الله زكريا وأهل بيته: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)^(١).

إنَّ للخشوع تأثير ملموس في القلب والنفس، وقد اتصف به عباد الله المتأثرون بذكره، والتأمل في صفاته العظيمة، فمن تفكّر في عظمة الله تعالى وكمال نعوت جلاله وجماله حقّ له أن يخشع قلبه، وتخضع جوارحه، منطلقة في امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

٣- المـزن

الحَزْنُ والحَزَنُ لغة: مصدران للفعل حَزَنَ، وهو: خشونة في الأرض، وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغمّ، ويزادّه الفرح والسرور، والجمع أْحْزَانٌ. وحَزَنَ الأمرُ يَحْزُنُهُ حُزْنًا وأَحْزَنَهُ، فهو مَحْزُونٌ ومُحْزَنٌ^(٢). وفي الاصطلاح، هو عبارة: "عما يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب في الماضي"^(٣). وقيل: "الحزن ألم نفسي يعرض لفقد محبوب أو فوت مطلوب. وسببه الحرص على القنيات الجسمانية والشره إلى الشهوات البدنية والحسرة على ما يفقده أو يفوته منها"^(٤). والفرق بينه وبين الهم: "فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم، وإن كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن"^(٥).

والحزن مصيبة من المصائب، يصاب بها العبد في الدنيا كبقية المصائب، فينبغي له أن يدفعها بقدر المستطاع ويستعين بالله أن يذهبها عن قلبه، ويصبر على ما لم يستطع دفعه منها، ثم يحسب الأجر في ذلك عند الله، كما في الحديث: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ عَلِمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أُنْزِلَتْهُ فِي كِتَابِكَ،

^١ سورة الأنبياء: ٩٠.

^٢ انظر: لسان العرب لاس مطور ١٣/١١١، وتقديم اللغة للأزهري: ٢١٢/٤، والمفردات لأصمهازي: ص: ٢٣١.

^٣ التعريفات للجرجاني، ص: ٨٦.

^٤ تقديم الأخلاق وتطهير الأعراق، ص: ٢٢٤، لأحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، ط: الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، التحقيق: اس الحطيب.

^٥ الداء والدواء لاس القيم، ص: ٧٣.

أَوْ اسْتَثْنَتْ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِيعَ قَلْبِي، وَتُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»^(١).

وقد ورد النهي عنه أو نفيه في آيات عدّة، كما في قوله تعالى: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)^(٢). وقوله: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(٣). وقوله: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٤). قال تعالى: (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(٥). وقال تعالى في إبعاد الحزن الذي كان يصيب النبي صلى الله عليه وسلم بين الحين والآخر في أمر تكذيب المشركين له: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)^(٦). وقال أيضا في تسليته صلى الله عليه وسلم: (وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)^(٧). وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من الحزن في أدعيته التي كان يلزمها، فكان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ^(٨) الدِّينِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ»^(٩).

ويرى ابن القيم رحمه الله أن الحزن ليس مطلوباً لذاته، ولا هو من مقامات الإيمان، فقال: "اعلم أن الحزن من عوارض الطريق، ليس من مقامات الإيمان ولا من منازل السائرين. ولهذا لم يأمر الله به في موضع قط ولا أثنى عليه، ولا رتب عليه جزاء ولا ثواباً، بل نهى عنه في غير موضع ... فالحزن هو بلية من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهل الجنة: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ"^(١٠). فحمدوه على أن أذهب عنهم تلك البلية ونجّاهم منها"^(١١).

^١ أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٦/٦)، وابن حبان في صحيحه (٢٥٣/٣)، كتاب الرقائق، باب ذكر الأمر لمن أصابه حزن أن يسأل الله دهاه عنه وإبداله إياه فرحاً كلاهما عن ابن مسعود رضي الله عنه

^٢ سورة التوبة: ٤٠

^٣ سورة يونس: ٦٢

^٤ سورة آل عمران: ١٣٩

^٥ سورة البقرة: ١١٢

^٦ سورة الأنعام: ٣٣

^٧ سورة يونس: ٦٥

^٨ أي: "نقله، والصلح: الاعوجاج: أي ينقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء والاعتدال". النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٩٦/٣

^٩ أخرجه البخاري في صحيحه (٧٩/٨)، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من الحزن عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظه.

^{١٠} سورة فاطر: ٣٤

^{١١} طريق المحترفين لابن القيم، ص: ٢٧٨، وما بعدها.

ويمكن أن نجعل الحزن قسمين: الأسى على مصائب الدنيا ونوائبها، مما يترك في نفس الإنسان أثراً، ويتحول إلى حزن وهمّ. والآخر: حزن على تفريط الإنسان في امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، أو حزنه على عدم استطاعته للقيام ببعض الواجبات لتعذر الأسباب الموصلة إليها. فالأول هو الذي جاء في الآيات السابقة وغيرها النهي عنه أو نفيه، والثاني ربما يكون محموداً، إذا بعث الإنسان على الاستدراك لما فاتته من التقصير، أودفعه إلى الجدّ والاجتهاد فيما يستقبل من الزمان، وربما يكون مذموماً إذا أعاق المرء عن الاستدراك فيما قصر فيه، أو أصابه بالانطوائية، وعدم المشاركة في الأعمال النافعة، أو أورثه بعض العقد النفسية المستعصية علاجها. وفي هذا يقول الغزالي رحمه الله تعالى: "وأما الحزن المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه وبكاؤه على خطاياها"^(١). وهذا رأي أبي القاسم^(٢) القشيري، حين قال: "وتكلم الناس في الحزن فكلهم قالوا إنّما يحمد حزن الآخرة وأمّا حزن الدنيا فغير محمود"^(٣).

ومن هنا وصف الله تعالى المؤمنين بالحزن في مقام المدح عندما لم يمكنهم الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك؛ لعجزهم عن نفقات الخروج، ومتطلبات السفر، بالإضافة إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يستطع أن يوفر لهم ما يتجهّزون به، فصرفهم وأذن لهم بالعودة والتخلّف، فانصرفوا عنه تذرف دموعهم حزناً وأسفاً على عدم قدرتهم للخروج مع الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى: (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)^(٤). وهنا لم يمدحوا على نفس الحزن، وإنما مدحوا على ما دلّ عليه الحزن من قوّة الإيمان، حين تخلّفوا عن الغزو، لعجزهم عن النفقة، والله أعلم.

^١ إحياء علوم الدين للغزالي: ٢٧٦/٢

^٢ عبد الكريم بن هوار بن عبد الملك، الإمام أبو القاسم القشيري البسائري الراشد الصوفي، شيخ خراسان وأستاذ الجماعة، ومقدّم الطائفة. قال الذهبي: "وكان إماماً قدوة، معسراً، محدثاً، فقيهاً، متكلماً، نحويّاً، كاتباً، شاعراً". وكان له في الفروسية واستعمال السلاح يد بيضاء. توفي عام: أربع مائة وخمسة وستون. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ٢١٧/١٠، وما بعدها.

^٣ الرسالة القشيرية: ٢٦٨/١، لعبد الكريم بن هوار القشيري، ط: دار المعارف - القاهرة، التحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف.

^٤ سورة التوبة: ٩٢

آيات الترغيب في العزن

فالآيات القرآنية التي تؤثر في نفس المؤمن بالحزن والأسى هي في العموم تلك التي تؤكد على الالتزام بأوامر الله تعالى والاجتناب عن نواهيه، فيصاب المرء بالحزن والأسى إذا لم يلتزم بما أمر أو لم ينته عما زجر. كما أن آيات الوعيد والتخويف تورث الإنسان بالتأكيد الحزن والهم إذا لم يترجر عما تنهى عنه أو تحذر منه.

وقد حكى الله تعالى عن أهل الجنة أنهم حمدوه على أن أذهب عنهم ذلك الحزن الذي كان يبتاهم في الدنيا: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)^(١). وقال تعالى: (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)^(٢). وفي هذه الجملة ما يرحف القلوب، ويجزن النفوس، ويجعل المرء لا يهدأ له بال، كما حدث للصحابة في زمن نزول القرآن، فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: "لما نزلت من يعمل سوءًا يجز به بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى النَّكْبَةُ»^(٣) يُنْكَبُهَا، أَوْ الشُّوْكَةُ يُشَاكُهَا»^(٤). وقال تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ. وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)^(٥). أي: "يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له، "إنا نسيناكم" أي: إنا سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئًا ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة"^(٦).

^١ سورة فاطر: ٣٤

^٢ سورة النساء: ١٢٣

^٣ "وهي مثل العثرة يعثرها برجله وربما حرحت أصبعه وأصل الك الك والقلب". شرح النووي على مسلم: ١٦/١٣٠

^٤ أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٩٣/٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى

الشوكة يشاكها

^٥ سورة السجدة: ١٢-١٤

^٦ تفسير ابن كثير: ٦/٣٦٢

ومن هنا يعلم أن الحزن الذي ينتاب المؤمن في هذه الدنيا على تقصيره في الأمور الدينية محمود إذا كان يبعث على النهوض به في المستقبل، وتلافي ما بدر منه من التفريط في امتثال الأوامر واجتناب النواهي. وإلى هنا ينتهي الحديث عن الآثار النفسية التي تحدثها آيات الترغيب والترهيب، سائلين المولى عزّ وجلّ أن يرزقنا الرغبة، والرغبة.

وفي هذا المبحث تبين لنا أنّ الترغيب والترهيب مؤثر في النفوس البشرية من خلال إثارة العواطف والانفعالات المغذية لطاقت الإنسان، والمؤثرة إيجاباً أو سلباً في سلوك الإنسان، فالمحبة، والرجاء، والفرح، والرحمة مثلاً من الآثار النفسية الإيجابية، المترتبة على الترغيب، كما أن الخوف، والخشوع، والحزن من الآثار السلبية، الناتجة من الترهيب.

الفصل الثالث

موقف المفسرين من أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن الكريم

ويتضمن المباحث التالية :

المبحث الأول: الجمع بين الترغيب والترهيب في القرآن

المبحث الثاني: الترغيب والترهيب وأثره في التناسب بين الآيات

تقديم

اهتمّ المفسرون بأسلوب الترغيب والترهيب عند تناولهم لتفسير آيات الذكر الحكيم، لما آتته وارد في القرآن الكريم بوفرة هائلة على أوجه متعدّدة. ولما كان هذا الكتاب نازلاً لهداية البشرية، كما في قوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)^(١)، وكان أسلوب الترغيب والترهيب مشحوناً في معظم آياته لزم أن يكون هذا الأسلوب من أعظم وسائل الهداية، حيث إنّ تأثيره على القلوب جليّ، ودوره في الجوارح واضح، فلا يخلو حكم من أحكام القرآن إلا وتصحبه رغبة أو رهبة، فإذا تأثرت القلوب وألقي إلى صاحبها التعليمات الصحيحة، والعقائد السليمة استجابت الجوارح في أسرع وقت ممكن، فيكون امتثال الحكم سبب نجاة العبد في الدنيا والآخرة. وهذا منهج الأنبياء والرسل والدعاة إلى الله قاطبة في كل زمان ومكان، يرغبون المطيع في ثواب الله العاجل والآجل، ويحذرون العاصي من بأس الله وانتقامه في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)^(٢). وذلك أن قلوب العباد لا يمكن أن يتسلط عليها أحد من البشر غير خالقها وبارئها، فصارت الوسيلة الوحيدة للتأثير عليها التذكير بالمنافع والمضارّ في العاجل والآجل، وهو المسمى في اصطلاح المفسرين بمبدأ الترغيب والترهيب، أو الترجية والتخويف، أو الوعد والوعيد.

ومن هنا اعتنى المفسرون بهذا الجانب من التفسير، فوجدوا ثروة هائلة من أنواع الترغيب والترهيب في ثنايا الكتاب المجيد، فوظّفوها في توجيه معاني الآيات، والربط بين الآية السابقة واللاحقة، واستنتاج المعاني التربوية، والتوجيهات السديدة، التي ترمي إلى إصلاح الفرد والمجتمع. على أني أقصر في هذا الفصل على الأمور التالية: الجمع بين الترغيب والترهيب في القرآن، والربط بين الآيات المتتالية من خلال الترغيب والترهيب، والله الموفق للصواب.

^١ سورة البقرة: ١٨٥

^٢ سورة النساء: ١٦٥

المبحث الأول:

الجمع بين الترغيب والترهيب في القرآن الكريم

ويشتمل على المطلبين التاليين:

المطلب الأول: الحكمة في الجمع بين الترغيب والترهيب

المطلب الثاني: الموازنة بين الترغيب والترهيب

المطلب الأول: الحكمة في الجمع بين الترغيب والترهيب في القرآن

تمرّ بالنفوس البشرية فترات إقبال وإدبار ومدّ وجزر، وقد جبلت على الخوف من العقوبات والمكاره، كما فطرت على الطمع والرجاء للثواب والمكافآت. لذا كان منهج القرآن لهداية البشرية أن يثير هذه الكوامن الفطرية للنفس، ويوظفها في الحثّ على الخير وعمل البر، وفي الزجر عن الشرّ والاجتناب عن الفواحش والمنكرات. وللجمع بين الترغيب والترهيب في القرآن حكم متعددة وأغراض كثيرة، نقتصر على أهم ما ذكره المفسرون من ذلك:

١- أن يبقى الإنسان راغباً راهباً، لا يقنط من رحمة الله ولا يأمن من مكر الله. فلا اكتفاء بالترغيب يتولد منه الاجترار على المعاصي والتهاون في الفرائض، كما أن الاقتصار على الترهيب ينتج منه اليأس من روح الله، وهو باب من أبواب الشيطان، يؤدّي إلى التماادي في الفسق، وعدم المبالاة بأمر الدين والأخلاق. وفي ذلك يقول ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)^(١): "وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف"^(٢). ويقول الشوكاني أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)^(٣): "ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة، أمره بأن يذكر لهم شيئاً مما يتضمن التحويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين"^(٤).

٢- تنشيط عبادة المؤمنين لطاعته، وتثبيط الكافرين أو الفاسقين عن المعاصي، كما قال الشوكاني عند تفسيره لقوله تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٥): "لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقّب بجزاء

^١ سورة الأعراف: ١٦٧

^٢ تفسير ابن كثير: ٤٩٧/٣

^٣ سورة الحجر: ٤٩ ، ٥٠

^٤ فتح القدير للشوكاني: ١٦١/٣

^٥ سورة النقرة: ٢٥

المؤمنين، ليجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، كما هي عادته سبحانه في كتابه العزيز، لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته، وتنشيط عباده الكافرين عن معاصيه^(١).

٣- أن مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضرر، والطريق إلى تحصيل هذين الأمرين يتأتى بالجمع بين الترغيب والترهيب، فبامثال ما يُرَغَّب فيه الإنسان يحصل له جلب المنافع الدنيوية والأخروية، كما أن بالانتهاز عما يُحَذَّر منه الإنسان تندفع عنه المضار العاجلة والآجلة. فالعاقِل يطمح إلى تحصيل المنافع، وتجنّب المضار. وفي ذلك يقول الشنقيطي^(٢)، عند تفسيره لقوله تعالى: (وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)^(٣): "فجمع بين الوعد والوعيد ليعظم رجاء الناس في فضله، ويشد خوفهم من عقابه وعذابه الشديد، لأن مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضرر، فاجتماع الخوف والطمع أدعى للطاعة، وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة"^(٤).

٤- إيفاء حق الدعوة بالتشهير والإنذار. وذلك أن الدعوة إذا اقتضت على الترغيب أو الترهيب فقط لا يمكن أن تؤتي ثمارها المرجوة، وهو التأثير على قلوب الأفراد والجماعات. إذن فلا بد من سلوك طريق الجمع بين الترغيب والترهيب للقيام بدعوة متكاملة يصحبها التأثير والتغيير. وفي ذلك يقول أبو السعود عند تفسيره لقوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)^(٥): "أولئك الموصوفون بما ذكر من الكفر وتكذيب الآيات أصحاب الجحيم: ملابسوها ملابس مؤبدة. من السنة السنينة القرآنية شفع الوعد بالوعيد والجمع بين الترغيب والترهيب إيفاء لحق الدعوة بالتبشير والإنذار"^(٦).

^١ فتح القدير للشوكاني: ٦٤/١

^٢ التبيح محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي. ولد بشنقيط، وتعلم بها على يد منايح عصره. حج واستقر مدرسا في جامعات المملكة العربية السعودية. وكان يتمتع بأخلاق ومرايا فاضلة أكسبته الثقة والاحترام، وكان أدبيا صليعا. له مؤلفات بعيسة، من أشهرها: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، وآداب الحجت والمناظرة، ودفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب. توفي رحمه الله في مكة المكرمة عام ثلاثة وتسعين وتلاثمائة وألف للهجرة، ودفن بها. انظر: موسوعة مواقف السلف للمعراوي ١/١٠، وما بعدها.

^٣ سورة الرعد: ٦

^٤ أضواء البيان للشنقيطي: ٢٢٣/٢

^٥ سورة المائدة: ١٠

^٦ تفسير أبي السعود: ١٢/٣

المطلب الثاني: الموازنة بين الترغيب والترهيب في القرآن

الجمع بين الترغيب والترهيب أسلوب قرآني في الدعوة إلى الله، والتأثير على القلوب. فالداعية الناجح هو الذي يوازن بين الترغيب والترهيب، فيرغب الناس في رحمة الله وعظيم إحسانه من غير أن يوصلهم إلى التواكل والتفريط في طاعته، كما يخوفهم من عذاب الله وشدة انتقامه من غير أن يوقعهم في القنوط من رحمته والتجرؤ على معاصيه. وهذا هو الحال الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن دائما بين الخوف والرجاء، فإذا غلب أحدهما عليه أدي إلى المحذور الذي نَبهنا عليه في المطلب السابق. ويظهر هذا التوازن جليا من منهج القرآن الكريم في تناول مبدأ الترغيب والترهيب. والمتتبع لهذا المنهج يرى واضحا كيف تم التوازن بين الترغيب والترهيب والترجية والتخويف في معظم ما ورد من هذا النوع في القرآن الحكيم. وسأعرض أمثلة لذلك من آيات الذكر الحكيم في النقاط التالية:

١- قد يذكر الله الترغيب في أول الآية، ثم يعقبه بالترهيب في آخرها، كما في قوله تعالى: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ^(١)). وكذلك قوله تعالى: (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ^(٢)). وقوله تعالى: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ^(٣)).

٢- وقد يبدأ الله بالترهيب في الآية الواحدة ثم يردف ذلك بالترغيب في آخرها، كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(٤)). وقوله تعالى: (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ

^١ سورة محمد: ١٥

^٢ سورة الأنعام: ١٤٧

^٣ سورة الرعد: ٣٥

^٤ سورة فصلت: ٤٠

وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ^(١). وقال الشيخ الطاهر ابن عاشور: "فتضمنت الآية وعدا للمتقين ووعيدا للفاسقين. والمراد من نفي الاستواء في مثل هذا الكناية عن البون بين الشقيين"^(٢). وقوله تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)^(٣).

٣- وكثيرا ما يرد الوعد والترغيب في آية، ثم يرد الوعيد والترهيب بعده مباشرة في الآية التي بعدها، ليبقى العبد بين الرغبة والرغبة والخوف والرجاء. فعلى سبيل المثال يصف الله سبحانه وتعالى حال المؤمنين في دخولهم الجنة، وما يُحَلَّون به من الأساور واللؤلؤ والحرير، وفرحهم بذلك، شاكرين الله تعالى أن أزال عنهم الهموم والأحزان، وأنزلهم دار النعيم المقيم، لا ينالهم فيها تعب ولا عناء، فقال عز من قائل: (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)^(٤). ثم يذكر الله جلّ وعلا بعد هذه الآيات فورا حال الذين كفروا في نار جهنم، وأنه لا يُقَدَّرُ عليهم الموت فيستريحوا، ولا يخفف عنهم العذاب، فيستجموا. وهم في هذه الحالة يرفعون أصواتهم بالصراخ والعيول، يتمنون الخروج منها ليتداركوا ما فاتهم في الحياة الدنيا من الإيمان والعمل الصالح، فقال عز وجل: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)^(٥).

٤- وعلى عكس ما سبق فقد يرد الوعيد والتخويف في آية من الآيات، ثم يعقبها الترغيب والتبشير في الآية التالية، كما قال تعالى في ثياب أهل النار التي تقطع وتفصل لهم، والحميم الساخن الذي يصب من فوق رؤوسهم؛ ليصهر ما في بطونهم، وجلودهم، مع المقامع الحديدية، التي تضرب بهم: (هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ

^١ سورة الحشر: ٢٠

^٢ التحرير والتوير لاس عاشور: ١١٤/٢٨ - ١١٥

^٣ سورة آل عمران: ١٨٥

^٤ سورة فاطر: ٣٣-٣٥

^٥ السورة السابقة: ٣٦، ٣٧

يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ. وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ. كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ^(١). ثم أخبر المولى بعد تلك الآيات مباشرة عن أهل الجنة، وبساتينهم، التي تجري من تحتها الأنهار، وملابسهم التي فصلت من الحرير، مع تحليهم بالذهب واللؤلؤ، وقد هداهم الله إلى الطيب من القول، والصراط الحميد، فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)^(٢).

٥- وإذا ذكر الله صفة من صفاته التي تنبئ عن الرحمة والعفو والمغفرة أردفها بصفة أخرى من صفاته الدالة على العذاب والعقاب الشديد. كما في قوله تعالى: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)^(٣). يقول السعدي في تفسير الآية: "فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائما بين الخوف والرجاء، والرغبة والرغبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرغبة والإقلاع عنها"^(٤). وقوله تعالى في الجمع بين اسمه الغافر المقتضي للترغيب، وبين اسمه شديد العقاب المقتضي للترهيب: (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّولِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)^(٥).

٦- وكثيرا ما يرد في كتاب الله المجيد أحد صفاته أو أفعاله المنبئة عن شدة العقاب وسرعة الحساب ثم يأتي بعدها صفة من صفات الله الدالة على سعة الرحمة وشمول المغفرة، مما يؤدي إلى الموازنة بين الخوف والرجاء والرغبة والرغبة. ومن ذلك قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٦). يقول الرازي في تفسير الآية: "وهذا الكلام بلغ في شرح الإعذار والإنذار

^١ سورة الحج: ١٩-٢٢

^٢ السورة السابقة: ٢٣

^٣ سورة الحجر: ٤٩، ٥٠

^٤ تفسير السعدي، ص: ٤٣٢

^٥ سورة عاfer: ٣

^٦ سورة الأنعام: ١٦٥

والترغيب والترهيب إلى حيث لا يمكن الزيادة عليه^(١). ومثل ذلك قوله تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٢). وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الترغيب والترهيب في توازن واتساق، فلا غلبة لجانب الترغيب، حتى يؤدي إلى التواكل، والتمني لرحمة الله تعالى من غير جد ولا اجتهاد، ولا ترجيح لجانب الترهيب، حتى لا يُصاب المرء باليأس والقنوط، فتمت الموازنة بينهما، ليبقى المؤمن دائما بين الخوف والرجاء، كالجنّاحين للطائر، يجب أن يكونا متوازنين، ليستطيع القيام بمهمة الطيران، فكذلك العبد يكون متوازنا بين الخوف والرجاء ليواصل سيره إلى الله تعالى، حتى يلقاه في دار كرامته، ومستقرّ رحمته. ونسأل الله العفو الرحيم الفوز بالجنة، والنجاة من النار، وهو أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

^١ تفسير الرازي: ١٤/١٩٣

^٢ سورة المائدة: ٩٨

المبحث الثاني

الترغيب والترهيب وأثره في التناسب بين الآيات

ويشتمل على المطالب التالية :

المطلب الأول: (المناسبة، مفهوما، وفائرتها، وأوجه الارتباط بين الآيات

المطلب الثاني: (اتجاهات المفسرين في المناسبة بين الآيات

المطلب الثاني: أثر الترغيب والترهيب في المناسبة بين الآيات

المطلب الأول: المناسبة، مفهومها، وفائدتها، وأوجه الارتباط بين الآيات.

المناسبة لغة واصطلاحاً:

المناسبة لغة: مُفَاعَلَةٌ من النَّسَب وهو اتصال شيء بشيء. ومنه النَّسَب، سُمِّيَ لِاتِّصَالِهِ وَلِلاتِّصَالِ بِهِ. وَالتَّنَاسُبُ الْقَرِيبُ، وَبَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ، وَهَذَا يُنَاسِبُ هَذَا أَيْ يَقَارِبُهُ شَبْهًا. يُقَالُ: تَنَاسَبَ فُلَانًا: شَرِكَهُ فِي نَسَبِهِ وَشَاكَلَهُ. وَيُقَالُ: تَنَاسَبَ الْأَمْرُ فُلَانًا لِأَنَّهُ وَوَافَقَ مَزَاجَهُ^(١). والمناسبة بين الآيات في اصطلاح المهتمين بعلوم القرآن: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني"^(٢).

فوائد معرفة المناسبة، وأوجه الارتباط بين الآيات

لمعرفة المناسبة بين الآيات فوائد جمّة وحكم عديدة، من أهمها:

١- إدراك اتساق المعاني، وإحكام بيانه، وانتظام كلامه، وروعة أسلوبه، كما قال الإمام الزركشي: "وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف، حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"^(٣).

٢- زيادة الإيمان ورسوخه في القلب عند ملاحظة إعجاز القرآن عن طريق تناسب آياته وسوره، كما قال البقاعي: "وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللبّ، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين: أحدهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب"^(٤).

٣- إظهار معجزة القرآن الكريم، حيث إنه نزل في مدة طويلة، وأماكن متفرقة، غير أنه متناسب في ترتيبه وومنسجم في تراكيبه وجمله وآياته، مما يدلّ دلالة واضحة على أنّه من لدن حكيم عليم لا ينسى ولا يغفل طرفه عين. وقد حكى الزركشي عن بعض المحققين من مشايخه أنه قال: "قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب

^١ انظر: معجم مقاييس اللغة لاس فارس ٤٢٣/٥، والمصاحح المير للفيومي ٦٠٢/٢، والمعجم الوسيط: ٩١٦/٢

^٢ البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٣٦/١

^٣ المصدر السابق: ٣٦/١

^٤ نظم الدرر للبقاعي: ١٠/١، وما بعدها

أفها على حسب الوقائع تزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا. فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف"^(١).

والآية تتعلق بما قبلها من الآيات على وجه يجمع بينها من وجوه الارتباط، كالمقابلة بين صفات المؤمنين وصفات المشركين، ووعد هؤلاء ووعد أولئك، وذكر آيات الرحمة بعد آيات العذاب، وآيات الترغيب بعد آيات الترهيب، وآيات التوحيد والترهيب بعد الآيات الكونية. وقد تكون المناسبة في مراعاة حال المخاطبين كقوله تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)^(٢). فجمع بين الإبل والسماء والجبال مراعاة لما جرى عليه الإلف والعادة بالنسبة إلى المخاطبين في البادية، حيث يعتمدون في معاشهم على الإبل، فتصرف عنايتهم إليها، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بالماء الذي ينبت المرعى وترده الإبل، وهذا يكون بتزول المطر، وهو سبب تقلب وجوههم في السماء، ثم لا بد لهم من مأوى يتحصنون به ولا شيء أمنع كالجبال^(٣).

ومن هنا كان الترغيب والترهيب وجها مهما من أوجه الارتباط بين الآيات، كما سيأتي تفصيله في المطلب الثالث من هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

^١ البرهان في علوم القرآن للبركشي: ٣٧/١

^٢ سورة الغاشية: ١٧-٢٠

^٣ انظر: مباحث في علوم القرآن، ص: ٩٨، لماع بن خليل القطان، ط: الثالثة، مكتبة المعارف للستر والتوزيع، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

المطلب الثاني: اتجاهات المفسرين في المناسبة بين الآيات

هذا، وقد اختلفت آراء المفسرين في المناسبات بين من يمنعها منعاً باتاً ويجعلها من التكلف المنهي عنه، وبين من يدعو إليها ويجعلها من أحسن العلوم، وبين متوسط بين الاتجاهين يستحسن في حالة دون أخرى، كما يتضح من التفصيل التالي:

الاتجاه الأول: ويمثله الشوكاني، حيث منع البحث عن المناسبة، وألقى باللائمة على المفسرين الذين يهتمون بهذا الأمر، فذكر في تفسيره كلاماً مطولاً في هذا الشأن، فقال: "اعلم أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا بسباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاؤوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتزه عنها كلام البلغاء، فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته"^(١).
وردّ على القائلين بالمناسبة من أوجه عدة^(٢)، لخصتها فيما يلي:

أولاً: أن هذا القرآن لم يزل يتزل مفرّقاً على حسب الحوادث المقتضية لتزوله منذ بدء الوحي إلى أن انقطع بموته صلى الله عليه وسلم، وإن هذه الحوادث كانت متخالفة أحياناً، ومتناقضة في بعض الأحيان، كالتحريم والتحليل، والكلام مع المسلمين، ومع الكافرين. وإذا كانت أسباب التزل متباعدة هذا التباين، فالقرآن النازل فيها مختلف كاختلافها، ومتناقض كتناقضها، وهذا محال، فثبت أنّه لا يطلب التناسب بين الشيئين المختلفين.

ثانياً: هذا الأمر يفتح باب الشك، ويوسّع دائرة الريب على من في قلبه مرض من جهل أو قصور. فإنّه إذا سمع من يقول بالتناسب ظنّ أن القرآن لا يكون بليغاً ولا معجزاً إلا إذا ظهر الوجه المقتضي للمناسبة. ثم إذا نظر في التناسب الذي أظهره وجده تكلفاً محضاً، وتعسفاً بيناً، فانقذ في قلبه ما كان عنه في عافية وسلامة.

^١ فتح القدير للشوكاني: ٨٥/١

^٢ انظر في تفصيل هذه الوجوه: المصدر السابق: ٨٦/١، وما بعدها.

ثالثاً: وأي معنى لطلب المناسبة بين الآيات، مع العلم قطعاً أنه قد تقدّم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخراً، وتأخّر ما أنزله الله متقدّماً، فإنّ هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة، وما أقلّ نفع مثل هذا وأنزر ثمرته، بل هو من تضييع الأوقات، وإنفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله ولا على من يقف عليه من الناس.

رابعاً: وقد علم كلّ مقصّر وكامل أنّ الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنّه عربي، وأنزله بلغة العرب، وسلك فيه مسالكهم في الكلام، وجرى به مجاريهم في الخطاب، وأنّ خطيبهم كان يقوم المقام الواحد، فيأتي بفنون متخالفة، وطرائق متباينة، وكذلك شاعرهم. فالبحت عن المناسبات بين هذه الفنون ضرب من التلاعب، ونوع من العبث.

الاتجاه الثاني: ويمثل هذا الاتجاه من يقول بالمناسبة بين الآيات، ويحاول الربط بين الآية والأخرى بأدنى مناسبة، وهم عدد من المفسرين، من بينهم الرازي، وذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)^(١)، فقال: "اعلم أن الأمانة عبارة عما إذا وجب لغيرك عليك حق، فأدّيت ذلك الحق إليه، فهذا هو الأمانة، والحكم بالحق عبارة عما إذا وجب لإنسان على غيره حق، فأمرت من وجب عليه ذلك الحق، بأن يدفعه إلى من له ذلك الحق. ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع، ودفع المضار ثم يشتغل بغيره، لا جرم أنه تعالى ذكر الأمر بالأمانة أولاً، ثم بعده ذكر الأمر بالحكم بالحق، فما أحسن هذا الترتيب، لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"^(٢). ومنهم برهان الدين البقاعي، حيث ألف تفسيره المسمى بـ "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" على وجود التناسب بين سور القرآن وآياته، وأنه وسيلة لإظهار معجزة القرآن في البلاغة والبيان، فقال: "فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني، لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد

^١ سورة النساء: ٥٨

^٢ تفسير الرازي: ١١٠/١٠

ذلك معرفة المقصود من جميع جملها؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو^(١).

الاتجاه الثالث: وهو اتجاه يقول بالمناسبة في حال دون حال، وموقع دون موقع آخر، وذلك إذا وقع الكلام في أمر واحد مرتبط أوله بآخره، بخلاف ما إذا وقع على أسباب مختلفة ليس بينها اتصال ولا ترابط. ويمثل هذا الاتجاه الشيخ عز الدين بن عبد السلام^(٢)، وكان يرى أن المناسبة علم حسن ولكن يشترط في ذلك حسن ارتباط الكلام، بأن يقع في أمر متحد، مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر. ووصف عملية البحث عن الربط مع اختلاف الأسباب بالتكلف، وأنه لا يستطاع ذلك إلا برباط ركيك، يصاب عنه حسن الحديث، فضلا عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام متعددة، ولأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض، كتصرف الملوك والحكام والمفتين، وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة، وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض، مع اختلافها في نفسها، واختلاف أوقاتها^(٣).

الخلاصة: ويبدو أن الاتجاه الثالث هو الذي ينبغي اعتماده في تفسير كلام الله، لأن علم المناسبة يفرض وجوده في كثير من الآيات التي تظهر فيها وجه المناسبة بينها بأدنى تأمل، إلا أنه ينبغي للباحث ألا يتكلف فيما لم يظهر فيه وجه المناسبة بعد إعمال الفكر وإمعان النظر. وفي ذلك يقول الاستاذ مصطفى مسلم^(٤): "ولا شك أن هذا العلم دقيق المسالك خفي المدارك، وهو من العلوم التي تحتاج إلى بذل الجهد في التتبع والاستقصاء اللغوي لدلالات الألفاظ القرآنية، والإحاطة

^١ نظم الدرر للقاعي: ٦/١

^٢ عز الدين بن عبد السلام السلمي أبو محمد شبح الإسلام، سلطان العلماء. قدم مصر، فأقام بها أكثر من عشرين سنة؛ ناشر العلم، أمرا بالمعروف، ناهيا للمعكر. وله مصنفات كثيرة منها: تفسير القرآن، والفتاوى الموصلية، والقواعد الكبرى والصغرى، وبيان أحوال الناس يوم القيامة. وقال ابن كثير في تاريخه: انتهت إليه رئاسة المذهب، وقصد بالفتاوى من الآفاق، ثم كان في آخر عمره لا يتقيد بالمذهب، بل اتسع نطاقه، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده. توفي بمصر سنة ستين وستمائة. انظر: حسن المحاضرة للسيوطي: ٣١٤-٣١٦

^٣ انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣٧/١، والإتقان في علوم القرآن ٣٧٠/٣، لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م. التحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ٣٧٠

^٤ مصطفى مسلم، سوري الجنسية، من مواليد عام ١٩٤٠م، وقد حصل على الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من جامعة الأزهر - كلية أصول الدين، وعمل أسادا مشاركا في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، ويعمل الآن أستاذ في جامعة الشارقة. وله مؤلفات عديدة، من بينها: مباحث في إعجاز القرآن، ومباحث في التفسير الموضوعي، وتربية الأسرة المسلمة في ضوء سورة التحريم، والثقافة الإسلامية: تعريفها، مصادرها، محالاتها، تحدياتها. انظر موقع الألوكة: <http://www.alukah.net/web/muslim/cv>

بأسباب التزلزل، والتوسع في أفانين علم البلاغة والأساليب البيانية، وفوق كل ذلك ينبغي أن يكون الباحث ذا حسّ مرهف، ونفس شفافة وذكاء لمّاح؛ ليدرك سرّ هذا الترتيب للآيات التي وضعت بجوار بعضها. وقد أكدت الأخبار الصحيحة عن المعصوم أن الفاصل الزمني بينها يتجاوز السنوات العديدة أحياناً. ونحن نسلم أن بعض العلماء الباحثين في وجوه المناسبات قد تكلفوا أحياناً في استخراج وجه المناسبة، ولكنّ تكلفتهم هذا لا ينبغي أن يكون ذريعة لردّ الوجوه المعقولة المقبولة التي ذكرها الآخرون. ونؤمن إيماناً جازماً أن ترتيب الآيات في السور كان بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتبة الوحي، ولم يكن لأحد رأي واجتهاد في ذلك. ونقول إن هذا الترتيب الموحى به لم يكن جزافاً ولا اعتباطاً أو عبثاً ونثره كلام الباري سبحانه وتعالى عن كل ذلك. كما نقول إن القول بوجود المناسبات أمر يحتمل الاعتقاد بتزيه كلام الله سبحانه وتعالى عن الفوضى والتناقض^(١). ولا يخفى على الناظر سداد هذا الرأي في علم المناسبات، فلا النفي الكليّ يتجّه، كما قاله الشوكاني، وخاصّة في الأماكن التي تظهر فيه المناسبة من غير تكلف، ولا يكون طلب المناسبة بين جميع الآيات مقبولا، كما فعله البقاعي، بل الذي ينبغي سلوكه مع كتاب الله تعالى هو الاهتمام بالمناسبة فيما أمكن، من غير تكلف، ولا طلب للأوجه البعيدة التي يترّ عليها عن كلام الله عزّ وجلّ، كما قاله الإمام عزّ الدين بن عبد السلام، والله أعلم.

^١ مباحث في التفسير الموضوعي، ص: ٦٥-٦٦، لمصطفى مسلم، ط: الرابعة، دار القلم - دمشق، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

المطلب الثالث: أثر الترغيب والترهيب في المناسبة بين الآيات

القران الكريم كتاب المعجزة الخالدة، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. فكما أنه معجز في ألفاظه وتراكيبه، فهو كذلك معجز في بيانه ومعانيه في اتساق وتناسب وترتيب منقطع النظير، حيث ترد الكلمة متناسبة مع الكلمات قبلها أو بعدها، وكذا الجملة مع الجمل قبلها أو بعدها. ومن هنا اهتمّ المفسرون بإظهار الأوجه التي تكون سببا لربط الآيات بعضها ببعض، وعدّوا ذكر آيات الترهيب بعد آيات الترغيب، أو آيات الترغيب بعد آيات الترهيب من أعظم أوجه الربط بين الآيات. فإذا وردت في القرآن آية تتحدث عن أحوال المؤمنين وثوابهم الحسن في العاجل والآجل تلوها في الغالب آية أخرى تسرد أحوال المجرمين وما ينتظرهم من النكال والعقاب، جمعا بين الترغيب والترهيب في التأثير على قلوب العباد.

وعلى هذا وظّف المفسرون مبدأ الترغيب والترهيب، وجعلوه أساسا للربط بين الآيات التي يوجد في دلالاتها نوع من المقابلة، كذكر آيات الرحمة مع آيات العذاب، ونعيم الجنة مع جحيم النار، وأحوال المؤمنين مع أحوال المجرمين، وإنجاء النبيين وأتباعهم مع إهلاك المخالفين والمكذبين. وفي ذلك يقول الرازي: "اعلم أن عادة الله في ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع على أحسن الوجوه، وهو أنه يذكر شيئا من الأحكام، ثم يذكر عقبيه آيات كثيرة في الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ويخلط بها آيات دالة على كبرياء الله وجلال قدرته وعظمة إلهيته، ثم يعود مرة أخرى إلى بيان الأحكام، وهذا أحسن أنواع الترتيب وأقربها إلى التأثير في القلوب، لأن التكليف بالأعمال الشاقة لا يقع في موقع القبول إلا إذا كان مقرونا بالوعد والوعيد، والوعد والوعيد لا يؤثر في القلب إلا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد، فظهر أن هذا الترتيب أحسن الترتيبات اللائقة بالدعوة إلى الدين الحق"^(١).

وفيما يلي أذكر بعض الأمثلة، التي أظهرت طائفة من المفسرين أن وجه الربط بين الآيات فيها الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

١- ذكر حال الكافرين وجزائهم، ثم حال المؤمنين وثوابهم، كما أشار إلى ذلك الإمام أبو حيان رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي

^١ تفسير الرازي: ٢٣٢/١١-٢٣٣

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(١): "وذلك أنه لما ذكر ما تضمن ذكر الكفار وما تؤول إليه حالهم في الآخرة، وكان ذلك من أبلغ التخويف والإنذار، أعقب ما تضمن ذكر مقابلتهم وأحوالهم وما أعد الله لهم في الآخرة من النعيم السرمدي. وهكذا جرت العادة في القرآن غالبا متى جرى ذكر الكفار وما لهم أعقب بالمؤمنين وما لهم وبالعكس، لتكون الموعظة جامعة بين الوعيد والوعد واللفظ والعنف"^(٢).

٢- المقارنة بين الكافر والمؤمن في إنفاق النفيس من الأموال. قال أبوحيان رحمه الله تعالى عند تفسيره لقوله تعالى: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)^(٣): "مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه لما أخبر عمن مات كافرا أنه لا يقبل ما أنفق في الدنيا، أو ما أحضره لتخليص نفسه في الآخرة على الاختلاف الذي سبق، حضّ المؤمن على الصدقة وبين أنه لن يدرك البر حتى ينفق مما يحب"^(٤).

٣- مصير الكافرين بعد ذكر مع مصير المتقين في الآخرة، وذلك في قوله تعالى: (لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)^(٥). قال أبو السعود رحمه الله: "بيان لقبح ما أوتي الكفرة من حظوظ الدنيا وكشف عن حقارة شأنها وسوء مغبتها إثر بيان حسن ما أوتي المؤمنون من الثواب"^(٦).

٤- الترغيب في رحمة الله بعد أن كادت النفوس تيأس من روح الله من كثرة الزواجر والمخوفات، كما في قوله تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)^(٧). قال الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله في تفسير الآية: "أطنبت آيات الوعيد بأفناها السابقة إطنابا يبلغ من نفوس سامعيها أي مبلغ من الرعب والخوف، على رغم تظاهرها بقلة الاهتمام بها. وقد يبلغ بهم وقعها مبلغ اليأس من

^١ سورة القرة: ٢٥

^٢ البحر المحيط لأبي حيان: ١٧٨/١-١٧٩

^٣ سورة آل عمران: ٩٢

^٤ البحر المحيط لأبي حيان: ٢٦٠/٣

^٥ سورة آل عمران: ١٩٦، ١٩٧

^٦ تفسير أبي السعود: ١٣٥/٢

^٧ سورة الرمر: ٥٣

سعي ينجيهم من وعيدها، فأعقبها الله بيعث الرجاء في نفوسهم للخروج إلى ساحل النجاة إذا أرادوها على عادة هذا الكتاب المجيد من مداواة النفوس بمزيج الترغيب والترهيب^(١).

٥- بيان حال الكفرة المجرمين في الدارين، وأنهم لا يخرجون من قبضة الله في الدنيا وأن مصيرهم إلى النار في الآخرة. وذلك بعد ذكر حال من أطاع الله ورسوله، وفوزه بالرحمة المطلقة التي هي عنوان سعادة الدارين، فقال تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ)^(١). يقول أبو السعود في تفسير الآية: "لما بين حال من أطاعه صلى الله عليه وسلم وأشير إلى فوزه بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين عقب ذلك ببيان حال من عصاه صلى الله عليه وسلم ومآل أمره في الدنيا والآخرة بعد بيان تنافيه في الفسق تكميلاً لأمر الترغيب والترهيب"^(٢).

٦- ذكر حال المنافقين وما ينتظرهم من العقاب والهلاك في الدارين، ثم سرد حال المؤمنين، وما وعدهم الله به من الرحمة والنعيم المقيم، ترغيباً لهؤلاء في التوبة والرجوع عما هم فيه من المخالفة والعناد. وفي هذا يقول المولى جل في علاه: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٤). قال البقاعي: "ولما بين سبحانه أن المنافقين بعضهم من بعض وما توعدهم به وما استتبعه من تهديدهم بإهلاك من شأهوه، وختم بما سبب هلاكهم من إصرارهم وعدم اعتبارهم، عطف ببيان حال المؤمنين ترغيباً في التوبة، وطعماً في مثل حالهم"^(٥).

٧- إنحاء الرسل وأتباعهم من عذاب الدنيا والآخرة، وإهلاك مخالفهم من الكفرة والمجرمين في هذه الدنيا، والوعيد لهم بعذاب الآخرة، كما في قوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَتِلْكَ آيَاتُ الَّتِي نَحْكُمُ بِهَا الْأَمْرَ وَالْأَمْرَ إِنَّا لَهُ حَكِيمُونَ) (هود: ٦١). وَأَتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا

^١ التحرير والتطوير لاس عاصور: ٢٤/٣٩-٤٠

^٢ سورة البور: ٥٦، ٥٧

^٢ تفسير ألي السعود: ١٩٢/٦

^٤ سورة النوبة: ٧١

° نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للقاعي: ٥٤٣/٨

رَبَّهُمْ أَلَّا بُغْدًا لِعَدِ قَوْمٍ هُودٍ^(١). يقول ابن عاشور: "وجملة ونجّيناهم من عذاب غليظ معطوفة على جملة ولما جاء أمرنا. والتقدير أيضا: نجّيناهم من عذاب شديد، وهو الإنجاء من عذاب الآخرة، وهو العذاب الغليظ. ففي هذا منة ثانية على إنجاء ثان، أي نجّيناهم من عذاب الدنيا برحمة منا ونجّيناهم من عذاب غليظ في الآخرة، ولذلك عطف فعل نجّيناهم على نجّينا، وهذان الإنجاءان يقابلان جمع العذابين لعاد في قوله: وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة"^(٢).

٨- المقارنة بين حال الأشقياء والسعداء، وذكر مصيرهم في الجنة أو النار. قال تعالى: (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ. وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَيُنَادُونَ فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ)^(٣). يكون أهل المحشر صنفين: شقيّ معذب في النار، وسعيد منعم في الجنان، فأما الأشقياء فهم مستقرّون في جهنّم، ولهم من الهمّ والكرب زفير وشهيق، لما يعانون من عذاب النار، وهم ماكثون فيها على الدوام. وأما أهل السعادة أتباع الرّسل، فمأواهم الجنة، ماكثين فيها أبدا، ونعيمهم فيها عطاء غير منقطع ولا ممنوع، ولكنه ممتد إلى غير نهاية^(٤).

وإلى هنا انتهى البحث عن المناسبة بين الآيات، وعلاقتها بالترغيب والترهيب، وأظهرت فيه موقف المفسرين، واستخدامهم هذا الوجه كثيرا في طلبهم لأوجه الربط بين الآيات، إظهارا لتناسبها، وتنبیها على اتّساقها، والله أعلم.

^١ سورة هود: ٥٨-٦٠

^٢ التحرير والتنوير لاس عاشور: ١٠٤/١٢

^٣ سورة هود: ١٠٥-١٠٨

^٤ انظر: التفسير الوسيط للرحيلي ١٠٧٦/٢-١٠٧٧

الباب الثاني

أنواع الترغيب والترهيب في القرآن الكريم وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع

وفيه الفصول التالية:

- ١ - الترغيب والترهيب بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا
- ٢ - الترغيب والترهيب بأحوال القبر والقيامة ومصير العباد
- ٣ - الترغيب والترهيب بذكر أحوال الأمم السابقة
- ٤ - الترغيب في الطاعات والترهيب من المعاصي
- ٥ - أثر أنواع الترغيب والترهيب في إصلاح الفرد والمجتمع

الفصل الأول

الترغيب والترهيب بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا

وفيه تمهيد وأربعة مباحث:

التمهيد: مفهوم الأسماء والصفات، وتوقيفيتها، وموقف أهل السنة فيهما، وأن معرفتهما

من أسباب تقوية الإيمان

١ - الأسماء والصفات الدالة على العلم والإحاطة وإفادتها للترغيب والترهيب

٢ - الأسماء والصفات المتضمنة للمغفرة والرحمة وإفادتها للترغيب والترهيب

٣ - الأسماء والصفات المشتملة على كمال القدرة، ونفاذ المشيئة، والعظمة وإفادتها للترغيب والترهيب

٤ - الأسماء والصفات الدالة على الحكم والعدل، والثواب والعقاب، وإفادتها للترغيب والترهيب

التمهيد

أولاً: الاسم لغة واصطلاحاً:

الاسم لغة: مشتق من وَسَمَ وَسِمَةً، وهو ما يوضع على الشيء يعرف به. وهو مشتق من سَمَوْتُ سُمُوًّا، والسمو: تنويه ورفع. وجمعه أسماء. واسم الشيء: علامته، وَسَمَاهُ فُلَانًا، وَسَمَاهُ بِهِ، وَأَسْمَاهُ إِيَّاهُ، وَتَسَمَّى بِكَذَا. وَتَسَمَّى بِالْقَوْمِ، وَتَسَمَّى إِلَيْهِمْ: انتسب^(١). وفي الاصطلاح: "ما دلَّ على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة"^(٢).

ثانياً: الصفة لغة واصطلاحاً:

والصفة لغة مشتقة من وَصَفَ، تقول: وَصَفْتُهُ أَصِفُهُ وَصْفًا، وهو تحلية الشيء. وَالصِّفَةُ: الأمانة اللازمة للشيء. والصفة: الحالة التي يكون عليها الشيء من حليته ونعته كالسواد والبياض والعلم والجهل^(٣). وفي الاصطلاح: "هي الاسم الدال على بعض أحوال الذات، وذلك نحو طويل وقصير وعاقل وأحمق، وغيرها. وهي الأمانة اللازمة بذات الموصوف الذي يعرف بها"^(٤).

ثالثاً: الفرق بين الأسماء والصفات:

والفرق بينهما أن الاسم ما دلَّ على الذات، وما قام بها من صفات. وأما الصفة فتدل على ما قام بالذات من النعوت والأفعال، سواء كانت هذه معان ذاتية كالعلم والقدرة، أو فعلية كالخلق والرزق والإحياء والإماتة^(٥). إذن فأسماء الله تعالى هي: كل ما دلَّ على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به، مثل القادر، العليم، الحكيم، السميع، البصير، فإن هذه الأسماء دلت على ذات الله، وعلى ما قام بها من العلم والحكمة والسمع والبصر. وأما الصفات فهي: نعوت الكمال القائمة بالذات كالعلم والحكمة والسمع والبصر فالاسم دلَّ على أمرين، والصفة دلت على أمر واحد. ويقال الاسم متضمن للصفة، والصفة مستلزمة للاسم^(٦).

^١ انظر: مختار الصحاح للرازي، ص: ١٥٥، وتهديب اللغة للأزهري ٧٩/١٣، والقاموس المحيط للفيروزآبادي، ص: ١٢٩٦

^٢ تعريفات للحرابي، ص: ٢٤

^٣ انظر: معجم مقاييس اللغة لاس فارسي ١١٥/٦، والمعجم الوسيط: ١٠٣٧/٢

^٤ التعريفات للحرابي، ص: ١٣٣

^٥ انظر: شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ص: ٢٥٢، للدكتور سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ط: مطبعة سمر - الرياض.

^٦ انظر: فتاوى اللجنة الدائمة، المجموعة الأولى ١٦٠/٣، اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، ط: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء - الإدارة العامة للطبع - الرياض.

وذكر العلماء أموراً تميز الاسم عن الصفة، والصفة عن الاسم كالتالي^(١):

١- أن الأسماء يشتق منها صفات، أما الصفات؛ فلا يشتق منها أسماء، فنشتق من أسماء الله الرحيم والقادر والعظيم، صفات الرحمة والقدرة والعظمة، لكن لا نشق من صفات الإرادة والمحيي والمكر اسم المريد والجائي والمماكر.

٢- أن الاسم لا يُشتق من أفعال الله؛ فلا نشق من كونه يحب ويكره ويغضب اسم المحب والكاره والغاضب، أما صفاته؛ فتشتق من أفعاله فنثبت له صفة المحبة والكره والغضب ونحوها من تلك الأفعال، لذلك قيل: باب الصفات أوسع من باب الأسماء.

٣- أن أسماء الله عزَّ وجلَّ وصفاته تشترك في الاستعاذة بها والحلف بها، لكن تختلف في التعبد والدعاء، فيتعبد الله بأسمائه، فنقول: عبد الكريم، وعبد الرحمن، وعبد العزيز، لكن لا يُتعبد بصفاته؛ فلا نقول: عبد الكرم، وعبد الرحمة، وعبد العزة؛ كما أنه يُدعى الله بأسمائه، فنقول: يا رحيم ارحمنا، يا كريم أكرمنا، يا لطيف الطف بنا، لكن لا ندعو صفاته فنقول: يا رحمة الله ارحمنا. ذلك أن الصفة ليست هي الموصوف؛ فالرحمة ليست هي الله، بل هي صفة لله، وكذلك العزة، وغيرها؛ فهذه صفات لله، وليست هي الله، ولا يجوز الدعاء والتعبد إلا لله.

رابعاً: أسماء الله وصفاته توقيفية

تباينت أنظار العلماء في هذه المسألة، فذهب بعضهم إلى أنها توقيفية، وهم جمهور أهل السنة والجماعة، كما رأى آخرون أنها ليست توقيفية. وفي البداية ينبغي أن نعرف ما هو المراد بكونها توقيفية، وفي ذلك يقول الزركشي: "والمعنى بالتوقيف ورود الإذن من الله تعالى، وكل ما ورد في إطلاقه إذن أطلقناه، وما ورد الشرع فيه بالمنع منعناه، وما لم يصح عندنا فيه إذن بالإطلاق ولا المنع منه لم نقض فيه بجواز ولا منع ولا تحليل ولا تحريم، إذ هما حكمان لا سبيل إلى القضاء بواحد منهما إلا بالشرع وسبيله سبيل الأحكام قبل ورود الشرع"^(٢).

واختلف في الأسماء الحسنى هل هي توقيفية بمعنى أنه لا يجوز لأحد أن يشتق من الأفعال الثابتة لله أسماء إلا إذا ورد نصّ إما في الكتاب أو السنة، فذهبت الأشعرية^(٣) إلى أنها توقيفية.

^١ انظر في ذلك: صفات الله الواردة في الكتاب والسنة، ص: ٢٠، وما بعدها، لعلوي السُّقَّاف، ط: الثالثة، دار الفجرة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦ م.

^٢ معنى لا إله إلا الله، ص: ١٤١، ليدر الدين الزركشي، ط: الثالثة، دار الاعتصام - القاهرة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م. التحقيق: علي محي الدين.

^٣ الأشعرية: فرقة إسلامية، تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي حرج على المعتزلة. وقد اتخذت الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاجة خصومها من المعتزلة والملاسة وغيرهم، لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب

وقالت المعتزلة^(١) والكرامية^(٢) إذا دلّ العقل على أن معنى اللفظ ثابت في حقّ الله جاز إطلاقه على الله. وقال القاضي أبو بكر والغزالي: الأسماء توقيفية دون الصفات. وقال أبو إسحاق الزجاج^(٣): لا يجوز لأحد أن يدعو الله بما لم يصف به نفسه والضابط: أن كل ما أذن الشرع أن يدعى به سواء كان مشتقاً أو غير مشتق فهو من أسمائه وكل ما جاز أن ينسب إليه سواء كان مما يدخله التأويل أولاً فهو من صفاته ويطلق عليه اسماً أيضاً^(٤).

والمعتمد عند أهل السنة والجماعة أن مأخذ أسماء الله تعالى التوقيف عليها، إما بالقرآن وإما بالسنة الصحيحة وإما باجماع الأمة عليه. ولا يجوز إطلاق اسم عليه عن طريق القياس؛ لأنها من الأمور الغيبية التي لا تُعلم إلا بما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم. فلا مجال للقياس، وإعمال العقل فيها إثباتاً أو نفيّاً لأنّ العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقّه الله تعالى من الأسماء لقوله صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُخْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٥). فإذا تبين أن أسماء الله تعالى توقيفية فلا يجوز أن يشتق من الفعل أو من الصفة اسماً لله تعالى. وما ورد مقيداً أو مضافاً من الأسماء في القرآن أو السنة فلا يكون اسماً بهذا الورد مثل اسم المنتقم فلم يرد إلا مقيداً في قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ)^(٦). ولأنّ

والأحزاب المعاصرة ٨٣/١، الدوة العالمية للشباب الإسلامي، ط: الرابعة، دار الدوة العالمية للطباعة والشرع والتوزيع، ١٤٢٠هـ. إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مابع بن حماد الجهمي.

^١ المعتزلة فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المخرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثرها بعض الفلسفات المستوردة مما أدى إلى إخراجها عن عقيدة أهل السنة والجماعة. وقد أطلق عليها أسماء مختلفة منها: المعتزلة والقدرية والعدلية وأهل العدل والتوحيد والمقتضدة والوعيدية. المصدر السابق: ٦٤/١

^٢ الكرامية هم أصحاب محمد بن كرام، وهم معدودون من الصفاتية لأنه كان ممن يشت الصعات إلا أنه ينتهي فيها إلى التحسيم والتشبيه. وهم طوائف بلغ عددهم إلى اثني عشرة فرقة. يرفعون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب. وأنكروا أن يكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيماناً. وزعموا أن الكفر بالله هو الحهود والإنكار له باللسان. انظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/١٠٨، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ط: مؤسسة الحلبي. ومقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: ١/١٢٠، لأبي الحسن الأشعري، ط: الأولى، المكتبة العصرية، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. التحقيق: نعيم ررور.

^٣ الإمام، نحوي رمانه، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الرحاج، العدادي، مصنف كتاب معاني القرآن، وله تأليف حمة. منها: الإنسان وأعضائه، وكتاب الفرس، وكتاب العروس، وكتاب الاشتقاق، وكتاب الوادر، وكتاب فعلت وأفعلت. لرم المبرد، فصححه وعلمه. مات: سنة إحدى عشرة وثلاث مائة. انظر: سير أعلام السلاء للدهلي: ٣٦٠/١٤.

^٤ انظر: فتح الباري لاس حجر ١١/٢٢٣

^٥ أحرجه مسلم في صحيحه (٣٥٢/١)، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود عن عائشة رضي الله عنها.

^٦ سورة السجدة: ٢٢

تسميته تعالى بما لم يُسمَّ به نفسه، أو إنكار ما سَمَّى به نفسه جنائية في حقه تعالى فوجب سلوك الأدب في ذلك، والاقتصار على ما جاء به النص^(١).

خامساً: موقف أهل السنة من الأسماء والصفات

وعلى وجه الإجمال والاختصار، فإن موقف أهل السنة والجماعة من الأسماء أنهم يؤمنون بها على أنها أسماء لله تعالى، تسمى بها، وأنها حسنى ليس فيها نقص بوجه من الوجوه كما قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٢). فهم يثبتون الأسماء كما يثبتون ما تضمنته هذه الأسماء من الصفات. فمثلاً من أسماء الله "العليم" فيثبتون العليم اسماً لله تعالى، وينادون به: يا عليم. ويثبتون أيضاً بأن العلم صفة له دل عليها اسم العليم، فالعليم اسم مشتق من العلم، وكل اسم مشتق من معنى فلا بد أن يتضمن ذلك المعنى الذي اشتق منه. ويثبتون كذلك ما دل عليه الاسم من الأثر إن كان الاسم مشتقاً من مصدر متعدي. فمثلاً "الرحيم" من أسماء الله يؤمنون بالرحيم على أنه اسم من أسمائه، ويؤمنون بما تضمنه من صفة الرحمة، وأن الرحمة صفة حقيقية ثابتة لله دل عليها اسم الرحيم^(٣). وأهل السنة والجماعة يثبتون كل صفة وصف الله بها نفسه، أو وصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتاً بلا تكيف ولا تمثيل، ولا تحريف، ولا تعطيل، سواء كانت هذه الصفة من الصفات الذاتية أم من الصفات الفعلية. فالصفات الذاتية هي التي تكون ملازمة لذات الخالق أي إنه متصف بها أزلاً وأبداً. والصفات الفعلية هي التي تتعلق بمشيئة الله تعالى فيفعلها تبعاً لمقتضى حكمته^(٤).

وقال الإمام البيهقي^(٥) رحمه الله في تقسيم صفات الله تعالى إلى صفات ذات، وصفات فعل، وما يدل عليه العقل، وما ينفرد به النص: "ثم صفات الله عز اسمه قسمان: «أحدهما»:

^١ انظر: العرق بين العرق وبيان الفرقة الناحية، ص: ٣٢٦، لعبد القاهر بن طاهر العدادي، ط: الثانية، دار الآفاق الجديدة - بيروت، ١٩٧٧م. وتفسير أسماء الله الحسنى، ص: ١٦١، لعبد الرحمن السعدي، ط: العدد ١١٢، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٢١هـ. التحقيق: عبيد بن علي العبيد. وشرح أسماء الله الحسنى للقحطاني، ص: ١٦.

^٢ سورة الأعراف: ١٨٠.

^٣ انظر: أسماء الله وصفاته وموقف أهل السنة منها، ص: ١٢-١٣، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، ط: الأولى، دار الشريعة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

^٤ انظر: المصدر السابق، ص: ١٥-١٦.

^٥ أبو بكر أحمد بن الحسين الحراساني البيهقي. الحافظ العلامة، الثبت، الفقيه، شيخ الإسلام، من كبار أصحاب الحاكم. جمع بين علم الحديث والفقه، وبيان علل الحديث، ووجه الجمع بين الأحاديث. وبورك له في علمه، وصفه التصانيف النافعة، التي منها السلس الكبير، والسلس والآثار، وكتاب الأسماء والصفات. وقال الذهبي: بلغنا عن إمام الحرمين، قال: ما من فقيه شافعي إلا وللشافعي عليه مة إلا أنا بكر البيهقي، فإن المة له

صفات ذاته وهي ما استحقه فيما لم يزل ولا يزال «والآخر»: صفات فعله وهي ما استحقه فيما لا يزال دون الأزل. فلا يجوز وصفه إلا بما دل عليه كتاب الله تعالى، أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أجمع عليه سلف هذه الأمة. ثم منه ما اقترنت به دلالة العقل كالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام ونحو ذلك من صفات ذاته، وكالخلق والرزق والإحياء والإماتة والعفو والعقوبة ونحو ذلك من صفات فعله. ومنه ما طريق إثباته ورود خبر الصادق به فقط، كالوجه واليدين والعين في صفات ذاته، وكالاستواء على العرش والإتيان والجمي والتزول ونحو ذلك من صفات فعله، فثبتت هذه الصفات لورود الخبر بها على وجه لا يوجب التشبيه^(١). ولما ذكر الإمام البغوي^(٢) رحمه الله تعالى بعض الصفات التي ورد بها الخبر، ودلت على ما أوهم التشبيه، رفع هذه الشبهة، وأثبت موقف أهل السنة والجماعة في مسائل الصفات عموماً فقال: "فهذه ونظائرها صفات لله عز وجل، ورد بها السمع، يجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها معرضاً فيها عن التأويل، مجتنباً عن التشبيه، معتقداً أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق. قال الله سبحانه وتعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)^(٣). وعلى هذا مضى سلف الأمة وعلماء السنة، تلقوها جميعاً بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل، ووكّلوا العلم فيها إلى الله عز وجل"^(٤).

وقال الإمام أبو عمر بن عبد البر^(٥) رحمه الله تعالى في الردّ على من أشار إلى معنى يوهم التشبيه في حديث التزول: "ليس هذا بشيء عند أهل الفهم من أهل السنة، لأنّ هذا كيفية، وهم

على الشافعي لتصابيعه في بصرة مذهبه. ثم قال الذهبي: أصاب أبو المعالي، هكذا هو، ولو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يفتقد فيه لكان قادراً على ذلك، لسعة علومه، ومعرفة بالاختلاف، ولهذا تراه يلوح بصر مسائل مما صحّ فيها الحديث. توفي في سنة ثمان وخمسين وأربع مائة. انظر: سير أعلام السلا للذهبي: ١٦٣/١٨-١٦٩

^١ الأسماء والصفات للبيهقي: ٢٧٦/١ - ٢٧٧، لأحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي، ط: الأولى، مكتبة السوادني، حدة - السعودية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م. حققه وحرّح أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي.

^٢ الحسين بن مسعود، محيي السنة، البغوي، الشافعي العقبة المحدث، المفسر. مصنف "شرح السنة" و"معالم التنزيل" و"المصابيح" وكتاب "التهديت" في العقبة "والجمع بين الصحيحين" و"الأربعين حديثاً" كان إماماً في التفسير، إماماً في الحديث، إماماً في العقبة. وبورك له في تصانيفه. وتنت آله توفي سنة ست عشرة وخمسمائة. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ٢٥٠/١١-٢٥١

^٣ سورة التورى: ١١

^٤ شرح السنة للبغوي: ١٧٠/١-١٧١

^٥ يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر البرقي أبو عمر، فقيه حافظ مكثر عالم بالقراءات والخلاف في العقبة، ويعلم الحديث والرجال، قديم السماع كثير الشيوخ، على أنه لم يخرج عن الأندلس، لكنه سمع من أكابر أهل الحديث قرطبة وغيرها ومن الرعاء القادمين إليها. ومن مؤلفاته القيمة: كتاب "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد"، و"الاستدكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار"، و"الاستيعاب في أسماء

يفزعون منها، لأنها لا تصلح إلا فيما يحاط به عياناً، وقد جَلَّ الله وتعالى عن ذلك. وما غاب عن العيون فلا يصفه ذوو العقول إلا بخبر، ولا خبر في صفات الله إلا ما وصف نفسه به في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا نتعدى ذلك إلى تشبيه أو قياس أو تمثيل أو تنظير، فإنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. قال أبو عمر: أهل السنة مجموعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المحاز، إلا أنهم لا يُكَيِّفُونَ شيئاً من ذلك، ولا يَحْدُثُونَ فيه صفة محصورة^(١).

سادساً: معرفة الأسماء والصفات من أهم أسباب تقوية الإيمان

ولا شك أن معرفة الله بأسمائه وصفاته من أهم الأسباب التي تقوّي الإيمان، فالله سبحانه وتعالى عَرَفَ نفسه للأنام من خلال الأسماء التي ذكرها في كتابه العزيز أو بيّنها رسوله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة. فالإيمان يحصل ويقوى بأمر كثيرة من أعظمها: معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، والحرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها. فهي أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته. ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان. فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه، وقوي يقينه. فينبغي للمؤمن أن يبذل مقدوره في معرفة الأسماء والصفات، فهذه المعرفة النافعة، التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله^(٢). ولما كانت رؤية الله بالأبصار غير ممكنة للبشر في هذه الحياة، كان الطريق الوحيد لمعرفة خالقهم ومولاهم العلم بأسمائه وصفاته، والتفكر في آثارها المتنوعة في الكون والحياة. وهذا هو السبيل الأمثل لمعرفة الله والإيمان به والخوف من عقابه والرجاء لرحمته والانقياد لأوامره والابتعاد عن مساخطه. لذا أمر الله عباده أن يعرفوه بأسماءه الحسنى، ويتعبدوا لله بها، فقال عز من قائل: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٣). وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فضيلة معرفة أسماء الله وإحصائها وأن الثواب

الصحابة، و"جامع بيان العلم وفضله"، و"الكافي في العقيدة"، وغيرها من الكتب النافعة. توفي سنة ستين وأربعمائة. انظر: نعية المنتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ص: ٤٨٩-٤٩١، لأحمد بن يحيى الضبي، ط: دار الكائنات العربي - القاهرة، ١٩٦٧م.

^١ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: ١٤٤/٧-١٤٥، لاسعد البر، ط: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٣٨٧هـ.

تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير الكري.

^٢ انظر: التوضيح والبيان، ص: ٤٦-٤٧، لعبد الرحمن السعدي، ط: الأولى، مكتبة أصواء السلف، الرياض - السعودية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

^٣ سورة الأعراف: ١٨٠.

على ذلك يكون الفوز بالجنان ومجاورة الرحمن. وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١). ومعنى إحصائها، أي: من أحصاها عددًا وحفظًا وعلماً بما يمكن علمه من معانيها المستفاد منها، أو يكون الإحصاء المراد في الحديث هو العمل بالأسماء والتعبّد لمن سُمّي بها، فما كان منها مما يليق بالمؤمن الاقتداء بالله فيه كالرحيم والكريم والعفو فإن الله يحب أن يرى على عبده الاتصاف بها. وما لا يليق بالعبد معانيها كالله والأحد والقدوس والجبار والعظيم، فإنه يجب على العبد الإقرار بها والتدلل لها. وما كان بمعنى الوعيد كشديد العقاب، وسريع الحساب، فإنه يجب على العبد الوقوف عند أمره، واجتناب نهيه واستشعار خشيته، خوفاً من وعيده، وشديد عقابه^(٢).

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٨/٣)، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والشيا في الإقرار عن أبي هريرة، ومسلم في صحيحه (٢٠٦٣/٤)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفصل من أحصاها عن أبي هريرة أيضاً.

^٢ انظر: شرح صحيح البخاري ٤١٩/١٠-٤٢١، لاس بطل علي بن حلف، ط: الثانية، مكتبة الرشد، السعودية-الرياض، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م. تحقيق: أبو نعيم ياسر بن إبراهيم.

المبحث الأول

الأسماء والصفات الدالة على العلم والإحاطة وإفادتها للترغيب والترهيب

ويشتمل على المطالب الآتية :

١ - الأسماء والصفات المشتملة على العلم والإحاطة

٢ - إفاوة علم الله تعالى للترغيب في القرآن الكريم

٣ - إفاوة علم الله تعالى للترهيب في القرآن الكريم

المطلب الأول: الأسماء والصفات المشتملة على العلم والإحاطة

إن الله تبارك وتعالى هو العليم الذي أحاط علمه بجميع الأشياء ما كان منها وما لم يكن، وقد شمل جميع الأزمنة الماضية والحالية والآتية، فلا يوجد معلومة خارجة عن نطاق علم الله تعالى مهما دقت أو خفيت. يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم مكايل البحار^(١)، ومثاقيل الجبال، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، لا توارى منه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا بحر ما في قعره، ولا جبل ما في وعره. والله جل في علاه يعلم الغيب والشهادة كما قال: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)^(٢). كما يعلم ما تخفي الصدور وما تبديه، وذلك في قوله تعالى: (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٣).

وهو العليم الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم القليل والكثير، ويطلع على الظواهر والأسرار، ولا يعزب عن علمه ما في البر والبحر، وما في طباق الجو وجوف الأرض، من رطب ويابس وحي وميت، كما في قوله: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)^(٤). ويعلم ما في السموات وما في الأرض، والحوادث التي تدور فيهما، كما في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ

^١ هذه القطعة وما بعدها جزء من حديث أخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن أنس رضي الله عنه، وعنه الحديث كالتالي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بأعرابي، وهو يدعو في صلاته، وهو يقول: يَا مَنْ لَا تَرَاهُ الْعُيُونُ، وَلَا تُخَالِطُهُ الظُّلُومُ، وَلَا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، وَلَا تُغَيِّرُهُ الْحَوَادِثُ، وَلَا يَخْشَى الدُّوَائِرَ، يَعْلَمُ مَثَاقِيلَ الْجِبَالِ، وَمَكَايِلَ الْبِحَارِ، وَعَدَدَ قَطْرِ الْأَمْطَارِ، وَعَدَدَ وَرَقِ الْأَشْجَارِ، وَعَدَدَ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ، وَأَشْرَقَ عَلَيْهِ النَّهَارُ، لَا تُوَارِي مِنْهُ سَمَاءَ سَمَاءٍ، وَلَا أَرْضَ أَرْضاً، وَلَا بَحْرَ مَا فِي قَعْرِهِ، وَلَا جَبَلَ مَا فِي وَغْرِهِ، اجْعَلْ خَيْرَ عُمْرِي آخِرَهُ، وَخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَهُ، وَخَيْرَ أَيَّامِي يَوْمَ أَلْقَاكَ فِيهِ، فوكل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأعرابي رجلاً، فقال: «إِذَا صَلَّيْتَ فَأَنْتَنِي بِهِ»، فلما صلى أتاه، وقد كان أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب من بعض المعادن، فلما أتاه الأعرابي وهب له الذهب، وقال: «مِمَّنْ أَنْتَ يَا أَعْرَابِي؟»، قال: من بني عامر بن صعصعة يا رسول الله قال: «هَلْ تَذَرِي لِمَ وَهَبْتُ لَكَ الذَّهَبَ؟»، قال: للرحم يسا ويسك يا رسول الله، فقال: «إِنْ لِلرَّحِمِ حَقٌّ، وَلَكِنْ وَهَبْتُ لَكَ الذَّهَبَ لِخَيْرِ ثَنَائِكَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». انظر: المعجم الأوسط ١٧٢/٩، لسليمان بن أحمد اللحي الشامي، أبو القاسم الطبراني، ط: دار الحرمين - القاهرة. التحقيق: طارق بن عوض الله، وعد المحسن بن إبراهيم.

^٢ سورة الحشر: ٢٢

^٣ سورة آل عمران: ٢٩

^٤ سورة الأنعام: ٥٩

نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(١).

الأسماء والصفات الدالة على سعة علم الله تعالى كثيرة في القرآن الكريم ندرس منها الأسماء التالية: العليم، الخبير، البصير، السميع، اللطيف، الرقيب الشهيد.

العليم ومشتقاته:

وهذا الاسم ورد في القرآن كثيرا للدلالة على شمول علمه لجميع الأشياء. وذلك: "أنه يحيط بكل شيء علما، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، عاقبته وفاتحته، وهذا من حيث كثرة المعلومات، وهي لا نهاية لها، ثم يكون العلم في ذاته من حيث الوضوح والكشف على أتم ما يمكن فيه، بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه، ثم لا يكون مستفادا من المعلومات، بل تكون المعلومات مستفادة منه"^(٢). فتارة يأتي مقرونا ببعض الأسماء الأخرى، كالسميع في قوله تعالى: (وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)^(٣). والحكيم في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)^(٤). وأحيانا يأتي منفردا عن غيره من الأسماء، إلا أنه يكون متعلقا بأعمال العباد وذواتهم، كما في قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أُنْفِقُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)^(٥). وقوله تعالى: (أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)^(٦). أو يكون متعلقا بكل شيء على وجه العموم، كما في قوله تعالى: (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)^(٧).

^١ سورة المخادلة: ٧

^٢ المقصد الأسى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، ص: ٨٦، لأبي حامد الغزالي، ط: الأولى، الحفان والحاي - قبرص، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. التحقيق: سام عبد الوهاب الحاي.

^٣ سورة فصلت: ٣٦

^٤ سورة الرحرف: ٨٤

^٥ سورة البقرة: ٢١٥

^٦ سورة هود: ٥

^٧ سورة البور: ٣٥

وكما يدل اسم الله العليم على صفة العلم الثابتة له، كذلك مشتقاته تدلّ عليها، كصيغة المبالغة: "عَلَّمَ الْغُيُوبَ" في قوله: (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)^(١). واسم الفاعل: "عالم الغيب والشهادة" في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)^(٢). واسم التفضيل: "أَعْلَمُ"، كما في قوله: (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا)^(٣). والفعل المضارع: كما في قوله: (وَأِنْ تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَيَنْفَعُ يَوْمَ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)^(٤). والفعل الماضي كما في قوله: (عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ)^(٥).

الخبير: يعني ذو خبرة وعلم لا يخفى عليه شيء، والخبرة المعرفة ببواطن الأمور^(٦). يقول الغزالي في شرح معنى اسم الله الخبير: "هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، فلا يجري في الملك والمملوك شيء، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها. وهو بمعنى العليم، ولكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة، ويسمى صاحبها خبيراً"^(٧). وهذا الاسم وارد في القرآن في مواضع عدة مقرونا ببعض أسماء الله الأخرى أو متعلقا بأعمال العباد، كما في قوله تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)^(٨). وقوله تعالى: (وَأِنْ كُنَّا لَمَا لِيُوفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)^(٩).

اللطيف: مأخوذ من اللطف، وهو عبارة عن الحركة الخفيفة، وعن تعاطي الأمور الدقيقة، وقد يعبر باللطائف عما لا تدركه الحاسة، ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه، وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور، وأن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم^(١٠). يقول الإمام الغزالي رحمه

^١ سورة المائدة: ١١٦

^٢ سورة الأنعام: ٧٣

^٣ سورة النساء: ٤٥

^٤ سورة طه: ٧

^٥ سورة النقرة: ١٨٧

^٦ انظر: تفسير الطبري ٩٤/٥، والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص: ٢٧٣

^٧ المقصد الأسنى للعرابي، ص: ١٠٣

^٨ سورة الأنعام: ١٨

^٩ سورة هود: ١١١

^{١٠} انظر: المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص: ٧٤٠

الله تعالى في شرح معنى اسم الله اللطيف: "إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دق منها وما لطف ... ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا الله سبحانه وتعالى، فأما إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق، وأما رفقته في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضا تحت الحصر"^(١). ولقد ورد اسمه تعالى اللطيف في القرآن مقرونا باسمه الخبير في مواضع عدة، كما قوله تعالى: (لَا تُذِرْكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُذِرُكَ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(٢). وورد أيضا متعلقا بالعباد، وبما يشاء من الأمور، كما في قوله تعالى: (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)^(٣). وقوله تعالى: (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)^(٤).

البصير: هذا الاسم له علاقة قوية بصفة العلم؛ لأنه خاص بالمعلومات المرئية، فمعنى اسمه البصير: الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسموات، حتى ما يكون خفيا فيهما، فيرى ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها، وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى خائنات الأعين، وتقلبات الأجفان، وحركات الجنان^(٥). وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مقرونا باسمه السميع مرارا، كما في قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)^(٦). كما ورد أيضا مقرونا باسمه الخبير في قوله تعالى: (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)^(٧). وقد ورد أيضا متعلقا بالعباد وأعمالهم، غير مقرون باسم آخر، كما في قوله تعالى: (فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)^(٨). وقوله تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ

^١ المقصد الأسى للغزالي، ص: ١٠١

^٢ سورة الأنعام: ١٠٣

^٣ سورة يوسف: ١٠٠

^٤ سورة الشورى: ١٩

^٥ انظر: الثمر المحتى مختصر شرح أسماء الله الحسنى، ص: ١٥-١٦، للدكتور سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ط: مطبعة سميع، الرياض.

^٦ سورة الحج: ٦١

^٧ سورة الشورى: ٢٧

^٨ سورة عاف: ٤٤

مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(١).

السميع: وهذا الاسم مع ما يدل عليه من صفة السمع مرتبط بصفة العلم ارتباطا وثيقا، حيث يدل على شمول سمعه لجميع الأصوات الخفية والظاهرة. والمراد بسمع الله تعالى أمران، الأول: الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. وسمعه تعالى نوعان، الأول: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، وإحاطته التامة بها. والثاني: الذي يسمع السائلين والداعين والعابدين، فيجيبهم ويثيبهم^(٢). يقول الغزالي في بيان الصفة التي يدل عليها الاسم: "السمع في حقه عبارة عن صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات. ومن لم يدقق نظره فيه وقع بالضرورة في محض التشبيه، فخذ منه حذر، ودقق فيه نظرك"^(٣).

وقد ورد اسمه تعالى السميع مقرونا ببعض أسمائه الأخرى، فيقترن بالبصير كثيرا كما في قوله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)^(٤). كما يقترن باسمه العليم في مواضع كثيرة من القرآن، قال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)^(٥). ومن الأسماء التي اقترن بها هذا الاسم: القريب، كما في قوله تعالى: (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)^(٦).

الرقيب: وهذا الاسم مأخوذ من رَقِبْتُ أَرْقُبُ رِقْبَةً وَرَقِبَانًا، وأصله يدل على انتصاب لمراعاة شيء، ومنه الرقيب، وهو الحافظ، الذي لا يغيب عما يحفظه، وذلك إما لمراعاته رقة المحفوظ، وإما لرفعه رقبته عند النظر^(٧). وقد ورد اسم الله الرقيب في القرآن مقيدا بالعباد وأعمالهم، كما في

^١ سورة القرة: ٢٦٥

^٢ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي، ص: ٢٠٩-٢١٠

^٣ المقصد الأسى، ص: ٩٠

^٤ سورة المجادلة: ١

^٥ سورة العنكبوت: ٦٠

^٦ سورة السأ: ٥٠

^٧ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، ص: ٥١، لإبراهيم بن السري، أبو إسحاق الزجاج، ط: دار الثقافة العربية، التحقيق: أحمد يوسف الدقاق. والمعردات للأصفهاني، ص: ٣٦٢، ومعجم مقاييس اللغة لاس فارس: ٢/ ٤٢٧

قوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)^(١). كما ورد مقيدا بكل شيء على جهة العموم نحو قوله تعالى: (لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَغْنَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)^(٢).

الشهيد: بمعنى الحاضر يقال شَهِدَ الشيء وشَهِدَتْ به وأصله من الشهادة التي هي الحضور، فمعنى اسم الله الشهيد: المطلع على جميع الأشياء، يسمع جميع الأصوات، خفيها وجليها، ويصير جميع الموجودات، دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، وهو الذي شهد لعباده، وعلى عبادته بما عملوه^(٣). وقد بين الإمام الغزالي معنى اسمه الشهيد، مع ذكر الفروق الدقيقة بينه وبين أسمائه، العليم، والخبير، فقال: "فإنَّ الله عزَّ وجلَّ عالم الغيب والشهادة. والغيب عبارة عما بطن، والشهادة عما ظهر، وهو الذي يشاهد، فإذا اعتبر العلم مطلقا فهو العليم، وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد. وقد يعتبر مع هذا أن يشهد على الخلق يوم القيامة بما علم"^(٤).

ورد هذا الاسم في القرآن مرار، فأحيانا يرد مقيدا بأعمال العباد، كقوله تعالى: (وَأَمَّا نُرَبِّتُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيْنِكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ)^(٥). وتارة يأتي مقيدا بكل شيء، لقصد شمول شهادته وإطلاعه على كل ما يمكن تعلقه به من الأشياء، كما في قوله تعالى: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)^(٦). وطورا يأتي مقيدا بكفاية شهادة الله وعدم احتياجها لمن يؤيدها بضم شهادته إليها، كما في قوله تعالى: (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)^(٧). ويكثر ورود هذه الأسماء الدالة على إحاطة علم الله تعالى بجميع المعلومات، إلا أنني اكتفيت ببعض مواردها في القرآن، لتكون نموذجاً لبقيتها، مما لم أذكر، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

^١ سورة النساء: ١

^٢ سورة الأحراب: ٥٢

^٣ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للرحاح، ص: ٥٣، وشرح أسماء الله الحسنى للفحطاني، ص: ١١٢

^٤ المقصد الأسى للغزالي، ص: ١٢٦

^٥ سورة يونس:

^٦ سورة المخادلة: ٦

^٧ سورة النساء: ٧٩

المطلب الثاني: إفادة علم الله تعالى للترغيب في القرآن الكريم

يعلم الله سبحانه وتعالى كل ما يصدر عن العبد من أعمال الخير أو الشر، فإذا علم العبد هذا تأثر قلبه، فأيقن أن الله مطلع على جميع أحواله، فيشعر بالرجاء لرحمته وثوابه عندما يقوم بعمل صالح، ابتغاء مرضاته ورجاء ثوابه. وهذا من أعظم مقامات الإيمان، وهو المسمى بمقام الإحسان، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١). ويتولد من هذه المراقبة معظم أعمال القلوب، كما يقول الإمام ابن القيم: "وكَلَّمَا اشْتَدَّتْ هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم أصول أعمال القلب، وفروعها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجدد هذا أصله ومنبعه"^(٢).

ومن هنا إذا وردت آية مشتملة على الإيمان والعمل الصالح، مقرونة بصفة العلم لله تعالى أو ببعض الصفات الأخرى المرتبطة بالعلم دلّت على الترغيب والحث على ذلك الإيمان والعمل الصالح. ذلك أن العبد القائم بهذه الأعمال إذا استيقن أن الله مطلع عليه، ومُوفٍ له أجره ازداد شوقاً ورغبة إلى إتقان العمل، راجياً ثوابه من الله تفضلاً ورحمة. ومن ذلك قوله تعالى: (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْثَرُوهَا فَقَدْ خَرَأَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)^(٣). "يعني بذلك ذو خبرة وعلم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، فهو بجميعه محيط، ولكله محص على أهله، حتى يوفيه ثواب جميعه، وجزاء قليله وكثيره"^(٤). وفي ترغيب الصلاة وإيتاء الزكاة يقول تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (١٩/١)، كتاب الإيمان، باب سؤال حبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، ومسلم في صحيحه (٣٧/١)، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، كلاهما عن عمر بن الخطاب.

^٢ إعلام الموقعين عن رب العالمين: ٤ / ١٥٥-١٥٦، لمحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الحوزية، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت،

١٤١١هـ - ١٩٩١م. التحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم.

^٣ سورة البقرة: ٢٧١

^٤ تفسير الطبري: ٥٨٦/٥

تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(١). قال ابن عاشور في تفسير ختام الآية: "وفي هذا وعد لهم يتضمن وعيدا لغيرهم، لأنه إذا كان بصيرا بما يعمل المسلمون كان بصيرا بما يعمل غيرهم"^(٢). وقال تعالى مرغبا في الإيمان والهجرة والجهاد وإيواء المستضعفين ونصرتهم: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)^(٣). وفي اختيار الحلال من الرزق والعمل الصالح قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)^(٤).

والملاحظ في الآيات المقدمة أنها اشتملت على أسماء الله وصفاته، المتضمنة لعلم الله بأعمال العباد، فإذا كانت الأعمال، الصادرة منهم صالحة يكون ذكر علم الله في ختامها بمثابة الترغيب في إتقان تلك الأعمال، والدوام فيها، حيث إن الأمر بها على علم بخفايا الصدور، ومكامن القلوب، وهو قادر على المجازاة عليها، مع الزيادة تفضلا منه وإحسانا، مما يكون ترغيبا في هذا العمل وتشويقا إليه والله الموفق للصواب.

^١ سورة القرة: ١١٠

^٢ التحرير والتوير لان عاشور: ٦٧٢/١

^٣ سورة الأنفال: ٧٢

^٤ سورة المؤمنون: ٥١

المطلب الثالث: إفادة علم الله تعالى للترهيب في القرآن الكريم

أحاط علمه تعالى بما يفعله العباد في السر والعلن، وما تكنه صدورهم من الخير والشر، وما تلاحظه أبصارهم من المراتب، وما تسمعه آذانهم من المسموعات، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وعلى هذا، فإن استحضار العبد لإحاطة علم الله بأحواله الظاهرة والباطنة يستثير فيه الخوف والحذر من أن يراه تعالى حيث فهاه أو يفقده حيث أمره، فيستحضر معية الله تعالى في كل مكان وزمان. وهذا من أعظم ما يساعد المرء على الاستقامة والجد في طاعة الله والهرب من مساخطه. لذا يعلم أن إثارة علم الله لمكان الخوف في نفوس العباد أقوى من إثارتها لدافع الرجاء، وإن كان المطلوب هو الجمع بين الخوف والرجاء، لأن تقصير العباد في حق الله تعالى أكثر من طاعتهم وانقيادهم له، مما يقتضى أن يورث علم الله تعالى لأحوالهم الخوف والوجل، وهذا لا يكون لكل أحد، إنما هو للموقنين بالله وبصفاته.

ومن هنا حذر الله تعالى عباده من انتهاك محارمه لما يعلم من انطواء نفوسهم على الشر أكثر من الخير، كما قال تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)^(١). ومن الآيات المثيرة للخوف تلك التي اشتملت على إحاطة علم الله بما يفعله العباد من خير وشر. منها قوله تعالى في التحذير من الكفر وجزاء الأعمال يوم يقوم الحساب: (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَاهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)^(٢). منها قوله تعالى في التحذير عن استعمال النظر في الحرام: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)^(٣). ومنها قوله تعالى في التحذير عن الظلم والتولي عن الجهاد والتناقض في الأقول والأفعال: (فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)^(٤). ومنها قوله تعالى في التحذير من الأقول والأفعال والنيات المخالفة لأمر الله، وخاصة الحلف بالله في مجانبة البر والتقوى والإصلاح بين الناس: (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً

^١ سورة القرة: ٢٣٥

^٢ سورة الرمر: ٧

^٣ سورة البور: ٣٠

^٤ سورة القرة: ٢٤٦

لَا يَمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(١). ومنها قوله تعالى في التحذير عن البخل بالإنفاق الواجب: (وَأَلْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)^(٢). ومنها قوله تعالى في التحذير من الطغيان والانحراف عن الصراط المستقيم: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)^(٣). أي: "فاتقوا الله، أيها الناس، أن يطلع عليكم ربكم وأنتم عاملون بخلاف أمره، فإنه ذو علم بما تعلمون، وهو لكم بالمرصاد"^(٤). ومنها قوله تعالى في الأمر بالعدل والتحذير من الجور ولو على الأعداء: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اغْدُلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)^(٥). أي: "فمحازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلا وآجلا"^(٦). وقد اتضح من هذا المبحث إفادة الأسماء المتعلقة بالعلم للترغيب والترهيب فيما اقترنت به من الأوامر والنواهي، كما تبين أيضا أن إفادتها للخوف أقوى وأكثر، لمكان تقصير العباد فيما يؤمرون به، وتفرطهم فيما يُنهَوْنَ عنه. وأما إفادتها للترغيب فيكمن في الأسماء الواردة في الآيات المتضمنة لبعض القربات، مع ذكر ثوابها العاجل أو الآجل، مما يدفع المرء إلى الاستزادة منها، مع الإتيان والمداومة عليها في جميع الظروف والأحوال. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

^١ سورة البقرة: ٢٢٤

^٢ سورة الماعقون: ١٠، ١١

^٣ سورة هود: ١١٢

^٤ تفسير الطبري: ٤٩٩/١٥

^٥ سورة المائدة: ٨

^٦ تفسير السعدي: ص: ٢٢٤

المبحث الثاني

الأسماء والصفات المتضمنة للرحمة والمغفرة وإفادتها للترغيب

ويشتمل على المطالب الآتية:

- ١ - سعة رحمة الله تعالى وآثارها، ومغفرته وشمولها
- ٢ - الأسماء والصفات المشتملة على الرحمة وآثارها
- ٣ - إفاوة رحمة الله تعالى ومغفرته للترغيب في القرآن

المطلب الأول: سعة رحمة الله تعالى وأثارها، ومغفرته وشمولها

إن رحمة الله واسعة وشاملة، ومغفرته للزلات عظيمة وكبيرة. الوجود كله من آثار رحمة الله وفضله، والمخلوقات كلها قائمة على شمول إحسانه وكرمه، فلا شيء أفضل وأتم من قول الله تعالى عن الرحمة، وسعتها في كتابه العزيز، فقال: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) أي: "فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه"^(١). وقد ورد في الحديث وصف رحمة الله ورجحانها على غضبه في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ وَضَعَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»^(٢). وفي رواية عند مسلم: "سبقت غضبي"، إذن فالمراد: "بالسبق والغلبة هنا كثرة الرحمة وشمولها كما يقال غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثرا منه"^(٣). ولا يمكن تصوّر مدى رحمة الله بعباده، فإنها بالغة حدّا فوق ما يصل إليه عقل الإنسان القاصر في تصوّر الرحمة. ولما كانت صفات الله لا تشبه صفات المخلوقين إلا في التصرّور الذي من خلاله نفهم آثار الصفة في الكون الذي بين أيدينا، مثّل النبي صلى الله عليه وسلم رحمة الله بقصة وقعت أمامه مع الصحابة الكرام، لِيُفْهِمَهُمْ مدى تأثير هذه الرحمة وعظمتها وشمولها، والله المثل الأعلى. وإليك تفاصيل هذه القصة يرويها لنا الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلاً: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سي، فإذا امرأة من السبي تبتغي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»^(٤).

ومن آثار رحمته أن أرسل الرسل وأنزل الكتب لهداية البشرية وإنارة الصراط المستقيم لهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، كما قال تعالى في إرسال محمد صلى الله عليه

^١ تفسير السعدي: ص: ٣٠٥

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٠/٩)، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ويخدركم الله نفسه عن أي هريرة لفظه، ومسلم في صحيحه (٢١٠٧/٤)، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأما سقت عصه عن أي هريرة أيضاً لفظ مقارب.

^٣ شرح مسلم للبووي: ٦٨/١٧

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه: (٨/٨)، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبله ومعاقته عن عمر ابن الخطاب لفظ مقارب، ومسلم في صحيحه: (٢١٠٩/٤)، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأما سقت عصه عن عمر ابن الخطاب، لفظه.

وسلم: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)^(١). وقال تعالى حكاية عن الرسل من قبلنا: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)^(٢). أي: "ورزقني منه التوفيق والنبوة والحكمة، فأمنت به وأطعته فيما أمرني ونهاني"^(٣). وذكر تعالى في كتابه المجيد أن إنزال الكتاب من الله تعالى رحمة بعباده، ليسعدوا بها في الدنيا بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بجنات النعيم، كما في قوله تبارك وتعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)^(٤). وقوله تعالى في شأن التوراة: (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)^(٥). هذه هي الرحمة العامة، التي سبغت جميع المخلوقات، الإنس والجن والحيوان والطير، والشجر والجماد، والجبال وغيرها مما بثه الله في هذا الكون الفسيح. أما الرحمة الخاصة فقد انفرد بها المؤمنون، واختص بها المحسنون من عباده، كما في قوله عز وجل: (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)^(٦).

أما المغفرة والعفو فمن آثار رحمة الله لعباده المذنبين والمقصرين. وقد جعل الله باب التوبة مفتوحا لمن أراد أن يتوب إلى أن تطلع الشمس من مغربها عند قرب قيام الساعة، ونهاية العالم، وحث المولى على التوبة كثيرا في كتابه العزيز، كما في قوله: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)^(٧). ولما كان الإنسان مطبوعا على التقصير في الواجبات، ومفطورا على اقتراف الأخطاء والمفوات، جعل الله من رحمته التوبة والإنابة إليه وسيلة لمحو هذه الأخطاء والذنوب، وأوجب ذلك على نفسه تفضلا منه وإحسانا، فقال عز من قائل: (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَلَّهُ

^١ سورة الأنبياء: ١٠٧

^٢ سورة هود: ٢٨

^٣ تفسير الطبري: ٢٩٨/١٥

^٤ سورة الدخان: ٣-٦

^٥ سورة الأنعام: ١٥٤

^٦ سورة الأعراف: ٥٦

^٧ سورة الزمر: ٥٣

عَفُورٌ رَحِيمٌ^(١). أي: "أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً"^(٢). وحث النبي صلى الله عليه وسلم أمته على الإنابة والتوبة، بالإقلاع عن الذنوب والعزم على عدم الرجوع إليها، والندم على ما صدر منهم من القبائح، ليتّم لهم محو آثار الذنوب والمعاصي، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ، فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةٌ مَرَّةً»^(٣).

ولا يوجد ذنب من الذنوب مهما عظم فحشه أو كبر جرمه يستعصي على سعة مغفرة الله وعفوه وكرمه، فإن مغفرته واسعة وحلمه شامل للمجرمين والمفرطين، ينتظر توبتهم ليلاً ونهاراً، كما ورد في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَنْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٤). وليس أمر التوبة مقصوراً على قبول الله تعالى لها ومحو آثار الذنوب عن أصحابها، بل الأمر يتعدّى إلى وصف الله تعالى بالفرح عندما يتوب عبد من عباده ويرجع إليه من أسر الذنوب والمعاصي، فقال صلى الله عليه وسلم: «وَاللَّهِ لِلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ»^(٥).

وتبين مما سقته من نصوص الكتاب والسنة سعة رحمة الله تعالى، وكثرة آثارها في حياة الناس الدينية والدنيوية. وأنه لولا رحمة الله لما قامت لهم قائمة في سائر أمورهم، ولاحتلّ نظام العالم، وصار العيش فيه جحيماً وعذاباً. والله أعلم.

^١ سورة الأنعام: ٥٤

^٢ تفسير اس كثير ٢٦٢/٣

^٣ أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٧٥/٤)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه عن ابن عمر رضي الله عنه بلعظه.

^٤ أخرجه مسلم في صحيحه (٢١١٣/٤)، كتاب التوبة، باب قول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بلعظه.

^٥ أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٠٢/٤)، كتاب التوبة، باب في الحصص على التوبة والفرح بها، عن أبي هريرة رضي الله عنه بلعظه.

المطلب الثاني: الأسماء والصفات المشتمة على الرحمة وآثارها

في هذا المطلب أتناول شرح بعض الأسماء والصفات المشتمة على سعة رحمة الله وإحاطتها بجميع المخلوقات، إلى جانب بعض الأسماء الدالة على طائفة من آثار صفة الرحمة ومظاهرها المتنوعة. وهذه الأسماء كثيرة ورودها في القرآن، غير أنني أقتصر على الأسماء التالية: الرحمن، الرحيم، الرؤوف، الغفور، التواب، العفو.

الرحمن، الرحيم: الرحمن: على وزن فَعْلان، من رَحِمَ، والرحيم: فعيل منه. كقولهم غَضِبَ غضبان، وَعَلِمَ عَلِيم. والله جل جلاله بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة لجميع خلقه، وبالرحيم موصوف بخصوص الرحمة لبعض خلقه، إما في كل الأحوال، وإما في بعض الأحوال. فالخصوص الذي في وصفه بالرحيم منه ما قد خصَّ الله عباده المؤمنين في عاجل الدنيا بما لطف بهم من توفيقه إياهم لطاعته، والإيمان به وبرسله، واتباع أمره واجتناب معاصيه، مما خُذِلَ عنه من كفر به وخالف أمره، مع ما أعد لهم في الآخرة من النعيم المقيم والفوز المبين، كما قال في كتابه العزيز: (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)^(١). بالإضافة إلى ما قد عمَّهم به والكفار في الدنيا من الإفضال والإحسان، في البَسْط في الرزق، وتسخير السحاب بالغيث، وإخراج النبات من الأرض، وصحة الأجسام والعقول، والتي يشترك فيها المؤمنون والكافرون. وأما في الآخرة فعموم رحمته لهم تتجلى في تسويته بين جميعهم في عدله وقضائه، فلا يظلم أحداً منهم مثقال ذرة^(٢).

وقد ورد هذان الاسمان في القرآن الكريم مقرونين مع بعضهما، وبغيرهما من الأسماء، ومنفردين عن الأسماء الأخرى. ومن مواضع الاقتران: قوله تعالى في سورة الفاتحة: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)^(٣). وقوله تعالى: (وَالْهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)^(٤). والجمع بين هذين الاسمين من أسماء الله تعالى يؤكد على شمول الرحمة جميع الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فإن الرحمن عام للكافر والمؤمن والبر والفاجر في الدنيا والآخرة، والرحيم خاص بالمؤمنين في الدنيا والآخرة. فجمعهما يقتضي العموم والشمول.

^١ سورة الأحزاب: ٤٣

^٢ انظر: تفسير الطبري ١٢٦/١-١٢٩

^٣ سورة العنكبوت: ٢، ٣

^٤ سورة البقرة: ١٦٣

واسم الرحمن لم يقترن بغير الرحيم من الأسماء الحسنى، إنما ورد منفردا في مواضع كثيرة، كما في قوله تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)^(١). وقوله تعالى: (جَنَّاتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا)^(٢). وأما اسم الله الرحيم، فقد اقترن ببعض أسماء الله الحسنى، كالتواب في قوله تعالى: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)^(٣). واقترن بالغفور في مواضع كثيرة، منها: قوله تعالى: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِذْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)^(٤). كما اقترن باسمه العزيز في مواضع عدة من القرآن الكريم، ومنها ثمانية مواضع في سورة الشعراء في نهاية قصص الأنبياء الواردة فيها، فقال تعالى: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)^(٥). واقترن باسمه البرّ في موضع واحد، وذلك في قوله: (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)^(٦). وباسمه تعالى الرؤوف في مواضع عدة، كقوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)^(٧). وقد ورد أيضا مقيدا بالعباد على جهة العموم، كقوله تعالى: (رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)^(٨). كما ورد مقيدا بالمؤمنين على الخصوص كقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)^(٩).

الرؤوف: مشتق من الرأفة، وهي: شدة الرحمة، وتصل إلى أعلى معاني الرحمة، فالرؤوف بمعنى الرحيم مع المبالغة فيه^(١٠). فالله تبارك وتعالى هو الرؤوف الرحيم، ذو الرأفة والرحمة، فهو العاطف

^١ سورة الإسراء: ١١٠

^٢ سورة مريم: ٦١

^٣ سورة البقرة: ٣٧

^٤ سورة يونس: ١٠٧

^٥ سورة الشعراء: ٩

^٦ سورة الطور: ٢٨

^٧ سورة البقرة: ١٤٣

^٨ سورة الإسراء: ٦٦

^٩ سورة الأحراب: ٤٣

^{١٠} انظر: تفسير الطبري ١٧١/٣، والمقصد الأسى للعراي، ص: ١٤٠

برأفته على عباده، ورأفته عامة لجميع الخلق في الدنيا، وخاصة بالمؤمنين في الآخرة. فهو سبحانه الرؤوف بعباده، الميسر أحوالهم، القاضي حاجاتهم، الذي يقبل منهم القليل من العمل، ويعطيهم الجزيل من الأجر^(١). وهذا الاسم وارد في القرآن مقرونا باسم الله الرحيم عدة مرات، كما في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)^(٢). كما ورد أيضا مقيدا بالعباد، في قوله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)^(٣). أي: "عظيم الرحمة بالعباد، يضاعف الحسنات، ويعفو عن السيئات"^(٤).

الغفور، الغفار: أصله من الغفر، وهو: إلbas ما يصونه عن الدنس. والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسّه العذاب. والاستغفار: طلب ذلك بالمقال والفعال^(٥). يقول الغزالي في الغفار: "هو الذي أظهر الجميل وستر القبيح. والذنوب من جملة القبائح، التي سترها بإسبال الستر عليها في الدنيا، والتجاوز عن عقوبتها في الآخرة"^(٦). والله تبارك وتعالى هو الغفار، الذي يستر ذنوب عباده، ويغطيهم بستره، فلا يكشف أمر العبد لخلقه، ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره في عيونهم. وهو الغفور، الذي يكثر منه الستر على المذنبين من عباده، وهو المعروف بالغفران والصفح عن عباده، وكلّ أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته، كما هو مضطرّ إلى رحمته وكرمه. وهو يغفر الذنوب، صغيرها وكبيرها مهما عظمت، فإن مغفرة الله أعظم منها، كما قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ)^(٧).

واسم الله الغفور ورد في القرآن كثيرا مع اسمه الرحيم، كما في قوله تعالى: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)^(٨). وعند الاقتران يأتي متقدما على اسمه الرحيم إلا في موضع واحد، وهو قوله تعالى: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا

^١ انظر: موسوعة فقه القلوب ٢٨٨/١ محمد بن إبراهيم بن عبد الله التوحيدي، ط: بيت الأفكار الدولية، الرياض - السعودية.

^٢ سورة النقرة: ١٤٣

^٣ سورة النقرة: ٢٠٧

^٤ صعوة التعاسير للصابوني: ١١٩/١

^٥ انظر: المعردات للأصفهاني، ص: ٦٠٩

^٦ المقصد الأسنى للعزالي، ص: ٨٠

^٧ سورة الحنم: ٣٢

^٨ سورة الشورى: ٥

وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ^(١). ويأتي مقرونا أيضا بالأسماء الحسنى التالية: الحليم، والعزیز، والشكور، والودود، والعفو، كما ورد غير مقرون، ولكنه مقيد بالأوابين في قوله تعالى: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا)^(٢). وأما اسمه الغفار فقد ذكر في القرآن الكريم مقرونا باسمه العزيز، كما في قوله تبارك وتعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)^(٣). كما ورد غير مقرون بغيره من الأسماء، مقيدا بمن تاب، وذلك في قوله تبارك وتعالى: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى)^(٤). ومطلقا من القيد كما في قوله تبارك وتعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)^(٥).

التَّوَابُ: وهذا الاسم مأخوذ من التوبة، وهي: "الإجابة إلى الله، والأوبة إلى طاعته مما يكره من معصيته"^(٦). والله هو التَّوَابُ على من تاب إليه، التارك مجازاته على المعصية. وتسميته بهذا الاسم لكثرة قبوله توبة العباد حالا بعد حال^(٧). يقول الغزالي في شرح التَّوَاب: "هو الذي يرجع إلى تيسير أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى، بما يظهر لهم من آياته، ويسوق إليهم من تنبيهاته، ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته، حتى إذا اطلَّعوا بتعريفه على غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه، فرجعوا إلى التوبة، فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول"^(٨).

وقد ورد اسم الله التَّوَاب في القرآن مرارا مقرونا مع اسمه الرحيم، كما في قوله تعالى: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ)^(٩). وجاء مع اسمه الحكيم مرة

^١ سورة ساء: ٢

^٢ سورة الإسراء: ٢٥

^٣ سورة الرمر: ٥، وانظر كذلك: سورة ص: ٦٦، وسورة عاف: ٤٢

^٤ سورة طه: ٨٢

^٥ سورة نوح: ١٠

^٦ تفسير الطبري: ٥٤٧/١

^٧ انظر: المصدر السابق ٥٤٧/١، والمعدرات للأصمعي، ص: ١٦٩

^٨ المقصد الأسى للغزالي، ص: ١٣٩

^٩ سورة البقرة: ٣٧

واحدة في قوله تعالى: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)^(١). كما جاء منفردا في موضع واحد، وذلك في قوله: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)^(٢).

العفو: مأخوذ من العفو وهو يدل على ترك الشيء، وأيضا على طلبه وقصده. فعفو الله عن خلقه: تركه إياهم فلا يعاقبهم، فضلا منه. فكل من استحق عقوبة، فتركه فقد عفوت عنه. ويقال: عفاه أي: قصده متناولا ما عنده^(٣). يقول الغزالي في شرح هذا الاسم: "هو الذي يمحو السيئات، ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من الغفور، ولكنه أبلغ منه، فإن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، والمحو أبلغ من الستر"^(٤). وهذا الاسم من أسماء الله الحسنى ذكر في القرآن في مواضع، مقرونا باسم الله الغفور، منها قوله تعالى: (فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا)^(٥). وكذا جاء مقرونا باسمه القدير في قوله تعالى: (إِنْ تُبْذُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تُعْفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا)^(٦).

الحليم: مأخوذ من الحلم الذي هو: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب، وجمعه أحلام، وليس الحلم في الحقيقة هو العقل، لكن فسروه بذلك لكونه من مسببات العقل^(٧). يقول السعدي في بيان هذا الاسم: "الحليم الذي له الحلم الكامل، والذي وسع حلمه أهل الكفر، والفسوق، والعصيان، ومنع عقوبته أن تحلّ بأهل الظلم عاجلاً، فهو يمهّلهم ليتوبوا، ولا يهملهم إذا أصرّوا، واستمروا في طغيانهم، ولم ينيبوا. والحليم الذي يدُرُّ على خلقه بالنعم الظاهرة، والباطنة مع معاصيهم، وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العصاة بعصيانهم، ويستعذبهم كي يتوبوا، ويمهّلهم كي ينيبوا"^(٨). وقد جاء هذا الاسم مقرونا باسمه تعالى الغفور في مواضع عدة من القرآن، منها قوله تعالى: (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ

^١ سورة النور: ١٠

^٢ سورة الصر: ٣

^٣ انظر: المعردات للراغب الأصفهاني، ص: ٥٧٤، ومعجم مقاييس اللغة لاس فارس: ٥٦/٤

^٤ المقصد الأسى للعرالي، ص: ١٤٠

^٥ سورة النساء: ٤٣

^٦ سورة النساء: ١٤٩

^٧ انظر: المعردات للراغب الأصفهاني، ص: ٢٥٣

^٨ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي، ص: ١٨٩

غَفُورٌ حَلِيمٌ^(١). كما ورد مقرونا باسمه تعالى العليم في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)^(٢). وورد ذكره أيضا مع اسمه تعالى الغني في موضع واحد، وهو قوله تعالى: (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)^(٣). وذكر في القرآن مع اسمه تعالى الشكور في موضع واحد، وذلك في قوله تعالى: (إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكورٌ حلِيمٌ)^(٤). والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

^١ سورة البقرة: ٢٢٥

^٢ سورة الأحزاب: ٥١

^٣ البقرة: ٢٦٣

^٤ سورة التعا: ١٧

المطلب الثالث: إفادة رحمة الله ومغفرته للترغيب في القرآن الكريم

لا شك أن تصوّر رحمة الله تعالى من أكبر الحوافز للإنسان في طاعة الرحمن وامتنال أوامره. فالمؤمن إذا تأمل رحمة الله وسعتها وشمولها وكثرتها يبذل قصارى جهده في الطاعة والامتثال حياء منه وشكرا على ما يراه من آثار رحمته، وقد أحاطته من كل جانب، فيلحظ أن الحصول على هذه الرحمة لابدّ لها من أسباب ووسائل، من خلالها يتعرض الإنسان لنفحات ربه السيّالة، ورحماته الفيضة. فالاجتهاد في طاعة الرحمن، والإحسان في عبادته من أكبر الوسائل المؤدّية إلى رحمة البر الكريم، كما قال عزّ من قائل: (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)^(١). والرجاء لرحمة الله منوط بالإيمان ومقتضياته من الأعمال الصالحة، كما أن المرء لا يتأقّل له في عالم الدنيا أن يترجّى منافع شيء إلا بعد السعي للحصول على أسبابه، والسلوك لكل سبيل يؤدي إليه، فكذلك الراجي لرحمة ربه لا ينبغي له أن يتواكل ويكتفي بالأمان والأحلام، بل عليه أن يشمّر عن ساعد الجدّ، ويتفانى في امتثال أوامر الله، والاجتناب عن مناهيه، مستعينا بربه في كل ذلك. وهذا الاجتهاد يتسبّب منه الرجاء، والطمع في رحمة الله، كما قال تعالى في كتابه المجيد: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)^(٢). يقول السعدي رحمه الله تعالى في تفسير الآية: "وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل، وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتمنّ وغرور، وهو دالّ على ضعف همّة صاحبه، ونقص عقله، بمثّلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي، ونحو ذلك"^(٣).

ومن هنا يكون التأمل في أسماء الله وصفاته المشتملة على الرحمة وآثارها أكبر حافز للمراء في القيام بطاعة الله وامتنال أوامره، محتسبا الأجر والثواب، ومؤملا الفوز بالجنان ومجاورة الرحمن. وفيما يلي بعض الأمثلة من آي الذكر الحكيم بهذا الصدد. قال تعالى مرغبا في التوبة والاستغفار: (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)^(٤). وقال تعالى في

^١ سورة الأعراف: ٥٦

^٢ سورة البقرة: ٢١٨

^٣ تفسير السعدي، ص: ٩٨

^٤ سورة المائدة: ٣٩

الترغيب لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(١). وقال تعالى مرغبا في الإيمان بالله واليوم الآخر والإخلاص في الإنفاق: (وَمِنَ الْأَغْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٢). وقال تعالى في الترغيب للهجرة والجهاد والصبر على المكاره: (ثُمَّ إِنْ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٣). وقال تعالى مرغبا في الإيمان بالله ورسوله من غير تفرقة بين الأنبياء في ذلك: (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)^(٤).

ملاحظة: في علاقة أسماء الرحمة بالترهيب

الكلام عن الرحمة وعلاقتها بالترغيب أنه واضح جلي لا يحتاج إلى عناء كثير، أو إعمال فكر. أما علاقة الأسماء والصفات المشتملة على الرحمة وآثارها بالترهيب فغير ظاهر، ولا يوجد علاقة واضحة بينهما إلا من باب الإشارة والرمز. ومن الممكن أن يلحظ القارئ لكتاب الله عند وقوفه على هذه الصفات أن التقصير في الأسباب والوسائل الجالبة لرحمة الله سيؤدي بالتأكيد إلى نتيجة عكسية تتمثل في الحرمان من الرحمة، والوقوع في سخط الله تعالى، وهذا بدوره يثير عاطفة الخوف والوجل. فمثلا عند قوله تعالى: (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)^(٥)، يخاف المؤمن ألا يكون محسنا، فيُحَرِّم من رحمة الله الواسعة.

ومن هنا أعرضت عن ذكر الترهيب وعلاقته بالأسماء والصفات الدالة على رحمة الله الواسعة، جعلنا الله ممن يتعرض لها، ويظفر بمجامعها في الدنيا والآخرة، إنه العزيز الرحيم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب، وهو حسبي، ونعم الوكيل.

^١ سورة آل عمران: ٣١

^٢ سورة التوبة: ٩٩

^٣ سورة الحل: ١١٠

^٤ سورة النساء: ١٥٢

^٥ سورة الأعراف: ٥٦

البحث الثالث

الأسماء والصفات المشتمة على كمال القدرة والعظمة ونفاذ
المشيئة، وإفادتها للترغيب والترهيب

ويشتمل على مطلبين:

- ١ - الأسماء والصفات الدالة على القدرة والعظمة ونفاذ المشيئة
- ٢ - الترغيب والترغيب في صفات القدرة والعظمة ونفاذ المشيئة

المطلب الأول

الأسماء والصفات الدالة على القدرة والعظمة ونفاذ المشيئة

لله جل جلاله العظمة والكبرياء، كما له القدرة التامة والمشيئة النافذة. خلق المخلوقات كلها بقدرته وعلمه وإرادته، كما في قوله: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)^(١). فهو خالق الأشياء كلها، لا يخرج شيء منها عن تدبيره وقهره وسلطانه، له ما في السموات وما في الأرض خلقا وإيجادا، تدبيرا وتصريفا. له القدرة التامة والمشيئة النافذة، لا يتعاضم على قدرته شيء، ولا يعترض على إرادته أحد. (أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(٢). والله سبحانه وتعالى هو القوي العزيز الذي خضعت له ملكوت السموات والأرض، وهو العظيم الكبير المتعال، عنت له وجوه الجبابرة والطواغيت، وهو صاحب القدرة التامة والمشيئة النافذة، قهر جميع الخلائق وسخرها لما يريد من أمره وحكمته، وهو المتفرد بالعزّ والجبروت، ذلّ الأقوياء لقهره وسلطانه، وخشعت الأصوات هيبة منه وخوفا. (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)^(٣). ومن آثار قدرته خلق السموات والأرض وما بينهما، من الجبال والرياح والبحار والأنهار والسحاب والشجر والدواب والشمس والقمر بقدرته وإرادته ومشيئته، ما شاء الله كان وما لم يكن، وتسخيرهما وتدبير شأنهما، بحيث لا يختل فيهما شيء ولا تتعطل فيهما مصلحة من المصالح التي وضعها الله فيهما، يحفظهما من الزوال والانشقاق والتحطم وغير ذلك من العيوب التي لو وجدت فيهما لما تيسرت الحياة والبقاء فيهما. (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)^(٤).

ومشيئة الله نافذة لا يقاومها أحد، ولا يردها شيء، ولا يتحكم في أمرها أحد، بل الله عزّ وجل يفعل ما يريد، وكل ما أَرَادَهُ لا يَخْلُو عَنْ حِكْمَةٍ وَعِلْمٍ وَمَصْلَحَةٍ، فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا

^١ سورة الزمر: ٦٢

^٢ سورة يس: ٨١، ٨٢

^٣ سورة الزمر: ٦٧

^٤ سورة الزمر: ٥

لم يشأ لم يكن، (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَوْا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)^(١). فمشيئته عز وجل هي الموجبة لكل ما في الوجود، فما وقع في الوجود من عمل فإنما وقع بمشيئة الله، وما لم يقع إنما لم يقع لأن الله عز وجل لم يشأ وقوعه، ولو شاء وقوعه لوقع. إذن فالله عز وجل له المشيئة النافذة في خلقه، فكل صلاح وخير وطاعة وإيمان حصل في هذه الحياة إنما حصل بمشيئته جل وعلا ولو شاء لم يحصل. وكل فساد وانحراف ومعصية وكفر وجد في هذه الحياة إنما وجد بمشيئة الله عز وجل ولو شاء لم يوجد. وإن الله عز وجل يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله^(٢). وفي هذا يقول المولى جل في علاه: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)^(٣). يقول السعدي: "فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله لا يوجد سبب مستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سببا لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح"^(٤).

والأسماء والصفات المشتملة على قدرة الله تعالى، وعظمته وكبريائه، ونفاذ مشيئته كثيرة في القرآن الكريم، لكنني أتناول بعضا منها للدلالة على المعاني المطلوبة، متضمنة لغيرها من الأسماء والصفات، التي لم أذكرها عن طريق القياس وإلحاق النظر بالنظر، وهي: القدير، القوي، المتين، العزيز، العظيم، الكبير، القهار، القاهر، الجبار، الفاعل لما يريد.

القدير: معناه القادر على ما يشاء لا يعجزه شيء ولا يفوته مطلوب. والله تعالى هو القادر المطلق، فلا يتطرق إلى قدرته عجز ولا يفوته شيء. فإذا وصف الله تعالى بالقدرة فهي عبارة عن نفي العجز عنه، وهو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائدا عليه ولا ناقصا عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف بها على وجه الإطلاق إلا الله تعالى. أما إذا وصف بها العبد فعلى

^١ سورة الفرقة: ٢٥٣

^٢ انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة الأشعر ١/٤٨-٤٩، ليجي س أبي الخير اليمعي الشافعي، ط: الأولى، أصواء السلف، الرياض - المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م. التحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف.

^٣ سورة آل عمران: ٢٦، ٢٧

^٤ تفسير السعدي، ص: ١٢٧

سبيل التقييد أي قادر على كذا^(١). يقول الغزالي في شرح هذا الاسم: "والقدرة عبارة عن المعنى الذي به يوجد الشيء متقدرا بتقدير الإرادة والعلم، واقعا على وفقهما. والقادر هو الذي إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وليس من شرطه أن يشاء لا محالة... والقادر المطلق: هو الذي يخترع كل موجود اختراعا يتفرد به ويستغني فيه عن معاونة غيره"^(٢).

وهذا الاسم ورد في القرآن كثيرا، على وجه الإطلاق لقدرة الله تعالى وأنها شاملة لكل شيء، وأنه لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير، كما في قوله تعالى: (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٣). وورد عدة مرات مقرونا باسمه تعالى العليم، كما في قوله: (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورَ. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)^(٤). واقترن أيضا باسمين آخرين من أسمائه تعالى، كما في قوله: (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٥). وذكر هذا الاسم مع اسمه تعالى: العفو مرة واحدة في قوله: (إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَغْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًا قَدِيرًا)^(٦). وأحيانا يأتي في القرآن غير مقرون بشيء من الأسماء الأخرى، لكنه مقيد ببعض المقدورات الخاصة، كما في قوله تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)^(٧). وقد يأتي مطلقا غير مقيد بشيء من الأشياء، كما في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا)^(٨).

العزيب: مأخوذ من العِزَّة، التي هي الغلبة والشدة، وهي: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب، من قولهم: أرضٌ عَزَازٌ. أي: صُلْبَةٌ. والعَزِيزُ: الذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَرُ. يقال: عَزَّيْ فلان على الأمر إذا

^١ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزحاح، ص: ٥٩، والمفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٦٥٧-٦٥٨

^٢ المقصد الأسى للغزالي، ص: ١٣٤

^٣ سورة القرة: ٢٨٤

^٤ سورة الشورى: ٤٩، ٥٠

^٥ سورة الممتحنة: ٧

^٦ سورة النساء: ١٤٩

^٧ سورة الحج: ٣٩

^٨ سورة الفرقان: ٥٤

غلبني عليه، قال تعالى: (فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ)^(١) أي: قوّينا أمره وشدّدناه، وقال أيضا: (وَعَزَّزْنِي فِي الْخِطَابِ)^(٢)، أي: غلبني. والله تعالى هو الغالب على كلّ شيء، فهو العزيز الذي ذلّ لعزّته كلّ عزيز^(٣). وهو: العزيز الذي له العزّة كلّها عزّة القوّة، وهي وصفه العظيم الذي لا تنسب إليه قوّة المخلوقات وإن عظمت. وعزّة الغلبة، فهي كلّها مقصورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرّك منها متحرّك ولا يتصرّف متصرّف إلا بحوله وقوّته وإذنه. وعزّة الامتناع، فهو ممتنع أن يناله أحد من المخلوقات، فإنّه هو الغني بذاته فلا يحتاج إلى أحد، ولا يبلغ العباد ضرّه فيضرونه، ولا نفعه فينفعونه^(٤).

وهذا الاسم يرد مقرونا باسمه تعالى: الحكيم في مواضع كثيرة من القرآن، كما في قوله تعالى: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٥). وذكر في القرآن عدّة مرات مقرونا باسمه تعالى القوي، وذلك مثل قوله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)^(٦). وورد أيضا مقرونا بأسمائه الحسنى التالية: الغفور، الرحيم، العليم، ذو انتقام، المقتدر، الحميد، الوهاب، الغفار، الغفور، ولم أجده واردا على الانفراد.

القوي، المتين: القوّة تستعمل تارة في معنى القدرة، وتارة للتهيؤ الموجود في الشيء. ويستعمل ذلك في البدن تارة، وفي القلب أخرى، وفي المعاون من خارج تارة، وفي القدرة الإلهية تارة. والقوي: هو الكامل القدرة على الشيء. تقول: هو قادر على حمله، فإذا زدته وصفا قلت: هو قويّ على حمله^(٧). المتّان: مكتنفا الصّلب، وبه شبه المتّان من الأرض، ومتّنه: ضربت متنه، ومتّان: قويّ متنه، فصار متينا، ومنه قيل: حبل متين. والمتين أصله فعيل من المتّان الذي هو العضو، وهو

^١ سورة يس: ١٤

^٢ سورة ص: ٢٣

^٣ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزحاح، ص: ٣٣-٣٤، والمفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٥٦٣

^٤ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي، ص: ٢١٤

^٥ سورة القرة: ١٢٩

^٦ سورة الحديد: ٢٥

^٧ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزحاح، ص: ٥٤، والمفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٦٩٣-٣٩٤

يفيد في الله سبحانه التناهي في القوة والقدرة^(١). يقول الغزالي في شرح هذين الاسمين: "القوة تدل على القدرة التامة، والمتانة تدل على شدة القوة. والله سبحانه وتعالى من حيث إنه بالغ القدرة تامها: قوي. ومن حيث إنه شديدة القوة: متين، وذلك يرجع إلى معاني القدرة"^(٢).

واسم الله تعالى القوي ورد في القرآن الحكيم عدة مرات مقرونا باسمه العزيز، كما في قوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)^(٣). وورد أيضا مع اسمه تعالى شديد العقاب: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)^(٤). أي: "ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو شديد العقاب، أي: عقابه أليم شديد وجيع. أعاذنا الله منه"^(٥). ولم أجد اسم الله تعالى القوي منفردا أو مقرونا باسم آخر من أسمائه في القرآن المجيد غير ما سبق ذكره آنفا. وأما اسم الله تعالى المتين، فلم أجد له ورد في القرآن إلا في موضع واحد، وهو قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)^(٦). والله أعلم بالصواب.

العظيم الكبير: الكبير: هو الذي له الكبرياء في ذاته، وصفاته، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه من أهل السماء والأرض، وهو سبحانه وتعالى الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى^(٧). والعظيم: هو اسم جامع لصفات العظمة والكبرياء والمجد والبهاء الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح. فمعاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان: أحدهما: أنه موصوف بصفات الكمال، وله من هذا الكمال أكمله، وأعظمه وأوسع، فله العلم المحيط، والقدرة النافذة، والكبرياء، والعظمة. النوع الثاني: أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يُعَظَّم كما يعظم الله، فيستحق تعظيمهم بقلوبهم، وألستهم، وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته، ومحبه، والذل له، والإنكسار له، والخضوع لكبريائه، والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته.

^١ انظر: المصدرين السابقين، ص: ٥٥، وص: ٧٥٨

^٢ المقصد الأسى للغزالي، ص: ١٢٩

^٣ سورة هود: ٦٦

^٤ سورة عاف: ٢٢

^٥ تفسير اس كثير: ١٣٨/٧

^٦ سورة الداريات: ٥٨

^٧ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي، ص: ٢٢٤، وشرح أسماء الله الحسنى للقطاوي، ص: ٨٥

ومن تعظيمه تعظيم ما حرّمه وشرعه من زمان ومكان وأعمال. ومن تعظيمه أن لا يعترض على شيء مما خلقه أو شرعه^(١). وفي الحديث القدسي يقول المولى جلّ جلاله: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»^(٢). ومعنى الحديث: أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه، اختص بهما لا يشاركه أحد فيهما، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما، لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل. وضرب الرداء والإزار مثلاً في ذلك كما لا يشارك الإنسان في ردائه وإزاره أحد، فكذلك لا يشارك الله في الكبرياء والعظمة مخلوق. ومعنى نازعني: تخلّق بذلك، فيصير في معنى المشارك^(٣).

والكبير من أسماء الله تعالى الحسنى ورد في القرآن الكريم عدة مرات مقرونا باسمه تعالى العليّ، كما في قوله: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)^(٤). وذكر أيضا في القرآن الكريم مع الأسماء المذكورة في قوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)^(٥). وأما اسمه تعالى العظيم، فقد ورد في القرآن الكريم عدّة مرات مقرونا باسمه العليّ، كما في آية الكرسي: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)^(٦). وقد ورد هذا الاسم وصفا لاسمه تعالى: الربّ في عدّة مواضع من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)^(٧). ولفظ الجلالة في موضع واحد، وهو قوله تعالى: (إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)^(٨).

^١ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي، ص: ٢١٦-٢١٨

^٢ أخرجه أبو داود في سننه (٥٩/٤)، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكر عن أبي هريرة بلفظه، وابن ماجة في سننه (١٣٩٧/٢)، كتاب الرهد، باب العراء من الكر والتواضع عن ابن عباس بلفظ: "القيته في النار"

^٣ انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٠١/١١، محمد أشرف العظيم آبادي، ط: الثانية، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥هـ.

^٤ سورة الحج: ٦٢

^٥ سورة الرعد: ٩

^٦ سورة البقرة: ٢٥٥

^٧ سورة الواقعة: ٧٤

^٨ سورة الحاقة: ٣٣

القاهر، القهار، الجبار: القهار مبالغة من اسم الله القاهر. والقهر في وضع العربية يستعمل في الغلبة والتذليل معاً، يقال قهر فلان الناقة إذا راضها وذللها. والله تعالى قهر المعاندين بما أقام من الآيات والدلالات على وحدانيته، وقهر جبابرة خلقه بعزّ سلطانه وقهر الخلق كلّهم بالموت. وهو الذي قهر جميع الكائنات، وذلت له جميع المخلوقات، ودانت لقدرته ومشيتته عناصر العالم العلوي والسفلي، فلا يحدث حادث ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وجميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون، لا يملكون لأنفسهم نفعا، ولا ضرا، ولا خيراً، ولا شراً، وقهره مستلزم لحياته، وعزّته، وقدرته، فلا يتمّ قهره للخلقة إلا بتمام حياته وقوة عزّته واقتداره. إذ لولا هذه الأوصاف الثلاثة لا يتم له قهر ولا سلطان^(١). يقول الغزالي في بيان معنى اسم الله القهار: "القهار هو الذي يقصم ظهور الجبابرة من أعدائه، فيقهرهم بالإماتة والإذلال، بل الذي لا موجود إلا وهو مسخر تحت قهره ومقدرته عاجز في قبضته"^(٢).

أما اسمه تعالى: الجبار فمأخوذ من الجبر، وأصله: إصلاح الشيء بضرب من القهر، يقال: جبرته فانجبر. وللجبار من أسمائه الحسنى ثلاثة معانٍ، الأول: أنّه الذي يجبر الضعيف، وكلّ قلب منكسر لأجله، فيجبر الكسير، ويغني الفقير، ويُيسّر على المعسر كل عسير، ويجبر المصاب بتوقيفه للثبات والصبر، ويجبر جبراً خاصاً قلوب الخاضعين لعظمته وجلاله، وقلوب الحيين بما يفيض عليها من أنواع كراماته، وأصناف المعارف والأحوال الإيمانية. والثاني: أنّه القهار لكل شيء، وهو الذي دان له كلّ شيء، وخضع له كلّ شيء. والثالث: أنّه العليّ على كلّ شيء^(٣). قال الغزالي في شرح اسم الله الجبار: "هو الذي ينفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل واحد، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، الذي لا يخرج أحد من قبضته، وتقصر الأيدي دون حمى حضرته. فالجبار المطلق هو الله سبحانه وتعالى، فإنه يجبر كل أحد، ولا يجبره أحد"^(٤).

وذكر اسم الله القهار عدة مرات مقروناً باسمه الواحد، منها قوله تعالى: (يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)^(٥). وأما اسمه القاهر فقد ورد

^١ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للرحاج، ص: ٣٨، والمفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٦٨٧، والتمر الختمى للقطاطي، ص: ٥٦-٥٧.

^٢ المقصد الأسنى للعراي، ص: ٨١.

^٣ انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص: ١٨٣، والتمر الختمى للقطاطي، ص: ٥٧-٥٨.

^٤ المقصد الأسنى للعراي، ص: ٧٤.

^٥ سورة عافر: ١٦.

في القرآن الكريم مرة مقرونا بغيره من الأسماء، وذلك في قوله تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)^(١). ومرة غير مقرون في قوله تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)^(٢). وأما الجبار فقد ورد مرة واحدة في القرآن الكريم ضمن أسماء أخرى من أسماء الله تعالى. وذلك في قوله تعالى: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)^(٣). والله أعلم بالصواب.

فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ: ومعناه هو الذي إذا تعلقت إرادته بفعل فعله على أكمل ما تعلقت به، لا ينقصه شيء ولا يبطيء به ما أراد تعجيله. وهذا من كمال قوته، ونفوذ مشيئته، وقدرته. فليس له ممانع، ولا معارض، ولا ظهير، ولا معين على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون. ومع أنه الفاعل لما يريد لإرادته تابعة لحكمته وحده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة لكل مافعله ويفعله. فصيغة المبالغة في قوله: فَعَالٌ للدلالة على الكثرة في الكمية والكيفية. والإرادة هنا هي الصفة التي تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه وهي غير الإرادة بمعنى المحبة^(٤). ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرتين فقط، وذلك في قوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)^(٥). وقوله تعالى أيضاً: (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ. ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ. فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)^(٦). والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

^١ سورة الأنعام: ١٨

^٢ سورة الأنعام: ٦١

^٣ سورة الحشر: ٢٣

^٤ انظر: التحرير والتنوير لاس عاشور ٣٠/٢٥٠، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي، ص: ٢٢١-٢٢٢

^٥ سورة هود: ١٠٧

^٦ سورة البروج: ١٤-١٦

المطلب الثاني

الترهيب والترغيب في صفات القدرة والعظمة ونفاذ المشيئة

يتجلى الله تعالى للعبد من خلال أسمائه وصفاته وأفعاله، فتفيض عليه منها معارف ربانية، وإشارات تربوية، ومقامات إيمانية، مما يؤكد الاهتمام بها، وفهم معانيها، ودراستها دراسة تأمل، وتفكر، للوصول إلى الأهداف السامية. وتضمن هذه الصفات للترهيب يظهر بأدنى تأمل، فإن العارف بقدرة الله تعالى وعظمته ونفاذ مشيئته، مع الاعتراف بعجزه وخلوه من الممانعة والدفاع عن النفس فيما يتوجه إليه من المهالك والمفاسد الدينية والدنيوية لا بد وأن تثور عنده عاطفة الرهبة والخوف من الله تعالى إن لم يمثل أمره ويتجر عن فهمه، فهو أمام ربّ عظيم القدرة، نافذ المشيئة لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه أمر، فعال لما يريد، يقدر على إفناء العالم في لحظة، ويستطيع أخذ الظالمين بجرائرهم بغتة. وذلك يزيد العبد خوفاً وحذراً من الله تعالى في هذه الدنيا أن يبطش به ويعجل له العقوبة، كما يخاف من المقام بين يديه يوم القيامة أن يفضحه على الملأ أو يعذبه. وهذا الخوف هو الذي يسوق العبد إلى المجاهدة ومخالفة النفس، كما في قوله تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)^(١).

وفيما يلي نسوق بعض الآيات التي تضمنت هذا النوع من الأسماء والتي يستخلص منها التخويف والتحذير للعباد من التفريط في حق رب العباد: منها قوله تعالى في التحذير من النفاق وعواقبه: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٢). وقوله تعالى في التحذير من عواقب الأمم السالفة، الذين كذبوا الرسل واتبعوا الباطل: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا)^(٣). وقوله تعالى في التحذير من الزلازل والمخالفات: (فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٤). وقوله

^١ سورة البارات: ٤٠، ٤١

^٢ سورة البقرة: ٢٠

^٣ سورة طه: ٤٤

^٤ سورة البقرة: ٢٠٩

تعالى في التحذير من التعدي في تأديب النساء: (فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا)^(١). وقوله تعالى في التخويف من أهوال يوم البعث والنشور: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)^(٢). وقوله تعالى في الترهيب من يوم العرض الذي لا يخفى على الله شيء من أمر الناس: (يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)^(٣). وقوله تعالى في التخويف من النار والحذر من الشقاوة والخلود فيها: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)^(٤). وقوله تعالى في التخويف من خزي عذاب الله تعالى في هذه الدنيا: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)^(٥). وأوجه اشتغال صفات القدرة والعظمة على الترهيب والتخويف لا تخفى على أحد، فإن العلم بقدرة الله تعالى وعظمته ونفاذ مشيئته تثير في قلب العبد الخوف من مغبة أعماله السيئة، وذلك إذا لاحظ أن الله قادر على مجازاته بجرائره، ومشيئته نافذة في معاقبته في الدنيا والآخرة، فيتولد من ذلك الحذر والخوف من الله تعالى، مما يبعث على التزام العبد بأوامر الله تعالى، والانزجار عن نواهيه، والله الموفق للصواب.

ودلالة صفات القدرة والعظمة والمشيئة على الترغيب ليست ظاهرة، وإنما يلحظ العبد ذلك عند التأمل في الآيات التي تضمنت وعدا وثوابا على الإيمان والعمل الصالح، ثم كان ختامها ببعض الأسماء الحسنى الدالة على هذه الصفات، الأمر الذي يؤكد على أن الله قادر على إيفاء الجزاء وإنجاز الموعد، فيكون ذلك إشارة إلى الترغيب في الأعمال التي ورد ذكرها في الآية.

وفيما يلي طائفة من الأمثلة على ذلك: من ذلك قوله تعالى في الترغيب للتوبة النصوح، وما يترتب عليها من تكفير السيئات، ودخول الجنات، وإتمام الأنوار: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ

^١ سورة النساء: ٣٤

^٢ سورة إبراهيم: ٤٨

^٣ سورة عاfer: ١٦

^٤ سورة هود: ١٠٦، ١٠٧

^٥ سورة هود: ٦٦

رَبَّنَا أُنِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١). وقوله تعالى في الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، وما يترتب عليه من دخول الجنان والخلود فيها: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ. خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٢). وقوله تعالى في الترغيب لنصرة الدين، وأن العاقبة لأوليائه في الدنيا والآخرة: (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)^(٣). وقوله تعالى في وصف المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، وأنّ الجزاء على ذلك إسباغ الرحمة عليهم في الدنيا والآخرة: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٤). وقد تبين من الأمثلة السابقة تضمّن صفات القدرة والعظمة للترغيب في الأعمال، وذلك إذا وقعت في ختام الآية المشتملة على ذكر الطاعات وثوابها، ليكون حثاً على تلك الطاعات، وتشويقاً إليها، مع الملاحظة بأنّ الأمر بذلك يملك تمام القدرة على الجزاء الموعود، وأنه لا يضيع عنده أجر عامل، ولا ثواب محسن. والله الموفق للصواب.

وفي ختام هذا المبحث اتضحت لنا معاني أسماء الله تعالى وصفاته، الدالة على القدرة والعظمة، ونفوذ المشيئة، بالإضافة إلى بيان أوجه إفادتها للترغيب والترهيب، وإن كان جانب الترهيب في دلالتها أظهر من الترغيب، والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

^١ سورة التحريم: ٨

^٢ سورة لقمان: ٨، ٩

^٣ سورة المحادلة: ٢١

^٤ سورة التوبة: ٧١

المبحث الرابع

الأسماء والصفات الدالة على الحكم والعدل، والثواب والعقاب،

وإفادتها للترغيب والترهيب

ويشتمل على المطالب الآتية:

١ - الأسماء والصفات المتضمنة للحكم والعدل، والثواب

والعقاب

٢ - الترغيب المستفاد من الأسماء والصفات الدالة على

الحكم والعدل والثواب والعقاب

٣ - الترغيب المستفاد من الأسماء والصفات الدالة على

الحكم والعدل، والثواب والعقاب

المطلب الأول

الأسماء والصفات المضمنة للحكم والعدل، والثواب والعقاب

الله تبارك وتعالى حَكَمٌ عَدْلٌ، يقول الحق، ويأمر بالحق والعدل والإحسان، كما في قوله تعالى: (وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)^(١)، وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)^(٢)، ويحكم بالعدل والحق وهو خير الحاكمين، فلو عذَّب الخلق جميعا لم يكونوا في حكمه مظلومين، ولو رحمهم جميعا لكان ذلك من فضله عليهم ورحمته بهم، ولكن اقتضت حكمته أن يجعلهم فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، فمن أحسن منهم فله الحسنی فضلا منه وإحسانا، ومن أساء فله العقاب عدلا منه وإنصافا، كما قال: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)^(٣). والله سبحانه وتعالى شديد العقاب، وشديد العذاب، وأخذة أليم وشديد، وبأسه قويّ وعنيف، وبطشه عظيم وخطير، يعاجل من يشاء من الكفرة والمجرمين بالعقوبة، وينتقم منهم في هذه الدنيا، كما فعل بالأُمم السابقة الذين كذبوا الرسل وعتوا عن أمر ربهم، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاثْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)^(٤)، فيرسل عليهم العذاب في صورٍ مختلفة كالصواعق المهلكة، والرياح المدمرة، والمياه الجارفة، والخسف، والمسح. وهو جل ثناؤه ذو انتقام، يؤجل عذابه وانتقامه وعقابه لمن يشاء من الكفرة والمجرمين إلى الآخرة، وهو أشدّ، كما قال تعالى: (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ)^(٥)، فيعذبهم في القبر والحشر والصراط، ثم يكون مصيرهم إلى جهنم التي حرها شديد وقعرها بعيد وعذابها مهين، فيئس المصير، كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)^(٦).

^١ سورة الأحراب: ٤

^٢ سورة الحل: ٩٠

^٣ سورة فصلت: ٤٦

^٤ سورة الروم: ٤٧

^٥ سورة الرعد: ٣٤

^٦ سورة المائدة: ٣٦، ٣٧

وإن الله جل في علاه حكم بالعدل وأثاب أوليائه في هذه الدنيا بالنصر والتمكين والحياة الطيبة والأمن والرخاء مقابل ما وفوا بعهودهم مع الله وأمضوا حياتهم وفق ما شرع الله في جميع نواحي الحياة، من الشعائر والشرائع. ويتجلى ذلك في تاريخ الأمم السالفة مع أنبيائهم، حيث نجى الرسل وأتباعهم من العذاب الأليم، وأنعم عليهم ومتّعهم إلى حين. وقد تجلّى عدل الله وإنصافه في إظهار دين الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام والقرون المفضّلة من بعدهم، فأنّاهم على إيمانهم وعملهم الصالح ونصرهم لدين الله وتضحيتهم في سبيل الله، بأن مكّن لهم في الأرض، ووسّع أرزاقهم، وجعلهم ملوكاً على رقاب الأمم الكافرة، يمثلون الحياة الإسلامية في بقعة كبيرة من الأرض ترفرت فيها رايات الإسلام، ونعم أهلوها من مسلم وكافر بنعمة الأمن والرخاء والعدل والإنصاف، تحقيقاً لما وعد الله به في كتابه العزيز: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)^(١).

والله تبارك وتعالى شكور يجازي أوليائه في الآخرة بما عملوا ويزيدهم من فضله، فيغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وذلك في قوله تعالى: (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)^(٢). وسأبين معاني أسماء الله تعالى وصفاته المشتملة على العدل والإنصاف، والانتقام من المجرمين، والثواب للمحسنين، وهي كثيرة في القرآن الكريم، لكنني أقتصر على الأسماء والصفات التالية: الحكم، الحاكم، الفتاح، الفاتح، الشكور، الشاكر، الحسيب، سريع الحساب، شديد العقاب، ذو الانتقام، مما يكون دليلاً على غيرها مما لم أذكره.

الحكم، والحاكم: الحكم والحاكم بمعنى واحد، وأصل الحكم في الكلام المنع للإصلاح، وسمي الحاكم حاكماً لأنه يمنع الخصمين من النظام. ومنه سميت اللحام: حكمة الدابة، لأنها تمنعه من

^١ سورة البور: ٥٥

^٢ سورة فاطر: ٣٣-٣٥

الجماح. والحكم بالشيء: أن تقضي بأنه كذا، أو ليس بكذا، سواء ألزمت ذلك الغير أو لم تلزمه. قال تعالى: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)^(١). ويقال: حَاكِمٌ وحُكَّامٌ لمن يحكم بين الناس، قال الله تعالى: (وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ)^(٢). والحكم: المتخصص بذلك، فهو أبلغ. قال الله تعالى: (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا)^(٣). فالله تعالى هو الحكم في الآخرة ولا حكم غيره^(٤).

والله جل ثناؤه الحكم العدل الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه، فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يُحْمَلُ أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه، ويؤدّي الحقوق إلى أهلها. وهو سبحانه موصوف بالعدل في فعله، فأفعاله كلها جارية على سنن العدل والاستقامة، وهي دائرة بين الفضل والرحمة، وبين العدل والحكمة. وأقواله كلها عدل، فهو لا يأمر العباد إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة. وهو العدل في الحكم بشرعه، وبيانه طرق الحكم بين المتخاصمين، والفصل بين المتنازعين، وهو العدل في أحكام القضاء والقدر، فيجري على الناس منها ما تقتضيه حكمته، وهو الحكم العدل، يقضي بين العباد يوم الجزاء والحساب، فيقضي بينهم بالحق، ويحمده الخلائق كلهم على ذلك، ويعترفون له بالعدل. قال تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)^(٥). وهو سبحانه الحكم بالعدل في وصفه وفي فعله وفي قوله وفي حكمه^(٦).

وقد ورد اسمه تعالى الحكم في القرآن المجيد مرة واحدة في قوله تعالى: (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)^(٧). وورد في الحديث أيضاً، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ»^(٨). أما الحاكم، فقد ذكر في غير آية من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: (وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا

^١ سورة النساء: ٥٨

^٢ سورة البقرة: ١٨٨

^٣ سورة الأنعام: ١١٤

^٤ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج، ص: ٤٣-٤٤، والمفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٢٤٨-٢٤٩

^٥ سورة الأنبياء: ٤٧

^٦ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي، ص: ١٨٥، وشرح أسماء الله الحسنى للقطامي، ص: ١٤١-١٤٢

^٧ سورة الأنعام: ١١٤

^٨ أخرجه أبو داود في سننه (٢٨٩/٤)، كتاب الأدب، باب في تعبير الاسم القبيح عن شريح بن هاني عن أبيه

فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ^(١). أما إثبات صفة الحكم لله جلّ جلاله، واختصاصه بها دون غيره من حكام الدنيا، فمذكور في القرآن الكريم عدّة مرات، منها قوله تعالى: (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ^(٢)). وقوله تعالى: (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٣)).

الفَتَّاحُ، الفاتح: مأخوذ من فتح الباب، ثم كثر واتسع في تيسير الأمور المعنوية، يقال: فتح القضية: أي فصل الأمر فيها، وأزال الإغلاق عنها. ومنه سُمّي الحاكم فاتحاً وذلك لأنه يفتح المستغلق بين الخصمين. والله سبحانه تعالى فتح بين الحقّ والباطل فأوضح الحقّ وبَيَّنّه وأدحض الباطل وأبطله فهو الفَتَّاح^(٤). ومعنى اسم الله الفَتَّاح: أنه هو الذي يحكم بين عباده، بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدريّة، وأحكامه الجزائية. ففتحه بحكمه الشرعي هو بيانه على السنة رسله جميع ما يحتاجه المكلفون، ويستقيمون به على الصراط المستقيم، وأما فتحه بجزائه فهو فتحه بين أنبيائه ومخالفهم بإكرام الأنبياء وأتباعهم ونجاعتهم، وبإهانة أعدائهم وعقوبتهم، وكذلك فتحه يوم القيامة، وحكمه بين الخلائق حين يوفى كلّ عامل بما عمله. وأما فتحه القدري فهو ما يقدره على عباده من خير، وشرّ، ونفع، وضرّ، وعطاء، ومنع^(٥).

وقد ورد اسم الله الفَتَّاح في موضع واحد مقروناً باسمه العليم، وهو قوله تعالى: (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ^(٦)). وكذا الفاتح ذكر في موضع واحد من القرآن في قوله تعالى: (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ^(٧)).

الشكور، الشاكر: الشكور فعول من الشكر وأصل الشكر في الكلام الظهور ومنه شكر الضرع إذا امتلأ وامتلاؤه ظهوره. والشكر: تصوّر النعمة وإظهارها، ويزاد الكفر، وهو: نسيان النعمة

^١ سورة الأعراف: ٨٧

^٢ سورة الأنعام: ٥٧

^٣ سورة القصص: ٧٠

^٤ انظر: تفسير أسماء الله للزجاج، ص: ٣٩، والمعربات للراغب الأصفهاني، ص: ٦٢١

^٥ انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي، ص: ٢٢٠-٢٢١

^٦ سورة ساء: ٢٦

^٧ سورة الأعراف: ٨٩

وسترها. وإذا وُصف الله بالشكر، فإنما يعنى به إنعامه على عباده، وجزاؤه بما أقاموه من العبادة^(١). والشاكر والشكور من أسمائه تعالى، والمراد بذلك: الذي يشكر القليل من العمل الخالص، ويعفو عن الكثير من الزلل، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً، بل يضاعفه من غير عدٍ ولا حساب، وقد يجزي الله العبد على العمل بأنواع من الثواب العاجل، فإذا قام عبده بأوامره، وامثل طاعته أعانه على ذلك، وأثنى عليه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطاً، وفي جميع أحواله بركة ونماء^(٢). يقول الغزالي في بيان اسم الشكور: "هو الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيماً في الآخرة غير محدود. ومن جازى الحسنة بأضعافها يقال: إنه شكر تلك الحسنة، ومن أثنى على المحسن أيضاً يقال: إنه شكر"^(٣).

وقد ورد اسم الله الشكور في القرآن الكريم عدّة مرات مع اسمه تعالى الغفور، كما في قوله تعالى: (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)^(٤). كما ورد مع اسمه الحليم مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: (إِنْ تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ)^(٥). وأما اسمه تعالى الشاكر، فقد ورد في القرآن مرتين مع اسمه العليم، وذلك قوله تعالى: (إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)^(٦). وقوله تعالى أيضاً: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)^(٧).

الحسيب: أصله من الحِسَاب الذي هو العدّ، والكثير الكافي. والحسيب: اسم من أسماء الله تعالى، والكافي، وذو الحَسَب. وعند إطلاقه على الله يكون بمعنى الرقيب المحاسب لعباده المتولي جزاءهم بالعدل، وبالفضل، يحفظ أعمالهم من خير وشرّ، ويحاسبهم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ. ويأتي أيضاً بمعنى الكافي عبده همومه، وغمومه، وأحص من ذلك أنه الحسيب للمتوكلين^(٨). وقد

^١ انظر: تفسير أسماء الله للزجاج، ص: ٤٧، والمفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٤٦١-٤٦٢

^٢ تفسير أسماء الله للسعدي، ص: ٢١٠

^٣ المقصد الأسى للغزالي، ص: ١٠٥

^٤ سورة فاطر: ٢٣

^٥ سورة النعاس: ١٧

^٦ سورة القرة: ١٥٨

^٧ سورة النساء: ١٤٧

^٨ انظر: المعجم الوسيط ١/١٧١، وتفسير أسماء الله للسعدي، ص: ١٨٢

ورد هذا الاسم الكريم في كتاب الله عز وجل عدة مرات، منها قوله تعالى: (وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا)^(١). وقوله تعالى: (فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)^(٢). وجاء في الكتاب العزيز صفة حساب الله تعالى لأعمال العباد يوم يقوم الحساب، كما في قوله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)^(٣).

سريع الحساب: وهذه صفة من صفات الله تعالى وردت في مواضع عدة من القرآن الكريم، ويراد بها أنه يحاسب الخلائق بسرعة فائقة، لا يقاس بغيرها من مقاييس السرعة المعروفة لدى الناس، كما قال الإمام الطبري: "وإنما وصف جل ثناؤه نفسه بسرعة الحساب، لأنه جل ذكره يحصى ما يحصى من أعمال عباده بغير عقد أصابع، ولا فكر ولا روية، فعل العجزة الضعفة من الخلق، ولكنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما، ثم هو مجاز عباده على كل ذلك"^(٤). وقد وردت هذه الصفة في مواضع عدة من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: (وَاللَّهُ يَخْكُمُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)^(٥). وقوله تعالى: (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)^(٦).

شديد العقاب: الشدة أصلها تدل على قوة في الشيء، وتستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النفس، وفي العذاب^(٧). وإضافتها للعقاب والعذاب في وصف الله تعالى تعني أن عقوبته شديدة وعذابه قوي، لا يماثله شيء من العقوبات المعروفة لدى الخلق، كما قال تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا)^(٨). والعقاب والمعاقبة أن تجزي الشخص سوءاً بما فعل من الذنوب والجرائم^(٩). فالله تبارك وتعالى شديد العقاب، وأليم العذاب، وذلك يعني أن جزاءه لعباده العصاة والمجرمين على ما

^١ سورة النساء: ٨٦

^٢ سورة النساء: ٦

^٣ سورة الأنبياء: ٤٧

^٤ تفسير الطبري: ٢٠٧/٤

^٥ سورة الرعد: ٤١

^٦ سورة غافر: ١٧

^٧ انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٤٤٧، ومعجم مقاييس اللغة لاس فارس ١٧٩/٣

^٨ سورة الفجر: ٢٥

^٩ انظر: قدس اللغة للأزهري ١٨٣/١، ولسان العرب: ٦١٩/١

فعلوا في هذه الدنيا من الذنوب والمعاصي شديد وقوي، لا مثيل له من العقوبات المعروفة لدى الخلق في هذه الدنيا، ولا يمكن بأي وجه من الوجوه أن ينفلت منها الجاني والمدان. وهذه الصفة جاءت في مواضع عدة من القرآن، منها قوله تعالى: (كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)^(١). وقوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)^(٢).

ذو انتقام: الانتقام افتعال، وهو العقوبة الشديدة الشبيهة بالنقم، وهو غضب الحق الحاصل من الاعتداء على المنتقم ينكر ويكره فاعله. وهو: العقاب على الاعتداء بغضب، وجيء في هذا الوصف لله تعالى بكلمة "ذو" الدالة على الملك، للإشارة إلى أنه انتقام عن اختيار لإقامة مصالح العباد، وليس هو تعالى مندفعاً للانتقام بدافع الطبع أو الحق^(٣). وقد ورد هذا الوصف لله تعالى في القرآن الكريم بصيغة المصدر المضاف إلى "ذو" في عدة آيات، مقرونا باسمه العزيز، كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتقام)^(٤). وقوله تعالى: (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتقام)^(٥). وقد ورد هذا الوصف أيضا بصيغة الفعل المسند إلى الله تعالى في مواضع عدة من القرآن، منها قوله تعالى: (فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)^(٦).

^١ سورة آل عمران: ١١

^٢ سورة غافر: ٢٢

^٣ انظر: المفردات للأصفهاني، ص: ٨٢٢، وتفسير أبي السعود: ٥/٢، والتحرير والتوير لاس عاشور: ١٥١/٣

^٤ سورة آل عمران: ٤

^٥ سورة الرعد: ٤٧

^٦ سورة الأعراف: ١٣٦

المطلب الثاني

الترهيب المستفاد من الأسماء والصفات الدالة على الحكم والعدل والثواب والعقاب

إن الأسماء الحسنى والصفات العلى الدالة على الحكم والعدل والثواب والعقاب تحمل في طياتها تخويفا وترهيبا للعبد من الوقوف بين يدي الحكم العدل، الذي يحاسب على ما افترفت يده من خير أو شر. وتلك الرهبة ناشئة من معرفة العبد ذنوبه ومعاصيه، وأنه لا يستطيع إنكارها أو إخفائها يوم المحشر والحساب، (يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)^(١)، وأن الحساب دقيق، والميزان صحيح، وأن رب العالمين لا يظلم أحدا، كما قال: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)^(٢). بالإضافة إلى أن العبد ليس على يقين من قبول توبته عند الله تعالى، كما أن الوعيد من الله تعالى قد جرى بمؤاخذه كل مجرم بجريرته، وذلك في قوله تعالى: (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)^(٣). "وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل لأيّ ذنب كان من صفائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضا لكل جزاء قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي"^(٤).

ومن هنا تكون الآيات المشتملة على الحكم بالعدل، والجزاء المنتصف بالثواب والعقاب مصدر قلق للمؤمن، تنتابه رهبة عند قراءتها وتدبر معانيها، فلا يلبث أن يتصور موقفه أمام الملك القهار، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وقد أعطي كتابه منشورا، وأمر بقراءة سجله الحافل بالخير والشر، (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)^(٥). وفيما يلي أذكر طائفة من الآيات المشتملة على الأسماء والصفات، المتضمنة لجزاء الله وثوابه بالحق والإنصاف في الدنيا والآخرة. ومن ذلك قوله تعالى في التخويف من المصير إلى الله والتعرض لقضائه وحسابه: (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ

^١ سورة عاfer: ١٦

^٢ سورة الأنبياء: ٤٧

^٣ سورة النساء: ١٢٣

^٤ تفسير السعدي: ص: ٢٠٥

^٥ سورة الإسراء: ١٣، ١٤

أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ^(١). أي: "وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم، أيها الناس، وأحصاها، وعرف مقاديرها ومبالغها"^(٢). وقوله تعالى في الترهب من الرجوع إلى صاحب الحكم النافذ والقضاء العادل يوم الحشر والمآب: (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)^(٣). وقوله تعالى في التحذير من الخيانة لأموال اليتامى: (فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)^(٤). أي: "كفى الله حاسباً لأعمال الناس ومجازياً بها، وفي هذا وعيد لكل جاحد حق"^(٥). وقوله تعالى في التخويف من الجزاء، وسرعة الحساب يوم يقوم الأشهاد: (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)^(٦). وقوله تعالى في الترهب من الكفر بالإسلام ونعمته: (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيْنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)^(٧). وقوله تعالى في التحذير من مخالفة أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)^(٨). وقوله تعالى في تحقيق وعده للرسول عليهم السلام ضد مخالفهم في الدنيا والآخرة: (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)^(٩).

وتبين لنا مما سبق من الأمثلة القرآنية أن الأسماء والصفات الدالة على الحكم والعدل والثواب والعقاب تتضمن عند ورودها في الخطاب القرآني وعيدا وتهديدا لمن لم يقم بالواجب المطلوب تجاه رب الأرباب، كما تثير خوف المؤمن المستقيم، لأنه يخشى سوء الخاتمة، أو التفريط في العمل من غير شعور، كما أنه لا يأمن مكر الله واستدارجه، فهو على خوف مستمر إلى أن يلقي الله تعالى، ويرى المصير الحسن في جنات النعيم، والله الموفق للصواب.

^١ سورة الأنعام: ٦٢

^٢ تفسير الطبري: ٤١٣/١١

^٣ سورة القصص: ٧٠

^٤ سورة النساء: ٦

^٥ التفسير المنير للرحلي: ٢٥٩/٤

^٦ سورة عاف: ١٧

^٧ سورة البقرة: ٢١١

^٨ سورة الأنعام: ١٣

^٩ سورة الرعد: ٤٧

المطلب الثالث

الترغيب المستفاد من الأسماء والصفات الدالة على الحكم والعدل والثواب والعقاب

أما تضمّن هذه الصفات والأسماء للترغيب فمن حيث إن العبد الصالح المستقيم على أوامر الله واتباع رسله لا يخاف من الضياع لأجور أعماله، ولا النقص في توفية جزائها، فيثق كُلُّ الوثوق بأنَّ الله حَكَمٌ عَدْلٌ يُوفِّي كلَّ عامل بما عمل، فلا يضيع له أجر عمل صالح أنجزه، ولا يُحَمَّل عليه وزر عمل لم يقترفه، كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)^(١). بل يعتقد زيادة على ذلك أن الله شكور، يشكر العمل الخالص وإن كان قليلا، ويجزيه بأضعاف مضاعفة من الأجور، ويثني على صاحب العمل ثناء عظيما بعد توفيقه وهدايته إياه لذلك، كما قال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)^(٢). ويعفو عن الزلل أيضا، ويغفر الذنوب وإن كانت عظيمة وكثيرة، ويدعو المجرمين إلى التوبة والإنابة إليه، مع وعده لهم بالعفو والغفران، كما قال تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)^(٣). وقد يجزئ الله العبد على العمل الصالح بثواب عاجل في الدنيا قبل الآخرة، بما يفتح عليه من نور القلب وقوة الإيمان، ونشاط البدن، والبركة والنماء في المال والأهل والولد.

وفيما يلي سرد لطائفة من الآيات المشتملة على هذه الأسماء والصفات، والتي تضمّنت الترغيب والترجية لرحمة الله وثوابه الجزيل في الدنيا والآخرة. كما في قوله تعالى في الترغيب للعمل الصالح: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)^(٤). وقوله تعالى في الترغيب للإيمان والشكر: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا

^١ سورة النساء: ٤٠

^٢ سورة النساء: ١٢٤

^٣ سورة الرمر: ٥٣

^٤ سورة فصلت: ٤٦

عَلِيمًا^(١). وقوله تعالى في الترغيب للعبادات التطوعية: (إِنَّ الصَّافَّاءَ وَالْمُرَوَّاتِ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ^(٢)). وقد انتهى هذا الفصل، الذي تحدث فيه عن أسماء الله تعالى وصفاته، وكيف تضمنت على الترغيب والترهيب. وقد اخترت أولا طائفة من أسماء الله وصفاته، الدالة على العلم والإحاطة، وبينت كيفية إفادتها للترغيب والترهيب، وثانيا: الأسماء والصفات المتضمنة لعموم المغفرة وسعة الرحمة وإفادتها للترغيب والترهيب. وثالثا: الأسماء والصفات الدالة على كمال القدرة والعظمة ونفاذ المشيئة، وإفادتها للترغيب والترهيب، ورابعا: الأسماء والصفات الدالة على الحكم والعدل، والثواب والعقاب، وسرعة الحساب، وإفادتها للترغيب والترهيب، والله الموفق للصواب.

^١ سورة النساء: ١٤٧

^٢ سورة البقرة: ١٥٨

الفصل الثاني

الترغيب والترهيب بأحوال الموت والقبر والقيامة ومصير العباد

وفيه تمهيد وأربعة مباحث:

التمهيد: الإيمان باليوم الآخر، وأهميته في الدين

المبحث الأول: الترغيب والترهيب بأحوال الموت والقبر

المبحث الثاني: الترهيب بأحوال الحشر والقيامة الكبرى

المبحث الثالث: الترهيب من النار وأهوالها

المبحث الرابع: الترغيب في الجنة ونعيمها

تمهيد: الإيمان باليوم الآخر وأهميته في الدين

الإيمان باليوم الآخر عبارة عن: الإيمان بكل ما جاء في القرآن أو الحديث مما يكون بعد الموت: ومن ذلك: فتنة القبر، وعذابه أو نعيمه إلى أن تقوم القيامة الكبرى، فتعاد الأرواح إلى الأجساد، ويقوم الناس من قبورهم لرب العالمين. وتنصب الموازين فتوزن فيها أعمال العباد، وتنشر الدواوين، وهي صحائف الأعمال، فأخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره. وفي عرصة القيامة: الحوض المورود لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، مأؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل. والصراط منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار، يمرّ الناس عليه بقدر أعمالهم، فمنهم من يلقى في جهنم، ومنهم من يجتازه فيدخل الجنة. وتفاصيل ما تضمّنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار في الكتاب والسنة الصحيحة، وفيهما ما يشفي ويغني عن غيره من الآثار القديمة^(١).

والإيمان باليوم الآخر من أهم مباحث الإيمان، وأحد أركانه العظام، لارتباطه بمصير العباد، وحياتهم الأبدية، حتى يصير فريق منهم في الجنة وفريق في السعير. وقد غفل معظم الناس عن حقيقة الإيمان باليوم الآخر، الأمر الذي أدّى إلى ضعف استعدادهم وتأهبهم لما يحدث فيه من الأهوال بالاجتهاد في طاعة الرحمن، كما يقول الغزالي: "وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم، ولم يتمكن من سويدهاء أفئدتهم، ويدلّ على ذلك شدة تشمّرهم واستعدادهم لحرّ الصيف وبرد الشتاء، وتهاونهم بحرّ جهنم وزمهريرها، مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال"^(٢). ومن هنا نجمل أهمية الإيمان باليوم الآخر في النقاط التالية:

١- الإيمان باليوم الآخر مقرون بالإيمان بالله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: (إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)^(٣). كما ورد أيضا مقرونا به في السنة، وفي

^١ انظر: مجموع الفتاوى لاس تيمية ١٤٥/٣-١٤٨

^٢ إحياء علوم الدين للغزالي: ٥١١/٤

^٣ سورة التوبة: ١٨

الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»^(١).

٢- الإيمان باليوم الآخر من المباحث التي ركّز عليها القرآن الكريم، خاصة في العهد المكي، حيث كان مشركوا العرب يرفعون علم الإنكار للبعث والنشور، إلى جانب الاستهزاء به، مستبعدين وقوعه. ومن أسوء مقالاتهم التي حكاها القرآن قولهم: إن الأجساد إذا بليت وصارت تراباً، والعظام إذا نخرت وصارت رفاتا أنى يكون لها إعادة وتسوية من جديد، كما قال جل وعلا: (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ. قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)^(٢).

٣- ومما يبرز أهمية الإيمان باليوم الآخر أنه تتحقق فيه عدالة أحكم الحاكمين، ومالك يوم الدين، وذلك أن كثيراً من القضايا التي حدث فيها الظلم بين الناس في الدنيا، ولم يتمكن فيها المظلوم من الانتصاف ممن ظلمه، ثم أفضى الكل إلى ربه ومات من غير جزاء ولا ثواب تحتاج إلى مقاضاة عادلة، ومحكمة فاصلة، مما يؤكد أنه لا بد من محكمة إلهية ستعقد وتكون أحكامها نهائية، وترفع إليها جميع هذه القضايا التي لم تفصل، وهذه المحكمة تتمثل في القضاء الرباني يوم البعث والنشور، كما قال تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)^(٣). وفي هذا اليوم يتم القصاص بين المخلوقات، حتى بين الحيوانات، يُنْتَصَفُ لضعيفها من قويها كما في الحديث: «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ»^(٤)، مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»^(٥). وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)^(٦). قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير الآية: "فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده فلا بد في حكمة الحكيم

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠/٨)، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان عن أي هريرة، ومسلم في صحيحه (٦٨/١)، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الحار والضيف، ولروى الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان عن أي هريرة أيضاً، إلا أن لفظه: "فليكرم حارة"

^٢ سورة المؤمنون: ٨١-٨٣

^٣ سورة الأنبياء: ٤٧

^٤ "والجَلْحَاءُ نالده هي الحماء التي لا قرن لها" شرح البوي على مسلم (١٣٧/١٦)

^٥ أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٩٧/٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تعزيم الظلم عن أي هريرة.

^٦ سورة ص: ٢٨

العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة^(١).

٤- أن الإيمان بالآخرة، وما يشتمل عليه من الجزاء والثواب والعقاب والأهوال هو الباعث الأعظم والحافز الأكبر للعباد في الرهبة من عذاب الله والرغبة في نعيمه وفضله، وذلك أن فطرة الإنسان العاقل تقتضي الخوف من المضار وإن كانت طويلة الأمد، ورجاء المنافع وإن بُعد أمد حصولها. لذا كثر ترديد القرآن للحديث عن الآخرة وتفاصيل النقم والنعم فيها، ليزداد المرء رغبة في رحمة الله ورهبة من عقوبته. ومن هنا صار المنتفعون بموعظة القرآن الذين يخافون الآخرة ويحذرون أهوالها، كما قال تعالى في محكم كتابه العزيز: (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)^(٢). وقد أقر المولى جلّ في علاه أن الأسوة الحسنة ثابتة لمن خاف الله ورجا ثوابه في الآخرة، كما في قوله: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)^(٣).

٥- أن الإيمان بهذا اليوم على وجه الإيقان هو الذي يبعث العبد على الاجتهاد في طاعة الرحمن، والصبر على المكروه في خدمة رب العالمين، كما يمنعه من الاستجابة إلى أهواء النفس ورغبات الجسد في معصية الملك الجبار. لذا يقوم المؤمن بالأعمال الصالحة بإخلاص وإتقان، لملاحظته أنه سيقف غداً أمام الحكم العدل، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، كما في قوله تعالى: (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ. لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)^(٤). وقال تعالى في مكابدة قيام الليل والقنوت فيه لرب العالمين: (أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)^(٥). فدلّت الآية على أن الذي جعلهم يصيرون على على تحمّل مشقة القيام هو الحذر من الآخرة والرجاء لرحمة الله تعالى.

^١ تفسير اس كثير ٦٣/٧

^٢ سورة الأنعام: ٥١

^٣ سورة الأحزاب: ٢١

^٤ سورة البور: ٣٧، ٣٨

^٥ سورة الزمر: ٩

٦- إنَّ عدم الإيقان باليوم الآخر يودّي بصاحبه إلى الانحراف عن الصراط المستقيم، وركوب المهالك والمخاطر في اقتراف الذنوب والمعاصي؛ لأنَّ الذي لا يؤمن بما يأتي بعد الموت من الحشر والحساب والثواب والعقاب أصلاً أو لا يوقن بذلك لا يجتهد استعداداً لما يلاقه في هذا اليوم العظيم، بل ينشغل بالأمانى والشهوات، كما قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاجِبُونَ^(١)). يقول أبو السعود: "فإن الإيمان بالآخرة وخوف ما فيها من الدواهي من أقوى الدواعي إلى طلب الحق وسلوك سبيله"^(٢).

٧- ومن أسوء ما يعاقب من غفل عن الآخرة ولم يوقن بها أن يحرم من فهم القرآن، فلا ينتفع به ولا تحصل له الهداية المرجوة من وراء الإيمان به وقراءته وتدبره، كما قال عزّ من قائل: (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا. وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا^(٣)). وقد اتضح مما سبق أهمية الإيمان باليوم الآخر، وأنه من الأهمية بمكان في تدبّر المرء والتزامه بشرع الله المتين، فإنه مظهر للعدالة الربّانية، وأكبر حافز للمرء على الاجتهاد في طاعة مولاه، والاجتناب عن مخالفته، كما أنّ عدم الإيقان به من أعظم أسباب الانحراف عن الجادة والصواب، والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

^١ "عن محجة الحق وقصد السيل، وذلك دين الله الذي ارتصاه لعباده لعادلوں. يقال منه: قد بك فلان عن كذا: إذا عدل عنه". تفسير الطبري:

٥٩/١٩ تفسير الطبري: ٥٩/١٩

^٢ سورة المؤمنون: ٧٣، ٧٤

^٣ تفسير أبي السعود: ١٤٥/٦

^٤ سورة الإسراء: ٤٥-٤٦

البحث الأول

الترغيب والترهيب بأحوال الموت والقبر

ويشتمل على المطالب الآتية :

- ١ - حقيقة الموت وأحواله في القرآن الكريم
- ٢ - الترغيب والترغيب بالموت وأحواله في القرآن الكريم
- ٣ - إثبات عزاب القبر ونعيمه في الكتاب والسنة
- ٤ - الترغيب والترغيب بالقبر في القرآن الكريم

المطلب الأول: حقيقة الموت، وأحواله في القرآن الكريم

أولاً: حقيقة الموت

الموت من الحقائق الثابتة التي يدعن للإقرار بها وتسليمها البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر على مستوى الأمم والجماعات ممن قام بعمارة الأرض، من لدن آدم عليه السلام إلى هذا العصر الذي نعيشه اليوم. فحقيقته لا يفي بوصفها التعبير الإنساني، إلا أن أعراضه بيّنة واضحة في الكائنات الحيّة، وذلك عند مقارنة أحوال الحيّ بأحوال الميت منها، فكلّ مظاهر الحياة من حركة وكلام وفهم وغيرها تتلاشى عند موت الإنسان. وقد عرّف العلماء الموت في اللغة بأنه: ضد الحياة، أو عبارة: عن زوال القوّة الحيوانيّة وإبادة الرّوح عن الجسد. وأما الموت في الاصطلاح عند طائفة من العلماء: كيفية عدمية هو عدم الحياة عما شأنه أن يوصف بالحياة أو الموت، أي زوال الحياة عن الحي. وعند طائفة أخرى منهم أنه: صفة وجودية مضادّة للحياة، وذلك انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقتها له، وذلك أمر وجودي بدليل أنه مخلوق^(١).

ثانياً: ذكر أحوال الموت في القرآن الكريم

تحدّث القرآن الكريم عن الموت وأحواله في آيات كثيرة، وفي مناسبات عديدة، نتعرّض لطائفة من أحوال الموت، كما تبينّه الآيات التالية:

١- ذُكِرَ في القرآن الكريم أن الموت مخلوق، تعلق به قدرة البارئ وعلمه وحكمته كسائر المخلوقات، فقرنه بالحياة المضادّة له في قوله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)^(٢).

٢- أن الموت لا يحدث خبط عشواء^(٣)، كما كانت تصفه العرب في الجاهلية، بل ما من أحد تأتية مَنِيَّتُهُ بسبب معروف أو غير معروف إلا بأحل مسمّى من عند الله، قد قدره وعَلِمَهُ في الأزل أن هذا الإنسان يموت في المكان الفلاني والوقت الفلاني، كما قال تعالى: (نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ

^١ انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٧٨١، وتفسير أبي السعود: ٢/٩، والكلبيات لأبي النقاء الحنفي، ص: ٨٥٧، والتحرير والتوير لاس

عاشور: ١٢/٢٩، والتفسير المنير للرحيلي: ١٠/٢٩

^٢ سورة الملك: ١، ٢

^٣ وذلك إشارة إلى قول رهبر س أي سلمى في معلقته المشهورة (رَأَيْتُ النَّبَاَ خَبَطَ عَشَوَاءَ مِنْ نَصَبٍ * ثَمَنُهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرَ فِيهِمْ)

الْمَوْتِ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ^(١). وقال عز وجل في موضع آخر من القرآن الكريم: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)^(٢).

٣- وأخبر تعالى بأن للموت غمرات وسكرات، وهي شدته التي تذهب بالعقل وتغمره، فلا يحس المرء بمن حوله، وتختلط عليه الأمور، وذلك من شدة الآلام التي لا يمكن تصويرها في دنيا الآلام والأوجاع الي نعرفها، كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عند احتضاره، وكان يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ»^(٣). وقد قال الله تعالى: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)^(٤). وقال في آية أخرى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)^(٥).

٤- وذكر الله عز وجل أن الموت غير محبوب للإنسان، وأنه جبل على حب الحياة والبقاء في هذه الدنيا، مع علمه باستحالة ذلك، وأن الفناء مقدر على جميع المخلوقات، ومع ذلك يبذل قصارى جهده في تناول أسباب البقاء والتحصن من المصائب والمشاكل ليهنأ بالعيش مدة طويلة، وخاصة إذا كان متمردا على الله تعالى بالكفر أو العصيان؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة أصلا، أو لم يقدم شيئا ينتفع به بعد الموت من الإيمان والعمل الصالح. وقال تعالى في حتمية نزول الموت بالإنسان وأنه لا محيص عنه رغم كراهيته لذلك: (أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ)^(٦). أي: "ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعه"^(٧). وقال تعالى أيضا: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)^(٨).

^١ سورة الواقعة: ٦٠

^٢ سورة الأعراف: ٣٤

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه (١٣/٦)، كتاب المعاري، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته عن عائشة رضي الله عنها.

^٤ سورة ق: ١٩

^٥ وغمرات الموت شدائده وأهواله العظيمة، وكرهه الشديدة. انظر: تفسير السعدي، ص: ٢٦٥

^٦ سورة الأنعام: ٩٣

^٧ سورة النساء: ٧٨

^٨ تفسير الطبري: ٥٥٢-٥٥١/٨

^٩ سورة الجمعة: ٨

٥- أنه لا يستثنى من ملاقات الموت أحد، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فكل الخلائق يردون هذا الحوض، ويشربون منه شأوا أم أبوا. وهذه الحقيقة أقر بها العقلاء من سائر الأمم، لا يختلفون في التسليم والإقرار بها، وإنما الخلاف فيما يأتي بعد الموت، وهل هناك حياة بعده أم الموت هو النهاية الأخيرة للإنسان. وما يبدو في تصرفات المرء من إنكار الموت وحبّه البقاء إلى الأبد ليس يصدر عن إنكار حقيقة الموت، ولا أنه مستثنى من هذه المصيبة العامة، وإنما يحدث ذلك بسبب غفلته عن الموت، وعن الاستعداد لما يأتي بعده من الأحوال والمصائب. قال الله تعالى في هذا الشأن: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُخْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)^(١). وقال أيضا: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)^(٢). وقال ابن كثير: "وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت"^(٣).

٦- أن خروج الروح وحصول الموت ليس بأمر عارض للإنسان بموجب الطبيعة والصدفة، كما يدعي ذلك الملحدون، إنما وكل الله في قبض الأرواح ملائكة ورسلا، تكون مهمتهم معالجة الأرواح وإخراجها من أبدانها، ثم استلامها والذهاب بها إلى مأواها ومصيرها، كما قال تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)^(٤). وذكر الله جل وعلا في آية أخرى أنه يتوفى الأنفس ملك الموت الموكل بها، وذلك في قوله تعالى: (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)^(٥). وفي ظاهر الآيتين السابقتين ما يشبه التعارض؛ إذ إنه ذكر في الأولى أن ملائكة من رسل الله هم الذين يتوفون الروح، بينما الثانية تؤكد على أن الذي يتوفى الأنفس هو ملك الموت. وقد أزال بعض المفسرين هذا التعارض، بأنه يجوز أن يكون للملك أعوان هو يرسلهم ويقبضون له الأرواح،

^١ سورة آل عمران: ١٨٥

^٢ سورة الرحمن: ٢٦، ٢٧

^٣ تفسير ابن كثير: ١٧٧/٢

^٤ سورة الأنعام: ٦١

^٥ سورة السجدة: ١١

فإضافة التوفي لملك الموت كإضافة كثير من الأفعال التي يأمر بها الملك ولكنه لا يياشرها، إنما تُقضى بأمره ورضاه، وأعوانه هم الذي يقومون بتنفيذها^(١).

٧- وذكر في القرآن العظيم أكثر من مرة أن الانسان الظالم لنفسه حين يحضره الموت ويرى مآله الفظيع يتمنى المهلة إلى حين، والعودة إلى الدنيا مرة أخرى ليتلافى ما فرط فيه ويستعد لما يقدم عليه من الحياة الأخروية بالإيمان والعمل الصالح. من ذلك قوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُنْعَثُونَ)^(٢). وقوله تعالى: (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ)^(٣). وأكتفي بهذا القدر في ذكر أحوال الموت الواردة في القرآن الكريم، والله الحمد والمِنَّة.

^١ انظر: تفسير الطبري ١١/٤١٠

^٢ سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠

^٣ سورة الماعقون: ١٠

المطلب الثاني: الترهيب والترغيب بالموت وأحواله

لا شك أن الموت أمره هائل، وخطره عظيم، وأكثر الناس عنه غافلون، انشغالا بالدنيا وملذاتها ومتطلباتها، فكأنهم خلقوا للبقاء والتمتع بشهواتها، وأغفوا مما نزل بأقراهم من الموت وما يكتنفه من مصائب. والسبب الرئيس في ذلك ضعف اليقين وعدم تحقق الإيمان في قلوبهم، وانطماس بصائرهم بالإصرار على الذنوب والمعاصي، مما كُثِفَ على القلوب حجاب الغفلة والران، كما قال تعالى: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)^(١). فإن العبد إذا أصر على المعاصي، ولم يتب منها، يصاب قلبه بالظلام والقسوة والغفلة، فحينئذ لا تنجع فيه موعظة ولا ينتفع بتذكرة.

وقد كان الاتعاظ بالموت دأب الأنبياء والصالحين، كما أمرنا بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَازِمٍ^(٢) اللَّذَاتِ»^(٣)، والكيس من تيقظ بقوارع الموتان، وتتابع الجنازات، وزيارة القبور، فمن عرف أنه ميت لا محالة، ينبغي أن يعد نفسه من الموتى، ليتمكن من الاستعداد للحياة بعد الممات، حتى لا يقع في حفرة التمني والترجي، حين لا ينفع الندم ولا يمكنه الفرار، ولا أنيس ولا حبيب له في القبر. لذا كان التذكير بالموت من أعظم مجالات الوعظ والإرشاد؛ وذلك أن المرء يرى بأم عينيه مرارا وتكرارا موت الأصحاب والأقارب والجيران، ويعلم علم اليقين أنهم لا يعودون إلى هذه الحياة مرة أخرى، كما يحيط بأحوال كثير من هؤلاء الأموات، واهتماماتهم ومشاكلهم وأمنياتهم وأولادهم وأموالهم، وقد فارقوا كل ذلك على غير موعد منهم واختيار، ولم ينتفعوا بها أحوج ما كانوا إليها، فلم يدخل في القبر معهم شيء من ذلك، بل تم تقسيم أموالهم، والتزوج بأراملهم والسكنى لدورهم، كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق في قوله: «يَتَّبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتَّبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ،

^١ سورة المطففين: ١٤، ١٥

^٢ "بالدال المعجمة بمعنى قاطعها أو بالمهملة من هدم الساء، والمراد الموت، وهو هادم اللذات، إما لأن ذكره يزهّد فيها أو لأنه إذا حاء ما يبقى من لذائد الدنيا شيئا". حاشية السدي على سنن السائي: ٤/٤

^٣ أخرجه الترمذي في سننه وحسنه: (٤/٥٥٣)، باب ما حاء في ذكر الموت، كتاب الزهد عن أبي هريرة رضي الله عنه. وابن حبان في صحيحه (٢٥٩/٧)، كتاب الخائر وما يتعلق بها مقدما أو مؤخرا، باب ذكر الأمر للمرأة بالإكثار من ذكر معص اللذات عن أبي هريرة أيضا

فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ»^(١). وقال القرطبي في أهمية تذكر الموت والاعتاظ به دوماً: "فاعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة، ونعمة ومحنة، فإن كان في حال ضيق ومحنة. فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه، فإنه لا يدوم، والموت أصعب منه، أو في حال نعمة وسعة، فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها، والسكون إليها، لقطعه عنها"^(٢).

أولاً: الترهب بأحوال الموت في القرآن الكريم:

الموت من أهم المواعظ التي أيقن بها العقلاء، وادّكر بها الفضلاء، فكم من غافل استيقظ في وقعة موت لزميله أو قريبه أو جاره، وكم من مُفَرِّطٍ تاب إثر نزول الموت بأحد معارفه، وكم من قلوب مَيَّنة حَيَّيت بذكر الموت وأحواله، ومن هنا اشتهرت الحكمة التي أُثِّرت عن بعض الصحابة، القائلة: «كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا، وَكَفَى بِالْيَقِينِ غِنًى، وَكَفَى بِالْعِبَادَةِ شُغْلًا»^(٣). ولما كان أمر الموت في المواعظ كذلك نجمل فيما يلي بعض مجالات التذكير بالموت والترهب من شدائده، مسترشدين بالآيات الواردة في ذلك:

١- وقد ورد في القرآن الكريم التخويف بالموت، فإن نزوله متوقع في كل حين وآن، كما يمكن حدوث الموت في أي بقعة من بقاع الأرض، وفي أي حال من الأحوال. لذا ينبغي أن يكون الانسان دائم الحذر والاستعداد لاستقبال الموت، بحيث لا يتدخر وسعاً في استكمال الواجبات واجتناب المحرمات. ومن الآيات الواردة في هذا الأمر قوله تبارك تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)^(٤). وقوله تبارك وتعالى: (أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ)^(٥).

^١ أخرجه البخاري في صحيحه: (١٠٧/٨)، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ومسلم في صحيحه: (٢٢٧٣/٤)، كتاب الزهد والرقائق، بدون باب عن أنس أيضاً.

^٢ التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ص: ١٢٣-١٢٤، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: ط: الأولى، مكتبة دار المهاج للشر والتوريع، الرياض، ١٤٢٥هـ. تحقيق ودراسة: الدكتور: الصادق بن محمد بن إبراهيم.

^٣ أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق: (٣٧/٢)، لعبد الله بن المبارك الحطلي، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، التحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. باب في ذكر الموت عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً.

^٤ سورة لقمان: ٣٤

^٥ سورة النساء: ٧٨

٢- وقد تمّ التخويف في القرآن الكريم مرارا بأن تأتّي الإنسان منيته وهو في عمل من الأعمال التي لا ترضي الله كالكفر والنفاق والمعاصي، حيث ذكرت الآيات عواقب وخيمة ونتائج مؤلمة لهذه الخاتمة السيئة. ومن هذا القبيل تحذير الله تعالى الأمة من الارتداد عن الدين والموت على الكفر، مما يؤدي إلى حبوط الأعمال، والخلود في النار، فقال تبارك وتعالى: (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(١). وقد رتب الله عز وجل حرمان المغفرة إلى الأبد على الموت بالكفر والانسلاخ من الدين في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)^(٢). وكذلك يجازي بالحرمان من قبول التوبة لمن عمل السيئات أو كفر بالله، ثم حاول الاستدراك عند الاحتضار، وهذا لا يقبل له توبة، ولا عذر، كما في قوله تعالى: (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)^(٣). وأوعد سبحانه وتعالى على موت الإنسان وهو كافر أن يكون مُعرّضا لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأن لا يخفف عنه العذاب. وذلك في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)^(٤). وجاء وعيد آخر شديد لمن مات على الكفر، بأن لا يقبل من أحدهم مال يفدي به نفسه من العذاب، ولو كان ملء الأرض ذهباً، ويكون جزاؤه عذاب مؤلم، ولا أحد يعينهم في الخروج من هذه المشكلة، وذلك في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)^(٥).

٣- وقد خوّف الله عباده من حالة الاحتضار، حين تُحشّرُ الروح في الصدور، وتغرغر النفس في الحلقوم، ويعاين الإنسان الملائكة الحاضرة لقبض الروح، مع ما يصاحب ذلك من ضربها للظالمين في وجوههم وأدبارهم، إلى جانب تعنيفهم بالقول والسؤال. و من ذلك قوله تعالى: (وَلَوْ

^١ سورة البقرة: ٢١٧

^٢ سورة محمد: ٣٤

^٣ سورة النساء: ١٨

^٤ سورة البقرة: ١٦١، ١٦٢

^٥ سورة آل عمران: ٩١

تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ^(١).
وقوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)^(٢). وتعنف الملائكة الظالمين على بقائهم في بلاد الكفر عند نزع أرواحهم ومقاساتهم سكرات الموت، كما حكى الله تبارك وتعالى ذلك عنهم في كتابه، فقال: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)^(٣).

٤- ومن مظاهر التخويف بالموت ما ذُكِرَ في الكتاب العزيز من معاناة الإنسان لسكرات الموت، وشدة آلامه التي تشغل الحواس، وتذهل العقول، فإن ألم الموت وشدائده يتضاعف على آلام الدنيا وشدائدها مجتمعة. وذلك في قوله تبارك وتعالى: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)^(٤). أي: "شدته المحيرة الشاغلة للحواس، المذهلة للعقل بالحق أي بالموعد الحق، والأمر المحقق، وهو الموت"^(٥). وقوله تبارك وتعالى: (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ)^(٦).

٥- ومما تمّ الترهب به مما يتعلق بالموت أن أغلب الناس حين يترل بهم الموت يتمنون المهلة والرجوع إلى الدنيا مرة أخرى عساهم ولعلهم يستدركون ما فاتهم من الاستعداد للحياة بعد الموت. ومن ذلك قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)^(٧). وقوله تعالى: (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ)^(٨).

^١ سورة الأفعال: ٥٠.

^٢ سورة الأنعام: ٩٣.

^٣ سورة النساء: ٩٧.

^٤ سورة ق: ١٩.

^٥ تفسير القاسمي: ١٩/٩.

^٦ سورة الأحراب: ١٩.

^٧ سورة المؤمنون: ٩٩، ١٠٠.

^٨ سورة الماعون: ١٠.

٦- ومن مظاهر التخويف بالموت أن الله جل شأنه وعمّ نواله قرّر في محكم تنزيله أنه منفرد بالإحياء والإماتة في غير آية، فالأمر كلّ بيده وقدرته وفق إرادته وحكمته، فليس للأسباب الظاهرة والمحاولات المستميتة للامتناع عن الموت جدوى ولا طائل، مما يزيد قلق الإنسان وخوفه من الموت؛ إذ لا يدري متى تنقُضُ عليه هذه المصيبة، ويأتيه هذا الأمر الذي يفصله عن أحبابه ومألوفاته في هذه الدنيا، ويذهب به إلى عالم مجهول، لا يدري ماذا سيكون مصيره. وفي هذا يقول سبحانه: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ فَأَمَّا نُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)^(١). وقال الله تبارك وتعالى أيضا: (هُوَ الَّذِي يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(٢).

٧- وقد ينشأ الخوف من الموت عن طريق التأمل في الآيات التي قرّرت أن الحذر من الموت لا يغني عنه، فلو أخذ الإنسان بكل الأسباب الواقية من التعرّض للمنية، وأخذ جميع الاحتياطات اللازمة للفرار منها، فلا بدّ أن يأتيه في الأجل المحتوم، والقدر المفروض، في الأزل البعيد. وذكر الله في القرآن قصّة واقعيّة حصلت لجماعة من الأمم السابقة، وكان عددهم كثيرا، ففرّوا من ديارهم حذرا من الموت، فقرّر الله عليهم أن يموتوا فورا، ثم أحياهم، ليكونوا عبرة للآخرين، فقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)^(٣). وقال تعالى: (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمَتُّونَ إِلَّا قَلِيلًا)^(٤).

٨- ومما يلحظ في الترهب بالموت في القرآن المجيد ما قرّره الله تعالى أن المنية تشمل الخليفة كلّها، من غير استثناء، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، فلا بقاء لأحد إلا الملك القهار، الذي بيده أزيمة الأمور كلّها، وذلك يثير عاطفة الخوف عند الإنسان، فإنه لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه، كما في قوله تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)^(٥).

^١ سورة الأعراف: ١٥٨

^٢ سورة عاف: ٦٨

^٣ سورة البقرة: ٢٤٣

^٤ سورة الأحزاب: ١٦

^٥ سورة الرحمن: ٢٦، ٢٧

ثانياً: الترغيب بأحوال الموت في القرآن الكريم

السمة الغالبة للموت وأحواله أنها مرهبة للإنسان، إلا أنه يستفاد الترغيب والتبشير من بعض مظاهر الموت، وإنما يكون هذا لبعض الناس الذي قاربوا الاستعداد للآخرة، وهم في محطة الانتظار لاستقبال الموت، ولعلهم يفرحون بمجيئه؛ لكونه سببا لوصولهم إلى محبوبهم ومربوبهم الذي طالما بذلوا كل ما يملكونه من الجهد في سبيل خدمته، وتفانوا في التقرب إليه بأنواع الطاعات، القلبية والبدنية. ويدل على هذه الفرح والاستبشار قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما روت عنه عائشة رضي الله عنها: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» فقلت: يا نبي الله أكرهية الموت؟ فكلنا نكره الموت، فقال: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١).

وفيما يلي ذكر لطائفة من الآيات التي تحمل بشارات للمتوفين الأخيار، الذين بُشِّروا حال احتضارهم، وعند معاناتهم سكرات الموت، فغشيتهم الفرحه وغمرهم السرور، فكأنهم لم يصابوا بمصيبة، حتى ظهر ذلك في ملامح وجوههم.

١- ومن ذلك تبشير الملائكة للصالحين من العباد في حالة الاحتضار بما يفرحهم ويهون عليهم كُرب الموت، مما يجعلهم يتمنون الاستعجال في الخروج من الدنيا، كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ)^(٢). أي: تبشرهم الملائكة عند الموت قائلين: ألا تخافوا مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإننا نخلفكم فيه، فيبشروهم بذهاب الشر وحصول الخير^(٣). وقوله تعالى: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)^(٤). وقوله تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا

^١ أخرجه مسلم في صحيحه: (٢٠٦٥/٤)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستعجار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، والبخاري في صحيحه: (١٠٦/٨)، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه بمعاد.

^٢ سورة فصلت: ٣٠، ٣١

^٣ انظر: تفسير ابن كثير: ١٧٧/٧

^٤ سورة النحل: ٣٢

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(١).

٢- ومما يدخل في باب الترغيب بأحوال الموت ما ورد في القرآن الكريم من الحث على أن يحرص المؤمن أن تأتيه منيته وهو متمسك بالإسلام، مستكمل للإيمان، متقن للأعمال، فحينئذ يرجى له الخير بعد الممات، والفوز المبين بالنجاة من النار، والخلود في الجنان. وهذا ترغيب في نوع معين من أنواع الممات، كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)^(٢). قال الإمام أبو السعود: "وحيث كان الخطاب للمؤمنين كان المراد إيجاب الثبات على الإسلام إلى الموت"^(٣). وقوله تعالى: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)^(٤). ومن هنا تمنى الأنبياء والصالحون أن يتوفاهم الله على الإسلام والإيمان، كما قال يوسف عليه السلام: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)^(٥). وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على صلاة الجنازة: «اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ»^(٦). والله الموفق للصواب.

^١ سورة يونس: ٦٢-٦٤

^٢ سورة آل عمران: ١٠٢

^٣ تفسير أبي السعود: ٦٦/٢

^٤ سورة النساء: ١٠٠

^٥ سورة يوسف: ١٠١

^٦ أخرجه الترمذي في سننه: (٣٣٥/٢)، كتاب الحائض، باب ما يقول في الصلاة على الميت، وابن ماجة في سننه: (٤٨٠/١)، كتاب الحائض، باب ما جاء في الدعاء في الصلاة على الجارية، كلاهما عن أبي هريرة.

المطلب الثالث: إثبات عذاب القبر ونعيمه في الكتاب والسنة

المراد بالقبر هنا ليس مدفن الإنسان ولا مقرّه من الأرض عند نهاية أحله في هذه الحياة، فكثير من الأموات لم يكن لهم قبر من هذا النوع، كالذي يفرق في البحر أو تأكله السباع، أو يموت بسبب من الأسباب الأخرى، فلا يوجد من يقبره من بني جنسه، وإنما المراد بذلك: الفترة الزمنية التي تبتدئ بخروج الروح من الإنسان إلى أن يبعثه الله إلى يوم الحساب والمعاد، وما يكتنفها من السؤال والجواب، والعذاب والنعيم، والاستراحة والشدة، كما وردت بذلك الآيات القرآنية بالإجمال، والأحاديث النبوية بالتفصيل. وقد امتنّ الله على عباده بأن جعل لهم قبورا يدفنون فيها موتاهم، وجعل الأرض تستوعب هذا الكمّ الهائل من الوفيات، بحيث لا يخرج منها نتن ولا عفن، كما قال تعالى: (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ)^(١). وقال تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)^(٢). وقال تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا. أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا)^(٣).

وقد كانت الموعظة بالقبر من أهم المواعظ عند السلف، وذلك أن الإنسان عند مشاركته لتجهيز الميت وشهوده لموكب الجنائز ينتابه الخوف والانزعاج لفقده وتفجّعه على أحد أبناء جنسه، كما يتوقع أنه سيصير إلى هذا المصير حتما في يوم من الأيام، فكان الوعّاظ يتحيتون هذه الفرصة لتذكير الناس بما يأتي عليهم من الأحوال والأهوال بعد الممات، ويحثّونهم على الاستعداد لذلك بالإيمان والأعمال. وقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يروي عنه الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي صلى الله عليه وسلم فقعّد وقعدنا حوله، ومعه مخضرة^(٤)، فنكس فجعل ينكت^(٥)، بمخضرته، ثم قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ» فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، قال: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ».

^١ سورة عس: ٢١

^٢ سورة طه: ٥٥

^٣ سورة المرسلات: ٢٥-٢٦

^٤ المحضرة: "ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا، أو عكارة، أو مقرعة، أو قضيب، وقد يتكى عليه". النهاية في غريب الحديث: ٣٦/٢

^٥ ونكت الأرض بالقضيب، وهو أن يؤثر فيها بطرفه، فعل المفكر المهموم. انظر: المصدر السابق ١١٣/٥

الشَّقَاوَةِ»^(١). وقد كان عثمان رضي الله عنه، إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيته، ف قيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ»^(٢). وقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)^(٣)، بأن المراد منها عذاب القبر، كما في قوله: «نَزَلْتُ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، فَيَقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: "يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ"»^(٤).

أما سؤال الملكين للميت بعد دفنه فثابت في الأحاديث الصحيحة، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِلَهُ لَيْسَمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيَقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا ... وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَذْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ»^(٥)، وَيُضْرَبُ بِمِطَارِقٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»^(٦). وإنّ عذاب القبر

^١ أخرجه البخاري في صحيحه: (٩٦/٢)، كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر، وقعود أصحابه حوله عن علي رضي الله عنه لفظه، ومسلم في صحيحه (٢٠٣٩/٤)، كتاب القدر، باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه وكثافة ررقه وأحله وعمله وشقاوته وسعادته عن علي رضي الله عنه لفظ مقارب.

^٢ أخرجه الترمذي في سننه: (٥٥٣/٤)، كتاب الرهد، باب يدون عوان عن هاني مولى عثمان بن عفان لفظه. سنن ابن ماجة (١٤٢٦/٢)، كتاب الرهد، باب ذكر القبر واللى عن هاني أيضا لفظ مقارب.

^٣ سورة الرعد: ٢٧

^٤ أخرجه مسلم في صحيحه: (٢٢٠١/٤)، كتاب الحجة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعود منه عن البراء بن عازب رضي الله عنه لفظه. والبخاري في صحيحه: (٩٨/٢)، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر عن البراء بن عازب رضي الله عنه بمعناه.

^٥ "أصله تلوت أي لا فهمت ولا قرأت القرآن، والمعنى لا دريت ولا اتعت من يدري وإما قاله بالياء لمواحاة دريت. وقال بن السكيت قوله تليت اتباع ولا معنى لها". فتح الباري لاس حجر: ٢٣٩/٣

^٦ أخرجه البخاري في صحيحه: (٩٨/٢) كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر عن أس بن مالك رضي الله عنه لفظه، ومسلم في صحيحه: (٢٢٠٠/٤)، كتاب الحجة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعود منه

مسموع لغير الثقلين من الملائكة والحيوانات كما أشار إليه الحديث السابق، وإنَّ الله قد أخفى ذلك عن الناس نعمة منه ورحمة بهم، حتى لا يتأذوا بسماع الأصوات المزعجة كل حين. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى ذلك: «لَوْ لَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسَمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(١). ومن أوضح ما يدل على عذاب القبر أو نعيمه قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا مَاتَ عَرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيَقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢). ولما كان لعذاب القبر هول فظيع، وفتنة شديدة أمرنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالنعوذ منه في الصلاة عند التشهد الأخير، وذلك في قوله: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(٣).

ولمَّا سقناه من الأدلة الصحيحة كتاباً وسنة، والتي لا تحتل التأويل، ذهب أهل السنة والجماعة إلى إثبات عذاب القبر ونيعمه، خلافاً لمن أنكر ذلك أو تأوّل من الفرق الإسلامية، كما يحكي ذلك الإمام أبو الحسن الأشعري^(٤) قائلاً: "واختلفوا في عذاب القبر، فمنهم من نفاه، وهم المعتزلة والخوارج، ومنهم من أثبته، وهم أكثر أهل الإسلام، ومنهم من زعم أن الله ينعم الأرواح ويؤلمها، فأما الأجساد التي في قبورهم فلا يصل ذلك إليها وهي في القبور"^(٥).

^١ أخرجه مسلم في صحيحه: (٢٢٠٠/٤)، كتاب الحجة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والنعوذ منه عن أس رضي الله عنه.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه: (٩٩/٢)، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالعداة والعشي، عن أس رضي الله عنه.

^٣ أخرجه مسلم في صحيحه: (٤١٢/١)، كتاب المساحد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

^٤ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، هو صاحب الأصول والقائم بصرة مذهب السنة، وإليه تسب الطائفة الأشعرية. كان أولاً معتزلياً، ثم تاب من مقولتهم، وقام بالردة عليهم، وكشف فسادهم. وله من الكتب الباقية: "اللمع"، وكتاب "الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتفصيل" وهو صاحب الكتب في الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجمعية والخوارج، وسائر أصناف المتدعة. توفي سنة نيف

وثلاثين وثلثمائة. انظر: وفيات الأعيان لاس حلكا ٢٨٤/٣-٢٨٥

^٥ مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري: ٣١٨/٢

المطلب الرابع: الترغيب والترغيب بعذاب القبر ونعيمه

الفترة الزمنية الممتدة من ممات الإنسان إلى خروجه من القبر للبعث والنشور، والتي تسمى بعالم البرزخ^(١) يكتنفها الغموض والخفاء إلا ما اتضح أمره من خلال أدلة الكتاب والسنة، لأنه معدود في عالم الغيب الذي لا يعرف حقيقته الإنسان، ولكن يجب الإيمان بما ثبت من ذلك عن الله تعالى أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)^(٢). والملاحظ أن الآيات القرآنية الواردة في عذاب القبر هي الغالبة، وإن كان يوجد طائفة منها تدلّ على نعيم القبر أيضا. لذا نورد تلك الآيات فيما يلي مشيرين إلى دلالتها لعذاب القبر أو نعيمه:

١- قال تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)^(٣). قال الإمام الطبري: "وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وفي الآخرة بمثل الذي تثبتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يسألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم"^(٤). وفي هذا ترغيب لأهل الإيمان بأن الله سيثبتهم عند سؤال الملكين، ويوفّقهم للأجوبة الصحيحة، الموافقة لما كانوا يعتقدونه في الحياة الدنيا من الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وقد فسّر الطبري أيضا الشق الثاني من الآية، وهو قوله تعالى: (ويضلّ الله الظالمين)، فقال: "فإنه يعني، أن الله لا يوفّق المنافق والكافر في الحياة الدنيا وفي الآخرة عند المساءلة في القبر، لما هدي له من الإيمان المؤمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم"^(٥). وفي هذا ترهيب للظالمين أن الله سبحانه وتعالى يتخلّى عنهم أحوج ما كانوا إليه في القبر وسؤاله، وأنهم لا يستطيعون الإجابة على ما تعرضه عليهم الملائكة، إذ إنهم كانوا مقصّرين في العمل بمقتضاه حال حياتهم في الدنيا.

^١ وذلك قوله تعالى: (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون). "قال مجاهد: البرزخ: الحاحز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ: ما

بين الدنيا والآخرة. ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يحارون بأعمالهم". تفسير ابن كثير: ٤٩٤/٥

^٢ سورة الحن: ٢٦، ٢٧

^٣ سورة إبراهيم: ٢٧

^٤ تفسير الطبري: ٦٠٢/١٦

^٥ المصدر السابق، والصفحة السابقة.

٢- وقال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)^(١). قال السعدي رحمه الله تعالى: "وفسّرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه ويعذب، جزاء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر"^(٢). وقد ذكر الإمام الطبري عددا من أقوال أهل التأويل في تفسير: "المعيشة الضنك"، ثم رجّح أن يكون المراد بذلك عذاب القبر، فقال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هو عذاب القبر"^(٣). ثم استدل في ذلك بحديث مرفوع وساقه بإسناده^(٤)، وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أَتَذَرُونَ فِيمَ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) أَتَذَرُونَ مَا الْمَعِيشَةُ الضَّنْكَ؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «عَذَابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَنَّهُ لَيْسَلَطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ تَبِينًا، أَتَذَرُونَ مَا التَّيْنُ: تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ حَيَّةً، لِكُلِّ حَيَّةٍ سَبْعَةُ رُءُوسٍ، يَنْفُخُونَ فِي جِسْمِهِ وَيَلْسَعُونَهُ وَيَخْدِشُونَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٥). واستدل أيضا بما ملخصه: أن الله عز وجل عقّب ذلك بقوله: "ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى"، مما يؤكّد على أن العذاب بالمعيشة الضنك هو قبل عذاب الآخرة، وهو عذاب القبر، بدليل أن كثيرا ممن أعرضوا عن ذكر الله من الكفار معيشتهم أوسع من معيشة من يقبل على ذكر الله من المؤمنين، فتبيّن من ذلك أن المعيشة المذكورة في الآية ليست في الآخرة ولا في الدنيا، إنما هي في البرزخ^(٦). وفي هذه الآية ترهيب لمن أعرض عن ذكر الله وخالف أمره أن يلحقه عذاب القبر الذي وصفه الله تعالى بالمعيشة الضنك، أعادنا الله والمسلمين من ذلك آمين.

^١ سورة طه: ١٢٤

^٢ تفسير السعدي: ص: ٥١٥

^٣ تفسير الطبري. ٣٩٤/١٨

^٤ انظر: المصدر السابق، والصمحة السابقة.

^٥ أخرجه ابن حبان في صحيحه: (٣٩٢/٧)، كتاب الحائز وما يتعلق بها مقدما أو مؤخرًا، باب ذكر الإحار عن وصف التين الذي يسلط على الكافر في قبره عن أبي هريرة لفظ مقارب، وفيه زيادة «إِنَّ الْمُؤْمِنَ فِي قَبْرِهِ لَفِي رَوْحَةٍ خَضْرَاءَ، وَيُرْحَبُ لَهُ قَبْرُهُ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبُذْرِ»، وحسن إسناده محقق الكتاب شعيب الأرنؤوط، كما أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده: (٥٢١/١١)، في مسند أبي هريرة، مع زيادة ابن حبان، وحسن إسناده محقق الكتاب، حسين سليم أسد.

^٦ انظر: تفسير الطبري: ٣٩٤/١٨

٣- وقال تعالى: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)^(١). قال أبو حيان الأندلسي: "واستدل مجاهد^(٢) ومحمد بن كعب^(٣) وعكرمة^(٤) ومقاتل^(٥) بقوله: النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيا: أي عند موتهم على عذاب القبر في الدنيا"^(٦). وفي هذه الآية ترهيب لمن كان شبيهاً بآل فرعون في الكفر والعتو والطغيان، فيقاسي مرارة هذا النوع من عذاب القبر غدوًّا وعشيا، والعياذ بالله.

٤- وقال تعالى: (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)^(٧). ولما سبق ذكر القيامة وصعقتها قبل هذه الآية اختلف أهل التأويل في المراد بهذا العذاب الذي هو قبل يوم القيامة. فرجح الإمام الطبري رحمه الله تعالى، بعد ذكره للأقوال: أن الأمر عام ويحتمل كل هذه الوجوه، إذ ليس هناك مرجح من كتاب أو سنة، فقال: "والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم به عذاباً دون يومهم الذي فيه يصعقون، وذلك يوم القيامة، فعذاب القبر دون يوم القيامة، لأنه في البرزخ، والجوع الذي أصاب كفار قريش، والمصائب التي تصيبهم في أنفسهم وأموالهم وأولادهم دون يوم القيامة، ولم يخص الله نوعاً من ذلك أنه لهم دون يوم القيامة دون نوع"^(٨). وفي هذه الآية ترهيب من عذاب القبر لمن اتصف بالظلم والكفر في هذه الدنيا ومات على ذلك قبل التوبة.

^١ سورة عاف: ٤٦

^٢ مجاهد ابن حمر بفتح الحيم وسكون الموحدة أبو الحجاج المحرومي مولا هم المكي ثقة إمام في التفسير وفي العلم من الثالثة مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة وله ثلاث ومائون. تقريب التهذيب لابن حجر، ص: ٥٢٠

^٣ محمد بن كعب ابن سليم ابن أسد أبو حمزة القرطبي المدي، وكان قد نزل الكوفة مدة. ثقة عالم من الثالثة. ولد سنة أربعين على الصحيح. مات محمد سنة عشرين ومائة. انظر: المصدر السابق، ص: ٥٠٤

^٤ عكرمة أبو عبد الله مولى ابن عباس، أصله بربري، ثقة ثبت عالم بالتفسير، لم يثبت تكديبه عن ابن عمر، ولا ثبت عنه بدعة، مات سنة أربع ومائة وقيل بعد ذلك. انظر: المصدر السابق، ص: ٣٩٧

^٥ مقاتل بن سليمان ابن شبيب الأردني الخراساني اللحي المفسر، أبو الحسن، بريل مرو. قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة. وقال البخاري: سكنوا عنه. مات سنة خمسين ومائة. انظر: ميران الاعتدال في نقد الرجال ١٧٣/٤، لمحمد بن أحمد الذهبي، ط: الأولى، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م. تحقيق: علي محمد السجاوي. وتقريب التهذيب لابن حجر، ص: ٥٤٥

^٦ البحر المحيط لأبي حيان: ٢٦٢/٩

^٧ سورة الطور: ٤٧

^٨ تفسير الطبري: ٤٨٨/٢٢

٥- وقال تعالى: (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ)^(١). وقال الشوكاني: "قال مجاهد: فلا أنفسهم يمهدون في القبر"^(٢). وفي الآية ترغيب للعمل الصالح من خلال الإشادة بنتائجها التي منها أن يكون مهادا لصاحبه في القبر، ينام فيه ويستريح إلى قيام الساعة والنشور، كما في حديث سؤال الملكين منكر ونكير، وجاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم: «ثُمَّ يَفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، فَيَقَالُ لَهُ: تَمْ فَيَنَامُ كَنَوْمَةِ الْعُرْسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»^(٣).

٦- وقال الله تبارك وتعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)^(٤). في هذه الآيات دلالة واضحة على فضل الشهداء وكرامتهم، وما من الله بهم من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة، كما أن فيها إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً^(٥). وفي ذلك ترغيب للشهادة في سبيل الله عن طريق ذكر الثواب الجزيل الذي يترتب عليها في الحياة البرزخية قبل البعث والنشور إلى يوم الحساب والمعاد، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

^١ سورة الروم: ٤٤

^٢ فتح القدير للشوكاني: ٢٦٤/٤

^٣ أخرجه ابن حبان في صحيحه: (٣٨٦/٧)، كتاب الحائز وما يتعلق بها مقدما أو مؤخرًا، فصل في أحوال الميت في قبره، ذكر الإحبار عن اسم الملكين اللذين يسألان الناس في قبورهم عن أبي هريرة بلفظه، والترمذي في سننه وحسنه: (٣٧٤/٢)، كتاب الحائز، باب ما جاء في عذاب القبر عن أبي هريرة بلفظ مقارب.

^٤ سورة آل عمران: ١٦٩-١٧١

^٥ انظر: تفسير السعدي، ص: ١٥٦

المبحث الثاني

الترهيب بأحوال الحشر والقيامة الكبرى

ويشتمل على المطالب الآتية :

- ١ -البعث والحشر والترهيب بهما
- ٢ -أهوال يوم القيامة والترهيب بها
- ٣ -الحساب يوم القيامة والترهيب به
- ٤ -الانصراف عن الموقف وجواز الصراط

المطلب الأول: البعث والحشر والترهيب بهما

مفهوم البعث والحشر:

البعث لغة: مأخوذ من بَعَثَ بَعْثًا وَبِعْثَةً: أرسله وحده، وَبَعَثَ فُلَانًا مِنْ نَوْمِهِ بَعْثًا: أيقظه وأهَّبه، وَبَعَثَ اللَّهُ الْخَلْقَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ: أحياهم وأنشدهم، وَبَعَثَ الْبَعِيرَ: حلَّ عقله وأطلقه، وَبَعَثَ فُلَانًا عَلَى الشَّيْءِ: حمّله على فعله. وأصل الْبَعْثِ: إثارة الشيء وتوجيهه. وقوله عزّ وجل: (وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)^(١)، أي: يخرجهم ويسيرهم إلى القيامة. والنوم من جنس الموت فجعل التوفي فيهما، والبعث منهما سواء، كما في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ)^(٢)، أي يوقظكم من النوم^(٣). والمراد بالبعث شرعا: المعاد الجسماني، وإحياء العباد في يومي المعاد، والنشور^(٤). والحشر في اللغة مأخوذ من: حَشَرَ النَّاسَ يَحْشِرُهُمْ وَيَحْشِرُهُمْ حَشْرًا: جمعهم. ويقال: حَشَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ حَشْرًا: بعثهم من مضاجعهم وساقهم، وحَشَرَ الشَّيْءَ: جمعه وضمّ بعضه إلى بعض مع التدقيق والتضييق. والحشر: الاجتماع واجتماع الخلق يوم القيامة. ويوم الحشر: يوم القيامة. والمَحْشَرُ: موضع الحشر، ومنه الْمَحْشَرُ، وهو المكان الذي يحشر فيه الناس يوم القيامة^(٥).

مقدمات القيامة كما يصورها القرآن

يوجد تغيّرات هائلة، وتحولات عظيمة لمعالم الكون تحدث قُبيل قيام الساعة الكبرى، بالإضافة إلى أحداث كبيرة خارقة للعادة ذكرها القرآن المجيد أو أشار إليها، وكلّها مقدمات للقيامة الكبرى، منها: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وانشقاق في السماء وارتجاج في الأرض، ونسف للجبال، وخسف للقمر، وتكوير للشمس، وانطماش للنجوم، وتسجير للبحار، ونفخ للصور. وقد أشار القرآن الكريم إلى طلوع الشمس من

^١ سورة الأنعام: ٣٦

^٢ سورة الأنعام: ٦٠

^٣ انظر: المعرّيات للراغب الأصفهاني، ص: ١٣٢-١٣٣، والمعجم الوسيط: ٦٢/١

^٤ انظر: القيامة الكبرى، ص: ٥١، لعمر بن سليمان الأشقر، ط: السادسة، دار المائس للشر والتوزيع، الأردن، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

^٥ انظر: الصحاح للحواري ٦٣٠/٢، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٦٦/٢، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٣٨٨/١، والمعجم الوسيط: ١٧٥/١

مغربها في قوله تعالى: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ)^(١). قال الطبري في تفسير قوله تعالى: "أو يأتي بعض آيات ربك": "وذلك فيما قال أهل التأويل: طلوع الشمس من مغربها"^(٢). وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك في قوله: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ: "لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا"^(٣) وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ، وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقَحْتِهِ فَلَا يَطْعُمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيْطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعُمُهَا»^(٤).

أما خروج الدابة فقال المولى جل وعلا في أمرها: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ)^(٥). يقول السعدي رحمه الله: "وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان وتكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث، ولم يأت دليل يدل على كيفيةها ولا من أي نوع هي، وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه"^(٦). ومن الأحاديث التي دلت على خروجها ما رواه عبد الله بن عمرو، حيث قال: "حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا، طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا، فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا»^(٧). وذكر في القرآن خروج يأجوج ومأجوج^(٨) قبيل قيام الساعة، وذلك في قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ

^١ سورة الأعمام: ١٥٨

^٢ تفسير الطبري: ٢٤٥/١٢

^٣ سورة الأعمام: ١٥٨

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه: (١٠٦/٨)، كتاب الرقاق، باب طلوع الشمس من مغربها عن أبي هريرة بلغة.

^٥ سورة النمل: ٨٢

^٦ تفسير السعدي، ص: ٦١٠

^٧ أخرجه مسلم في صحيحه: (٢٢٦٠/٤)، كتاب العتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكنه في الأرض بلغة.

^٨ وهم من سلالة آدم، عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضا من أولاد يافث أبي الترك، والترك سدرمة منهم، تركوا من وراء السد الذي ساء ذو القريين. تفسير ابن كثير: ٣٧٢/٥

يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ^(١). كما حذر النبي صلى الله عليه وسلم من خروج هذه الأمة الكثيرة العدد الشديدة الفساد، وجعل ظهورها من علامات الساعة الكبرى، وذلك فيما قالته زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً فزعا يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَبَلِّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ فَتُحَ الْيَوْمَ مِنْ رَذَمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِاصْبَغِيهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا»، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخُبْثُ»^(٢).

ثم يحكم الله تعالى بفناء من في هذا الكون من الأحياء، فيهلكهم بنفخة الصعق، التي يتم من خلالها إماتة كل الأحياء إلا من شاء الله، فينفخ الملك في الصور في منظر عجيب وهول فظيع، فيصيب الخلائق الصعق والموت، فتكون نهاية العالم، كما في قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)^(٣). وقال في آية أخرى: (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)^(٤). وهي نفخة الصور الأولى تصيبهم وهم لاهون عنها، لم تخطر على قلوبهم في حال خصومتهم، وتشاجرهم بينهم، وذلك لا يوجد في الغالب إلا في أوقات الغفلة. وحينئذ لا ينظرون ولا يمهلون^(٥).

وعندما يحكم الله عز وجل بإحياء الأموات وبعثهم من قبورهم يأمر الملك بنفخ الصور مرة أخرى، فإذا الأرواح تتطير إلى أجسادها، وتدب فيها الحركة والنشاط من جديد. والدال على هذه النفخة من القرآن الآية السابقة في قوله تعالى: (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)^(٦). وذكر النبي صلى الله عليه وسلم تفاصيل النفخ في الصور في قوله: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا»^(٧)، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ^(٨) حَوْضَ

^١ سورة الأبياء: ٩٦

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه: (٦١/٩)، كتاب العن، باب يأجوج ومأجوج بلغة. ومسلم في صحيحه: (٢٢٠٧/٤)، كتاب العن وأشراف الساعة، باب اقتراب العن وفتح ردم يأجوج ومأجوج عن ريب ست جحش رضي الله عنها بلغة مقارب.

^٣ سورة الزمر: ٦٨

^٤ سورة يس: ٥٠، ٤٩

^٥ انظر: تفسير السعدي، ص: ٦٩٧

^٦ سورة الزمر: ٦٨

^٧ اللبت بكسر اللام وآخره مثناة فوق وهي صفحة العنق وهي حانه وأصغى أمال. شرح النووي على مسلم (٧٦/١٨)

إِلَيْهِ، قَالَ: فَيَصْنَعُ، وَيَصْنَعُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللَّهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوْ الطَّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْلُونَ»^(١).

ثم تتغير معالم الكون تغيراً هائلاً مخيفاً، فالسمااء تنشق وتتصدع، فيتغير لونها وتكون الشقوق فيها كالأبواب المفتوحة، وذلك مذكور في غير آية، كما في قوله تعالى: (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)^(٢). أي: "تذوب كما يذوب الدردي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم"^(٣). وقوله تعالى: (وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّعَابِ وَتُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا)^(٤). وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، فتنفطر له السماوات، وتشقق، وتنزل ملائكة كل سماء، فيقفون صفّاً صفّاً^(٥). وأما الأرض فتتحرك تحركاً عنيفاً بالزلزال والدك، فتخرج أثقالها، وتتحطم الجبال فيها بالتفتيت والنسف، فتكون مستوية، كما قال تعالى: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) ^(٦). أي: "إذا حركت الأرض تحريكاً عنيفاً، واضطربت اضطراباً شديداً، واهترت عن عليها اهتزازاً يقطع القلوب ويُفزع"^(٧). وقال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا)^(٨). أي: "بأن الله تعالى يفتتها، ثم ينسفها فتكون هباء منبثاً، فيترك أماكنها قاعاً صفصفاً أي أرضاً مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمْتاً أي لا انخفاضاً ولا ارتفاعاً"^(٩). وقال تعالى: (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ

^١ أي بطيه ويصلحه. المصدر السابق: (٧٦/١٨)

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه: (٢٢٥٩/٤)، كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب في خروج الدجال ومكنه في الأرض عن عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظه.

^٣ سورة الرحمن: ٣٧

^٤ تفسير ابن كثير: ٤٩٨/٧

^٥ سورة الفرقان: ٢٥

^٦ انظر: تفسير السعدي، ص: ٥٨١

^٧ سورة الزلزلة: ١، ٢

^٨ صفة التفاسير للصابي: ٥٦٣/٣-٥٦٤

^٩ سورة طه: ١٠٥-١٠٧

^{١٠} أيسر التفاسير لكلام علي الكبير: ٣٧٩/٣، لأبي بكر الجزائري، ط: الخامسة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

كثيباً مهيلاً^(١). والرحفة: الزلزلة الشديدة. وتصير الجبال كالكتيب المهيل، أي الرمل المتجمع السائل، الذي يسيخ فيه الإنسان والحيوان، ثم تنسف نسفاً، فلا يبقى منها شيء إلا ذهب^(٢). ووصف الباري جلّ في علاه هذا الموقف العظيم، وهذه التغيرات المهيبة، والتحويلات العجيبة مجتمعة في قوله: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ^(٣)).

وقد ذُكِرَ في القرآن الكريم تغيّرات أخرى عظيمة تحدث لمعالم الكون غير ما سبق، ومنها ما يحدث للشمس والقمر والكواكب والبحار من التغيرات، وذلك في قوله تعالى: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ. وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ^(٤)). والمعنى: إذا الشمس لُفَّتْ ومُحِي ضوؤها. وإذا النجوم من مواضعها وتناثرت. وإذا الجبال حرّكت من أماكنها، وسُيِّرَتْ في الهواء حتى صارت كالهباء. وإذا النوق الحوامل تركت هملاً بلا راعٍ ولا طالب. وإذا الوحوش جُمِعت من أوكارها وأحجارها ذاهلة من شدة الفزع. وإذا البحار تأجّجت ناراً، وصارت نيراناً تضطرم وتلتهب^(٥). وقوله تعالى: (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ^(٦)). وهذه التحويلات يحدث بعضها قبيل نهاية العالم، وبعضها بعد نفخة البعث والنشور، وهي جميعها تنبئ عن الأحداث العظيمة في البعث والنشور والحساب والميزان، والوقوف بين يدي الملك الجبار، والله المستعان، وعليه التكلان.

بعث الموتى من القبور وأحواله:

إذا تحدّد الوقت الذي قدره الله تعالى لبعث الموتى، أمر الملك بالنفخ في الصور مرّة أخرى، فينفخ فيه، فحينئذ ترجع الأرواح إلى أجسادها، فيخرج الناس من قبورهم. والبعث من القبور حقّ يجب الإيمان به كما صرّحت بذلك نصوص الكباب والسنة، ومن ذلك قوله تعالى: (ذَلِكَ

^١ سورة المزل: ١٤

^٢ انظر: التفسير الوسيط للزحيلي ٢٧٦٣/٣

^٣ سورة الحاقة: ١٣-١٦

^٤ سورة التكويد: ١-٦

^٥ انظر: صفوة التفسير للصاوي ٤٩٩/٣

^٦ سورة القيامة: ٧-١٠

بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ^(١). وَيُصَوِّرُ ذَلِكَ الْمَشْهَدَ الْعَظِيمَ وَالْمَنْظَرَ الْمَهِيبَ قَوْلَهُ تَعَالَى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ. إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ)^(٢). قَالَ الشَّنْقِيطِيُّ: "والتحقيق أن هذا قول الكفار عن البعث، والآية تدلّ دلالة لا لبس فيها، على أنهم ينامون نومة قبل البعث، كما قاله غير واحد^(٣)، وعند بعثهم أحياء من تلك النومة التي هي نومة موت يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، أي: هذا البعث بعد الموت، الذي وعدكم الرحمن على ألسنة رسله، وصدق المرسلون في ذلك، كما شاهدتموه عياناً"^(٤).

وذكرت الأحاديث الصحيحة أن ما بين النفختين من الزمن أربعون، ولم يحدّد الراوي هذا الزمن أهو من السنوات أو الشهور أو الأيام. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»، قال: أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قال: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْماً وَاحِداً وَهُوَ عَجْبُ الذُّنْبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥). وأما كيفية خروجهم من القبر فإن الأرض تنشقّ عنهم كما تنشقّ عن البقل عند طلوعه من البذر، كما في قوله تعالى: (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ)^(٦). وأول من يبعث وتنشقّ عنه الأرض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما في

^١ سورة الحج: ٦-٧

^٢ سورة يس: ٥١-٥٣

^٣ وذلك إشارة منه إلى بعض الآثار التي أخرجها الطبري بسنده، منها ما رواه عن أبي بن كعب، قال: ناموا نومة قبل البعث. و منها أيضا ما ذكره عن قتادة، قال: والرّقدة: ما بين المعثتين. انظر: تفسير الطبري: ٥٣٢/٢٠

^٤ أصواء البياض للشنقيطي: ١٧٦/٦

^٥ أخرجه البخاري في صحيحه: (١٦٥/٦)، كتاب تفسير القرآن، باب يوم يبعث في الصور فتأتون أرواحا لبعطه. كما أخرجه مسلم في صحيحه: (٢٢٧٠/٤)، كتاب العن وأشراف الساعة، باب ما بين النفختين عن أبي هريرة أيضا لبعط مقارب.

^٦ سورة ق: ٤٤

حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ»^(١).

ويعت الناس على ما ماتوا عليه من الأعمال والكيفيات حسنة كانت أو سيئة، وفقا لقاعدة: الأعمال بالخواتيم، فإن من مات في عمل خير أو على هيئة معينة يبعث وهو متلبس بهذا العمل أو على تلك الهيئة، كمن مات في الحج ملبيا لابسا الإحرام. ومن مات متلبسا بعمل سيء، وعلى كيفية غير مناسبة، فيبعث على هذه الكيفية، كمن أته المنية وهو يشرب الخمر أو يلعب القمار أو يسرق والعياذ بالله. ويدل على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»^(٢). وقال الإمام ابن الجوزي^(٣): "اعلم أن الإنسان قد يبقى زمانا على الكفر ثم ينتقل إلى الإيمان، أو على المعاصي ثم ينتقل إلى الطاعة. وقد يكون على الإيمان والطاعة فينتقل إلى الكفر والمعاصي، فالأحوال تتغير وتتقلب في الدنيا، والعمل على الخواتيم، فإذا مات الإنسان على حالة فقد ختم له بها، فعليها يبعث"^(٤).

ومن الناحية الشكلية أن الناس يحشرون يوم القيامة على الكيفية التي خرجوا فيها من بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلا، كما في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةَ عُرَاةَ غُرُلًا»^(٥): "كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ"، وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّهُ سَيَجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ

^١ أخرجه مسلم في صحيحه: (١٧٨٢/٤)، كتاب العضائل، باب تعصيل سبا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق للفطه.

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه: (٢٢٠٦/٤)، كتاب الحمة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت عن حابر رضي الله تعالى عنه ليعطه.

^٣ أبو العرج عند الرحمن بن علي القرشي البكري، العدادي العقبة الحسلي الواعظ الملقب جمال الدين ابن الجوزي، كان علامة عصره، وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ. من تصانيفه " زاد المسير في علم التفسير"، و"المنتظم في التاريخ"، و"الموضوعات"، و"تلقيح فهم الأثر". توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة بعدد. انظر: وفيات الأعيان لاس حلكا ١٤٠/٣-١٤٢.

^٤ كشف المشكل من حديث الصحيحين: ١١٢/٣، لأبي العرج عند الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط: دار الوطن - الرياض. التحقق: علي حسين النواب.

^٥ قوله عرلا نضم المعجمة وسكون الراء جمع أعزل وهو الأقلف ورنه ومعناه، وهو من بقيت عرلته، وهي الخلدلة التي يقطعها الخائن من الذكر. فتح الباري لاس حجر (٣٨٤/١١)

لَا تَذَرِي مَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: "وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ" إِلَى قَوْلِهِ: "الْحَكِيمُ"، قَالَ: فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»^(١).

العشر إلى عرصات القيامة وأحواله:

بعد اكتمال البعث يحشر الناس إلى عرصات القيامة، فيساقون إلى ذلك الميدان سوقاً، فيسرعون إليه كأنهم يستبقون إلى شئ محبوب لديهم، كما تصوّره هذه الآية: (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)^(٢). أي: يخرجون من القبور إلى أرض المحشر مسرعين، كأنهم يسعون ويستبقون إلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها، خاضعة منكسرة أبصارهم إلى الأرض لا يرفعونها خجلاً من الله، يغشاهم الذل والهوان من كل مكان، وعلى وجوههم آثار الذلة والانكسار^(٣).

وحينئذ يسمعون الداعي إلى موقف الحساب، فيتجهون نحو الصوت سراعاً، لا يتباطأون ولا ينحرفون عنه، وتغشاهم الهيبة والخضوع للرحمن من الفزع، وهول الموقف، فلا يسمع لهم صوت ولا كلام فيما بينهم إلا وطء الأقدام في سرعة السير، وفي ذلك يقول المولى تبارك وتعالى: (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)^(٤). والهمس: وطء الأقدام إلى المحشر^(٥). كما وصف المولى سبحانه الناس في موضع آخر عند حشرهم إلى موقف الحساب بأنهم مثل الجراد في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى عرصات القيامة، فقال: (فَقَوْلٌ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ تُكْرِرُ. خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ. مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسْرٍ)^(٦). ويظنّ الناس أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا مدة يسيرة لشدة ما يطلعون عليه من المصائب العظام والأهوال الجسام، فقال تعالى:

^١ أخرجه البخاري في صحيحه: (١٠٩/٨)، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر عن ابن عباس رضي الله عنهما بلغته. ومسلم في صحيحه:

(٢١٩٤/٤)، كتاب الحجة وصفة عيبتها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة عن ابن عباس أيضاً بلفظ مقارب.

^٢ سورة المعارج: ٤٣، ٤٤

^٣ انظر: صفوة التماسير للصابوني: ٤٢٣/٣

^٤ سورة طه: ١٠٨

^٥ انظر: تفسير الطبري ٣٧٤/١٨

^٦ سورة القمر: ٦-٨

(يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)^(١). أي: وتحسبون عند موافاتكم القيامة من هول ما تعانون فيها ما لبثتم في الأرض إلا قليلاً^(٢).

وأخبر الله عزّ وجلّ أن بعض الناس يحشرون يوم القيامة على هيئة منكورة، يصعب على أهل الدنيا أن يتصوّروها بعقولهم، بأن يحشرهم إلى موقف الحساب وهم يمضون على وجوههم بدل أرجلهم كما هو المعتاد. وذلك في قوله: (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)^(٣). وقد استشكل بعض الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إمكانية الحشر على الوجوه، فأزال إشكالهم، كما يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا نبي الله، يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أَلَيْسَ الَّذِي أُمِّشَاهُ عَلَى الرَّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمَشِّيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤). وفي أثناء الحشر والحساب لا يتمكن أحد من الحصول على مخبأ، يتغيّب فيه عن موقف الحساب، بل إنّ الحشر شامل لجميع الخلق، فلا يترك أحد ولا يستثنى شخص بأيّ حال من الأحوال، كما قال تعالى: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا)^(٥).

الترهيب بالبعث والحشر:

السمة الغالبة لآيات البعث والحشر هو الترهيب والتخويف، إذ الأحوال التي تصاحب البعث والحشر عجيبة وغريبة، لم يتعوّد عليها الإنسان ولم يألفها في الحياة الدنيا، فإنه يشاهد خراب العالم وتدميره بأم عينيه، السماء تنشق، والأرض تتزلزل، والبحار تسجّر، والنجوم تتناثر، والجبال تندك وتصير هباء منثوراً. فهذا الموقف يؤثّر في نفس المؤمن المشاهد بعين بصيرته، الموقن لحدوثه، وتفاصيل وقائعه، فيجعله خائفاً راهباً قبل أن يشهده بعد موته وينظر إليه ببصره، حيث لا ينفع الخوف آنذاك. والخوف المطلوب هو الذي يصاحب الإيقان بهذه المشاهد والحوادث في الدنيا قبل وقوعها، وهو الذي يكون نتيجة التصديق الجازم بما حكى القرآن المجيد عن تلك المظاهر

^١ سورة الإسراء: ٥٢

^٢ انظر: تفسير الطبري ٤٦٩/١٧

^٣ سورة الإسراء: ٩٧

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه: (٦/ ١٠٩)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم لفظه.

^٥ سورة الكهف: ٤٧

العجبية والمقامات العظيمة. والجدير بالذكر أن هذا الخوف في الحياة الدنيا ينفع العبد عند مروره بهذه المحن بعد الممات، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «وَعَزَّيْتُ لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفِينَ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمَّنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). وفيما يلي نذكر بعض الآيات التي تحدثت عن البعث والحشر، مما يكون له تأثير بين في نفس المؤمن بالرهبة والخوف، ومن ثم تبعته على الاستعداد لهول تلك المشاهد والمصائب بالإيمان والعمل الصالح، مع الرجاء من الله تعالى أن يخفف وطأها عليه.

ومن ذلك قوله تعالى في التحذير من تطفيف الكيل: (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)^(٢). أي: "ألا يظن هؤلاء المطففون الناس في مكاييلهم وموازينهم أنهم مبعوثون من قبورهم بعد مماتهم ليوم عظيم شأنه: هائل أمره، فظيع هوله"^(٣). وقوله تعالى في التخويف من ضبط الأعمال والمجازاة عليها يوم البعث والنشور: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَخْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)^(٤). وقوله تعالى في الترهيب من الأحداث التي تصاحب البعث من القبور: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ. إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ. فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)^(٥). وقوله تعالى في التحذير من التكذيب باليوم الآخر، وأنه يؤدي إلى الخسارة يوم الحشر والنشر: (وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)^(٦). وقوله تعالى في التخويف من حشر الذين ظلموا إلى موقف السؤال والحساب: (اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)^(٧). وقوله تعالى في الحث على

^١ أخرجه ابن حبان في صحيحه: (٤٠٦/٢)، كتاب الرقائق، باب حسن الظن بالله تعالى لفظه.

^٢ سورة المطففين: ٤-٦

^٣ تفسير الطبري: ٢٧٨/٢٤

^٤ سورة الحديد: ٦

^٥ سورة يس: ٥١-٥٤

^٦ سورة يونس: ٤٥

^٧ سورة الصافات: ٢٢-٢٤

التقوى، والتحذير من التفريط فيه من خلال التذكير بالحشر إلى الله تعالى: (وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)^(١). وقوله تعالى في أمر النبي صلى الله عليه وآله أن ينذر بالقرآن من يخاف أن يحشر إلى ربه، لأنهم المتفجعون بهذا التذكير: (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)^(٢). وقوله تعالى في الترهيب من الحشر على الوجوه إلى جهنم: (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا)^(٣). وقد اتضح من النماذج التي سقتها من الآيات تأثير البعث والحشر على نفس المرء، فيضطرب خوفاً من هذه المظاهر الفظيعة والحوادث الرهيبة، مما يبعثه على المسارعة إلى أعمال الخير، والمجانبة من أعمال الشر، والله أعلم، وهو الموفق للصواب.

^١ سورة البقرة: ٢٠٣

^٢ سورة الأعراف: ٥١

^٣ سورة الفرقان: ٣٤

المطلب الثاني: أهوال يوم القيامة والترهيب بها

أهوال يوم القيامة: ^(١)

أهوال يوم القيامة عظيمة، ومصائبه عديدة، ووقعه على النفوس شديد. وما يقع فيه من الأحداث العظام، والمشاكل الجسام لا يعلم حقيقتها إلا الله. وسأذكر مظاهر ذلك، مسترشدا بما ورد في القرآن الكريم من وصفه لهذا اليوم العظيم، وما اشتمل عليه من الأهوال والمشاكل والمصائب من خلال النقاط التالية:

١- وصف الله تعالى بالعظم والكبر، مما يؤكد على أنه ليس كبقية الأيام، فتسميته بالعظيم لما يحدث فيه من الأمور العظيمة التي لا عهد للإنسان بها قبل ذلك اليوم، فعظمته تبهر العقول، وتهزّ القلوب، وتدع الناس في حيرة وقلق، كما يقول الطبري: "ووصفه تعالى بـ"العظم" لعظم هَوْلِهِ، وفظاعة شأنه"^(٢). يقول الله تعالى: (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)^(٣). ويقول أيضا: (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)^(٤).

٢- في هذا اليوم الفظيع تنقطع العلائق والأسباب التي كانت تربط بين الناس في الحياة الدنيا، فلا ينفع قريب قريبه، ولا يساعد صديق صديقه ولا يجزي والد عن ولده شيئا، فتضمحلّ الوشائج، والشفاعات، والوسائط، والخلال، والأنساب، حتى يفتر المرء ممن كان متعلّقا به في الدنيا بسبب نسب أو صهر أو صداقة. ومما يدلّ على ذلك قوله تعالى: (يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)^(٥). وقوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)^(٦). وقوله تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)^(٧). وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَآخَشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ

^١ انظر في التفصيل لأهوال هذا اليوم: القيامة الكبرى لعمر الأشقر، ص: ٩٥، وما بعدها.

^٢ تفسير الطبري: ٢٨٥/١١

^٣ سورة المطففين: ٤-٦

^٤ سورة هود: ٣

^٥ سورة عس: ٣٤-٣٧

^٦ سورة القرة: ٤٨

^٧ سورة المؤمنون: ١٠١

اللَّهُ حَقٌّ فَلَا تُغَرِّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغَرِّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ^(١). أي: "وخافوا يوماً رهيباً عصياً لا ينفع والد فيه ولده، ولا يدفع عنه مضرة، أو يقضي عنه شيئاً مما تحمله... ولا ولدٌ يغني أو يدفع عن والده شيئاً، أو يقضي عنه شيئاً من جنايته ومظالمه"^(٢).

٣- يصيب الناس فزع شديد ورعب عظيم من فظاعة ما يحدث من الأهوال والشدائد، فتذهل المرضعة عن ولدها، ويسقط حمل المرأة من هول ما ترى، ويعتري الناس ذهول شديد وحيرة عظيمة تجعلهم مثل السكارى، كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)^(٣). ومن شدة ما يحصل للناس في هذا اليوم يشيب الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم بعد، فتتغير ملامحهم، وتبيض شعورهم، رغم أنهم لم يكلّفوا بالإيمان والأعمال. فإذا كان أمر الأطفال كذلك فكيف حال البالغين الذين اجترحوا السيئات وفرطوا في الواجبات، إن الأمر جدّ خطير والخطب غير يسير. وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)^(٤). وأصل ذلك أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على المرء ضعفت قواه وأسرع فيه الشيب^(٥). ويصيب الناس خوف عظيم وقلق شديد حيال انتظارهم لمصيرهم الأخير، هل هو إلى الجنة أو إلى النار، وهل يعطى كتابهم من اليمين أو الشمال. ويظهر ذلك جلياً في اضطراب قلوبهم وتقلب أبصارهم، حيث لا يطمئنون على شيء ولا يستقرّون على حال. ويدلّ على ذلك قوله تعالى: (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)^(٦).

٤- ومن أهوال يوم القيامة: أن الظالمين يظهرون الاستعداد للافتداء بكل ما يملكونه بدل العذاب وسوء المصير، فيودّون لو يفتدوا من عذاب ربهم بالمال والأولاد والأحباب، وإن اقتضى الأمر إلى بذل ملء الأرض ذهباً، فداء لنفسه من النكال والعقاب، وفي ذلك يقول المولى جل في علاه:

^١ سورة لقمان: ٣٣

^٢ صفة التعاسير للصابري: ٤٥٧/٢

^٣ سورة الحج: ١-٣

^٤ سورة المزل: ١٧

^٥ انظر: تفسير أبي السمو ٥٢/٩

^٦ سورة البور: ٣٧

(وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ)^(١). وقال تعالى: (يُبَصِّرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَقَصِيْلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ)^(٢). يودّ الكافر يومئذ ويتمنى أن يفتدي من عذاب الله بأحب الناس إليه، بنيه وزوجته، وأخيه، وعشيرته التي تضمّه، وبمن في الأرض جميعاً من الخلق، ثم ينجيه ذلك من عذاب الله^(٣).

٥- وما يزيد فظاعة هذا اليوم، ويضاعف شدائده، ويكثر من أحزان الناس وهمومهم طوله المفرط وامتداده لمدة تجاوزت الحدّ المعروف للناس، حتى وصفه الله تعالى بأنّ مقداره يبلغ خمسين ألف سنة، مما يصيب الناس بالحيرة والذهول والخيبة والنفور. وفي ذلك يقول المولى حلّ وعلا: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)^(٤). وهذا يكون بالنسبة للكافر، إلا أنّ الله تعالى يهوّن أمره على المؤمن ويخفّف وطأته عليه، كما أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عندما سئل: فقل ما أطول هذا اليوم، فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفُّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيْهَا فِي الدُّنْيَا»^(٥). ومن أجل طول هذا اليوم يظنّ الناس أنّهم لم يلبثوا في الحياة الدنيا إلا يسيراً، ساعة من النهار أو يوماً أو بعض يوم، كما يدلّ عليه قوله تعالى: (وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)^(٦). وقوله تعالى: (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ)^(٧). قال ابن كثير بعد أن ساق بقية الآيات الواردة في هذا المعنى: "وهذا كلّ دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة"^(٨).

^١ سورة الرعد: ١٨

^٢ سورة الماعج: ١١-١٤

^٣ انظر: تفسير الطبري ٦٠٦/٢٣

^٤ سورة الماعج: ٤

^٥ أخرجه ابن حبان في صحيحه: (٣٢٩/١٦)، باب إحصاءه صلى الله عليه وسلم عن البعث وأحوال الناس في ذلك اليوم، ذكر البيهقي أنّ الله حلّ وعلا تفصله يهون طول يوم القيامة على المؤمنين حتى لا يحسوا منه إلا شيئا يسيراً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظه.

^٦ سورة يونس: ٤٥

^٧ سورة المؤمنون: ١١٢، ١١٣

^٨ تفسير ابن كثير. ٢٧١/٤

٦- تتفاوت أحوال الناس يوم القيامة بين الشدة واللين والتعسير والتيسير. فأما الكفار فإنهم يقاسون أشدّ الأحوال ويجاهون أصعب الحوادث جزاء خلودهم إلى الراحة والترف في الدنيا، وتمردهم على الله بالكفر والشرك والمعاصي. ومن أحوالهم غشيان الذلّ والخشوع عليهم، وظهور ذلك جليا في أبصارهم، كما في قوله تعالى: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ. خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسْرٍ^(١)). قال الطبري: "وإنما وصف جلّ ثناؤه بالخشوع الأبصار دون سائر أجسامهم، والمراد به جميع أجسامهم، لأن أثر ذلّة كل ذليل، وعزّة كل عزيز، تتبيّن في ناظره دون سائر جسده، فلذلك خصّ الأبصار بوصفها بالخشوع"^(٢). ومن ذلك نداؤهم بالويل والثبور، وشعورهم بالندم والإحرام، كما في قوله تعالى: (وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ)^(٣). ومن مظاهر فرعهم وخوفهم أن أبصارهم تشخص، فلا تطرف ولا تلتفت يمينا ولا شمالا، وتصبح قلوبهم خاوية لا تعقل ولا تستوعب شيئا، كما قال تعالى: (وَلَا تَخْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدْتُهُمْ هَوَاءً)^(٤). ومما يحدث للظالمين والكافرين في هذا اليوم أن قلوبهم هتّز وتزاح عن موطنها الأصلي في الصدور حتى تصل إلى الحناجر لا تخرج ولا تنزل من الفزع وشدة الرعب، كما وصفها المولى جلّ وعلا في قوله: (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)^(٥). ويحشرون في هذا اليوم مقرّنين بالسلاسل والأغلال، ومسرّبلين بالنار والقطران جزاء تمردهم في الدنيا على أمر الله واتباع رسله، كما تصوّره الآيات التالية: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ.

^١ سورة القمر: ٦-٨

^٢ تفسير الطبري: ٥٧٣/٢٢

^٣ سورة الأنبياء: ٩٧

^٤ سورة إبراهيم: ٤٢، ٤٣

^٥ سورة عاف: ١٨

سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ^(١). يقول الطبري: "مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد، وهي الوثاق من غلّ وسلسلة"^(٢).

وأما المؤمنون الأتقياء فهم لا يحزنون إذا حزن الناس ولا يفرحون إذا فرح الناس، وهم أولياء الرحمن الذين آمنوا بالله، واتبعوا رسله، وعملوا الصالحات، وتركوا المعاصي والشهوات في الدنيا طاعة للرحمن وإيثارا لمرضاته. وفي أمرهم يقول المولى جل وعلا: (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ. لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)^(٣). وفي هذا اليوم يُطْمِئِنُّ منادي الرحمن أوليائه ويبيشرهم بخير مقدم، وألا يخافوا فيما يستقبلهم ولا يحزنوا على ما فاتهم في الدنيا. كما قال تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)^(٤).

الترهيب بأهوال يوم القيامة

الغاية الكبرى من ذكر الشدائد والأهوال الواقعة في يوم النشر والحساب في القرآن الكريم الترهيب والتخويف من التعرّض لهذه الأهوال بسبب السلوك السيئ والانحراف عن الصراط المستقيم المتمثل بترك التوحيد وتكذيب الرسل والإعراض عن الفرائض وارتكاب المحرمات. وذلك أنّ الخوف في حدّ ذاته غير مطلوب، إنّما يُرغَب فيه لما يؤدّي إليه من طاعة الرحمن وتعظيم حرّماته، فمن أيقن بهذه المشاهد العظام وآمن بهذه المقامات الجسام من أهوال القيامة كما يصورها القرآن فحريّ به أن يخاف منها، ويحتنب ما يؤدّي إليها من الأقوال والأفعال، مهما كلفه الأمر من ترك حظوظ النفس وشهواتها، فإنّ اللذة إذا أعقبتها حسرة لا تكون لها قيمة، ولا يغترّ بها عاقل. وقد كان الإنذار بالقرآن أصالة لهؤلاء الخائفين من الحشر والنشر بين يدي المولى جلّ في علاه، كما في قوله تعالى: (وَأُنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)^(٥).

^١ سورة إبراهيم: ٤٨-٥٠.

^٢ تفسير الطبري: ٥٢/١٧.

^٣ سورة الأنبياء: ١٠١-١٠٣.

^٤ سورة يونس: ٦٢-٦٤.

^٥ سورة الأنعام: ٥١.

ومن أكبر الحوافز على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولزوم ذكر الله وطاعته وترك ما يشغل عنه من التجارات والمساومات الخوف من أهوال يوم الحشر والمعاد، كما في قوله تعالى: (رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)^(١). وقد ذكر الله سبحانه جزاء بعض الأعمال السيئة والأخلاق الرذيلة، معلقاً إيّاها بيوم القيامة وأهواله، مما يعيى الترهيب من اقترافها، والحذر من ركوها. ومن ذلك قوله تعالى في الزجر من كتمان ما أنزل الله واستبداله بالثمن القليل من حظوظ الدنيا: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(٢). وفي التحذير من الغلول وعاقبته الوخيمة في يوم القيامة يقول تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)^(٣). وفي الترهيب من منع الزكاة والحقوق الواجبة في الأموال قال تعالى: (وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)^(٤). وفي التحذير من نصرة الخائنين والظالمين في هذه الدنيا قال تعالى: (هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا)^(٥). وفي من موالاة الكفار ونصرتهم ضد المسلمين قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْزِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)^(٦). وفي التحذير من الاختلاف في الدين والفرق في الكتاب بعد حصول العلم به قال تعالى: (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ

^١ سورة البور: ٣٧

^٢ سورة البقرة: ١٧٤

^٣ سورة آل عمران: ١٦١

^٤ سورة آل عمران: ١٨٠

^٥ سورة النساء: ١٠٩

^٦ سورة النساء: ١٤١

يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ^(١). وقال تعالى في الترهيب من الشرك والخزي المرتب عليه يوم القيامة: (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ^(٢)). وقال في التحذير من الكفر بآيات الله ولقائه: (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا^(٣)). وقال في الترهيب من الإعراض عن اتباع كتابه في الأوامر والنواهي: (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا. مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا. خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا^(٤)). وفي التحذير من المجادلة في التوحيد بغير علم قال: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ. ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابٌ حَرِيقٍ^(٥)).

ملاحظة: والسمة الغالبة في أحوال يوم القيامة أنها مفزعة ومرهبة، وإن كان يوجد بشارات لأهل التقوى والصلاح عموماً، والقائمين ببعض الأعمال القيّمة خصوصاً، مما يؤكد على أن يوم القيامة لا يخلو من مرغبات وبشارات لمن أطاع الله ورسوله، واجتنب سبيل الشيطان والهوى، والله الموفق للصواب، وهو حسبي، عليه توكلت وإليه أنيب.

^١ سورة يونس: ٩٣

^٢ سورة الحن: ٢٧

^٣ سورة الكهف: ١٠٥

^٤ سورة طه: ٩٩-١٠١

^٥ سورة الحج: ٨، ٩

المطلب الثالث: الحساب يوم القيامة والترهيب به

الحساب يوم القيامة:

المراد بالحساب يوم القيامة: أن يوقف الحق تبارك وتعالى الناس في موقف الحساب بين يديه، فيعرفهم بأفعالهم وأقوالهم وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر، واستقامة وانحراف، وطاعة وعصيان، وما يستحقونه على أعمالهم من إثابة وعقوبة، وإيتاء كتبهم بأيامهم إن كانوا صالحين، وبشمائلهم إن كانوا طالحين. ويشمل الحساب أيضا ما يقول الله لعباده، وما يجيبون به، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين، وشهادة شهود، ووزن للأعمال. والناس متفاوتون في ذلك بين مناقش في الحساب وهو العسير، ومسامح فيه وهو اليسير. ويوجد من لا حساب عليه فيدخل الجنة بغير حساب. والحساب منه التكريم، ومنه التوبيخ، والتبكيك، ومنه الفضل والصفح، ومتولي ذلك كله أكرم الأكرمين، وأرحم الرحمن، وأحكم الحاكمين^(١).

وحدث سبحانه عن مشهد الحساب والجزاء بقوله: (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)^(٢). والقاضي المحاسب في هذا اليوم هو الحكم العدل، ليظهر عظم المشهد وجلاله ومهابته. ولعل ذلك الإشراق المنصوص في الآية السابقة يكون عند مجيء الملك الجليل لفصل القضاء، كما في قوله: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)^(٣).

ويؤتى في موقف^(٤) القضاء والحساب بالرسل، ويسألون عن الأمانة التي حملهم الله إياها، وهي إبلاغ الرسالة إلى أقوامهم، كما قال تعالى: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)^(٥). فيشهدون عليهم بما علموه من أحوالهم، كما في قوله تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ

^١ انظر: أصول الدين، ص: ٢٢٥، لحمال الدين أحمد بن محمد العربي الحنفي، ط: الأولى، دار الشائر الإسلامية، بيروت - لسان، ١٤١٩هـ -

١٩٩٨م. التحقيق: الدكتور عمر وفاق الداعوق. والقيامة الكبرى لعمر الأشقر، ص: ١٩٣

^٢ سورة الرمر: ٦٩

^٣ سورة البقرة: ٢١٠

^٤ انظر تفصيل هذه المواقف: القيامة الكبرى لعمر الأشقر، ص: ١٩٤، وما بعدها، والتذكرة بأحوال الموتى للقرطبي، ص: ٦١٩، وما بعدها

^٥ سورة الأعراف: ٦

شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ^(١). ويقوم الأشهاد فيشهدون على الخلائق بما كان منهم، وهم الملائكة الموكّلون بتسجيل أعمال العباد وأحوالهم، كما في قوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ^(٢)). يقول الطبري: "يعني الملائكة والأنبياء الذين شهدوهم وحفظوا عليهم ما كانوا يعملون، وهم جمع شاهد مثل الأصحاب الذي هو جمع صاحب"^(٣).

وتشهد أيضا على العباد الأرض والسماء والليالي والأيام، حتى إن أعضاءهم وجلودهم تشهد عليهم، كما في قوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا لِمَ جُلُودِهُم لِمَ شَهِدَتْمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ^(٤)). وتشهد على المرء أعضاؤه حين ينكر شهادة الملائكة عليه، كما في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضحك، فقال: «هَلْ تَذَرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبَّ أَلَمْ تُجَرِّنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَىٰ نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيَخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فَيَقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَاضِلُ^(٥)».

ويؤتى بالعباد، فيقامون صفوفًا للعرض على رب العباد، كما في قوله تعالى: (وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا^(٦)). ولشدة الهول تحشوا الأمم على الركب في الوقت الذي يُدعى الناس للحساب لعظم ما يشاهدون،

^١ سورة الحل: ٨٩

^٢ سورة هود: ١٨

^٣ تفسير الطبري: ٢٨٢/١٥

^٤ سورة فصلت: ٢٢-٢٠

^٥ أخرجه مسلم في صحيحه: (٢٢٨٠/٤)، كتاب الرهد والرفائق عن أنس رضي الله عنه بلفظه.

^٦ سورة الكهف: ٤٨

وما هم فيه واقعون، كما في قوله تعالى: (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)^(١).

وتتطير الكتب إلى الناس في الموقف، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله، كما يقول المولى جل في علاه: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا. وَنُقِلَ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا. وَيَصْلَى سَعِيرًا)^(٢). ويقول الإمام القرطبي: "إذا بعثوا من قبورهم إلى الموقف، وقاموا فيه ما شاء تعالى على ما تقدم حفاة عراة، وجاء وقت الحساب الذي يريد الله أن يحاسبهم فيه، أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس فأوتوها، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه فأولئك هم السعداء، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله أو من وراء ظهره وهم الأشقياء، فعند ذلك يقرأ كل كتابه"^(٣). ويعترف كل إنسان أن المسجل في الكتاب عمله فقط لا زيادة فيه ولا نقصان، كما قال تعالى: (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)^(٤). ويتمكن المرء في هذا اليوم العجيب من القراءة وإن كان أميًا لم يقرأ ولم يكتب قط في عمره، فيقرأ بنفسه ما أحصاه عليه الكرام الكاتبون من أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)^(٥).

ويوضع الميزان الدقيق والقسطاط المستقيم لتقدير الأعمال وحصر وزنها للجزاء والثواب، فتكون الموازنة بين الأعمال الحسنة والسيئة، فمن ثقلت موازين حسناته فقد أفلح وأنجح، ومن خفت موازين حسناته فقد خاب وخسر. وفي هذا الشأن يقول الله تبارك وتعالى: (وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ)^(٦). واختلف أهل العلم في الذي يوضع في الميزان يوم القيامة، فقليل: الأعمال وإن كانت أعراضا، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما. ومن ذلك قصة

^١ سورة الحانية: ٢٨

^٢ سورة الاستقاق: ٧-١٢

^٣ التذكرة بأحوال الموتى للموتى للقرطبي، ص: ٦١٩ - ٦٢٠

^٤ سورة الإسراء: ٧١

^٥ سورة الإسراء: ١٣، ١٤

^٦ سورة الأعراف: ٨، ٩

القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك^(١). وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مَدّ البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: "لا إله إلا الله" فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟، فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم. فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة"^(٢). وقيل: يوزن صاحب العمل، كما في الحديث: "يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين، فلا يزن عند الله جناح بعوضة"^(٣). وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم^(٤). وينتفي الظلم والتشكي وتحقق العدالة الإلهية في شأن الميزان وغيره من أعمال هذا اليوم العظيم، فلا يوجد منظم أو مشتك من جور أو نقصان، لأن الحكم العدل حرّم الظلم على نفسه كما حرّمه على غيره. يقول المولى تبارك وتعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)^(٥). والظاهر أن الميزان يكون في ختام ذلك اليوم كما قال القرطبي: "وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإنّ المحاسبة لتقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها"^(٦). والله أعلم.

الترهيب بالحساب يوم القيامة

قد كثر حديث القرآن عما يحدث في هذا اليوم العظيم، من الحساب وتفصيله، من العرض، والسؤال، وشهادة الأعضاء، ونشر الكتب، وإقامة الموازين، قصداً منه لبعث روح الخوف

^١ أخرجه الدارمي في سننه: لعند الله بن عبد الرحمن الدارمي، ط: الأولى، دار المعنى للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢هـ-٢٠٠٠م. التحقيق: حسين سليم: (٢١٣٥/٤)، كتاب فضائل القرآن، ناب: في فصل سورة البقرة وآل عمران عن أبي موسى الأشعري، وقال المحقق: إسناده حسن من أجل شيوخه من المهاجرين.

^٢ أخرجه ابن ماجه في سننه، (١٤٣٤/٢)، كتاب الرهد، ناب ما يرحى من رحمة الله يوم القيامة عن عبد الله بن عمرو بنحوه.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه، (٩٣/٦)، كتاب تفسير القرآن، ناب أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحطت أعمارهم، ومسلم في صحيحه، (٢١٤٧/٤)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

^٤ انظر: تفسير ابن كثير ٣/٣٨٩-٣٩٠.

^٥ سورة الأنبياء: ٤٧.

^٦ التذكرة بأحوال الموتى للقرطبي، ص: ٧١٥.

والرهبة في قلوب العباد، كي يتمكنوا من الاستعداد لمواجهة هذه المشاكل ومقاساة هذه الأحوال، فينتفع بسماعها من خشى الرحمن واهتدى، ويحرم ذلك من شقى واتباع الهوى، (سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى. وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى)^(١). وفيما يلي نذكر بعض مظاهر الترهيب والتخويف للآيات الواردة في هذا الشأن، والتي تبعث على الاستعداد للحساب في هذا اليوم العصيب.

١- في يوم العرض والحساب يتم إحصاء الأعمال، خيرها وشرها، وإحضارها بصورة كتاب مضبوط أمام العامل، مما يبعث في الإنسان الخوف والحذر من أن يجد أعماله السيئة أكثر من الحسنة، فيدفعه ذلك إلى الجد والاجتهاد. ومن ذلك قوله تعالى: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)^(٢). وقوله تعالى: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَخْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)^(٣). وقوله تعالى: (وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا)^(٤). ومن هول الموقف تجثو الأمم على الركب، مطلعة على أعمالها المكتوبة، والتي سجلتها الحفظة في كتاب استنسخ فيه أعمال العباد، فلا عذر لأحد منهم في الإنكار أو الشك، (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)^(٥).

٢- وقد أكد الله تعالى في آيات عديدة أنه سيسأل العبد عن أفعاله وأقواله التي اكتسبها في الدنيا، حتى إن الأسئلة الربانية في يوم الحسرة تطال الرسل والأنبياء، وتوجه إلى أعضاء الإنسان ماذا فعلت، مما يورث الخشية والمهابة من هذا الموقف الرهيب ويبعث على الاستعداد له بكل ما أمكن من الإيمان والأعمال. ومن هذه الآيات قول المولى جل في علاه: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)^(٦). وقوله تعالى: (فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٧). وقوله

^١ سورة الأعلى: ١٠، ١١

^٢ سورة آل عمران: ٣٠

^٣ سورة المجادلة: ٦

^٤ سورة الكهف: ٤٩

^٥ سورة الحانية: ٢٨، ٢٩

^٦ سورة الأعراف: ٦

^٧ سورة الحجر: ٩٢-٩٣

تعالى: (وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتُولُونَ)^(١). وقوله تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)^(٢). ومما يتناول فيه السؤال وبينه الرسول صلى الله عليه وسلم في إرشاداته العطرة قوله: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عَمَلِهِ فِيمَا أْفَنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ»^(٣).

٣- وقد خوَّف الله تعالى عباده من العرض عليه في عرصات القيامة، وأنه يطالعهم على أعمالهم الصغيرة والكبيرة والسرّية والجهرية والسيئة والحسنة، مما ينذر بالخطر الذي يقدم عليه العباد والموقف الذي ينتظرهم. إنه حقًا لموقف حرج ومقام رهيب، كما في قوله تعالى: (وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا)^(٤). أي: "فيعرضون عليه صفا، ليستعرضهم وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه ولا ظلم"^(٥). وقوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)^(٦).

٤- ومما يبعث على الخوف والوجل، ويزيد في الخشية والرهبة ما يحدث في يوم الدين من إقامة الموازين بالقسط والعدل، فلا يظلم ربك أحدا، فمن ثقلت موازين حسناته فقد فاز وسعد إلى أبد الآباد، ومن خفّت موازين حسناته، وكثرت سيئاته فقد خاب وشقي وصار مأواه الجحيم. فإذا كان الإنسان لا يعلم في الدنيا مقدار حسناته المودعة في حساب البنك الأخروي، وكذلك مقدار سيئاته المحفوظة عند الكرام الكاتبين، فَحَرِيٌّ به أن يكون على جناح الرهبة في كل حين وآن، ويظلّ ملازما للخوف في جميع الأزمان. وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)^(٧). وقال تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ

^١ سورة الصافات: ٢٤

^٢ سورة الإسراء: ٣٦

^٣ أخرجه الترمذي في سننه (٦١٢/٤) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ناب في القيامة عن أبي بررة الأسلمي رضي الله عنه لفظه، وقال: حديث حسن صحيح

^٤ سورة الكهف: ٤٨

^٥ تفسير السعدي، ص: ٤٧٩

^٦ سورة الحاقة: ١٨

^٧ سورة المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣

مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ^(١). أي: "فلا يظلم الله نفساً ممن ورد عليه منهم شيئاً، بأن يعاقبه بذنب لم يعمله أو يبخسه ثواب عمل عمله، وطاعة أطاعه بها، ولكن يجازي المحسن بإحسانه، ولا يعاقب مسيئاً إلا بإساءته"^(٢).

٥- ومن أعظم المخوفات للعبد في هذه الدنيا تصديقه بما ورد في الكتاب المجيد من شهادة الأعضاء على العبد، وأن كل عضو يتكلم بما فعل من المعاصي والمنكرات السرية والجهرية، فلا يخفى من أمر العبد شيء، بل يطلع عليه الأوائل والأواخر، من جموع الإنس والجن والملائكة والشياطين المحشورة في عرصات القيامة وميادين الحشر، إلّا أن يتداركه الله بستر منه وعفو ومغفرة ورحمة، أجارنا الله من فضائح ذلك اليوم، وستر قبائحنا، وشمّلنا بمغفرة منه ورحمة. (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)^(٣). وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٤). وقال في موضع آخر: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)^(٥).

ومظاهر الترهيب الحاصلة في موقف الحساب كثيرة، وفيما ذكرته من النصوص كفاية للمؤمن أن يكون خائفاً وجلالاً، محاسباً نفسه قبل الوصول إلى موقف الحساب والكتاب، ونسأل الله العظيم الكريم أن يمنّ علينا بالتيسير في هذا اليوم العسير.

^١ سورة الأنبياء: ٤٧

^٢ تفسير الطبري: ٤٥١/١٨

^٣ سورة الطارق: ٩

^٤ سورة النور: ٢٤

^٥ سورة يس: ٦٥

المطلب الرابع: الانصراف عن الموقف وجواز الصراط

الانصراف عن موقف الحساب:

ينقضي هذا اليوم المهيب بصدور الناس عن الموقف، فريق في الجنة وفريق في السعير. وجاء في النصوص سوق المحرمين إلى النار، وحشر المؤمنين إلى الجنة عبر الصراط، بعد أن يتميز المنافقون من المؤمنين بإتمام نور أهل الإيمان، وانطفاء نور أهل الريب والنفاق، كما أن كثيرا من أهل الإيمان الذين استحقوا النار بسبب الفسق والمعاصي يتساقطون من الصراط على نار جهنم والعياذ بالله. وعندما ينقضي مجلس القضاء بين الخلق، وتتم إصدار الأحكام النهائية بخصوص المتقين والمجرمين لم يبق إلا تنفيذ الجزاء في حق الكل، وذلك بمغادرة عرصات القيامة إلى دار الجزاء والخلود، إما إلى الجنان وجوار الرب الكريم، أو إلى النيران ومقاساة العذاب الجحيم. كما يصوره قوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)^(١). أي: متفرقين، عن اليمين وعن الشمال، ليروا أعمالهم، فيرى المحسن في الدنيا جزاء عمله وما أعد الله له يومئذ من الكرامة، ويرى المسيء جزاء عمله وما أعد الله له من الهوان والخزي في جهنم^(٢). وقوله تعالى: (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)^(٣).

انقسام الناس إلى مجموعات بعد انتهاء الموقف

في ختام هذا اليوم ينقسم الناس إلى من يعبد الله بحق أو بباطل، كالمؤمنين والمنافقين وأهل الكتاب، ومن يعبد غير الله من الأصنام والشمس والقمر وغير ذلك. فمن كان يعبد غير الله فيتبع معبوده من إنس وجنّ وجماد، فيذهب به إلى النار، كما يقول الإمام ابن رجب: "واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا، ومشرك يعبد مع الله غيره، فأما المشركون فإنهم لا يمرّون على الصراط إنّما يقحمون في النار قبل وضع الصراط"^(٤). ودلّ على ذلك الآية

^١ سورة الرلولة: ٦-٨

^٢ انظر: تفسير الطبري ٥٤٩/٢٤

^٣ سورة الزمر: ٧٥

^٤ التحويل من النار والتعريف بحال دار الوار، ص: ٢٣٥، لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب العدادي، ثم الدمثقي، الحسلي، ط: الثانية، دار السّتر: مكتبة المؤيد - الطائف، دار البيان - دمشق، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م. التحقيق: بشير محمد عيون.

التالية: (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ)^(١). ويساق الكفار إلى النار سوقا عنيفا كقطعان الأغنام، جماعات جماعات، وينهرون أثناء ذلك، ويصاح بهم ويعتفون في ذلك مهانين، كما في قوله تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)^(٢). وقوله تعالى: (وَيَوْمَ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)^(٣). أي: يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقا عنيفا، لا يستطيعون امتناعا^(٤). وقوله تعالى: (يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا)^(٥). أي: "يدفعون إليها دفعا عنيفا شديدا بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار"^(٦). ومن غرائب ما يحدث لهم أثناء سوقهم أن يكون حشرهم على وجوههم، على خلاف ما كانوا في الدنيا من المشي على أرجلهم، كما في قوله تعالى: (الَّذِينَ يُخْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا)^(٧). ومع حشرهم على هذه الصورة المنكرة، فإنهم يساقون إليها عميا لا يرون شيئا، وصمًا لا يسمعون، وبكما لا يستطيعون الكلام، كما في قوله تعالى: (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)^(٨).

ولا يبقى بعد ذلك إلا المؤمنون وبقايا أهل الكتاب، وفي المؤمنين المنافقون الذين كانوا معهم في الدنيا، فيأتيهم ربهم، فيقول لهم: ما تنتظرون، فيقولون: نتظر ربنا، فيعرفونه، وعند ذلك يخرجون له سجداً، إلا المنافقون فلا يستطيعون، ثم يتبع المؤمنون ربهم، وينصب الصراط ويعطى المؤمنون أنوارهم، ويسيروا على الصراط، ويطفأ نور المنافقين، ويقال لهم: ارجعوا وراءكم

^١ سورة هود: ٩٨

^٢ سورة الزمر: ٧١

^٣ سورة فصلت: ١٩

^٤ انظر: تفسير السعدي، ص: ٧٤٧

^٥ سورة الطور: ١٣

^٦ تفسير أبي السعود: ١٤٧/٨

^٧ سورة العنكبوت: ٣٤

^٨ سورة الإسراء: ٩٧

فالتمسوا نوراً، ثم يضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب، ويمرّ العباد على الصراط مسرعين بقدر إيمانهم وأعمالهم الصالحة^(١).

وأما مصير أهل الكتاب فقد بيّنه ابن رجب بقوله: "فهذا الحديث"^(٢) صريح في أن كل من أظهر عبادة شيء سوى الله، كالنصارى والمجوس، فإنه يلحق بالمشرّكين في الوقوع في النار قبل نصب الصراط، إلا أن عباد الأصنام والشمس والقمر وغير ذلك من المشرّكين تتبّع كل فرقة منهم ما كانت تعبد في الدنيا، فتد النار مع معبودها أولاً^(٣) إلى أن قال: "وأما من عبد المسيح والعزير من أهل الكتاب، فإنهم يتخلّفون مع أهل الملل المنتسبين إلى الأنبياء، ثم يردون في النار بعد ذلك"^(٤). ثم قال أيضاً: "ولا يبقى بعد ذلك إلا من كان يعبد الله وحده في الظاهر، سواء كان صادقاً أو منافقاً من هذه الأمة وغيرها، ثم يتميّز المنافقون عن المؤمنين بامتناعهم من السجود، وكذلك يمتازون عنهم بالنور الذي يقسم للمؤمنين"^(٥).

وجاء تفصيل ما ذكرته في الفقرة السابقة في الحديث الطويل، الذي قال فيه الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَنْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغَيْرٍ^(٦) أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنِ اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَّا تَرُدُّونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَُا سَرَابٌ يَحِطُّ بِغَضْضِهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَّا تَرُدُّونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَُا سَرَابٌ يَحِطُّ بِغَضْضِهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنْ

^١ انظر: القيامة الكبرى للأشقر، ص: ٢٦٣-٢٦٤

^٢ يشير إلى الحديث الآتي بعد هذه الفقرة.

^٣ التحويل من النار لاس رجب، ص: ٢٣٧

^٤ التحويل من النار لاس رجب، ص: ٢٣٧-٢٣٨

^٥ نسم العين المعجمة وفتح الباء الموحدة المتددة ومعناه بقاياهم جمع عائر. شرح النووي على مسلم: ٢٦/٣

الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرًا مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، يَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، يَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَأَنْتَ رَبُّنَا، ثُمَّ يَضْرِبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ " قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: " دَحْضٌ مَزَلَّةٌ ^(١)، فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَلَالِيبٌ وَحَسَكٌ ^(٢) تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شَوْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرَفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَّابِ، فَتَنَاجٍ مُسَلِّمٌ ^(٣)، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ ^(٤) فِي نَارِ جَهَنَّمَ ^(٥) ».

اقتسام المؤمنين الأنوار وحرمان المنافقين منه

وتوضح الآيات التالية كيفية إعطاء النور للمؤمنين قبيل وصولهم إلى الجسر المنصوب على متن جهنم، وحرمان المنافقين من هذا النور العظيم، مع الإشارة إلى الحوار الذي يدور بين الفريقين أثناء ذلك، فقال عز من قائل: (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ

^١ أي رلق لا تلت الأقدام فيه. كشف المشكل لاس الحوري: ١٣٥/٣

^٢ الخطاطيف واحدها خطاف: وهي كالحجس متعقعة. والخطف: أحد الشيء سرعة. والكلاليب جمع كلات وكلوب، وهي من حس الخطاطيف. والحسك جمع حسكة: وهي شوكة حديدة صلبة. المصدر السابق: ١٣٥/٣

^٣ معناه أهم ثلاثة أقسام: قسم يسلم فلا ياله شيء أصلا، وقسم يندش ثم يرسل فيخلص، وقسم يكردس ويلقى فيسقط في جهنم. شرح النووي على مسلم: ٢٩/٣

^٤ أي مدفوع في جهنم، يقال: تكلس الإنسان على رأسه: إذا دفع من ورائه فقط. والتكلس في سير الدواب: أن يركب بعضها بعضا. كشف المشكل لاس الحوري: ١٣٦/٣

^٥ أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٧/١)، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظه. والحدادي في صحيحه (٤٥/٦) كتاب تفسير القرآن، باب قوله: إن الله لا يظلم مثقال ذرة عن أبي سعيد رضي الله عنه نحوه.

الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ. فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ^(١). وقال تعالى في موضع آخر: (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٢).

الأنوار التي تمنح للمؤمنين تتفاوت أحجامها وإضاءتها من شخص لآخر على قدر ما كانوا عليه في الدنيا من الصلاح والتقوى أو الفسق والفساد. وفي ذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "على قدر أعمالهم يمرّون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورا من نوره في إيمانه يتقد مرة ويطفأ مرة"^(٣). ويبيّن ابن رجب أسباب زيادة النور ونقصانه بقوله: "أنّ اقتسام المؤمنين الأنوار، على حسب إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وكذلك مشيهم على الصراط في السرعة والبطء... وذلك أن الإيمان والعمل الصالح هو الصراط المستقيم في الدنيا الذي أمر الله العباد بسلوكه والاستقامة عليه، وأمرهم بسؤال الهداية إليه، فمن استقام سيره على هذا المسقيم في الدنيا ظاهراً وباطناً، استقام مشيه على ذلك الصراط المنصوب على متن جهنم، ومن لم يستقم سيره على هذا الصراط المستقيم في الدنيا بل انحرف عنه إما إلى فتنة الشبهات أو إلى فتنة الشهوات، كان اختطاف الكلايب له على صراط جهنم بحسب اختطاف الشبهات والشهوات له عن هذا الصراط المستقيم"^(٤).

ملامح الترغيب في الانصراف وجواز الصراط

واعلم أن انصراف الناس عن موقف الحساب، وما يكون بعده من الأحداث الجسام والنوازل العظام هو أمر عجيب وخطب جليل، يستوقف المؤمن، ويحمّله على التفكّر والتأمل، ويورثه خوفاً ووجلاً، وذلك لمن آمن بنصوص الكتاب والسنة الواردة في هذا الأمر، وتدبّر معانيها، وجعلها نصب عينيه في كل أمر ونهي، ومعاملة بينه وبين الخالق البارئ أو بينه وبين المخلوقات في هذه الدنيا.

^١ سورة الحديد: ١٢ - ١٥

^٢ سورة التحريم: ٨

^٣ تفسير ابن كثير: ١٥/٨

^٤ التحويل من النار لاس رحب، ص: ٢٤٠

إنَّ تصوّر الورود على النار أقصّ مضاجع العابدين وحرمتهم النوم والراحة، وجعلهم يخافون من هذا الأمر، مع عدم وثوقهم بالصدور عنها. إته لأمر فظيع، طالما أذهب نوم كثيرين من سلف هذه الأمة وعابديها. كان عبد الله بن رواحة يوما واضعا رأسه في حجر امرأته، فبكى، فبكت امرأته فقال: ما يبكيك، فقالت: رأيتك تبكي فبكيت. قال: إني ذكرت قول الله عز وجل: وإن منكم إلا واردها، فلا أدري أنجو منها أم لا. وكان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أُمي لم تلدني ثم يبكي، فقيل: ما يبكيك يا أبا ميسرة، فقال: أخبرنا أنا واردها، ولم نُخبر أنا صادرون عنها. عن الحسن البصري قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار، قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا. قال: فقيم الضحك، قال فما رئي ضاحكا حتى لحق بالله^(١). وقال تعالى في شأن الورود: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا. ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا)^(٢). قال السعدي رحمه الله: "واختلف في معنى الورود، فقيل: ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعد، ينجي الله المتقين. وقيل: ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما. وقيل: (٣) الورود، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم"^(٤).

وتقسيم الأنوار في الظلمة التي بين الموقف والصراط، والحصول على قدر كاف من تلك الأنوار، والاستمرارية في الإضاءة أو انطفائها فجأة هي منشأ المخاوف للموقن بها، ومصدر المحاذير للمعترف بها، فيمتلئ قلبه حشية ووجلا. فلا يدري هل صحَّ إيمانه في الدنيا، وهل يختم له بالحسن، إذ التغير في آخر العمر وارد على كل أحد، فلا ينبغي أن يتكل المرء على الحال الذي هو فيه الآن. ونسأل الله حسن الختام، والتوفيق إلى التمام.

وإذا تجلّت رحمة الله على المؤمنين، فأعطاهم النور في ظلمة قائمة لا يرى أحد شيئا إلا بنوره، طلب المنافقون منهم الانتظار ليستضيئوا بنورهم، فيجيبهم المؤمنون متهمين بهم: ارجعوا

^١ انظر: تفسير ابن كثير: ٢٥٢/٥

^٢ سورة مريم: ٦٨-٧٢

^٣ ورحح الطبري هذا القول فقال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: يردها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون، فيحييهم الله، ويهوي فيها الكفار وورودهموها هو ما تظاهرت به الأحبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مرورهم على الصراط المصوب على متن جهنم، فراح

مسلم ومكس فيها". تفسير الطبري: ٢٣٤/١٨

^٤ تفسير السعدي، ص ٤٩٨، ٤٩٩

إلى الورى، فالتمسوا هنالك نورا، وهيهات ما يأملون. وقد سجلّ الله تعالى هذا الحوار بين الفريقين في هذا الموقف الحرج؛ ليتقي الإنسان ربّه، ويخاف من هذه المهلكة قبل فوات الأوان، فيستزید من الإيمان والعمل الصالح، ويحتسب النواهي والمنكرات، فقال عزّ من قائل: (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)^(١). وعندما تنظفئ أنوار المنافقين الزائفة يعترى الخوف للمؤمنون أن يصيبهم مثل ما أصابهم، فيلهجون بالنداء لربهم كما حكى عنهم القرآن الكريم: (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٢).

وإلى هنا انتهى المبحث الثاني، والذي تحدثت فيه عن الترهيب بأحوال الحشر والقيامة الكبرى، وتعرضت فيه لمفهوم البعث والحشر، مبينا أوجه حصول الترهيب بهما، كما تناولت بالشرح لمقدمات القيامة كما يصورها القرآن الكريم، إلى جانب بيان الحشر إلى عرصات القيامة وأحواله. وقد أوضحت فيه أهوال يوم القيامة، متعرضا فيه لعملية المحاسبة لأعمال العباد في هذا اليوم العظيم. وتناولت أيضا الانصراف عن موقف الحساب، وانقسام الناس إلى مجموعات بعد ذلك، واقتسام المؤمنين الأنوار وحرمان المنافقين منه، إلى أن يتم جواز الناس الصراط على قدر أعمالهم، مع بيان ملامح الترهيب في كل ذلك. والله أعلم، وهو المأمول أن يقينا الخزي في الدنيا والآخرة، وأن يختم بالصالحات أعمالنا، ويزقنا بالإخلاص في القول والعمل والنية، ويجعل مصيرنا إلى الجنة بفضلله ورحمته إنّه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين. آمين، آمين، آمين.

^١ سورة الحديد: ١٣

^٢ سورة التحريم: ٨

المبحث الثالث: الترهيب من النار وأهوالها

ويتضمن المطالب الآتية :

١ - (التعريف بالنار ووصفها في القرآن الكريم

٢ - (أوصاف أهل النار وأحوالهم فيها

٣ - (الأسباب والأعمال الموصلة إلى النار

٤ - (الترهيب من النار والإنذار منها

المطلب الأول: التعريف بالنار ووصفها في القرآن الكريم

النار لغة وشرعاً:

النون والواو والراء أصل صحيح يدل على إضاءة واضطراب وقلة ثبات. والنار: عنصر طبيعي فعّال يمثل النار والحرارة المحرقة. وتطلق على اللهب الذي يبدو للحاسة، كما تطلق على الحرارة المحرقة، وعلى نار جهنّم^(١). والنار في الشرع: هي العقوبة القاسية التي أعدّها الله في الآخرة للكافرين والعصاة جزاء وفاقاً على ما قاموا به في الدنيا من الكفر والإجرام. كما قال تعالى: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)^(٢). وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا)^(٣). وقال تعالى: (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابًا)^(٤). وقال الدكتور سليمان الأشقر^(٥): "هي الدار التي أعدّها الله للكافرين به، المتمردين على شرعه، المكذبين لرسله، وهي عذابه الذي يعذب فيه أعداءه، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين. وهي الخزي الأكبر، والخسران العظيم، الذي لا خزي فوقه، ولا خسران أعظم منه"^(٦). والنار غنيّة عن التعريف لاشتهارها بين جميع الأمم، وخاصة عند أصحاب الأديان السماوية، فهي عقوبة الله التي أعدّها في الآخرة لمن خالف أمره وتجاوز حدّه.

صفة النار في القرآن الكريم:

لقد فصلّ الله تعالى في القرآن المجيد ذكر النار وتوصيفها بما يكفي للتعريف بها والتحذير منها؛ حتى يخافها العبد، فيستقبح ورودها، ويحرص على الفرار منها، ويتجنّب الأعمال الموصلة

^١ انظر: معجم مقاييس اللغة لاس فارس ٣٦٨/٥، والمفردات للراغب الأصمهاقي، ص: ٨٢٨، والمعجم الوسيط: ٩٦٢/٢

^٢ سورة البقرة: ٢٤

^٣ سورة الأحراب: ٦٤

^٤ سورة السأ: ٢١، ٢٢

^٥ الدكتور عمر بن سليمان الأشقر. حصل على الدكتوراه من جامعة الإمام في الرياض، ثم عمل أمين مكتبة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ثم استكمل الماجستير، والدكتوراه بجامعة الأزهر، ثم عمل مدرساً في كلية الشريعة بجامعة الكويت، ثم حرج منها إلى المملكة الأردنية معيناً أستاذاً في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية وبعدها عميد كلية الشريعة بجامعة الرقاء، ثم تفرع للبحث والكتابة، وأصدر عدداً جيداً من الكتب والأبحاث. منها: مقاصد المكلفين فيما يتعد به رب العالمين. أصل الاعتقاد. أسماء الله وصفاته في ضوء اعتقاد أهل السنة والجماعة. القياس بين مؤيديه ومعارضيه. الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية. الصيام في ضوء الكتاب والسنة. سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة. توفي رحمه الله في عمان سنة: ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م. انظر الموسوعة الحرة: <http://ar.wikipedia.org/wiki>

^٦ الحجة والنار، ص: ١١، لعمر بن سليمان الأشقر، ط: الساعة، دار العائش للشر والتوزيع، الأردن، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

إليها. وفي ذلك يقول الإمام ابن رجب: "فإن الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه ويخشوه ويخافوه، ونصب لهم الأدلة الدالة على عظمته وكبريائه؛ ليهابوه ويخافوه خوف الإجلال، ووصف لهم شدة عذابه ودار عقابه التي أعدّها لمن عصاه ليتقوه بصالح الأعمال. ولهذا كرّر الله سبحانه وتعالى في كتابه ذكر النار وما أعدّه فيها لأعدائه من العذاب والنكال، وما احتوت عليه من الزقوم والضرير والحميم والسلاسل والأغلال"^(١). وفيما يلي أسرد بعض العناوين البارزة في وصف النار، من سعتها وبعد قعرها، ودر كاتها، وأبوابها، وغير ذلك من أوصافها:

١ - سعة النار وبعد قعرها:

النار واسعة الحجم، كبيرة القدر، بعيدة القعر، مترامية الأطراف. ومن أوضح ما يدل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى حين يفرغ من إدخال كل من استحق النار فيها لا تزال تطلب المزيد، فيبقى فيها فراغ ومتسع لمن يسكنها من المخلوقات، كما قال تعالى: (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)^(٢). ومن الأحاديث التي فسّرت الآية قوله صلى الله عليه وسلم: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَأَنْتِ أَعَذْبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ: فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلُهُ^(٣) فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، فَهَذَا لَكَ تَمْتَلِئُ وَيُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ: فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا»^(٤). ويدلّ على بعد قعرها وطول عمقها أيضا حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ سمع وجبة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «تَذَرُونَ مَا هَذَا؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»^(٥).

^١ التحويف من النار لاس رحب، ص، ٧، ٨

^٢ سورة ق: ٣٠

^٣ وفي رواية: "قدمه" قال ابن حجر: "واختلف في المراد بالقدم فطريق السلف في هذا وغيره مشهورة، وهو أن تمر كما جاءت ولا تعرض لتأويله بل نعتقد استحالة ما يوهم البص على الله، وحاض كثير من أهل العلم في تأويل ذلك". فتح الباري لاس حجر: ٥٩٦/٨

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٨/٦)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: وتقول هل من مزيد عن أبي هريرة بلفظه.

^٥ أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٨٤/٤)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعدنين.

٢- شدة حرّها وعظيم لعبها ودخانها وسمومها:

النار - أعادنا الله منها - حرّها شديد، ولهبها عظيم، وشررها كبير، ودخانها كثير، كما تدلّ عليه الآيات التالية: (وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ. لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٌ)^(١). وقال الإمام ابن رجب: "وهذه الآية، تضمنت ذكر ما يتبرّد به في الدنيا من الكرب والحرّ، وهو ثلاثة: الماء، والهواء، والظلّ، فهواء جهنم: السموم، وهو الريح الحارّة الشديدة الحرّ، وماؤها: الحميم الذي قد اشتدّ حرّه، وظلّها: اليعقوم، وهو قطع دخانها، أجارنا الله من ذلك كلّه بكرمه ومنّه"^(٢). وقد حدّث القرآن عن هذا الظلّ الذي هو دخان جهنم في آية أخرى، فقال تعالى: (انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ. لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ. إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ)^(٣). قرّرت هذه الآية أن الدخان الذي يتصاعد من هذه النار يلقي ظلالاً ولكنها غير ظليلة، ولا تقي من اللهب المشتعل، وشرارها المتطاير يشبه الحصون الضخمة، والإبل السود^(٤). ووصف الباري جل وعلا قوّة حرّ جهنم، وتدميرها لكل ما يلقي فيها من الجنّ والبشر والحجارة بقوله: (سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ. وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرٌ. لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ. لَوَاحٍةٌ لِلْبَشَرِ)^(٥). وسقر من أسماء النار، لا تبقي من الدم واللحم والعظم شيئا، فإذا أعيد أهلها خلقا جديدا، فلا تتركهم، بل تعاود إحراقهم بأشدّ مما كانت، وهكذا أبدا. وهي تلوح للناس حتى يرونها عيانا^(٦). وقال أيضا في وصف حرّها الشديد: (وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)^(٧). وحدثنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن مدى حرارة جهنم، مقارنا بينها وبين نار الدنيا، وأنها أكثر حرارة وأشدّ حرّا، فقال: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ

^١ سورة الواقعة: ٤١-٤٤

^٢ التحويل من النار لاس رجب، ص: ١١٠

^٣ سورة المرسلات: ٣٠-٣٣

^٤ انظر: الجنة والنار لعمر سليمان الأشقر، ص: ٣٣

^٥ المدثر: ٢٦-٢٩

^٦ انظر: التفسير الوسيط للرحيلي ٢٧٧٣/٣

^٧ سورة النوبة: ٨١

آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ». قالوا: والله إن كانت لكافية، يا رسول الله قال: «فإنَّهَا فَضَّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسْتِينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»^(١).

٣- وقودها الحجارة والناس وما يعبد من دون الله:

ليس وقود النار في الآخرة مما يتعارفه الناس في الدنيا من الحطب والحشيش والفحم وغير ذلك، إنما يكون ذلك بالحجارة والناس، فتشتعل بوقود من يعذبون بها من الناس، مضافا إليها حجارة الكبريت، المعروفة بشدة اشتعالها وقوة حرّها وتنن رائحتها، كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)^(٢). يقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى: "وأكثر المفسرين، على أن المراد بالحجارة، حجارة الكبريت توقد بها النار، ويقال: إن فيها خمسة أنواع من العذاب، ليس في غيرها من الحجارة: سرعة الإيقاد، وتنن الرائحة، وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرّها إذا أحميت"^(٣). وذكر الله تعالى وقود النار أنّه من الحجارة والناس في آية أخرى: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)^(٤). ومما يوقد بها أيضا كل ما يعبد من دون الله من الأصنام والأوثان، كما في قوله: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)^(٥).

٤- سلاسلهم وأغلالهم وأنكالهم

قد ضاعف الله لأهل النار العذاب بأن أوثقهم بالسلاسل، تسحبهم الزبانية بها في الحميم، وتشدّ أيدهم إلى أعناقهم بالأغلال، إيغالا في تعذيبهم وتضييقا عليهم. ومن ثمّ يتّقون العذاب بوجوههم؛ لأنّ الأيدي مغلولة مشدودة. وذلك في قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ)^(٦). وقال تعالى: (إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٨٤/٤)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعدنين عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه. والبخاري في صحيحه (١٢١/٤)، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأهلها مخلوقة عن أبي هريرة نحوه.

^٢ سورة التحريم: ٦

^٣ التحويل من البارئ رحب، ص: ١٣٦

^٤ سورة البقرة: ٢٤

^٥ سورة الأنبياء: ٩٨

^٦ سورة الرعد: ٢٤

وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ^(١). فَالْغُلُّ كَمَا يَقُولُهُ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِي: "مُخْتَصَرٌ بِمَا يَقِيدُ بِهِ، فَيَجْعَلُ الْأَعْضَاءَ وَسْطَهُ، وَجَمْعُهُ أَغْلَالٌ، وَغُلٌّ فَلَانٌ: قَيْدٌ بِهِ"^(٢). وَقَالَ تَعَالَى: (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا)^(٣). وَقَالَ تَعَالَى: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)^(٤). أَيْ: "انْظُمُوهُ فِيهَا بِأَنْ تَدْخُلَ فِي دَبْرِهِ وَتَخْرُجَ مِنْ فَمِهِ، وَيَعْلَقُ فِيهَا، فَلَا يَزَالُ يَعَذِّبُ هَذَا الْعَذَابَ الْفُظِيحَ"^(٥). وَقَالَ تَعَالَى: (إِن لَّدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا. وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا)^(٦). أَيْ: "إِنَّ لَهُمْ عِنْدَنَا فِي الْآخِرَةِ قِيودًا عَظِيمَةً ثَقِيلَةً يَقِيدُونَ بِهَا، وَنَارًا مُسْتَعْرَةً هِيَ نَارُ الْجَحِيمِ يَحْرِقُونَ بِهَا"^(٧).

٥ - دركات النار وأبوابها:

للنار دركات سبعة أي طبقات ومنازل، لأن العرب تقول لكل ما تسافل: دَرَكَ، ولما تَعَالَى: دَرَج، فنقول للجنة درج وللنار درك، فالمنافقون في الدرك الأسفل من النار، وهي الهاوية لغلظ كفرهم وكثرة غوائلهم وتمكنهم من أذى المؤمنين^(٨). قَالَ تَعَالَى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)^(٩). أَيْ: "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الطَّبَقِ الْأَسْفَلِ مِنْ أَطْبَاقِ جَهَنَّمَ. وَكُلُّ طَبَقٍ مِنْ أَطْبَاقِ جَهَنَّمَ: دَرَكٌ"^(١٠). وللنار أبواب سبعة فوق بعضها، كما في قوله تعالى: (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ)^(١١). وعندما يرد الكفار تفتح لهم أبوابها، فيدخل كل صنف منهم ما خصص له من الأبواب، كما قال تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ

^١ سورة عاfer: ٧١، ٧٢

^٢ المفردات للراغب الأصمهاui، ص: ٦١٠

^٣ سورة الإسسا: ٤

^٤ سورة الحااق: ٣٠-٣٢

^٥ تفسير السعدي، ص: ٨٨٤

^٦ سورة مرم: ١٢، ١٣

^٧ صغوة التماسير للمصاوي: ٤٤٣/٣

^٨ انظر: التذكرة للقرطبي، ص: ٨٣٨

^٩ سورة الساء: ١٤٥

^{١٠} تفسير الطبري: ٣٣٧/٩-٣٣٨

^{١١} سورة الحجر: ٤٤

الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ^(١). وهذه الأبواب تغلق على الكفار والمجرمين بعد أن يدخلوها، فلا مطمع لهم في الهروب والتفلّت، فهي أبواب موصدة في عمد ممدّة. كما في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ)^(٢).

٦- تغيظ النار وزفيرها وفورانها

تغيظ النار على مستحقّيها قبل أن يدخلوها فيسمعون حسيستها وغيظها وزفيرها من مكان بعيد، وتنتظرهم بفارغ الصبر تنفيذا لغضب الله على المجرمين والكفار. قال الله تعالى: (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا. إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا)^(٣). أي: إذا رأت هذه النار التي اعتدناها لهؤلاء المكذّبين أشخاصهم من مكان بعيد، تغيّظت عليهم، وذلك بأن تغلي وتثور^(٤). وقال تعالى في موضع آخر: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ. تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)^(٥). والتميز: "التفرق من شدة الغيظ على أهل معاصي الله عز وجل، غضباً له عز وجل، وانتقاماً له"^(٦).

٧- خزنة النار وزبانيبتها

أخبر الله تعالى في كتابه المجيد أنه وكّل بالنار ملائكة غلاظا شدادا، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فلا يرحمون أحدا من أهل النار بسبب أو نسب، فإنّ الله تعالى لما خلقهم وأعدّهم لغرض التعذيب نزع من قلوبهم الرحمة والشفقة. وتصور هذه الآية شدّتهم وغلظهم واستخلاصهم لطاعة ما أمروا وتنفيذ ما وُكِّلوا، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)^(٧). فهم غلاظ الأقوال شداد الأفعال، لا يمتنعون من قبول الأمر

^١ سورة الرمر: ٧١

^٢ سورة البلد: ١٩، ٢٠

^٣ سورة المرقان: ١١-١٢

^٤ انظر: تفسير الطبري ١٩/٢٤٣-٢٤٤

^٥ سورة الملك: ٦-٨

^٦ التحويل من البارلاس رحب، ص: ١٠٦

^٧ سورة التحريم: ٦

ويلتزمون، ويؤدّون ما يؤمرون به من غير تثاقل ولا توان^(١). وعددهم تسعة عشر، كما في قوله تعالى: (وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرُ. لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ. لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ. عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)^(٢). وقد فتن الكفار بهذا العدد، فظنّوا أنه قليل، يمكن التغلب عليه بسهولة، وغاب عنهم أن الواحد من هؤلاء يملك من القوة ما يواجه به البشر جميعاً، ولذلك عقّب الحق على ما سبق^(٣) بقوله: (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)^(٤).

وقد يستغيث أهل النار بخزنة جهنم رجاء أن يشفعوا لهم عند ربّ العالمين، بأن يخفف عنهم العذاب يوماً، في محاولة يائسة لا تجدي عنهم شيئاً، ولا تزيدهم إلا سوءاً، فيأتي الجواب من قبل الزبانية يردّون عليهم بشدّة النكير عليهم، ويوجهون إليهم اللوم والعتاب القطيع، والذي يشتمل على تذكيرهم بأعمالهم السيئة في الدنيا، وعدم انتفاعهم بدعوة الرسل، ويخبرونهم بأن استغاثة الكفار في هذا الوقت ما هي إلا صيحة في واد ونفخة في رماد. وفي ذلك يقول المولى جلّ في علاه: (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ. قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)^(٥). وفي آية أخرى يسجّل الله تعالى حواراً هاماً، يدور بين أصحاب النار وبين كبير خزانة جهنم مالك، في محاولة أخرى يطلبون فيها الإعدام الكلّي، والقضاء عليهم بالموت، فلا يلتفت إليهم، ولا يجيبهم على الفور، ثم بعد مدّة طويلة يقول لهم: إنكم ما كنون في النار، وذلك يعني أنهم لا يتحوّلون منها، ولا يصيبهم فيها موت فيستريحوا. وفي ذلك يقول المولى جلّ في علاه: (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كنون)^(٦).

وهذه بعض من أوصاف النار، الواردة في الكتاب والسنة ذكرتها للتعريف بها، وأنّه لا يتصوّر لأحد أن يطبق البقاء فيها، مما يبعث على الخوف الدائم منها، والفرار من دخولها، والمصارعة إلى ما ينجيها من الأعمال والأقوال والنيات، والله الموفق للصواب.

^١ انظر: تفسير أبي السعود ٢٦٨/٨

^٢ سورة المدثر: ٢٧-٣٠

^٣ انظر: الحجة والنار لعمر الأشقر، ص: ١٩

^٤ سورة المدثر: ٣١

^٥ سورة عاف: ٤٩، ٥٠

^٦ سورة الرحرف: ٧٧

المطلب الثاني: أوصاف أهل النار وأحوالهم فيها

لأصحاب النار أحوال عجيبة وأوصاف شنيعة، عذابهم شديد، وطعامهم ضريع، وشراهم حميم، والنار تحيط بهم من جميع الجهات، ولا يخفف عنهم العذاب في لحظة أودقيقة. وما ذكره الله تعالى في كتابه من أوصافهم وأحوالهم وتنوع عذابهم يكفي ويغني للاتعاظ به والاعتبار، والانزجار عن المعاصي والشهوات، والاستقامة على الطريق السوي إلى يوم الممات. وفيما يلي إشارة إلى بعض أوصافهم مما ورد في القرآن الكريم:

١ - استمرارية العذاب وعدم التخفيف عنهم

يتنوع عذاب أهل النار، ويتخذ صوراً وأشكالاً متعددة، للتكثير بهم والتشديد عليهم، فليس يخفف عنهم العذاب، ولا يتاح لهم فرصة يلتقطون فيها أنفاسهم، بل عذابهم مستمر ومقاساتهم دائمة، كما قال تعالى: (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)^(١). ويقترن بشدة العذاب استمراره، فلا يرجون تخفيفاً فيستريحوا، ولا موتاً فيذهب ألم العذاب، كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ)^(٢). ولا يوجد هناك ساعات للاستراحة، والاستحمام، فالاستمرار دأب عذاب الآخرة، وإنما يتنوع العذاب، من شديد إلى أشد منه. كما قال تعالى: (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)^(٣).

٢ - إبدال الجلود بعد نضجها

إن نار الآخرة تحرق جلد الإنسان، وهو موضع الإحساس بالألم، وذلك أن الله يُعْظِمُ جسم الإنسان حتى يصل سمك جلده مسيرة ثلاثة أيام، كما في الحديث: «ضِرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ، مِثْلُ أَحَدٍ، وَغِلْظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ»^(٤). وإذا نضجت جلود أهل النار بسبب الإحراق المتواصل، وصارت عديمة التأثير بالنار أبدلها الله بجلود طرية تستقبل تأثير النار عليها

^١ سورة الرحرف: ٧٤، ٧٥

^٢ سورة فاطر: ٣٦

^٣ سورة النحل: ٨٥

^٤ أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٨٩/٤)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الصغءاء عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه.

بحساسية شديدة. وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا)^(١). أي: "أعطيناهم مكان كل جلد محترق عند احتراقه جلدا جديدا مغايرا للمحترق صورة، وإن كان عينه مادة، بأن يزال عنه الاحتراق ليعود إحساسه للعذاب"^(٢).

٣- انصهار ما في بطونهم بالحميم

حينما يصب على رؤوسهم الحميم، وهو الماء البالغ في درجة الحرارة النهاية تذوب الأمعاء وما حوته بطونهم وتنصهر، كما في قوله تعالى: (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ)^(٣). أي: "الماء الحار جدًا، يصهر ما في بطونهم من اللحم والشحم والأمعاء، من شدة حره، وعظيم أمره"^(٤). وورد مثل ذلك في الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْحَمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَيَنْفُذُ الْحَمِيمُ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ فَيَسْلِتُ^(٥) مَا فِي جَوْفِهِ، حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ وَهُوَ الصَّهْرُ ثُمَّ يَعَادُ كَمَا كَانَ»^(٦). وهذه غاية ما يصيب الإنسان من الآلام عندما تخرج أمعاؤه، وما في جوفه من الأجهزة الحساسة، كالقلب، والرئة، والمعدة، والكبد، وغير ذلك مما يكون موت الإنسان محتوما عندما يصاب بتلف واحد منها، ولكنه في الآخرة لا موت ولا فناء والعياذ بالله.

٤- لغم النار وجوهم وسحبهم عليها

أكرم ما في جسم الإنسان الوجه، وهو حساس جدا يتأثر بالضرب والعقاب أكثر من غيره، وهو مشتمل على الحواس الرقيقة، كالأذن والفم والأنف والعين. لذا أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم باتقاء الوجه عند معاقبة الإنسان. أما في الآخرة فتصيب النار أول ما تصيب وجوه أهلها، وذلك حين يلقون فيها على وجوهمهم، ويسحبون عليها. وفي ذلك وردت آيات عديدة: منها قوله تعالى: (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ

^١ سورة النساء: ٥٦

^٢ تفسير أبي السعود: ١٩١/٢

^٣ سورة الحج: ١٩-٢٠

^٤ تفسير السعدي، ص: ٥٣٦

^٥ "نضم اللام، من سلت القصة إذا مسحها من الطعام فذهب، وأصل السلت القطع، فالملعى فيمسح ويقطع الحميم ما في جوفه أي من الأمعاء"

مرقاة المفاتيح لملا علي القاري: ٣٦١٨/٩

^٦ أخرجه الترمذي في سننه (٧٠٤/٤)، كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه.

تَعْمَلُونَ^(١). قال البقاعي: "والوجه أشرف ما في الإنسان، فإذا هان كان ما سواه أولى بالهوان، والمكبوب عليه منكوس"^(٢). وقوله تعالى: (تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)^(٣). أي: "تتحرقها، واللفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيراً منه"^(٤). وقوله تعالى: (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)^(٥). وقوله تعالى: (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ)^(٦). أي: "التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون"^(٧). وقوله تعالى: (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ)^(٨).

٥ - إحاطة النار بهم من جميع الجهات

ولما أحاطت الذنوب والخطايا بالكفار إحاطة المعصم بالسوار سار جزاؤهم إحاطة النار بهم من جميع الجهات، إذ الجزء من جنس العمل، كما قال تعالى: (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٩). وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ. يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)^(١٠). وقال أيضاً: (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)^(١١). يقول الشيخ ابن عاشور: "شبه ما هو تحتهم من النار بالمهاد، وما هو فوقهم منها بالغواشي، وذلك كناية عن انتفاء الراحة لهم في جهنم"^(١٢).

^١ سورة المل: ٩٠

^٢ نظم الدرر للبقاعي: ٢٢٦/١٤

^٣ سورة المؤمن: ١٠٤

^٤ تفسير أبي السعود: ١٥١/٦

^٥ سورة الأنبياء: ٣٩

^٦ سورة القمر: ٤٨

^٧ تفسير السعدي، ص: ٨٢٨

^٨ سورة الأحراب: ٦٦

^٩ سورة الققرة: ٨١

^{١٠} سورة العنكبوت: ٥٤، ٥٥

^{١١} سورة الأعراف: ٤١

^{١٢} التحرير والتنوير لاس عاشور: ١٢٨/٨-١٢٩

٦- اطلاع النار على أفئدتهم

الأفئدة جمع فؤاد وهو القلب، وبلوغ النار إلى القلوب مؤذن بأن إحراقها قد أحاط بكل عضو من أعضاء الجسد، الظاهرة منها والباطنة؛ إذ القلب منشأ حركات الجسد، ومغذي الأعضاء كلها بالدم والهواء. ومن هنا يعتبر أن الألم الذي يصل إليه يكون أقوى من تلك التي تصيب بقية الأعضاء. يقول الباري جلّ جلاله: (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ. وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ. نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ. الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفئِدَةِ^(١)). والمعروف أن ألم القلب يؤثر على بقية جسم الإنسان، حيث إنه مركز لجميع أعضاء الجسد، وله علاقة مباشرة بسائر الأعضاء، فالألم الذي يصل إليه يصل إلى جميع أعضاء الجسم بطريقة مباشرة، والله أعلم.

٧- اقترانهم بمعبوداتهم وشياطينهم في النار

كان الكفار يعبدون في هذه الدنيا آلهة، يعظمونها، ويقربون لها القرابين، مبالغة في إجلالهم واحترامهم، ويرجون منهم الشفاعة والنفع والضر، فعاقبهم الله تعالى في الآخرة بأن أذلّهم وأهانهم وقرّهم بتلك الآلهة والشياطين التي تجاوزوا الحدّ في عبادتهم وطاعتهم، وأدخلهم جميعاً في نار جهنم، ليستند عليهم العذاب والخزي، وليعلموا أنّهم كانوا في ضلال مبين، لعبادتهم ما لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً. وفي ذلك يقول المولى جلّ في علاه: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ^(٢)). يقول ابن رجب رحمه الله تعالى: "إن المعنى في ذلك أن الكفار لما عبدوا الآلهة من دون الله، واعتقدوا أنها تشفع لهم عند الله وتقرّبهم إليه، عوقبوا بأن جعلت معهم في النار إهانة لها وإذلالاً، ونكاية لهم، وإبلاغاً في حسرتهم وندامتهم، فإن الإنسان إذا قرن في العذاب بمن كان سبب عذابه كان أشدّ في ألمه وحسرتة. ولهذا المعنى يقرن الكفار بشياطينهم التي أضلّتهم^(٣)". وفي هذا من التنكيل والإهانة والإذلال ما لا يخفى، فالكفار عوقبوا بعكس ما كانوا يأملون، فصار الاقتران بمعبوداتهم بمثابة عذاب نفسيّ لهم، حيث يسبّب لهم الحسرة والندامة، والشعور بالأسى والحزن حين لا ينفع الندم، ولا يجدي الحزن.

^١ سورة المعة: ٤، ٧

^٢ سورة الأنبياء: ٩٨

^٣ التحويف من النار لاس رحمة، ص: ١٣٣

٨- طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم

طعام أهل النار الضريع والزقوم، وشرابهم الحميم والصدید والغسلين، ولباسهم القطران. وهذه حاجات المرء الأساسية في هذه الدنيا، لا يستغني عنها بحال من الأحوال، ثم هو في نفس الوقت يتمتع بها، ويلتذ بمذاقها وطعمها، كما أنه يتزين باللباس ويشعر بالراحة النفسية إذا لبس نوعاً جيداً منها. أما هذه الأشياء فتكون لأهل النار مصدر شقاء وعذاب، وزيادة تنكيل بهم وعقاب. فليس الطعام يغني عن الجوع، ولا الشراب يدفع العطش، ولا اللباس يحمي البدن من الحر والقر. وهذا كله مفصل في كتاب الله المجيد، وإليك بيان ذلك كالاتي: قال الله تعالى: (تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ. لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ. لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ)^(١). وقال الطبري: "والضريع عند العرب: نبت يُقال له الشَّبْرُق، وتسميه أهل الحجاز الضَّرِيع إذا يبس، ويسميه غيرهم: الشَّبْرُق، وهو سم"^(٢).

وتذكر عدة آيات أن من طعام أهل النار شجرة الزقوم، ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ)^(٣). وقوله تعالى: (إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ. طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ)^(٤). وقوله تعالى: (لَا كَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ)^(٥). ويؤخذ من هذه الآيات أن هذه الشجرة شجرة خبيثة، جذورها تضرب في قعر النار، وفروعها تمتد في أرجائها، وثمر هذه الشجرة قبيح المنظر، شبيه برؤوس الشياطين، وقد استقر في النفوس قبح رؤوسهم وإن كانوا لا يرون، ومع خبث هذه الشجرة وخبث طلعها، فإن أهل النار يصيبهم الجوع، فلا يجدون مفرّاً من أكلها، فإذا امتلأت بطونهم أخذت تغلي في أجوافهم، كما يغلي دردي الزيت، فيجدون لذلك الآماً مبرحة، فيستنجدون بالحميم، وهو الماء الحار الذي تناهى حرّه، فيشربون منه كشراب الإبل التي تشرب ولا تروى لمرض أصابها. وعند ذلك يقطع الحميم أمعاءهم (وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا

^١ سورة العنكبوت: ٥-٧

^٢ المصدر السابق: ٢٤/٣٨٤

^٣ سورة الصافات: ٦٤-٦٧

^٤ سورة الدخان: ٤٣-٤٦

^٥ سورة الواقعة: ٥٢-٥٥

فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ^(١). هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم، أعادنا الله من حال أهل النار بمنه وكرمه. وإذا أكل أهل النار هذا الطعام الخبيث من الضريع والزقوم غصّوا به لقبحه وخبثه وفساده (إِنَّ لَدَيْنَا أَكْثَالَ وَجَحِيمًا. وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا)^(٢)، والطعام ذو الغصة هو الذي يغصّ به آكله، إذ يقف في حلقة^(٣). وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم خبث هذه الشجرة وإفسادها العظيم لمعيش أهل الدنيا لو قطرت عليهم منها قطرة، فقال: «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزُّقُومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ»^(٤).

ومن طعام أهل النار: الغسلين، وهو ما سال من جلود أهل النار من القيقح والصدديد، وقيل: ما يسيل من فروج النساء الزواني، ومن تن لحوم الكفرة وجلودهم، وقال القرطبي: هو عصارة أهل النار^(٥). ومن الآيات التي أشارت إلى هذا النوع من طعام أهل النار قوله تعالى: (فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ. وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ. لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ)^(٦).

وقد حدّثنا المولى جلّ في علاه عن أربعة أنواع من شراب أهل النار - أعادنا الله منها - وهي الحميم، والغساق، والصدديد، والمهل، والتفصيل كالتالي:

الأول: الحميم: وهو الماء الحارّ الذي تناهي حره، فليس بعده حرّ، كما في قوله تعالى: وقوله تعالى: (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ)^(٧). "قال قتادة^(٨): يطوفون مرة بين الحميم، ومرة بين الجحيم، والجحيم النار، والحميم الشراب الذي انتهى حرّه"^(٩).

^١ سورة محمد: ١٥

^٢ سورة المزل: ١٢، ١٣

^٣ انظر: الحجة والبار لعمر سليمان الأشقر، ص: ٨٨

^٤ أخرجه الترمذي في سننه (٧٠٦/٤)، كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار عن ابن عباس رضي الله عنه بلعظه، وقال: حديث حسن صحيح.

^٥ انظر: بقطة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار، ص: ٨٦، لصديق حان القنوجي، ط: الأولى، مكتبة عاطف - دار الأبنار - القاهرة، ١٣٩٨ - ١٩٨٧، تحقيق: أحمد حجازي السقا. والتحويل من النار لاس رحب، ص: ١٤٧، والحجة والبار لعمر الأشقر، ص: ٨٩

^٦ سورة الحاقة: ٣٥-٣٧

^٧ سورة الرحمن: ٤٤

^٨ قتادة بن دعامة السدوسي، حافظ العصر، قدوة المسيرين والمحدثين. وهو حجة بالإجماع إذا بين السماع. وكان يرى القدر، ومع هذا فما توقف أحد في صدقه، وعدالته، وحفظه، ولعل الله يعدر أمثاله من تلس سدة يريد ما تعظيم الباري وتزيهه، وبذل وسعه، والله حكم عدل لطيف بعباده، ولا يسأل عما يفعل. توفي سنة ثمان مائة عشرة ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٦٩/٥، وما بعدها.

^٩ صفة النفاسير للصاوي: ٢٨٠/٣

وقوله تعالى: (تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً. تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ)^(١). وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)^(٢).

الثاني: الغساق: وهو ما يسيل من بين جلد الكافر ولحمه. وقيل الغساق: الزمهرير البارد، الذي يحرق من برده. وقيل: القيح الغليظ، لو أن قطرة منه تهرق في المغرب، لأنتت أهل المشرق، ولو أهرقت في المشرق، لأنتت أهل المغرب^(٣). وفي هذا يقول المولى جل في علاه: (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ. وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ)^(٤). وقال أيضا: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا. إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا)^(٥). واختلف أهل التأويل في معنى الغَسَّاق، فقال بعضهم: هو ما سال من صديد أهل جهنم. وقال آخرون: الغساق: الزمهرير. وقال آخرون: هو المنتن^(٦). ورجح الطبري، فقال: "والغساق عندي: هو الفعَّال، من قولهم: غَسَقَتْ عَيْنُ فُلَانٍ: إذا سالت دموعها، وغَسَقَ الجرح: إذا سال صديده... فإذا كان الغَسَّاق هو ما وصفت من الشيء السائل، فالواجب أن يقال: الذي وعد الله هؤلاء القوم، وأخير أنهم يذوقونه في الآخرة من الشراب هو السائل من الزمهرير في جهنم، الجامع مع شدة برده التَّنْ"^(٧).

الثالث: الصديد: وهو ما يسيل من لحم الكافر وجلده، كما في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إِنَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ» أَوْ «غُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ»^(٨). وقال تعالى: (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)^(٩). والتجرع: تكلف الجرع،

^١ سورة العاشية: ٤، ٥

^٢ سورة يونس: ٤

^٣ انظر: التحويف من البار لاس رحب، ص: ١٥٠

^٤ سورة ص: ٥٧، ٥٨

^٥ سورة السأ: ٢٤، ٢٥

^٦ انظر: تفسير الطبري: ١٦٤/٢٤، وما بعدها.

^٧ المصدر السابق: ١٦٦/٢٤

^٨ أخرجه مسلم في صحيحه (١٥٨٧/٣)، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر حمر وأن كل حمر حرام عن حابر رضي الله عنه لفظه.

^٩ سورة إبراهيم: ١٦، ١٧

والجرع بلع الماء. والسوغ انحدار الشراب في الحلق بدون غصّة، يقال ساغ الشراب، وشراب سائغ. ومعنى لا يكاد يسيغه لا يقارب أن يسيغه فضلا عن أن يسيغه بالفعل^(١).

الرابع: ماء كالمهل: وهو ماء غليظ كدردي الزيت^(٢). قال تعالى: (وَإِنْ يَسْتَعْثِبُوا يُعْثَبُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)^(٣). أي: إن يطلبوا الشراب، ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد. يغاثوا بماء كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته. يشوي الوجوه فكيف بالأمعاء والبطون. بئس الشراب الذي يراد ليطفئ العطش، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم^(٤).

وأما لباس أهل النار فقد أخبر المولى جل في علاه أنه يُفَصَّلَ لهم ثياب من النار تحرقهم بدل الوقاية من الحرّ والبرد، فقال عزّ من قائل: (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ)^(٥). أي: "يجعل لهم ثياب من قطران، وتشعل فيها النار، ليعمّهم العذاب من جميع جوانبهم"^(٦). وقال تعالى: (سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ)^(٧). والقطران ما يتحلّب من شجر الأهل^(٨)، فيطبخ، ويطلّى به الإبل الجربى، فيحرق الجرب، وهو أسود متّن، يسرع فيه اشتعال النار. وهذا القطران يطلّى به جلود أهل النار، ليجمع عليهم الأنواع الأربعة من العذاب، لذعه وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الموحش، والتّن، على أن التفاوت بينه وبين القطران في الدنيا لا يكاد يتصوّر^(٩).

٩- أعظم عذاب لأهل النار حجابهم عن ربهم

إن أكبر ما يؤلم أهل النار إبعادهم وطردهم عن الله، فلا رؤية ولا لقيا بينهم وبين ربّهم الذي كان آخر ملجئهم ومنتهى أملهم، وذلك أشدّ عليهم من مقاساة حرّ النار وصنوف عذابها،

^١ انظر: التحرير والتنوير لاس عاشور ٢١١/١٣

^٢ انظر: التحويف من النار لاس رحب، ص: ١٥٤

^٣ سورة الكهف: ٢٩

^٤ انظر: تفسير السعدي، ص: ٤٧٦

^٥ سورة الحج: ١٩

^٦ تفسير السعدي، ص: ٥٣٦

^٧ سورة إبراهيم: ٥٠

^٨ الأهل: نوع من الشجر يعصر منه القطران. انظر: تهذيب اللغة للأزهري ٦/٩

^٩ انظر: تفسير أبي السعود ٦١/٥

كما يقول الإمام ابن رجب: "وأعظم عذاب أهل النار حجابهم عن الله عز وجل، وإبعادهم عنه، وإعراضه عنهم، وسخطه عليهم، كما أن رضوان الله على أهل الجنة أفضل من كل نعيم الجنة، وتجلبه لهم ورؤيتهم إياه أعظم من جميع أنواع نعيم الجنة، قال الله تعالى: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ. ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)^(١). فذكر الله تعالى ثلاثة أنواع من العذاب: حجابهم عنه، ثم صليهم الجحيم، ثم توبيخهم بتكذيبهم به في الدنيا، ووصفهم بالران على قلوبهم، وهو صداد الذنوب الذي سود قلوبهم، فلم يصل إليها بعد ذلك في الدنيا شيء من معرفة الله، ولا من إجلاله ومهابته وخشيته ومحبتة، فكما حجب قلوبهم في الدنيا عن الله حجبوا في الآخرة عن رؤيته"^(٢).

١٠ - حسرة أهل النار وندمهم ودعائهم بالويل والثبور^(٣):

عندما يرى الكفار النار يندمون أشد الندم، ولات ساعة مندم، (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)^(٤). وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله، فيرى كفره وشركه الذي يؤهله للخلود في النار، فإنه يدعو بالثبور والهلاك: (وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا. وَيَصْلَى سَعِيرًا)^(٥). وهناك يعلو صراخهم ويشتد عويلهم، ويدعون رهم أملين أن يخرجهم من النار لكي يغيروا عملهم وحياتهم السابقة بأفضل منها، (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذَوْقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)^(٦). وهم يعترفون في ذلك الوقت بضلالهم وكفرهم وقلة عقولهم (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)^(٧). ولكن طلبهم يرفض بشدة، ويجابون بما تستحق أن تجاب به الأنعام (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا

^١ سورة المطففين: ١٥-١٧

^٢ التحويف من النار لاس رحب، ص: ١٩٥-١٩٦

^٣ انظر في ذلك: كتاب الحمة والنار لعمر الأشقر، ص: ١٠٦، وما بعدها

^٤ سورة يونس: ٥٤

^٥ سورة الاستعراق: ١٠-١٢

^٦ سورة فاطر: ٣٧

^٧ سورة الملك: ١٠

فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ. قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ^(١). لقد حق عليهم القول، وصاروا إلى المصير الذي لا ينفع معه دعاء ولا يقبل فيه رجاء (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ. وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^(٢)).

ويتوجه أهل النار بعد ذلك بالنداء إلى خزنة النار، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم كي يخفف الله عنهم شيئاً مما يعانونه (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ. قَالُوا أَوَلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ^(٣)). وعند ذلك يسألون الشفاعة كي يهلكهم رهم (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ^(٤)). إنه الرفض لكل ما يطلبون، لا خروج من النار، ولا تخفيف من عذابها، ولا إهلاك، بل هو العذاب الأبدي السرمدي الدائم. هناك يشتد نحيبهم، وتفيض دموعهم، ويطول بكاءهم (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ^(٥)). إنهم يكون حتى تنقطع الدموع، ثم يكون دماً، وتؤثر دموعهم في وجوههم كما يؤثر السيل في الصخر. لقد خسر هؤلاء الظالمون أنفسهم وأهليهم عندما استحباوا الكفر على الإيمان. واستمع إلى عويلهم وهم يرددون حال العذاب (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا^(٦)). وأعظم حسرة لهم عندما يأسون من الموت، ويتأكدون من بقائهم السرمدي، كما يشير إليه قوله تعالى: (وَأَلْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٧)). ويؤكد على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ

^١ سورة المؤمنون: ١٠٦-١٠٨

^٢ السجدة: ١٢-١٤

^٣ سورة غافر: ٤٩، ٥٠

^٤ سورة الزحرف: ٧٧

^٥ سورة التوبة: ٨٢

^٦ سورة الأحراب: ٦٦-٦٨

^٧ سورة مريم: ٣٩

كَهَيْئَةٍ كَبَشِ أَمْلَحَ، فَيَنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، ثُمَّ يَنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، فَيَذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ، وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(١). أجازنا الله منها برحمته وعفوه وكرمه إنه جواد كريم برّ رؤوف رحيم.

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (٩٣/٦-٩٤)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: وأندبرهم يوم الحسرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظه، ومسلم في صحيحه (٢١٨٨/٤)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الخنازير والجنة يدخلها الصعفاء عن أبي سعيد الخدري أيضا بلفظ مغارب.

المطلب الثالث: الأسباب والأعمال الموصلة إلى النار

الأعمال والأسباب الموصلة إلى النار، كثيرة يجمعها معصية الله تعالى ومعصية رسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)^(١). وذلك أن الله تعالى رتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه، دخل النار وخلد فيها. ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار^(٢). والأعمال والأسباب التي ورد الوعيد عليها بالنار في القرآن كثيرة، منها الأمور التالية:

١ - الكفر والشرك:

لما كان الإيمان السبب الرئيس في دخول الجنة، والنجاة من النار صار ضده من الكفر والشرك السبب الأصلي في استحقاق النار، فمن كفر بالله أو أشرك به استحقّ دخول النار والخلود فيها أبد الأبد. والكفر يشمل الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر أو الكفر بأصل من أصول الدين المعلومة من الدين بالضرورة. والكفر المطلق يستلزم دخول النار، وإن لم يتقيّد في النص أن صاحبه كفر بأصل من أصول الدين، التي يخرج المرء من الإسلام عند الكفر بها، كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)^(٣). وقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)^(٤). وأما الشرك فقد جاءت آيات كثيرة بالتشنيع عليه واستلزامه لدخول النار والخلود فيها، وأن الله عز وجل لا يغفر لصاحبه، بل اللعنة تلازمه إلى ما لا نهاية، كما في قول الله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ

^١ سورة النساء: ١٤

^٢ انظر: تفسير السعدي، ص: ١٧٠

^٣ سورة آل عمران: ٩١

^٤ سورة عاف: ٦

بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا^(١). وقوله تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)^(٢).

٢- النفاق:

النفاق قرين الكفر والشرك في استلزامه لدخول النار والخلود فيها، إلا أنه أشدّ منهما من حيث تمكّن المنافقين بالإيقاع بالمؤمنين وإيصال الأذى بهم من حيث لا يشعرون، فينخدع المؤمنون بإيهامهم أنهم إخوانهم وليسوا كذلك، بل إنّ الحيانة التي يقومون بها في تواصلهم مع الكفار، وإبلاغهم أسرار المؤمنين على وجه الخفية والإسرار مستمرة. وهذا ضرر عظيم وبلية كبيرة على المؤمنين، لغفلتهم عنهم، وتمكّن هؤلاء من المعلومات الحساسة بيسر وسهولة. لذا جعل الله جزاءهم في الآخرة أشدّ من سائر الكفار، فقال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)^(٣). وقال أبو حيان الأندلسي: "وإنما كان المنافق أشدّ عذاباً من غيره من الكفار لأنه مثله في الكفر، وضمّ إلى الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله، والمداجاة"^(٤) وإطلاع الكفار على أسرار المسلمين، فهو أشدّ غوائل من الكفار وأشدّ تمكيناً من أذى المسلمين"^(٥). وقد توعدّ الله المنافقين والمنافقات بنار جهنم مع خلودهم فيها بقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)^(٦).

٣- قتل المسلم متعمداً بغير حق

قتل المسلم عمداً من أعظم الذنوب بعد الكفر والشرك، فقد أوعد الله على ذلك بالقصاص في الدنيا، وبالنار في الآخرة؛ إذ إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب بغير حق، ولكنها كذلك جريمة قتل للشريحة العزيرة، التي أنشأها الله بين المسلمين، بل إنها تنكّر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها^(٧). ولم يأت في الذنوب الكبائر من الوعيد والتهديد أشدّ وأعظم ممّا جاء في جريمة القتل، حيث يقول تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ

^١ سورة النساء: ٤٨

^٢ سورة المائدة: ٧٢

^٣ سورة النساء: ١٤٥

^٤ "المدارجة. يقال: داحيته، إذا داريته، كأنك سائرته العداوة". الصحاح للحوهر: ٢٣٣٤/٦

^٥ البحر المحيط لأبي حيان: ١١٣/٤

^٦ سورة التوبة: ٦٨

^٧ انظر: في طلال القرآن لسيد قطب ٧٣٦/٢

وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا^(١). وهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والحزى المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح^(٢).

٤ - أكل الربا وتعاطيه:

الربا ذنب عظيم وجرم كبير، وتأثيره في الحياة الاقتصادية فظيع، حيث يتجمع المال من خلال الربا على يد حفنة من الناس، يمتصون دماء الأمة وعروقهم، ويبددون جهود العمال وكدهم، لأنها تصب أخيرا في جيوب المرايين، فتكدس الأموال عندهم، ويفسدون بها في الأرض، ويعملون جاهدين في إفساد القيم والأخلاق والعقائد والأديان، كما هو الحال في الزمن الحاضر. والربا يتصادم مع عقيدة المسلم وتصوره لهذا الكون، فلا ينظر المرايبي إلى مرضاة الله في هذا التصرف، ولا يراعي للمبادئ والأخلاق وزنا. وقال تعالى متوعدا المرايين بدخول جهنم: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقِهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٣).

إشكال وجوابه

اختلف العلماء في توجيه الوعيد الشديد الوارد في هذه الآية على الخلود في النار لأصحاب الربا، ولقاتل النفس بغير حق في الآية السابقة، وأحسن ما رأيته في ذلك وفق عقيدة أهل السنة والجماعة ما قاله الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: "اختلف العلماء رحمهم الله في نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله. والأحسن فيها أن يقال: هذه الأمور التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلولا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحا للخلود فيها بقطع النظر عن كفره"^(٤).

^١ سورة النساء: ٩٣

^٢ انظر: تفسير السعدي، ص: ١٩٣

^٣ سورة البقرة: ٢٧٥

^٤ تفسير السعدي، ص: ١١٧

٥ - أكل أموال اليتامى ظلماً

ولما كان اليتيم ضعيفاً في بنيته، صغيراً في عمره، فاقداً لمن كان يدفع عنه الظلم والتعدي عليه من الوالد حرّج الله تعالى أمره، وشدّد النكير على متعاطي ماله بغير حق، وهدّده بأن يحترق بطنه بالنار جزاء لما كان يتعاطاه من أكل أموال الأيتام. وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا)^(١). وقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الذنب وغيره من الكبائر وجعلها من الموبقات، وهي التي توقع صاحبها في الهلاك والعطب، فقال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّخَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُخَصَّنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(٢).

٦ - إمساك المال وعدم صرفه في حقه

المال أمانة في عنق أهل الثروة، امتحنهم الله في كيفية الحصول عليه، وفي طريقة الصرف في مختلف الوجوه. فالمسلم ليس بمخير في التصرف بماله، فالمال نعمة أنعم الله بها عليه، فيجب الشكر عليها بصرفه في مصارفه الواجبة والمستحبة، ليكون له وسيلة نجاة من عذاب الآخرة، ومصدر بركة وخير ونماء في الحياة الدنيا. فمن امتنع من دفع حقوق الله في المال، والتي من أهمها وأولها الزكاة، فقد عرّض نفسه لعقوبة أخروية عظيمة، وأخرى عاجلة بأن يحرم من البركة والنماء في المال. وفي ذلك يقول الله تعالى: (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)^(٣). والكفر في اللغة: جعل المال بعضه على بعض، وحفظه بالدفن وغيره، وادّخاره مع كثرتة^(٤). ولكن المراد به في الآية المال الذي لم تؤدّ زكاته، كما قال ابن عمر رضي الله عنه: "كل مال أدّيت زكاته فليس بكفر وإن كان مدفوناً،

^١ سورة النساء: ١٠.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه (١٠/٤)، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً، عن أبي هريرة رضي الله عنه لفظه. ومسلم في صحيحه (٩٢/١)، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها عن أبي هريرة أيضاً، بلفظ مقارب.

^٣ سورة التوبة: ٣٤، ٣٥.

^٤ انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٧٢٧.

وكل مالٍ لم تؤدَّ زكاته، فهو الكثر الذي ذكره الله في القرآن^(١). وعلى هذا أكد الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا: «مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»^(٢).

٧- الكبر عن الحق وتحقير الناس

إنَّ هناك أمراضا قلبية تصيب الإنسان ما لم يَتَزَكَّ بالإيمان والعمل الصالح. ومن أخطر هذه الأمراض القاتلة: الكبر عن الحق وتحقير الناس وغمطهم. والجبايرة الذين سمعنا أخبارهم في القرآن كفرعون وقارون وهامان وغيرهم ممن أهلكهم الله كان منشأ ضلالتهم وكفرهم التكبر والطغيان، والتعالى على الآخرين، وذلك يعمي الإنسان ويصمُّ، فلا يبصر إلا نفسه، ولا يرى لغيره حقاً ولا احتراماً. ومن هنا جعل الله جزاء المتكبرين النار، ومأواهم جهنم وبئس المصير. قال الله تعالى: (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ)^(٣). قال أبو السعود: "وذكرهم بعنوان التكبر للإشعار بعلته لثوائهم فيها"^(٤). وقال تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)^(٥). وكما أن الكبر يسبب دخول جهنم يمنع أيضا من الظفر بنعمة الله العظيمة في الآخرة وهي دخول الجنان ومجاورة الرحمن. وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ^(٦) وَغَمْطُ^(٧) النَّاسِ»^(٨).

^١ تفسير الطبري: ٢١٧/١٤

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٢/٦٨٠-٦٨١)، كتاب الزكاة، باب إنَّمَا مَاعِ الزَّكَاةُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَفْظُهُ.

^٣ سورة النحل: ٢٩

^٤ تفسير أبي السعود: ١٠٩/٥

^٥ سورة عاف: ٦٠

^٦ البطر في الأصل: الطغيان عند النعمة وطول العي. وأما بَطَرُ الْحَقِّ: هو أن يجعل ما جعله الله حقاً من توحيدهِ وعبادته باطلا. وقيل: هو أن يتحَرَّى عند الحقِّ فلا يراه حقاً. وقيل هو أن يتكَبَّرَ عن الحقِّ فلا يقلِّله. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١٣٥/١

^٧ "الغَمْطُ: الاستهانة والاستخفاف، وهو مثل الغمض". المصدر السابق: ٣٨٧/٣

^٨ أخرجه مسلم في صحيحه (٩٣/١)، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر ونباه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لَفْظُهُ.

٨- ترك الصلاة وإطعام المسكين، والخوض في الباطل، والتكذيب بيوم الدين

جمعت بين هذه الأمور الأربعة، والتي تكون سببا للسلوك في نار سقر، لأنها ذكرت في موضع واحد من كتاب الله عز وجل، وذلك قوله تعالى: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ)^(١). يقول السعدي في تفسير الآية: "فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان ولا نفع للخلق المحتاجين. وكنا نخوض مع الخائضين، أي: نخوض بالباطل، ونجادل به الحق. وكنا نكذب بيوم الدين، هذا آثار الخوض بالباطل، وهو التكذيب بالحق، ومن أحق الحق، يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق"^(٢).

وهذه بعض الأسباب الموصلة إلى النار، ذكرتها لا على وجه الحصر، بل لتكون نموذجا لغيرها من الأسباب الكثيرة المذكورة في القرآن. نسأل الله أن يجيرنا من النار، وأن ينجبنا الأسباب والأعمال الموصلة إليها، إنه خير مأمول وأعظم مسؤول.

^١ سورة المدثر: ٤٢-٤٧

^٢ تفسير السعدي، ص: ٨٩٨

المطلب الرابع: التخويف من النار والترهيب بها

إن أصل الخوف هو الخوف من الله وعقوبته المتمثلة في النار، فأعظم الوسائل التي استخدمها القرآن الكريم في التخويف من الله هي النار، والتي تجسّد فيها عقاب الله الأخروي. ومن هنا ظلّ الخوف من الله وعقابه السوط الذي يساق به العباد إلى سلوك الصراط المستقيم، كما صار مانعا قويّا من الانجرار وراء الشهوات، والانحرط في سلك المجرمين. فالمقصود من الخوف ليس من أجل الخوف، وإنما لتأثيره على سلوك الفرد والمجتمع، ونتيجته الحسنة في الالتزام بالأوامر والاجتناب عن النواهي.

والخوف من عقاب الله وعذابه لم ينج منه أحد، لا نبي مرسل ولا ملك مقرّب ولا وليّ من الأولياء، كما أشار إلى ذلك ابن رجب بقوله: "والخوف من عذاب جهنم لا ينجو منه أحد من الخلق، وقد توعّد الله سبحانه خاصّة خلقه على المعصية"^(١). قال الله متوعدا نبيه صلى الله عليه وسلم: (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْخُورًا)^(٢). وقال في حقّ الملائكة المكرّمين: (وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)^(٣). وقد ورد ذكر النار في القرآن كثيرا، تارة بالتخويف منها، وتارة بذكر أصحابها، والتفصيل في شدّة معاناتهم ومقاساة حرّها وأنواع عذابها. والقصد من ذلك كله أن يكون الخوف من النار دافعا إلى طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن يكون رادعا من معصية الله ومعصية رسوله صلى الله عليه وسلم. وسأعرض طرق استخدام القرآن لذكر النار وأحوالها، في التحذير عن مساخط الرحمن، والحثّ على الطاعة والالتزام:

١- خوّف الله تعالى عباده بالنار ليكون وسيلة وذريعة إلى عبادة الله وحده ونبد الشرك والأنداد، والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله تعالى. وفي ذلك يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ. وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا

^١ التخويف من النار لاس رحب، ص: ٢٣

^٢ سورة الإسراء: ٣٩

^٣ سورة الأنبياء: ٢٩

شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ^(١).

٢- التحذير من الكفر بالله والتكذيب بآياته عن طريق ذكر نتائج ذلك وجزائه في الآخرة، وهو ملازمة النيران والخلود فيها إلى آخر الأبد. قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٢).

٣- التحذير من الإفراط في العمل بالسيئات، حتى تحيط بصاحبها من جميع الجهات، ومن ثم توعد الله تعالى من فعل ذلك بالخلود في النار. قال تعالى: (بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٣).

٤- التخويف من كتمان الدين المنزل من عند الله واستبداله ببعض حطام الدنيا، وذكر سبحانه أن عاقبة ذلك مقاساة العذاب الأليم، والحرمان من كلام الرحمن، كما في قوله: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)^(٤).

٥- التحذير من الارتداد عن دين الله بذكر إحباطه للعمل واستحقاق صاحبه الخلود في النار. وذلك في قوله تعالى: (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قِيمَتُهُ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٥).

٦- التحذير من الربا ببيان مصير صاحبها، وأنه يكون من مصاحبي النار وملازميها، وذلك في قوله تعالى: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَالْتَمَسَهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٦).

^١ سورة النقرة: ٢١ - ٢٤

^٢ السورة السابقة: ٣٩

^٣ السورة السابقة: ٨١

^٤ السورة السابقة: ١٧٤، ١٧٥

^٥ السورة السابقة: ٢١٧

^٦ السورة السابقة: ٢٧٥

٧- الترهيب من الخزي والهوان في الآخرة، والذي يتمثل في مقاساة المرء حرّ النار، والخلود فيها، كما في قوله تعالى: (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)^(١).

٨- التخويف من النار بذكر معاناة أصحابها، وذلك عندما يحاولون الافتداء منها بكلّ ما في الأرض من أموال لو كانوا يملكون، كما يحاولون الخروج منها، والفرار من حرّها. وكلّ هذه محاولات فاشلة، لا تجدي عنهم شيئاً. كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)^(٢).

٩- الترهيب من التكذيب بآيات الله والإعراض عنها بالاستكبار من خلال بيان مصير من يفعل ذلك ومعاناتهم في النار، مع الحكم عليهم بالخلود فيها. قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٣). وقال تعالى في حرمانهم دخول الجنة، واحاطة النار عليهم من جميع الجهات: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ. لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)^(٤).

١٠- التحذير من الاغترار بالدنيا ونسيان الآخرة، والاستهزاء بالدين، والتكذيب بآيات الله، وأن هذه موجبات الخلود في النار، وحرمان الماء والطعام فيها. قال الله تعالى: (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ. الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)^(٥).

١١- الترهيب من التكذيب بلقاء الله، والرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان فيها، والغفلة عن آيات الله بذكر مصير من يتصف بهذه الصفات القبيحة وأن مأوهم الخلود في النار، كما قال تعالى: (إِنَّ

^١ سورة آل عمران: ١٩٢

^٢ سورة المائدة: ٣٦، ٣٧

^٣ سورة الأعراف: ٣٦

^٤ السورة السابقة: ٤٠-٤١

^٥ السورة السابقة: ٥٠، ٥١

الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ^(١).

١٢- التخويف من تمحيض إرادة الدنيا والعمل لها في كل حين، وأن لا يكون عند الإنسان إرادة الآخرة أصلاً، وأن نتيجة ذلك في الآخرة الدخول في النيران وحبوط الأعمال. قال الله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا لُوْفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٢).

١٣- التحذير من الميل إلى الظلمة والانضمام إلى حزبهم والرضا بصنيعهم، وأن عاقبة ذلك مسيس النار ومقاساة آلامها. قال تعالى: (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ)^(٣). قال السعدي رحمه الله تعالى: "ففي هذه الآية: التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون، الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقه على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم. وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة بأنفسهم، نسأل الله العافية من الظلم"^(٤).

١٤- وفي الترهيب من مصير المحرمين ومعاناتهم في النار بتقييدهم في الأغلال وتسربلهم بالقطران يقول الله تعالى: (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ. سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ. لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)^(٥).

١٥- التخويف من خفة ميزان الأعمال الحسنة يوم القيامة، وأن عاقبة ذلك أن يخسر الإنسان نفسه التي تعتبر أغلى ما يملكه، إلى جانب الخلود في جهنم، واحترق الوجوه بالنيران، وقلوص الشفاه عن الأسنان، كما قال تعالى: (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)^(٦).

^١ سورة يونس: ٧، ٨

^٢ سورة هود: ١٥، ١٦

^٣ السورة السابقة: ١١٣

^٤ تفسير السعدي، ص: ٣٩

^٥ سورة إبراهيم: ٤٩-٥١

^٦ سورة المؤمنون: ١٠٣، ١٠٤

١٦- التحذير من التعاون على عبادة غير الله تعالى، وعقد ولاء المحبة في ذلك، وأن عاقبة ذلك التلاعن يوم القيامة، ثم الدخول في النيران، كما قال تعالى: (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)^(١).

١٧- الترهيب من تقليد الكبراء والسادة في معصية الله تعالى، وترك طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن مصير ذلك تقليب الوجوه في النيران، والتلاوم والتلاعن فيما بينهم حين لا ينفع الندم، ولا التلاوم، ولا الاستدراك، كما قال تعالى: (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ). وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا)^(٢).

١٨- التخويف من مصير الطغاة في الدنيا، وأن ذلك صلي النيران وشرب الحميم والغساق، والتلاعن والتلاوم فيما بينهم، كما في قول الباري جلّ في علاه: (هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرًّا مَآبٍ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ. هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ. وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ. هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ. قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَأَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ. قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ)^(٣).

١٩- وقد حذر الله تعالى عباده من النار وشدائدها، ليستقيموا على الصراط ويتعدوا عن الانحراف، فقال عز من قائل: (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)^(٤). يقول السعدي في تفسير الآية: "جعل ما أعدّه لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده إلى التقوى، وزاجرا عما يوجب العذاب، فسبحان من رحم عباده في كلّ شيء، وسهّل لهم الطرق الموصلة إليه، وحثّهم على سلوكها، ورغبهم بكل مرغّب، تشاق له النفوس، وتطمئنّ له القلوب، وحذّروهم من العمل لغيره غاية التحذير"^(٥).

^١ سورة العنكبوت: ٢٥

^٢ سورة الأحزاب: ٦٦-٦٨

^٣ سورة ص: ٥٥-٦١

^٤ سورة الرمر: ١٦

^٥ تفسير السعدي: ص: ٧٢١

٢٠- وفي الترهيب من الاغترار بالدنيا وشهواتها، والاستكبار في الأرض بغير الحق، والخروج عن طاعة الرحمن، والتي كلها موجبات لنار جهنم، ومقاساة لعذاب الدلّ والهوان يقول تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)^(١).

٢١- وفي التخويف من النفاق، واعتباره جريمة كبرى، وأن عاقبة أصحابه الطبقة السفلى من النار يقول تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)^(٢).

٢٢- ومن أعظم ما يخوف الناس من نار جهنم استذكار القسم الذي أقسم الله تعالى بأنه يملأ جهنم من إبليس وأتباعه، فمن اتبع خطوات الشيطان تعرّض لهذا المصير المشؤوم. قال الله تعالى: (قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)^(٣).

وإلى هنا انتهى المبحث الثالث بخصوص الترهيب من النار وأهوالها، وقد تحدّث فيه عن التعريف بالنار لغة وشرعا، ثم ذكرت أوصافها، كما تعرّضت لأوصاف أهل النار وأحوالهم على ما جاء في القرآن الكريم، بالإضافة إلى شرح بعض الأسباب والأعمال الموصلة إلى النار. وفي الأخير أبرزت أوجه الترهيب بالنار، مبينا الأعمال والأوصاف التي اصطحبت هذا التخويف، مما يؤكد على حرمتها، وتحذير الناس من اقترافها. راغبا إلى الله تعالى أن يعتقنا من النار، وأن يختم لنا بالإيمان، إنه جواد كريم.

^١ سورة الأحقاف: ٢٠

^٢ سورة النساء: ١٤٥

^٣ سورة الأعراف: ١٨

المبحث الرابع: الترغيب في الجنة ونعيمها

وفيه المطالب الآتية :

١ - (التعريف بالجنة ووصفها في القرآن

٢ - صفة أهل الجنة ونعيمهم فيها

٣ - الأعمال والأسباب الموجبة لدخول الجنة

٤ - (الترغيب بالجنة ونعيمها

المطلب الأول: التعريف بالجنة ووصفها في القرآن

الجنة اللغة وشرعا

هذه المادة تطلق على ستر الشيء عن الحاسّة، يقال: جَنَّ جَنًّا: استتر، وجَنَّ الليل جَنًّا وجُنُونًا وجَنَانًا: أظلم. وجَنَّ الشيء، وعليه: ستره. وقال تعالى: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا)^(١). وجَنَّ الميت: كفنه وقبره. ثم نقلوه للمكان الذي تكاثرت أشجاره والتفّ بعضها ببعض حتى كثر ظلّها، وذلك من وسائل التّنعّم والتّرفّه عند البشر قاطبة لا سيّما في بلد تغلب عليه الحرارة كبلاد العرب^(٢). يقول الإمام ابن القيم في بيان المعنى الشرعي للجنة: "وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرّة الأعين"^(٣). هذا، فإن الجنة هي الجزء العظيم لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكّر صفوه كدر، وما جاء في الكتاب والسنة في وصفها، وبيان حالها يحير العقول، ويذهل الألباب، لأن تصوّر عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه^(٤).

صفة الجنة في القرآن الكريم

الجنة وصفها عجيب، ونعتها غريب، فالعاقِل إذا سمع ما جاء في النصوص من أوصافها طرب لها وحنّ إليها، راغبا فيما يكون وسيلة للحصول عليها. وفيما يلي أعرّض بعض أوصاف الجنة الواردة في القرآن الكريم:

١ - الجنة لا مثل لها:

نعيم الجنة يفوق ما يتصوره الإنسان، ويقصر دونه الخيال، وليس بينه وبين نعيم الدنيا مشابهة إلا الأسماء. وإذا ذكر في الجنة اسم نعمة في الدنيا، فليس يعني ذلك أنّها النعمة المعروفة هنالك، وإنما المشابهة بالأسماء فقط، والمسمّيات متباينة. كما قال ابن عباس رضي الله عنه: "ليس

^١ سورة الأنعام: ٧٦

^٢ انظر: معجم مقاييس اللغة لاس فارس: ٤٢١/١، والمفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٢٠٣، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي، ص:

١٣١، والتحرير والتنوير لابن عاشور: ٣٥٣/١، والمعجم الوسيط: ١٤٠/١-١٤١

^٣ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ص: ٩٤، لمحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: مطبعة المدني - القاهرة.

^٤ انظر: الحمة والبار لعمر الأشقر، ص: ١١٧

في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء^(١). وما أخفاه الله عنا من نعيم الجنة لا تدركه عقولنا ولا تتصوره أفكارنا، كما قال تعالى: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٢). وقد ورد تفسير هذه الآية في الحديث القدسي، حيث قال عز وجل: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَأَقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ»^(٣). ووصف الله تعالى في كتابه المجيد نعيم الجنة بأنه الملك العظيم والفوز الكبير، الذي لا يفنى ولا يبلى، ولا يشبهه شيء من نعم الدنيا وملكها، كما في قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)^(٤).

٢- أبواب الجنة:

للجنة أبواب ثمانية مفتحة لمن كتب لهم التمتع بها والاستراحة فيها. يقول الله تعالى: (جَنَّاتٍ عَذْنٍ مُفْتَحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ)^(٥). وهذه الأبواب تفتح للمؤمنين فور ما يصلون إليها، فتستقبلهم الملائكة بترحيب وتهنئة وتحيّة وسلام، كما في قوله تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)^(٦). وذكر في الحديث الصحيح أن أبواب الجنة ثمانية، يكون الدخول من أحدها مترتباً على عمل من الأعمال الصالحة، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيَبْلُغُ - أَوْ فَيَسْبِغُ - الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(٧). وجاء في حديث آخر ذكر أبواب الجنة، حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَلْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ فِي الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ

^١ تفسير الطبري: ٣٩٢/١

^٢ سورة السجدة: ١٧

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه (١١٨/٤)، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأما مخلوقة عن أبي هريرة رضي الله عنه لفظه. ومسلم في صحيحه (٢١٧٤/٤)، كتاب الجنة وصفة نعيمها عن أبي هريرة أيضاً لفظ مقارب.

^٤ سورة الإسراء: ٢٠

^٥ سورة ص: ٥٠

^٦ سورة الرمز: ٧٣

^٧ أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٩/١)، كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه لفظه.

الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّيَّامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ». قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»^(١).

٣- درجات الجنة:

للجنة درجات بعضها فوق بعض، وأهلها متفاوتون فيها بين متطاول في العلو والرقى، وبين متقاصر في النزول والهبوط. وذلك بحسب تفاضلهم في الطاعة والتقوى، فمن كان مستكثرًا منها حاز الغرف العلى والدرجات العظمى في الجنة، ومن كان مقللاً من ذلك نزل إلى أدنى الدرجات من غير شعور بالنقص أو حسد للآخرين. قال الله تبارك تعالى: (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى)^(٢). وقال تعالى: (النَّظَرُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)^(٣).

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم كثرة الدرجات، والتفاوت فيما بين الدرجتين من المسافة الشاسعة بقوله: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٤). كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن التفاوت في الدرجات يظهر لأهل الجنة من غير حسد ولا غلّ، فقال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأَفْقِ مِنْ

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٧١١/٢)، كتاب الركاة، باب من جمع الصدقة، وأعمال البر عن أبي هريرة رضي الله عنه لفظه. والبخاري في صحيحه (٢٥/٣)، كتاب الصوم، باب: الرياء للصائمين عن أبي هريرة أيضاً نحوه.

^٢ سورة طه: ٧٥

^٣ سورة الإسراء: ٢١

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه (١٦/٤)، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه لفظه.

الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رَجُلٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»^(١).

٤- أنهار الجنة:

وللجنة أنهار متنوعة، فياضة، تجري تحت قصورها وأشجارها من غير انقطاع ولا جفاف، كما في قوله تعالى: (أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)^(٢). وقد حدث الله عز وجل في الكتاب العزيز عن أربعة من هذه الأنهار في قوله: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ)^(٣). وقال ابن القيم: "ذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا، فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة، وأن يصير قارصا وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي في اللذة وشرها، وآفة العسل عدم تصفيته"^(٤).

٥- قصور الجنة وخيامهم:

يبني الله تعالى لأهل الجنة قصورا شاهقة، وغرفا عالية، ومساكن طيبة، وخيما مزخرفة، كي تكون سكنا للموحدين، ومأوى للمتقين، جزاء لما قاموا به في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح. وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٥). وقد سَمَّى الله تعالى هذه القصور بالغرف كما في قوله تعالى: (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا)^(٦). كما وصف أن بعضها فوق بعض كالطوابق

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧٧)، كتاب الحجة وصعدة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الحجة أهل العرف، كما يرى الكوكب في السماء، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظه، والبخاري في صحيحه (٤/ ١١٩)، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صعدة الحجة وأهلها مخلوقة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضا بلفظ مقارب.

^٢ سورة آل عمران: ١٣٦

^٣ سورة محمد: ١٥

^٤ حادي الأرواح لاس القيم، ص: ١٧٩

^٥ سورة التوبة: ٧٢

^٦ سورة الفرقان: ٧٥

للأبراج الشاهقة. وذلك في قوله تعالى: (لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَغَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ)^(١). وقال الله تبارك تعالى في خيام الجنة: (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)^(٢). وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم إحدى الخيم المعدة للمؤمنين في الجنة، فقال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخِرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَجَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ، آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ كَذَا، آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءُ الْكِبَرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ»^(٣).

٦- أشجار الجنة وثمارها:

أشجار الجنة كثيرة متنوعة، لها ظلال وارفة، وثمار يانعة. وقد ذكر في القرآن الكريم أسماء بعض الأشجار التي كانت معروفة لدى العرب، منها أشجار النخل والعنب والرمان والسدر والطلح، كما في قوله تعالى: (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ)^(٤). وقوله تعالى: (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا. حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا)^(٥). وقوله تعالى: (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ. فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ. وَطَلْحٍ مَنضُودٍ)^(٦). يقول الشيخ عمر سليمان: "والسدر هو شجر النبق الشائك، ولكنه في الجنة مخضود شوكة، أي مزروع. والطلح: شجر من شجر الحجاز من نوع العضاه فيه شوكة، ولكنه في الجنة منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة. وهذا الذي ذكره القرآن من أشجار الجنان شيء قليل مما تحويه تلك الجنان، ولذا قال الحق: (فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ)^(٧). ولكثرهما فإن أهلها يدعون منها بما يريدون، ويتخيرون منها ما يشتهون (مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ

^١ سورة الزمر: ٢٠

^٢ سورة الرحمن: ٧٢

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه (١٤٥/٦)، كتاب تفسير القرآن، باب: حور مقصورات في الخيام، عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه بلفظه. ومسلم في صحيحه (٢١٨٢/٤)، كتاب الجنة وصحة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهليين عن عبد الله بن قيس نحوه مختصراً.

^٤ سورة الرحمن: ٦٨

^٥ سورة السأ: ٣١، ٣٢

^٦ سورة الواقعة: ٢٧-٢٩

^٧ سورة الرحمن: ٥٢

وَشَرَابٍ^(١). (وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ)^(٢). (إِنَّ الْمَتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ. وَفَوَاكِهٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)^(٣)^(٤). وقد استدلل الإمام ابن كثير بذكر السدر والطلح، واستنتج أن الله تعالى بذلك نبه بالقليل على الكثير، وبالهين على العظيم، في إشارة إلى عظم قيمة ثمار الجنة وكثرتها وتنوعها، فقال: "وإذا كان السدر الذي في الدنيا، وهو لا يثمر إلا ثمرة ضعيفة، وهي النبق، وفيه شوك كثير، والطلح الذي لا يراد منه إلا الظل في الدنيا، يكونان في الجنة في غاية كثرة الثمار وحسنها، حتى إن الثمرة الواحدة منها تتفتق عن سبعين نوعاً من الطعوم والألوان، التي لا يشبه بعضها بعضاً، فما الظن بثمار الأشجار التي تكون في الدنيا حسنة الثمار، طيبة الرائحة، سهلة التناول، كالتفاح والمشمش والدراق والنخل والعنب وغير ذلك"^(٥). ولا تنقطع ثمار الجنة أبداً في زمن من الأزمان، بل تكون متوفرة في كل حين وآن، سهلة التناول للمؤمنين، كما قال تعالى: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)^(٦). وفي عظم أشجار الجنة واتساع ظلّها يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا»^(٧). وهذه بعض من أوصافها الكثيرة، ونوعها الجليلة، والله الموفق للصواب.

^١ سورة ص: ٥١

^٢ سورة الواقعة: ٢٠

^٣ سورة المرسلات: ٤١-٤٢

^٤ الجنة والبار لعمر الأشقر، ص: ١٧٦-١٧٧

^٥ البداية والنهاية لاس كثير: ٣١٤/٢٠

^٦ سورة الرعد: ٣٥

^٧ أخرجه البخاري في صحيحه (١١٩/٤)، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأما مخلوقة عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلعظه. ومسلم في صحيحه (٢١٧٦/٤)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها عن سهل بن سعد بقظه.

المطلب الثاني: صفة أهل الجنة ونعيمهم فيها

أهل الجنة فيها منعمون، وفيما رزقهم الله من فضله مشغولون، ولثواب أعمالهم في الدنيا ملاقون. فهم في ترف وراحة وهناء وسرور يتقلبون، وعلى نعمة ربهم وإحسانه عليهم يُسبحون ويحمدون. قد أذهب الله عنهم الحزن وأزاح عنهم المنغصات والهموم، فأجسادهم منعمة بأنواع الأطعمة والأشربة والأنكحة، وأرواحهم مفعمة بالنعم الروحانية من رضوان الله ولقائه والنظر إليه، وتحيّة الرحمن وملائكته الكرام، ولقاء الأحبة والخلائق، فهم في نعمة وسرور دائمين، لا ينقطعان ولا يبيدان. وقد يتساءل سائل: إذا كان أهل الجنة فيها خالدون، لا يصيبهم فيها جوع ولا يعترهم ظمأ، ولا تبلى ثيابهم، ولا تتوسخ أبدانهم وشعورهم، فلماذا يأكلون ويشربون ويتطيّبون ويمتشطون؟ وقد أثار هذا السؤال الوجه الإمام القرطبي ثم أجاب بقوله: "بأن نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن رفع ألم اعتراهم، فليس أكلهم عن جوع، ولا شربهم عن ظمأ، ولا تطيبهم عن نتن، وإنما هي لذات متوالية ونعم متتابعة، ألا ترى قوله تعالى لآدم: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى)".^١ وحكمة ذلك أن الله تعالى نعمهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله عز وجل".^٢ وفيما يلي أتناول بعضاً من أوصافهم المذكورة في القرآن:

١ - خلودهم في الجنة ودوام نعمها

من أعظم ما يزيد أهل الجنة فرحاً وسروراً وهناء شعورهم بأن هذه النعم لا تنقطع ولا تبيد ولا تضمحل، بل وعدهم الله في الجنة بالخلود ولنعمها بالدوام والاستمرار، فلا موت لأهلها ولا انقطاع لنعمها، ولا هواجس الزوال تخطر ببالهم. أما خلودهم فمذكور في أغلب الآيات التي تحدّثت عن الجنة ونعيمها، كما في قوله تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ)^٣. وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم البشائر التي تلقى إلى أهل الجنة فور دخولهم فيها، فقال: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا

^١ سورة طه: ١١٨، ١١٩

^٢ التذكرة بأحوال الموتى للقرطبي، ص: ٩٨٤

^٣ سورة هود: ١٠٨

فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَنَعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»^(١).

وأما نعيمهم فدائم غير منقطع، فلا يوجد في الجنة أزمة انقطاع في شيء من أشتائها؛ لأن الذي ينفد غير دائم ولو بعد آلاف السنين. وفي ذلك يقول المولى جلّ وعلا: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)^(٢). أي: "ما يؤكل فيها من الفواكه والمطاعم والمشارب لا ينقطع، ولا يفنى، وكذلك ظلّها دائم لا ينسخ ولا يزول، فليس فيها شمس ولا حرّ ولا برد"^(٣). وقال تعالى: (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ. لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)^(٤). وقال تعالى: (هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ. إِنْ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ)^(٥). أي لا يفنى ولا ينقطع^(٦). وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)^(٧). والممنون هو المنقطع، فيكون المعنى: غير مقطوع ولا نافذ، بل هو مستمرّ مدى الأوقات، متزايد على الساعات^(٨).

٢ - طعام أهل الجنة وشرابهم:

طعام أهل الجنة شهيّ وكثير ومتنوّع، وشرابهم لذيد وهنيئ ومريئ، يأكلون ويشربون باستمرار وبكميات كثيرة يتلذذون بها؛ لأنّ هذا الطعام لا يتحوّل إلى تخمة وامتلاء، وبول وغائط ورياح، بل يكون طعامهم ذلك رشحا عطرا، يفيض من أجسامهم كرشح المسك، ويتحوّل بعضه الآخر إلى جشاء مصحوب برائحة طيبة عبقّة. ويعرض عليهم الطعام والشراب مع التهنة والتبشير، كما في قوله: (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)^(٩). وقوله: (إِنْ

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٨٢/٤)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما بلغه.

^٢ سورة الرعد: ٣٥

^٣ التفسير المنير للزحيلي: ١٨٢/١٣

^٤ سورة الواقعة: ٣٢، ٣٣

^٥ سورة ص: ٥٣، ٥٤

^٦ انظر: نظم الدرر للقاضي ٤٠٤/١٦

^٧ سورة فصلت: ٨

^٨ انظر: تفسير السعدي، ص: ٧٤٥

^٩ سورة الحاقة: ٢٤

الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ. فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(١). وأنيتهم التي يشربون فيها ويأكلون الذهب والفضة، كما في قوله تعالى: (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٢). وقوله تعالى: (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا. قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا)^(٣). "ومن الآنية التي يشربون بها الأكواب والأباريق والكؤوس (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ مُخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ)^(٤). والكوب: ما لا أذن له ولا عروة ولا خرطوم، والأباريق: ذوات الآذان والعرا، والكأس القدح الذي فيه الشراب"^(٥).

ومن أحسن أطعمتهم لحوم الطير والفواكة الطرية الناضجة، كما في قوله تعالى: (وَفَاكِهَةً مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ)^(٦). ووصف الله فاكهتهم بأنها كثيرة، مما يعني أنها غير محصورة بفاكهة الدنيا، كما في قوله تعالى: (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ)^(٧). كما وصف الفاكهة مرة أخرى بأنها تشمل جميع الأنواع والأصناف، ما عرف الناس في الدنيا وما لم يعرفوها، كما في قوله تعالى: (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ)^(٨). أي: "مما له اسم في الدنيا ومما لا يوجد له اسم ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها أحضر لهم في الحال من غير تعب ولا كلفة، آمين من انقطاع ذلك، وآمين من مضرتّه، وآمين من كلّ مكدر"^(٩).

ومن ألد الأشربة التي يتناولونها الخمر، وهي كانت محرمة عليهم في الدنيا، فأنعم الله بها عليهم في الآخرة في أطيب ما كانت، خالية مما كان فيها من إذهاب العقول، وصدع الرؤوس، ووجع البطون، ومرض الأبدان، بل إنها في صنعها وتكوينها صافية رائقة طيبة زاكية. وفي ذلك يقول المولى جلّ وعلا: (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. يَبِضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا

^١ سورة الطور: ١٧-١٩

^٢ سورة الرحمن: ٧١

^٣ سورة الإنسان: ١٥، ١٦

^٤ سورة الواقعة: ١٧، ١٨

^٥ الحية والمار لعمر الأشقر، ص: ٢٣٥

^٦ سورة الواقعة: ٢١، ٢٢

^٧ سورة الرحمن: ٧٣

^٨ سورة الدخان: ٥٥

^٩ تفسير السعدي: ص: ٧٧٥

هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ^(١). فتره الله خمر الآخرة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن، وهو الغول، وذهابها بالعقل جملة، وهي من معين قياض، لا يخافون انقطاعها. ولونها مشرق حسن بهي لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم^(٢). وتوجد في الجنة أشربة أخرى غير الخمر كما مرّ في صفة الجنة من مشروبات الأنهار، والتي منها الماء الرائق، واللبن الطازج، والعسل الصافي، كما أنّه يوجد مشروبات خاصّة من عيون مختلفة، كما في قوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)^(٣). وقوله تعالى: (وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. ذَوَاتَا أَفْنَانٍ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)^(٤). وفي الجنة عينان يشرب المقرّبون ماءهما صرفاً غير مخلوط، ويشرب منهما الأبرار شرباً مخلوطاً ممزوجاً بغيره. الأولى: عين الكافور، قال تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا)^(٥). فقد أخبر أن الأبرار يشربون شراهم ممزوجاً من عين الكافور، بينما عباد الله المقرّبون يشربونها خالصاً. الثانية: عين التسنيم، قال تعالى: (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ. خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ. وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ)^(٦). ومن عيون الجنة عين تسمى السلسيل، قال تعالى: (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا. عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا)^(٧). ولعل هذه هي العين الأولى نفسها^(٨).

٣- لباس أهل الجنة وحليهم وفرشهم ووسائدهم:

يلبس أهل الجنة أفخر الثياب وأجملها وألينها، ويتحلّون بأعلى أنواع الحلي وأنفسها وأجودها، فلباسهم الحرير من السندس والاستبرق، وحليهم أساور من الذهب والفضة واللؤلؤ وغيرها من أجود أنواع الزينة واللباس. قال الله تعالى: (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ

^١ سورة الصافات: ٤٥-٤٧

^٢ انظر: تفسير ابن كثير ١٣/٧

^٣ سورة الحجر: ٤٥

^٤ سورة الرحمن: ٤٦ - ٥٠

^٥ سورة الإنسان: ٥، ٦

^٦ سورة المطففين: ٢٥-٢٨

^٧ سورة الإنسان: ١٧، ١٨

^٨ انظر: الحجة والبرهان لعمر سليمان الأشقر، ص. ١٦٩-١٧٠

أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ^(١). والأساور هو الحلّي الذي يجعل في اليدين. والرجال والنساء في حلية الجنة سواء. ويحلّون فيها أيضا لؤلؤا ينظّم في ثيابهم وأجسادهم. ولباسهم فيها حرير من سندس، ومن إستبرق أخضر^(٢). وقال الله عزّ وجلّ: (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا)^(٣). واللون الأخضر أحسن الألوان وأكثرها طراوة. والسندس: ما رقّ من الديباج، والإستبرق: ما غلظ منها^(٤). وقال تعالى: (عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا)^(٥). وتحلية أساور الفضة للأبرار، وأما المقربون فيحلّون من أساور الذهب واللؤلؤ^(٦)، كما في قوله: (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)^(٧). ولا تتمزّق ثيابهم ولا تبلي كما الحديث: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»^(٨).

أما قصور الجنة، وأماكن الجلوس في حدائقها وبساتينها زوّدت بألوان فاخرة من الفرش للجلوس فيها والاتكاء عليها، فالسرر عالية راقية، والفرش مرتفعة عظيمة القدر، بطائنها من الإستبرق، فما بالك بظاهرها. وهناك ترى النمارق مصفوفة بنظام وأتساق، فتسرّ الخواطر، وتبهج النفوس، والزرايبي مبثوثة على شكل منسق متكامل^(٩). قال الله تعالى: (فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ. وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ. وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ. وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)^(١٠). والسرر مرفوعة: ليرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما حوّله ربه من النعيم والملك فيها، ويلحق جميع ذلك بصره. والنمارق: الوسائد والمرافق، ومصفوفة؛ لأنّ بعضها بجانب بعض. وزرايبي مبثوثة، أي: طنافس وبُسُط كثيرة

^١ سورة فاطر: ٣٣

^٢ انظر: تفسير السعدي، ص: ٦٩٠

^٣ سورة الكهف: ٣١

^٤ تفسير أبي السعود: ٢٢٠/٥

^٥ سورة الإسراء: ٢١

^٦ انظر: تفسير ابن كثير: ٢٩٣/٨

^٧ سورة الحج: ٢٣

^٨ أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٨١/٤)، كتاب الحية وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الحية، عن أبي هريرة بلفظه.

^٩ انظر: الحية والبار لعمر الأشقر، ص: ٢٣٨

^{١٠} سورة العاشية: ١٣-١٦

مبثوثة مفروشة، والواحدة: زربية، وهي الطنفسة^(١) التي لها حمل رقيق^(٢). وقال تعالى: (مُتَكِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)^(٣). يقول السعدي: "وتلك الفرش لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله عز وجل، حتى إن بطائنهما التي تلي الأرض منها من إستبرق، وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم"^(٤). وقال تعالى: (مُتَكِّينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ)^(٥). أي: "مستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة. وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ، أي: وطنافس ثخينة مزخرفة، محلاة بأنواع الصور والزينة"^(٦).

٤ - نساء أهل الجنة وجمالهن

ومن اللذات البدنية، والشهوات النفسية الاستمتاع الحاصل بين الرجال والنساء عن طريق السكون والاستئناس الحاصل بينهم، والاستمتاع الجسدي، والاتصال الجنسي، والحديث الشيق، والاسترواح معا في الحداثق والمتزهات. ولما كان الرجل في الدنيا بحاجة إلى امرأة يسكن إليها، والمرأة إلى رجل تسكن إليه، جعل الله تعالى كلاً من المؤمنين والمؤمنات يستأنس ويستمتع بالآخر في الجنة. وإذا دخل المؤمن الجنة، وكانت زوجته صالحة، فستكون زوجته أيضاً في الجنة، كما تشير إلى ذلك آيات عديدة. منها قوله تعالى: (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ)^(٧).

وهذه الأزواج مطهّرات من كل عيب وذنس كان يلايسهن في الدنيا، كما في قوله تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٨). وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: "المطهّرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قدر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فطهر مع ذلك

^١ الطنفسة: السّاط والمرفة فوق الرجل، وجمعه: طنافس. المعجم الوسيط: ٥٦٨/٢

^٢ اطر: تفسير الطبري ٣٨٧/٢٤

^٣ سورة الرحمن: ٥٤

^٤ تفسير السعدي: ص: ٨٣١

^٥ سورة الرحمن: ٧٦

^٦ صفة التفاسير للصابوي: ٢٨٤/٣

^٧ سورة الرعد: ٢٣

^٨ سورة البقرة: ٢٥

باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ^(١).

وتتمّ الفرحة بينهم وبين أزواجهم في الجلوس والاتكاء معا على السرر والأرائك، في المنتزهات تحت ظلال الجنة، وتجاذب أطراف الحديث الطيب معهنّ، كما في قوله تعالى: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ. هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ. لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ)^(٢). أي: "في شغل مفكّه للنفس، ملذّ لها، من كل ما تهواه النفوس، وتلذّه العيون، ويتمناه المتمنون. ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات"^(٣).

ويزوج الله المؤمنين بزوجات آخر غير زوجاتهم اللاتي كنّ معهم في الدنيا، وهؤلاء يسمّون بحور العين. كما يقول ابن القيم: "والحور جمع حوراء، وهي المرأة الشابة الحسنة الجميلة البيضاء شديدة سواد العين... والعين: جمع عيناء، وهي العظيمة العين من النساء"^(٤). قال تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ. كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ. يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ. لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)^(٥). قال ابن القيم في تفسير الآية: "فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه، واشتماله على الثمار والأثمار، وحسن اللباس، وكمال العشرة لمقابلة بعضهم بعضا، وتمام اللذة بالحور العين، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة، مع أمنهم من انقطاعها ومضرّتها وغائلتها. وفي ختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتا"^(٦). ووصف الله تعالى نساء أهل الجنة من الحور وزوجات الدنيا بقصر طرفهن، أي أنّهن عفيفات غير متطلّعات إلى غير أزواجهن، كما في قوله تعالى: (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ)^(٧). يقول الطبري: "وعند هؤلاء المخلصين من عباد الله في الجنة قاصرات الطرف، وهنّ النساء اللواتي

^١ حادي الأرواح لابن القيم، ص: ٢١٧

^٢ سورة يس: ٥٥-٥٧

^٣ تفسير السعدي: ص: ٦٩٧-٦٩٨

^٤ حادي الأرواح لابن القيم، ص: ٢١٨-٢١٩

^٥ سورة الدخان: ٥١-٥٦

^٦ حادي الأرواح لابن القيم، ص: ٢١٨

^٧ سورة الرحمن: ٥٦

قصرن أطرافهن على بعولتهن، لا يردن غيرهم، ولا يمددن أبصارهن إلى غيرهم^(١). كما شبهه بياضهن وصفاء لوطن باللؤلؤ والمرجان في قوله: (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)^(٢)، وباللؤلؤ المكنون في قوله تعالى: (وَحُورٌ عِينٌ. كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ)^(٣)، وبالبيض المكنون في قوله: (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ)^(٤). قال ابن القيم: "قال الحسن وعامة المفسرين: أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان. شبههن في صفاء اللون وبياضه بالياقوت والمرجان"^(٥). وبيّن الرسول صلى الله عليه وسلم حسن لون نساء أهل الجنة وصفاءه بأنه يرى مخ سوقهن من وراء اللحم، فقال: «وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمُ زَوْجَتَانِ، يُرَى مَخُ سَوْقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»^(٦). ووصف سبحانه نساء أهل الجنة بصفات خلقية وخلقية جميلة وحسنة، فقال عزّ من قائل: (إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا. غُرُبًا أَثْرَابًا)^(٧). وقال في آية أخرى: (وَكَوَاعِبَ أَثْرَابًا)^(٨). والعُرب: جمع عُرُوب، وهنّ المتحبيبات إلى أزواجهن. وقيل: العروب الحسنة التبعل، يريد حسن مواقعها وملاطفتها لزوجها عند الجماع^(٩). والكواعب: هنّ النواهد اللاتي لم تتكسر ثديهن من شباهن، وقوّتهن ونضارتهم. والأتراب: اللاتي على سنّ واحد متقارب^(١٠).

٥ - خدم أهل الجنة وغلماهم:

ولما كان ملوك الدنيا لا تطيب نفوسهم، ولا يستقيم أمرهم إلا بالاستخدام لغيرهم، وتكليفهم بقضاء حوائجهم جعل الله تعالى لأهل الجنة من يخدمهم من الولدان، يطوفون عليهم

^١ تفسير الطبري: ٤١/٢١

^٢ سورة الرحمن: ٥٨

^٣ سورة الواقعة: ٢٢، ٢٣

^٤ سورة الصافات: ٤٩

^٥ حادي الأرواح لاس القيم، ص: ٢٢٣

^٦ أخرجه البخاري في صحيحه (١١٨/٤)، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأهلها مخلوقة، عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه. ومسلم في صحيحه (٢١٧٨/٤)، كتاب الجنة وصفتها وأهلها، باب أول مرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة الدر وصفاهم وأرواحهم عن أبي هريرة نحوه مختصراً.

^٧ سورة الواقعة: ٣٥-٣٧

^٨ سورة السأ: ٣٣

^٩ انظر: حادي الأرواح لاس القيم، ص: ٢٢٧

^{١٠} انظر: تفسير السعدي، ص: ٩٠٧

بكلّ ما يخطر ببالهم أو تتعلق به إرادتهم، لأنّ الله تعالى سمّى نعيم أهل الجنة ملكاً كبيراً، فقال تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)^(١). وذكر الله تعالى شأن ولدان أهل الجنة، وخدمهم في آيات متعدّدة، منها قوله: (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ)^(٢). وقوله تعالى: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا)^(٣). وقوله تعالى: (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ)^(٤). أي: "كأنهم لؤلؤ في بياضه وصفائه مكنون، يعني: مصون في كنّ، فهو أنقى له، وأصفى لبياضه"^(٥).

٦- النظر إلى ربهم وحصولهم على رضوانه:

الحصول على رضا الله يفوق كل نعمة بدنية أو نفسية في الجنة، لأنّ الجنة في جملتها أثر من آثار رضوان الله. فالؤمن إذا ظفر برضا الرحمن، والنجاة من غضب الجبار حصل له من الهناء والفرح والسرور ما لا يوصف باللسان ولا يدركه عقل إنسان. ويدلّ على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نُغْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(٦). وقد أخبر الله سبحانه في كتابه العزيز بأن رضاه عن المؤمنين أعظم من كل شيء أعطاهم سواه، فقال: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَذْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٧). وبشّر الله المؤمنين في الآخرة بالرضا كما في قوله تعالى: (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ)^(٨).

^١ سورة الإسراء: ٢٠

^٢ سورة الواقعة: ١٧

^٣ سورة الإسراء: ١٩

^٤ سورة الطور: ٢٤

^٥ تفسير الطبري: ٤٧٦/٢٢

^٦ أحرجه الحارثي في صحيحه (١٥١/٩)، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظه ومسلم في صحيحه (٢١٧٦/٤)، كتاب الجنة وصفتها ونعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضاً بلفظه.

^٧ سورة التوبة: ٧٢

^٨ سورة التوبة: ٢١

أما النظر إلى وجه الرحمن الكريم، والتلذذ بالمشاهدة الربانية لهو الهدف الأعظم، والغرض الأسمى الذي ينشده كل من عرف الله تعالى، وعبدته حقَّ عبادته. فالنظر إليه نعمة عظمى، ومنحة كبرى تتقاصر دونها جميع النعم البدنية والنفسية المتوافرة في الجنة. وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»^(١). وجاء التصريح في الكتاب المجيد بإثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة، كما في قوله تعالى: (وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)^(٢). وفُسِّرَت الزيادة الموعودة للمحسنين في قوله تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٣)، بأنها النظر إلى وجهه الكريم، كما قاله ابن كثير: "وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضلهم ورحمته"^(٤). وقوله (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)^(٥). أي: "وعندنا زيادة على ذلك الإنعام والإكرام، وهو النظر إلى وجه الله الكريم"^(٦). نسأل الله بمنّته وفضله أن يرزقنا النظر إلى وجهه الكريم.

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٣/١)، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة رهم، عن صهيب الرومي رضي الله عنه لمقطه.

^٢ سورة القيامة: ٢٢، ٢٣

^٣ سورة يونس: ٢٦

^٤ تفسير ابن كثير: ٢٦٢/٤

^٥ سورة ق: ٣٥

^٦ صموة التفاسير للصابوني: ٢٢٩/٣

المطلب الثالث: الأعمال والأسباب الموجبة للجنة

لا شك أن استحقاق الجنة ليس مقابل عمل من الأعمال، مهما كثر عدده، وحسنت نوعيته، وإنما ذلك بفضل الله ورحمته، يتعمد فيها من يشاء من عباده، بيد أن الله تعالى جعل لكل شيء سببا، فجعل طاعته وطاعة رسوله سببا لدخول الجنة، كما قال تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(١). والقرآن كثيرا ما يجعل الإيمان والعمل الصالح سببين رئيسين لدخول الجنة، كما في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخِلُوهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا)^(٢). وأحيانا يقرر الله تعالى في القرآن العظيم أن أمرا من أمور الإيمان أو عملا من الأعمال الصالحة يكون سببا من أسباب دخول الجنان، وفيما يلي أذكر بعض الصفات أو الأعمال المؤدية إلى ذلك:

١- **المجرة والجماد:** الهجرة والجهاد عملان ساميان من أعمال الإسلام، لما يشتملان عليه من حفظ الإسلام وأهله من كيد الأعداء، إلى جانب المشقة والجهد المتمثل في فراق الأوطان والأحباب، وإنفاق الأموال، والتعرض لإزهاق الأرواح، فلا غرو أن تكون نتيجة ذلك دخول الجنان والفوز برضا الرحمن. وفي هذا يقول المولى جل في علاه: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَغْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)^(٣). "جمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال، طلبا لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله"^(٤).

٢- **تقوى الله تعالى:** التقوى أصلها من الوقاية، وهي أن يجعل المرء بينه وبين عقاب الله وغضبه وقاية وحاجزا بامثال أوامره واجتناب نواهيه. وقد وعد الله أصحاب التقوى بدخول الجنة، والخلود فيها، وتكفير السيئات في آيات عديدة، منها قوله تعالى: (قُلْ أُوْبِيكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ

^١ سورة النساء: ١٣

^٢ السورة السابقة: ٥٧

^٣ سورة آل عمران: ١٩٥

^٤ تفسير السعدي، ص: ١٦٢

ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ^(١). وقوله: (لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)^(٢).

٣- الصدق: والمراد بالصدق هنا الصدق في الأقوال والأعمال والنيات، فيكون العبد صادقاً مع الله في الإيمان والأعمال، فيحقق الإيمان، ويتقن العبادة، ويخلص فيها لله تعالى، كما يكون صادقاً مع الناس في التعامل معهم، فلا يكذب ولا يخون ولا يخدع، بل يصدقهم في الظاهر والباطن، يأمنون من غشّه وبوائقه في سائر العلاقات والمعاملات. وقد وعد الله الصادقين بجَنّات النعيم والفوز بالرضا من الله جزاء صدقهم في الدنيا، فقال عزّ من قائل: (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٣). وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه أنّ الصدق وسيلة إلى الجنة، وذلك قوله: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقًا. وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(٤).

٤- صفات أولى الألباب: وهي: الصبر، والصلاة، وخشية الرحمن، والوفاء بالعهد، ووصل الأرحام، والإنفاق، ومقابلة الحسنة بالحسنة. وهذه الصفات من أهم متطلبات الإسلام، فالصلاة والخشية تحقق الرابطة القويّة بين المرء وخالقه، كما أنّ الإنفاق في وجوه الخير وصلة الأرحام والوفاء بالعهد ومقابلة السيئة بالحسنة تحقق العلاقة الوطيدة بين المرء وبين الناس. أما الصبر مع الإخلاص فهو عامل أساسي لتحقيق جميع أعمال الإسلام، فمن لم يكن عنده صبر لا يستطيع القيام بذلك على الوجه المطلوب. ومن هنا استحق أصحاب هذه الصفات دخول الجنان ورضا الرحمن. وذلك قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا

^١ سورة آل عمران: ١٥

^٢ سورة آل عمران: ١٩٨

^٣ سورة المائدة: ١١٩

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه (٢٥/٨)، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لفظه. ومسلم في صحيحه (٢٠١٢/٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفصله عن عبد الله بن مسعود لفظ مقارب.

يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقِضُونَ الْمِيثَاقَ. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ. وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ^(١).

٤- التوبة النصوح: التوبة شأنها عظيم ومترلتها في مقامات الإيمان كبيرة، فإنَّ الإنسان مهما ارتفع في منازل العبودية والتقوى لا يخلو من ذنب أو تقصير. فهو يحتاج دوماً إلى التوبة في جميع مراحل العبودية في بداية سلوكه إلى أن يلقي الله عزَّ وجل بالموت. فما من حالة يكون الإنسان فيها إلا وهو في أشدَّ الحاجة إلى التوبة والرجوع إلى الله تعالى، كما كان يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٢). وقد قال ذلك رغم علوِّ كعبه في عبادة ربه، وعلمه بمغفرة الله له فيما استقدم من عمره وما استأخر. والتوبة النصوح هي: "الندم بالقلب على الذنب، والاستغفار باللسان، والإقلاع البدني عن المعصية، والعزم على ترك العودة إلى العصيان"^(٣). قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٤). وقد حثَّ الله المؤمنين في الآية على التوبة النصوح، ووعدهم عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، والنور التام الذي يضيء للمؤمنين في ظلمات يوم القيامة.

٥- صفات المؤمنين: وهي: الخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو، وأداء الزكاة، وحفظ الفروج والأمانة والصلاة. وجمع الله تعالى هذه الصفات في بداية سورة المؤمنين، وجعلها من أعظم صفات المؤمنين، كما رتب عليها الحصول على الفردوس الأعلى، استحقاقاً لها كالميراث، جعلنا الله من أهلها، ووفقنا لما يكون سبباً في دخولها. قال الله تعالى في كتابه العزيز وفرقانه المجيد:

^١ سورة الرعد: ١٩-٢٤

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه (٦٧/٨)، كتاب الدعوات، باب استعمار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة، عن أبي هريرة بلعظه.

^٣ التفسير الوسيط للرحيلي: ٢٦٩٢/٣

^٤ سورة التحريم: ٨

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(١). وهذه الصفات المذكورة في الآية كانت سببا لأصحابها أن يرثون الفردوس الأعلى من الجنان، كما يستحق صاحب الإرث ميراثه.

٦- صفات عباد الرحمن: إن الرحمن وصف عباده في آخر سورة الفرقان بالوقار والسكينة والتواضع له ولعباده، وحسن الأدب والحلم والعفو والإعراض عن الجاهلين، وقيام الليل والإخلاص فيه، والخوف من النار والتضرع لربهم أن ينجيهم منها، وإخراج الواجب والمستحب في النفقات والاقتصاد في ذلك، والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والتوبة عند صدور شيء من ذلك، والإعراض عن مجالس الفسق واللغو والمنكرات، والإذعان لآيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها، والتضرع إلى الله بأكمل الدعاء، من صلاح أزواجهم وذريتهم، وبلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم وهي درجة الإمامة والصدقية. ولما كانت همهم ومطالبهم عالية جازاهم الله بال منازل الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما تشتهي النفس وتتلذ الأعين^(٢). فقال الله تعالى في كتابه الحميد وفرقانه المجيد: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا. وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا. إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا. وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا. وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا. إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا. وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا. وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا. وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا

^١ سورة المؤمنون: ١-١١

^٢ انظر: تفسير السعدي، ص: ٥٨٨

وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِمُتَّقِينَ إِمَامًا. أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا. خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا^(١).

٧- الخوف من الله وكف النفس عن الهوى: الخوف من الله يدفع المرء إلى كل خير، ويجنبه كل شر، فمن خاف الله وعقابه وغضبه استقام على الصراط المستقيم، وحصلت له القوة اللازمة لمداغة النفس والشیطان. ذلك لأنهما يحاولان باستمرار أن يحيد العبد عن طاعة الرحمن، ويتلبس بالعصيان. فمن اتصف بالخشية ومخالفة النفس صار من عباد الله المخصوصين، واستحق بذلك أن يكون مستقره في الآخرة جنات النعيم. وفي ذلك يقول المولى جلّ في علاه: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)^(٢). أي من خاف مسألة الله إياه عند وقوفه يوم القيامة بين يديه، فاتّقه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، وزجر نفسه عن هواها، وخالفها فيما تشتهيه من عصيان الرب فإن الجنة ستكون مأواه ومزله يوم القيامة^(٣). وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ. جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)^(٤). ونسأل الله الكريم أن يرزقنا الجنة ويقينا عذاب النار.

^١ سورة الفرقان: ٦٣-٧٦

^٢ سورة البارات: ٤٠، ٤١

^٣ انظر: تفسير الطبري ٢١٢/٢٤

^٤ سورة البقرة: ٧، ٨

المطلب الرابع: الترغيب بالجنة ونعيمها

رَغِبَ اللهُ سبحانه عباده في دار كرامته، ونُزِلَ ضيوفه، ومستقرّ رحمته في الكتاب العزيز والفرقان المجيد. ولما كانت الجنة مما غاب عن أعين الناس في الدنيا فَصَّلَ لهم الرحمن أنواع نعيمها، وفنون كراماتها، وصنوف ملذاتها الجسدية والروحية، بما يأخذ بألباب أولي النهى، ويستولى على قلوب أهل التقوى، فوصفها لهم بأوصاف عجيبة، ونعوت غريبة، يجمعها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١). وقول الله جل وعلا: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٢).

الفرق بين الترغيب في الجنة والترغيب بها

يوجد فرق بين الترغيب في الجنة والترغيب بها، فالأول يكون بذكر محاسن الجنة وأنواع ملذاتها ومختلف النعم فيها، فيكون ذلك بمثابة ترغيب مباشر في الجنة ليشتمر عن ساعد الجدّ طالبوها، ويُجْهِدُوا أنفسهم في إعداد مهرها، وتسديد ثمنه من خلال السعي الحثيث في طاعة الله، وطاعة رسوله، والقيام بكل عمل يرضي الله عز وجل. فقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم الجنة بأنها غالية الثمن في قوله: «مَنْ خَافَ أَذْلَجَ، وَمَنْ أَذْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَّا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَّا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»^(٣). وأخير سبحانه عن قيمة الجنة، وارتفاع ثمنها، وغلاء سعرها، وأنها تحتاج إلى بذل النفس والنفيس، فقال: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٤).

فمن رَغِبَ في الجنة استكثر من الأسباب الموجبة لدخولها، واستفرغ جهده فيما يوصل إليها من الإيمان والعمل الصالح. ومن هنا فالتنويه بالجنة وأشجارها وأثمارها وعيونها وطعامها وشرابها وحورها وقصورها وملابسها وزينتها، كل ذلك ترغيب في الجنة، واستحثاث للسعي إليها، والحرص على دخولها، وبذل الجهد في طلبها، بالاستكثار من الأسباب الموجبة لها والأعمال

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٧٥ / ٤)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه بلغظه.

^٢ سورة السجدة: ١٧

^٣ أخرجه الترمذي في سننه (٦٣٣ / ٤) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ندون تسمية، عن أبي هريرة بلغظه، وقال: «هذا حديث حسن عريب»، وصححه الألباني. وكذا أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين (٣٤٣ / ٤)، كتاب الرقاق، عن أبي هريرة، ووافق عليه الذهبي.

^٤ سورة التوبة: ١١١

الموصلة إليها. أما الترغيب بالجنة فهو ليس تشويقاً وترغيباً مباشراً لها، وإنما الترغيب حاصل للعمل الذي يراد حصوله من العبد، ولكن الجنة تذكر في هذا المقام لتكون مربوطة بهذا العمل ارتباط السبب بالمسبب والعلة بالمعلول. إذن فالترغيب بالجنة يستخدم هنا كوسيلة للحث على العمل الصالح، لأن النفوس طمّاعة في الحصول على ما ينفعها في العاجل والآجل، فعندما تقرر آذان الإنسان من مصدر موثوق كتاباً أو سنة أن عملاً ما يكون موجبا لدخول الجنان، وأيقن بهذا الكلام لا شك أنه يحرص على القيام بذلك العمل على الوجه المطلوب، إن سلم من عوائق شهوات النفس والشيطان، الذين طالما وقفوا في طريق العبد إلى الجنة، وحرصاً على إعاقته، بأن لا يسلكه رأساً، أو يحيد عنه فعلاً، أو يستثقل الاستقامة عليه، بكل ما أوتيا من تشويش، ووسوسة، وإغراءات مادية أو معنوية. وبالجملة فالترغيب في الجنة، والترغيب بها نتيجهما واحدة، وهي السعي إلى الأعمال الموجبة للجنة، والحرص عليها كلّ الحرص، كي لا تفوت الإنسان هذه الفرصة الذهبية، والنعيم الأبدي، والفضل السرمدي.

الترغيب بالجنة في العث على الأعمال الصالحة والصفات الطيبة

الترغيب في الأعمال الصالحة، والصفات الطيبة، عن طريق ربطها بنعيم الجنة، وما احتوت عليه من صنوف الترف والنعمة والبهجة والسرور هو أكبر حافز للعاقل إلى أن يبذل قصارى جهده للحصول على هذا الكثر الثمين والأجر العظيم. ومن هنا سأذكر بعض الأعمال والصفات التي تمّ الترغيب فيها من خلال ربطها بذكر الجنة، ونعيمها المقيم، وفوزها العظيم، وسأتي بأمثلة لذلك من القرآن العظيم في النقاط التالية:

١- ولما كان الإيمان والعمل الصالح يجمعان أمور الدين كلها وردت كثير من الآيات في جعل ذلك سبباً أساساً لدخول الجنة والخلود فيها. فمن أتى بالإيمان وعمل عملاً صالحاً، جامعاً بين موافقته للشرعية وخلوصه عن شوائب الرياء والسمعة وحظوظ النفس استحقّ الجنة بفضل الله ورحمته. ومن ذلك قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا)^(١). وقال تعالى مرغبا في الإيمان والعمل الصالح: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ

^١ سورة النساء: ١٢٢

تَحْتِهِمُ النَّهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعَوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١).

٢- ولما كان مصطلح التقوى في القرآن يجمع بين امتثال الأوامر واجتناب النواهي على أساس الحذر والخوف من الله وغضبه وأليم عقابه وردت آيات كثيرة تجعل حصول التقوى في العبد سببا لاستحقاقه دخول الجنان، والظفر بالرضوان. ومن ذلك قوله تعالى: (قُلْ أُوْبُّكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)^(٢). وقوله تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)^(٣).

٣- الهجرة والجهاد من أهم أعمال الإسلام. ولما كان القيام بذلك يتطلب التضحية بالمال والنفس، ومخالفة العوائد، ومفارقة الأهل والأحباب بشر الله أصحابها بالفوز برحمته ورضوانه، ودخول جنته مع الخلود فيها. وفي هذا يقول تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)^(٤). وهناك أعمال وصفات أخرى لم أذكرها اختصاراً، وذكرت بعضها منها في المطلب السابق، الخاص بالأعمال والأسباب الموجبة لدخول الجنة.

هذا، وقد انتهى المبحث الرابع في الترغيب في الجنة ونعيمها، وقد بينت فيه التعريف بالجنة لغة وشرعاً، مع ذكر أوصافها، وأسمائها في القرآن الكريم، كما شرحت الأعمال والأسباب الموجبة لها. وأبرزت فيه أوجه الترغيب بالجنة من خلال الحث على الأعمال الصالحة، والصفات الطيبة، بالإضافة إلى توضيح الفرق بين الترغيب في الجنة والترغيب بها. ونسأل الله العفو الرحيم أن يمن علينا بجنّته ورحمته ورضوانه، إنّه جواد كريم، وبالإجابة جدير.

^١ سورة يوس: ٩، ١٠

^٢ سورة آل عمران: ١٥

^٣ سورة الرمر: ٧٣

^٤ سورة التوبة: ٢٠-٢٢

الفصل الثالث

الترغيب والترهيب بذكر أحوال الأمم السابقة

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: أهمية قصص الأنبياء والرسل في القرآن

١ - تحذير الرسل من عقاب الله وترغيبهم في ثوابه

٢ - الترغيب والترهيب بتعجيل العقوبة لمخالفين

الرسل وإنجاء أتباعهم

تمهيد: أهمية قصص الأنبياء والرسل في القرآن الكريم

لقد كثر في القرآن الكريم عرض قصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم لحكمة بالغة ومقصد عظيم. وتشغل قصص الأنبياء مساحة كبيرة من إجمالي آيات الكتاب العزيز؛ لما في ذكرها من العبر العجيبة، والفوائد الكثيرة. ولإبراز أهمية قصص الأنبياء أشير إلى بعض الفوائد والحكم^(١) من إيرادها في القرآن كالتالي:

١- يلاحظ أن الأسلوب الذي وردت به قصص القرآن يختلف تمامًا عن القصص الموجودة في الكتب التي سطرها أيدي البشر. فالقصة القرآنية ليس المقصود منها سرد القصة بتفاصيلها؛ ليستروح بها المستمع ويتسلّى بها، كما هي أسلوب القصة العادية في ذكر التفاصيل والتسلسل التاريخي للوقائع والأحداث، بل المقصود من القصة القرآنية ذكر موضع العبرة من القصة دون التفاصيل، فتذكر مقاطع من القصة مشفوعة بالعبر والمواعظ التي يستفاد منها. كما قال الله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)^(٢).

٢- لقد قرعت أنباء الرسل في القرآن آذان البشر، وتكرّرت على صور مختلفة وأساليب متنوعة، والقصد منها تثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين، كي لا يصيبهم الوهن ولا يحيم عليهم الحزن في معركتهم الطويلة الأمد مع الباطل وأهله، وحتى يعرفوا سنة الله تعالى مع الأنبياء وأمهم، ويستوعبوا النتيجة الحتمية لهذه المعركة ونهايتها المحمودة للرسول وأتباعهم، فلا يملّوا ولا يقنطوا. قال تعالى: (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)^(٣). وذلك أن "النفوس تأنس بالاعتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به"^(٤).

٣- إنَّ في قصص القرآن تحديًا لأهل الكتاب، حيث كان قصارى علمهم في ذلك العصر معرفة أخبار الأنبياء وأحوال أمهم، فإذا عرف المؤمنون هذه الأخبار على أتم وجه وأكمل صورة

^١ انظر لمزيد من التفصيل في ذلك: مقدمة التحرير والتشوير لاس عاشور ١/٦٤، وما بعدها.

^٢ سورة يوسف: ١١١

^٣ سورة هود: ١٢٠

^٤ تفسير السعدي، ص: ٣٩٢

انقطعت حجة أهل الكتاب على هذه الأمة واعتبارها أمة أمية. قال الله عز وجل بعد ذكر قصة نوح عليه السلام: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَلَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ هَذَا فَاِصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)^(١).

٤- في سرد قصص القرآن موعظة وتذكير بما لحق الأمم التي عاندت الرسل، والعاقبة الوخيمة التي واجهتها جرّاء طغيانهم وغرورهم وتكذيبهم للرسل عليهم السلام، حتى يترجر المشركون في زمن نزول القرآن عما هم فيه من العناد والمخالفة للرسول صلى الله عليه وسلم، ويتعظوا بمصارع نظرائهم وأمثالهم. وفي ذلك يقول المولى جلّ في علاه: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(٢).

٥- في هذه القصص معرفة ترتب المسببات على أسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب، لتحرص الأمة على الخير، وتحذر من الشر، وما يصحب ذلك من ظهور المثل العليا في تحصيل الفضيلة وزكاء النفوس، أو عكس ذلك في تحجب الرذيلة وتدنيس النفوس. قال تعالى بعد ذكر قصة ثمود مع نبيهم صالح: (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)^(٣).

٦- في عرض القصص القرآني معرفة أن القوة لله جميعاً، وأن الله تعالى ينصر أوليائه وأتباع رسله بعد الحن والشدائد إن هم أخذوا بسنة الله في الأنبياء وأتباعهم، فآمنوا بالله حق الإيمان، وأتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع نواحي الحياة، فيرث هؤلاء الأرض، ويتصرفون فيها تصرف الملوك، فيعبدون الخالق، ويخدمون المخلوق. قال الله تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)^(٤). وقال تعالى: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)^(٥). وهذه بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين من بعده؛ فإن المؤمنين جند الله وأنصاره، حيث نصرُوا دين الله بعد القيام به علماً وعملاً. وهم الغالبون لعدوهم، فيشمل غلبتهم في مقام الحجاج، وملاحم القتال في الدنيا، كما

^١ سورة هود: ٤٩

^٢ سورة النعاس: ٥

^٣ سورة النمل: ٥٢

^٤ سورة الأنبياء: ١٠٥

^٥ سورة الصافات: ١٧١-١٧٣

يشمل علوهم عليهم في الآخرة. وهذه الغلبة في أكثر الأحوال، وباعتبار العقابة، فلا ينافي أنهم يغلبون نادرا ثم تكون لهم العقابة والتمكين في الأخير^(١).

٧- في ذكر القصص تعريف المسلمين بسعة العالم وعظمة الأمم والاعتراف بمزاياها، حتى يندفع عنهم الغرور والإعجاب بما أوتوا به من القوة والاقتدار والعلم والمعرفة، كما اغترّ قوم عاد بقوتهم وشدة بطشهم، حيث قالوا: (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)^(٢). وكما اغترّ قارون بعلمه وماله حيث قال: (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)^(٣).

٨- في قصص الأنبياء المذكورة في القرآن تسليّة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن في تلك القصص ذكر لما لاقى الرسل من أمهم من العناد والتكذيب والأذى بالقول والفعل، مما يخفف حزن الرسول صلى الله عليه وسلم، ويزيد من صبره وتحمله، فكانه قيل له: ليس هذا بيد من منهم، بل هي عادتهم وسجيّتهم، ولهم في ذلك سلف من الأمم السابقة، فاصبر ولا تحزن، فإن العقابة للمتقين، والنصر والتمكين للرسل وأتباعهم. قال تعالى: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمُوسَلِينَ)^(٤). ولقد كان يصيبه الحزن الشديد والأسى على عدم إيمانهم: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)^(٥). فكانت الآيات تنزل عليه بقصص الأنبياء الذين لم يصدق أكثر أقوامهم بما أوتوا به، كما في قصة نوح عليه السلام، فقد دعا قومه تسعمائة وخمسين سنة، ومع ذلك لم يؤمن به إلا القليل، كما في قوله تعالى: (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)^(٦). ولم أقصد من إيراد هذه الفوائد والحكم استقصاء جميعها، وإنما الإشارة إلى بعضها، لتكون نموذجاً لغيرها، والله الموفق.

^١ انظر: التحرير والتبوير ١٩٥/٢٣

^٢ سورة فصلت: ١٥

^٣ سورة القصص: ٧٨

^٤ سورة الأنعام: ٣٤

^٥ سورة الشعراء: ٣

^٦ سورة هود: ٤٠

البحث الأول:

تحذير الرسل أمهم من عقاب الله وترغيبهم في ثوابه

ويشتمل على المطالب الآتية:

- ١ - علاقة الرسل مع أمهم في القرآن الكريم
- ٢ - تحذير الرسل أمهم من عقاب الله وغضبه
- ٣ - ترغيب الرسل أمهم في ثواب الله ورضاه

المطلب الأول: علاقة الرسل مع أممهم في القرآن الكريم

لقد تحدثت عن مفهوم الرسل، ومقامهم في الدين، ومهمتهم، وأسلوب الترغيب والترهيب في دعوتهم في الفصل الأول للباب الأول من هذه الرسالة^(١)، فلا حاجة لإعادة ذلك ههنا. والذي أردت أن أقوم به هنا إبراز طبيعة العلاقة بين الرسل وأممهم فيما يأتي:

١- كان الله عزّ وجلّ يبعث الرسل عليهم السلام إلى أقوامهم وبني جنسهم، بحيث يشتركون معهم في النسب غالباً واللغة والمكان، كما قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٢). وقال تعالى: (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)^(٣).

ومعرفة الأقسام لنسب الرسول ولغته وأخلاقه أدعى إلى التسليم والقبول لما جاء به عن الله، إذ إنهم جرّبوه من الصغر، وتحقّقوا من أخلاقه وصدقه ونسبه ومعاملاته مع الآخرين برهة من الزمان. كل هذا يُثبِتُ في سجلّ القبيلة أو القرية التي بعث فيها الرسول، ويكون أمراً مقطوعاً به، فلا يمكن لصاحب غرض أن ينكره، أو يشكّك فيه، بل يشتهر تاريخ هذا الرسول ونشأته وأخلاقه بين قومه، من غير احتياج إلى دليل أو شاهد، فيعرفه القاصي والداني من أهل القرية التي أرسل فيها. كما قال تعالى في أمر الرسول صلى الله عليه وسلم: (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)^(٤). أي: "قد أقمت فيما بينكم دهرًا مديدًا مقدار أربعين سنة تحفظون تفاصيل أحوالي طرّاً وتحيطون بما لدي خبيراً"^(٥).

وكان إرسال الرسول إلى قومه خاصّة سنّة الله في أمر الرسل والرسالات منذ خلق الله هذا الكون إلى أن بعث رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه بعث إلى الناس عامّة، الأحمر منهم والأسود، كما قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)^(٦)، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ

^١ انظر في هذا البحث، ص: ١٣٣

^٢ سورة إبراهيم: ٤

^٣ سورة المؤمنون: ٣١، ٣٢

^٤ سورة يونس: ١٦

^٥ تفسير أبي السعود: ١٣٠/٤

^٦ سورة ساء: ٢٨

إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ»^(١). إذن فالعلاقة في الأصل بين الرسول وبين قومه علاقة قرابة ونسب أو جوار وصداقة، غير أن أغلب الأقسام قد تنكروا لهذه الرابطة القويّة، والآصرة المتينة، والتي كان ينبغي أن تراعي من قبل أعضاء القبيلة أو أهل القرية. وكان حريّا بهم أن يصدّقوا الرسول وينصروه في تبليغ مهمته، وأن يعتبروا شرف هذا الرسول شرفا ومجدا أضيف إلى أمجادهم ومآثرهم، ولكن العجب كلّ العجب يملك الإنسان إذا نظر إلى ما لاقى الرسل من أقوامهم، عندما أهدروا حقوق القرابة والجوار، وواجهوا رسلهم بكل عناد وتكذيب، ورموا بهم كلّ عيب وقبيح، بل وصل بهم الأمر إلى إيقاع الأذى بهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

٢- وتقوم علاقة الرسول بقومه على أساس بذل النصيح وحبّ الخير لهم، حيث يرى مالا يرون ويعلم ما لا يعلمون، وهو على يقين إن لم يستجيبوا لدعوته أنّهم يخسرون الدنيا والآخرة. لذا فهو يهرع دوما إلى نصيحهم، ويستخدم كلّ وسيلة مباحة في دلائهم على الخير، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم. فلا يدّخر وسعا أن ينذرهم ويخبرهم بالخطر القادم عليهم كما مثل الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه بالنذير العريان، فقال: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمُ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِثَنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعَرِيَانُ، فَالْتَّجَاءُ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَذْلَجُوا، فَأَنْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَتَجَوَّا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَائِهِمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَنَحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»^(٢).

وتتابعت أقوال الرسل والأنبياء في الكتاب العزيز، تؤكد على قيامهم بالنصح لقومهم، وأداء الرسالة إليهم بدقّة وأمانة. كما أخبر سبحانه وتعالى عن نوح عليه السلام مقولته لقومه: (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٣). وقال هود عليه السلام لقومه: (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)^(٤). وقال صالح عليه السلام لقومه: (يَا قَوْمِ

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٣٧٠/١)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه لفظه. والبخاري في صحيحه (٧٤/١)، كتاب التيمم، عن جابر بن عبد الله أيضا نحوه.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه (٩٣/٩)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه لفظه. ومسلم في صحيحه (١٧٨٨/٤)، كتاب الفضائل، باب شفعته صلى الله عليه وسلم على أمته ومالعه في تحذيرهم مما يضرهم، عن أبي موسى الأشعري أيضا لفظه مقارب.

^٣ سورة الأعراف: ٦٢

^٤ سورة الأعراف: ٦٨

لَقَدْ أبلغتكم رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ^(١). وقال شعيب عليه السلام لقومه: (يَا قَوْمِ لَقَدْ أبلغتكم رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ)^(٢). والنصح كلمة جامعة، يعبر بها عن حسن النية وإرادة الخير من قول أو عمل. ويكثر إطلاق النصح على القول الذي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفع عنه الضرر^(٣).

٣- أما علاقة الأقوام برسلمهم فكانت غالباً تقوم على أساس العداوة المعلنة، والمواجهة بالإساءة والأذى، والتكذيب بما جاؤوا به من عند ربهم، والاستهزاء مما وعدتهم به الرسل، على عكس ما كان عليه الرسل، من مداومة النصح وحب الخير لهم. قال تعالى في مواجهة الأقوام للرسل بالتكذيب: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ)^(٤). وقال تعالى في مقابلتهم بالاستهزاء والسخرية: (وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)^(٥). وقال تعالى في رميهم الرسل بالسحر والجنون: (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)^(٦). وقال تعالى في مقابلتهم للرسل بالعصيان: (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)^(٧). وقال تعالى في مقابلتهم للرسل بإثارة الشبه والشكوك فيما جاؤوا به من الحق: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)^(٨). وأحياناً واجهوا الرسل بالقتل والتمثيل، كما فعلت بنو إسرائيل برسلمهم. وفي ذلك يقول المولى جل وعلا: (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا

^١ السورة السابقة: ٧٩

^٢ السورة السابقة: ٩٣

^٣ انظر: التحرير والتبوير لاس عاشور ١٩٤/٨

^٤ سورة الأنعام: ٣٤

^٥ سورة الأنبياء: ٤١

^٦ سورة النازعات: ٥٢، ٥٣

^٧ سورة هود: ٥٩

^٨ سورة إبراهيم: ٥

جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ^(١). وهذه علاقة الغالبية العظمى من الأقوام برسلكهم، حيث كذبوا الرسل، وأوقعوا بهم السوء والأذى، واستهزؤوا بهم، كما قال تعالى: (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)^(٢).

وأما أتباع الرسل، وهم القلة القليلة من أهل القرى الذين آمنوا بالرسل وصدقوا بما جاؤوا به من عند الله، وآتبعوا سننهم والأحكام التي أنزلت عليهم، فهؤلاء كانت علاقتهم بالرسل علاقة ود واحترام، ومحبة ووثام، فلم يألوا جهودهم في نصرتهم ومؤازرتهم، والمبالغة في اتباع سننهم، ومشاركتهم فيما نالهم من أقوامهم من الإساءة والأذى، فبشرهم الله بالعاقبة الحسنى، ودخول جنة المأوى. قال تعالى في وصف الذي أحسنوا علاقتهم بالرسل: (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٣). وقال تعالى في حق الذين آمنوا بالرسل: (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)^(٤). وقال تعالى في رفعة شأن الذين آتبعوا عيسى عليه السلام: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْهَبْ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَرَافِعْكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)^(٥). وقال تعالى في وصف بني إسرائيل وانتصارهم على فرعون، بعد اتباعهم لموسى عليه السلام: (وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَغْرِشُونَ)^(٦). وكثير في القرآن المجيد وصف الأمم الذين أحسنوا علاقتهم بالرسل إيماناً بهم، واتباعاً لشرائعهم، ومؤازرة لهم. وفيما ذكرته إشارة إلى بقية الآيات التي تحدثت عن هذا الموضوع، والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

^١ سورة المائدة: ٧٠

^٢ سورة الأعراف: ١٠٢

^٣ سورة الأعراف: ١٥٧

^٤ سورة النساء: ١٥٢

^٥ سورة آل عمران: ٥٥

^٦ سورة الأعراف: ١٣٧

المطلب الثاني: تحذير الرسل أمهم من عقاب الله وغضبه

كما أشرت إليه في المطلب السابق، أن الرسل لم تأل جهداً، ولم تدخر وسعاً في بذل النصيحة وابتغاء المصلحة لأممهم وأقوامهم، سواء كانت هذه المصلحة في عاجل أمرهم في الدنيا، أو آجل شأنهم في الآخرة. كما قال شعيب عليه السلام ناصحاً لقومه، فقال: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)^(١).

ومن أعظم ما تتمثل فيه النصيحة تحذيرهم من عقاب الله وغضبه، إذا لم يكفوا عن الشرك بالله، وتكذيب الرسل، ومخالفة ما جاؤوا به من عند الله. وذلك أن الرسل عليهم السلام مستيقنة من حلول العذاب وغضب الجبار إن استمرّ هؤلاء على الكفر والطغيان، فحقّ على الرسل أن يشمروا عن ساعد الجدّ، ويستعملوا كلّ وسيلة ممكنة في الإنذار والتحذير من الخطر القادم، والعقاب الداهم، لاقتضاء شفقتهم على الناس، وسلامة صدورهم من الخيانة. وفيما يلي بعض مظاهر تحذير الرسل لأقوامهم من شديد عذاب الله:

١- تعترف الأمم يوم القيامة بقيام رسلهم بواجب الإنذار المطلوب في حقهم، رغم أنّهم لم يستجيبوا، ولم يعيروا آذانهم لاستماع الحقّ وقبوله. ويدلّ على ذلك قول الحقّ جلّ وعلا: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)^(٢). وأخبر المولى تبارك وتعالى في الكتاب العزيز عن جواب الأقوام لحزنة جهنّم حين يسألونهم عن النذير في الدنيا هل أتاهم، فيجيبونهم بقولهم: (قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)^(٣).

٢- وقد خوّفت الرسل أقوامهم من عقاب الله وأليم عذابه في الآخرة، إن لم يستجيبوا إلى ما دعوهم إليه من الإيمان بالله وبرسله، والالتزام بشريعته. كما أخبر المولى عزّ وجلّ عن نوح عليه السلام في هذا الشأن بقوله: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا

^١ سورة هود: ٨٨

^٢ سورة الأعراف: ١٣٠

^٣ سورة الملك: ٩

اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ^(١). وأما شعيب عليه السلام فقد دعا قومه إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك وعبادة الأوثان، وأن لا ينقصوا المكيال والميزان، محذرا إياهم عذابا محيطا إن لم يستجيبوا لذلك، فقال تعالى حكاية لخطابه مع قومه: (وَالْيَ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)^(٢). وحكى الله مقولة هود لقومه، عندما أنذرهم من العذاب العظيم إن لم يفرّدوا العبادة بالله وحده. (وَإِذْ ذُكِّرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَخْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)^(٣).

٣- ومما يجدر الإشارة إليه أن الرسل لم تقتصر في إنذارها لأقوامهم على العقوبة الأخروية فقط، بل شمل ذلك العقوبة الدنيوية، والتي ربما يشعر الإنسان بقرب زمنها ودنو حلولها، خاصة إذا علم بحدوث مثل ذلك لمن سبقه من الأمم التي عمرت الأرض حيناً من الدهر. فكانت هذه وسيلة ضغط استخدمها الرسل حين يلمسون من أقوامهم عتواً واستكباراً عن الحق الذي جاؤوا به، كما فعل صالح عليه السلام حين أنذر قومه من نزول العذاب القريب إذا أصابوا الناقة بسوء، ولم يتركوها تسرح في أرض الله، وقد حكى الله ذلك عنه في قوله: (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)^(٤). وقد أنذر شعيب عليه السلام قومه، حين ذكّرهم بما حدث لمن سبقهم ممن كانوا يعمرّون الأرض، فقال: (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)^(٥). أي: "لا يحملنكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تلجّوا في التكذيب والمخالفة، خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم"^(٦).

وقد حذّر موسى عليه السلام السحرة عند المبارزة من عذاب يستأصلهم، إذا استمرّوا على محاولتهم في ردّ الحق والتدليس على الناس، فقال تعالى حكاية لمقولة موسى: (قَالَ لَهُمْ

^١ سورة هود: ٢٥، ٢٦

^٢ سورة هود: ٨٤

^٣ سورة الأحقاف: ٢١

^٤ سورة هود: ٦٤

^٥ سورة هود: ٨٩

^٦ في طلال القرآن لسيد قطب: ١٩٢١/٤

مُوسَىٰ وَيَلْكُمْ لَّا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ^(١). أي: "يهلككم بعقوبة هلاكا لا بقية له"^(٢). كما حذر مؤمن آل فرعون قومه من العذاب العاجل، فحكى الله تعالى مقولته في القرآن: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَخْزَابِ. مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ)^(٣). وشغل هذا التحذير والإنذار من قبل الرسل مساحة كبيرة من مضامين دعوتهم، وعرض القرآن الكريم هذا الإنذار في صور مختلفة، ومواضع متعدّدة، واخترت بعض النماذج من ذلك من باب التمثيل، وليس على وجه الحصر والاستقصاء، والله الموفق للصواب.

^١ سورة طه: ٦١

^٢ تفسير ابن كثير: ٣٠١/٥

^٣ سورة عاfer: ٣١

المطلب الثالث: ترغيب الرسل أمهم في ثواب الله ورضاه

الرسل عليهم أفضل الصلاة وأتمّ التسليم قد عاجلوا انحرافات أمهم بالترغيب إلى جانب الترهيب. فالترجية في ثواب الله وحصول رضاه في دار كرامته من أعظم ما يجذب العبد إلى طاعة الرحمن، ويزيده نشاطا في الاستزادة من خصال الإيمان والتقوى، كما يحجز العبد عن اقتراف ما يحرم رضا الله، ويبعد عن حسن جواره. لذا حرصت الرسل على الترغيب والتشويق إلى الإيمان والعمل الصالح، من خلال ذكر ثوابه في الجنة، والمتاع الحسن في الدنيا، الأمر الذي يجعل المؤمن يرغب في فعل الخيرات، ويدفع العاصي والكافر إلى الطمع في رحمة الله، كما بينها الآية الكريمة: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)^(١). وفيما يلي ذكر لبعض المظاهر التي تناولها ترغيب الرسل عليهم أفضل الصلاة وأتمّ التسليم:

١- أولّت الرسل الترغيب في ثواب الآخرة عناية بالغة، فإنّ ثواب الدنيا لا يعدل بجانبه شيئا، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِبْصَعَهُ هَذِهِ... فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمِ تَرْجِعُ»^(٢). فالرسل عليهم السلام وجّهوا أمهم إلى حصول الفوز في الآخرة، وذلك يتمّ بدخول الجنة والنجاة من النار، كما قال تعالى: (فَمَنْ زُخْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)^(٣). فالترغيب في الحصول على الجنة ورضا الله عز وجل كان ديدن الرسل وشغلهم الشاغل، فكأنهم رأوا الجنة وما فيها من النعيم المقيم رأي العين، ممّا أدّى إلى مبالغتهم في الترجية، وتفنّنهم في الترغيب، وتوجيه الخطاب لأمهم في التشويق إلى الجنان، ومغفرة الذنوب، والظفر برضى الرحمن. وفيما يلي أذكر بعض النماذج لترغيب الرسل في ثواب الآخرة، وتحفيزهم إلى العمل المؤدّي إليه:

ولقد رغب نوح عليه السلام قومه في عبادة الله وحده، وتقواه، وطاعة رسوله، ثم رتب على ذلك مغفرة الرحمن، التي هي سبب دخول الجنان، وذلك حينما قال لهم: (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ

^١ سورة هود: ٣

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٩٣/٤)، كتاب الحة وصحة نعيمها وأهلها، باب فاء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة عن المستورد بن شداد رضى الله عنه بلفظه.

^٣ سورة آل عمران: ١٨٥

وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا. يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ^(١). وأما هود عليه السلام فذكر قومه بنعم الله تعالى المتنوعة، والتي منها وحي الله المنزل على فرد منتسب إليهم، وجعلهم خلفاء الأرض بعد قوم نوح، ومنحهم البسطة في الخلق، ثم رغبهم في الاعتراف بهذه النعم والشكر عليها رجاء أن يرزقهم الله الفلاح السرمدي، والفوز الأبدي، فقال تعالى حكاية لقوله: (أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(٢)). وقد أنكر صالح عليه السلام قومه في استعجالهم العقوبة مكان العافية، فحثهم على التوبة والاستغفار رجاء أن ينالوا رحمة الله، فقال تعالى في حكاية قوله: (قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ^(٣)). كما رغب شعيب عليه السلام قومه في التوبة والاستغفار عليهم يفوزون برحمة الرحيم الودود، فقال عز من قائل: (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ^(٤)).

وقد تحول سحرة فرعون في لحظة من الزمان إلى دعاة بررة، يُرهبون فرعون وقومه من عقاب الله، ويرغبونهم في رحمته، كما أظهروا موقفهم الثابت على دين موسى عليه السلام، غير مكترثين بالتهديدات الموجهة إليهم من قبل فرعون وزبائنته، كما قال الإمام ابن كثير: "الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد"^(٥). وهذا كله ليس من عند أنفسهم إنما هو من تعليمات نبي الله موسى عليه السلام. ولنأخذ هنا مقطعاً من كلامهم في الترغيب لنعيم الآخرة بعد الترهيب من عقابه، كما في قوله تعالى: (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى^(٦)). ويشبه السحرة في عملهم هذا مؤمن آل فرعون، فإنه قام بواجب الدعوة نحو قومه، وأخلص لهم

^١ سورة نوح: ٣، ٤

^٢ سورة الأعراف: ٦٩

^٣ سورة المل: ٤٦

^٤ سورة هود: ٩٠

^٥ تفسير ابن كثير: ٣٠٥/٥

^٦ سورة طه: ٧٥، ٧٦

النصح والإرشاد، ورغبهم من عقاب الله وأليم بطشه، كما رغبهم في رضوان الله وجناته. وذلك في قوله تعالى: (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)^(١).

٢- ولما كانت نفوس البشر مجبولة على حبّ المنافع الآتية، والمصالح العاجلة استخدمت الرسل في دعوة أقوامهم الترغيب في الثواب العاجل، والإنعام الدنيوي، إذا آمنوا بالله تعالى وأتبعوا رسله الكرام، واستقاموا على الصراط المستقيم. ومن هنا دعا نوح عليه السلام قومه إلى الله تعالى ليلا ونهارا سرّا وجهاراً، ورغبهم في النعم التي يغدقهم بها في الدنيا إذا استغفروا وأنابوا، فوعدهم بالمطر الغزير، والمال الكثير، والولد العديد، والبساتين المثمرة، والأهوار الجارية، كما في قوله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)^(٢).

وكذلك رغب هود عليه السلام قومه في الإنابة والاستغفار عن الشرك والطغيان، ووعدهم بالأمطار المتتابعة، والقوة المتزايدة. وذلك في قوله تعالى: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)^(٣). ورغب موسى عليه السلام بني إسرائيل في الاستعانة بالله عز وجل، والصبر على المكاره التي يلقيها من فرعون وقومه عن طريق وعدهم باستخلاف الأرض والعاقبة الحسنة، فحكى الله تعالى ذلك بقوله: (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)^(٤). وحثّ نبي الله شعيب عليه السلام قومه على عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، ونهاهم عن بخر الناس، والإفساد في الأرض، ثم رغبهم في ذلك على أن تنيجة الامتثال لهذه الأمور حصول الخير لهم في عاجل دنياهم وآخرتهم، فقال تعالى حكاية لمقولة شعيب لقومه: (وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ

^١ سورة عاfer: ٤٠

^٢ سورة نوح: ١١-١٢

^٣ سورة هود: ٥٢

^٤ سورة الأعراف: ١٢٨

خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ^(١). يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: (ذلكم خير لكم): "هذا الذي ذكرت لكم وأمرتكم به، من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن، وترك الفساد في الأرض، خير لكم في عاجل دنياكم وآجل آخرتكم عند الله يوم القيامة"^(٢).

والترغيب والترهيب من أعظم الوسائل، التي استخدمتها الرسل في توجيه أممهم نحو الخير، وتحذيرهم من الشر، فإن الإنسان يتأثر بما يعود عليه بالمنافع، أو يصيبه بالمضار في خاصة نفسه، فيحب إصابة الخير، ويجانب الشر، والله العليم بخبايا النفوس، ومكامن الصدور أرشد الأنبياء إلى استعمال هذه الوسيلة المؤثرة في الإنسان، بحيث تحفزه إلى الخير، وتمنعه من الشر.

وبهذا أكتفي فيما أردت إيراده في هذا المبحث الخاص بتحذير الرسل أممهم من عقاب الله وترغيبهم في ثوابه، وقد تناولت فيه طبيعة العلاقة بين الرسل وأممهم، كما وردت في القرآن الكريم، وبيّنت أن العلاقة في الأصل بين الأمم ورسولهم كانت علاقة قرابة ونسب، أوجوار، حيث كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وأوضحته كذلك أنه بعد إرسال الرسول إلى القوم كانت علاقته بهم تقوم على أساس بذل النصيح والإرشاد، أما علاقتهم به فكانت في الغالب على أساس التكذيب، والعداوة المعلنة، ومحاولة الإيذاء له إلا من رحم الله ممن آمن بالرسول. وتناولت أيضا تحذير الرسل أممهم من عقاب الله وغضبه ونزول عذابه في العاجل والآجل إذا كذبوا الرسل، وانحرفوا عن طاعتهم، بالإضافة إلى ترغيبهم في ثواب الله ورضاه، والحصول على نعمه العاجلة والآجلة إذا آمنوا بالرسول، واستقاموا على الطريق، والله الموفق للصواب.

^١ سورة الأعراف: ٨٥

^٢ تفسير الطبري: ٥٥٥/١٢-٥٥٦

المبحث الثاني

الترغيب والترهيب بتعجيل العقوبة لمخالفي الرسل وإنجاء أتباعهم

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

التمهيد: مفهوم العقوبة الربانية وتوصيفها

١ - الترغيب بتعجيل العقوبة لمخالفي الرسل

٢ - الترغيب بإنجاء الرسل وانتصارهم مع أتباعهم

التمهيد: مفهوم العقوبة الربانية وتوصيفها

مفهوم العقوبة

الكلمة في بنائها الأصلي تدل على تأخير الشيء وإتيانه بعد غيره. ومنه سُميت العقوبة للإيلاء الذي يُتَعَقَّبُ به جرمٌ سابق. والعِقَابُ والمُعَاقِبَةُ: أن تجزي الرجل بما فعل سوءاً، فتقول: عاقبت الرجل مُعَاقِبَةً وَعُقُوبَةً وَعِقَاباً. والعاقبة إطلاقها يختصّ بالثواب، نحو قوله تعالى: (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)^(١). وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة نحو قوله تعالى: (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاؤُا)^(٢). والعُقُوبَةُ والمعاقبة والعِقَابُ يختصّ بالعذاب^(٣).

العقوبة الربانية وتوصيفها

العقوبة الربانية هي النقمة والعذاب الذي يحلّ بالإنسان جرّاء مقارفته للذنوب والمعاصي. وهذه العقوبات تكون أحياناً فردية، تصيب المجرم بعينه في جسده أو ماله أو ولده أو غير ذلك مما يختصّ به، كما في قوله تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)^(٤). وتارة تكون عامّة تشمل البلاد والعباد، صالحهم وطالحهم، وهي أيضاً تقع نتيجة المعاصي والمخالفات، التي تحدث بصورة جهرية من بعض الناس أو غالبية المُعَاقِبِينَ، فيعاقب الله المتلبّسين بالجريمة لاقترافهم الجريمة، ويعاقب الآخرين لسكوّهم عن الجريمة، وعدم سعيهم لتغييرها وإزالتها، كما قال تعالى: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)^(٥). عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: "أمر الله المؤمنين ألا يقرّوا المنكر بين ظهرانيهم فيعمّمهم الله بالعذاب"^(٦). وضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً محسوساً للكون، مشبّها إياه بسفينة ذات طابقين، فاستقلّ بعض الركاب أسفلها، والآخرون أعلاها، فقال: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى خُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا

^١ سورة القصص: ٨٣

^٢ سورة الروم: ١٠

^٣ انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٧٧/٤، وما بعدها، وتهديد اللغة للأزهري: ١٨٣/١، والمعجمات للراغب الأصفهاني، ص: ٥٧٥،

والتوقيف على مهمات التعاريف للماوي، ص: ٢٤٤

^٤ سورة الشورى: ٣٠

^٥ سورة الأعراف: ٢٥

^٦ تفسير ابن كثير: ٣٨/٤

وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَىٰ مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيْبِنَا خَرْقًا وَلَمْ تُؤَدِّ مِنْ فَوْقِنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»^(١).

وتختلف العقوبات من حيث كونها استتصالية وغير استتصالية، فالاستتصالية هي التي إذا نزلت يقوم أستاذصلتهم، وقطعت دابرهم، ولم تبق منهم أحدا، كالخسف والمسح والغرق والصيحة والصاعقة. وهذا النوع من العقوبات نزل بالأمم السابقة التي كفرت بالله وعصت رسله، كما في قوله تعالى: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)^(٢). وأما غير الاستتصالية من العقوبات الربانية فهي التي تنزل بالناس في أنفسهم وأموالهم وأهلهم، وقد تصل إلى حد الموت، غير أنها لا تقطع دابر الأمة ولا تفنيها. ومن مظاهر هذه النوع من العقوبات: القحط، والسنة، والزلازل، والأمراض العامة، وغلاء الأسعار، وانعدام الأمن، وتفرق الناس شيعة وأحزابا، وجور الحكام. وهذا النوع من العقوبات هي التي تصيب الأمة المحمدية، حيث إن الله تعالى وعد رسوله صلى الله عليه وسلم برفع العقوبات الاستتصالية عن أمته، كما أخبر بذلك جابر رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ)^(٣). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قال: (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)^(٤). قال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)^(٥). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هَذَا أَهْوَنُ، أَوْ هَذَا أَيْسَرُ»^(٦). ويرى بعض العلماء أن العقوبات الاستتصالية توقفت عن الأمم منذ نزول التوراة على موسى، كما يشير إليه قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)^(٧). قال ابن كثير رحمه الله تعالى: "أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٩/٣)، كتاب الشريعة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهانة فيه عن العمان من ستر رضي الله عنهما بلطفه.

^٢ سورة العنكبوت: ٤٠.

^٣ سورة الأنعام: ٦٥.

^٤ نفس السورة والآية.

^٥ نفس السورة والآية.

^٦ أخرجه البخاري في صحيحه، (٥٦/٦)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (قل: هو القادر على أن يعذب عليكم عذابا من فوقكم).

^٧ سورة القصص: ٤٣.

بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين^(١). وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، قال: ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض، غير القرية التي مسخوها قرده^(٢).

والعقوبات الربانية بشقيها تنزل بالناس في حال عصيانهم لربهم، ومجادلتهم بالباطل وإيذائهم للرسول. وقد فصل الله في القرآن عقابه الدنيوي لمن كذب الرسل، واستهزأ بهم في آيات عديدة، كما في قوله تعالى: (وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)^(٣). ونسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة.

والمقصد الأعلى، والهدف الأسمى من حكاية قصص الأنبياء مع أممهم: العبرة والذكرى لهذه الأمة، كي يتأسوا بالأنبياء وأتباعهم، ويحذروا طريق المكذبين ومخالف الرسل؛ كي لا يصيبهم ما أصابهم. والاعتبار هو الاستدلال بالشيء على شيء يشابهه، فالعاقل من قايس نفسه بما حدث لأمثاله، فيقتنص الفوائد التي جنوها، ويحذروا المعاطب التي عانوا منها، كما قيل في المثل المشهور: "السعيد من اتعظ بغيره"^(٤). وفي ذلك يقول ابن عاشور: "أن القصد من ذكر الأمم السالفة حيثما وقع في القرآن هو العبرة والموعظة والتحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه بسوء عملهم والافتداء في المحامد"^(٥). وإذا أمعنا النظر في أحوالهم نلّقى أن أغلب الأمم كانت منحرفة عن الصراط المستقيم، ومكذبة لرسولهم، ومخالفة لشريعة ربهم، كما قال تعالى: (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)^(٦). ومن هنا يعلم أن أغلب الأمم عوجلت لهم العقوبات في هذه الدنيا، وذكرت قصصهم في القرآن الكريم، كي تعتبر بهم الأمة المحمدية، ولا يقعوا فيما وقعوا فيه من المخالفة والعصيان، والعياذ بالله من ذلك، وهو المستعان.

^١ تفسير ابن كثير: ٢٣٩/٦

^٢ تفسير الطبري: ٥٨٤/١٩

^٣ سورة الرعد: ٣٢

^٤ أمالي القالي: ٢٣٢/١

^٥ التحرير والتوير لاس عاشور: ٣١٣/٢

^٦ سورة الأعراف: ١٠٢

المطلب الأول: الترهيب بتعجيل العقوبة لمخالف الرسل

من خالف الرسل وكذبهم فقد استحقَّ العقوبة والنكال من الله تعالى وهو على قيد الحياة في هذه الدنيا، ولكنَّ الله سبحانه لا يعجل بالعقوبة لأحد إلا بعد الإنذار والإمهال، كما قال تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)^(١). وقال أيضا: (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ. ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ)^(٢). وقد مضت قبلنا أمم كثيرة، عمروا هذه الدنيا، وشيّدوا فيها القصور، والمباني الشاهقة، واخترعوا وسائل متنوعة للاستمتاع بها في الحياة الدنيا، فأرسل الله إليهم الرسل تنذرهم وتحوِّفهم وتبشّرهم، ليعيشوا في الدنيا حياة طيبة، وينجو من عذاب الآخرة، ويظفروا برحمة الله وجنته، بيد أن أغلب الأمم طغت وتجبرت وظلمت وكفرت بالرسول الذي بعث فيهم، فما كان من الله إلا أن عاجلهم بالعقوبة في الدنيا قبل الآخرة. كما قال تعالى: (وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ)^(٣). وفي تعجيل العقوبة لأمثال هؤلاء حكم عديدة، من أهمها إظهار قدرة الله، وتحقيق العدالة في الدنيا قبل الآخرة، إلى جانب الاعتبار والاعتاظ لمن يأتي بعدهم من الأمم.

يحثَّ الله سبحانه في القرآن الكريم على السير في الأرض، والنظر إلى مصير الأمم، التي سبقتنا للاعتبار بحالهم، واستقراء وقائعهم، واستلهام المواعظ والعبر من تاريخهم، علما بأن سنة الله لا تتبدل وعادته لا تتغير، وإنه ليس بين الله وبين أحد نسب، يفعل بالآخر ما فعل بالأول، إن كان حالهما متساويا، وفعلهما متجانسا. لذا أمرنا الله سبحانه في غير آية بالنظر والتأمل في عاقبة المجرمين من قبلنا، كما في قوله: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)^(٤). وقوله تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ)^(٥). وهذا يقتضي الاعتبار بحالهم في الخير والشر.

^١ سورة الإسراء: ١٥

^٢ سورة الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩

^٣ سورة الحج: ٤٨

^٤ سورة آل عمران: ١٣٧

^٥ سورة الروم: ٤٢

مظاهر الترهب في مصير الأمم الخالية

هذه المظاهر متمثلة في الأسباب والأفعال التي أهلکوا من أجلها، مما يورث الخوف والحذر لغيرهم من ممارسة هذه الأفعال، أو معالجة هذه الأسباب، وفيما يلي ذكر لأهم تلك الأسباب أو الأفعال، كما وردت بها الآيات الكريمات:

١- **التكذيب بالله وبالرسل:** فالتكذيب يشمل أركان الإيمان كالتكذيب بالله وآياته ورسله واليوم الآخر، وهو السمة البارزة التي تشابهت فيها جميع الأمم، حتى سّماهم الله بالمكذبين. وذلك أن الله سبحانه ربط هذا الوصف بعاقبتهم السيئة، مما يؤذن بعليته للحكم الذي قضى الله به عليهم، وهو الهلاك والدمار الشامل في الحياة الدنيا، مع شدة ما ينتظرهم في الحياة الأخرى من الحزني والعذاب المهين. فالعاقل البصير ينظر إلى الأسباب التي نتجت منها تلك العقوبات، التي أصابت من قبلنا من الأمم، فيحذر منها، ويتقيها في حياته، ويبادر إلى التوبة والاستغفار، خائفاً وجلالاً إن بدر منه عمل كان سبباً لعذاب الاستئصال في الأمم الغابرة. ومن ذلك قوله تعالى في التذكير بمصير الأمم السابقة: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ. وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ. وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)^(١). وقوله تعالى: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ. وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَخْرَابُ. إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)^(٢). عن قتادة رحمه الله تعالى، قال: "هؤلاء كلهم قد كذبوا الرسل، فحقّ عليهم العذاب"^(٣).

٢- **الظلم:** فسّر العلماء الظلم بوضع الشيء في غير محله^(٤)، فيدخل فيه الكفر والشرك وجميع المعاصي، كما فسر بالاعتداء^(٥) وتجاوز الحدود التي رسم الله للمرء أن ينتهي إليها، فيدخل فيه التعدي على حق الله وحقوق الناس. والظلم يجمع أفراداً مناف للعدل الذي به قوام السموات والأرض، فإن الله هو العدل، وجميع آوامره وأحكامه مبنية على العدل، وأمر بالعدل، فحرّم الظلم على نفسه، ونهى الآخرين عنه.

^١ سورة الحج: ٤٢-٤٤

^٢ سورة ص: ١٢-١٤

^٣ تفسير الطبري: ١٦٠/٢١

^٤ اطر: تفسير الطبري: ٥٢٣/١-٥٢٤، وتفسير أبي السعود: ٢٦٣/١

^٥ اطر: التحرير والتنوير لاس عاشور ٤٣٣/١

ومن هنا جاء هذا الوصف ملازماً للقرى التي أهلكها الله وقطع دابرها، مما يؤذن بعلّيته للحكم الذي وقع عليهم من الله وهو الهلاك والدمار الشامل، كما في قوله تعالى: (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ)^(١). وقوله تعالى: (فَكَأَيُّ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبَنِيَّ مُعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدُ)^(٢). وقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)^(٣). وهذا في حد ذاته يبعث على الخوف والحذر من الظلم الذي يتسبب منه غضب العليّ الجبار، والانتقام ممن يصدر عنه الظلم أيّا كان. وقال تعالى في نتائج الظلم، الذي تسبب منه هلاك الأمم، التي حقّ عليها القول، وتمّ تدمير قراهم: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)^(٤). قال أبو حيان رحمه الله تعالى: "ونبه على سبب الاستئصال بذكر الوصف الذي هو الظلم، وهو هنا الكفر. والدابر التابع للشيء من خلفه"^(٥). وقال تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرْيَ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقَرْيَ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)^(٦). عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "الله لم يهلك قرية بإيمان، ولكنه يهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها، ولو كانت قرية آمنت لم يهلكوا"^(٧). وقوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ)^(٨).

ولقد أهلك الله قوم نوح عليه السلام بعد أن مكث فيهم نبيهم مدة مديدة وعمرها طويلاً يدعوهم إلى الله، فلم يؤمن به إلا قليل، ووصفهم في القرآن بالظلم الذي كان سبب هلاكهم واستئصالهم، فقال تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ

^١ سورة الأنبياء: ١١

^٢ سورة الحج: ٤٥

^٣ سورة هود: ١٠٢

^٤ سورة الأنعام: ٤٤، ٤٥

^٥ البحر المحيط لأبي حيان: ٥١٥/٤

^٦ سورة القصص: ٥٩

^٧ تفسير الطبري: ٦٠٣/١٩

^٨ سورة إبراهيم: ١٣

وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(١). وقد نعت الله قوم لوط عليه السلام بالظلم، ورَّتب الدمار الذي شملهم على ذلك فقال: (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)^(٢). يقول أبو السعود في تفسير ختام الآية: "تعليل للإهلاك بإصرارهم على الظلم وتماديهم في فنون الفساد وأنواع المعاصي"^(٣). وقال تعالى في شأنهم وشأن كل ظالم شابه عمله عمل قوم لوط: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ)^(٤).

وجعل الله سبحانه عاقبة فرعون وقومه عبرة للمعتبرين وذكرى للمتذكرين. ولذا علّق استئصالهم بالوصف الذي لازمهم عندما كانوا أحياء مترفين في هذه الأرض، وكان هذا الوصف سبب هلاكهم، وهو الظلم، فقال تعالى: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فأنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)^(٥). وأرسل الله سبحانه إلى أصحاب الأيكة شعباً عليه السلام، فكذبوه واتبعوا أهواءهم، فأرسل عليهم عذاب يوم الظلة، وجعل سبب هلاكهم اتصافهم بالظلم، كما في قوله تعالى: (وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ. فَالتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَئَامَانٍ مَبِينٍ)^(٦). وحكى الله تعالى قصة بني إسرائيل حينما بدلوا القول الذي أمرهم به عند دخولهم بيت المقدس، وغيروا الهيئة التي ألزمهم بالعمل بها حينئذ، فأنزل عليهم رجزاً من السماء بسبب ظلمهم الذي صار وصفاً ثابتاً لهم، فقال تعالى: (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ)^(٧).

٣- الاستهزاء: والمراد به السخرية من الرسل، ومما جاؤوا به من عند الله من الإيمان والأعمال والأخبار الغيبية، فالاستهزاء بها كفر صراح، وذنب عظيم. ويدل على عظم هذا الجرم أنه ذكر معلقاً بعذاب الأمم في مواضع عدة من القرآن، كما في قوله: (وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ

^١ سورة هود: ٤٤

^٢ سورة العنكبوت: ٣١

^٣ تفسير أبي السعود: ٣٨/٧

^٤ سورة هود: ٨٢، ٨٣

^٥ سورة القصص: ٤٠

^٦ سورة الحجر: ٧٨، ٧٩

^٧ سورة الأعراف: ١٦٢

فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^(١). أي: "فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزئون به، وهو الحق حيث أهلكوا من أجل استهزائهم"^(٢). وقوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)^(٣).

٤- العنوة والبطور: وذلك ما يحصل لأهل القرى عند انغماسهم في نعم الله، وتلبسهم برغد العيش وحصول الأمن، من الأشر والكبر والفخر والتطاؤل على الآخرين. وذلك بدوره يؤدي إلى الاستكبار على أهل الحق، ورفضه بصورة كلية، فيترل عليهم بسبب ذلك عذاب الله العاجل، كما في قوله تعالى: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)^(٤). أي: "وكثير من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء في الأمن، وخفض العيش، والدعة، حتى أشروا، فدمرنا عليهم، وخرّبنا ديارهم"^(٥). وقوله تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا. فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا)^(٦).

٥- الفسق: الفسق هو الخروج عن طاعة العليّ القهار بارتكاب المعاصي والفواحش والمنكرات، كما يقول الإمام الطبري: "وأصل الفسق في كلام العرب: الخروج عن الشيء. يقال منه: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها. ومن ذلك سُميت الفأرة فُوسِقَةً، لخروجها عن جحرها، فكذلك المنافق والكافر سُميا فاسقين، لخروجهما عن طاعة ربهما"^(٧). وكثيرة تلك الأمم المهلكة التي وصفها الله سبحانه بالفسق في كتابه، مما يورث الخوف والإشفاق لمن بعدهم، حذرا من ذلك المصير، الذي صاروا إليه. فالمؤمن دائما يفتش عن نفسه، ويتطلب عيوبه، بقصد التزكية والإصلاح، ويتعظ بمن سلف من الأمم، كي يتجنب الأسباب التي أوقعتهم في الهلاك والعطب. من ذلك قوله تعالى: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ

^١ سورة الأنعام: ١٠، وسورة الأنبياء: ٤١

^٢ تفسير السفي: ٤٩٢/١

^٣ سورة عاف: ٨٣

^٤ سورة القصص: ٥٨

^٥ تفسير أبي السعود، ٢٠/٧

^٦ سورة الطلاق: ٨، ٩

^٧ تفسير الطبري: ٤٠٩/١

مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ^(١). وقوله تعالى: (وَلَوْ طَآئِفَةٌ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجِيَّةً مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَاسِقِينَ)^(٢). وقد وصف الله سبحانه قوم فرعون بالفسق، الأمر الذي شجّع فرعون على الاستخفاف بهم، واستحثاثهم على الطاعة العمياء، والاعتراف له بالالوهية، فأوردهم بسبب ذلك موارد الهلاك في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ). فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ^(٣). ولما ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات مصير بعض الأمم الكافرة، كقوم لوط وعاد وثمود، وبيّن كيفية إهلاكهم وعذابهم في الدنيا، عقّب ذلك بقوم نوح عليه السلام، وأشار إلى المصير المشترك بينهم وبين تلك الأمم المذكورة قبلهم في السورة، والتي عمرت الأرض من بعدهم، وعانت فيها فسادا، وفسقا، فقال عز وجل: (وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)^(٤).

٦- النوف: والترف من الأمور التي تجرّ إلى الفسق والفجور، ومن ثمّ إلى الكفر بالله والتكذيب بالحق، الأمر الذي يجعله سببا من أسباب هلاك الأمم. وذلك حين يسبغ الله عليهم النعم الكثيرة، والمنح العظيمة، فيستعملونها في حظوظ النفس، والإسراف في التمتع، ممّا يؤدّي بهم إلى التقصير في حقّ الله، وإفساد الأرض بالفسق والمعاصي. وفي هذا يقول جلّ وعلا: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)^(٥). أي: "إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة، ويستأصلها بالعذاب أمر مترفيها أمرا قدريا، ففسقوا فيها، واشتدّ طغيانهم، فحقّ عليها القول أي: كلمة العذاب التي لا مردّ لها فدمرناها تدميرا"^(٦). وقال تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)^(٧).

^١ سورة الأحقاف: ٣٥

^٢ سورة الأنبياء: ٧٤

^٣ سورة الرحرف: ٤٤، ٥٥

^٤ سورة الذاريات: ٤٦

^٥ سورة الإسراء: ١٦

^٦ تفسير السعدي، ص: ٤٥٥

^٧ سورة هود: ١١٦

٧- فساد الأخلاق: يتمثل ذلك في قوم لوط عليه السلام، الذين انحرفوا عن الفطرة السوية، التي فطر الله عليها الناس، وذلك بامتداد التناسل البشري عن طريق التقاء الذكر والأنثى، فجاؤوا ببدعة لم يسبقهم إليها أحد، وهي اكتفاء الذكر بالذكر في قضاء الشهوة، فنهاهم عن ذلك نبي الله ووعظهم وذكرهم بالعاقبة السيئة، التي تترتب على هذه الفعل الشنيعة، والخصلة القبيحة، فلم يستجيبوا لنيهم، بل استنكروا عليه، وعابوه في هذه النصيحة، والتطهر من الرذائل، وهددوه بالإخراج من قريتهم، فجاءهم العذاب من السماء، وخسفوا بالأرض، فصاروا عبرة للمعتبرين، وعظة للموقنين. ولنتأمل في سياق الآيات حول دعوة نبيهم، وجوابهم، ثم عاقبتهم السيئة: (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ. وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَلْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)^(١).

٨- فساد المعاملة: وأما فساد المعاملة فيتمثل في مدين قوم شعيب عليه السلام، حيث كانوا يخونون الأمانة ويتركون الإنصاف في البيع والشراء بنقص الكيل والميزان، ويخس الناس أشياءهم، فأرسل الله إليهم شعيبا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله، وهجر عبادة الأصنام، إلى جانب إصلاح المعاملة والالتزام بالعدل في البيع والشراء، فلم يعجبهم ذلك، ورفضوا نصيحته، بل هددوا نبي الله بالطرده والنفي من القرية، حتى يرجع هو ومن آمن به إلى دينهم الباطل، وفسادهم الشامل. وقصة هؤلاء القوم مع نبيهم شعيب عليه السلام مفصلة في الكتاب العزيز في مواضع مختلفة. منها قوله تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ. وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)^(٢). وتمضي الآية بذكر ردهم على نبي الله شعيب، مستنكرين عليه تدخله في شؤون معيشتهم، وأمورهم الاقتصادية، متهمين به، ومستغربين أن صلاته هي التي تأمره بما يدعوهم إليه، وفي ذلك يقول المولى جل وعلا: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَافُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ

^١ سورة الأعراف: ٨٠-٨٤

^٢ سورة هود: ٨٤، ٨٥

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ^(١). والعبرة المستخلصة من هذه القصة أن الإساءة في المعاملات المالية شأنها خطير، وعاقبتها وخيمة، فإنّ من أعظم الأسباب التي نزل بهم العذاب، الذي استأصلهم في الدنيا، الإخلال بالأمانة في الكيل والميزان. وأكتفي بهذا القدر من ذكر المظاهر والأسباب للعقوبات العاجلة التي أصابت الأمم المخالفة للرسول، وهي تقتضي الترهيب من سلوك طريقهم، والتحذير من معالجتها. سائلين الله أن يجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، إنّه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

^١ سورة هود: ٨٧

المطلب الثاني: الترغيب بإنجاء الرسل وانتصارهم مع أتباعهم

كان سبب الهلاك الجماعي للأمم السابقة مخالفة الرسل. وعلى العكس فإن نجاة من نجا من القلة القليلة من تلك الأمم كان سببها اتباع الرسل، وقبول الحق الذي جاءهم من عند ربهم. وهذه سنة الله في المجتمعات والأفراد، فإنه لا يوجد معايير مختلفة عند الله في تعامله مع البشر، كما يفعله الحكام وأولياء الأمور في الجور، والحيث، والكيل بمكيالين عند الحكم بين الناس، اتباعاً للأهواء، والميل إلى الأقرباء والأصدقاء. فالناس عند الله سواسية، فمن أحسن فله الجزاء الحسن، ومن أساء فله الجزاء السيء. والله المثل الأعلى.

والحقيقة المرة التي لا مرية فيها أن جانب الترهب في أحوال الأمم السالفة أكثر من جانب الترغيب. وذلك أن المستجيبين لهداية الرسل أقل بكثير من المنكرين لها، لأن قبول ما جاءت به الرسل يستلزم مخالفة العوائد والشهوات، ومتطلبات الرفاهية ومسيرة المجتمعات. وأكثر الناس غير مستعدين لمجاهدة أنفسهم وكبح جماحها، وقصرها على ما جاءت به الرسل، كما قال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)^(١). وقد بين الله سبحانه في كتابه عن الواقع الأليم الذي مرت به الأمم سابقاً، كما تكرر به هذه الأمة حالياً. وذلك أن أكثر الناس مسترسلون في شهواتهم وعوائدهم، يؤثرون الحياة الفانية على الباقية، ويفضلون العاجل الرخيص، ويهملون الآجل الثمين. لذا كثر ضلالهم، ومخالفتهم للرسل، وتمردهم على أمر الله، وأتباعهم للشيطان، وانجرارهم وراء الشبهات، والشهوات.

وإذا تأملنا في القرآن المجيد نجد كلمة "أكثر" ترمز عند الحديث عن طبيعة البشر إلى إظهار الجوانب السلبية للإنسان في علاقته بالشرائع السماوية. وهذه الكلمة وردت في القرآن المجيد مرارا وتكرارا، فلنذكر بعض السمات السلبية التي اصطحبت هذه الكلمة في الآيات التالية: منها قوله تعالى في وصف الناس بالجهل: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)^(٢). ومنها قوله تعالى في نفي الإيمان: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)^(٣). ومنها قوله تعالى في نفي الشكر: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

^١ سورة البارات: ٤٠، ٤١

^٢ سورة الأعراف: ١٨٧، وسورة يوسف: ٢١، ٤٠، ٦٨، وسورة الحل: ٣٨، وسورة الروم: ٦، ٣٠، وسورة ساء: ٢٨، ٣٦، وسورة عاف: ٥٧، وسورة الحائية: ٢٦

^٣ سورة هود: ١٧

يَشْكُرُونَ^(١). ولما قلّت الصفات المنجية في النوع البشري قديماً وحديثاً كثّر ضلالهم، وتخبّطهم، واتباعهم للشيطان وشهوات النفس، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ)^(٢). وقال أيضاً: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)^(٣). ولقد حلف إبليس حينما أخرج من الجنة متوعداً بني آدم أنه يجتهد في وسوستهم وإضلالهم وإيقاعهم في الكفر والشرك والموبقات والمعاصي. وكان هذا ظناً منه لما اكتشف ضعف إرادة الإنسان، وقلة صبره عن الشهوات في تجربته مع آدم عليه السلام، كما حكى الله قوله: (ثُمَّ لَا تَنبَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)^(٤). وقد تحقّق هذا الظنّ في الواقع على أكثر الناس، فاتّبعوا الشيطان، وضلّوا عن الصراط المستقيم، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)^(٥). وقال الإمام الطبري: "قال ذلك عدوّ الله ظناً منه أنه يفعل ذلك لا علماً، فصار ذلك حقاً باتباعهم إياه"^(٦).

مظاهر الترغيب بحال الأمم الناجية

ذكرت فيما سبق أنّ مظاهر الترهيب بحال الأمم السالفة أكثر من مظاهر الترغيب فيها، بيد أنّ ما من أمة هلكت بعذاب الاستئصال إلا وأنعم الله على نبيّ تلك الأمة، ومن اتّبعه من المؤمنين بالنجاة من العذاب، والمتاع الحسن في الدنيا إلى انتهاء آجالهم. قال تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)^(٧).

إنّ سنة الله جرت على إنجاء الرسل وأتباعهم وانتصارهم على أعدائهم. وهذا الجزاء الحسن لم يكن من أجل ذواتهم وشخصياتهم، بل من أجل صفات كانت فيهم، ولم تكن موجودة فيمن هلك، أو ذاق شرّ الهزيمة. لذا قصّ الله تبارك وتعالى علينا في القرآن قصص أولياء الله

^١ سورة البقرة: ٢٤٣

^٢ سورة الصافات: ٧١

^٣ سورة العنكبوت: ٥٠

^٤ سورة الأعراف: ١٧

^٥ سورة ساء: ٢٠

^٦ تفسر الطبري: ٣٩٢/٢٠

^٧ سورة هود: ١١٦

وأعدائه، الذين سبقونا في هذه الحياة، وكيف أهلك هؤلاء وخذلهم، ونصر هؤلاء وأنجاهم من سوء العذاب. والله الحكمة البالغة في جميع أفعاله.

ومن هنا أردت استخلاص العبر والعظات من قصصهم فيما يخصّ الترغيب في أعمالهم الصالحة، وصفاتهم الطيبة، والتي كانت سببا لنجاتهم من العقوبات التي أحاطت بغيرهم. وفيما يلي ذكر لأهم تلك الصفات التي اقترنت بنجاة أولياء الله وانتصارهم على الأعداء، الأمر الذي يقتضي الترغيب فيها لمن أرد النجاة من العذاب والنصر على الأعداء:

١- **تحقيق الإيمان:** ويشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهذه الصفة اشترك فيها الرسل وأتباعهم من قدم الزمان وحديثه. فالطريق إلى الله بدايته الإيمان بالله وتعظيمه بما له من صفات الكمال ونعوت الجلال، فمن تحقق بالإيمان سهل له استكمال خصال الإيمان في القلب واللسان والجوارح. ولما كان الإيمان بهذه المكانة في الدين علّق الله به نجاة الأمم، وحصولها على الأمن والرخاء والنصر والتمكين والهداية إلى الصراط المستقيم. كما في قوله: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)^(١). وقوله: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)^(٢). فالإيمان هو السمة البارزة في الأمم التي نجّاهم الله من عذاب الاستئصال، ومتّعتهم إلى حين، ووعدهم بالفوز في الدارين. ومن هنا فلقد نجّى الله تعالى نبيه لوطا، ومن آمن به من أهله بسبب الإيمان الذي لازموه، كما في قوله: (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)^(٣). ولما علم قوم يونس مخايل العذاب بادروا إلى الإيمان، فنجّاهم الله من عذاب الاستئصال، كما في قوله تعالى: (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤُسُّ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)^(٤). و نجّى الله تعالى نبيه هودا عليه السلام، والمؤمنين معه من عذاب الاستئصال، الذي حلّ بشمود، كما في قوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)^(٥). وقال

^١ سورة الأنعام: ٨٢

^٢ سورة الأعراف: ٩٦

^٣ سورة الداريات: ٣٥، ٣٦

^٤ سورة يونس: ٩٨

^٥ سورة هود: ٥٨

تعالى في وعده الجازم بالانتصار لأهل الإيمان: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)^(١). وفيما أوردته من القصص في نجاة أهل الإيمان ترغيب لهذه الأمة في التحقق بهذه الصفة، والملازمة لها، ليحصل لهم ما حصل للأمم التي سبقتهم في الحياة، وسعدت بالإيمان الكامل في الدنيا والآخرة.

٢- التقوى: فالتقوى هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهي من أهم العوامل التي تجلب النصر، وتنجي من غضب الله وعقابه، في الدنيا قبل الآخرة. ومن تحقق بالتقوى في حياته فقد تعرض لرحمة الله، وضمن النصر على الأعداء، وتحصن من العقاب، والبلاء في هذه الدنيا. ولما أعلن الله سبحانه هلاك ثمود وتدميرهم أعقب ذلك بنجاة المتقين، فقال عزّ من قائل: (وَأُنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)^(٢). وفي هذا ترغيب في التقوى التي يجب أن يتصف بها المؤمنون أفراداً وجماعات، كي يضمنوا النجاة من العقوبات، والانتصار على الأعداء.

٣- نصرة الدين والنهي عن الفساد في الأرض: فالنصرة لدين الله المشتعلة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء إلى الله تعالى بجميع الوسائل المباحة والممكنة، ابتغاء رضوان الله، ورجاء ثوابه من أقوى الأسباب في الحصول على المطالب السنية، والنجاة من المعاطب الدنية في الدنيا والآخرة. ولقد حكى الله تعالى في القرآن المجيد قصة أهل القرية المجاورة للبحر، والتي انقسم الناس فيها إلى ثلاثة أقسام، قوم خالفوا أمر الله، فاصطادوا السمك يوم السبت الذي منعوا فيه الاصطياد، وقوم لم يصطادوا وسكتوا عن نهي المعتدين، وآخرون قاموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأنكروا على المعتدين، وحذروهم من عقاب الله وشديد عذابه، فأخبر الله عن إهلاك المعتدين في السبت، ونجاة الذين هتوا عن سوء، فقال عزّ من قائل: (فَلَمَّا تَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)^(٣). وقال تعالى في أمر الذين ينهون عن الفساد في الأرض، فنجاهم الله من عذابه، حين أخذ من كان مقيماً على الكفر بالله، وهم أتباع الأنبياء والرسل: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ

^١ سورة الروم: ٤٧

^٢ سورة المل: ٥٣

^٣ سورة الأعراف: ١٦٥

وَكَاثُوا مُجْرِمِينَ^(١). ولما جاء عيسى إلى بني إسرائيل، وطلب منهم أن يناصروه في تبليغ دينه استجاب الحواريون لهذه الدعوة، وقبلوا هذا العرض المبارك، فقالوا: نحن نكون أنصارا لله، فأمنت طائفة من بني إسرائيل بدعوة عيسى عليه السلام، وكفرت طائفة أخرى، فنصر الله المؤمنين، وأعطاهم الغلبة على الكافرين، وذلك بسبب قيامهم بالدعوة ونصرتهم للدين. وفي ذلك يقول المولى جلّ وعلا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ^(٢)). وفي هذا ترغيب للأمة في نصره دين الله، ليحصل لهم ما حصل لمن سبقهم من النجاة والسعادة في الدارين.

٣- الفوف من الله: والخوف من الله صفة مؤهلة للخلافة في الأرض والتمكين فيها، ينصر الله بها عباده، ويديلمهم على أعدائهم، ويجعلهم وارثين للأرض، التي كان يعمرها الكفار، بعد تطهيرهم منها بالهلاك والدمار. وقد سجّل الله سبحانه في كتابه ذلك الحوار، الذي جرى بين الرسل وبين المعاندين لهم في سورة إبراهيم، في حين هدّد الكفار الرسل بطردهم من الأرض، أو إجبارهم على الدخول في ملتهم، فكذبهم الله تعالى، ولم يتمكنوا من تنفيذ الوعيد، بل وعد الله الرسل وأتباعهم بوراثة الأرض بعد إهلاك الظالمين فيها، ثم أشار إلى أنّ هذا النصر يستحقّه من خاف لقاء الله يوم القيامة وخشي وعيده، وامثل أوامره، واجتنب نواهيه. قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ. وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ^(٣)).

٤- الصبر ولما انتقم الله من فرعون وقومه، وأهلكهم بالغرق في اليمّ، بسبب تكذيبهم لآيات الله وغفلتهم عنها حكم بوراثة الأرض لبني إسرائيل لما اتصفوا به من الصبر على أحكام الله الشرعية والقدرية، فقال تعالى: (وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَظْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي

^١ سورة هود: ١١٦

^٢ سورة الصف: ١٤

^٣ سورة إبراهيم: ١٣-١٥

بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ^(١).

٥- السلام: والصالح ضد الفساد، والصالح: المستقيم الحال في نفسه، والقائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد^(٢). فمن التزم بطاعة الله في امتثال الأوامر واجتناب النواهي، فهو الصالح الذي استحقَّ النجاة من المكروه والحصول على المرغوب، والنصر على الأعداء، والتمكين في الأرض. والصالح صفة الأنبياء كما وصفهم بذلك القرآن الكريم، لأنهم هم القدوة في استقامة الأعمال وطهارة النفس، وأداء حقوق الله وحقوق العباد، كما في قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)^(٣). وقوله تعالى عن زكريا عليه السلام: (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ)^(٤). وقوله تعالى عن عدد من الأنبياء عليهم السلام: (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ)^(٥).

ومن هنا كان الصالح من أعظم أسباب النجاة من الهلاك، والنصر على الأعداء، والتمكين في الأرض، والسعادة في الدنيا والآخرة، مما يكون ترغيباً للأمة في الحرص على ملازمته، ومحاولة الاتصاف بها. وقد وصف الله الناجين من القرى المهلكة من الأنبياء وغيرهم بالصالح. ومن ذلك قوله تعالى عن لوط وأهله: (وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)^(٦). وقوله تعالى عن يونس عليه السلام وإنجائه من بطن الحوت: (لَوْ لَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)^(٧). فكان صلاحه سبباً لإنجائه من بطن الحوت. وأخبر الله تعالى في كتابه أن القرى التي أهلكت كان السبب في هلاكها انتفاء الصلاح في أهلها، فلو كانوا صالحين لما أصابهم ما أصابهم من الخزي والنكال. وفي ذلك يقول المولى جل وعلا:

^١ السورة الساقية: ١٣٧

^٢ انظر: الكليات للكموي، ص: ٥٦١

^٣ سورة البقرة: ١٣٠

^٤ سورة آل عمران: ٤٦

^٥ سورة الأنبياء: ٨٦

^٦ سورة الأنبياء: ٧٥

^٧ سورة ن: ٤٩، ٥٠

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)^(١). كما نبّه الله سبحانه على أن الإصلاح من أهم شروط التمكين في الأرض، فإذا توفر في أمة، والتزمت به أئمتها الله تعالى بوراثته الأرض، والتصرف في مقاليدها، وهذه سنته الجارية في جميع الأمم وسائر الأمكنة، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)^(٢). وقد حفظ الله لليتيمين كثرهما بسبب صلاح أبيهما، مما يدل على أهمية الإصلاح، وأثره العظيم في سعادة الدنيا والآخرة. قال تعالى في قصة موسى والخضر: (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)^(٣).

وإلى هنا انتهى ما أردت إيراده في هذا الفصل، الذي تناولت فيه أهمية قصص الأنبياء في القرآن الكريم، لما لها من الفوائد الجمّة، والحكم المفيدة، كما تعرّضت فيه أيضا لبيان العلاقة بين الرسل وأممهم في القرآن الكريم، مع توضيح تحذير الرسل أئمهم من عقاب الله وغضبه، وترغيبهم في ثواب الله ورضاه، في حين بيّنت أوجه الترغيب والترهيب في قصص الأمم الهالكة والناجية ممن كان قبلنا. هذا، وأرغب إلى الله تعالى أن يختم بالصالحات أعمالنا، وينجّنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

^١ سورة هود: ١١٧

^٢ سورة الأنبياء: ١٠٥

^٣ سورة الكهف: ٨٢

الفصل الرابع

الترغيب في الطاعات والترهيب من المعاصي

وفيه تمهيد وخمسة مباحث:

التمهيد: أهمية الترغيب في الطاعات والترهيب من المعاصي

- ١ - الترغيب في الإيمان والترهيب من الكفر
- ٢ - الترغيب في الصلاة والترهيب من إضاعتها
- ٣ - الترغيب في نصرة الدين والترهيب من خذلانه
- ٤ - الترغيب في الإنفاق والترهيب من البخل
- ٥ - الترغيب في صلة الرحم والترهيب من قطيعتها

تمهيد: أهمية الترغيب في الطاعات والترهيب من المعاصي

الأصل في الترغيب والترهيب إثارة عاطفة حبّ المنافع والمصالح العاجلة والآجلة، وتحريك الوجدان نحو كراهية المضرات والمفاسد في الدنيا والآخرة. فالأولى يتولّد منها الرغبة والشوق والميل إلى ما يراه الإنسان نافعا، والثانية يتولّد منها الرهبة والخوف والحذر مما يراه المرء مضراّ له في عاجل أمره أو آجله. ومن هنا يعلم أن مجرد إثارة العواطف وتحريك الوجدان في الرغبة والرهبة لا يجدي شيئا، ما لم ينتفع العبد بأثر ذلك متمثلا في الأعمال، إمّا أعمال يقوم بها العبد ويفعلها، أو أعمال يكفّ عنها ولا يفعلها. فالأولى نتيجة الترغيب، والثانية نتيجة الترهيب، فصار الدين كله قائما على الترغيب والترهيب، لأنّ الدين إما فعل يقوم به العبد رجاء الثواب عليه، وإما ترك عمل يكفّ عنه خوفا من العقاب المترتب عليه.

لذا مدح الله سبحانه الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم بعبادتهم لله رغبا ورهبا، وهي منزلة عالية، ومكانة مرموقة، يتبوّؤها الرسل وأتباعهم، كما قال تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)^(١). أي: "أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله. "ورهباً"، يعني رهبة منهم من عذابه وعقابه، بتركهم عبادته وركوبهم معصيته"^(٢). ويكون الترغيب في الطاعات بذكر ما للعبد من المنافع، والمصالح، العاجلة والآجلة، إذا التزم بالطاعة، وقام بالعمل الواجب. أمّا الترهيب من المعاصي فيتمّ من خلال ذكر العقوبات، وفوات المصالح، وحصول المفاسد، التي تترتب على فعل العمل المحرم، أو ترك العمل الواجب.

وقد تقرّر أنّ من فقد الرغبة والرهبة في الالتزام بالدين، فقد يصاب برقة الدين أو الانسلاخ عنه، وذلك إمّا أن يترك أعمال الدين بالكليّة، فلا يصلي ولا يصوم ولا يزكي، وإمّا أن تتحوّل أعماله الدينية إلى عادات وتقاليد، خالية من روح الإخلاص والاحتساب، يقيمها إرضاء للمجتمع الذي يعيش فيه، فلا يرجو في طاعته ثوابا ولا يخاف في تركها عقابا.

ولما كانت نصوص الترغيب والترهيب تحمل في طياتها بشارات وتحذيرات، ووعدا ووعدا ليس في وسع الإنسان إدراك كنهها في الحياة الدنيا لزم الإيمان بالغيب الذي يُدرك به دقائق هذه

^١ سورة الأنبياء: ٩٠.

^٢ تفسير الطبري: ٥٢١/١٨.

البشارات والتحذيرات. وقد أوضح الإمام الطبري المراد بمن آمن بالغيب قائلا: "إنما هم الذين يؤمنون بما غاب عنهم من الجنة والنار، والثواب والعقاب والبعث، والتصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله، وجميع ما كانت العرب لا تدين به في جاهليتها، مما أوجب الله جل ثناؤه على عباده الدينونة به دون غيرهم"^(١). ولولا الإيمان بالغيب لما انتفع الإنسان بنصوص الترغيب والترهيب. وذلك أن تأويل هذه النصوص لا يظهر إلا عند انكشاف الغيب للناس وظهور الحقائق التي أخبرت بها الرسل. وتنكشف بوادره حين يحضر المرء سكرات الموت، وما يأتي بعده من معاينة الملائكة وسؤال الملكين وما إلى ذلك من أحداث القيامة التي يشيب لها الولدان.

ومن هنا افترق أمر الرسل عن أمر الفلاسفة، المهتمين بالعقليات، فإن الرسل تبشّر وتحذّر أممها في أمور يصعب إدراكها بالعقل المجرد، وهي أمور غيبية خارجة عن عالم المحسوسات والماديات، بينما الفلاسفة يدندنون حول المحسوسات والماديات، والنتائج التي تستخلصها عقولهم من التجارب المرئية والمشاهدات المادية. ومما يدلّ على حقيقة ما جاءت به الرسل من أمر الغيب قول النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر نعم الجنة، التي لا يمكن تصوّرها في عالم العقول والحواس: «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»^(٢).

ولا يعني ذلك أنني أقلل من قيمة العقل والفكر الإنساني في فهم الأمور الدينية، إنما الذي أريد التنبيه عليه هو أن العقل ليس بإمكانه أن يستقلّ بالإحاطة بالمغيبات على حقيقتها، وإنما دوره فهم ما جاءت به الرسل عليهم السلام، وتطبيقه في واقع الحياة، والتوفيق بين ذلك وبين بقية نشاطات الإنسان، والله الموفق للصواب.

^١ تفسير الطبري: ٢٣٨/١

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧٥)، كتاب الحة وصفة نعيمها وأهلها عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه بلفظه.

البحث الأول:

الترغيب في الإيمان والترهيب من الكفر

ويشمل عدة مطالب كالآتي:

- ١ - مفهوم الإيمان لغة وشرعا
- ٢ - الترغيب في الإيمان بنصوص القرآن
- ٣ - مفهوم الكفر لغة وشرعا
- ٤ - الترهيب من الكفر بنصوص القرآن

المطلب الأول: مفهوم الإيمان لغة وشرعا

الإيمان لغة وشرعا

هذه المادة تدور على معنيين متقاربين، أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والثاني: التصديق. تقول: أَمِنَ أَمْنًا وَأَمَانًا وَأَمْنَةً: اطمأنّ ولم يخف. فهو أَمِنٌ وَأَمِينٌ وَأَمِينٌ. وفي القرآن: (هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ)^(١). ويقال في المزيد منه بـهمزة في أوله: آمَنَ إِيْمَانًا أَي: صَارَ ذَا أَمْنٍ، وآمن به: وثق وصدّقه، وفي التَّنْزِيلِ: (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)^(٢). أي: وما أنت بمصدق لنا في قولنا^(٣).

واختلف أهل القبله في مسمى الإيمان الشرعي، فذهب جمهور الفقهاء من الأئمة الثلاثة وغيرهم، وسائر أئمة الحديث، وأهل الظاهر، وجماعة من المتكلمين: إلى أنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان. وذهب الأحناف إلى أن الإيمان: هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان. وذهب الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط. وذهب الجهمية إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب^(٤). وقال ابن القيم في محتويات الإيمان الشرعي: "وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول علما، والتصديق به عقدا، والإقرار به نطقا، والانقياد له محبة وخضوعا، والعمل به باطنا وظاهرا، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان. وكمال له في الحب في الله، والبغض في الله، والعطاء لله والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده. والطريق إليه تجريد متابعة رسوله ظاهرا وباطنا وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله"^(٥).

^١ سورة يوسف: ٦٤

^٢ سورة يوسف: ١٧

^٣ انظر: تفسير الطبري ٢٣٥/١، ومعجم مقاييس اللغة لاس فارس ١٣٣/١، والصحاح للحواري: ٢٠٧١/٥، والمعجم الوسيط: ٢٨/١

^٤ انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٤٥٩/٢-٤٦٠، لمحمد بن علي المعروف بـأبي العر الحمي، الدمشقي، ط: العاشرة، مؤسسة الرسالة-بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد الله بن المحسن التركي. والانتصار في الرد على المعتزلة القدريّة الأشرار: ٧٣٦-٧٣٧، ليجي بن أبي الخير اليمعي الشافعي، ط: الأولى، أصواء السلف، الرياض - المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م. التحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف.

^٥ الفوائد، ص: ١٠٧، لاس قيم الحورية، ط: الثانية، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

المطلب الثاني: الترغيب في الإيمان بنصوص القرآن

الترغيب في الشيء يتم عن طريق ذكر فوائده ومنافعه العاجلة والآجلة. ولما كان الإيمان من أهم ركائز الدين، وبحصوله يدخل المرء في الإسلام، وتثبت له أحكامه في الدنيا والآخرة، وبانتفائه يخرج من الملة، ويستحق أحكام الكفر فيهما وردت في حقه آيات عديدة في الترغيب فيه والتشويق إلى تحصيله. وفيما يلي ذكر لما وعد الله به أهل الإيمان، مما يؤذن بالترغيب فيه:

١- الفوز الأكبر والأجر الأعظم لأهل الإيمان. وذلك بدخولهم الجنان، والخلود فيها، وجوار الرحمن، وتمتعهم بشتى النعم النفسية والجسدية من مأكّل ومشرب ومنكح. ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)^(١). وقوله تعالى في وعد أهل الإيمان بدخول الجنان، وتكفير السيئات، ونعت ذلك بالفوز العظيم: (لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا)^(٢). وقوله تعالى في تفاصيل النعم التي أحرزوها. وذلك بإزاحة الخوف والحزن عنهم، وتبشير الملائكة لهم بدخول الجنة، مع أزواجهم فرحين مسرورين، وطواف الولدان عليهم بأنواع فاخرة من الأواني المملوءة بالأطعمة، وأكواب مترعة بالأشربة: (يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ. ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ. يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ)^(٣). فالإيمان ما وفر في الجنان، والإسلام ما ظهر في الجوارح.

٢- رضوان الله عن أهل الإيمان: فالحصول على رضوان الله أعظم جائزة يظفر بها أهل الإيمان، وإن رضا الله درجة عظيمة بشر الله بها أهل الإيقان، فهي أعظم عندهم من بقية نعم الجنة، حيث إن الجنة من غير رضوان الله فيه احتمال حلول سخط الله عليهم مستقبلا، أما الحصول على الرضوان الأبدي للمؤمنين، ففيه الأمن من سخط الله تعالى، وأن لا يُردّ لهم طلب مهما عظم،

^١ سورة النساء: ١٤٦

^٢ سورة الممتح: ٥

^٣ سورة الرحمن: ٦٨-٧٣

كما يشير إليه الحديث التالي: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ قِيُولُون: لَيْتَكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ قِيُول: هَلْ رَضِيْتُمْ؟ قِيُولُون: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبَّ وَقَدْ أَغْطَيْتَنَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، قِيُول: أَلَا أُعْطِيْكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ قِيُولُون: يَا رَبَّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قِيُول: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١). ومن الآيات التي فيها إثبات رضوان الله تعالى لأهل الإيمان قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَذْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٢).

٣- النجاة من العذاب الأليم: من النعم التي امتنَّ الله بها على المؤمنين أنه بجانب إنعامهم بدخول الجنات، فقد أنعم عليهم بالنجاة من العذاب المهين، المحيط بالكافرين والمنافقين. والتَّعْمَةُ يعظم قدرها، وتظهر قيمتها إذا قورنت بما يضادها تماما، وبضدها تتميز الأشياء. لذا يرى أهل الجنة أهل النار معذَّبين في الجحيم، لتعظم في أعينهم النعمة التي هم فيها، فيتجدد شكرهم على الدوام والاستمرار. ومن الآيات الدالة على أن من ثواب الإيمان النجاة من النار وأهوالها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)^(٣).

٣- النجاة من عذاب الاستئصال، وكشف الكرب والشدائد: فالإيمان ينفع صاحبه في هذه الدنيا قبل الآخرة، فالجماعة التي آمنت بالرسول من الأمم السالفة نجَّها الله من ذلك العذاب الشديد، الذي أحاط بالمكذَّبين، واستأصل شأفتهم، كما في قوله تعالى: (ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ)^(٤). وقوله تعالى: (فَتِلْكَ يَبُوءُ لَهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَأَلْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)^(٥). وكذاك الإيمان يكون وسيلة

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (١٥١/٩)، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه لفظه. ومسلم في صحيحه (٢١٧٦/٤)، كتاب الجنة وصمة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضا لفظه.

^٢ سورة التوبة: ٧٢

^٣ سورة الصف: ١٠، ١١

^٤ سورة يونس: ١٠٣

^٥ سورة المل: ٥٢، ٥٣

لأنكشاف الكرب والشدائد، التي تغشى صاحبه في خضم هذه الحياة، كما في قوله تعالى: (فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ)^(١). قال السعدي رحمه الله تعالى: "وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن، وقع في شدة وغم أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه، ويخفف، لإيمانه كما فعل بيونس عليه السلام"^(٢).

٤- الانتصار على الأعداء والتمكين في الأرض: إذا تحقق الإيمان، واكتمل عند المؤمنين؛ فإن نتائجها تظهر في الدنيا، فينتصرون على الأعداء، ويظفرون بمعية الله وتأييده؛ فيمكن لهم في الأرض، يتصرفون فيها، ويطبّقون أحكام الشرع فيها، كما حصل لسلف هذه الأمة، فعندما تحقّقوا بالإيمان استحَقُّوا وعد الله في كتابه العزيز، فصاروا رعاة الأمم، بعد أن كانوا رعاة الغنم والإبل. ومما يدلّ على ذلك قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)^(٣). وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)^(٤). وقوله تعالى: (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)^(٥).

٥- الحياة الطيبة، والرخاء والأمن: وفسرت الحياة الطيبة بالرزق الطيب الحلال، أو العيش في الدنيا مع القناعة، أو السعادة^(٦). والرخاء هو حصول بركات الأرض والسماء، فيترل المطر من السماء عند حاجة الناس إليه، وتنبت الأرض ما يكون متاعاً للناس وللأنعام، فتزدهر الحياة، ويكون عيش الناس رغيداً سعيداً. أما الأمن فهو عصب الحياة ومصدر الاطمئنان، فإذا لم يكن عند الإنسان أمن، فلا يستفيد من النعم الباقية، كما في الحديث الشريف: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا

^١ سورة الأنبياء: ٨٨

^٢ تفسير السعدي، ص: ٥٣٠

^٣ سورة البور: ٥٥

^٤ سورة الحج: ٣٨

^٥ سورة الصف: ١٣

^٦ انظر: تفسير الطبري ١٧/٢٩٠، وما بعدها.

فِي سِرِّهِ^(١) مُعَافَى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا^(٢). ومن الآيات الدالة على أن الإيمان الحقيقي واليقين الكامل سبب للحصول على هذه النعم قوله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٣). وقوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)^(٤). وقوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)^(٥).

٦- ولاية الله ومحَبته وعونه: فمن تولاه الله سبحانه فقد أحبه وأعانه في مشاكله واهتماماته، ووفقه لما يحبه ويرضاه. وهذه الولاية لمن تحقق بالإيمان، ولزم طاعة الرحمن، فلا يخاف مما يستقبله من المخاوف والمهالك في الآخرة، ولا يحزن لما فاتته من أمور الدنيا، كما في قوله تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)^(٦). ومما يدل على ذلك قوله تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٧).

٧- تكفير السيئات ومغفرة الذنوب: الإنسان معرض للذنوب والمعاصي، لكن الله تعالى بفضله ورحمته هباً له أسبابا كثيرة لتكفير السيئات ومحو الذنوب. ومن أعظم هذه الأسباب تحقيق الإيمان، كما وردت في ذلك آيات عديدة، منها قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

^١ "الكسر أي في نفسه، وفلان واسع السرب أي رحي النال". شرح المشكاة: ٣٢٩٢/١٠، المسمى بالكاشف عن حقائق السس لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، ط: الأولى، مكتبة برار مصطفى البار - مكة المكرمة، الرياض، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م. التحقيق: د. عبد الحميد هداوي.

^٢ أخرجه الترمذي في سسه: (٥٧٤/٤)، كتاب الزهد، باب ندون تسمية، عن سلمة بن عبد الله بن محصن الخطمي، عن أبيه، رضي الله عنه لفظه، وقال: حديث حسن عريب، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي. وابن ماجة في سسه (٢٥٣/٥)، باب القناعة، كتاب الزهد، عن سلمة بن عبد الله بن محصن الأنصاري عن أبيه أيضا لفظه إلا أن فيه تقدما وتأخرا. وقال شعيب الأرناؤوط محقق الكتاب: حسن مجموع شواهد.

^٣ سورة الحل: ٩٧

^٤ سورة الأنعام: ٨٢

^٥ سورة الأعراف: ٩٦

^٦ سورة يونس: ٦٢، ٦٣

^٧ سورة القرة: ٢٥٧

لَنَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ^(١). وقوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)^(٢).

٨- الهداية الربانية والتوفيق الإلهي: فالمؤمنون موعودون من ربهم بالهداية الكاملة إلى الصراط المستقيم، ينير لهم الطريق ليفرقوا بين الحق والباطل، ويهتدون في مواطن الاختلاف إلى الحق والصواب، كما يتم توفيقهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، فقلوبهم ونواصيهم بيد الله تعالى، ومن يهد الله فهو المهتدي. ومن أعظم وسائل الهداية تحقيق الإيمان بالله تعالى، كما في قوله: (فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)^(٣). وقوله تعالى: (وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)^(٤). وقوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)^(٥).

٩- الحفظ من الشيطان وسوسته: الشيطان عدو الإنسانية، يودّ شقاءها، ويحبّ ضلالتها، ويتمنى أن تدخل معه نار جهنم. ولما كان الشيطان حريصاً على إضلال العباد، بالرغم من أننا لا نراه بأعيننا أمرنا الله سبحانه بأن نتخذة عدواً، ونحترز منه، ومن خطواته، التي من اتبعها ضلّ وغوى. وذلك من خلال التمسك بالإيمان وتحقيقه، والالتجاء إلى الله، والتضرّع إليه في الاستعاذة منه ومن كيده. وقال تعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)^(٦). وقد أخبر المولى جل وعلا أن الشيطان لا يتسلط على المؤمنين، ولا تنفذ فيهم وسوسته ومكائده، لتسلّحهم بسلاح الإيمان، وتدرّجهم بدرج التوكل والتقوى، كما في قوله تعالى: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)^(٧). قال الشوكاني: "فإن الإيمان بالله والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم، وإن وسوس لأحد منهم لا تؤثر فيه

^١ سورة العنكبوت: ٧

^٢ سورة المائدة: ٦٥

^٣ سورة الققرة: ٢١٣

^٤ سورة الحج: ٥٤

^٥ سورة الكهف: ١٣

^٦ سورة فاطر: ٦

^٧ سورة الحل: ٩٩

وسوسته. وهذه الجملة تعليل للأمر بالاستعاذة^(١). وقد حلف الشيطان بعد الحكم بطرده من رحمة الله أنه سيحرص كل الحرص على إغواء الإنسان وتزيين الكفر والمعاصي له، وقال: (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)^(٢).

١٠- الانتفاع بالذكرى والترغيب والترهيب: التذكير موجه إلى قلوب العباد، كي تتأثر بالموعظة، فتزداد إيماناً وهدى، ويحصل لها الوجل والخشية، فترغب في الخيرات، وتترجر عن المنكرات، لكن الانتفاع بهذه الذكرى مشروط بالإيمان، فمن لم يتحقق بالإيمان نبا قلبه عن الموعظة، ولم يحصل التأثير المطلوب الذي يتبعه العمل. وهناك آيات عديدة تؤكد على ذلك، كما في قوله تعالى: (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)^(٣). وهذا يدل على أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن الذي معهم من الإيمان والخشية والإنابة، يوجب لهم الانتفاع بالذكرى، وأن تقع الموعظة منهم موقعها، وأما الذي ليس معه إيمان فلا ينتفع بالتذكير، بمثلة الأرض السبخة، التي لا يفيدها المطر شيئاً^(٤). وقال تعالى في انتفاع المؤمنين بهداية القرآن، وعدم انتفاع غيرهم بذلك: (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)^(٥). وقال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)^(٦). وهذه الآية تدل على أن من صفات المؤمنين عند سماعهم لذكر الله، أو القرآن وجل القلوب، وازدياد الإيمان، مما يؤكد على تأثرهم بالتذكير، وانتفاعهم بذلك في العلم والعمل، والله الموفق للصواب.

^١ فتح القدير للشوكاني: ٢٣٢/٣

^٢ سورة الحجر: ٣٩

^٣ سورة الداريات: ٥٥

^٤ انظر: تفسير السعدي، ص: ٨١٣

^٥ سورة فصلت: ٤٤

^٦ سورة الأفعال: ٢

المطلب الثالث: مفهوم الكفر لغة وشرعا

الكفر: مصدر الفعل الثلاثي: كَفَرَ يَكْفُرُ كُفْرًا وَكُفْرَانًا. وأصل الكُفْر: التغطية على الشيء والستر له. ويقال للزارع كافر، لأنه يغطي الحبّ بتراب الأرض. وَتَكْفَرُ الرجل بثوبه، إذا اشتمل به. وَتَكْفَرُ فِي السَّلَاحِ، إِذَا دَخَلَ فِيهَا، يَغْنِي الدَّرْعَ وَمَا أَشْبَهَهَا. وَكَفَرَ فلان النعمة كُفْرًا وَكُفْرَانًا فهو كَفُور. وَكَفَرَ التَّعْمَةَ وَكُفْرَانُهَا: سترها بترك أداء شكرها. والكُفْر: ضدّ الإسلام، فكأن الكافر غطى على قلبه بظلمة الكفر^(١).

ومن تعريفات العلماء للكفر شرعا قول ابن حزم^(٢): "هو في الدين صفة من جحد شيئا مما افترض الله تعالى الإيمان به بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه بقلبه دون لسانه أو بلسانه دون قلبه أو بهما معا أو عمل جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان"^(٣). وقول السبكي^(٤): "التكفير حكم شرعي سببه جحد الربوبية أو الوحدانية أو الرسالة أو قول أو فعل حكم الشارع بأنه كفر وإن لم يكن جحدا"^(٥). وحقيقة الكفر: الجحد أو التكذيب أو الإنكار لما أخبر به الرسول صَلَّى الله عليه وسلم، مما كان متواترا أو علم من الدين بالضرورة أو كان مجمعا عليه. وكذلك الأقوال والأفعال التي حكم الشارع بأنها كفر وإن لم يكن فيها جحد أو إنكار.

^١ انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٧١٤، وما بعدها، وجمهرة اللغة لاس دريد: ٧٨٦/٢، وما بعدها، ومعجم مقاييس اللغة لاس فارس: ١٩١/٥، وما بعدها.

^٢ الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حرم الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القرطبي، الفقيه الحافظ، المتكلم، الأديب، الورير، الظاهري. وكان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستسطاً للأحكام من الكتاب والسنة. انتقل إلى مذهب أهل الطاهر بعد أن كان شافعي المذهب. وكان متحرراً في النقل، عديم النظير على يس فيه، وحرط طاهرية في العروع لا الأصول. وكان متمسكاً في علوم حمة، عاملاً بعلمه، راهداً في الدنيا بعد الرياسة. ومن تصانيفه: "الإحكام في أصول الأحكام"، و"الفصل في الملل والأهواء والنحل"، و"كتاب المحلى بالآثار". توفي سنة ست وخمسين وأربع مائة. انظر: سير أعلام السلاء للدهي ١٨/١٨٤، وما بعدها، وفيات الأعيان لاس حلكان: ٣/٣٢٥، وما بعدها.

^٣ الإحكام في أصول الأحكام: ١/ ٤٩-٥٠، لاس حرم الطاهري، ط: دار الآفاق الحديدة، بيروت. التحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر.

^٤ العلامة تقي الدين علي بن عبد الكافي الأنصاري السبكي. الإمام الفقيه المحدث الحافظ المعسر الأصولي المتكلم الحوي اللعوي الأديب، تبحر الإسلام بقية المتهدين. وله مصنفات حليلة، منها الدر العظيم في تفسير القرآن العظيم، وتكملة شرح المهدد للووي، والانتهاج في شرح المهاج. والتحقيق في مسألة التعليق، ورفع الشقاق في مسألة الطلاق، والسيف المسلول على من سب الرسول، والاعتبار بمقاء الحمة والبار. توفي سنة ست وخمسين وسعمائة. انظر: حسن المحاصرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي ١/٣٢١، وما بعدها.

^٥ فتاوى السبكي: ٢/٥٨٦، لتقي الدين السبكي، ط: دار المعارف، بيروت- لبنان.

المطلب الرابع: الترهيب من الكفر بنصوص القرآن

لا يخفى على أحد أن الترهيب من أمر ما يتم من خلال ذكر مخاطره ومضارّه العاجلة أو الآجلة. فالكفر يضادّ الإيمان، ويهدم الإسلام، وأكبر مضارّه الخلود في النيران، والحرمان من الجنان. ولما كانت مخاطره عظيمة، ومضارّه كبيرة، وخسارته جسيمة، بحيث لا تنجبر ولا تُعوّض، حذّر المولى جلّ وعلا من الكفر أيما تحذير، وبَيّن مخاطره في كتابه تبياناً شافياً، الأمر الذي يستوجب ذكر مخاطره، وبيان مضارّه، لينتبه العبد من ذلك، فيحذر ويهرب منه، ومن الأعمال المؤدية إليه، وخاصة في زمن الفتن، الذي أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عنه بسرعة انتشار الكفر بين أهل الإيمان، مع خفاء معالمة بين الناس، فقال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(١). ونذكر هذه المخاطر في ضوء الآيات القرآنية، على النحو التالي:

١- الخلود في النار: فمن كفر بالله تعالى استوجب دخول النار والخلود فيها أبد الآباد، ولما كانت نتيجة الكفر الخلود في النيران حقّ على العبد أن يخافه ويحذر منه. ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٢). وقوله تعالى: (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا ثُرَابًا أِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٣).

٢- العذاب في الدنيا: وهذه نتيجة حتمية لمن كفر بالله، وعاند رسله بعد الإنذار والإمهال، فعذاب الاستئصال كان يحقّ بالأمم السابقة، أمّا الأمة المحمدية، فمن كفر منهم عذب بأيدي المؤمنين عن طريق الجهاد والقتال، وأصيبوا بالهزيمة والخذلان. ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)^(٤). وقوله تعالى: (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)^(٥). أي: "بالهزيمة والقتل، واستيلاء

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (١١٠/١)، كتاب الإيمان، باب الحث على المداورة بالأعمال قبل تطاهر العن، عن أبي هريرة رضي الله عنه لفظه.

^٢ سورة البقرة: ٣٩

^٣ سورة الرعد: ٥

^٤ سورة الأنفال: ٥٢

^٥ سورة التوبة: ٢٦

المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم. وذلك جزاء الكافرين: يعذبهم الله في الدنيا^(١). وقد يكون عذاب الكفار في الدنيا بالهزيمة والخذلان، وغلبة المسلمين عليهم، كما في قوله تعالى: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)^(٢). وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْقَهُنَّ نُفُوسَهُنَّ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ)^(٣).

٣- حلول اللعنة، وغضب الله: ولما كان الإيمان سببا للحصول على رحمة الله ورضاه كان الكفر سببا للحرمان من رحمته وحلول غضبه، فمن حرم من رحمة الله ورضوانه فأتى له الراحة، ومن أئِن له النجا. ومن الآيات الدالة على حلول اللعنة والغضب على أهل الكفر، والمثبتة لحرمانهم من رحمة الله تعالى قوله عز وجل: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ)^(٤). وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(٥). وقوله تعالى: (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)^(٦).

٤- عدم قبول الفداء والشفاعة منهم يوم الحساب: إنَّ أهل الكفر يحرمون من شيء كانوا مولعين به في الدنيا عند وقوعهم في شرك المصائب، وحبال المآزق. وذلك بحثهم عن الشفاعات والصدقات، ودفع الرشاوي والهدايا، كي تخلصهم مما وقعوا فيه. وفي الغالب تنجح هذه المحاولة أو تلك لامتلاء الأرض بالفساد والمفسدين، ومحبة الناس للأموال، وطغيانها على القوانين واللوائح. فمن عنده مال ليس عنده مشكلة على حسب ما اشتهر على ألسنة الناس. أما يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيستوون أمام الحكم العدل، لا فدية ولا رشوة ولا خلة ولا شفاعة بدون استحقاق. ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا

^١ تفسير السعدي، ص: ٣٣٢

^٢ سورة آل عمران: ١٣

^٣ سورة الأنفال: ٣٦

^٤ سورة البقرة: ١٦١-١٦٢

^٥ سورة العنكبوت: ٢٣

^٦ سورة النحل: ١٠٦

أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ^(١). وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(٢). وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)^(٣). والشفاعة المنفية في الآية خاصة بالكفار، الذين لا خلاق لهم في الآخرة، كما قال الإمام الطبري في تفسير الآية: "وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عام والمراد بها خاص، وإنما معناه: من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، لأهل الكفر بالله، لأن أهل ولاية الله والإيمان به، يشفع بعضهم لبعض"^(٤).

٥- حرمان الهداية واستحقاق الضلالة: فمن وقع في فخ الكفر بعد أن أبصر نور الهداية، وذاق حلاوة الإيمان فقد حرم منه التوفيق للهداية، واستحق الضلالة. ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)^(٥). وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا)^(٦).

٦- الحرمان من التوبة والمغفرة: فكما أن الإنسان في هذه الحياة معرض للأمراض والأسقام في جسده وأعضائه، والتي يكون علاجها بالأدوية، والمركبات الطبية، من خلال الكشف عند الطبيب، وأخذ مشورته في نوعية العلاج المناسب، كذلك يمرض الإنسان في نفسه وروحه بالذنوب والمعاصي. وعلاج هذا النوع من الأمراض يكون بالتوبة، والإكثار من الحسنات الماحية لآثار الذنوب والمعاصي. لذا فتح الله باب التوبة على مصراعيه للعبد ما لم يغرغر أو تطلع الشمس من مغربها. أما بالنسبة للكافر الذي مات على كفره فباب المغفرة والتوبة مسدود، ولن يغفر الله لعبده إذا وافاه يوم القيامة بالشرك والكفر. ومما يدل على ذلك قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ

^١ سورة آل عمران: ١٠

^٢ سورة المائدة: ٣٦

^٣ سورة البقرة: ٢٥٤

^٤ تفسير الطبري: ٣٨٣/٥-٣٨٤

^٥ سورة آل عمران: ٨٦

^٦ سورة النساء: ١٣٧

يُشْرِكْ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا^(١). وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)^(٢).

٧- حبوط الأعمال والحرمات من الثواب: ولما كان الإيمان شرطاً لقبول العمل عند الله، فلا يقبل عمل من غير إيمان، صار الكفر الذي هو ضد الإيمان محبطاً للعمل، مهما حسن نوعه، وكثر عدده، وعظم قدره. ومن هنا لا يقبل الله للكافرين عملاً، يجدون ثوابه في الآخرة، غير أن الله لا يظلم أحداً، فيعطيهما على ما قاموا به من الأعمال الخيرية في الدنيا ثواباً عاجلاً من الصحة والعافية، ووفرة الأموال، وكثرة الأولاد، كما قال تعالى: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)^(٣). والهباء المنثور: ما يراه المرء يدخل البيت عن طريق الكوة من الجسيمات مع شعاع الشمس^(٤). ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا)^(٥). وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)^(٦). وحبوط العمل بطلانه، وذهاب ثوابه، وجزائه في الدنيا والآخرة^(٧).

٨- الندامة والحسرة: فالكافر يتحسّر على ما فاتته من الفرص التي ظفر بها في الدنيا، ثم فرط فيها، ولم يفد منها في إصلاح حاله وماله، بالإضافة إلى يقينه الجازم بأن هذه الفرص لن تُعوّض، ولا يمكن الحصول عليها مرة أخرى، فيتألم لذلك، ويتقطع عليها حسرات، زيادة له في العذاب والآلام النفسية، وإزعاجاً له بسبب الهموم والأحزان. ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: (وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٨). أي: "وندموا على ما فرطوا من طاعة الله في الدنيا حين عاينوا عذاب الله الذي

^١ سورة النساء: ١١٦

^٢ سورة محمد: ٣٤

^٣ سورة الفرقان: ٢٣

^٤ انظر: تفسير الطبري ٢٥٨/١٩

^٥ سورة الكهف: ١٠٥

^٦ سورة محمد: ٨، ٩

^٧ انظر: تفسير الطبري ٣١٧/٤

^٨ سورة النساء: ٣٣

أعده لهم^(١). وقوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)^(٢). والحسرة والندامة في الآخرة عذاب نفسي، وألم معنوي، لا ينفع أهل النار، بل يزيدهم عذاباً فوق عذابهم الجسدي، فتقطع أكبادهم، وتتألم قلوبهم، مما عملت أيديهم في الحياة الدنيا.

وقد انتهى المبحث الأول بخصوص الترغيب في الإيمان والترهيب من الكفر، وتحدثت فيه عن مفهوم الإيمان لغة وشرعاً، وأبرزت فيه أوجه ترغيب القرآن في الإيمان من خلال بيان الموعودات القرآنية على تحصيل الإيمان في الدنيا والآخرة. كما تعرضت إلى بيان مفهوم الكفر لغة وشرعاً، مع شرح مظاهر ترهيب القرآن من الكفر عن طريق ذكر نتائجه السيئة المترتبة عليه في العاجل والآجل، والله المستعان، وعليه التكلان.

^١ تفسير الطبري: ٤٠٩/٢٠

^٢ سورة البقرة: ١٦٧

البحث الثاني

الترغيب في الصلاة والترهيب من إضاعتها

وفيه المطالب التالية:

- ١ - مفهوم الصلاة ومكانتها في الإسلام
- ٢ - الترغيب في أداء الصلاة وإقامتها
- ٣ - الترهيب من ترك الصلاة وإضاعتها

المطلب الأول: مفهوم الصلاة ومكانتها في الإسلام

الصلاة لغة وشرعا

الصلاة لغة: مأخوذة من الفعل الثلاثي: صَلَّى وَصَلَّى، المكوّن من حروف الصاد واللام والحرف المعتلّ. وأصل هذه المادة يرجع إلى معنيين، أحدهما: النار وما أشبهها، والآخر جنس من العبادة. فأما الأول مصدره الصَّلِيُّ: وهو الإيقاد بالنار، ويقال: صَلَّيَ بالنار، أي: اضْطَلَّى بها، وَصَلَّيْتُ الشاة: شَوَّيْتُهَا، وهي مَصْلِيَّةٌ. صَلَّيَ الكافرُ النار: قاسى حرّها، كما في قوله تعالى: (الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى)^(١). وأما الثاني فهو الدعاء، ومصدره الصلاة، كقوله تعالى: (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)^(٢). وفي الحديث الشريف: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا، فَلْيُصَلِّ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا، فَلْيُطْعَمْ»^(٣)، أي فليدع لهم بالخير والبركة. والصَّلَاةُ: هي الدعاء، والتبريك والتمجيد. قال تعالى: (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ)^(٤). وَصَلَاةُ اللَّهِ للمسلمين: تزكيتهم إليّاهم، ومن الملائكة هي الدّعاء والاستغفار، كما هي من الناس^(٥).

وأما الصلاة في الشرع فهي: "أقوال وأفعال مفتوحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشروط مخصوصة"^(٦). وفي بيان المناسبة بين المعنى اللغوي والشرعي يقول الطبري: "وأرى أنّ الصلاة المفروضة سميت صلاة، لأن المصلي متعرّض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه من حاجاته، تعرّض الداعي بدعائه ربه استنجاح حاجاته وسؤله"^(٧).

مكانة الصلاة في الإسلام

الصلاة مناجاة ربّ العالمين، وقرّة عيون الموحّدين، ومستراح عباد الله السالكين. فمكانتها في الإسلام معروفة، ومآثرها في الشرع غير مجهولة. فالعبد الذي يعرف قيمة الصلاة يجد لها لذة لا تساويها لذة أخرى، وتقرّ بها عينه، ويغشاه الاطمئنان وراحة البال، كما جاء في الحديث أنّ

^١ سورة الأعلى: ١٢

^٢ التوبة: ١٠٣

^٣ أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٥٤/٢)، كتاب الكاح، باب الأمر بإحسان الدعاء إلى دعوة عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه. وأبو داود في سننه (٣٣١/٢)، كتاب الصوم، باب في الصائم يدعى إلى وليمة، عن أبي هريرة أيضا بلفظه إلا أن فيه تقديم وتأخير.

^٤ سورة القرة: ١٥٧

^٥ انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٤٩٠، وما بعدها، ومعجم مقاييس اللغة لاس فارس: ٣/٣٠٠، وما بعدها.

^٦ معني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المهاج: ٢٩٧/١، للحطيط الشريبي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

^٧ تفسير الطبري: ٢٤٣/١

الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول: «قُمْ يَا بِلَالُ فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»^(١). وكان يقول: «حُبِّبْ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النَّسَاءَ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢). ومن هنا أردت أن أبين مكانتها في الإسلام^(٣) ببيان النقاط التالية:

١- الصلاة أعظم فروض الإسلام بعد الشهادتين، وأحد أركانها الخمسة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»^(٤). فالإيمان بالله هو الذي يسبقها في الأهمية، وهي الركن الثاني بعد الشهادتين مباشرة.

٢- وقد أطلق الرسول صلى الله عليه وسلم اسم الكفر على تارك الصلاة، مما يدل على ارتفاع منزلتها في الإسلام، وأن تركها يعني ترك الإسلام بالكلية، كما في الحديث: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»^(٥). وقال عبد الله بن شقيق^(٦) التابعي الجليل: «كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»^(٧).

٣- الصلاة هي العمود الذي به قوام الدين، فمن أقام الصلاة فقد دعم الإسلام وشيئده، ومن تركها فكأنما قوَّض الدين وهدمه، كما يشير إليه الحديث: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ»^(٨).

^١ أخرجه أبو داود في سننه (٢٩٧/٤)، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة عن محمد بن الحنفية عن رجل من الأنصار لفظه.

^٢ أخرجه السنائي في سننه (٦١/٧)، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، عن أس رضى الله عنه لفظه. وأحمد في مسنده (٣٠٧/١٩)، عن أنس أيضا لفظه. وقال محقق المسند إسناده حسن.

^٣ راجع في هذا الأمر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٥١/٢٧-٥٢، لورارة الأوقاف والشتون الإسلامية - الكويت، ط: الثانية، دارالسلامل - الكويت، ١٤٢٧ هـ.

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه (١١/١)، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس»، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لفظه. ومسلم في صحيحه (٤٥/١)، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بني الإسلام على خمس عن عبد الله بن عمر أيضا لفظه مقارب.

^٥ أخرجه مسلم في صحيحه (٨٨/١)، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، عن حابر بن عبد الله رضى الله عنهما لفظه.

^٦ عبد الله بن شقيق العقيلي بالضم، بصري، ثقة، فيه نصب، مات سنة ثمان ومائة. انظر: تقريب التهذيب للذهبي، ص: ٣٠٧.

^٧ أخرجه الترمذي في سننه (١٤/٥)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة.

^٨ أخرجه الترمذي في سننه (١١/٥)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، عن معاذ بن حلل رضى الله عنه لفظه. وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

٤- في يوم العرض على رب العالمين، تكون الصلاة أول ما يحاسب من أعمال العباد، مما يدل على أهميتها، فإن اكتمل المطلوب منها فما بعدها أيسر وأهون، وإلا فالعبد في خسارة وخيبة تلزمه يوم يقوم الحساب، كما أشار إلى ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ»^(١).

٥- إن الصلاة هي آخر وصية وصّى بها الرسول صلى الله عليه وسلم أمته، وذلك عندما كان يعالج سكرات الموت، مما يدل على اهتمامه بأمر الصلاة. كما قالت أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: «الصَّلَاةُ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، فما زال يقولها، حتى ما يفيض بها لسانه^(٢).

٦- وهي آخر ما ينتقض من عرى الإسلام. وذلك أن الناس لا يتركون أعمال الشريعة دفعة واحدة، بل يكون تركهم لها بالتدريج، فالصلاة تكون آخر شيء من أمور الدين يبقى في حياة الناس، مما يدل على أهميتها وأثرها في حياة المسلمين، وأنها إذا انتقضت فلا اعتبار لما يبقى من الإسلام بعدها. كما يشير إلى ذلك الحديث: «لَتَنْتَقِضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقِضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِأَلْتِي تَلِيهَا، فَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ»^(٣).

٧- الصلاة هي العبادة الوحيدة التي تجب على العبد أن يؤديها في جميع الأزمنة والأوقات، ولا تسقط عنه بحال من الأحوال، ما دام محتفظاً بوعيه وعقله، إلا أن مدى الاستطاعة، والكيفية المناسبة لأدائها تختلف من حال إلى حال، فمن لم يستطع أداءها قائماً صلّاها قاعداً وهكذا، مما يدل على أهميتها، فكثير من العبادات تسقط في حالات معينة بخلاف الصلاة.

^١ أخرجه الترمذي في سننه (٢٧٠/٢)، كتاب الصلاة، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة عن أبي هريرة عنه لفظه. وقال الترمذي: حديث حسن عريب. والسنائي في سننه (٢٣٢/١)، كتاب الصلاة، باب الخاسرة على الصلاة عن أبي هريرة أيضاً نحوه.

^٢ أخرجه ابن ماجة في سننه (٥١٩/١)، كتاب الحائز، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أم سلمة رضي الله عنها لفظه. وأحمد في مسنده (٣١٥/٤٤) عن أم سلمة رضي الله عنها نحوه. وقال محققوا الكتاب في درحة الحديث: صحيح لغيره.

^٣ أخرجه ابن حبان في صحيحه (١١١/١٥)، كتاب التاريخ، باب إجماع رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يكون في أمته من الفتن والحوادث عن أبي أمامة رضي الله عنه لفظه. وأحمد في مسنده (٤٨٥/٣٦) عن أبي أمامة أيضاً لفظه مقارب. وقال محققوا الكتاب: إسناده جيد.

٨- ومما يدل على مكانتها العظيمة اشتغالها على عبادات متنوعة، كالقراءة، والذكر، والدعاء، كما أنها حوت عبودية جميع الجوارح والأعضاء، كالقلب واللسان والرأس والأيدي والأرجل، فجميع أعضاء المصلّي وجوارحه متحركة في الصلاة عبودية لله وذلا وخضوعا. ومن هنا تظهر مكانتها وأفضليتها على سائر العبادات^(١).

٩- أن الصلاة قد افترضت على الأمة بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو فوق السموات السبع ليلة المعراج، مما يظهر أهمية الصلاة من بين سائر الفرائض، التي نزل حكمها في الأرض. وذلك أن ليلة الإسراء والمعراج كانت مناسبة عظيمة، وحدثا مهما، فقد كشف للنبي صلى الله عليه وسلم الغيب، وحصل له من قرب الله تعالى وحفاوته ما لم يجده قبل ذلك. فالأمر الذي قرّر في تلك الليلة لا جرم أن سيكون له شأن خاص، واعتبار معيّن. ونستنج ذلك في المراجعة التي حصلت ليلة الإسراء والمعراج بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الله تبارك وتعالى في شأن الصلاة، وكان السبب في تلك المراجعة موسى عليه السلام. كما جاء ذلك في سياق حديث الإسراء والمعراج برواية أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ... فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً»^(٢).

١٠- ومما يدل على أهمية الصلاة في الإسلام فضائلها العديدة، التي وردت بها الأحاديث الصحيحة من محو الذنوب، وتكفير السيئات، ورفع الدرجات، ودخول الجنان. ومن بين تلك الأحاديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ». قالوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا»^(٣). والله الموفق للصواب.

^١ انظر: الوائل الصيب من الكلم الطيب، ص: ٩٢، لمحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: الثالثة، دار الحديث - القاهرة، ١٩٩٩م. تحقيق: سيد إبراهيم. ونبذات العوائد لابن القيم: ١٨٩/٢، ط: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٦/١)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات، وفرض الصلوات، عن أنس رضي الله عنه بلغه.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه (١١٢/١)، كتاب مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة عن أبي هريرة بلغه.

المطلب الثاني: الترغيب في أداء الصلاة وإقامتها

رَغِبَ اللهُ تعالى عباده في الصلاة بكثير من الآيات، لما لها من الأهمية البالغة والمكانة العظيمة في الإسلام، ليحرص المسلمون جميعاً على أدائها بشروطها وأركانها في أوقاتها المعينة. وتمّ هذا الترغيب بذكر المنافع العاجلة والآجلة للصلاة في القرآن الكريم، مما يورث الرغبة والشوق إلى أدائها على وجه الكمال. والصلاة التي تترتب عليها الموعودات الربانية لا بد وأن تكون صلاة موافقة للشرع، مكتملة بشروطها وأركانها، كما هو مذكور في كتب الفقه. بيد أن الأمر الأهم، الذي يجعل تأثير الصلاة قوياً، ويجعل أثرها ملموساً في الحياة وبعد الممات هو الخشوع. وهو روح الصلاة ولبّها وحقيقتها، كما يقول الإمام الغزالي: "فروحها وحياتها الباطنة الخشوع والنية وحضور القلب والإخلاص"^(١). لذا مدح الله سبحانه المؤمنين بخشوعهم في الصلاة فقال: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)^(٢).

ومن هنا جاء الأمر الوارد في القرآن لأداء الصلاة بلفظ: "الإقامة"، إشارة إلى أن المراد من أداء الصلاة في القرآن ليس الإتيان بميئتها من الحركات والسكنات، بل المقصود توفية حقوقها وشروطها على وفق الشرع، كما يقول الراغب الأصبهاني: "وكلّ موضع مدح الله تعالى بفعل الصلّة أو حثّ عليه ذكر بلفظ الإقامة... وإنما خصّ لفظ الإقامة تنبيهاً أن المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بميئتها فقط"^(٣).

يقول القاضي ابن رشد^(٤) في تعريف الخشوع: "الخشوع في الصلاة هو التذلّل لله فيها، والاستكانة، والخضوع، بالخوف الحاصل في قلب المصلي، باستشعاره الوقوف بين يدي خالقه في صلاته، ومناجاته إياه فيها، فمن قدر الأمر حقّ قدره، ولم يفارق الخوف قلبه، خشع في صلاته، وأقبل عليها، ولم يشغل سره بسواها، وسكنت جوارحه فيها، ولم يعث بيده ولا التفت إلى شيء

^١ إحياء علوم الدين للبرقي: ١٥٨/١

^٢ سورة المؤمنون: ١، ٢

^٣ المعرّيات للراغب الأصبهاني، ص: ٤٩١-٤٩٢

^٤ الإمام، العلامة، شيخ المالكية، أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي، المالكي. كان فقيهاً عالماً، حافظاً للفقه، مقدماً فيه على جميع أهل عصره، عارفاً بالفقهاء، بصيراً بأقوال أئمة المالكية، نافداً في علم الفرائض والأصول. ومن تصانيفه كتاب المقدمات لأوائل كتب المدونة، وكتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل. وسار في القضاء بأحسن سيرة، وأقوم طريقة. مات: في سنة عشرين وخمسمائة.

انظر: سير أعلام السلا ٥٠١/١٩

من الأشياء بعينه^(١). وفيما يلي ذكر لبعض المنافع العاجلة والآجلة، التي تترتب على الصلاة الموافقة للشرع في أركانها وشروطها وخشوعها، كما وردت في الآيات:

١- الفوز والفلاح: الفلاح: الظفر وإدراك البغية، وهو نوعان: دنيوي، وهو: الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، وهو البقاء والغنى والعزّ. والثاني: أخروي، ويحصل بأربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزّ بلا ذلّ، وعلم بلا جهل^(٢). وقد استعمل القرآن هذه الكلمة كثيرا لفلاح الآخرة لأنها الحياة الأصلية التي فيها البقاء والغناء والعزّ، كما في الحديث: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ»^(٣). والصلاة من أعظم أسباب الفلاح، حتى إنها سميت بالفلاح عند المنادة لها في اليوم خمس مرات، حيث يقول المؤذن: "حيّ على الفلاح"، ليعلم على الملأ أن الصلاة هي عين الفلاح، فبها تطيب الحياة في الدنيا، ويحصل الأجر والثواب العظيم بسببها يوم يقوم الحساب. وقد وردت آيات من الذكر الحكيم تدلّ على أنّ الصلاة من أعظم الأسباب للفلاح المبين، وأكبر الوسائل للفوز العظيم. قال تعالى معددا صفات المتقين، والتي منها إقام الصلاة: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٤). وقال تعالى في صفات المؤمنين الذين ثبت لهم الفلاح الأبدي، ذاكرا ضمن صفاتهم الخشوع في الصلاة: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)^(٥). وقال تعالى في ترتب الفلاح على الركوع والسجود للذين هما من خصائص الصلاة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(٦).

٢- الأجر العظيم وانتفاء الخوف والحزن: الأجر العظيم يكون في الآخرة بدخول الجنة والفوز برضوان الله تعالى. وأما انتفاء الخوف والحزن فيكون أيضا في الآخرة عند حصول الإنسان على

^١ البیان والنحیصیل والشرح والتوجیه والتعلیل لمسائل المستحرجة: ٢١٩/١، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، ط: الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لسان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. حققه: د محمد حجي وآخرون.

^٢ انظر: المعردات للرابع الأصمهاقي، ص: ٦٤٤

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه (٨٨/٨)، كتاب الرقاق، باب: لا عيش إلا عيش الآخرة عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظه. ومسلم في صحيحه (١٤٣١/٣)، كتاب الجهاد والسير، باب عروة الأحرار وهي الخندق عن أنس بن مالك أيضا بلفظه.

^٤ سورة البقرة: ٣-٥

^٥ سورة المؤمنون: ١، ٢

^٦ سورة الحج: ٧٧

البراءة من نار جهنم. ويدلّ على ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(١).

٣- تكفير السيئات: معناها: الستر والتغطية، ومحوها من سجل السيئات، كما وردت الأحاديث الصحيحة أنّ بعض الأعمال الدينية تكون سبباً لتكفير السيئات، كما في الحديث: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»^(٢). ومما يدل على أن إقامة الصلاة من مكفّرات الذنوب قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)^(٣).

٤- دخول الجنة: قد صرحت بعض الآيات بأن إقام الصلاة يترتب عليه الفوز بجنات التعيم، والظفر بجوار الرب الكريم. من ذلك قوله تعالى عند ذكر صفات المؤمنين التي استحقوا بها دخول الجنات، ومن أعظم هذه الصفات إقام الصلاة على الوجه المشروع: (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ)^(٤).

٥- الحصول على رحمة الله: من ضمن الأشياء المترتبة على إقام الصلاة الظفر برحمة الله تعالى. هذه الرحمة التي تعم آثارها الدنيا والآخرة، فالإنسان في أمس الحاجة إلى رحمة الله في كل أمر من أموره. فلولا رحمة الله علينا وفضله لم نستطع أن نقوم بمصالحنا الدينية والدنيوية، كما قال تعالى: (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا)^(٥). ولكن من أعظم مظاهر الرحمة وتجلياتها الفوز بدخول الجنان والنجاة من مقاساة حر النيران. ومما يدل على أن إقام الصلّام من أعظم الأسباب للحصول على رحمة الله تعالى قوله: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

^١ سورة البقرة: ٢٧٧

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٩/١)، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهن ما احتست الكفائر، عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه.

^٣ سورة هود: ١١٤

^٤ سورة الرعد: ٢٢، ٢٣

^٥ سورة النساء: ٨٣

أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(١). وقوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)^(٢). يقول السعدي في تفسير الآية: "فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو متمن كاذب، وقد متته نفسه الأماني الكاذبة"^(٣).

٦- إن إقامة الصلاة تُعدُّ من صفات عباد الله المؤمنين، والحسنين، والمحبين، مما يدلّ على أن الرغبة في الانخراط في سلك عباد الله الصالحين يقتضي الاهتمام بالصلاة، وأدائها بشروطها وأركانها. ولا يمكن أن يوجد في المرء صلاح من غير صلاة. ومما يدلّ على ذلك من الآيات قوله تعالى: (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)^(٤). وقوله تعالى: (هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)^(٥). وقوله تعالى: (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ. الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)^(٦).

٧- أن إقامة الصلاة دأب الأنبياء والصالحين من قبلنا. فعند التتبع لتاريخ من مضى من الأنبياء والصالحين يتبين أن الصلاة كانت ركنا ركينا، وعملا مهما في جميع الأديان، بالرغم من الاختلاف الحاصل في الأشكال والهيئات التي يؤدي بها كل أهل دين صلاحهم. ولكن الذي يجمع هذه الصلوات كلها أنها كانت ذريعة لاتصال العبد بالله تعالى، وإظهار العبودية والتذلل والخضوع أمام عتبه، كما أنها كانت وسيلة لقضاء حاجات العبد، يعرضها من خلال المناجاة لربه عز وجل. وقد أحرى القرآن عن صلوات الأنبياء، بقصد الترغيب في الاقتداء بهم، والسير على منوالهم. ومن ذلك قوله تعالى: (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)^(٧). وقوله تعالى في عيسى عليه السلام: (وَجَعَلَنِي

^١ سورة التوبة: ٧١

^٢ سورة البور: ٥٦

^٣ تفسير السعدي، ص: ٥٧٣

^٤ سورة المل: ٢، ٣

^٥ سورة لقمان: ٣، ٤

^٦ سورة الحج: ٣٤، ٣٥

^٧ سورة الأنبياء: ٧٣

مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا^(١). وقوله تعالى في إسماعيل عليه السلام : (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)^(٢).

٨- الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، وذلك يعني أنها تساعد المرء على الالتزام والاستقامة على الصراط المستقيم. والسرّ في ذلك أنّ الصلاة تضرّع إلى الربّ الذي بيده أزمة الأمور، ونواصي الخلق، بالإضافة إلى أنّ من الأدعية التي تجب أثناء الصلاة طلب الهداية والاستعانة في جميع ما يهمّ العبد من أمر دينه و دنياه. فإذا قام العبد إلى الصلاة بقلب فارغ، متوجّه إلى الله، خاشع، متضرّع، وقدم هذه الطلبات المهمة بعد الثناء والتمجيد والتحميد يرجى أن تقبل طلباته، ويستجاب دعاؤه، الأمر الذي يتسبّب عنه الابتعاد عن المنكرات والفواحش التي تخلّ بالهداية والاستقامة. ووجه آخر في كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر أنّ الصلاة المستوفية للشروط والأركان والخشوع تقوّي إيمان العبد، وتطهّر قلبه من آثار الذنوب والمعاصي، مما يقلّل رغبته في اقتراف المنكرات، ويزيد نشاطه في الاستكثار من الخيرات.

ومن هنا يتبيّن أنّ الصلاة التي لا تقوى على هذه الوظيفة تكون عديمة الأثر، فلا يتحقّق كونها الصلاة المطلوبة شرعاً، وفيها نقص وخلل، يجعل نتائجها تتخلّف، وآثارها تضمحلّ. لذا عرّف لفظ الصلاة الوارد في القرآن بـ "ال"، إشارة إلى أنّ المراد به هي الصلاة المعهودة في الشرع، المستكملة لأركانها وشروطها ومتطلّباتها، فحينئذ تؤدّي الوظيفة المنوطة بها، ويظهر التأثير المصحوب لها في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: (اثْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)^(٣).

٩- الاستعانة بالصلاة في حلّ المشاكل: ولما كان العبد المؤمن يعتقد أنّ الكون كلّّه بيد الله، يتصرّف فيه كيف يشاء، وأنّ خزائن جميع الأشياء في قبضته وجب عليه أن يجعل حلّ مشاكله مرتبطاً بهذه العقيدة. وذلك أنّ من صاحَب القويّ استفاد من قوّته، ومن زامل الغنيّ استفاد من غناه، ومن رافق العليم استفاد من علمه. فالعبد ضعيف بمفرده، لا يملك من أمره شيئاً، ولكنّه يملك أقوى وسيلة لتسيير أموره في هذه الحياة، وهي الارتباط بالغنيّ العليم القدير، والذي يمكن

^١ سورة مريم: ٣١

^٢ السورة السابقة: ٥٥

^٣ سورة العنكبوت: ٤٥

الاتصال به في اليوم خمس مرات مباشرة، من غير وساطة سكرتير، ولا أمين سرّ، فيتمكّن من قضاء حوائجه، وتسيير أموره من غير تعب ولا مقاساة هموم وغموم. لذا أمرنا الله سبحانه بالاستعانة بالصلاة والصبر في حلّ المشاكل التي تعترض أمامنا في هذه الدنيا المملوءة بالمشاكل والمتاعب. قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)^(١).

ولما وصف الله طبيعة الإنسان بالهلع^(٢)، يجزع إذا أصابه الضر من فقر ومرض وذهاب محبوب، ويمنع الإحسان إذا أصابته النعمة من زيادة مال وأهل وولد استثنى المصلين الذين هم على صلاحهم دائمون، فقال تعالى: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. إِلَّا الْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)^(٣). ذلك أن صلاحهم تربطهم بخالقهم الذي خلق كل شيء فسوّى، وقدره فهدى، مما جعلهم يطمثون إلى تقديره للأمور، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم. فحريّ بعبد هذا وصفه أن لا يجزع إذا أصابه الشرّ، بل يصبر ويحتسب، وأن لا يحرص ويمنع إذا أصابه الخير، بل يشكر الله عليه، ويؤدّي حقوقه الواجبة فيه، ويحسن إلى عباده، كما ورد في الحديث الصحيح: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٤).

وفي بيان القرآن لمنافع الصلاة ترغيب في أدائها، بشروطها وأركانها، وحقوقها، كما وردت في الشرع، قصدا منه إلى موقع التأثير من الإنسان، فإنّه يحبّ المنافع والمصالح العاجلة والآجلة، ويحرص كلّ الحرص على الأسباب المحصّلة لها، ويتحمّل بعض المشاقّ التي تعترض أمامه في سبيل ذلك. وما أحوج المسلمين اليوم إلى تحسين صلاحهم، وأدائها وفق الشرع المطهر، لتترتب عليها آثارها الحسنة التي تحدثنا عنها، فيصلح دينهم ودنياهم، وتنطهر بيئتهم من الفساد الأخلاقي والاجتماعي، ويتزكّون من درن المعاصي والمنكرات. والله الموفق للصواب.

^١ سورة البقرة: ١٥٣

^٢ "الهلع حرج واضطراب يعتري الإنسان عند المحاوف وعند المطامع". تفسير ابن عطية: ٣٦٨/٥

^٣ سورة المعارج: ١٩-٢٣

^٤ أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٩٥/٤)، كتاب الرهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير عن صهيب رضي الله عنه لفظه.

المطلب الثالث: الترهيب من ترك الصلاة وإضاعته

قد مرّ بنا في المطلب السابق مكانة الصلاة وأهميتها من بين سائر فروض الإسلام، وأنّ من تركها فقد هدم عمود الإسلام، وضيع أول فرض بعد الشهادتين، وعاند ربّه في اليوم خمس مرّات، حيث يدعوّه إلى الصلاة بالأذان ولا يستجيب. وأيّ ذنب أقبح ممن يناديه مولاه كلّ يوم، فيسمع ولا يأتيه. وجاءت آيات من الذكر الحكيم في الترهيب من تركها وإضاعته، وإخراجها عن مواقيتها المحدّدة. كما حدّرت أحاديث كثيرة من تركها وإضاعته، حتى و صفت تاركها بالكفر والشرك أعادنا الله من ذلك. ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»^(١). وفي حديث آخر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم مرغبا في المحافظة على الصلاة ومحذرا من عواقب تركها: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ بُرْهَانٌ وَلَا نُورٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَهَامَانَ وَفِرْعَوْنَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلْفٍ»^(٢). وعن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم أن: «لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُطِعَتْ وَحُرِّقَتْ، وَلَا تُتْرَكْ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ مُتَعَمِّدًا، فَمَنْ تَرَكَهَا مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَ مِنْهُ الدِّمَةُ، وَلَا تَشْرَبِ الْخَمْرَ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ»^(٣). وأما الآيات الواردة في التحذير من ترك الصلاة، وبيان العقوبات التي جاءت في حقّ التاركين لها، والمضيعين لحقوقها، فسيأتي ذكرها في النقاط التالية:

١- ولما قصّ الله علينا قصص الأنبياء، الذين أنعم عليهم في سورة مريم، ووصفهم بالصالح والتقوى، والقيام بحقوق الله، وحقوق العباد عقب بوصف من جاء بعدهم من الأمم الذين ضيعوا الصلوات وآتبعوا الشهوات، وأوعدهم بالعذاب المهين، فقال: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا)^(٤).

^١ أخرجه الترمذي في سننه (١٤/٥)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بلفظه، وقال حديث حسن صحيح غريب. والسائي في سننه (٢٣١/١)، كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة عن أبي موسى أيضا بلفظ مقارب.

^٢ أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٢٩/٤)، كتاب الصلاة، باب الوعيد على ترك الصلاة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما بلفظه. وقال محقق الكتاب شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، عيسى بن هلال الصديقي: صدوق، وناقي السد على شرط الصحيح.

^٣ أخرجه ابن ماجه في سننه (١٦١/٥)، كتاب الفتن، باب الصبر على اللاء بلفظه، وقال محقق الكتاب شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره.

^٤ سورة مريم: ٥٩

٢- وحينما سأل أهل الجنة ساكني سقر عن الجرائم تسببت لهم في دخولها أجابوا بأن ترك الصلاة كانت أول جرائمهم، مما يؤذن بعظم هذا الجرم وشناعته، وأنه إن استمر عليه صاحبه، ومات على ذلك من غير توبة سيؤدّي به إلى نار سقر، والعياذ بالله. وذلك أن تارك الصلاة ضيّع أول حقّ من حقوق الله تعالى بعد الشهادتين، وعاند ربه في أداء هذا الفرض العظيم، فاستحقّ أن يكون مصلّيًا في النار، مُبعدًا من رحمة الله تعالى. قال الإمام محمد بن نصر^(١) المروزي رحمه الله تعالى: "وحكى عن الكفار أنّهم لما سئلوا بعد دخولهم النار، ف قيل لهم: ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين، فلم يذكرنا شيئًا من الأعمال عذبوا عليها قبل تركهم الصلاة"^(٢). قال الله تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ. مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ)^(٣).

٣- ونهى الله سبحانه المؤمنين عن الانشغال بالأموال والأولاد، لاهين بها عن ذكر الله عموماً، وعن الصلاة^(٤) خصوصاً، وتوعّدهم بأن من انشغل بذلك عن الصلاة المفروضة فقد تعرّض للخسران المبين، والخزي العظيم. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)^(٥). أي: "لا يشغلکم الاهتمام بتدبير أمورها، والاعتناء بمصالحها، والتمتع بها عن الاشتغال بذكره عزّ وجل، من الصلاة وسائر العبادات المذكورة للمعبود"^(٦).

٤- وتوعّد الله لمن أضاع الصلاة، وتغافل عنها، تهاونا لفرضها، وتضييعاً لوقتها، توعده بالويل والخزي يوم القيامة، الأمر الذي يكون تحذيراً لمن ترك الصلاة أو أخرها عن وقتها، وتأكيداً على

^١ محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، الإمام، الحافظ، شيع الإسلام. كتب الكثير، ورع في علوم الإسلام، وكان إماماً مجتهداً علامة، من أعلم أهل زمانه باختلاف الصحابة والتابعين، قل أن ترى العيون مثله. قال الحاكم: إمام عصره بلا مدافعة في الحديث. وقال الذهبي: يقال: إنه كان أعلم الأئمة باختلاف العلماء على الإطلاق. توفي في سنة أربع وتسعين بعد المائتين. انظر: سير أعلام السلاء للذهبي ٣٣/١٤، وما بعدها.

^٢ تعظيم قدر الصلاة: ١/١٢٧، لمحمد بن نصر المروزي، ط: الأولى، مكتبة الدار-المدينة المنورة، ١٤٠٦هـ. ت: د. عبد الرحمن العريواني.

^٣ سورة المدثر: ٣٨-٤٧

^٤ عن الصحاح، في قول الله حل ثأؤه: "لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله"، قال: "الصلوات الخمس". وعن عطاء بن أبي رباح، يقول:

"هي المكتوبة". انظر: تعظيم قدر الصلاة للمروزي ١/١٢٧

^٥ سورة المافقون: ٩

^٦ تفسير أبي السعود: ٢٥٤/٨

أهميتها، حيث يترتب على التساهل بها هذا العقاب الشديد. قال الله تعالى: (قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)^(١). قال الطبري في تفسير الويل: "الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم"^(٢). واختلف أهل التأويل في معنى السهو عن الصلاة في الآية، فقال بعضهم: أنهم يؤخرونها عن وقتها، فلا يصلّون إلا بعد خروج وقتها. وقال آخرون: أنهم يتركونها فلا يصلّونها. وقال غيرهم: أنهم يتهاونون بها، ويتغافلون عنها ويلهون^(٣). ورجح الطبري بعد سرده لهذه الأقوال قول من فسّر السهو عنها بالتهان والتغافل عنها، إشارة إلى أن هذا المعنى يشتمل على المعاني الأخرى في بقية الأقوال، فقال رحمه الله تعالى في ذلك: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب بقوله: ساهون: لاهون يتغافلون عنها، وفي اللهو عنها والتشاغل بغيرها، تضييعها أحيانا، وتضييع وقتها أخرى، وإذا كان ذلك كذلك صحّ بذلك قول من قال: عني بذلك ترك وقتها، وقول من قال: عني به تركها لما ذكرت من أن في السهو عنها المعاني التي ذكرت"^(٤).

وإلى هنا انتهى المبحث الخاصّ بالترغيب في الصلاة والترهيب من إضاعتها، وقد تناولت فيه مفهوم الصلاة لغة وشرعا، وإظهار أهميتها، ومكانتها في الإسلام، مع بيان طرق القرآن في الترغيب في أداء الصلاة على أوقاتها وكيفية المشروعة من خلال إبراز الفوائد والمنافع الدنيوية والأخروية، التي تترتب على إقامة الصلاة. كما أوضحت أوجه الترهيب من ترك الصلاة وإضاعتها عن طريق بيان العواقب السيئة المترتبة على ذلك كما ورد في آي الذكر الحكيم، آملا من الله الكريم الرؤوف أن يجعلنا من أهل الصلاة والطاعة إنه على كل شيء قدير.

^١ سورة الماعون: ٤، ٥

^٢ تفسير الطبري: ٢٤/٦٣٠

^٣ انظر: تفسير الطبري ٢٤/٦٣١، وما بعدها

^٤ تفسير الطبري: ٢٤/٦٣٢

البحث الثالث:

الترغيب في نصره الدين والترهيب من خذلانه

وفيه المطالب الآتية :

- ١ - الحرّاء بنصرة الدين وأهميته
- ٢ - الترغيب في الدعوة والترهيب من تركها
- ٣ - الترغيب في الجهاد والترهيب من تركه

المطلب الأول: بيان المراد بنصرة الدين وأهميته

أنزل الله هذا الدين لسعادة البشرية بواسطة الأنبياء والمرسلين. وكان النبي وظيفته هداية الناس ودلالتهم على الخير. وهذه سنة الله في الأمم والجماعات، فما من أمة إلا وقد جاءها نذير من الله، يخبرهم بما يجب عليهم من حقوق الله وحقوق العباد، كما في قوله: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)^(١). وقد كانت مسؤولية الدين بالطريق الأولى تقع على عاتق الرسول المرسل إلى تلك الأمة، فما على الأمة إلا أن تستجيب للأوامر التي جاءهم بها الرسل من عند رب العالمين. هذا كان في الأمم السابقة، أعني: أن المسؤولية التامة عن نشر الدين وحفظه كانت على الأنبياء، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم عن بني إسرائيل في قوله: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ»^(٢). أما هذه الأمة المحمدية المباركة، فمسؤولية الدين ونصرته على عاتق كل مؤمن بالله وبالرسول، كما تشير إليه هذه الآية: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)^(٣). منكفإن أتباع الرسول وظيفتهم مثل وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم.

بيان المراد بنصرة الدين

المراد بنصرة الدين هو كل عمل يراد به تأييد الدين، من حيث نشره وإشاعته بين الأمم قاطبة، ومن حيث الدفاع عنه وتقويته وتأنيده وتمكينه في الأرض بالحجة والبيان، والسيف والسنان. فالأعمال التي يراد بها تقوية الدين، وظهوره على جميع الأديان، وكذا انتشاره واحتضانه وقبوله عند الأفراد والجماعات، من غير اعتبار جنس أو تخصيص بقطر يعدّ من وسائل نصرة الدين. غير أن المشروط في عمل ما ليكون ضمن قائمة الوسائل التي يقصد بها نصرة الدين أن يكون واردا في الشرع من كتاب أو سنة. فلا يجوز استعمال كل وسيلة في العمل لهذا الدين ما لم يرد جوازها في القرآن أو الحديث، منطوقا أو مفهوما. وهذا هو الفرق بين الإسلام وبين بقية

^١ سورة الحل: ٣٦

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه (١٦٩/٤)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل عن أبي هريرة رضي الله عنه لفظه. ومسلم في صحيح (١٤٧١/٣)، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول عن أبي هريرة أيضا لفظ مقارب.

^٣ سورة يوسف: ١٠٨

النظريات والمعتقدات التي تستبيح لنفسها كل وسيلة ما دامت وُفِّية بتحصيل ما تعتقده، أو تهدف إليه، حتى ولو اصطدمت بالمعايير الأخلاقية العالمية. ومن هنا جاء الإسلام ليحدّد معالم تلك الوسائل التي تهدف إلى نصرته وتأييده، كما حدّد الأعمال التي اشتمل عليها الإسلام، من العقائد والعبادات والمعاملات، فنحتاج في مشروعية كلا الأمرين إلى دلائل شرعية. لذا فلا مجال في الإسلام لنظرية: الغاية تبرر الوسيلة، بل الصحيح في الإسلام: الوسائل لها حكم المقاصد. وفي هذا الموضع أتناول ثلاثة أمور، تعتبر ركائز لنصرة الدين، وهي الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله. ممّا يتطلّب أن أعرّج على كلّ ركيزة بانفراد.

أولاً: الدعوة إلى الله وأهميتها في نصرته الدين

وقد تحدثت عن مفهوم الدعوة في الباب الأول من هذا البحث^(١)، وفيما يلي أسرد بعض النقاط التي تكشف القناع عن أهمية الدعوة بالنسبة إلى نصرته دين الله، ونشره بين الأنام:

١- الدعوة إلى الله أقدم وسيلة استعملها الأنبياء والرسل منذ بعثة أول رسول إلى أهل الأرض، وهو نوح عليه السلام، فلقد استغرقت دعوته زمناً طويلاً، ووقتاً مديداً، واستعمل أساليب متنوعة في دعوته لقومه، كما تفصّله علينا سورة نوح في الآيات التالية: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا)^(٢). فنوح عليه السلام لم يكن له على قومه سلطة، تحيرهم على قبول ما جاء به من عند الله، بل كان يخاطب عقولهم، ويذكّرهم بعظمة الله، ونعمه وآلائه، كما كان يخوّفهم بعذابه العاجل أو الآجل، إلى جانب ترغيبهم في رحمة الله وفضله في الدنيا والآخرة. وذلك يؤكّد على أهمية الدعوة وأسبقيتها في نشر الدين ونصرته.

٢- الدعوة إلى الله هي الوسيلة الوحيدة التي استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم لنشر الدين بين الأنام، طوال المرحلة المكية، كما أخذت نصيب الأسد في المراحل التي تلتها. وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته في هذه المرحلة لم يكن لديهم شوكة وقوّة، يستطيعون من خلالها القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الأعداء، بل كان جهادهم بالدعوة مع أهل مكة وغيرهم من قبائل العرب، كما تدلّ عليه هذه الآية: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا

^١ انظر: ص: ١١٦

^٢ سورة نوح: ٤، ٥

كَبِيرًا^(١). يقول الإمام الطبري في تفسير الآية: "جاهدهم بهذا القرآن جهادا كبيرا، حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به ويدعوا للعمل بجميعه طوعا وكرها"^(٢).

٣- الدعوة إلى الله من الأفعال التي نسبها الرب عز وجل إلى نفسه، مما يؤكد على أفضليتها، وأهميتها لنشر الهداية والدلالة على الخير. وما أحسن من عمل قد عدّه الله من أفعاله التي اختارها، وندب الرسل والمؤمنين إلى التأسّي به فيه، والاهتمام بقدره. وذلك في قوله تعالى: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)^(٣). وقوله تعالى: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)^(٤). يقول السعدي في تفسير الآية: "أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة، التي من آثارها، دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح"^(٥).

٤- سَمَّى الله عز وجل الدعوة إليه أحسن الأقوال، مما يؤكد على أنّه لا يوجد قول أحسن وأفضل منها. فالدعوة إلى التفكير في أسمائه وصفاته وتجلياته في الكون الفسيح، وكذا الدعوة إلى التذكير بنعمائه وأياديه على الإنسان لا تجاريها أقوال أخرى، وإن بلغت في الحسن ما بلغت. قال الله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)^(٦).

٥- أنّ الدعوة إلى الله سبب للهداية والتوفيق من الله تعالى، فالله سبحانه قادر على أن يهدي الناس من غير واسطة دعوة الأنبياء وأتباعهم، ولكنه جعل لكلّ شيء سببا، فجعل الدعوة سببا لحصول الهداية في القلوب، الأمر الذي يؤكد على أصالة الدعوة وأهميتها في نشر تعاليم الدين، وتهيئة القلوب لاستقبال الهداية الربانية والتوفيق الإلهي. وإلى جانب ذلك أراد الله عز وجل بذلك أن يرفع من درجة الأنبياء والدعاة، ويزيد في أجورهم على عدد من قبل دعوتهم من المهتدين، فيكتب لهم أجر المدعو من غير أن ينتقص من أجورهم شيء، كما في الحديث: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى

^١ سورة العنكبوت: ٥٢

^٢ تفسير الطبري: ٢٨١/١٩

^٣ سورة يونس: ٢٥

^٤ سورة الفرقة: ٢٢١

^٥ تفسير السعدي، ص: ٩٩

^٦ سورة فصلت: ٣٣

ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامٍ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا^(١). وهذا كله يبين أهمية الدعوة، وأنه عمل ضروري لبقاء الدين في حياة الأمة، فالدين يبقى مع استمرار الدعوة، وقيام الأفراد بها، اقتداء بالأنبياء وسلف هذه الأمة، الذين قاموا بهذا العمل خير قيام.

ثانياً: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وأهميته في نصرة الدين

إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامة قوية للإسلام، فلا بقاء للإسلام إلا به، وإِنَّه من أهم وظائف الرسل والأنبياء. وإِنَّه لسلطة اجتماعية، تحمي المجتمع من الأوبئة المفسدة لدينهم وأخلاقهم، كما أنَّ فيه بثَّ لروح اليقظة الجماعية. وذلك أنَّ المجتمع ككلَّه يسهر على مصالح نفسه بنفسه، من غير أن يتكل على قوَّة السلطان، أورهبة الأمير. فكل فرد من أفراد الأمة قائم على ثغر من الثغور، يحميها من كلِّ من ينتهكها، أو يقترب إليها.

مفهوم المعروف والمنكر لغة وشرعاً

المعروف لغة: اسم مفعول من قولهم: عَرَفْتُهُ مَعْرِفَةً وَعِرْفَانًا. وَعَرَفَ الشَّيْءَ عِرْفَانًا وَمَعْرِفَةً: أدركه بحاسة من حواسِّه. والعُرْفُ: المعروف، وهو خلاف النكر، وما تعارف عليه الناس في عاداتهم ومعاملاتهم^(٢). والمنكر لغة: اسم مفعول من الإنكار: وهو ضد العرفان. يقال: نَكِرْتُ الرجلَ بالكسر نُكْرًا وَنُكُورًا، أي: لم يقبله قلبه ولم يعترف به لسانه. وقد يستعمل ذلك فيما يُنكَرُ باللسان، وسبب الإنكار باللسان هو الإنكار بالقلب^(٣).

وأما المعروف شرعاً، فهو: "اسم جامع لكلِّ ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس بكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات"^(٤). قال الطبري: "وأصل المعروف: كل ما كان معروفاً فعله، جميلاً مستحسناً، غير مستقبح في أهل الإيمان بالله، وإنما سميت طاعة الله معروفاً، لأنه مما يعرفه أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله"^(٥). والمنكر شرعاً:

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٩)، كتاب العلم، باب من سس سة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة عن أي هريرة بلفظه.

^٢ انظر: الصحاح للحواري ٤/ ١٤٠٠، والمفردات للراعي الأصفهاني، ص: ٥٦٠، والمعجم الوسيط ٢/ ٥٩٥.

^٣ انظر: المفردات للراعي الأصفهاني، ص: ٨٢٣-٨٢٤، والصحاح للحواري. ٢/ ٨٣٦-٨٣٧، ومعجم مقاييس اللغة لاس فارس: ٥/ ٤٧٦.

^٤ عداء الألبان في شرح مطبوعة الآداب: ١/ ٢١١، لشمس الدين، محمد بن أحمد بن سالم السعاري الحسلي، ط: الثانية، مؤسسة قرطبة - مصر،

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

^٥ تفسير الطبري: ٧/ ١٠٥.

"كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف في استقباحه واستحسانه العقول، فتحكم بقبحه الشريعة"^(١). وقيل: "كل ما قبحه الشرع وحرّمه وكرهه"^(٢).

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نصرة الدين

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جزء من أجزاء الدعوة في التعريف العام، إلا أنه صار قسيما له في بعض النصوص، كما في قوله: (وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٣). وذلك لأهميته البالغة، واحتياجه إلى سلطة في بعض المراحل، وذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقوة واليد. ومن هنا أذكر فيما يلي أهمية هذا الركن لنصرة الدين، وبقائه في حياة المسلمين، ودرء الفتن عنهم:

١- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب خيريّة هذه الأمة، فالأمة الإسلامية امتازت عن سائر الأمم بسبب قيامها بهذا الركن الركين، الذي يُقوّم الدين، ويحفظ أهله من الانحراف والابتداع. فإذا تركت الأمة هذا الأمر فقدت خيريّتها، وعرضت نفسها للفتن في الدين والدنيا، كما قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)^(٤).

٢- لا يخفى على أن القيام بهذا الأمر وقاية للأمة من الهلاك والفتن، كما نجّى الله الأمم السالفة، الذين كانوا ينهاون عن السوء. قال تعالى في أهل القرية المجاورة للبحر: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزِّ بَيْتِهِمْ بِيَمِينٍ وَكَانُوا يَفْسُقُونَ)^(٥). وذلك أن الفتنة إذا نزلت عمّت الصالح والطالح، فلا بدّ من درئها بعملية وقائية قبل أن تنزل وتحتاج الجميع، كما يقول الله تعالى: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)^(٦). وقال الإمام النووي في بيان أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: "وهو باب

^١ المردات للراغب الأصفهاني، ص: ٨٢٣

^٢ لسان العرب لاس مظهر: ٢٣٣/٥

^٣ سورة آل عمران: ١٠٤

^٤ سورة آل عمران: ١١٠

^٥ سورة الأعراف: ١٦٥

^٦ سورة الأعراف: ٢٥

عظيم، به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عمّ العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أو شك أن يعتمهم الله تعالى بعقابه^(١).

٣- أن القيام بهذا العمل يقوّي الإيمان، ويحفظه من الضعف والانحلال. وذلك أن العبد حين يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحافظ على إيمانه ودينه من أن يشوبهما ضعف أو اضمحلال؛ لأنّ عدم إنكار المنكر يثخن الإيمان بجروح بالغة، وربّما يقع هذا الجراح في مقتل، كما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(٢). والإنكار بالقلب: هو كراهية المعصية والغضب الداخلي لانتهاك محارم الله، وهذا الإنكار دليل على وجود الإيمان في قلب المنكر؛ لأنّ صاحب الإيمان لا يسمح له إيمانه بالبرود أمام المنكرات، بل يدفعه إلى محاولة التغيير للمنكر بقدر ما أمكن. ولما كان الإنكار بالقلب لا يتطلب امتلاك سلطة وقوّة، صار إيمان من لم يكره المعصية، ولم يحسّ بقبحها على خطر؛ لأنّ ذلك آخر درجات الإيمان.

٤- لا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظ للدين من أن تُنتهك محارمه، وحماية للشريعة أن تُبدّل أحكامها. فإذا افتقد هذا الركن في حياة المسلمين تجرّأ الفساق وأصحاب الأهواء أن يجاهروا بفسقهم ومعاصيهم، الأمر الذي يتسبّب منه فشوّ الفساد في المجتمع، وانتشار الرذيلة بينهم. وذلك يجرّ إلى التهاون بأداء الفرائض، وإقامتها في أوقاتها المحدّدة، بل ربما أدّى ذلك إلى تضييعها وتركها بالكلية، مع المجاهرة بالمنكرات والفواحش، والله المستعان.

ثالثاً: الجهاد وأهميته في نصرته الدين

الجهاد ذروة سنام الإسلام، ومעقل حماية الأمة من كيد الأعداء، وحفظ عقيدتهم من الشكوك والشبهات، والدفاع عن بلادهم من طمع الكفار، وحراسة معابدهم من الهدم والتقويض، ومحمّطة اختيار الله للشهداء، وموطن تمحيص المؤمنين من المدسوسين فيهم. لذا كان للرسول صلى الله عليه وسلم من الجهاد بأنواعه القدح المعلى، والنصيب الأوفر؛ ليكون للأمة محلّ الاقتداء، ويتمثّل لهم في موطن التأسّي والاقتفاء. قال الإمام ابن القيم مبيناً أنواع الجهاد، التي قام

^١ شرح النووي على مسلم: ٢٤/٢

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٦٩/١)، كتاب الإيمان، باب بيان كونه اليقين عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يريد ويقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واحسان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه نحوه.

بها الرسول صلى الله عليه وسلم: "لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلّها فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان، والدعوة والبيان، والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده. ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا، وأعظمهم عند الله قدرا"^(١).

تعريف الجهاد لغة وشرعا وأنواعه

الجهاد لغة مأخوذ من الجَهْدُ أو الجُهْدُ، وهو: الطاقة والمشقة. وهما لغتان فصيحتان بمعنى واحد. تقول: بلغ الرجل جَهْدَهُ وجُهْدَهُ: إذا بلغ أقصى قوته وطاقته^(٢). وأما صيغة الجهاد والمجاهدة فمِنْ جَاهَدَ يُجَاهِدُ جِهَادًا ومُجَاهَدَةً. وإذا كان الفعل من اثنين، وكل واحد منهما يكابد من صاحبه شدة ومشقة قيل: فلان يجاهد فلانا، يعني: أن كل واحد منهما يفعل بصاحبه ما يَجْهَدُهُ ويشقّ عليه، فهو يجاهده بمجاهدة وجهاد^(٣). وأما الجِهَادُ شرعا فهو: المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل في محاربة الأعداء ومدافعتهم^(٤). والجهاد المشروع منه ما يكون بالقلب، كالعزم عليه، وباللسان كالدعوة إلى الإسلام وشرائعه، وإقامة الحجة على المبطل، وبيان الحق وإزالة الشبهة، وبالرأي والتدبير فيما فيه نفع المسلمين، وبالبدن بالقتال بنفسه^(٥).

هذا وللجهاد أربعة أنواع: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين. وكلّها داخلة في قوله تعالى: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)^(٦). فجهاد النفس له أربع مراتب: أن يجاهدها على تعلّم الهدى ودين الحق، وأن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وأن يجاهدها على الدعوة إليه، وأن يجاهدها على الصبر على مشاقّ الدعوة وأذى الخلق. فإذا استكمل هذه المراتب صار من الرّبّانيّين. وأما جهاد الشيطان فمرتبان: جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان، وجهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة

^١ راد المعاد لاس القيم: ٥ / ٣

^٢ انظر: حمرة اللعة ٤٥٢/١، لاس دريد الأردني، ط: الأولى، دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٨٧م. تحقيق: رمري مير عليكي. والصحاح للحوهري: ٤٦٠/٢ - ٤٦١، والمرادات للراغب الأصفهاني، ص: ٢٠٨، ولسان العرب لاس مطور: ١٣٣/٣

^٣ انظر: تفسير الطبري: ٣١٨/٤

^٤ انظر: المرادات للراغب الأصفهاني، ص: ٢٠٨، ولسان العرب: ١٣٥ / ٣

^٥ انظر: كتشاف القناع عن من الإقناع ٣٦/٣، لمصور بن يونس البهوتي الحسلي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لسان.

^٦ سورة الحج: ٧٨

والشهوات، فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني: يكون بعده الصبر. قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)^(١). وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، كما في قوله: (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)^(٢). وكما في الحديث: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»^(٣). وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان^(٤).

أهمية الجهاد في سبيل الله

إنّ متزلة الجهاد عند المسلمين عظيمة، ومرتبته بين فرائض الإسلام عالية، وهو ذروة سنام الإسلام، وشعيرة ماضية إلى يوم القيامة، حتى يقاتل آخر هذه الأمة الدجال. لا يشكك فيها أو يحددها إلا من طمست بصيرته، واتبع هوى نفسه، واستبدل دينه بديناه. وقد أجمعت الأمة الإسلامية على وجوبه وفرضيته. وفيما يلي أذكر طائفة من الأمور التي تبين أهميته:

١- أن الجهاد حماية للأمة من الفتنة وانتشار الفساد والكفر والنفاق. فإذا قامت الأمة بالجهاد وصارت لها شوكة لا يطمع عدوها الكافر في أن يفتنها عن دينها، كما أن المسلمون يجدون بيئة محفوظة من الفتن، يؤدّون فيها شعائرهم، وقيمون فيها شرائعهم، كما قال تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)^(٥). يقول الطبري في تفسير الآية: "حتى تكون الطاعة والعبادة كلّها لله خالصة دون غيره"^(٦).

٢- أن الجهاد يحفظ أراضي المسلمين من أن يستبيحهم العدو، ويحمي ديارهم من اعتداء المعتدين، كما يحفظ أموالهم وأولادهم من برائن العدو المعتدي. و يحتاج كلّ ما يجوزتهم من المنشآت الحيويّة، والمساجد والمدارس والجامعات والمستشفيات إلى قوّة ردع ودفاع، حتى يطمئنّ

^١ سورة السجدة: ٢٤

^٢ سورة التوبة: ٤١

^٣ أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦ / ١١)، كتاب السير، باب فرض الجهاد، عن أس رضي الله عنه لفظه. والسائي في سبه (٥١/٦)، كتاب الجهاد، من حان عاريا في أهله عن أس أيضا نحوه.

^٤ انظر: راد المعاد لابن القيم: ٩/٣ - ١٠

^٥ سورة الأفعال: ٣٩

^٦ تفسير الطبري: ٥٣٨/١٣

الناس على حياتهم وممتلكاتهم، كما قال تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا)^(١).

٣- أنه سبب لنشر الهداية بين شعوب العالم، لأنّ دين محمد صلى الله عليه دين عالمي، لا بد وأن يبلغ ما بلغ الليل والنهار. ولما كان معيار الناس في العالم القوّة والمنعة، وتعتمد الملوك في الحكم على القوّة والاعتدار، بحيث لا يسمحون لمن تحت سلطنتهم من عوامّ الناس أن يعتنقوا ديناً غير ما يدينون به اقتضى الأمر في الإسلام أن يستعمل القوّة لحماية الدعوة ونشرها بين الشعوب المغلوبة على أمرها، من غير أن يُكرِّههم على الدخول في الإسلام، بل يخيّرهم بين قبول الإسلام أو الجزية والعيش تحت ظلّ الإسلام وأحكامه العادلة. ويدلّ على ذلك دلالة واضحة ما قام به المسلمون في القرون المفضّلة من الاهتمام بالقوّة والجهاد، الأمر الذي نتج عنه اتّساع رقعة الإسلام، وانتشار الدعوة الإسلامية، وكثرة المهتدين والمقبلين على الإسلام.

٤- ولما كان يوجد في كل مجتمع نفعيون، همهم الاستفادة من مكتسبات المجتمع من غير اكتراث بمبادئه ومعتقداته ومصالحه، بل يصل بهم الأمر إلى التلاعب بتلك المبادئ ومقتضياتها شرع الله الجهاد الذي فيه تضحية للنفوس، وصرف للأموال، وترك للأهل والأولاد، الأمر الذي لا يتحمّله إلا الصادقون في دعاويهم، المخلصون لدينهم ومجتمعهم. وفي ذلك تمحيص للمؤمنين وتنقية لصفوفهم من المنافقين الذين يصعب عليهم تكبّد هذه المشاقّ، وتحمل هذه التضحيات، والتي ليس فيها ضمان لنفع عاجل أو مكتسب دنيوي. وذلك كلّه يؤكّد على أهمية الجهاد في الإسلام وأهدافه النبيلة. كما قال الله تعالى: (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)^(٢). يقول الطبري في تفسير الآية: "وليختبر الله الذين صدّقوا الله ورسوله، فيبتليهم بإدالة المشركين منهم، حتى يتبيّن المؤمن منهم المخلص الصحيح الإيمان من المنافق"^(٣).

٥- إنّ في الجهاد رفع للظلم عن المضطهدين، ودفع للاعتداء على المستضعفين. فالدنيا مليئة بالنفوس المريضة بمرض التجبّر والتكبر، والتعالى على الآخرين ظلماً وعدواناً، والارتياح بآلامهم وآثامهم. ومن كان هذا حاله فلا بدّ من قوّة تردعه، وعتاد يوقفه عند حدّه. ومن هنا اكتسب

^١ سورة الحج: ٤٠

^٢ سورة آل عمران: ١٤١

^٣ تفسير الطبري: ٢٤٤/٧

فرض الجهاد أهميته في دفع الظلم وإزالة الاعتداء، الأمر الذي لا تطيب الحياة بدونها، ولا تستقيم. وعلى هذا، فلا يمكن مزاولة الأعمال الدينية أو الدنيوية لمن يرزح تحت قهر الظلمة والمتجبرين. قال الله تعالى محرضاً المؤمنين على الجهاد لتخليص المؤمنين المضطهدين، ورفع الظلم عنهم: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا)^(١). وقال تعالى مبيناً سبب الإذن للمؤمنين بالجهاد في بداية فرضه في الإسلام: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)^(٢).

^١ سورة النساء: ٧٥

^٢ سورة الحج: ٣٩

المطلب الثاني: الترغيب في الدعوة إلى الله والترهيب من تركها

أولاً: الترغيب في الدعوة إلى الله

الترغيب في الدعوة إلى الله يتم من خلال عرض الآيات، التي تحتّ عليها، وتبيّن منافعتها العاجلة في الدنيا، وثوابها الآجل في الآخرة، ترغيباً للأمة في الحرص عليها، والتمسك بأمرها. وفيما يلي ذكر للنصوص، التي ترغّب في الدعوة إلى الله تعالى:

١- إنّ الدعوة إلى الله تعالى كانت أهم وظيفة حباها الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، تحمّل المشاق، وهجر الأوطان من أجلها، وعاده الأقارب والأباعد، ليتخلّى عن القيام بها. وبالرغم من كل هذه العوائق فقد استمرّ في القيام بها أحسن قيام، الأمر الذي يدلّ على رفعة شأنها ومزيد شرفها. وقد كانت الدعوة أول أمر تمّ توجيهه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، حيث قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)^(١). وقال تعالى مؤكّداً على ذلك: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالْتِى هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)^(٢). وقال تعالى آمراً له بالدعوة، ومشجّعاً له بشبّاته على الصراط المستقيم: (وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ)^(٣). وكما أمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله، كذلك وصفه بها أيضاً وصفا لازماً لا ينفكّ عنه بحال، فهو من شدّة حرصه على الدعوة سمّاه الله بالداعي والنذير والبشير والهادي، كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا)^(٤). وهذا اكّله يمثّل ترغيباً للأمة في القيام بهذا العمل العظيم اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم.

٢- ومّا يكون ترغيباً في الدعوة إلى الله أنّها كانت عمل الأنبياء، وأتباعهم من قبلنا. وهذا نبيّ الله نوح عليه السلام يصرّح بدعوته لقومه على أحوال مختلفة وكيفيات متنوعة، كما في قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا)^(٥). وهكذا حكى الله تعالى في القرآن المجيد عن سائر الأنبياء والمرسلين أن وظيفتهم في الأساس كانت دعوة الناس إلى ربهم.

^١ سورة المدثر: ١-٣

^٢ سورة الحل: ١٢٥

^٣ سورة الحج: ٦٧

^٤ سورة الأحزاب: ٤٥، ٤٦

^٥ سورة نوح: ٥٠، ٦

وسجّل القرآن أيضا دعوة رجال من الصالحين، أدّوا هذا الواجب المقدّس، ونصحوا أقوامهم، وأرشدوهم إلى مصالحهم في الدنيا والآخرة، ومن هؤلاء مؤمن آل فرعون، حيث دعا قومه إلى النجاة من النار، والإنابة إلى العزيز الغفار، كما في قوله تعالى: (وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ)^(١). وفي هذا بيان لشرف الدعوة، والترغيب فيها.

٣- سَمَّى الله الدعوة أحسن الأقوال، فلا أحد أحسن قولاً ممّن قام بالدعوة، الأمر يؤكد على الترغيب في الالتزام بالدعوة، والانشغال بها لاكتساب هذا الوصف الجميل، الذي يؤدّي صاحبه إلى التشبه بالأنبياء والصالحين. قال الله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)^(٢). قال الحسن البصري: "هو المؤمن أجاب الله دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من طاعته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال إني من المسلمين لربي"^(٣).

٤- رَتَّبَ الله سبحانه على القيام بالدعوة الفوز المطلق في الدارين، وأن القائمين بالدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم الحائزون على الفلاح، مما يزيد الرغبة في العمل الذي به فازوا، والأمر الذي به نجحوا. قال تعالى: (وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٤). وهكذا قضى الله سبحانه بالخسارة الفادحة على جميع الإنسانية إلا من اتّصف بصفات أربعة من بينها الدعوة إلى الله، والتواصي بالحق، والخسارة تضادّ الفوز والفلاح، كما قال تعالى في سورة العصر: (وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)^(٥).

٥- أَنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سمة بارزة لهذه الأمة، نعت الله بها، وجعلها سبباً لخيريتها وأفضليتها على سائر الأمم، مما يؤكد على أن المتّصف بها يكون له النصيب الأوفر، والخط الأكبر في انتسابه لهذه الأمة المباركة. وهذا في حدّ ذاته ترغيب لجميع الأمة أن يحققوا انتسابهم للرسول صلى الله عليه وسلم بتبني عمله المفضّل، والقيام بوظيفته الأساسية، حتى يكونوا

^١ سورة غافر: ٤١، ٤٢

^٢ سورة فصلت: ٣٣

^٣ فتح القدير للشوكاني: ٥٩١/٤

^٤ سورة آل عمران: ١٠٤

^٥ سورة العصر: ١-٣

خير أمة أخرجت للناس. وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)^(١).

٦- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان وصفا لازما لعباد الله الصالحين من قبلنا، فإن الإصلاح يقتضي الإصلاح، حيث إن المرء عندما يمثل أمر الله، وينتهي عن محارمه يودّ لو أن الناس كلهم اهتموا إلى الصراط المستقيم، ويحبّ لهم ما يحبّ لنفسه، ويشفق عليهم في نهيمهم عن المعاصي والمنكرات، إلى جانب تعظيمه لله، الأمر الذي يجعله لا يقرّ له قرار، ولا يسكن له بال، حتى يُعبدَ الله وحده، ويُطاع أمره، ويُجتنبَ مساحطه. وفي كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصفا للصالحين من الأمم قبلنا ترغيب لهذه الأمة بالافتداء بهم، والاقتفاء لأنارهم. وقد مدح الله سبحانه الصالحين من أهل الكتاب بهذا الوصف، فقال: (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)^(٢).

٧- جعل الله سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الصفات التي تميز بها المؤمنون عن المنافقين، فالمؤمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما أن المنافق يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف. وفي هذا ترغيب للمؤمنين في العمل بهذا الأمر تحقيقا لإيمانهم، وتزويها لأنفسهم عن سمة النفاق، التي تلوّث بها كثير من مدّعي الإيمان. فقال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٣).

٨- جعل الله سبحانه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من الصفات التي تؤهل الأمة إلى استحقاق التمكين في الأرض، والانتصار على الأعداء، والتصرف في مقاليد الكون، والتنفيذ لأحكام الله في أرضه. وهذه منحة غالية، وهبة صافية، وفرصة سانحة لمن تهيا لبلوغ هذه المرتبة العالية، والمترلة الشريفة، التي لا يبلغها من عباده إلا أولو الأيدي والأبصار، وهم من جمعوا بين

^١ سورة آل عمران: ١١٠

^٢ سورة آل عمران: ١١٣، ١١٤

^٣ السورة السابقة: ٧١

اليقين والبصيرة في الدين، وبين القوة في طاعة الله وتنفيذ أوامره في هذا الكون، كما نعت الله ذلك بصفوة عباده الأنبياء في قوله: (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ)^(١). "فالأيدي: القوة في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه"^(٢). وقال تعالى في وصف عباده المستحقين للتمكين: (الَّذِينَ إِنْ مَكْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)^(٣). وفي هذا ترغيب للمؤمنين في القيام بالدعوة لينتظم أمرهم في الدين والدنيا.

٩- وقد ذكر الله تعالى خصوصية للنهي عن المنكر والفساد. وذلك أن الأمة التي تقوم بهذا العمل الجليل يجازيهم الله بالنجاة من العذاب المحيط بأهل المعصية والفساد، مما يكون ترغيباً للأمة أن تتمسك بأسباب النجاة قبل أن يعمهم الله بالعقاب، فيأخذوا على يد الظالم، ويُفسروه على الحق قسراً. وفي هذا يقول المولى جل وعلا: (قُلُوبًا كَانَتْ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)^(٤). وقال في شأن القرية التي كانت حاضرة البحر: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)^(٥). ومن هنا يعلم أن النهي عن السوء سبب للنجاة من العذاب النازل على أهل المعاصي والمنكرات.

ثانياً: الترغيب من ترك الدعوة إلى الله

لا شك أن أول ترهيب فيما يتعلق بترك الدعوة هو الحرمان من تلك المزايا والمنافع التي حصلت للقائمين بعمل الدعوة، والأميرين بالمعروف والناهين عن المنكر فيما ذكرته آنفاً. وزيادة على ذلك أذكر فيما يلي بعض النصوص، التي حذرت من عاقبة التخلّي عن هذه الأعمال الهامة، التي يشمل نفعها القائم بها، ويتعدّى إلى الآخرين، كما أن النحوسة في تركها تتعقب التارك نفسه، حتى تصل إلى النملة في جحرها والحيتان في البحر.

^١ سورة ص: ٤٥

^٢ الحوار الكافي لم سأل عن الدواء الشافي، ص: ٩٣، لاس قيم الحورية، ط: الأولى، دار المعرفة - المغرب، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

^٣ سورة الحج: ٤١

^٤ سورة هود: ١١٦

^٥ سورة الأعراف: ١٦٥

١- أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن بني إسرائيل، في إحاطة اللعنة بهم، وابتعادهم من رحمة الله، مشيراً إلى أن اللعنة وقعت عليهم بسبب تظاهرهم بالمنكرات في نواديهم وتجمعاتهم، وعدم قيام من أوتوا الرشد منهم بالنهي عن ذلك، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، فلعنهم وغضب عليهم. وفي هذا ترهيب للأمة من اقتفاء آثار القوم، حتى لا يصيبهم ما أصابهم. وفي ذلك يقول تعالى: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)^(١).

٢- وإذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يترل العقاب من الله تعالى على عامة الناس صالحهم وطالحهم، إذ العقوبات الربانية لا تفرق بين أهل الخير وأهل الشر، إنما تترل وتعم الجميع، ثم يبعثون على نياهم وأعمالهم يوم القيامة. ومن هنا يعلم أن القانون العام، والسنة الربانية في استدفاع البلايا والمصائب العامة هو الالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا احتل هذا الأمر، وترك المسلمون ذلك خيف عليهم من نزول الجوائح والكوارث عليهم بين الحين والآخر، الأمر الذي يؤكد على الترهيب من ترك الدعوة والنهي عن المنكر. وفي ذلك يقول المولى عز وجل: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)^(٢). هنا حذر أبو بكر رضي الله عنه من عاقبة من يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تمسكاً ببعض النصوص المحتملة، والتي يستدل بها من لا فقه عنده بأنه إذا أصلح نفسه فلا عليه من الآخرين شيء، فقال: "أيها الناس، إنكم تفرعون هذه الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)^(٣)، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»^(٤).

٣- وتدل سورة العصر دلالة واضحة على أن الخسارة الكاملة المذكورة فيها تترتب على ترك الأعمال الأربعة التي اشتملت عليها، والتي يخرج المرء من الخسارة رأساً، ويحوز على الفلاح جملة عند القيام بجميعها على وجه الكمال. أما من ترك بعضها فيحصل له من الخسارة بقدر ما ترك من العمل. ومن هنا فإن من ترك الدعوة إلى الله، والوصية بالحق فقد حالفته الخسارة، ولازمه

^١ سورة المائدة: ٧٨، ٧٩

^٢ سورة الأعراف: ٢٥

^٣ سورة المائدة: ١٠٥

^٤ أخرجه الترمذي في سننه (٤٦٧/٤)، كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يعر المكر لفظه. وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

النقصان إلى أن يتوب، الأمر الذي يؤكد على الترهيب من ترك الدعوة والأمر بالمعروف، فإنه خسارة عظيمة في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: (وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ)^(١). ولا ترهيب أعظم من وقوع الإنسان في الخسارة الدينية، التي يخسر فيها نفسه وأهله وماله. وهي خسارة لا تنجبر إذا استمرت إلى ما بعد الموت، بخلاف الخسارة الدنيوية، فإنها قد تنجبر، ويحصل للإنسان ما يكون عوضاً عنها. وقد وصف الله تعالى هذه الخسارة بالخسارة البينة، بسبب حرمان صاحبها الثواب، واستحقاقه أليم العقاب، فقال: (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)^(٢). والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

^١ سورة العصر: ١-٣

^٢ سورة الرمز: ١٥

المطلب الثالث: الترغيب في الجهاد والترهيب من تركه

لما كان الجهاد مشقته على النفوس ظاهرة، وكراهية القلوب له واضحة، وثقله على الأبدان جلية، كما قال تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ)^(١)، رغب الله تعالى فيه بنصوص كثيرة، تبين فضائله العديدة، وتبرز معانيه السامية، وتحقق مكاسبه العاجلة، وتعرض منافعه الآجلة. كما حذر من تركه والإعراض عنه بزواجر حاسمة، وخوف عن القعود عنه بقوارع مرهبة. وفيما يلي عرض لتلك النصوص الواردة في حقه ترغيا وترهيبا.

أولاً: الترغيب في الجهاد في سبيل الله

تظهر طريقة القرآن الكريم في الترغيب، والتشويق، والحث على الجهاد من خلال ذكر الآيات الواردة في ذلك، وسأرتبها حسب النقاط التالية:

١- من أعظم ما يُرغَّب في الجهاد، ويدلّ على ثوابه الكبير حصول الرحمة والمغفرة من الله تعالى لمن قام بهذا العمل ابتغاء مرضاة الله. وإذا رحم الله عبداً، وغفر له حصل له كلّ خير في الدنيا والآخرة، واندفع عنه كلّ شرّ في العاجل والآجل. وفي ذلك يقول الباري جل وعلا: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)^(٢). وقال تعالى: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٣).

٢- وقد تمّ وعد الله للمجاهدين بالفوز والفلاح، وذلك يشمل حصولهم على المطالب السنيّة، ونجاتهم من المعاطب الدنيّة في الدنيا والآخرة. وهذا من أعظم المرغبات لهذا العمل العظيم، فصاحبه بالرغم من المشقة الحاصلة به يظفر ببغيته وآماله في العاجل والآجل. وفي ذلك يقول المولى جلّ في علاه: (لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٤).

^١ سورة البقرة: ٢١٦

^٢ السورة السابعة: ٢١٨

^٣ سورة الحل: ١١٠

^٤ سورة التوبة: ٨٨

٣- وقد أخبر الله سبحانه عن فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، ومآلهم في الآخرة، فوعدهم بأعظم الدرجات، ووصفهم بالفائزين، وبشرهم برحمة منه، أزال بها عنهم جميع الشرور، ورضوان هو أعظم ما يتمناه أهل الجنة، كما قرّر خلودهم الأبدي في الجنات، التي يتنعمون فيها على وجه الاستمرار، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذّ الأعين، ممّا لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، فقال الله عزّ وجل: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ).^(١)

٤- وأنجز الله عقد مبايعة عظيمة، ومساومة جسيمة بينه وبين المجاهدين. وذلك أنّه اشترى بنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم ثمنًا لهذا العقد، وجعل السلعة الجتنّ وما فيها من النعيم المقيم، والأجر العظيم، كما جعل طريقة أداء الثمن أن يبذلوا أموالهم وأنفسهم في جهاد أعدائه لإعلاء كلمته. وقد أكّد على هذا الوعد بأنّه مسجّل في أشرف كتب الله المتّلة: التوراة والإنجيل والقرآن، وأمرهم بأن يستبشروا بهذا البيع العظيم، والعقد الثمين، كما أخبر بأنّ ذلك فوز عظيم، ونجاح كبير. وفي ذلك يقول الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).^(٢) وفي هذا ترغيب في الجهاد، وتحريض على بذل الغالي والرخيص في إقامته.

٥- وقد وصف الله تعالى الجهاد مع الإيمان بتجارة رابحة، ورّب عليها النجاة من النار، ومغفرة الذنوب، والحياة على جنّات النعيم، التي تجري تحتها الأنهار، والتي اشتملت على المساكن الطيبة، وسَمّى ذلك كله بالفوز العظيم، كما وعد على هذا العمل بالنصر والتمكين، والفتح القريب، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ

^١ سورة التوبة: ٢٠-٢٢

^٢ سورة التوبة: ١١١

لَكُمْ دُؤُوبُكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ^(١).

٦- ومما يُرغَّب في الجهاد في سبيل الله تعالى التنويه بمصير الشهداء، والمترلة الرفيعة، التي يتبوؤونها باستشهادهم، ومنحهم إياهم الحياة والتنعم بالجنات قبل الحساب والكتاب، وما يتبع ذلك من مغفرة الذنوب وتكفير السيئات، وهم مع ذلك فرحون بما آتاهم الله من فضله العظيم، وأجره الجزيل، مع الإخبار باستبشارهم بهذه النعمة التي تمت لهم، وتهنئة بعضهم لبعض. وذلك ينشط النفوس، ويثير العواطف، حتى تشتاق إلى الاستشهاد، وتتنافس في الجهاد، علّها تظفر بهذه المترلة الشريفة، والدرجة العالية. وهذه المعاني اشتمل عليها قوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)^(٢).

٥- الناس في الجنة على مراتب متفاوتة ودرجات متغايرة، بعضها في العلو والرفعة متناه، وبعضها في السفلى والتزلزل إلى الغاية، غير أنه لا يوجد فيما بينهم تحاسد ولا تباعد، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْفُوقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»^(٣). وللمجاهدين في هذه الدرجات النصيب الأوفر، والحظ الأوفى، فقد ذُكر أن للمجاهدين مائة درجة، المسافة فيما بين الدرجة والأخرى كما بين السماء والأرض، وذلك في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ

^١ سورة الصف: ١٠-١٣

^٢ سورة آل عمران: ١٦٩-١٧١

^٣ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢١٧٧)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، كما يرى الكوكب في السماء، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه لفظه، والبحاري في صحيحه (٤/١١٩)، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأهلها مخلوقة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضا لفظ مقارب.

أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(١). وقال الله تعالى في بيان هذه الدرجات: (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)^(٢). وفي هذا ما يبعث على التنافس في بلوغ هذه الغرفات، واعتلاء هذه الدرجات من خلال الحرص على الجهاد، ابتغاء مرضاة الله تعالى.

٦- وقد شهد الله تعالى لأهل الجهاد بتحقيق الإيمان في قلوبهم، وتمكّنه في صدورهم، وجعل الجهاد من الأعمال التي تشهد لصاحبها فيما ادّعاه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله. وذلك يرغب المؤمنين في الحرص على ممارسة الجهاد، تحقيقاً لإيمانهم، وتصديقاً لمعتقداتهم، كما في قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)^(٣).

٧- وقد وعد الله لمن قام بهذا العمل الجليل أن ينصره، ويرفع شأنه في هذه الدنيا، ويدفع عنه كيد الأعداء، إثابة له على بذله نفائس أمواله، ومُهَجَ نفسه، وتحمله الشدائد في سبيل إعلاء كلمته، ونصرة دينه، كما قال تعالى: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)^(٤). وفي هذا ترغيب للمؤمنين أن يستعدّوا للجهاد، وتشجيع لهم على المشاركة في هذا العمل المبارك، الذي فيه رفعة شأن المسلمين، وتقوية شوكتهم. والانتصار على أعدائهم، والفتح لبلداتهم وقلاعهم، الأمر الذي تحبه النفوس الأبية، وتعشقه القلوب الفتية؛ لأنّ النفوس جبلت على حبّ المنافع العاجلة، كما قال تعالى: (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)^(٥). وفي مثل هذا حثّ الله المؤمنين على الجهاد، واستفراغ الوسع في مجاهدة الأعداء، ثم وعدهم على أن يردّ عنهم كيدهم، ويكفّ شرهم وأذاهم، كما في قوله تعالى: (فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضْ

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (١٦/٤)، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه لفظه.

^٢ سورة النساء: ٩٥، ٩٦.

^٣ سورة الحرات: ١٥.

^٤ سورة الحج: ٤٠.

^٥ سورة الصف: ١٣.

الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الدِّينِ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا^(١). ووعدهم أيضا في آية أخرى بإذلال المشركين على أيديهم، وإيقاعهم في الخزي والعذاب، مع تشفي المؤمنين منهم، وإذهاب غيظهم وحنقهم من صدورهم، كما في قوله تعالى: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرُّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)^(٢). والله الموفق للصواب.

ثانيا: الترهب من ترك الجهاد في سبيل الله

وردت نصوص عديدة في الكتاب العزيز تؤكد على التحذير من ترك الجهاد وإضاعته، مبينة النتائج السيئة المترتبة على ذلك في العاجل والآجل. وذلك ترهب للمؤمنين من ترك الجهاد والقعود عنه، وفيما يلي أورد بعض الآيات في هذا الأمر، مع توضيح معانيها وتوجيهها:

١- نهي الله تعالى المؤمنين عن التولي يوم الزحف، وحذر من مغبة ذلك، وأنه يؤدي إلى غضب الجبار، ويتبوأ صاحبه نار جهنم، وبئس المصير، وذلك في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْآذِبَارَ. وَمَنْ يُولُوهُمْ يُؤْمِنُ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)^(٣). قال الطبري في تفسير الآية: "وأن من ولّاهم الدبر بعد الزحف لقتال، منهزماً بغير نية إحدى الحلتين اللتين أباح الله التولية بهما، فقد استوجب من الله وعيده، إلا أن يتفضل عليه بعفوه"^(٤).

٢- وتوعد الله سبحانه في الآية التالية من انشغل بالمحجوبات الثمانية، وآثرها على محبة الله تعالى، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، والجهاد في سبيله، توعدّه بعقاب منه عاجل أو آجل، إلى جانب حرمانه من الهداية لتلبسه بالفسق المخرج من طاعة الله. قال الله تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ

^١ سورة النساء: ٨٤

^٢ سورة التوبة: ١٤، ١٥

^٣ سورة الأنفال: ١٥، ١٦

^٤ تفسير الطبري: ٤٤٠/١٣

اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ^(١). قال الإمام أبو السعود رحمه الله تعالى: "وفي الآية الكريمة من الوعيد ما لا يكاد يتخلص منه إلا من تداركه لطف من ربه، والله المستعان"^(٢).

٣- ولقد عاتب الله سبحانه المؤمنين على تناقلهم في النفي إلى الجهاد، منكرًا عليهم في إشارتهم الحياة الدنيا على الآخرة، بالرغم من التفاوت الهائل بينهما، فالدنيا متاع قليل وعرض زائل، ثم توعدهم على عدم النفي بالعذاب الأليم، وحرمانهم التوفيق، واستبدالهم بغيرهم في نصرة الدين. قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ. إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٣). وفي هذا ترهيب من التناقل عن الجهاد إثارة للمتناع الدنيا.

٤- أخبر الله سبحانه أن المؤمن، الذي تحقق إيمانه يرغب في الجهاد بماله ونفسه، ولا يستأذن من الإمام، بغرض القعود والتخلف عن الجهاد، حبًا في الراحة، وفرارًا من الموت، وإثما الذي يرغب عن الجهاد ويستأذن المسؤولين من لم يتحقق في الإيمان، ولا زالت الشكوك والشبهات في قلبه، متحيرًا فيها. وفي ذلك وعيد شديد للمتخلفين عن الجهاد، والمستقلين للنفي إليه. وذلك في قوله تعالى: (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)^(٤). قال أبو السعود: "تخصيص الإيمان بهما"^(٥) في الموضعين للإيذان بأن الباعث على الجهاد يبذل النفس والمال إنما هو الإيمان بهما، إذ به يتسنى للمؤمنين استبدال الحياة الأبدية، والنعيم المقيم الخالد بالحياة الفانية والمتاع الكاسد"^(٦).

٥- وقد ذمَّ الله سبحانه المنافقين، الذين فرحوا بالقعود عن الجهاد خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم. والسبب في ذلك كراحتهم للجهاد في سبيله بأموالهم وأنفسهم خلودًا إلى الراحة،

^١ سورة التوبة: ٢٤

^٢ تفسير أبي السعود: ٥٥/٤

^٣ سورة التوبة: ٣٨، ٣٩

^٤ سورة التوبة: ٤٤، ٤٥

^٥ أي: الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر

^٦ تفسير أبي السعود: ٧٠/٤

وإثارة للشهوات، وفرارا من الحرارة الشديدة التي كانت في أيام غزوة تبوك، فحذّرهم الله تعالى من حرّ نار جهنم، وأنه أشدّ حرارة من هذا الذي يشكون منه، الأمر الذي يكون ترهيبا مباشرا لمن قعد عن الجهاد، وأثر الراحة من مقاساة حرّ جهنم والعياذ بالله. وفي ذلك يقول المولى جل وعلا: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)^(١).

وأكتفي بهذا القدر فيما أردت تسجيله في هذا المبحث بخصوص الترغيب في نصرة الدين والترهيب من خذلانه، وقد بيّنت فيه أنّ المراد بنصرة الدين هنا الدعوة إلى الله، المشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيله، مع توضيح معاني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيله من حيث اللغة والشرع، إلى جانب إبراز أهميتهما في نصرة الدين. كما شرحت طريقة استخدام القرآن الكريم في الحثّ على الدعوة والجهاد، بالإضافة إلى أوجه الترغيب من تركهما أو تضييعهما. والله وليّ التوفيق، والهادي إلى سواء السبيل.

^١ سورة التوبة: ٨١

المبحث الرابع:

الترغيب في الإنفاق والترهيب من البخل

وفيه المطالب الآتية :

- ١ - مفهوم الإنفاق والبخل لغة وشرعا
- ٢ - الترغيب في الإنفاق بنصوص القرآن
- ٣ - الترهيب من البخل بنصوص القرآن

المطلب الأول: مفهوم الإنفاق والبخل لغة وشرعا

مفهوم الإنفاق لغة وشرعا

الإنفاق في اللغة مأخوذ من نَفَقَ، وتدور هذه المادة حول معنيين، يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه، والآخر على إخفاء شيء وإغماضه. وبين المعنيين تقارب وتشابه. فالأول: نَفَقَ الشيء يَنْفُقُ: مضى ونفذ، إما بالبيع، نحو: نَفَقَ البيع نَفَاقًا، أي: راج. وإما بالموت نحو نَفَقَتِ الدابة نُفُوقًا: ماتت، وإما بالفناء نحو: نَفَقَتِ الدراهم تُنْفَقُ وأنْفَقْتُهَا. والثاني، الذي هو إخفاء الشيء وإغماضه، ومنه النَّفَقَ، أي: سرب في الأرض له مخلص إلى مكان^(١). والإنفاق في الشرع هو: إعطاء الرزق فيما يعود بالمنفعة على النفس والأهل والعيال ومن يرغب في صلته أو التقرب لله بالنفع له من طعام أو لباس. فمن الإنفاق ما هو واجب، وما هو تطوُّع^(٢).

مفهوم البخل لغة وشرعا

البُخْلُ والبَخْلُ: لغتان: ضد الكرم، وهو: إمساك المقتنيات عمن لا يحقّ حبسها عنه. يقال: بَخِلَ يَبْخُلُ بُخْلًا وبَخَلًا: ضَنَّ بما عنده ولم يَحْذُ، فَهُوَ بَاخِلٌ، وَالْجَمْعُ بُخَالٌ وبُخْلَاء. والمَبْخَلَةُ: الشيء الذي يَحْمِلُك على البخل. وفي الحديث: «إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ»^(٣)، أي: هو مظنة لأن يحمل أبويه على البخل، ويدعوهما إليه، فيبخلان بالمال لأجله^(٤). وأما البخل شرعا، فهو: "منع ما يطلب مما يقتني، وشره ما كان طالبه مستحقًا، ولا سيما إن كان من غير مال المسئول"^(٥). وحصر القرطبي هذا المنع على المنع الشرعي، فقال: "البخل المذموم في الشرع هو الامتناع من أداء ما أوجب الله تعالى عليه"^(٦). وأما الغزالي فأضاف إليه حكم المروءة كما في قوله: "فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع، إما بحكم الشرع، وإما بحكم المروءة"^(٧).

^١ انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص: ٨١٩، وتاج الصحاح للوهري: ١٥٦٠/٤، ومعجم مقاييس اللغة لاس فارس: ٤٥٤/٥-٤٥٥

^٢ انظر: التحرير والتنوير لاس عاشور ٢٣٥/١

^٣ أخرجه ابن ماجة في سنه (١٢٠٩/٢)، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى السات، عن يعلى العامري بلفظه.

^٤ انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص: ١٠٩، ولسان العرب لاس منظور: ٤٧/١١-٤٨، والمعجم الوسيط: ٤١/١

^٥ فتح الباري لاس حجر: ٤٥٧/١٠

^٦ تفسير القرطبي: ١٩٣/٥

^٧ إحياء علوم الدين للغزالي: ٢٦٠/٣

المطلب الثاني: الترغيب في الإنفاق بنصوص القرآن

القوة الدافعة للإنفاق هي الشعور بالنعمة، التي أسبغها الله على الإنسان، فينبثق من هذا الشعور الإحسان والبر بالضعفاء والمساكين، وإقامة التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، إلى جانب الشعور بالأخوة الإيمانية والإنسانية. لذا أشارت الآيات المتحدثة عن الإنفاق إلى أن الإنسان مأمور بالإنفاق من الرزق الذي أعطاه الله إياه، الأمر الذي يؤكد على أن الإنفاق بمثابة الشكر على النعمة، التي وفّرت له من غير عوض، ولا كدّ ولا تعب، كما في قوله تعالى: (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)^(١). والإنفاق يزكّي النفس، ويطهرها من دنس البخل والشحّ، فإنّ النفس مجبولة على بعض الأمراض المتأصلة، ممّا يتطلب أن يتعاهد المرء بالعلاج الناجع، الذي نزل من السماء، فمن لم يجاهد نفسه بجرعات من هذه الوصفات الربّانية، لتطهير نفسه مما علق بها من الأمراض الجبليّة فقد خاب وخسر، ومن صبر على مرارة الدواء فقد أفلح وأنجح، كما قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)^(٢).

وزيادة على ذلك، فإنّ الإنفاق يخلق جوّاً من المحبة والإخاء بين أفراد المجتمع، ويُنقي من الملوثات، التي تعمل في تفكيك المجتمع وتدميره، كالشحناء والبغضاء والحسد. وذلك أن الضعفاء والمحتاجين يشعرون بالعلاقة القائمة على المحبة والإخاء والتكافل بينهم وبين أصحاب الأموال، وذلك عندما يصرف الأغنياء الزكاة والصدقات في مواساة الفقراء والمحاويج. بالإضافة إلى أن الإنفاق ينفي عنهم همّة الاستئثار بالثروة المودعة في الأرض. وذلك يجعل المحتاجين يشعرون بإخوة الأغنياء، وأنهم يشاركونهم في الأفراح والأفراح، ويقفون إلى جنبهم في النوائب والمشكلات. والإنفاق الوارد في القرآن يشمل الزكاة، وسائر أنواع الإنفاق في وجوه البرّ والخير، والمصالح العامة، إذ إن أكثر نصوص الإنفاق تأتي بصيغة العموم، التي تشمل كل إنفاق في وجوه الخير، بينما ترد نصوص أخرى خاصّة ببعض أوجه الإنفاق التي تم الترغيب فيها.

^١ سورة الحج: ٣٥

^٢ سورة الشمس: ٩، ١٠

أولاً: الترغيب في أداء الزكاة

سأذكر بعض النصوص، التي ترغّب في أداء الزكاة، من خلال إظهار النتائج الطيبة، التي تترتب على هذا الأداء في العاجل والآجل، على النحو التالي:

١- أداء الزكاة لمستحقيها سبب كبير لاستدراار رحمة الله تعالى على هذا الإنسان، فقد ذكر الله تعالى الزكاة ضمن صفات أخرى توجب لصاحبها رحمة الله التي وسعت كل شيء، فقال عزّ من قائل: (وَاَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا عَلَيْنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ^(١)). وفي آية أخرى أمر الله عباده بإقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وإطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم رتب على ذلك نزول رحمته على القائمین بتلك الأعمال، ممّا يكون ترغيباً في الحرص عليها، وأدائها بشروطها وأركانها ومستحباتها، وأن لا تضيع وتعمل في أيّ حال من الأحوال. ومن هنا يعلم أن الزكاة من موجبات رحمته تبارك وتعالى. وفي هذا يقول المولى جل في علاه: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ^(٢)).

٢- وعد الله سبحانه على أداء الزكاة ضمن صفات أخرى من صفات المؤمنين أن يجزل لأصحابها المثوبة والأجر، وأن يجدوا ثوابهم كاملاً عند الله، من غير بخس ولا نقصان. قال الله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(٣)). كما وعدهم بإزالة الخوف والحزن عنهم فيما تركوا في الدنيا أو يستقبلهم في الآخرة. وذلك في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(٤)).

٣- جعل الله تبارك وتعالى الزكاة ضمن صفات أخرى، كالإيمان بالله واليوم الآخر، وإقام الصلاة من موجبات الهداية، فمن أدّى الزكاة صار من عباد الله، المستأهلين لهداية التوفيق، إذ المهتدي من

^١ سورة الأعراف: ١٥٦

^٢ سورة النور: ٥٦

^٣ سورة البقرة: ١١٠

^٤ السورة السابقة: ٢٧٧

هداه الله سبحانه، كما في قوله: (إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)^(١).

٤- وعد الله تبارك وتعالى على بعض صفات المؤمنين، التي من ضمنها الزكاة، بالتمكين في الأرض والتصرف في مقاليدها، وجعل القيام بهذه الأعمال شرطاً في استخلاصهم في الأرض، مما يكون ترغيباً في أداء الزكاة على الوجه الصحيح، وحثاً على دفعها إلى مستحقيها راضية بها أنفسهم، فقال تعالى: (الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)^(٢).

ثانياً: الترغيب في الإنفاق العام

لقد مدح الله الإنفاق بشكل عام، من خلال ذكر ثوابه العاجل والآجل، فيكون ذلك ترغيباً في القيام به على أكمل وجه. ومن مظاهر ذلك ما يأتي في النقاط التالية:

١- مثل الله تعالى عملية الإنفاق في سبيل الله بالحبة التي أنبتت الزرع، وأخرج هذا الزرع سبع سنابل، في كل سنبل مائة حبة، توضيحاً للأجر العظيم، الذي يترتب على الإنفاق، والمضاعفة الكبيرة التي يتفضل الله بها على العبد فيما أنفق، فقال عزّ من قائل: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)^(٣). ومثل الله عزّ وجلّ في مقام آخر إنفاق المؤمن ماله، ابتغاء مرضاة الله، منشوحة بها نفسه بستان في مكان مرتفع، يهطل عليه مطر قويّ، أو رداد يكفي لإنباتها، فكثرت ثمارها حتى صارت ضعفين بالنسبة للبساتين الأخرى، كذلك الله يبارك عمل المؤمن ويتقبله، ويجازي عليه أحسن الجزاء. قال الله تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)^(٤). وفي هذا ترغيب للإنفاق بشكل عام.

^١ سورة التوبة: ١٨

^٢ سورة الحج: ٤١

^٣ سورة البقرة: ٢٦١

^٤ سورة البقرة: ٢٦٥

٢- ومن طرق الحث على الإنفاق، والترغيب فيه ما وعد الله تعالى لمن يقوم بذلك، من زوال الخوف والحزن عنهم، فهم في فرح وسرور دائمين، كما في قوله تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(١). وانتفاء الحزن والخوف يشمل الدنيا والآخرة، والله أعلم.

٣- ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال رغب الله فيه، وحث عليه المؤمنين، وسماه القرض الحسن، على أساس أن المؤمن ينتظر من الله الثواب الجزيل على نفقته، كما أن صاحب القرض ينتظر من المقرض أن يرد إليه ماله الذي اقترضه، فقال عز من قائل: "(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)^(٢)". وقال أيضا في مضاعفة النفقة التي سماها قرضا حسنا: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)^(٣).

٤- مدح الله سبحانه الإنفاق في غير آية، وجعله من أهم الصفات اللازمة للمؤمنين، حيث لا ينفك عنهم بحال من الأحوال، مما يكون ترغيبا للتحلي به، والحرص على ملازمته. وفي هذا يقول المولى عز وجل: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)^(٤). ولما عدد الله سبحانه وتعالى صفات عباد الرحمن في آخر سورة الفرقان جعل من أهم صفاتهم اللازمة الإنفاق بين التقدير والإسراف، فقال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)^(٥). ومدح الله عز وجل المؤمنين بذكر صفاتهم، التي منها الإنفاق في وجوه الخير: (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)^(٦).

٥- ومما وعد الله سبحانه على الإنفاق في وجوه الخير ما جاء في الآيات من الثواب العظيم والأجر الكبير، الذي يكون ذخرا لصاحبه في الآخرة. وفي هذا ترغيب للمؤمنين، وحث لهم على

^١ سورة البقرة: ٢٦٢

^٢ سورة البقرة: ٢٤٥

^٣ سورة الحديد: ١١

^٤ سورة البقرة: ٢، ٣

^٥ سورة الفرقان: ٦٧

^٦ سورة الرحمن: ٣٨

الاستكثار من إنفاق المال في سائر وجوه الخير. قال الله تعالى: (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)^(١). قال الإمام ابن كثير: "وقوله: فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير، ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة"^(٢). وقال تعالى في حصول الأجر الكريم ومضاعفة الحسنات على الإنفاق: (إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)^(٣).

٦- وقد حثَّ الله تعالى المؤمنين على الإنفاق في وجوه الخير، قبل أن يتوفاهم الموت، وينقطع موسم الأعمال، ويكثر الندم والحسرة، ويتلاشى الانتفاع بالفداء والخلة والشفاعات، الأمر الذي يؤكد على أهمية الإنفاق في وجوه الخير، وأنه ينبغي للمؤمن أن يستكثر منه ويجعل زاده إلى الآخرة، خالصا لوجه الله الكريم، طيبة بها نفسه. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَنْبَغُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)^(٤). وقال أيضا: (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ)^(٥).

٧- وكتب الله تعالى الفلاح السرمدي، والفوز الأبدي لمن وقاه الله شح نفسه، وهي غريزة جبلية، تحمل الإنسان على منع الحقوق، وتمسكه عن صرف الأموال إلى وجوه الخير، فقال تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٦). وقال تعالى أيضا: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٧). ومن وفقه الله للإنفاق في وجوه الخير، وأداء الوجبات، فقد وقاه شح نفسه، وكتب له الفلاح في الدنيا والآخرة.

^١ سورة الحديد: ٧

^٢ تفسير ابن كثير: ١١/٨

^٣ سورة الحديد: ١٨

^٤ سورة النقرة: ٢٥٤

^٥ سورة المافقون: ١٠

^٦ سورة الحشر: ٩

^٧ سورة النعاس: ١٦

٨- جعل الله سبحانه الإنفاق ضمن أعمال وصفات يستحق بها صاحبها دخول الجنان وجوار الرحمن، الأمر الذي يكون أكبر ترغيب للأمة في الإنفاق لمساعدة المحتاجين. وفي ذلك يقول المولى جل في علاه: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)^(١). وقال تعالى أيضاً: (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)^(٢).

٩- ومن الترغيب في الإنفاق ما رتب الله عليه من تعويض صاحب الإنفاق بما يحبه من المال الوفير، والولد النجيب، والبركة والنماء في سائر ما يملك، الأمر الذي يكون ترغيباً في الاستكثار من الإنفاق، غير أن هذا الأمر يحتاج إلى إيمان قوي، وثقة بالله تعالى فيما وعد. وفي ذلك يقول تعالى: (قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْتَطِيعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)^(٣). ويصدق ذلك الحديث: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»^(٤). ويؤيده أيضاً الحديث: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»^(٥). والله الموفق للصواب.

^١ سورة آل عمران: ١٣٣، ١٣٤

^٢ سورة الرعد: ٢٢

^٣ سورة ساء: ٣٩

^٤ أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٠١/٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه.

^٥ أخرجه البخاري في صحيحه (١١٥/٢)، كتاب الركاة، باب قول الله تعالى: فأما من أعطى واتقى، عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه. ومسلم في صحيحه (٧٠٠/٢)، كتاب الركاة، باب في المعق والممسك عن أبي هريرة أيضاً بلفظه.

المطلب الثالث: الترهيب من البخل بنصوص القرآن

لقد ذم العقلاء البخل قديما وحديثا؛ لأنه يبنى عن رغبة شديدة في الدنيا، وحرص عظيم على جمعها واقتنائها. ويكون للبخل أثر سلبي في التزام المرء بدين الله، فإن البخل بسبب حرصه يمتنع عن أداء كثير من الواجبات التي بينه وبين الله، والحقوق التي بينه وبين الناس، كما أشار إليه الحديث: «اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ»^(١). أضف إلى ذلك أن البخل يصاحبه شك في موعود الله على البذل والسخاء، سواء كانت عاجلة، كالبدل الذي يجده المنفق في ماله وحياته، أو آجلة كالأجر العظيم والثواب الكبير الذي يدخر له في الآخرة. ومما يزيد شناعة البخل أن البخل لا يبخل بما له عليه ملكية أصلية، فقد ولد وحيدا وهو لا يملك شيئا، وإنما تفضل الله عليه بهذا المال، وسيتركه لغيره إن عاجلا أو آجلا، فلا يصطحبه إلى القبر.

لذا أذكر بعض النصوص القرآنية التي ذمّت البخل، وحذرت من عواقبه الوخيمة، لينتبه العقلاء والمؤمنون، ويتجنبوا الاتصاف به على النحو التالي:

١- من أعظم البخل: البخل بما أوجب الله تعالى على المرء من الزكاة وغيرها، فمن بخل بالواجب أخذ النصيب الأوفر من هذا الوصف، وحقّ عليه وعيد الله الذي ورد فيمن منع حقّ الله أو حقوق العباد، حرصا على جمع المال واقتنائه. وقد توعدّ الله بالويل والعذاب المشركين، الممتنعين عن أداء الزكاة، ممّا يكون ترهيبا من منع الزكاة، ودفعها إلى مستحقّيها، كما في قوله تعالى: (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)^(٢).

٢- وذكر الله سبحانه نوعا من أنواع العقوبات، التي توعدّ بها أصحاب البخل، الذين يمتنعون عن أداء الواجب فيما خوّلهم الله من فضله، كيلا يكون في حسابان أحد أن الجمع للمال، وادّخاره، مع الامتناع عن واجبه خير له، بل إن هذا الفعل شرّ، وخزي له يوم القيامة. وذلك أن ماله الذي بخل به سيتحوّل إلى ثعبان أقرع، يلتف في عنقه، ويلدغ شذقيه ويهدده، كما في قوله تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٩٩٦)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، عن حابر بن عبد الله رضي الله عنهما للمطه.

^٢ سورة فصلت: ٦، ٧.

بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ^(١). وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الآية بقوله: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ^(٢) لَهُ زَبِيَّتَانِ^(٣) يُطَوِّفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزَمَتَيْهِ يَغْنِي بِشِدْقَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالِكٌ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا: (لَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ) (الْآيَةُ)^(٤)».

٣- وتوعد الله لمن يكثر الذهب والفضة، ويمنع حق الله، وحقوق عباده فيهما بعذاب شديد يوم القيامة. وذلك أن الذهب والفضة تُصَفَّحَ له صفائح حمية بالنار، فتكوى بها جباهه وجلوده، حتى ينقضي هذا اليوم، فيرى مصيره إما إلى النار وإما إلى الجنة، كما في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِلْأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)^(٥). ويفسر الآية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»^(٦).

٤- ونفى الله محبته عن كل متكبر، يتفاخر على الناس، ويبخل بماله ويأمر الناس بالبخل، مع كتمانهم لما آتاه الله من العلم والهدى، وهذذه بالعذاب المهيمن، الأمر الذي يكون ترهيباً للناس عن البخل بالمال، وإيذاناً بمدمته، وأن صاحبه يحرم من محبة الله ولطفه، ويصلى نار جهنم، وبئس المصير، كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا. الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)^(٧).

^١ سورة آل عمران: ١٨٠

^٢ والمراد بالشجاع الحية الذكر، والأقرع الذي تفرع رأسه أي غمط لكثرة سمه. وقال القرطبي الأقرع من الحيات الذي ابص رأسه من السم ومن الناس الذي لا شعر برأسه. انظر: فتح الباري لابن حجر ٢٧٠/٣

^٣ تشبيه ربيّة، وهما الربدتان اللتان في الشدقين، وقيل هما الكتكتان السوداوان فوق عييه، وقيل نقطتان يكتشفان فاه، وقيل هما في حلقة ممزلة رميت العتر، وقيل لخمات على رأسه مثل القرنين، وقيل ناان يخرجان من فيه. انظر: المصدر السابق، ٢٧٠/٣

^٤ أحرجه البخاري في صحيحه (١٠٦/٢)، كتاب الركاة، باب إثم مانع الركاة، عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه.

^٥ سورة التوبة: ٣٤، ٣٥

^٦ أحرجه مسلم في صحيحه (٦٨٠-٦٨١)، كتاب الركاة، باب إثم مانع الركاة عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه.

^٧ سورة النساء: ٣٦، ٣٧

٥- ومن بخل بما أوجب الله عليه في ماله عاقبه بأن يحول بينه وبين الهدى، ويتعسر عليه سلوك الطريق السوي، والالتزام بالدين، ويتيسر له الخصال الذميمة، وركوب المعاصي، مما يكون ترهيباً من البخل، وتوضيحاً لإفساده الأخلاق، وجرّه إلى الضلال والشقاء، كما قال الله تعالى: (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)^(١). قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى في تفسير الآية: "فسنيسره للعسرى أي: للحالة العسرة، والخصال الذميمة، بأن يكون ميسراً للشر أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي"^(٢).

٦- ومما يكون جديراً بالذكر هنا أن المال إذا أنفق في مجال الصدّ عن سبيل الله، ومحاربة أوليائه يكون وبالاً على صاحبه في الدنيا بالحسرة والندامة والغلبة عليهم، وفي الآخرة بالحشر إلى نار جهنم والعياذ بالله. وفي هذا ترهيب عن إنفاق المال في معصية الله، وبيان عقوبته في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)^(٣).

وإلى هنا انتهى المبحث الرابع في الترغيب في الإنفاق والترهيب من البخل، وقد تحدّث فيه عن مفهوم الإنفاق و البخل لغة وشرعاً، كما بينت فيه أوجه ترغيب القرآن في الزكاة، وفي الإنفاق العام، إلى جانب إبراز طريقة القرآن في الترهيب من البخل، والله الموفق للصواب.

^١ سورة الليل: ٨-١٠

^٢ تفسير السعدي، ص: ٩٢٦

^٣ سورة الأعراف: ٣٦

المبحث الخامس

الترغيب في صلة الرحم والترهيب من قطيعتها

ويشمل المطالب الآتية :

- ١ - مفهوم صلة الرحم، وقطيعته وحكمها
- ٢ - الترغيب في صلة الرحم بنصوص القرآن
- ٣ - الترهب من قطيعة الرحم بنصوص القرآن

المطلب الأول: مفهوم صلة الرحم وقطيعته وحكمهما

مفهوم صلة الرحم لغة وشرعا:

الصِّلَةُ لغة: من الوَصَلَ، الدَّالَّةُ على ضمِّ الشيء إلى الشيء. يقال: وَصَلَ الشيء بالشيء وَصْلاً وَصِلةً. وَيُقَالُ: وَاصَلَ فلان مُوَاصَلةً وَوَصَالاً: ضد هجره. ويقال: وَصَلَ حبله بفلان، وَوَصَلَ فلانا: بَرَّهُ وَأَعْطَاهُ مَالاً، وَوَصَلَ رحمه: أَحْسَنَ إلى الأقربين إليه من ذوي النسب، والأصهار. وَوَصَلَ المكان، وإليه وَصُولاً وَوُصْلةً وَصِلةً: بلغه وانتهى إليه. والوَصْلُ: ضد الهجران^(١). وأما الرَّحِمُ لغة: فمأخوذ من الرَّحْمَةِ، وهذا الأصل يدلّ على الرِّقَّة والعطف والرأفة. والرَّحِمُ: بيت منبت الولد، ووعاؤه في البطن، وَجَمْعُهُ الأَرْحَامُ. ومنه استعير الرَّحِمُ للقربة، لكونهم خارجين من رحم واحدة. وذوو الرَّحِمِ: هم الأقارب^(٢).

وصِلة الرَّحِمِ في الشرع: "الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارة تكون بالمال، وتارة بالخدمة، وتارة بالزيارة والسلام، وغير ذلك"^(٣). ويبيّن ابن الأثير العلاقة بين المعنى الشرعي واللغوي، فقال: "هي كناية عن الإحسان إلى الأقربين، من ذوي النسب والأصهار، والتعطف عليهم والرفق بهم والرعاية لأحوالهم، وكذلك إن بعدوا أو أسأؤوا ... فكأنه بالإحسان إليهم قد وصل ما بينه وبينهم من علاقة القربة والصهر"^(٤).

مفهوم قطيعة الرحم لغة وشرعا: القطيعة من القَطْع، وهو مصدر قولهم: قَطَعْتُ الحبل أَقْطَعُهُ قَطْعاً وَقَطِيعَةً فَانْقَطَعَ، ويدلّ على صَرْم وإبانة بعض أجزاء الجرم من بعض. والقَطْعُ والقَطِيعَةُ: الهجران ضدّ الوصل. وقَطَعَ رَحِمَهُ قَطْعاً وَقَطِيعَةً: عَقَّهَا ولم يصلها، ويراد به هجر الأهل والأقارب ومنع البر والإحسان إليهم^(٥). وأما قطيعة الرحم شرعا، فهو: هجران الأقارب من ذوي النسب

^١ انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ١١٥/٦، وتقديب اللغة للأزهري: ١٦٥/١٢، والمعجمات للراغب الأصفهاني، ص: ٨٧٣، ولسان العرب لابن منظور: ٧٢٧/١١، والمعجم الوسيط: ١٠٣٧/٢.

^٢ انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤٩٨/٢، والمعجمات للراغب الأصفهاني، ص: ٣٤٧، وتقديب اللغة للأزهري: ٣٤٤/٥، ولسان العرب لابن منظور: ٢٣٠/١٢، وما بعدها.

^٣ شرح النووي على مسلم: ٢٠١/٢.

^٤ النهاية لابن الأثير ١٩٢-١٩١/٥.

^٥ انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٠١/٥، والصحاح للحواري: ١٢٦٦/٣، وما بعدها، والمعجمات للراغب الأصفهاني، ص: ٦٧٧-٦٧٨، ولسان العرب ٢٧٦/٨، وما بعدها.

والأصهار والإساءة إليهم، فلا يصلهم برّ وإحسانه. ويختلف ذلك بحسب حال القاطع والمقطوع، فيكون بمنعهم من المال، والخدمة والزيارة والسلام أو حرمانهم من العطف والرفق بهم والرعاية لأحوالهم^(١). وقال الإمام الطبري رحمه الله تعالى في بيان المراد بقطيعة الرحم: "ظلمه في ترك أداء ما ألزم الله من حقوقها، وأوجب من برّها"^(٢).

أنواع الرحم وحكم الشرع في صلتهما أو قطيعتهما

يشمل الرحم أنواعا من ذوي القربى والأصهار، فيشمل الوالدين، ومن أدلى بهما من الأجداد والجدات، والأعمام والعمّات، والأخوال والخالات، ومن تفرّع منهم من أبناء العمّ، والخال والخالة، وكذا الأولاد، وأولادهم، وإن سفلوا، بالإضافة إلى من اتصل بالمرء من جهة المصاهرة، كالزوجة ومن أدلى بها من جهة والديها، وكذا أزواج الأولاد وزوجاتهم. قال الإمام ابن حجر فيمن يطلق عليهم ذوو الأرحام: "يطلق على الأقارب، وهم من بينه وبين الآخر نسب، سواء كان يرثه أم لا، سواء كان ذا محرم أم لا. وقيل هم المحارم فقط، والأول هو المرجح؛ لأن الثاني يستلزم خروج أولاد الأعمام وأولاد الأخوال من ذوي الأرحام وليس كذلك"^(٣). فهؤلاء يستحقّون البرّ والإحسان، والصلة بما يستطيع المرء من عون مادّي أو معنوي.

أمّا الحكم الشرعي العام في صلة الرحم، فإنّها واجبة، وقطيعتها معصية، ولكن الصلّة لها درجات، بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة، وصلتها بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحبّ، فلو وصل بعض الصلّة، ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعا، ولو قصرّ عما يقدر عليه وينبغي له لا يسمى واصلا^(٤). ومما يدلّ على حرمة قطيعة الرحم قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَاكَ لَكَ " ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

^١ انظر: بصرة الغيم في مكارم أخلاق الرسول ٥٣٣٠/١١

^٢ تفسير الطبري: ٤١٥/١

^٣ فتح الباري لاس حجر: ٤١٤/١٠

^٤ انظر: شرح النووي على مسلم ١١٣/١٦

وَسَلَّمَ: اقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ»^(١).

وليست صلة الرحم متوقفة على التبادل من الجهتين، بأن يواصل القريب إذا تواصل معه، معاملة له بالمثل، ولكن المطلوب وصل الرحم، ولو كان القريب لا يردّ بالمثل، بل يجب وصله ولو أظهر المقاطعة والهجران، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي، وَلَكِنَّ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَّهَا»^(٢). ويؤكد على ذلك ما نقل عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: «لَئِن كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسْفِهُهُمُ الْمَلَّ»^(٣) وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا ذُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(٤).

أما برّ الوالدين، وتحريم عقوقهما فداخل في حكم صلة الرحم العام، وتحريم قطيعتها، لأنّ حقوقهما أعظم من حقوق غيرهما، حيث كانت معاناتهما كبيرة في تربية الأولاد، والإحسان إليهم، الأمر الذي يقتضي اعتناء الأولاد بهما، وحرصهما على خدمتهما، وإرضاءهما أكثر من غيرهما، خاصة عند بلوغهما الكبر، كما في قوله تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَنْلَغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)^(٥). وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى تقديم الإحسان إلى الوالدين على غيرهما، وخاصة تقدّم الأمّ على الأب عند اجتماعهما. كما يقول أبوهريرة رضي الله عنه: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، من أحقّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثمّ من؟ قال: «ثُمَّ أُمُّكَ»، قال: ثمّ من؟ قال: «ثُمَّ أُمُّكَ»، قال: ثمّ من؟ قال: «ثُمَّ أُمُّكَ»، قال: ثمّ من؟ قال: «ثُمَّ أُمُّكَ».

^١ سورة محمد: ٢٢

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٨٠/٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، عن أبي هريرة رضي الله عنه بلغظه والبحاري في صحيحه (٥/٨)، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، عن أبي هريرة أيضا بلغظه مقارب.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٨)، كتاب الأدب، باب: ليس الواصل بالمكافئ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما بلغظه.

^٤ المَلّ يفتح الميم الرماد الحار، ومعناه كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تنسيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق أكل الرماد الحار من الألم، ولا شئ على هذا المحسن، بل يبالغ الإثم العظيم في قطيعته وإدخالهم الأذى عليه. انظر: شرح النووي على مسلم ١١٥/١٦

^٥ صحيح مسلم (١٩٨٢/٤)، كتاب الصلة والبر والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها بلغظه.

^٦ سورة الإسراء: ٢٣، ٢٤

أَبُوكَ»^(١). وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن التقصير في خدمة الوالدين عند الكبير ربّما يوقع المرء في الخزي يوم القيامة، والحرمان من الجنة، وأن الاعتناء ببيّهما حينئذ يوّدي صاحبه إلى الخلود في الجنان، فقال: «رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ»، قيل: من؟ يا رسول الله قال: «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ»^(٢).

وهنا أمر يجب التنبيه عليه لأهميته، وذلك أن صلة الرحم غير مقيدة بوجود الرابطة الإيمانية، فالقريب الذي يدين بعقيدة غير عقيدة الإسلام له حقّ الصلة على قريبه المسلم، إلا أنه لا يطيعه في المعصية، كما جاء التصريح به في قوله تعالى: (وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)^(٣). وقد حدث نموذج عملي من ذلك في زمن الوحي، كما قالت أسماء بنت أبي بكر: قدمت عليّ أمي، وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدتهم، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، قدمت عليّ أمي وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ»^(٤).

ومما هو جدير بالذكر، ولا ينتبه إليه الأكثرون أن من صلة الرحم الاهتمام بأمور القربة الدينية. وذلك بدعوتهم إلى القيام بالعبادات المفروضة، وتعويدهم على السنن والآداب، وتهذيب الأخلاق والالتزام بمكارمها، وإصلاح المعاشرات والمعاملات، من خلال تعليمهم الأحكام الإسلامية، وتركيتهم بالترغيب والترهيب. بالإضافة إلى تخويفهم من عقاب الله تعالى، ومنعهم من جميع الوسائل المؤدية إلى التهاون بأعمال الدين، وزجرهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات، وتطهير بيئة المنزل من كلّ المؤثرات الخارجية، المغرية على الفتن والمعاصي. ومن أعظم المؤثرات الحالية الإعلام الهابط، من الأفلام والمسلسلات والأغاني والموسيقا، والذي تبثّه وسائل الإعلام الحديثة من التلفاز والفيديو والانترنت، حمّانا الله من فتنتها وجميع المسلمين والمسلمات. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٨)، كتاب الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة لفظه، ومسلم في صحيحه (٤/١٩٧٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأقربا أحق به.

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٩٧٨)، كتاب البر والصلة والآداب، باب رعم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر، فلم يدخل الجنة عن أبي هريرة رضي الله عنه لفظه.

^٣ سورة لقمان: ١٥

^٤ أخرجه مسلم في صحيحه (٢/٦٩٦)، كتاب الزكاة، باب فصل المقة والصدقة على الأقربين والروح والأولاد، والوالدين ولو كانوا مشركين. والبخاري في صحيحه (٤/٨)، كتاب الأدب، باب صلة الوالد المشرك.

عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ^(١). يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي في تفسير الآية: "ووقاية النفس بإلزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالاً، ونهيها اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه"^(٢).

وهذا الجانب من صلة الرحم قد أهمل في أغلب المجتمعات الإسلامية، إلا من رحم الله عز وجل. وتكمن أهميته في تأثيره الطيب، ونفعه المستمر في الحياة، وبعد الممات. أمّا النفع المادي فيضمحلّ عما قريب، ولا يكون له تأثير بعد الممات. ومن هنا وجب اهتمام الأقارب المتدينين بأقاربهم في النصح والإرشاد، والتربية والإنذار، كما أرشد إليه قول الله تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)^(٣). ونسأل الله التوفيق لما فيه صلاح أمر الدين والدنيا.

^١ سورة التحريم: ٦

^٢ تفسير السعدي، ص: ٨٧٤

^٣ سورة الشعراء: ٢١٤

المطلب الثاني: الترغيب في صلة الرحم بنصوص القرآن

اهتمّ القرآن الكريم بوشيجة الرحم، ورابطة القرابة بين الناس، وقدّم أداء حقوق الرحم والقرابة على حقوق الآخرين. كما رغب في صلة الرحم، وتقديم ما أمكن من وجوه البر والإحسان إليهم، ورتب على ذلك أجورا عظيمة، وجوائز كبيرة لمن قام بوصلها في الدنيا والآخرة. وسأذكر تفصيل ذلك في النقاط التالية:

١- لقد كانت صلة الأرحام من وصايا الباري جلّ وعلا للأمم السابقة، الأمر الذي يدلّ على أهميتها، وجدارتها بأن يرغب فيها المؤمنون، ويقوموا بالاعتناء بها، لأنها وصية الله للأولين والآخرين، كما قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ)^(١).

٢- وجعل الله الاعتناء بذوي القربى، والإحسان إليهم، من صفات أهل البرّ والإحسان، وقدمهم في السياق على اليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين، مما يؤكد على أهميته، وأنه ينبغي أن ترغب إليه النفوس الزكية، التي ترنو إلى أن تتبوأ درجة البرّ والإحسان، وتتصف بصفات أهل التقوى والإيمان. وفي ذلك يقول الله تعالى: (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)^(٢). والآية عدّدت عشر صفات لأهل البرّ والتقوى.

٣- أمر الله سبحانه وتعالى بإعطاء ذوي القربى حقّهم، وأفرده بالذكر مع دخوله في عموم الإحسان، لتأكيد حقّهم، والترغيب في صلتهم وبرّهم، وليس هذا الأمر مجرد انسياق وراء العاطفة، التي تندفع بالطبع إلى صلة الرحم، إنّما ذلك أمر من أوامر الله، وحكم من أحكامه، يثاب على فعله، ويعاقب على تركه، كما في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ

^١ سورة القرة: ٨٣

^٢ السورة السابقة: ١٧٧

ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ^(١). قال السعدي: "وخص الله إيتاء ذي القربى وإن كان داخلا في العموم، لتأكد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك. ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريتهم وبعيدهم"^(٢).

٤- وقد حث الله على إيتاء ذوي القربى حقهم من الصلة والبر والإحسان، كما رغب في الصفا عنهم، إن صدرت عنهم إساءة في حق من كان يحسن إليهم؛ كي لا تكون هذه الأخطاء ذريعة إلى حجبهم من الصلة، ومنعهم من حقوقهم. ومن هنا يعلم أن الصلة ليست مشروطة بشعور الطرف الآخر بهذا الإحسان، وردّه بالشكر، ومراعاة حقوق المُنْعِي، بل العبد يؤمر بالبر إلى قريته، ولو جفاه وتجاهل عما كان ينبغي، من جزاء الإحسان بالإحسان. وجعل الله في جزاء العفو عنهم المغفرة لذنوب الواصلين، والتجاوز عن أخطائهم، إذ الجزاء من جنس العمل. وفي هذا يقول المولى جلّ في علاه: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٣). وقال الإمام ابن كثير في سبب نزول الآية: "وهذه الآية نزلت في الصديق، حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال"^(٤). فلما نزلت هذه الآية قال الصديق: "والله إنا نحبّ يا ربنا أن تغفر لنا. ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبدا"^(٥).

٥- وأمر الله تبارك وتعالى بالإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادته، منوهاً بذلك أهمية البرّ بالوالدين، وخاصة عند بلوغهما الكبر، ونهى الولد عن القول السيء والانتهاز للوالدين، كما أمره بالتأدب معهما بالقول الجميل، والعطف والرفق بهما، إلى جانب الدعاء لهما، شاكرا على ما بذلاه في تربيته حين كان صغيرا. قال الله تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا

^١ سورة الحل: ٩٠

^٢ تفسير السعدي، ص: ٤٤٧

^٣ سورة البور: ٢٢

^٤ تفسير ابن كثير: ٣١/٦

^٥ نفس المصدر والصفحة

يَنْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا^(١).

٦- وجعل الله من صفات ذوي الألباب الذين يستحقون بفضل الله وكرمه دخول الجنة أنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وفسر العلماء^(٢) بأن المراد من ذلك هم الذين يصلون الرحم، التي أمرهم الله بوصلها فلا يقطعونها. وفي ذلك ترغيب أكيد، وتشويق لطيف إلى صلة الأرحام، وإيتاء ذوي القربى، وإلانة القول لهم، والاهتمام بشؤونهم، وقضاء حوائجهم. قال الله سبحانه وتعالى في هذا الأمر: (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ. وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)^(٣).

٧- وقد توجه أمر الله إلى المؤمنين بإعطاء ذوي القربى حقهم ومستحقهم، وأن في هذا خير كثير، وأجر عظيم، إن أخلصوا، وأرادوا بذلك وجه الله، وأن من التزم بذلك يكون الفوز حليفه، والفلاح رديفه، الأمر الذي يكون ترغيباً عاماً للمؤمنين في الإحسان إلى ذوي القربى والاهتمام بشؤونهم الدينية والدنيوية. قال الله تعالى: (فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٤). والآية قصرت الفلاح على الذين أحسنوا إلى الأقارب، والمساكين، والمسافرين، مع الإخلاص. وهذا الفلاح يشمل حصول المطلوب، والنجاة من المكروه في الدنيا والآخرة. والله الموفق للصواب.

^١ سورة الإسراء: ٢٣، ٢٤

^٢ انظر: تفسير الطبري: ٤٢٠/١٦

^٣ سورة الرعد: ٢١-٢٢

^٤ سورة الروم: ٣٨

المطلب الثالث: الترهب من قطيعة الرحم بنصوص القرآن

تنبت قطيعة الرحم من الحالة النفسية والشعورية التي يعيشها الإنسان، فإذا بقي على فطرته التي فطره الله عليها لاجرم أنه يتعاطف مع ذوي رحمه، ويحسن إليهم إرضاء لضميره، واستجابة للعاطفة الجياشة، التي تندفع وفق الفطرة إلى حبّ القرابة وذوي النسب، والحرص على إيصال النفع إليهم. والإسلام دين الفطرة يأمر بما يتوافق معها في الغالب، إلا أنه يهذب الفطرة، ويوجهها بحيث يصير ما يستجيب له الإنسان بحكم الفطرة خالصا لوجه الله الكريم، حتى يتأتى للمؤمن أن يجني وراء إحسانه أجرا حسنا وثوابا عظيما؛ لأنّ العمل على غير نيّة وإخلاص عديم الثواب، كما يفهم من قوله تعالى: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)^(١). لأنّ الله أثبت الخيرية لهذه الأعمال المذكورة في الآية، والتي يتعدى نفعها إلى الغير، وأثبت الأجر والثواب لمن فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، الأمر الذي يدلّ على أنّ من فعل ذلك من غير احتساب لا أجر له، وإن كان في ذات العمل خير ونفع للآخرين.

والذي يقطع قرابته، ويمنعهم رفته، ويسيء إليهم بالقول والفعل فقد مسخت فطرته، وتبدّل شعوره الأصليّ تجاه القرابة بسبب حبّه للدنيا، وحرصه على جمعها، إلى جانب ضعف يقينه بالله تعالى في إخلافه على ما يعطي الأقارب. وهؤلاء قد أصيبوا بقسوة في القلوب، وتبدّل في الشعور، وجمود في العاطفة، ممّا أفقدهم الشعور بحقّ القرابة، والرقّة لذوي الأرحام، بل قابلوهم بالإساءة، ومنع الإحسان. وقد حذّر الرسول صلّى الله عليه وسلم من مقاطعة ذوي الأرحام، وجعل عقوبتها تصل إلى القاطع في الدنيا قبل الآخرة، كما في قوله: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدْخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^(٢). وسأذكر فيما يلي آيات كريمة تحذر من قطيعة الرحم:

١- وصف الله تعالى أهل الفسق بأنّهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، وأوّل ما يدخل في ذلك قطيعة الرحم، وجعل صفة الخسارة والنقصان ملازمة لهم في الدنيا والآخرة، الأمر الذي يؤكّد

^١ سورة النساء: ١١٤

^٢ أخرجه ابن ماجه في سنه (١٤٠٨/٢)، كتاب الرهد، باب البغي عن أبي نكرة رضي الله عنه لفظه. والترمذي في سنه (٦٦٤/٤-٦٦٥)، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب بدو تسمية عن أبي نكرة أيضا لفظه، وقال: هذا حديث صحيح.

على التحذير من هذا العمل الشنيع، المخالف للفطرة الإنسانية، والتي أوصى الله بها الأولين والآخرين. قال الله تعالى: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ. الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)^(١). وحقيقة الخسارة فوات الخير الذي كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه^(٢).

٢- وأبعد الله من يقطع ما أمر الله به أن يوصل عن رحمته وقربه، وتوعدهم باستحقاقهم سوء الدار التي فيها الجحيم والعذاب، كما ينذر بناقوس الخطر لمن تلبس بهذه الجريمة الشنيعة، والفعلة المنكرة. قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)^(٣).

٣- وقد عاتب الله أهل النفاق في المدينة على أنهم إن تولوا عن امتثال أمر الحال، وأعرضوا عن طاعة الله وطاعة رسوله فسيفسدوا في الأرض بالمعاصي والكفر، ويقطعوا أرحامهم، ورتب على ذلك وقوع اللعنة عليهم، وإصابتهم بالإعراض عن سماع الحق، والعمى عن رؤيته، مما يعتبر ترهيباً من قطيعة الرحم والإفساد في الأرض، كما في قوله: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامُكُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ)^(٤).

وفي هذا المبحث الخاص بالترغيب في صلة الرحم والترهيب من قطيعتها تناولت مفهوم صلة الرحم لغة وشرعاً، وشرحت أنواع الرحم، وحكم الشرع في صلتها أو قطيعتها، إلى جانب بيان أوجه الترغيب في صلة الرحم والترهيب من قطيعتها من خلال الآيات القرآنية. والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.



^١ سورة النقرة: ٢٦، ٢٧

^٢ انظر: تفسير السعدي، ص: ٤٨

^٣ سورة الرعد: ٢٥

^٤ سورة محمد: ٢٢، ٢٣

الفصل الخامس

أثر الترغيب والترهيب في إصلاح الفرد والمجتمع

وفيه خمسة مباحث كالتالي:

- ١- أثر الترغيب في الإيمان، والترهيب من الكفر في إصلاح الفرد والمجتمع
- ٢- أثر الترغيب في العبادات والترهيب من إضاعتها في إصلاح الفرد والمجتمع
- ٣- أثر الترغيب في الأخلاق الحميدة والترهيب من الزميمة في إصلاح الفرد والمجتمع
- ٤- أثر الترغيب والترهيب بأسماء الله وصفاته في إصلاح الفرد والمجتمع
- ٥- الترغيب والترهيب باليوم الآخر وأثره في إصلاح الفرد والمجتمع

التمهيد:

إنَّ لأسلوب الترغيب والترهيب مكانة سامية، ودور عظيم في إصلاح الأفراد والمجتمعات. وهذا الأسلوب من أهم الأساليب التي يعتمد عليها في حثَّ الأفراد والجماعات على عمل الخير، والتمسك بالحق، وتربيتهم على الهدى الصحيح، والخلق الفاضل، وتنقيتهم من الانحرافات العقدية، والخلقية. والقرآن الكريم مليء بهذا الأسلوب، فحثَّ على الإيمان والعمل الصالح من خلال ذكر نتائج ذلك، وثمراته في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(١). وحثَّ كذلك من الكفر والمعاصي، مشفوعا بنتائج ذلك، وآثاره السيئة في حياة الفرد، والجماعة في العاجل والآجل، كما في قوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)^(٢). وقوله تعالى: (وَمَنْ أَغْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى. وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)^(٣). والآيات في هذا كثيرة، غير محصورة.

أما ما يتعلق بتطبيق النبي صلى الله عليه وسلم لهذا المبدأ القرآني فجلَّ أن يحصى في هذا البحث، فقد دعا قومه إلى الله تعالى مرغبا ومرهبا، يرغبهم في رحمة الله ورضوانه، ويخوفهم من سخطه وأليم عذابه. ومن ذلك كلماته في دعوة الأقوام إلى الله ودين الحق في المرحلة المكيَّة، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»^(٤). وفي ذلك إعلان صريح، ووعد صادق لمن يقبل عقيدة التوحيد أن يظفر بالفلاح الدنيوي والأخروي، إذ الفلاح كلمة جامعة للحصول على المطلوب، والنجاة من المكروه. وقد كانت صفة التبشير والإنذار مصاحبة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا

^١ سورة الحل: ٩٧

^٢ سورة آل عمران: ٥٦

^٣ سورة طه: ١٢٤-١٢٧

^٤ وهذا جزء من حديث أخرجه ابن حزيمة في صحيحه (٨٢/١)، كتاب الوصوء، باب ذكر الدليل على أن الكعبين اللذين أمر المتوصي بعمل الرحلين إليهما العظامان اللتان في حانتي القدم. وإسناده صحيح، كما قال الأعظمي محقق الكتاب.

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا^(١). فكان يبشر بالجنة أن ينعم بها من صدقه وعمل بما جاء به من عند الله، وينذر من النار أن يعذب بها من كذبه وخالف أمره.

ولا يخفى على أحد أن من أعظم مهام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، التي بعث من أجلها تربية الأمة عن طريق الترغيب والترهيب. وذلك في تذكيرهم بكتاب الله تعالى، وتعليمهم إياه، وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة، وتطهيرهم من الأخلاق الفاسدة، كما في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)^(٢). فكان الجيل الذين نَعِمَ بالصحة النبوية، والتربية المصطفوية أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأزكاها عملا، وأحسنها خلقا، فصاروا أئمة يهتدى بفعالهم، ومنارات يستضاء بنورهم في السير إلى الله عز وجل.

ولما كان أصل الداء، ومنبع الأمراض التي يصاب بها الناس جهلهم برّبهم، وكفرهم بآياته، ورفضهم الدخول في العبودية الكاملة، واغترارهم بالدنيا، وغفلتهم عن الآخرة صار الدواء الناجع، والعلاج الحاسم لهذا الأمر الدعوة إلى الإيمان، ومستلزماته، والحث على الاستعداد للآخرة، والتحذير من الدنيا ومغرياتها، ثم التربية على الأخلاق الفاضلة، والتركية من الرذائل، وسوء الأخلاق. وفيما يلي أتناول أثر الترغيب والترهيب في الإيمان والعقيدة، والعبادة والسلوك، والأخلاق، راجيا من الله تعالى أن يلهمني الرشد والسداد في القول والعمل.

^١ سورة الأحزاب: ٤٥، ٤٦

^٢ سورة الجمعة: ٢

المبحث الأول:

أثر الترغيب في الإيمان والترهيب من الكفر في إصلاح الفرد والمجتمع

لا يخفى على أحد ما كان عليه أمر الجاهلية قبيل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم من جهل بتوحيد الله، وما يستحقّه ربّ الأرباب على العبيد، وما كان عليه أمر الناس من عبادة للأوثان، والتقرب إليها بأنواع القربات، وصرف جميع أنواع العبادات إليها من الخوف والرجاء، والنذر والعطاء، والطلب والدعاء، مع إقرار الناس بأنها حماد لا تسمع، ولا تبصر، ولا تبطش، ولا تمشي، كما في قوله تعالى: (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ)^(١).

لذا كان أول ما بدأ به الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى الإيمان، وإصلاح الفاسد من عقائد أهل الجاهلية، حتى إذا آمنوا بالله الواحد القهار، ونبذوا الشرك بالله، وعبادة الأوثان والأحجار، وسائر ما يعبد من دون الله استقام أمرهم، وصلاح حالهم، واستعدّوا للعمل بجميع ما يأتيهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من سائر الأحكام في العبادات والمعاملات، والأخلاق، وانتهوا عن جميع ما ينهاهم عنه من سائر المنهيات، والمعاصي، والمنكرات. وهذا كان دأب الرسل عليهم السلام من قبلنا، فكان الرسول يأمر قومه بعبادة الواحد الأحد، وترك عبادة ما سوى الله تعالى، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الترغيب في بقية الأوامر والأحكام على وجه التدرّج، وحسب الأولوية، بالإضافة إلى التحذير من سائر المعاصي والمنكرات الظاهرة، والباطنة. وإلى ذلك أشار قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)^(٢). وقوله تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)^(٣). وفي ذلك يقول الإمام ابن كثير: "فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب"^(٤).

^١ سورة الأعراف: ١٩٥

^٢ سورة الأنبياء: ٢٥

^٣ سورة الحل: ٣٦

^٤ تفسير ابن كثير: ٥٧٠/٤

طائفة من آثار تحقيق الإيمان واجتناب الكفر

إذا تمّ الترغيب في الإيمان من قبل الداعي، وحصل الترهيب من ضده وجد الإيمان في قلب المدعو، وآتى ثماره الطيبة، وظهرت آثاره في حياة الفرد والجماعة، فانقلبت رأساً على عقب، وتغيّرت من فساد إلى صلاح، ومن قلق واضطراب إلى اطمئنان وثبات، ومن خوف وجزع إلى أمن وسلام. ومن الآثار، المترتبة على ذلك ما يلي:

١- الطمأنينة: الاطمئنان يحصل لأهل الإيمان، فتطمئن قلوبهم بذكر الله، كما تطمئن إلى قدره بمشاهدة الثواب عند الابتلاء، فالمؤمن يرى بعين البصيرة أنّ ما يحدث في العالم كلّ بتقدير الله، فيعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيصبر على البلاء مطمئناً بثواب الله عليه، فلا يزعج، ولا يضطرب، ويسلم الأمر إلى الواحد القهار، الذي يدبّر شؤون الكون، وينفرد بالتصرّف فيه بقدرته، وعلمه، وحكمته.

ولقد أشاد القرآن الكريم بالمؤمنين، ووصفهم بأن قلوبهم تطمئن إلى ذكر الله، وتأنس به، وتسكن إليه، ثم أكد ذلك بحكم عام، يقضي بأن القلوب تطمئن بذكر الله، فقال عزّ من قائل: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)^(١). وعن قتادة في تفسير الآية أنّه قال: "سكنت إلى ذكر الله واستأنست به"^(٢). ومما يجعل القلوب مطمئنة مشاهدة آثار قدرة الله، وانكشاف الغيب لديها في الحياة الدنيا، كما حدث لنبيّ الله إبراهيم عليه السلام حين طلب من ربه عزّ وجلّ أن يكشف له عن كيفية إحيائه للأَمْوات. ولما سأله المولى جلّ وعلا سبب طلبه لذلك، هل هو عدم الإيمان بما تقرّر من إحياء الله للأَمْوات، فأجاب بأنّه مؤمن بذلك، ولكنّه يريد أن يطمئن قلبه بمشاهدة ذلك بعيني رأسه، كما شاهدها بعيني قلبه. وفي ذلك يقول المولى عزّ وجلّ: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(٣). ومن هنا يعلم أن الاطمئنان أثر من آثار الإيمان، ينعم به العبد المؤمن عند الحصول عليه، ويستروح به من مشاكل الحياة، وأعبائها، وتكاليفها،

^١ سورة الرعد: ٢٨

^٢ تفسير الطبري: ٤٣٢/١٦

^٣ سورة البقرة: ٢٦٠

فيتنفي عنه القلق، والانزعاج، الذي يصاب به أهل الكفر، وضعاف الإيمان، فلا يقوون على تحمّل تكاليف الحياة، ومجابهة التحديات الكثيرة، والمتطلبات العديدة للحياة، فتجد أحدهم يستولي عليه الحزن والقلق، والكآبة، والاضطراب، حتى يصل الأمر ببعضهم إلى الانتحار، والعياذ بالله من الوقوع في حزني الدنيا والآخرة.

٢- المسؤولية الفردية: إذا تحقّق الإيمان في قلب العبد أكسبه المراقبة الذاتية فيما يتعلّق بحقوق الله تعالى، وحقوق العباد، فيراقب الله تعالى في أداء الواجبات، والكفّ عن المحرمات، ومراعاة حقوق الجماعة، والأفراد، والالتزام بالنظام العام، فيتحمّل المسؤولية بنفسه دون نظر إلى السلطات الحاكمة، والقوانين السائدة، بسبب الوازع الذي يمنعه من ارتكاب الجرائم الضارّة بنفسه، أو بالمجتمع، الذي يعيش في وسطه. وعلى هذا يسود النظام والانضباط، وتقلّ الجرائم والجنايات. والبلاد التي تغلغل الإيمان في قلوب أهلها، وخالطت بشاشته نفوسهم تكون الشرطة ورجال الأمن والقضاء في راحة من متابعة المجرمين، ومنعهم من مزاولة الجريمة المنظمة.

والإيمان أقوى سبب لتحصيل المسؤولية الفردية في أفراد المجتمع، فالمجتمع الذي يؤمن أفرادُه بالله تعالى حقّ الإيمان، يتحقّق فيهم مراعاة حقوق الآخرين، والاحتراز من التعديّ عليهم في أنفسهم، وأموالهم. ومثال ذلك الربا، فإنّه لما كان تعدياً سافراً على حقوق المجتمع، وظلماً واقعاً من الأغنياء على الفقراء، حرّض الله المؤمنين على اجتناب الربا، مذكّراً إياهم بإيمانهم، وأنّ من كان مؤمناً لا ينبغي أن يزاوّل هذه الفعلية الشنيعة، ويمارس هذه الجريمة المنكرة، فقال تعالى مرغباً المؤمنين في ترك الربا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(١). والحكومات، وأصحاب الولايات يلقون عنتاً، ويجاهون مشكلة في ضبط النظام العام، والقضاء على الجرائم المنظمة في المجتمعات، التي ليس أهلها بمؤمنين حقّاً، الأمر الذي يؤكد على ضرورة تحقيق الإيمان في إصلاح الأفراد والمجتمعات على حدّ سواء.

٣- الشعور بالعزّة من غير بطر واستعلاء: الإيمان يزوّد صاحبه بعزّة النفس، من غير غرور، ولا استكبار، فلا سبيل إلى قلوب أهل الإيمان للشعور بالذلّ، أو الهوان؛ لأنّ عزّة المؤمن موصولة بعزّة الله، الذي أعزّ بها أهل الإيمان والتقوى، فلا يشعرون بذلّ، ولا هوان، وإن كانوا في عيون أهل

^١ سورة البقرة: ٢٧٨

الباطل أذلاء ضعفة؛ حيث إنّ العزة محلّها القلوب، فلا يستطيع حاكم، ولا جلاّد نزعها من قلب المؤمن؛ إذ البشر ليس في مقدّرتهم التسلّط على ما في القلوب.

ومن هنا صرّح الله تعالى باختصاص العزة المطلقة به، فقال: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)^(١). أي: "من كان يحبّ أن يكون عزيزا في الدنيا والآخرة، فليزِم طاعة الله، فإنّه يحصل له مقصوده؛ لأنّ الله مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعها"^(٢). وفي آية أخرى أثبت الله تعالى العزة لنفسه، ولرسوله، وللمؤمنين، فقال: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)^(٣). والأصل في العزة أنّها مختصة بالله عزّ وجلّ، إلّا أنّه تعالى أعزّ رسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين حينما امثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، فعزّته ذاتية، وعزّتهم كسبية. ولقد شجّع الله المؤمنين إثر الإصابات، التي نزلت بهم في غزوة أحد، من الجراح، والقتل، ونهاهم عن الشعور بالضعف، والهوان، وأثبت لهم العلوّ والغلبة والنصر والعاقبة، مذكّرا إياهم بالإيمان، فقال تعالى: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَلْتُمُ الْأَعْلُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٤). "ذكر تعالى أنّه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المتيقّن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك"^(٥). فإذا شعر المؤمن بهذا العلوّ اندفع إلى مقارعة أهل الباطل، واستصغر شأنهم، واستمرّ في جهادهم إلى أن ينصره الله، ويفتح له قلوب العباد والبلاد، فله الأمر كلّ، وله الحمد والمثّة.

٤ - تحقيق الأخوة الإيمانية: الروابط التي تنظّم علاقة الناس بعضهم ببعض كثيرة، منها علاقة النسب، والمصاهرة، التي تربط بين أفراد الأسرة الواحدة، أو القبيلة، فنجدهم يتواصلون بسببها، ويتعاونون من خلالها، ويتناصرون من أجلها، فأبناء القبيلة الواحدة ينصر بعضهم بعضا، ولو كان المنصور غير محقّ. ومنها العلاقة الوطنية، وهي علاقة تربط بين أبناء البلد الواحد، ولو كانوا في النسب مختلفين، كما هو مشهور في هذا الزمن الذي قلّت أو اضمحلّت فيه العلاقة النسبية، فأبناء

^١ سورة فاطر: ١٠

^٢ تفسير ابن كثير: ٥٣٦/٦

^٣ سورة المافقون: ٨

^٤ سورة آل عمران: ١٣٩

^٥ تفسير السعدي، ص: ١٥٠

الوطن الواحد يتآلفون، وعلى الخير يتعاونون، وعن الشرّ يتناهون، وعلى أعدائهم يتناصرون، ولمصلحتهم يتآزرّون، وعن حوزة بلدهم يدافعون، وإلى لغتهم وبلدهم يتعصّبون.

ومن هنا أحدث الإسلام رابطة جديدة، ووصلة عظيمة، تربط بين أهل الإيمان، وهي أقوى، وأمتن من سائر الروابط، والعلاقات، وهي الأخوة الإيمانية، والانتماء إلى الإسلام، فنجد أهل الإيمان يتوادّون، يحبّ أحدهم أخاه في الدين من صميم قلبه، ويحبّ له من الخير ما يحبّ لنفسه، ويكره له من الشرّ ما يكره لنفسه، كما نفى الرسول صلى الله عليه وسلم الإيمان عن المرء حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، فقال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١). وقد حصر الله تعالى الأخوة على أهل الإيمان، مشيراً إلى أن أخوة غيرهم لا تعدل شيئاً بالنسبة لأخوتهم، كما قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)^(٢). ولتقوية أواصر المحبة، والمودة بين المؤمنين حرّم الله عليهم ما من شأنه أن يחדش هذه العلاقة، كالسخرية، والتنازير بالألقاب، وإساءة الظن، والهمز، والغمز، والنميمة، والغيبة، والتجسس^(٣)، وغير ذلك مما يفسد علاقة المؤمنين بعضهم ببعض.

ولتوطيد العلاقة بين المؤمنين، وإرساء قواعد الأخوة الإيمانية في أعماق قلوبهم حرّم عليهم محبة غيرهم من أهل الكفر والعناد، حيث إن الإيمان يقتضي الحبّ في الله، والبغض في الله، فيحبّون أهل الطاعة والإيمان، لما فيهم من الطاعة والإيمان، ويكرهون أهل الكفر والفسق، لما فيهم من المعصية والكفر. وقد أخبر الله عزّ وجلّ في كتابه أنّه لا يوجد مؤمن حقّاً يودّ أهل الكفر والعناد، ولو كان هذا الكافر من أقرب الناس إليه، كما في قوله: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ)^(٤). فلا يجتمع الإيمان مع مودة أهل الكفر والمعاداة لله ولرسوله. وأكتفي بهذا القدر من الآثار التي تترتب على الترغيب في الإيمان، والترهيب من الكفر، ليستدلّ بها على غيرها من المؤثرات الإيمانية في حياة الأمم والجماعات.

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (١٢/١)، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه عن أنس رضي الله عنه لفظه. ومسلم في صحيحه (٦٧/١)، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من حصل الإيمان أن يحبّ لأخيه المسلم ما يحبّ لنفسه من الخير لفظه مقارن.

^٢ سورة المحرّات: ١٠.

^٣ انظر: الآيات: (١٢-١١) من سورة المحرّات.

^٤ سورة المحادّة: ٢٢.

المبحث الثاني

أثر الترغيب في العبادات والترهيب من إضاعتها في إصلاح الفرد والمجتمع

المؤمن يعبد ربّه ابتغاء وجه الله تعالى، والحصول على مرضاته في الدنيا والآخرة. ولا يعني هذا أن لا يكون للعبادة مقاصد أخرى سَنِيَّة، وثمار طيبة، يجنيها المؤمن في حياته الدنيوية، ويسعد بها. ويظهر أثر ذلك واضحا عند مقارنة القائم بالعبادة مع التارك لها، أو المقصر في حقّها.

وخلق الله سبحانه العباد، وعلم مسبقا ما يصلح حياتهم الدنيوية، والأخروية، كما قال تعالى: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(١). فأنزل لهم كتابا، وأرسل إليهم رسولا، يخبرهم بتفاصيل المنهج، الذي يقضون به حياتهم، وصرّح في الكتاب أنّه خلق الإنس والجنّ لعبادته، كما في قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)^(٢). وهذه هي المهمة التي من أجلها خلقوا، ولإنجازها فطروا، كما يقول السعدي: "هذه الغاية، التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبّته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمّن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقّف على المعرفة بالله"^(٣).

وحثّ الله تعالى الناس جميعا على عبادته، والامتنال لأوامره، والاجتناب لنواهيه، مذكّرا إيّاهم بالنعم التي أسداها إليهم، والمنن التي أغدقهم عليها في مختلف الأطوار، والأحوال، كما في قوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُلْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)^(٤). فالعبادة هي المهمة التي تؤهلهم للبقاء في الدنيا، كما أراد الله لهم، وهي عنوان سعادة المرء، و نجاحه في الدارين، كما أن التخلّي عنها يعتبر فشلا ذريعا في هذه الحياة، وشقاء أبديا في الحياة الأخرى.

ومن هنا أتناول في هذا المبحث بعض الآثار الحسنة المترتبة على أداء العبادات المفروضة، على الوجه المأمور بها في الشرع. وذلك فيما يخصّ حياة الأفراد والجماعات مدّة بقائهم في هذه

^١ سورة الملك: ١٤

^٢ سورة الداريات: ٥٦

^٣ تفسير السعدي، ص: ٨١٣

^٤ سورة البقرة: ٢١، ٢٢

الدنيا، فتسود حياتهم السعادة والهناء، والبهجة والسرور. ولما كانت الدعوة إلى العبادات من خلال الترغيب في أدائها، والترهيب من تضييعها عاملاً مهماً في إقامة العبادات أضفت الآثار المترتبة عليها إلى وسيلة الترغيب والترهيب. إذن فالعبادة ثمرة من ثمار الترغيب والترهيب. وفيما يلي أتعرض لأركان الإسلام الخمسة ما عدا شهادة التوحيد^(١)، مقرونة بآثارها في حياة الأفراد، والجماعات، ليكون الترغيب فيها، والترهيب من تضييعها نموذجاً، يحتذى به في سائر العبادات والطاعات، التي لم أتعرض لها، والله والموفق.

أولاً: آثار الترغيب في الصلاة والترهيب من تضييعها

الصلاة عماد الدين، ومحور العبادات البدنية، فمن أداها على الوجه المشروع أثرت في حياته، وغيّرت وجهتها نحو الخير والصلاح، والطهر والعفاف، فهي باعتبارها الركن الثاني بعد التوحيد قنطرة إلى سائر العبادات، ووسيلة إليها، فالقائم بالصلوات كما أمر يسهل له القيام ببقية الأركان، والمُضَيِّع لها فهو لما سواها أضيع. وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمّاله: «إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ. فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا، حَفِظَ دِينَهُ. وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضَيَّعَ»^(٢). ومن آثارها في حياة الفرد والمجتمع ما يأتي:

١ - **قوة العزيمة على الاستقامة:** فإذا أدى المسلم صلاته بأحكامها، وآدابها، وخشوعها، وخضوعها تقوّت عزمته، وعلت همّته، واستطاع الاستقامة في الأوامر، والاجتناب عن النواهي، إذ المعونة من الله تصحبه، والتوفيق يحالفه أينما توجه بسبب طلبه المعونة والتوفيق عند قراءته لسورة الفاتحة، وسائر الأدعية والأذكار. ومن وفقه الله وسدّده فهو المهتدي، ومن لم يحصل على هذا التوفيق فقد حرم من خير كثير، ووقع في حفرة الخذلان والحرمان، كما في قوله تعالى: (وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)^(٣). وقوله تعالى: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)^(٤).

وقد أكّد الله تعالى على تأثير الصلاة في العبد، وتقويتها لعزمته على ترك الفواحش والمنكرات، فقال عز وجل: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ

^١ وقد تقدم ذكر آثارها في البحث السابق

^٢ أخرجه مالك في الموطأ (٦/١)، كتاب وقوت الصلاة عن عمر ابن الخطاب.

^٣ سورة آل عمران: ١٠١

^٤ سورة الكهف: ١٧

أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ^(١). فالمصلي المداوم على صلاته كما أمر ينطبع في قلبه النفرة عن الفواحش والمنكرات، فإن فلت منه شيء من ذلك بادر إلى التوبة والاستغفار، من غير تسويف ولا إصرار. وأخير المولى في موضع آخر من كتابه أن الصلاة تزكي المرء من الأخلاق الدنيئة، والعادات القبيحة، وتعوده على الفضائل، ومكارم الأخلاق، فقال عز من قال: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. إِلَّا الْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)^(٢). يقول الإمام ابن كثير: "الإنسان من حيث هو متّصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووقفه، وهده إلى الخير ويسر له أسبابه، وهم المصلّون"^(٣).

٢- الانتظام والانضباط في المواعيد: الصلاة تعود المسلم على أن يكون منضبطاً في مواعيده، والتزاماته، فلا يتخلف، ولا يتأخر عن الدوام، وأوقات العمل، ولا يتخلّى عن الالتزامات في الحقوق والواجبات، التي بينه وبين الآخرين. وذلك أن الصلاة تجب على العبد في اليوم خمس مرّات، في أوقات محدّدة، لا تقبل التعديل تقدماً وتأخيراً. ولا بدّ من أداء الصلوات في هذه الأوقات في جميع الأمكنة، والأزمنة، والأحوال، إلا ما استثناه الشرع من صلاة السفر، تخفيفاً على المسافر في التقديم والتأخير. فمن تعود على أداء الصلوات في مواقيتها المحدّدة كل يوم لم يصعب عليه أن ينظّم حياته اليومية، ويسهل عليه أن ينضبط في مواعيده مع الآخرين.

٣- تحقيق المساواة بين أفراد المجتمع: ندب المولى جلّ في علاه المسلمين إلى القيام بالصلوات المفروضة في المساجد، عن طريق الأذان الموجه إلى كلّ مسلم، بغضّ النظر عن مستواه الاجتماعي، والوظيفي، والديني، فيصطفّ المسلمون خلف إمام واحد، لا فرق بين صغيرهم، وكبيرهم، وغنيهم وفقيرهم، ورئيسهم ومرؤوسهم، وشريفهم ووضيعهم. فيقف في الصفّ الأول من جاء مبكراً، كما يقف في الصفّ الأخير من جاء متأخراً. وهذا تحقيق لمبدأ المساواة عملياً، ونبذ لنظام الطبقات، الذي يستعبد الأعلى فيه من دونه.

٤- تحقيق روح المودة والإخاء: المسلمون يجتمعون في اليوم خمس مرّات في المساجد، فيتعرّف بعضهم على بعض، وتقوى فيهم روح المودة والإخاء، والتعاون على مشاكل الحياة. وصلاة

^١ سورة العنكبوت: ٤٥

^٢ سورة الماعز: ١٩-٢٣

^٣ تفسير ابن كثير: ٢٢٦/٨

الجماعة وسيلة فعالة للتعرف على مشاكل الآخرين، والبحث عن طرق علاجها، فإذا تخلف أحد من مواظبي الجماعة أثناء تأدية بعض الصلوات افتقده الآخرون، الأمر الذي يدعوهم إلى البحث عن أحواله، وزيارته، والتعرف على عذره، والتخفيف عن معاناته. ومن هنا تتقوى الرابطة الدينية بينهم، وتطغى على بقية الروابط الأسرية، والقبلية، والمهنية.

والإسلام جاء لتقوية أواصر المحبة والأخوة بين المسلمين، وتقديمها على سائر الروابط، فوجد المسلم يفرح لفرح أخيه، ويحزن لحزنه، ويتبني مشاكله، ويبحث عن الحلول المناسبة لها، كما في الحديث المشهور: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»^(١). وصلاة الجماعة من أعظم الوسائل لتوطيد هذه العلاقة، وشدّ هذه الرابطة، التي يتقوى فيها بعض المسلمين ببعض، كما في الحديث: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»^(٢).

٥- نظافة الجسد والروح: من أعظم آثار الصلاة في حياة الفرد والمجتمع أنّها تعودهم على النظافة والطهارة في الجسم، والثوب، والمكان. وذلك أنّ من شروط صحّة الصلاة طهارة الجسد، والثوب، والمكان، مما يجعل المسلمين مواظبين على النظافة والطهارة في سائر حياتهم، فينظفون أعضائهم الخارجية بشكل يومي بالوضوء، ومواضع خروج البول والغائط بالاستنجاء، وجسدهم بالكامل يوم الجمعة، وعند إصابتهم بالجنابة، فيتطهّرون من الأدران، والأوساخ، والأنجاس، التي تصيب أجسادهم، كما يهتمّون ببقاء لباسهم طاهرا ونظيفا من سائر النجاسات، مع حرصهم على أن تكون مواضع صلاتهم من المساجد، والمصلّيات طاهرة، نقيّة زكية من كلّ نجس، أو رائحة تؤذي من يرتادها من المصلّين، والمتردّدين لطلب العلم، وحلق الذكر، وقراءة القرآن.

وأمر الله سبحانه المؤمنين بالنظافة الشاملة، والطهارة الكاملة عند التهيؤ لإقامة الصلاة، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٩٩/٤)، كتاب البرّ والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم عن العمان بن بشير رضي الله عنه بلفظه. والبخاري في صحيحه (١٠/٨)، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والمهاتم عن العمان بن بشير بلفظ مقارب.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٩/٣)، كتاب المظالم والعصب، باب نصر المظلوم عن أبي موسى رضي الله عنه. ومسلم في صحيحه (١٩٩٩/٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم عن أبي موسى أيضا بلفظه.

فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(١). وهذه الطهارة المذكورة في الآية تشمل الطهارة الحسية للجسد، والطهارة المعنوية للروح، كما قال الإمام الطبري: "يعني جل ثناؤه بقوله: "ولكن يريد ليطهركم": ولكن الله يريد أن يطهركم بما فرض عليكم من الوضوء من الأحداث والغسل من الجنابة، والتيمم عند عدم الماء، فتتظفوا وتطهروا بذلك أجسامكم من الذنوب"^(٢).

وطهارة الروح تعني تزكيتها من الذنوب والخطايا، التي تُمرض الروح، وتُضعف النفس، وتُبعد الإنسان من رحمة الله، وتوفيقه، فإذا توضأ، وغسل أعضاء جسده زالت الذنوب التي مارسها بتلك الأعضاء، كما في الحديث الشريف: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوْ الْمُؤْمِنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنِهِ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَّتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ»^(٣). فيفرغ العبد من وضوئه، وقد تزكى وتطهر من الذنوب، ثم يقوم إلى صلاته طيب النفس، زكي الروح، كي يتهيأ للوقوف أمام رب العالمين، وأرحم الراحمين.

ثانياً: آثار الترغيب في الزكاة والترهيب من تركها

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وفريضة محكمة من فرائض الدين، وهي جزء من أموال الأغنياء، يصرف إلى الفقراء، والمستحقين وفق شروط، وتفاصيل، مبسطة في مصادر الحديث والفقه. وقد تمّ الترغيب في أداء الزكاة من خلال الآيات التي تحدّثت عن فضائلها، وأجر من يقوم بها في الدارين، كما تمّ الترهيب من تضييعها ببيان العقوبة التي تلحق من يتهاون بأمرها. وهنا أتحدّث عن بعض الآثار، التي تنجم عن أداء الزكاة، وصرفها إلى مستحقيها مع اكتمال شروطها، وأحكامها، من تطهير النفس عن البخل والشحّ، وإغناء حاجة المحتاجين، وزيادة البركة والنماء في مال المزكّي، وتحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، وغير ذلك مما يعود على المجتمع بالخير والهناء.

^١ سورة المائدة: ٦

^٢ تفسير الطبري: ٨٥/١٠

^٣ أحرجه مسلم في صحيحه، (٢١٥/١)، كتاب الطهارة، باب حروح الخطايا مع ماء الوضوء عن أبي هريرة لفظه.

١ - **تطهير النفس من البخل والشح**: الزكاة تطهر المزكي من أمراض البخل، والشح، وتعوده على الكرم والبذل والسخاء، وخاصة عندما يلمس في ماله بركات الزكاة، وأن الصدقة لم تنقص منه شيئاً، مصداقاً للحديث: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(١). وقد وصف الله تعالى الإنسان في كتابه بأنه شديد الحب للمال، فقال: (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)^(٢). أي: "وإن الإنسان لحب المال لشديد"^(٣). ولما كان هذا الوصف متأصلاً في طبع الإنسان رغب الله المؤمنين في أداء الزكاة من أموالهم، كي تنقل هذه الصفة من جذور قلوبهم، ويحل محلها الكرم والسخاء، وسعة الصدر بالبذل والعطاء.

٢ - **تطهير المجتمع من الحسد والغل والبغضاء**: إذا أدى الأغنياء زكاة أموالهم، وأعطوها لمستحقيها من الفقراء والمساكين انكمشت الفوارق الاجتماعية بين الفقراء والأغنياء، وحصل للمحتاجين حد الكفاية من احتياجاتهم، وانطفأت في قلوبهم نار الحسد والبغضاء، وشعروا بأخوة الأغنياء في مواساتهم، والوقوف إلى جنبهم في الملمات، فهذا يتطهر المجتمع من عوامل هدامة، تنخر في عظامه، وتدأب في تخريبه مع الزمن، إن لم تتداركها يد التقويم والإصلاح. قال الله تعالى آمراً لنبيه، وصفوة خلقه: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)^(٤). أي: "أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة"^(٥). ومن هنا يعلم أن الزكاة تطهر القائم بها من أمراض الشح والبخل وحب المال، كما تزكي الآخذ لها من أدواء الغل والحسد، والعداوة والبغضاء.

٣ - **تحقيق التكافل الاجتماعي**: وذلك بأن يتعايش أفراد المجتمع، ويتضامنوا، ويكفل بعضهم بعضاً، ويسدوا حلّة المحتاج، وحاجة الفقير. وهذا التكافل يقضي على روح الفردية والأنانية في المجتمع، تلك الروح السائدة اليوم في المجتمعات الرأسمالية، بحيث يهتم كل فرد بنفسه دون أن يبالي بمن يعيش حوله من الفقراء والمحاييج. وبالرغم من ذلك، فلا يوجد سلطة تُفرض على الأغنياء أن يقتطعوا جزءاً مفروضاً من أموالهم للمحتاجين، بل الأمر متروك إلى ضمائرهم، وتقديرهم لظروف المُعْدِمِينَ. ويدهش المرء عجباً مما أصاب المدنية الحديثة اليوم من الجشع والهلل، والتكالب على

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠١/٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العمو والتواضع عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه.

^٢ سورة العاديات: ٨

^٣ تفسير الطبري: ٥٦٧/٢٤

^٤ سورة التوبة: ١٠٣

^٥ تفسير السعدي، ص: ٣٥٠

حطام الدنيا، وامتلاء القلوب من حبّها، بحيث نزعّت الرحمة من قلوب الأغنياء، وتبلّد شعورهم نحو المساكين. ولا علاج إلا بتنفيذ أحكام الله تعالى في جميع شؤون الحياة.

هذا، وإعطاء الزكاة لمستحقّيها يعتبر تكافلاً اجتماعياً من الدرجة الأولى؛ فإن النسيج الاجتماعيّ في الأمة يتقوّى بمساعدة بعضهم بعضاً من خلال الزكاة المفروضة، والصدقات النافلة، وترتفع معنويّات معطي الزكاة، حيث يتيقّن أنّه أرضى ربّه بهذا العمل، ونفع أخاه، وسدّ حاجته، كما أنّ أخذ الزكاة يشعر بالامتنان لأخيه المعطي، ويشكر عليه فيما أسداه إليه من الخير، فينتج من ذلك شعور الجميع بالأمة الواحدة، والتي شبّهها الرسول صلى الله عليه بالجد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى^(١). والذي تعانيه المجتمعات الإسلامية اليوم من انتشار الفقر، والبطالة ناتج عن تضييع هذه الفريضة، أو عدم تطبيقها على الوجه المشروع، ممّا أدّى إلى تكدّس الأموال عند فئة قليلة من الناس، وحرمان الأكثرين من أدنى حقوقهم المعيشية، ومقاساتهم ظروفًا شديدة، لا قبل لهم بها، إلى جانب إهمال الحكومات تنفيذ هذه الفريضة، التي فيها الحلّ الشامل لجميع هذه المشاكل، والله الموقّف للصواب.

٤ - القضاء على البطالة: من أعظم أسباب البطالة أن لا يجد المرء رأس مال ينشئ به مشروعاً أو عملاً يرتزق منه، فيكون عبئاً على المجتمع. أما إذا قام المجتمع المسلم بأداء الزكاة، فإنّ المعدّمين يستحقّون أن يعطى لهم من مال الزكاة ما يستغنون به، ويتمولّون به، وينشئون به مشاريع تعود عليهم بالربح والفائدة المستمرة، فينضمّ إلى أفراد المجتمع، الذين تحب عليهم الزكاة في السنة المقبلة. فإذا استمرّ الأمر على هذا المنوال سنين معيّنة، وتمّ تنظيم مشروع الزكاة من قبل المسؤولين في الدولة الإسلامية، وأسندت الأمور إلى أصحاب الخبرة والأمانة والعلم ستتحفّ البطالة في المجتمع لا محالة إلى أدنى مستوياتها، وستنعدم مع الوقت تماماً، بفضل الله من خلال تنفيذ حكم الله في الزكاة، وصرفها إلى مصارفها المحدّدة. وإذا استغنى أصحاب القدرة على العمل بما يُوفّر لهم من رأس المال، الذي يستثمرونه في المشاريع، الدارّة عليهم باحتياجاتهم يبقى بعد ذلك من لا يحسن شيئاً من الصناعات، أو الأعمال بسبب عجز أو مرض أو كبر، أو طلب علم، أو غير ذلك من الأعذار، التي لا يمكن مزاوله الأعمال معها. وهؤلاء يجرى عليهم مرتّب شهري، أو سنويّ من

^١ انظر صحيح مسلم: ١٩٩٩/٤، وصحيح البخاري: ١٠/٨.

أموال الزكاة، التي تديرها مصلحة الزكاة في الدولة الإسلامية. ونسأل الله أن يوفق الأمة المسلمة للعمل بدينهم، الذي يكفل لهم سعادة الدنيا والآخرة، وهو الموفق للرشاد.

ثالثاً: آثار الترغيب في الصوم والترهيب من تركه

الصوم حكم شرعي من أحكام الإسلام، التي فرضها الله تعالى على العباد، وله مكانة عظيمة، ومترلة رفيعة بين أحكام الشرع، وأركان الدين. ومع كون الصيام حكماً ربّانياً، وأمرًا إلهياً، ينبغي للمسلم أن ينفذه؛ لكونه صادراً من ربه ومعبوده، فإن للصيام مصالح جمّة، وآثار بيّنة في حياة الفرد والمجتمع. ومن هنا فإن الترغيب في الصيام، والترهيب من تركه يحقق آثاراً طيبة في إصلاح الفرد والمجتمع. ومن هذه الآثار ما يأتي:

١- الصبر، وتحمل المشاق: وقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم شهر رمضان بشهر الصبر في قوله: «شَهْرُ الصَّبْرِ، وَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَوْمُ الدَّهْرِ»^(١). وهذا التسمية جاءت من حيث إن ترك المأكولات، والمشروبات، والشهوات طوال هذا الشهر يتطلّب صبراً، وتحملاً، وقوة نفس في الامتناع عن تلك المحبوبات على وجه الاختيار. فيتّضح من ذلك أنّ الالتزام بالصيام فرضاً، وتطوّعاً ينمّي في المرء خلق الصبر على الشدائد، ويعوّده على التحمّل للمشاق.

وهذا أثر طيب للصيام في حياة الأفراد، والمجتمعات، فما أحوج الناس اليوم إلى التخلّق بخلق الصبر، الذي يظهر أثره في معظم الفضائل، والمكرّمات، فالطاعات تحتاج إلى صبر في القيام بها، والمعصية تتطلّب صبراً في الكفّ عنها، والمصائب تبتغي تحملاً لها، وصبراً على آلامها. وقد أشاد النبي صلى الله عليه وسلم بخلق الصبر في قوله: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ»^(٢). وخاصة إذا لوحظ أن الصبر على تكاليف الصيام يتمّ بشكل طوعي، لا سلطة لأحد على العبد في ممارسة ذلك، ممّا يؤكّد على تقوية روح المصابرة، والتغلّب على المشاكل، وحبس النفس عن التشكّي والتسخطّ لأقدار الله، التي لا تلائم طبيعة العبد وإرادته.

٢- تنمية روح الشفقة على المحتاجين: لا يشعر الأغنياء في الغالب بآلام الفقراء، ومرارة جوعهم شعوراً، يلمسونه في واقع حياتهم إلا من خلال الصيام، الذي يجبرهم على ترك الطعام، والشراب

^١ أخرجه السنائي في سه (٢١٨/٤)، كتاب الصيام، باب ذكر الاختلاف على أبي عثمان في حديث أبي هريرة في صيام ثلاثة أيام من كل شهر، عن أبي هريرة بلفظه، وصححه الألباني.

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٣/٢)، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة بلفظه، ومسلم في صحيحه (٧٢٩/٢)، كتاب الزكاة، باب فصل التعفف والصبر لفظ مقارن، كلامهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

لفترة معينة، يقاسون فيها شيئاً من ضراوة الجوع، الأمر الذي يستثير فيهم عواطف الرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين. وهذه من أعظم آثار الصيام في القائمين به، حيث يتذكرون إخوانهم، الذين يعانون من الجوع والفقر طوال السنة، فتجيش في نفوسهم عاطفة المواساة، فيمدّوا إليهم يد العون للتخفيف من وطأة ما نزل بهم من البؤس والفقر، مستشعرين بأن الفقر والغنى امتحان للعباد، ليصبر هؤلاء، ويشكر هؤلاء. والله الموفق.

رابعاً: آثار الترغيب في الحج والترهيب من تركه

المؤمن حين يشدّ الرحال إلى بيت الله العتيق يحدوه الحنان إلى تلك البقاع المطهرة، والأراضي المقدسة، التي وطأها أقدام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيستصغر مقابل هذا القصد النبيل جميع المتاعب، والمشاكل، التي يواجهها في طريقه إلى الحج. والترغيب في الحج، والترهيب من تركه يترتب عليه الآثار والمصالح المصاحبة لأداء فريضته على الوجه المشروع. فالمؤمن يؤدّي هذه الفريضة، امثالاً لأمر الله، وابتغاء لمرضاته، ورجاء لما وعد عليه من مغفرة الذنوب، والثواب الجزيل في الجنة. وبالرغم من ذلك فهناك فوائد أخرى، ومنافع عاجلة تعود على الفرد والمجتمع بالخير والصلاح من جرّاء فريضة الحج، وذلك في النقاط التالية:

١- تحقيق الوحدة الإسلامية: الحج صورة مصغرة لتحقيق وحدة الأمة المسلمة؛ فالمسلمون يجتمعون في ميدان واحد، ولباس موحد، ويصلّون خلف إمام واحد، دون اعتبار لاختلاف أوطانهم، وأجناسهم، وألوانهم، وألسنتهم، ثمّ يبرهن على إمكانية توحيد الأمة الإسلامية؛ لاشتراكهم في العقيدة، والشعائر، والشرائع، وهذه عوامل الوحدة للأمة، التي مزقتها الخلافات العرقية، والقومية، والوطنية، والمذهبية.

وإذا أمكن اتحادهم في هذه البقعة المباركة، فالأحرى أن يتحدوا في سائر الأقطار تحت راية واحدة، وهدف واحد، ومصير مشترك، يسوسون دنياهم بدينهم، كما أراد الله لهم أن يكونوا أمة واحدة. (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)^(١). يقول السعدي: "فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، واتّلاف قلوبهم يصلح دينهم، وتصلح دنياهم، وبالاتّماع يتمكّنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح، التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدّها، من

^١ سورة المؤمنون: ٥٢

التعاون على البر والتقوى، كما أنّ بالافتراق والتعادي يختل نظامهم، وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام^(١).

٢- إحياء الأخوة الإسلامية: الحجّ إلى بيت الله الحرام ينمي عاطفة الأخوة الإسلامية، والمودة الإيمانية، فمن قصد إلى هذا البيت يشعر بالأخوة الإيمانية تجاه أصحابه، الذين يؤدّون معه مناسك الحجّ، رغم كلّ الفوارق، التي تسود هذا المجتمع الصغير، من الجنس، واللون، والبلد، والعادات، والتقاليد. فلا وحشة بينهم، ولا اعتداء، ولا مخاصمة، بل المودة تغمر أفئدة الجميع، وروح الإيثار تعمهم وتغشاهم. وكأنّ الله أراد للأمة كي تحقّق أخوتها الإيمانية أن تجتمع في السنة مرّة، وتبرهن على ذلك عملياً في ميادين أعمال الحجّ، من الطواف، والسعي، والرمي، والحلق، والوقوف بعرفات، والمبيت بمعي ومزدلفة. وهنا يشعر المؤمن أنّ له إخوة في العالم كلّ، يتألّمون لألمه، ويفرحون لفرحه، ويهّبون لنجدته، ويسعون لمصلحته، وإن شطّت بهم الديار، وبعدت بهم الأوطان، وأنّ عليه أن يكنّ لهم الاحترام، ويسعى للتواصل والتعاون معهم. وإن لم يتمكّن من ذلك كلّ فيحبّهم بقلبه، ويذكرهم بلسانه في الخير والدعاء.

٣- تنمية روح التضحية: العازم على أداء فريضة الحجّ يعدّ نفسه لمجاهة تضحيات جسيمة، وتحمل مشقات كثيرة، من مفارقة الأهل، والأولاد، والأقارب، والأصدقاء، إلى جانب نفقات السفر، والسكن، والتعرّض لأخطار الطريق وطوله صابراً محتسباً.

ولا غرو أنّ هذا الدين يتطلّب من معتقيه تضحيات عالية، وجهوداً مضنيّة في سبيل العمل به، ونشره في ربوع الأرض كلّها. ومن هنا يكون الحجّ تدريباً للعبد في الاستعداد لما يتطلّبه الدين من التضحيات. فالإسلام ليس دين الراحة والاستراحة، ولا دين التزهة والرفاهيّة فقط، إنّما هو دين الجدّ والاجتهاد، والتضحية والاحتساب. وإن كان فيه ترويح عن النفس ففيمّا يباح، ولا يلهي عن ذكر الله، على ألا يغلب الترويح والتنفيس على المرء، بل يكون في حالات معيّنة، وذلك عندما يملّ من العبادات المتواصلة، فيباح له أن يستروح بما يلدّ من المباحات، لينشط للعبادة من جديد، فيكون له بهذه النية أجر العبادة والطاعة.

٤- تكوين البيئة الدينيّة: الإنسان ينشغل كثيراً في حياته اليومية بمتطلبات الحياة، والمسؤوليات المتزايدة، فلا يجد فرصة كافية للتفرّغ لذكر الله تعالى، والتبتّل إلى طاعته، والتفكير في آياته،

^١ تفسير السعدي، ص: ١٤٢

وتصفية ما علق بقلبه من آثار الذنوب والمعاصي، وتزكية نفسه بالترغيب والترهيب. ومن هنا يكون الحجّ فرصة ذهبيّة، يعمّر العبد فيها بالعبادة، والذكر، والطاعة، والتوبة، والتزكية من الأخلاق الرذيلة، والتحلي بالأخلاق السنيّة، ليتدرّب عليها أثناء الحج، ويستمرّ في العمل بها عند العودة إلى البلد، فيستأنف حياة جديدة، يسودها الالتزام بدين الله في جميع شعب الحياة. وهذه من علامات قبول الحجّ، بأن يستقيم على الطاعة، ويلزم الصلاح.

لا شكّ أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته وخدمته، وهو يعلم كيف تصلح حياتهم في الدنيا والآخرة، ففي كل أمر من أوامره مصلحة مُتَقَنَّة، سواء ظهرت لنا وجهها أم لم تظهر، لأننا نعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله العليم بمصالح العباد لا يكلفهم بما لا يعود عليهم بالنفع، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فتبيّن من ذلك أن جميع الأوامر التي تصدر من الله تعالى فيها مصالحنا ومنافعنا، أدركناها أو لم ندركها اعتماداً على إيماننا بأنّ الله يريد لعباده اليسر ولا يريد لهم العسر، كما في قوله: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)^١. وهذه المصالح التي ذكرناها للعبادات قليل من كثير لم يظهر لنا، ففي القليل المذكور إشارة إلى الكثير الذي خفي علينا. والله أعلم، وهو الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

^١ سورة النقرة: ١٨٥

المبحث الثالث

أثر الترغيب في الأخلاق الحميدة والترهيب من الذميمة في إصلاح الفرد والمجتمع

للأخلاق في الإسلام أهمية كبيرة، ومترلة رفيعة، فلا دين يسمو بدون خلق رفيع، ولا أمة تترقى بدون أدب فاضل، فالمسلم يبلغ بأخلاقه العالية منازل عالية في الدين، ودرجات عظيمة في الإسلام، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَذُرُّ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»^(١). وفي يوم الحساب والكتاب، وتطاير الصحف إلى العباد، وتقدير الأعمال بالموازين القسط يكون المرء بحاجة شديدة إلى عمل صالح يثقل ميزانه، إذ إن ذلك علامة لنجاحه، ونجاته من الهلاك. ومما يفيد العبد في هذا المجال الخلق الحسن، الذي يكون أثقل شيء في الميزان يوم القيامة، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق: «أثْقَلُ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ الْخُلُقُ الْحَسَنُ»^(٢).

وللترغيب في الأخلاق الفاضلة، والترهيب عن مذمومها آثار حسنة، أو سيئة في حياة الفرد والجماعة. والأمة الإسلامية إذا تخلقت بالأخلاق الحميدة تعيش حياة طيبة، يسودها الصدق، والأمانة، والعفة، والوفاء، والحلم، والتواضع، والعدل، والإيثار. أما إذا تخلقت عن هذه الدرجة من الأخلاق، فإنها تشقى بالأخلاق الرديئة كالكذب، والخيانة، والغدر، والجزع، والكبر، والظلم، والجشع. وفيما يلي أذكر طائفة من الأخلاق الحميدة، وأخرى من المذمومة، مع الإشارة إلى أثرها في حياة الفرد، والجماعة.

أولاً: الترغيب في الصدق والترهيب من الكذب

الصدق خلق جميل، يبعث على الاستقامة في القول والعمل، والظاهر والباطن، فمن صدقت لهجته، وصفا باطنه من النفاق، والخداع أثر ذلك في حياته كلها، فاستقام عمله على الخير، والصلاح، كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)^(٣). أي: "اتقوا

^١ أخرجه أبو داود في سننه (٢٥٢/٤)، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، عن عائشة بلفظه، وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للكتاب.

^٢ أخرجه ابن حبان في كتابه (٢٣٠/٢)، كتاب البر والإحسان، باب حسن الخلق عن أبي الدرداء رضي الله عنه بلفظه.

^٣ سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١.

الله وقولوا السداد من القول يوفقكم لصالح الأعمال، فيصلح أعمالكم^(١). وقد رغب الله تعالى في الصدق، فأخبر عما يجزي به الصادقين في الآخرة من الخلود في جنات النعيم، فقال: (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)^(٢). كما حث الرسول صلى الله عليه وسلم أمته على الصدق، وأنها وسيلة إلى البر والخير والجنة، وذلك في قوله: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقًا. وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»^(٣).

والكذب خلاف الصدق، ويكون في الأقوال، كما يكون في الأفعال، وهو خلق دنيء، ينشأ عن فساد في الفطرة الإنسانية، كما يتسبب عن ضعف القلب، والجبن الخالع، والفرار من المواجهة. ومن هنا حذر الله المؤمنين من الكذب في القول والعمل، وذلك بأن حكم على أهل الكذب بآيات الله بالخلود في النار: (وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)^(٤). وجعل عاقبتهم في الدنيا الدمار العام، والهلاك الشامل: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)^(٥). (وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ)^(٦). والكذب بضاعة أهل الكفر والعناد، وديدنهم، ووسيلة أهل الشر والفساد في مواجهة الأنبياء والمصلحين، فلا يسمعون منهم توجيهًا خيّرًا إلّا كذبوه، أو نصحا خالصا إلا افتروا على صاحبه زورا وبهتانا. قال تعالى: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ. وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ. وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى)^(٧).

^١ تفسير الطبري: ٣٣٦/٢٠

^٢ سورة المائدة: ١١٩

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه (٢٥/٨)، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظه. ومسلم في صحيحه (٢٠١٢/٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب فتح الكذب وحسن الصدق وفصله عن عبد الله بن مسعود بلفظ مقارب.

^٤ سورة الأعراف: ٣٦

^٥ سورة الأنعام: ١١

^٦ سورة الأعراف: ٧٢

^٧ سورة الحج: ٤٢-٤٤

والمرء الذي يلزم الصدق في تعامله مع الله، ومع الناس يظهر أثر ذلك في حياته، فيشعر بالسعادة، والطمأنينة، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة، ويكتسب ثقة الناس به، فيصدق قوله في أداء الحقوق، والواجبات، والقضاء والشهادات، ويكون مصدر خير للأمة، يطاوعه الناس في قوله وفعله، ويأتمرون بأمره ونهيه، ويتفعون بعظاته وتذكيره، فيصير قدوة في الخير والصالح، والهدى والرشاد. وكذا المجتمع الذي يلتزم أفراداه بالصدق في القول والعمل يكون مجتمعا تسوده المحبة والوئام، والمودة والائتلاف، وتيسر المعاملات العامة بينهم، من البيع والشراء وغير ذلك، فتخلو من الخصومات، والمرافعات، ويتلاشى الخداع، والكذب، والتزوير، والتدليس، والتغريب، والاحتيال، والغبن، وأكل أموال الناس بالباطل.

وعلى عكس نتائج الصدق وآثاره يكون أثر الكذب في الأفراد، والمجتمعات، فالمجتمع، الذي يفشو الكذب في أفراداه يشقى في حياته، وتنعدم الثقة بين أفراداه، فتتعرض المعاملات بينهم في البيع، والشراء، والأخذ، والعطاء. وذلك أن معظم المعاملات المالية، والإدارية، والاجتماعية، والسياسية، والتربوية تعتمد على الصدق، فإذا حل محلها الكذب تعسرت الحياة كلها، وكثرت الإجراءات المعقدة، التي يقصد بها التقليل من آثار الكذب على حياة الناس، من خداع، وتزوير، وتدليس، وتغريب، وغير ذلك.

ثانيا: الترغيب في الوفاء بالوعد والعهد، والترهيب من الخلف والغدر

الوفاء بالوعد من صفات أهل الإيمان والمروءة والشهامة، فمن يتحلّى به يكون مكرّما عند الله وعند الناس، ويخرج من زمرة المنافقين، الذين يكون خلف الوعد من أعظم صفاتهم، كما في الحديث: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(١). وقد رغب الله تعالى في الوفاء بالعهد، وجعله من صفات أهل الإيمان والصدق والتقوى، فقال: (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)^(٢). وقال: (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)^(٣).

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٧٨/١) كتاب الإيمان، باب بيان حصول العاق للفظه. والبخاري في صحيحه (١٠٢/٤)، كتاب الحرية، باب أثم من عاهد ثم غدر بلفظ مقارن. كلامهما عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

^٢ سورة البقرة: ١٧٧

^٣ سورة آل عمران: ٧٦

وأما الخلف بالوعد، والغدر بالعهد من الصفات الذميمة، التي لا تليق بمؤمن، وذلك عبارة عن: عدم وفاء الإنسان بما أعلن الالتزام به أو قطعه على نفسه من عهد أو ميثاق، سواء فيما بينه وبين الله تعالى أو فيما بينه وبين الناس^(١). لذا جعلهما الرسول صلى الله عليه وسلم من صفات المنافقين في الحديث المتقدم آنفا. وقد أمر الله سبحانه المؤمنين في كتابه بالوفاء بالعهد، وحذر من نقض المواثيق، فقال: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)^(٢). كما جعل نقض العهود عنوانا بارزا على أهل الفسق، والفساد، فقال: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ. الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ)^(٣). وقد نزلت على بني إسرائيل لعنة من الله بسبب نقضهم للمواثيق، وغدرهم بالعهود التي أخذت عليهم، وذلك في قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً)^(٤).

ولا شك أن إيمان المرء، ومراقبته لله تعالى في جميع الحركات والسكنات يدفعه إلى الوفاء بالعهد، فإنه يوقن بإحاطة علم الله تعالى لما يصدر عنه من الوعود والعهود، فلا يخطر بباله نقض عهد، أو الخلف في وعد. وهذا بدوره يؤثر في حياة المرء، فيبقى معززا، ومكرما لدى الجميع، يكتسب ثقة الناس به، ويأمنونه على أموالهم، وأنفسهم، وأسرارهم، فيصير عنصرا فعالا في المجتمع، ويكون له دور كبير في التغيير والإصلاح. وكذا المجتمع الذي يسود فيه هذا الخلق القويم، ويتصف به معظم أفراداه يعيش حياة طيبة، مليئة بالسعادة والهناء، خالية من عوامل الشقاق والاختلاف، والعداوة والبغضاء؛ لأنّ الوفاء بالعهد يزرع المحبة في المجتمع، فتسود الثقة بينهم، ويكنّ بعضهم لبعض الاحترام والتقدير، والإعزاز والتكريم.

وأما نقض العهد فأثره على الفرد والمجتمع كبير، حيث إن المجتمع يصيبه التفكك والانحلال، والشك والارتياب، فلا يستوثق فيه عهد، ولا يستحكم فيه ميثاق؛ لأنّ المرء، الذي اعتاد على نقض العهود والمواثيق يتوقع من الآخرين مثل ذلك، فتصيبه الريبة في جميع معاملاته مع الآخرين، ظنا منه أن الآخرين يفعلون مثل فعله. وأي مجتمع غلب فيه نقض العهد والميثاق تكثر فيه الخصومات، وتستحكم فيه الخلافات المتعصية. والخلف في الوعد له أضراره الكبيرة أيضا،

^١ انظر: بصرة الغيم ٥٦٣٢/١١

^٢ سورة الحل: ٩١

^٣ سورة البقرة: ٢٦، ٢٧

^٤ سورة المائدة: ١٣

فالمرء إذا وعد بشيء، ثم لم يوفّ به انحسرت عنه ثقة الناس. وإذا ساد هذا الخلق الذميمة المجتمع ككل فالمصيبة أعظم، والمشكلة أكبر؛ لتعطل مصالح المجتمع، وتفشي الكذب، والخيانة، والريبة، والخداع، وغير ذلك من الرذائل بين أوساط المجتمع. والله المستعان.

ثالثاً: الترغيب في أداء الأمانة^(١) والترهيب من الفيانة.

وقد رغب الله عزّ وجلّ الأمة في الالتزام بأداء الأمانة، فأمرهم بذلك في قوله: (فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ)^(٢). كما مدحهم بمراعاة الأمانة، وأدائها في سياق ذكر صفات المؤمنين، الذين يستحقّون التبوّء في الفردوس الأعلى، وذلك في قوله: (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)^(٣). وذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن تضييع الأمانة من علامات قرب الساعة، ممّا يوحي إلى فساد الأمة، وقلة مبالاها بأداء الأمانة، ومراعاة الحقوق، فقال: «فَإِذَا ضُيعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»^(٤). ولعمر الله إنّ أمرا صار تضييعه من علامة الساعة لكبير، وإنّ شأنه لخطير.

وأما الخيانة^(٥)، فهي ضدّ الأمانة، وقد حذّر الله تعالى من هذا الخلق الذميمة، فبيّن في القرآن ببغضه، وانتفاء محبته للخائنين: (وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)^(٦). (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)^(٧). كما نهى المؤمنين عن خيانة حقوق الله، وحقوق الرسول، وحقوق الناس، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)^(٨). ووصف اليهود بالخيانة إلا قليلا منهم، كما في قوله تعالى:

^١ المراد بالأمانة هنا: عمّة المرء عمّا ليس له فيه حقّ، وتأديته ما يجب عليه من حقّ الغير، واهتمامه بحفظ ما استؤتمن عليه من الأموال، والحُرْم، والأسرار، وعدم التعريط والنهالوشأها. انظر: بصرة العيم ٥٠٩/٣

^٢ سورة البقرة: ٢٨٣

^٣ سورة المؤمنون: ٨

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه (٢١/١)، كتاب العلم، باب من سئل علما وهو مشتعل في حديثه، فأتم الحديث ثم أحاط السائل عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظه.

^٥ وهي عبارة عن: الإخلال لحقوق ما استؤتمن عليه الإنسان من حقوق الله، أو حقوق العباد. انظر: الأخلاق الإسلامية، وأسسها ٦٦٧/١، لعمد الرحمن حسن حبكة الميداني، ط: الخامسة، دار القلم، دمشق، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

^٦ سورة الأنفال: ٥٨

^٧ سورة الحج: ٣٨

^٨ سورة الأفعال: ٢٧

(وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ)^(١). وتأثير الالتزام بالأمانة في المجتمع كبير، فالأمانة تحفظ لأفراد المجتمع دينهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأرواحهم، وعلومهم، كما تصون معاملاتهم، وولاياتهم، وشهاداتهم، وكتاباتهم، وعقودهم من عوامل الخيانة، والتزوير، والنقض، والجور. ومن هنا يتضح دور الأمانة في بناء المجتمع، وتماسكه، واستحكام نظامه السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي. وحينئذ تعم البركة، وينتشر الخير.

أما أثر الخيانة على المجتمع فضررها عظيم، وأمرها خطير، فهي داء عضال، إذا استشرى في الإنسان جرّده من إنسانيته، وجعله مثل الحيوان، يجري وراء ملذاته، وشهواته، وإنّها تسبّب المهانة والذلّ لصاحبه، وتلصق به العار في الدنيا والآخرة. والخيانة من عوامل تمزيق روابط المحبة، والتعاون بين أفراد المجتمع. وانتشارها يؤذن بفناء المجتمع وانحلاله، كما يؤدي إلى فشوّ الرشوة، والغشّ، والمطل، والغلول، والتغريز، والخداع في سائر المعاملات.

رابعاً: الترغيب في العدل، والترهيب من الظلم

بالعدل قامت السموات والأرض، وصلاح به أمر الدنيا والآخرة، وأقرّ بفضلها العقلاء من سائر الأمم والشعوب. وقد وصف الله به نفسه، فمن أسمائه الحَكَمَ العَدْلَ، ونفى عن نفسه الظلم والجور. وقد رغب الله تعالى في القيام بخلق العدل، فدعا المؤمنين إلى الالتزام به في أنفسهم، وأهلهم، وما وُلّوا عليه من الولايات العامة والخاصة، فقال: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)^(٢). ولما كانت الشهادة من الوسائل، التي تثبت بها الحقوق والواجبات، احتاجت إلى العدل أكثر من غيرها، فالشاهد يخبر عند القاضي ما رآه بعينه من الحوادث والمعاملات التي تجري بين الناس، فيفصل الحاكم بين المتخاصمين ويحكم في القضية استناداً إلى الشهادة لفلان أو على فلان. ومن هنا اهتم القرآن بالعدل في الشهادة، وأمر بذلك في مواضع كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أُولَىٰ بِهِمَا)^(٣). كما نبّه سبحانه على أنّه لا ينبغي أن يُثني المرء عن القيام بشهادة العدل كون أحد الخصوم عدواً للشاهد، فلا ينصف له فيها، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

^١ سورة المائدة: ١٣

^٢ سورة الحنّ: ٩٠

^٣ سورة النساء: ١٣٥

كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(١). ولما كان الكيل والميزان من المجالات، التي يظهر فيها العدل والجور، ومن خلاله تثبت الحقوق، أو تضيع حثَّ الله سبحانه المؤمنين على القيام بالعدل والقسط في الكيل والميزان، فقال تعالى: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)^(٢). وقال أيضا: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)^(٣). ومن مجالات العدل أيضا الصلح بين طائفتين من المسلمين، وذلك عندما ثور بينهم فتنة، أو اقتتال، فيتم الصلح بينهم بالعدل والإنصاف، من غير ميل إلى فئة معينة. وفي ذلك يقول المولى جل وعلا: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)^(٤).

وضدَّ العدل الظلم، الذي طالما امتلأت به الدنيا، واشتكى منه العباد كثيرا، وتفرَّ منه العقلاء في سائر الأمم والشعوب، فعاقبته وخيمة، ونتائجها فظيعة، فإنَّ الله ليملي للظالم، فإذا أخذه لم يفله. وقد حرَّم الله سبحانه الظلم على نفسه بأوكد صيغة من صيغ التأكيد، فقال: (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)^(٥). وحذَّر الأُمَّة من الوقوع في هذه الخلَّة الدنيعة، والخصلة القبيحة، فمنع الظالمين من هدايته، ومحَبَّته: (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)^(٦). (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)^(٧). وأبعدهم من رحمته، وأنزل عليهم لعنته: (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)^(٨). وجعل مأواهم جهنم، وبئس المصير: (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)^(٩). وأوقعهم بالهلاك والخزي في الدنيا، وجعل عاقبتهم وخيمة: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)^(١٠).

^١ سورة المائدة: ٨

^٢ سورة الأنعام: ١٥٢

^٣ سورة الإسراء: ٣٥

^٤ سور الحجرات: ٩

^٥ سورة آل عمران: ١٨٢، والأعمال: ٥١، والحج: ١٠

^٦ سورة آل عمران: ٥٧

^٧ سورة البقرة: ٢٥٨

^٨ سورة هود: ١٨

^٩ سورة الأعراف: ٤١

^{١٠} سورة القصص: ٤٠

وأثر العدل والإنصاف في حياة الأفراد والجماعات ظاهر بين، فالإنسان مدني بطبعه، يحتاج إلى أن يعيش مع غيره من الناس. والعدل هو القاعدة الكبرى في بناء المجتمع الصالح، فإذا أنصف المرء الآخرين من نفسه، ووجد الإنصاف من غيره، فانتصف من الظالم بنفسه إن استطاع، أو بواسطة أجهزة العدل التي تردّ له حقوقه، واعتباره من الظالم، قلّت الخصومات، واضمحلت الجرائم، وتلاشت العداوة والشحناء، وسادت المحبة والألفة بين المجتمع. وأما أثر الظلم، وإهدار الحقوق، وترك الإنصاف فغير خافٍ على أحد، فبضدّها تميّز الأشياء. وإذا انتشر الظلم في أمة عاشت في ضنك من العيش، وضائق عليها الدنيا بما رحبت. والظلم إذا فشا في الأفراد، وعمّة الناس تجسّد في الحكّام والولاة، فصاروا ظلمة مجرمين، وأذاقوا الناس سوء العذاب. اللهم ارفع مقتك وغضبك عني، واجعل ولايتنا في من خافك، وأتبع رضاك.

خامساً: الترغيب في التواضع والترهيب من الكبر

بالتواضع تتألف القلوب، وتجتمع النفوس، ويتلاشى الحقد والضغينة، والحسد والكراهية. فقد مدح الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بخلق التواضع، الذي بسببه اجتمعت عليه قلوب الصحابة، فقال: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)^(١). كما مدح المؤمنين بتواضعهم لإخوانهم، وتعزّزهم على أعدائهم الكفار، فقال: (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)^(٢).

والكبر ضدّ التواضع، وهو خلق ذميم، ووصف قبيح بالنسبة للمخلوقات، وأما بالنسبة للخالق فهو من أعظم صفات الله، التي يميّز بها عن غيره من المخلوقات، فهو المتكبر، وصاحب العظمة والكبرياء، كما في الحديث القدسي: «الْكِبْرِيَاءُ رِذَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَدْفَنُ فِي النَّارِ»^(٣). وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم مصير من يتّصف بالكبر من الناس، مع بيان أنّه تحقير الناس وازدراؤهم، وردّ الحقّ وعدم الانقياد له، فقال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» قال رجل: إنّ الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسناً

^١ سورة آل عمران: ١٥٩

^٢ سورة المائدة: ٥٤

^٣ أخرجه أبو داود في سننه (٥٩/٤)، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر عن أبي هريرة بلعظه، وابن ماجة في سننه (١٣٩٧/٢)، كتاب الرهد، باب البراءة من الكبر والتواضع عن ابن عباس بلعظ: "ألقيته في النار"

ونعله حسنة، قال: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١). والكبر جماع الشرّ، ومنبع الأخلاق الذميمة، والدافع إلى الأعمال القبيحة، كما يقول الإمام الغزالي: "فما من خلق ذميم إلا وصاحب العزّ والكبر مضطّرّ إليه ليحفظ عزّه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزّه"^(٢). وقد حرّم الله تعالى التكبر على العباد، والازدراء بهم، بأن يُعظّم المرء نفسه، ويرفّع على غيره، فأخبر في كتابه أن سبب كفر إبليس، وطرده من رحمة الله استعظام نفسه، وتكبره على آدم عليه السلام، كما في قوله: (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)^(٣). وقد دفع الكبر الأمم السابقة إلى الامتناع عن الحق، وطاعة الرسول، فقال تعالى إخباراً عن قوم ثمود: (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)^(٤). وحذّر سبحانه المؤمنين من خلق الكبر بأن أخبرهم بمصير المتكبرين في الآخرة، وأنه يعذبهم عذاباً موجعاً، ولا يكون لهم نصير ولا معين يكفّ عنهم العذاب، فقال: (وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)^(٥). كما نهاهم عن الفخر، الذي هو من آثار الكبر القولية، كالتفاخر بالأحساب، والأنساب، والأموال، والأولاد، والأتباع، ومن الخيلاء، الذي هو من آثاره العملية، كالاختيال بالمشية، وهيئة اللباس. فقال تعالى في نصيحة لقمان لابنه: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)^(٦).

ومن آثار التواضع أن صاحبه يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن دونه. وإن التواضع يزيل الحسد، والحققد، والشحناء بين أفراد المجتمع؛ لأنّ هذه الصفات غالبيتها ناتجة عن الكبر والفخر والتعالى على الآخرين، واحتقارهم. وعلى العكس إذا تواضع المرء للناس اكتسب ودّهم، وانتفى الحسد من قلوبهم. والتواضع يؤلّف النفوس، ويفتح القلوب، ويجعل الناس قريبين من المتواضع، يسمعون لقوله، وينصاعون لأمره، ويعرضون عليه حاجاتهم ومشاكلهم، ممّا يجعل المتواضع جليل

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٩٣/١)، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظه.

^٢ إحياء علوم الدين للغزالي: ٣٤٥/٣

^٣ سورة البقرة: ٣٤

^٤ سورة الأعراف: ٧٦

^٥ سورة النساء: ١٧٣

^٦ سورة لقمان: ١٨

القدر، رفيع المكانة عند الناس، وهذا بدوره يقوّي تماسك لبنات المجتمع، وانتشار المودة والمحبة بينهم، فيصير مجتمعاً خالياً من عوامل التفكك والانحلال، والتشتت والاختلال.

وللتكبر آثاره الضارة على الفرد والمجتمع، فمن آثاره على الفرد أن المتكبر نفسه يصاب بالقلق والاضطراب النفسي؛ وذلك أنه يتوقع من الناس أن يعزّوه، ويحترموه، فإذا فقد ذلك أصابه خيبة أمل، وشعور بالإحباط، مما يسبب له الهم والقلق. ومنها أن التكبر يحرم المرء من التحلي بالفضائل والمكرمات، والتترّ من العيوب والنقائص؛ لأنّ المتكبر يحسب أنه بلغ ذرة الكمال، فلا يسعى للتفتيش عن عيوب نفسه. ومنها أنه يورث صاحبه قلة الأنصار، والشعور بالعزلة؛ لأنّ الناس يألفون إلى من يخفض لهم الجناح، ويحترمون من يلين لهم الجانب، كما قال تعالى لنبّه: (وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)^(١).

وأما آثاره على المجتمع بصورة عامة فإنه يتسبب منه التمزق، والاختلاف، والتشردم والشقاق؛ حيث إن أفراد المجتمع إذا فشا فيهم التكبر يحاول كلّ منهم أن يترأس على الآخرين، ويصدروا عن رأيه، ويطاوعوه في أمره ونهيه، وهذا غير ممكن تصوّره في مجتمع، أغلب أفراده يطلبون الإمارة، والمسؤولية. بالإضافة إلى أنّ الكبر يورث الحسد، والحقد، والكراهية في أفراد المجتمع؛ لأنّ الذين يقع عليهم ظلم المتكبرين، ولا يستطيعون دفعه عن أنفسهم يصابوا بهذه الأمراض الدفينة، الخطيرة، وهي: الحسد، والحقد، والبغضاء، مما يفتك بالمجتمع، ويوهن تماسكه، ويجعله فريسة للأعداء. نسأل الله العقو والعافية في الدنيا والآخرة.

^١ سورة آل عمران: ١٥٩

المبحث الرابع:

أثر الترغيب والترهيب بأسماء الله وصفاته في إصلاح الفرد والمجتمع

إنّ لمعرفة أسماء الله تعالى وصفاته دوراً كبيراً في التأثير على حياة الفرد والمجتمع؛ إذ هي من أعظم الوسائل لمعرفة الله، فإنّه عزّ وجلّ تعرّف إلى عباده بأسمائه وصفاته وأفعاله، وآثارها في الكون الفسيح، وبالتالي يتحصّل العبد على معرفة الله من خلال تصوّره لمعاني هذه الأسماء والصفات، ومشاهدته لآثارها في عجائب مخلوقات الله تعالى من السماء والأرض، وما بينهما من بدائع صنعه، وآثار قدرته، وعلمه، وحكمته، ونعمته. ومن هنا ارتبط إيمان العبد بمعرفة ما تدلّ عليه الأسماء والصفات، ولا اعتبار لإيمان العبد إلا بذلك.

وإذا عرف العبد ربّه، وامتلاً قلبه بالإيمان أورثه ذلك خشية الله، ورجاءه، ومحبّته، ومراقبته، والتوكّل عليه، والرضا بقضائه وقدره، والاستعداد لأمره ونهيّه، وإخلاص العمل له، ممّا هو تحقيق لمقامات الإيمان، وصفات المقرّبين، وهي أصل الإيمان، وغايته، وعين سعادة العبد وفلاحه في الدنيا والآخرة. ولا يجد أثر هذه الأسماء في الإيمان والعمل من كان حظّه منها معرفة ألفاظها، وضبط معانيها اللغوية فقط، دون تحقيق ما دلّت عليه من المعاني، المؤثّرة في القلوب، والموجّهة للسلوك. وقد أشار إلى ذلك الإمام الغزالي، فقال: "اعلم أنّ من لم يكن له حظّ من معاني أسماء الله عزّ وجلّ إلا بأن يسمع لفظه، ويفهم في اللغة معنى تفسيره ووضعه، ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى، فهو مبخوس الحظّ نازل الدرجة، ليس يحسن به أن يتبسّج بما ناله"^(١). ومع ذلك فلا ينبغي أن يقلّل من قيمة فهم المعاني اللغوية للأسماء والصفات، فإنّها الخطوة الأولى، والوسيلة إلى ما بعدها، وإتّما العيب الوقوف عندها، واعتباره الغاية القصوى.

وهذه المعرفة الإيمانية يكون لها الأثر الواضح في سلوك الفرد، وحياته اليومية. غير أنّ هناك ملحظاً آخر، يكشف عن تأثير الأسماء والصفات في حياة العبد، فينتفع بها، وذلك يتمثّل في التخلّق بما يمكن للعبد التخلّق به من دلائلها، فما كان منها يليق بالعبد، كالرحيم والكرم والعفو، فإنّ الله يحبّ أن يرى على عبده الاتصاف بها، وما لا يليق بالعبد معانيها كلفظ الجلالة، والأحد، والقدّوس، والجبار والعظيم، فإنّه يجب على العبد الإقرار بها والتذلّل لها^(٢). وفيما يلي أشير إلى

^١ المقصد الأسّي للغزالي، ص: ٤٥

^٢ انظر: شرح صحيح البخاري لاس نطال ٤١٩/١٠

طائفة من الآثار، التي يعود نفعها على الفرد والمجتمع، والتي يحدثها الترغيب والترهيب، المستفاد من أسماء الله وصفاته، الواردة في القرآن الكريم.

أولاً: أثر الأسماء الدالة على العلم والإحاطة

ذكرت معاني هذه الأسماء بالتفصيل، مع بيان كيفية دلالتها على الترغيب والترهيب فيما سبق من هذا البحث^(١)، وهنا أشير إلى الآثار، المترتبة على هذه الأسماء، ودورها الملموس في إصلاح الفرد والمجتمع. والأثر الذي يعود نفعه على العبد عند التفقه في الأسماء ملموس، يتأثر به قلبه، ويظهر في عباداته، وسلوكه، وأخلاقه، ومعاملاته. وذلك أن معرفة الأسماء تقوّي الإيمان في القلب، فيظهر أثره في جميع الأعضاء، فتمثل بالأوامر، وتجتنب عن النواهي، كما في الحديث: «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢). وهذا انعكاس لما في قلب العبد من صلاح أو فساد على سلوكه الظاهر.

ومن أسماء الله تعالى الدالة على العلم والإحاطة: العليم، الخبير، البصير، السميع، الرقيب، الشهيد. فإذا أيقن العبد أن الله عزّ وجلّ يعلم أحواله، وأعماله، الظاهرة والباطنة، والسرّية والعلنية، الصالحة والفاصلة، أفاده ذلك أن يتقن عمله، ويتعاهده، ويستفرغ جهده في أدائه بإخلاص ومتابعة، فإذا صلح عمل العبد أثر في حياته كلّها، فصلحت معاملاته العامة، ومعاشراته الخاصة، ممّا يتّصل بالمجتمع الذي يعيش فيه، فصار عضواً صالحاً، بل مصلحاً لما أفسده الآخرون، كما يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: "متى علم العبد أن حركاته الظاهرة، والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنه عن كل فكر، وهاجس يبغيضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله، وتعبّد بمقام الإحسان فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه"^(٣).

والحقيقة إذاً أن إصلاح المجتمعات لا تتمّ من خلال الأنظمة الإدارية، والأحكام القسريّة فقط، بأن يفرض عليهم قوانين صارمة، وأحكام عادلة، بل يتمّ إصلاحها عن طريق تثبيت الإيمان في القلوب، ومن ثمّ إصلاح العمل الظاهر من الالتزام بالواجبات، والانزجار عن المخالفات.

^١ انظر: ص: ٢١٥، وما بعدها

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠/١)، كتاب الإيمان، باب فصل من استبرأ لدينه. وأخرجه مسلم في صحيحه (١٢١٩/٣)، كتاب المساقاة، باب أحد الحلال وترك الشبهات، كلاهما عن العمان بن بشير رضي الله عنهما.

^٣ تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي، ص: ٢٠٨

وبالرغم من ذلك، فلا ينكر دور الأنظمة، والقوانين في قمع المفسدين، وتأديب المجرمين، وتأمين السبل، وتنظيم مصالح الفرد والمجتمع، وبناء المرافق العامة وإصلاحها. ولكن الدور الأهم، والأساس الأعظم في الإصلاح يكون دوماً لسلطة الضمير في القلب، والوازع الديني في النفس، وهذه سنة الأنبياء عليهم السلام في إصلاح الأمم والجماعات؛ إذ لم يكن لديهم سلطة قانونية، ولا نظام قهري لتنفيذ ما أرسلوا به من المبادئ السامية، والأخلاق الفاضلة، إنما كانوا يستخدمون وسيلة الترغيب والترهيب، وإقناع الفكر والعقل بالحجج الواضحة، والمجادلة الحسنة، حتى استقر الإيمان في قلوب من كتب له السعادة من المدعوين، ومن ثم اندفعوا إلى اختيار النافع والصالح من الأعمال، وترك الفاسد والضار منها.

ثانياً: أثر الأسماء المتضمنة لسعة المغفرة وشمول الرحمة

إنّ رحمة الله شاملة لكلّ الأشياء، ومغفرته واسعة، لا تغادر ذنباً. وقد بيّن تعالى في كتابه مدى سعة رحمته، وشمول مغفرته، وإنّه لا ييأس منها إلّا خاسر، ولا يقنط منها إلّا هالك، وحثّ عباده على التعرّض لها، ورجائها في شتى الصور، ومختلف الأساليب، ومن بينها عرض أسمائه الدالة على الرحمة والمغفرة، وعموم الإحسان.

ومن أسمائه تعالى المتضمنة لسعة المغفرة وشمول الرحمة: الرحمن ، الرحيم، الرؤوف، الغفور، العفو، والحليم. فإذا تأمل العبد في الأسماء الدالة على سعة رحمة الله، وشمول إنعامه أوجبت له الرجاء والتطلّع إلى الحصول على هذه الرحمة، واجتهد في الأسباب الجالبة لها، إذ الرحمة قريبة من المحسنين لعباد الله، المجتهدين في طاعته، المجتنبين لمعاصيه، كما قال تعالى: (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)^(١). وقوله: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)^(٢). وهناك أثر آخر للأسماء الدالة على الرحمة، وذلك أن العبد مطلوب أن يسعى إلى التخلّق بمعاني صفات المولى جلّ وعلا، وتحصيلها في نفسه بالقدر المناسب لعبوديته. فإذا تحقّق بمعاني أسماء الرحمة اكتسب الرحمة على المخلوقات جميعاً، فيعطف عليهم، ويرحمهم، ويحبّ لهم الخير، ويكره لهم الشرّ، ويسعى إلى إيصال الخير الدينيّ، والدينيّ لهم بقدر طاقته، استرشاداً بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ»

^١ سورة الأعراف: ٥٦

^٢ سورة الأعراف: ١٥٦

ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(١). ويقول الإمام الغزالي في النصيب الذي يكتسب العبد من اسم الله الرحمن: "أن يرحم عباد الله الغافلين، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله عزّ وجلّ بالوعظ والنصح، بطريق اللطف، دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة، لا بعين الإزدراء، وأن تكون كل معصية، تجري في العالم كمصيبة له في نفسه، فلا يألو جهداً في إزالتها، بقدر وسعه، رحمة لذلك العاصي أن يتعرض لسخط الله، ويستحق البعد من جواره"^(٢).

وأما أثر الأسماء المتضمنة للمغفرة في العبد، فإنه إذا تأمل فيما تدلّ عليه من شمول مغفرته تعالى لجميع الذنوب، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، وسعة عفوه، وصفحه أوجب له ذلك أن يسعى في طلب المغفرة من الله عزّ وجلّ، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة، في أسرع ما يكون، حتى يظفر بالمغفرة، ويحصل على العفو والصفح. ولا يشيه عن ذلك عظمُ ذنوبه، ولا قبحها، فإنّ الله يغفر الذنوب جميعاً، كما قال تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)^(٣).

ويعاني المسلمون اليوم من مشاكل أمنية، واقتصادية، وسياسية، واجتماعية، والسبب في ذلك كله ابتعادهم عن دين الله، وإيثارهم الدنيا على الآخرة، وركوبهم المنكرات والفواحش علناً، وجهاراً، وتركهم التناصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد بين الله عزّ وجلّ في أكثر من موضع في كتابه أنّ المصائب التي تحلّ بالمسلم سببها العمل السيئ، والانحراف عن الصراط المستقيم. ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)^(٤). وقوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)^(٥). وحلّ تلك المشاكل، ورفع هذه المصائب، التي عمّت هو الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والإنابة العامة، التي تصدر من جميع أفراد المجتمع، فحينئذ ترتفع العقوبات، وتنجلي المصائب لا محالة، ويستبدلها الله بنعمة شاملة، تستغرق معاشهم ببركة

^١ أخرجه الترمذي في سننه (٣٢٤/٤)، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين عن عبد الله بن عمرو بن لطفه، وقال: هذا حديث حسن صحيح

^٢ المقصد الأسنى للغزالي، ص: ٦٤

^٣ سورة الرمر: ٥٣

^٤ سورة التورى: ٣٠

^٥ سورة الروم: ٤١

في الرزق والولد والعمر، وأمناً في الأموال والأنفس والأعراض، وألفةً تجمع الشمل وتؤلف القلوب، وعدلاً في نظام الحكم والقضاء، وتمكيناً للدين في جميع شعب الحياة. وفي ذلك يقول الله عز وجل: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) ^(١). وقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ^(٢). وفي هذا دلالة واضحة على أن إصلاح المجتمع منوط بصلاح عمله، فإن كان موافقاً لمرضاة الله، وطبقاً لتعاليم دينه أصلح الله حاله في الدنيا والآخرة. والتوبة مفتاح الالتزام بالدين، فمن تاب إلى الله توبة خالصة وفقه للعمل بالدين.

ويلاحظ أيضاً عند التأمل في لأسماء الدالة على المغفرة والعفو أن العبد يحصل له منها أثر طيب، وذلك أن يعفو عن من ظلمه، ويقابل إساءته بالإحسان، كما يستر ما يبدو له من قبائح الناس وعيوبهم، ويتغافل عنها، فلا يكشف عن عوراتهم، ولا ينشر فضائحهم، اقتداءً بصفات المولى عز وجل في مغفرة الذنوب، وستر القبائح. يقول الغزالي في حظ العبد من عفو الله تعالى: "وهو أن يعفو عن كل من ظلمه، بل يحسن إليه، كما يرى الله تعالى محسناً في الدنيا إلى العصاة والكفرة، غير معاجل لهم بالعقوبة" ^(٣). وإذا فشا خلق العفو، والتسامح، وستر العيوب في عامة الأمة نشأ من ذلك مجتمع سليم من أمراض الغيبة، والنميمة، وسوء الظن، وكل ما ينشر العداوة والبغضاء، ويقطع أواصر المحبة والألفة، ويمزق الأمة شيعاً وأحزاباً. ومن هنا يتقوى تماسك المجتمع، وينتشر التعاون بين أفرادها، ويقفون صفاً واحداً أمام جميع المشاكل الداخلية والخارجية، ويكونون يداً واحدة على من سواهم، والله تعالى بعد ذلك نصيرهم ومعينهم.

ثالثاً: أثر الأسماء الدالة على القدرة والعظمة ونفاذ المشيئة:

الله جلّ جلاله له القوة والعظمة والكبرياء، وله القدرة التامة والمشيئة النافذة، والتصرف الكامل في جميع المخلوقات بعلمه وإرادته وحكمته، فلا يتعاضم على قدرته شيء، ولا يعترض على إرادته أحد، ولا يخرج عن تدبيره وقهره وسلطانه مخلوق، فله ما في السموات وما في الأرض

^١ سورة هود: ٣

^٢ سورة الأعراف: ٩٦

^٣ المقصد الأسى للغزالي، ص: ١٤٠

خلقاً وإيجاداً، وتدبيراً وتصريفاً. وهو الفَعَال لما يريد، تنفذ إرادته ومشيئته على كل الكائنات من غير تأخر، ولا زيادة، ولا نقصان، وهي لا تخلو عن حكمة، ومصلحة.

ومن أسمائه تعالى الدالّة على ذلك: القدير، القوي، المتين، العزيز، العظيم، الكبير، القهار، الفَعَال لما يريد. وهذه الأسماء تؤثر في العبد، بأن يكتسب منها الحصول على تعظيم الخالق، وتعظيم أمره، ونهيه، ومشاعره، وحرماته، فيلهج لسانه بذكره، والثناء عليه، وتمجيده، وتعظيمه، وتنطلق جوارحه بالقيام بعبوديته، وتنفيذ أمره ونهيه، ويستولي على القلب الخوف من مهابته وعظمته، والذلّ والانكسار لكبريائه وقهره، والخضوع والخشوع لجلاله وجبروته، كما في قوله تعالى (ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)^(١)، وقوله: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)^(٢). وهذا التعظيم والإجلال في قلب العبد سيؤثر بالطبع في حياته كلّها، فيستعمل جسمه في طاعة الله تعالى، والقيام بأمره في المنشط والمكره، والشدة والرخاء، كما تكون تصرفاته العامة مع المجتمع حوله مبنية على الرحمة والعدل، والشفقة والنفع. وإذا استقام المرء على طاعة الله تعالى يتواصل خيره ونفعه للآخرين، حيث يستشعر أن خير الناس عند الله أنفعهم للناس، كما يحرص على أداء حقوقهم، فلا يعتدي عليهم في أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، كما ورد في الحديث الشريف: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ» قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: «فَيَعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ»^(٣) قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «فَيَأْمُرُ بِالْخَيْرِ» أو قال: «بِالْمَعْرُوفِ» قال: فإن لم يفعل؟ قال: «فَيُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ»^(٤).

ومن الآثار التي تُكتسب من اسمه تعالى العزيز: شعور العبد بالعزة من غير أنفة، فلا يُذل نفسه لغير الله، ولا يشعر بالمهانة والاستكانة لأحد، مهما عظمت منزلته، وارتفعت مكانته، وعظم بطشه وجبروته، ولا يُظهر مطامعه ورغائبه لأحد سوى الله، وإن توفّر عنده متاع الدنيا وخيراتها. فالرقبة التي خضعت لجلال الله لا ينبغي أن تنحني لسواه. والمؤمن بالله ورسوله تمتلئ

^١ سورة الحج: ٣٢

^٢ السورة السابقة: ٣٠

^٣ معناه: "المكروب". النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٢٨٢/٤

^٤ أخرجه البخاري في صحيحه (١١/٨)، كتاب الأدب، باب: كل معروف صدقة لفظه. ومسلم في صحيحه (٦٩٩/٢)، كتاب الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف لفظ مقارب. كلاهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

جوانحه بالعزة، التي يستمدّها من الثقة بالله، والتوكل عليه، وعرض سائر الحاجات عليه دوماً وأبداً. قال الله تعالى: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)^(١). والعزة أصلها ثابت لله تعالى، ولكنّ المؤمن يتحلّى بها من خلال ارتباطه بالعليّ العزيز، كما في قوله: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)^(٢). وإذا اعتزّت الأمة بالله العزيز استعلت على كلّ من يحاول إذلالها من الأعداء، وأبت أن تركع لأحد سوى الله تعالى، وفضّلت الموت والألم الجسدي على قبول المهانة والذلّة في أمر دينها، كما قال تعالى: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٣). فعاشت عزيزة بإيمانها، قويّة بارتباطها بالله، والتزامها بدينه، فتصير مهيّبة ومحترمة عند الأعداء والأحباب. وهذا حال ما كان عليه الرعيل الأول من هذه الأمة، بخلاف ما آل إليه أمرها الآن، حينما تخلّوا عن أسباب العزة الدينية، فوقعوا في مستنقع الذلّ والمهانة. وأشار إلى ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كلمته المشهورة: «إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ»^(٤).

ومن الآثار المكتسبة من اسمه تعالى القويّ وما يشابهه في المعنى أن يستقوي المؤمن بالله القويّ العزيز في مجابهة الباطل، والقوى المدافعة عنه، فيقابلهم معتمداً على قوّة الله القاهرة، وقدرته الشاملة، التي تنكسر أمامها جميع قوى الكون، فيستنصر بها على أعدائه، ويجتهد في استكمال أسباب النصر، ثم يتوكّل على الله ثقة به أنّ النصر والخذلان منه جلّ جلاله، كما في قوله: (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)^(٥). كما يستيقن المؤمن أنّ الهزيمة التي تلحق الأمة أحياناً في مقابلة الأعداء سببها ضعف الإيمان، وارتكاب المخالفات، مما يتسبّب عنه تأديب الله لها، بتسليط الأعداء عليها، فإن أنابت إلى الله تعالى رجعت إليه نصرته من جديد، وأداله على الأعداء الكفرة والمجرمين.

^١ سورة المافقون: ٨

^٢ سورة فاطر: ١٠

^٣ سورة آل عمران: ١٣٩

^٤ أحرجه الحاكم في المستدرک (١٣٠/١)، كتاب الإيمان عن طارق بن شهاب للعطه. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

^٥ سورة آل عمران: ١٦٠

رابعاً: أثر الأسماء الدالة على الحكم والعدل والثواب والعقاب

إنَّ الله سبحانه حَكَمٌ عَدْلٌ، يقول الحقّ، ويأمر بالحقّ والعدل والإحسان، ويحكم بالعدل والإنصاف، وهو خير الحاكمين. فلو عَذَّبَ الخلق جميعاً لم يكونوا في حكمه مظلومين، ولو رحمهم جميعاً لكان هذا من فضله ورحمته. والله تبارك وتعالى شديد العقاب، وشديد العذاب، فأخذَه أليم وشديد، وبأسه قويّ وعنيف، وبطشه عظيم وخطير، يعاجل من يشاء من الكفرة والمجرمين بالعقوبة، ويتنقم منهم في هذه الدنيا على سوء عملهم جزاءً وفاقاً. كما يثيب أولياءه بالنصر والتمكين، والحياة الطيبة، والأمن والرخاء مقابل ما وقّوا بعهودهم، وأمضوا حياتهم وفق أوامر الله وأحكامه. والله جل ثناؤه الحَكَمُ العدل، الذي يحكم بين عباده في الآخرة بعدله، وقسطه، فلا يظلم مثقال ذرة، وهو أحكم الحاكمين.

ومن أسمائه وصفاته الدالة على ذلك: الحَكَمُ، العدل، الفتاح، الشكور، سريع الحساب، شديد العقاب، ذي انتقام. ومن الآثار المستفادة من أسماء الله تعالى الدالة على الحكم أن يعلم العبد أن كلّ ما يجري في هذا الكون من الأسباب والأعمال والأحوال بحكم قضاء الله وقدره، فيوجب له ذلك أن يكون مُجْمِلاً في طلب الرزق، فلا يتجاوز حدود المشروع، ولا ينشغل به عن عبادة الله وطاعته، ولا يحمل همّاً وغماً فيما قضى عليه من الأحوال، بل يصبر عليها إن اشتدّت، ويشكر عليها إن تيسّرت، فيعيش حياة طيبة، مطمئنّ النفس، ساكن الجأش. وهذا حال المؤمن في الدنيا، كما في الحديث الصحيح: «عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١). وأما الأثر الذي تحقّقه أسماء الله تعالى، الدالة على العدل والإنصاف أن يكتسب العبد صفة العدل، الذي استقام بها أمر السموات والأرض، فينتصف للناس من نفسه، فيؤدّي حقوقهم، ويحترز من التعدّي عليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وإن وقع منه شيء من ذلك على وجه الخطأ والزلل استحلّها منهم طوعاً من غير كره. وإذا ولي شيئاً من الولايات العامة والخاصة قام بالعدل والإنصاف، فيسوّي بين الرعيّة بالمعاملة الحسنة، ويعطي كلّ ذي حقّ حقّه، ولا يكون عنده محاباة لأحد في أيّ أمر من الأمور، بسبب قرابة، أو صحبة، أو طمع، أو خوف، أو عداوة، أو محبة، أو غير ذلك مما يجحد بالمرء عن سنن العدل والإنصاف.

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٩٥/٤)، كتاب الرهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير عن صهيب رضي الله عنه لفظه.

ومن الآثار التي تُكتسب من الأسماء، الدالة على الشكر والإحسان أن يشكر العبد مولاه فيما أسبغه عليه من النعم، الظاهرة والباطنة، فيستعملها في طاعته ومرضاته، كما يشكر الآخرين فيما أسدوا إليه من الإحسان والإكرام، فيجازيهم بالثناء عليهم والدعاء، والمكافأة بأحسن مما صنعوا إليه من المعروف، اقتداء بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ»^(١). وخلق الشكر والإحسان المتبادل يزيد المجتمع محبة ومودة، وتماسكا وتآلفا، فيسودهم روح التعاون والتكافل، وتبادل التحف والهدايا، وتضمحلّ عوامل الحسد والحقد والبغضاء. ومن الأثر التي تفيده أسماء الله، الدالة على سرعة الحساب أن يحاسب العبد نفسه في كلّ ما يأتي وما يذر، فيستذكر محاسبة الله له يوم الجزاء والحساب، وعرضه عليه كتاب الأعمال، حيث يقرأها بنفسه من غير حاجة إلى مترجم ولا وكيل، فيجد فيه كلّ ما عمله في الدنيا، من صغير وكبير، وخفيّ وجلّيّ، وصالح وطالح. وهذا يستوجب أن يتفكّر العبد في العمل الذي يريد القيام به، هل ينفعه يوم الجزاء، ويفرح به إذا وجده في كتاب الأعمال، أم يضرّه يومئذٍ إذا عثر عليه في ديوان الأعمال، ممّا يقلّل من عثرات المرء، وزلّاته، لأنّ معظم الناس يرتكبون الأخطاء في غفلة عن عواقبها، وعدم تدبّر محاسبتها يوم يقوم الحساب. والمجتمع الذي يحاسب أفراده أنفسهم تنتشر فيهم حبّ الفضيلة، واحتضانها، والاحتفاء بأصحابها، وكراهية الرذيلة ونبذها، وإقصاء أصحابها، ممّا يقلّل من أخطاء المجتمع وزلّاته. وإذا وجد فيهم شيء من ذلك بحكم الإنسانية وطبيعتها، وعدم انفكاكها عن الأخطاء والمخالفات بادر المجتمع بإزالتها، من خلال ردّ أصحابها إلى دائرة الحقّ والفضيلة بالنصح والإرشاد، أو تأديبهم وردعهم عن ذلك بالقوّة والسلطان، حتّى لا تنتشر هذه المخالفات في بقية أفراد المجتمع. والله الموفق للصواب.

^١ أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٩/٤)، كتاب البرّ والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك عن أبي هريرة رضي الله عنه لفظه، وقال: "هذا حديث صحيح". وأبو داود في سننه (٢٥٥/٤)، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف عن أبي هريرة لفظه: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».

المبحث الخامس

أثر الترغيب والترهيب باليوم الآخر في إصلاح الفرد والمجتمع

لقد اهتم القرآن الكريم ببيان حال الإنسان بعد الموت، وما يصاحبه من ظروف وملابسات غائبة عن أعين الإنسان. وجعل الله الإيمان بالبعث بعد الموت من أهم أركان الإيمان، لأن الموت نفسه لا يحتاج إلى إيمان شرعي، فالإنسان مؤمنا كان أو كافرا مضطراً إلى الإيمان بحقيقته، فهم خاضعون للاعتراف بوقوعه، والإيقان بوجوده.

ولما كان حكم الله تعالى بالموت عامّاً، وحتم على كلّ نفس مواجهته، وأنّ كل إنسان يشرب من كأسه، ويذوق طعمه، أورده بصيغة شاملة لجميع الكائنات، فقال: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)^(١)، وذكر أن لا مفرّ للإنسان من ملاقاته، ولا حيلة له في التفادي عنه، فقال تعالى: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)^(٢). كما بيّن أنّ المرء يقاسي شدائد عنيقة، وأهوالاً فظيعة عند الاحتضار والسكرات، كما في قوله: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)^(٣). بالإضافة إلى ما يأتي على الإنسان من أهوال القبر، وشدائده، وفتنته، وعذابه، ونعيمه، وسعته، وضيقه، فهو أول منزل من منازل الآخرة، من نجا منه فما بعده أيسر وأسهل، ومن لم ينج منه فما بعده أشدّ وأفظع. وتسمّى هذه المرحلة بالبرزخ، وتستمرّ إلى حين البعث من القبور، والنشر إلى أرض المحشر والحساب.

وبيّن القرآن الكريم أيضاً ما يحدث عند البعث من الأهوال والأحداث، التي يتنقل العباد فيها من طور إلى طور؛ ففي هذا اليوم يتمّ قيام الناس لربّ العالمين من قبورهم، حفاة عراة غرلاً. ويحدث فيه تغيّر هائل لأحوال العالم، ثم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيقف الناس للحساب في يوم كان مقدراه خمسين ألف سنة، ويشتدّ الزحام، وتدنو الشمس من الرؤوس، ويفيض العرق من الناس بقدر أعمالهم، ويضع الله موازين القسط، وتعرض كتب الأعمال على

^١ سورة آل عمران: ١٨٥، وسورة الأنبياء: ٣٥، وسورة العنكبوت: ٥٧.

^٢ سورة الجمعة: ٨.

^٣ سورة ق: ١٩.

الناس. وفي نهاية اليوم، يصدر الناس عن موقف الحساب أشتاتا، فينصب الصراط على متن جهنم، ويمرّ العباد عليه، فيسقط الأشقياء في جهنم، ويتجاوز السعداء إلى الجنة^(١).

أولا: الأثر الإيماني للترغيب والترهيب باليوم الآخر

الإيمان في قلب العبد يزيد وينقص، يتقوى في بعض الأحيان، ويصيبه الخور والضعف في أحيان أخرى، فكلّ المؤثرات في قلب الإنسان وجوارحه من فكر ونظر، وشعور وإحساس، وعمل وجهد تؤثر في إيمانه سلبا، أو إيجابا. ومن أعظم الأسباب التي تقوّي إيمان المرء الاهتمام باليوم الآخر، وما يحدث فيه من أمور عظيمة، وأهوال جسيمة. وفي النقاط التالية أسرد طائفة من تلك الآثار الإيمانية، التي تحصل في قلب المؤمن، نتيجة تأثره باليوم الآخر.

١ - **الرجاء لرحمة الله تعالى:** إذا امتلأ قلب العبد إيمانا باليوم الآخر جدّ في السير إلى الله تعالى بطاعته، والمسارة إلى مرضاته، ومن ثمّ يترسخ في قلبه الرجاء في رحمة الله، التي لا يئأس منها إلا القوم الكافرون: **(إِنَّهُ لَا يَيْئَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)**^(٢). وهذا الرجاء يسمّى أيضا بحسن الظنّ بالله، ويستحبّ أن يترجّح في قلب المؤمن عند إحساسه بعلامات الموت، ومقدّماته، كما يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل موته بثلاثة أيام، يقول **«لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»**^(٣). وهنالك مواقف في الآخرة تحصل للعبد المؤمن المستقيم تبعث فيه روح الأمل والرجاء إذا سمع عنها وتأمّل فيها. ومن هذه المواقف اتّساع القبر، والنافذة المطلّة على القبر، والتي يستنشق منها المؤمن عرّف الجنة ونعيمها، وظلّ الرحمن في يوم الجزاء والحساب، إلى جانب بشارة المؤمن بأعماله الحسنة، وإعطاء كتابه من جهة اليمين، كلّ هذه المواقف توجب للمؤمن أن يعظم الرجاء والطمع في قلبه، فلا يلبث أن يُجدّد السير، ويحُثّ الخطأ في طاعة الله رجاء لرحمته القريبة من المحسنين. وقد كان هذا

^١ ولقد فصلت في الفصل الثاني من هذا الباب الترغيب والترهيب بالموت وما بعده، من أمور الآخرة، وأوردت فيه النصوص الواردة بهذا الصدد، ممّا أعني عن إعادته ههنا. انظر: ص: ٢٦١، من هذا البحث، وما بعدها.

^٢ سورة الأعراف: ٨٧

^٣ أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٠٦/٤)، كتاب صفة القيامة، والحجة والنار، باب الأمر بحسن الظنّ بالله تعالى عند الموت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما نفعه.

دأب الصالحين، وعباده المخلصين، كما في قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)^(١).

٢- الخوف من الله تعالى: المؤمن يعبد ربه بجناحي الخوف والرجاء، فاذا انتقص أحدهما، أو انعدم تعذر عليه السير المستقيم إلى الله. ومن هنا كان الأنبياء والصالحون يعبدون الله تعالى بقلوب، يملأها الخوف والرجاء، كما في قوله: (تَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)^(٢). وقوله تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)^(٣). وإذا أيقن المؤمن بتلك المواقف الرهيبة، والأحوال الفظيعة، التي تحصل للعبد بعد الممات، وتفكر فيها أحدثت له خوفا ورهبة من الله وعقابه. ومن تلك الأحوال: ضيق القبر وعذابه، وسؤال الملكين، والانغماس في العرق، والنقاش في الحساب، وشهادة الأعضاء، وإعطاء الكتاب من الشمال، مما ينذر بشقاء البعد، وابتعاده عن رحمة الله وفضله.

٣- تعجيل التوبة والإنابة: التوبة من أعظم مقامات الإيمان، وهي تمحو ما قبلها من الذنوب إن نصحت، فالعبد المؤمن يلزم التوبة والاستغفار، ويستبق بها الموت قبل أن يباغته، مستشعرا أنه لن يخلو من الذنوب ما دام في قيد الحياة، حتى لا يفضي إلى ربه على حال غير مرضية. فتذكره الدائم للموت، وفكره المتواصل فيما يأتي بعده من الشدائد والأهوال يجعله لا يسوّف التوبة، بل يسرع إليها قدر المستطاع، كما يرشد إليه قوله تعالى: (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)^(٤). وباب التوبة مفتوح على مصراعيه لكل من أناب إلى الله، وندم على ما فرط منه من المعاصي والمنكرات، ما لم تنزل عليه مقدّمات المنيّة، ووصلت الروح إلى الحلقوم، أو تطلع الشمس من مغربها، وفي كلتا هاتين الحالتين انكشاف للغيب الذي كان الإيمان به سبب النجاة، فإذا انكشف للعيان فلا قبول للتوبة أو الاستدارك للعمل الصالح، كما صرح به

^١ سورة الإسراء: ٥٧

^٢ سورة السجدة: ١٦

^٣ سورة الأنبياء: ٩٠

^٤ سورة الزمر: ٥٤

النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(١). وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ»^(٢).

٤- تقوية الإيمان: تتاب المؤمن فترات ضعف، تحمد فيه جذوة إيمانه، وينطمس نوره بسبب الدنيا المشحونة بالفتن، والمليئة بالمعوقات، فتضعف بصيرته في رؤية الحق واتباعه، كما تخور قوته الإيمانية الدافعة إلى العمل الصالح، مما يتطلب شحنة جديدة للإيمان، وتقوية لضعفه. ومن هنا صار تذكّر الموت والآخرة من أقوى الوسائل في اليقظة الإيمانية، وطرده الغفلة عن الإنسان، فكلما تذكّر العبد الموت، وتفكّر في شدائد يوم الحساب أوجب له ذلك شعورا بالانتباه من الغفلة، التي كان منغمسا فيها، فاستدرك ما فاتته من موجبات الإيمان، وأسرع إلى الإنابة عما بدر منه لحظة الضعف والاهيار، كما يشير إليه قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)^(٣). أي: "تذكروا عقاب الله وثوابه، ووعدته ووعدته، وأبصروا الحق فعملوا به"^(٤). وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)^(٥). أي: "ذكروا وعيد الله على ما أتوا من معصيتهم إياه"^(٦).

٥- قصر الأمل، وإيثار الآخرة على الدنيا: الإنسان يأمل أن يعيش في الدنيا طويلا، فيسوّف ما ينفعه في الآخرة، أملا أن يستدركه في المستقبل، رغم أنّه لا يعرف بالتأكيد إلى أيّ أمد يعيش في الدنيا. وهذا الداء العضال علاجه قصر الأمل، ومعرفة أنّ الدنيا زوالها قريب، ومتاعها قليل، فلا ينبغي لعبد أيقن بالموت وما بعده أن يغترّ بذلك، بل يأخذ منها ما يتلّغ به إلى الآخرة، كما في وصيّة الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر، حيث قال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وكان ابن عمر، يقول: «إِذَا أُمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا

^١ أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٧٦/٤)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحيات الاستعمار والاستكثار منه عن أبي هريرة رضي الله عنه لفظه.

^٢ أخرجه الترمذي في سننه (٥٤٧/٥)، كتاب الدعوات، باب في فصل التوبة والاستعمار وما ذكر من رحمة الله سبحانه لفظه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن عريب، وابن ماجة في سننه (١٤٢٠/٢)، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة لفظه مقارب وابن حبان في صحيحه (٣٩٥/٢)، كتاب الرقائق، باب التوبة، لفظه مقارب. وقال الشيعي الأريوطي محقق الكتاب: إسناده حسن. وكلهم عن ابن عمر رضي الله عنه

^٣ سورة الأعراف: ٢٠١

^٤ تفسير الطبري: ٣٣٤/١٣

^٥ سورة آل عمران: ١٣٥

^٦ تفسير الطبري: ٢١٩/٧

تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»^(١). ويقول الإمام الغزالي في علاج حب الدنيا: "ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب وحزيل الثواب، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا"^(٢).

ومما يوجب أن تتحلّى القلوب بقصر الأمل، والجوارح بالاستعداد ليوم الرحيل ما ورد في القرآن من الندامة والحسرة، التي تلزم المفرطين، وتمنّيهم العودة إلى الحياة بعد أن فارقوها، كما في قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)^(٣). ولا يعني قصر الأمل أن يترك الإنسان معالجة مصالحه في الدنيا، وإنّما المراد أن لا يسوّف أمر الآخرة، فيكون مرتقبا حصول الموت في أي لحظة، آخذاً أهبة الاستعداد له في جميع الظروف.

٦- الإخلاص في العمل: إن تذكر العبد للمصير الأخروي، ووقوفه بين يدي الرحمن، ومحسابته على ما قدّم في السرّ والعلن يقتضي أن يحرص على إتقان عمله، حتى يكون مقبولا عند الله، لذا يحترز عن كل ما يضادّ الإخلاص من الرياء والسمعة، وطلب الجاه والمكانة عند الناس، وانتظار الجزاء والشكر منهم، كما قال تعالى في وصف الأبرار: (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)^(٤). يقول الإمام الطبري: "أنهم يقولون لمن أطعموه من أهل الفاقة والحاجة: ما نطعمكم طعاما، نطلب منكم عوضا على إطعامناكم جزاء ولا شكورا، ولكننا نطعمكم رجاء منا أن يؤمننا ربنا من عقوبته في يوم شديد هوله، عظيم أمره، تعبس فيه الوجوه من شدّة مكارهه، ويطول بلاء أهله، ويشتدّ"^(٥).

والمجتمع الذي يسوده الإخلاص في الأعمال، ويتحرّز أبنائه من جميع مظاهر الرياء والسمعة، والجري وراء الثناء والمتزلة عند الناس يعيش حقّا مجتمعا سعيدا، يخلو من عوامل النفاق والشقاق، فيتسابق أفراداه إلى أعمال الخير، القاصرة والمتعدّية، وتجدهم ينجزون المشاريع الكبيرة

^١ أخرجه البخاري في صحيحه (٨٩/٨)، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «كس في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بلغه.

^٢ إحياء علوم الدين للغزالي: ٤٥٧/٤

^٣ سورة المؤمنون: ٩٩، ١٠٠

^٤ سورة الإنسان: ٩، ١٠

^٥ تفسير الطبري: ٩٩/٢٤

من غير ضجيج ملفت، ولا إعلام منبّه، فالكلّ يؤدّي عمله في خفاء ونقاء، وأمانة وإخلاص. وما أحوج الأمة اليوم إلى ترسيخ هذا المبدأ، الذي يضمن لهم فلاح الدنيا والآخرة.

٧- مراقبة الله تعالى في السر والعلن: العبد المؤمن باليوم الآخر يراقب الله في حركاته وسكناته، ويعلم أنّ علم الله تعالى شامل لكلّ ما صغر وكبر، أو ظهر وبطن، ويوقن بأنّه سيلقى الله تعالى يوم الجزاء والحساب، فيسأله عمّا قدّم في هذه الدنيا من صغير وكبير، وخفيّ وجلّيّ، فيحسب لذلك ألف حساب، ويتقن عمله الصالح، ويتحرّز من المعاصي والمخالفات. قال تعالى: (فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(١). وهذه المراقبة توجب للعبد أن يتقن عمله الظاهر والباطن لأطلاع الله على ذلك في الدنيا، وإخباره بتفاصيل عمله يوم الحساب للثواب والجزاء، كما في قوله تعالى: (يَوْمَ يَنْعُثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)^(٢). وعلم العبد بمحاسبة الله تعالى لأعماله يستوجب أن يحاسب نفسه في الدنيا، فيراقب نفسه وعمله، ويكون اهتمامه بما يخفف عنه الحساب يومئذ، فإن من نوقش في الحساب يومئذ هلك، كما في الحديث: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِبَ»^(٣).

ثانياً: الأثر التعبدي للترغيب والترهيب باليوم الآخر

العبادة تظهر في جوارح العبد، فهي أعمال جلّية يقوم بها العبد لله تعالى بمقتضى إيمانه بالله واليوم الآخر. وسنتناول فيما يأتي بعض الآثار الناتجة عن الإيمان باليوم الآخر في مجال العبادة، فيكون أثره ملموساً من حيث إنه يدفع المرء إلى القيام بالعمل، والاستمرار فيه، إلى جانب القيام به على وجه يتوقّع أن يكون مرضياً عند الله يوم اللقاء والجزاء، فيحرص على الإتقان في العمل، والاتيان بشروطه وأركانه وسننه ومستحباته، أملاً في ثواب الله تعالى ورضاه.

١- مجاهدة النفس في العمل بالطاعات، والكفّ عن المعاصي: المؤمن باليوم الآخر يبذل قصارى الجهد في حمل النفس على طاعة الرحمن، كما يكابد مقاومتها في الكفّ عن الشهوات، واقتراف المعاصي، فهو في حرب مستمرة لا هوادة فيها مع نفسه وهواه، مستيقناً أنّ الحرب لا تضع

^١ سورة الحجر: ٩٢، ٩٣.

^٢ سورة الحديد: ٦.

^٣ أخرجه البخاري في صحيحه: (١١١/٨)، كتاب الرقاق، باب: من نوقش الحساب عذب لفظه. ومسلم في صحيحه: (٢٢٠٤/٤)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إثبات الحساب لفظه: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِبَ»، كلاماً عن عائشة رضي الله عنها.

أوزارها إلا بعد خروج الروح من الجسد. ولما كانت الحرب تكرهها النفوس، وتمجّجها الطبيعة البشرية احتاج المرء إلى محفّز، يدفعه إلى خوض هذه الحرب المعنوية، والصبر على مرارتها، والاستمرار في لأوائها، رجاء النصر، والفتح المبين. ومن هنا كان الإيمان باليوم الآخر أكبر محفّز للعبد على القيام بالعبادة والاستمرار فيها، والإنقار لمحتوياتها، كما أنّه صار أكبر معين للمرء في ترك الشهوات والمعاصي والمنكرات؛ لأنّ استشعار العبد بثواب المجاهدة، وعاقبة التفريط فيها يهوّن عليه ما تذوقه النفس من ألم المجاهدة، وما تقاسيه من معانات القيام بالأعمال الشاقة، وما تلقاه من الشدائد في الكفّ عن الشهوات والمعاصي. وفي ذلك يقول الله عزّ وجلّ: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)^(١). أي: "خاف القيام عليه، ومجازاته بالعدل، فأثّر هذا الخوف في قلبه، فنهى نفسه عن هواها، الذي يقيدّها عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادّين عن الخير"^(٢).

٢- إتقان الأعمال: المؤمن يدرك حقيقة هامّة في قضية الإيمان، وذلك أنّه يستيقن مثوله أمام الله تعالى للحساب والجزاء، وأنّه سيسأله عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه^(٣). وهذا الإدراك يستدعي أن يكون المرء حريصاً على إتقان عمله، فيؤدّيه على الوجه الذي أمره الشارع، مع استكمال شروطه، وأركانه، وسننه، فلا يكون همّه فقط فعل الواجب، بل إيقاعه في أحسن الوجوه، خوفاً أن يكون عمله ناقصاً فيردّ عليه، أو معيباً فيعاتب عليه، كما ورد الحديث بذلك في أمر الصلاة: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَلْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ»^(٤).

^١ سورة البارات: ٤٠، ٤١.

^٢ تفسير السعدي، ص: ٩١٠.

^٣ هذا المعنى مقتبس من حديث أبي بررة الأسلمي رضي الله عنه، والذي حرّجه الترمذي في سننه (٦١٢/٤) كتاب صفة القيامة والرفائق والورع، باب في القيامة، وقال: حديث حسن صحيح.

^٤ أخرجه الترمذي في سننه (٢٧٠/٢)، كتاب الصلاة، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة عن أبي هريرة عنه لفظه. وقال الترمذي: حديث حسن عريب. والسنائي في سننه (٢٣٢/١)، كتاب الصلاة، باب الخامسة على الصلاة عن أبي هريرة أيضاً نحوه.

وإذا أتقن أفراد المجتمع عباداتهم أثر ذلك في حياتهم، فتنبعث إرادتهم إلى الخير، وتنمى عن الشر، فيقومون بحقوق الله وحقوق العباد على أكملها، وينتهون عن المنكرات. ذلك أن العبادة المتقنة تؤثر في حياة الفرد والمجتمع، فتحصل لأبنائه كيقية لا ينفكون عنها، وملكة يستعينون بها في القيام بسائر نشاطاتهم اليومية بجدية ونشاط، مما يزيد من إنتاج المجتمع، واكتفائه ذاتيا، بل ويفيض حتى يصل خيره إلى بقية الأمم والجماعات.

ثالثا: الأثر الأخلاقي للترغيب والترهيب باليوم الآخر

الأخلاق دورها في حياة الأفراد والمجتمعات كبير، فالأمة تترقى أو تتخلف بالأخلاق، وقد أعطى الإسلام أهمية بالغة للأخلاق، كما ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»^(١). فحصر بعثته على الحث للأخلاق الحميدة، مبالغة في إظهار دورها العظيم، وشأنها العجيب في الإسلام. وهذه الأخلاق تتحسن، وتصل إلى كمال ذروتها إذا ارتبطت بالإيمان بالله، واليوم الآخر، فيحسن المرء تعامله مع الناس، طمعا في ثواب الله، وخوفا من جزائه، من غير أن يلتفت إلى رقابة السلطة، والأجهزة الحكومية. وفيما يلي أذكر بعض الآثار الحسنة، التي تترتب على الإيمان باليوم الآخر في مجال الأخلاق والمعاملات.

١ - انضباط المجتمع ذاتيا (الوازع الديني): المجتمع الذي يؤمن باليوم الآخر، ينضبط بالأخلاق والمعاملات الحسنة ذاتيا، فلا يحتاج إلى رقابة خارجية بالشرطة، والكاميرات، وأجهزة التنصت، وغير ذلك مما جدّ وحدث في العصر الحديث، فهو يراقب الله تعالى في ممارساته، وعلاقاته مع الناس، فإذا كان صاحب قوة ونفوذ لا يستغل ذلك في نهب أموال الناس وحقوقهم، بل يراقب الله تعالى، ويخاف حسابه في الآخرة، فيؤدّي حقوق الجميع، رغبة في ثواب الله، ورهبة من عقابه. ومن هنا كان المجتمع الإسلامي الأوّل منضبطا ذاتيا، فلم يكن الخلفاء يعانون ما يعانيه الحكام والقضاة اليوم من المشكلات، التي صعب إيجاد الحلول لها، والمعضلات، التي استعصت على العلاج الناجع لها. ومن ثمّ قلّت أو انعدمت الجرائم البشعة، والتعدّي على الآخرين بالنهب والسلب، والسرقات، وقطع الطرق، وغير ذلك من الجرائم المنظّمة.

^١ أخرجه أحمد في مسنده: ٥١٣/١٤، عن أبي هريرة، وهو حديث صحيح كما قاله محققو المسند. وفي رواية البراء: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»

وإذا قارنا ذلك بما وصل إليه أمر المجتمعات المسلمة من النهب والسلب، والقتل والخطف، والتعدي على الآخرين في أموالهم وأنفسهم وأعراضهم تبين أن الفرق بيننا وبين المجتمع الأول هو الإيقان باليوم الآخر، الذي تغلغل في قلوبهم، وتمكّن من نفوسهم، فقوّمهم على الأخلاق الحسنة، وعفّهم عن الأخلاق السيئة، فلم يكونوا بحاجة إلى سلطة، تجبرهم على الاستقامة في المعاملات، بل كان يقيمهم على ذلك الوازع الداخلي، ومراقبتهم لقيامهم بين يدي الله تعالى يوم يقوم الحساب. ومن الآيات التي تلفت نظر الإنسان إلى الآخرة قوله تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)^(١). وقوله تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)^(٢). والمجتمع الذي يؤمن أفرادَه باليوم الآخر، تتأدّى الحقوق في أوساطهم، ويتنصف المظلوم من الظالم، ويغاث الملهوف، ويُقضى لذي الحاجة حاجته. وإذا حصل تقصير أو تعدّ من بعض الأفراد على حقوق الآخرين تجد المجتمع يهبّ لذلك هبة رجل واحد، حتى يسترجع من الظالم حقّ المظلوم، وتعود الأمور إلى نصابها، دون أن ينتظروا تدخّل سلطة، أو إسعافاً من شرطة؛ إذ إنهم يرون الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر جزءاً من إيمانهم، كما في الحديث: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(٣).

٢- الاحتساب في النفع العام: الإيمان على العموم، والإيمان باليوم الآخر على الخصوص يمثل المحرّك الرئيس، والدافع الأصلي للعبد في قيامه بالأعمال، التي يعود نفعها على المجتمع، محتسباً في ذلك الأجر من الله الكريم المتّان، غير طالب حصول منترلة عند الناس أو ثناءهم. قال الله تعالى: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)^(٤). ومن هنا حثّ الإسلام على إقامة المشاريع، التي يدوم نفعها، ويستمرّ ريعها إلى آمد طويّلة، من خلال الترغيب في الثواب المستمرّ لصاحبها، بعد انتهاء أجله وانقطاع عمله. وفي الحديث: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا

^١ سورة المؤمنون: ١١٥

^٢ سورة القيامة: ٣٦

^٣ أخرجه مسلم في صحيحه (٦٩/١)، كتاب الإيمان، باب بيان كون الهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والهي عن المنكر واحداً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه نلطفه.

^٤ سورة النساء: ١١٤

مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١). وقد تكاثرت هذه المشاريع على مدى القرون في العالم الإسلامي، واشتهرت بالأوقاف في مختلف البلدان الإسلامية، ولم تزل آثارها باقية إلى الآن. وربما شارك في الأعمال الخيرية من لم يكن عنده إيمان، وكان نظره قاصراً عندئذٍ على حظوظ مادية أو معنوية، وهذا لا حظّ له في ثواب الآخرة، بخلاف المؤمن، فإنه يرنو إلى مرضاة الله. وليس مسموحاً للمؤمن أن يلحق الأذى بمن ينفعه، كالامتنان عليه، أو إحراجهم أمام الآخرين بذكر نفعه. ومن ثمّ نهي الله عباده المؤمنين عن إبطال صدقاتهم بالمُنّ والأذى، حتى لا يكون مصير صدقاتهم كصدقات الكافر الذي ينفقها ابتغاء رؤية الناس وثنائهم عليه، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمُنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)^(٢).

٣- الصبر: وهو تحمّل الشدائد، وحبس النفس عن الجزع، وعدم التشكي عند نزول المصائب. والمؤمن بالله واليوم الآخر هو الحائز قصب السبق في هذا الخلق الكريم؛ إذ إنه شديد على النفوس، ثقل على طبيعة الإنسان، التي جبلت على حبّ المنافع واجتلابها بأقلّ الأثمان، وكره المضارّ ودفعها بأيسر الوسائل. وقد مدح الله الصابرين في كتابه، فوعدهم بأجر غير محسوب بعدّ ولا مقدار، منوهاً في ذلك بكثرته، وعظمته، فقال عزّ من قائل: (إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)^(٣). ولما كانت الدنيا مليئة بالمشاكل، ومشحونة بالمصائب، الواقعة فيما يقتنيه الإنسان من المال، والأهل، والولد، والأحباب جعل الله للمؤمن جنة الصبر، يتقي بها من آثار تلك المصائب، مستيقناً أنّ هذه المصيبة من الله، وأنّه لو حاول بشتّى الوسائل لم يستطع أن يدفعها عن نفسه، ومن ثمّ يستعين بخلق الصبر، الذي يردّ قلبه، ويثلج صدره، فيلاحظ ثواب الصابرين، وبشارتهم يوم يقوم الحساب، كما في قوله تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)^(٤).

^١ أخرجه مسلم في صحيحه: (١٢٥٥/٣)، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته عن أبي هريرة رضي الله عنه ليعطه.

^٢ سورة البقرة: ٢٦٤

^٣ سورة الزمر: ١٠

^٤ سورة البقرة: ١٥٧-١٥٥

٤- **التضحية**: وهي: بذل الإنسان ماله أو نفسه أو جهده دون مقابل. وهي بالرغم من كونها ثقيلة على المرء، إلا أنه يتحلّى بها عن اختيار، فلا تكون التضحية نتيجة لظروف قدرية يخضع لها الإنسان طوعاً أو كرهاً. والاعمال العظيمة في الإسلام، والتي تكون سبباً لبناء الأمة، وإقامة كيافها، وبقائها وتماسكها، وحمايتها من الأعداء، المتربّصين للقضاء عليها دوماً، كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، هذه الأعمال تتطلب من المؤمنين تضحية بالنفس، والمال، والوقت، والجهد، محتسبين في ذلك الأجر من الله عزّ وجلّ.

لذا بشرّ الله سبحانه المضحيين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله برحمة منه ورضوان، وجنات فيها نعيم مقيم، فقال: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ)^(١). ولما كان الجهاد مكروهاً للنفوس، ثقيلًا على طبيعة الإنسان أصبح الإيمان هو الوسيلة الأقوى لتخفيف هذه الشدّة عن المؤمن. ومن هنا قرّر الله في كتابه العزيز أنّ المؤمن بالله واليوم الآخر لا يتهرّب من الجهاد، ولا يختلق الأعذار للقعود عنه، والخروج من مشاكله، فقال تعالى: (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)^(٢). وفي المقابل نجد المنافق يهاب الجهاد في سبيل الله، ويتحاشى القيام به، فيستأذن المسؤول، ويأتي بالتبريرات الكاذبة في قعوده مع القاعدين؛ لأنّ الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتغلغل في نفسه، ولا خالطت بشاشته في قلبه، فهو في ريب وشك في ما وعد الله المؤمنين على الجهاد في سبيله، كما في قوله تعالى: (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)^(٣). وبهذا نعلم أنّ الإيمان بالآخرة يعمل عمله في نفس المؤمن، فيضحي بأغلى ما يملكه من النفس والمال، ويرى العمل الذي فيه ذهاب روحه وماله فوزاً ونعمة، لينال بذلك رضا الله وثوابه في دار الخلد والنعيم.

^١ سورة التوبة: ٢٠، ٢١

^٢ سورة التوبة: ٤٤

^٣ سورة التوبة: ٤٥

رابعاً: الأثر النفسي للترغيب والترهيب باليوم الآخر

الترغيب والترهيب باليوم الآخر أثره عظيم في النفس البشرية من خلال رؤية مشاهد الآخرة، ومناظرها بعين القلب والبصيرة، فإذا أيقنت القلوب بما في ذلك من النعم والنعم، والشدائد والمسرات تأثرت بشكل قوي، يظهر في الجوارح والأعضاء. وفيما يلي ذكر لبعض آثار الترغيب والترهيب باليوم الآخر، مما هو وثيق الصلة بالنفس البشرية:

١- **الخلو من الهموم:** الدنيا مليئة بالمشاكل، والمصائب، والمعضلات، والإنسان في جهاد مستمر، ليتجاوز تلك العقبات. وفي خضم هذا الصراع تنعكس على نفس الإنسان آثار مؤلمة، تكاد تؤدي بحياة النفوس الضعيفة. ومن تلك الآثار: الهم والقلق والاضطراب، فكلما فقد الإنسان محبوباً، أو فوت منفعة، أو خاب أمله في شيء مطلوب، أو تفاجأ بتغير خطته في الحياة أصابه الهم والقلق، ومن ثم اضطربت نفسه، فصار الكون أمامه سداً مسدوداً، وفقد الراحة والطمأنينة، حتى إن بعضاً ممن أصيب بذلك يساوره الإقدام على الانتحار، وكثير منهم يياشر ذلك، فيقتل نفسه تخلصاً من تلك الهموم، وظناً أنه إذا فارق الحياة بهذا الطريقة وجد الراحة النفسية. وغير هؤلاء يلجؤون إلى المخدرات، التي تذهب بعقولهم، فيشعرون بنشوة مؤقتة، تنسيهم كثيراً من الهموم والغموم، لكنها سرعان ما تزول، ويعود إليهم الاكتئاب والحزن، إذا انتهى مفعول تلك المخدرات.

وتلك أمراض نفسية بالغة التعقيد، قد استعصت على أطباء النفس، والمعالجين بشتى الطرق والوسائل. أما القرآن الكريم فوصف للمؤمنين الدواء الناجع، الذي يستأصل شأفتها، والعلاج الحاسم الذي يقتلع جذورها، فحثهم على الإيمان بالآخرة، حتى يزول من قلب المرء الحزن والاكتئاب، ويضمحل الهم والاضطراب، ويحل محلها الفرح والسرور، والراحة والطمأنينة. قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالتَّصَارَىٰ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^١. فالإيمان باليوم الآخر مصدر للطمأنينة القلبية عند المؤمن، فإذا ترسخ هذا الإيمان في القلب، وتمكنت لطائفه من النفس انعكس أثره على حياته، فيشعر بالسعادة والراحة. وهناك ملحظ آخر للمؤمن في مواجهة المشاكل، وذلك أنه يرى أن لا جدوى في الحزن على فائت، أو الهم في مستقبل، فإن ما كتب الله له من المصائب لم تكن ليخطئه، ولو خطط لدفعها ألف مرة، وأن ما أخطأه من المنافع لم تكن لتصيبه، ولو استعان بكل

^١ سورة المائدة: ٦٩

قوى الأرض على تحصيلها، ومن ثم فلا داعي للهَمّ والقلق في الحياة. وزيادة على ذلك فإنّ المؤمن ينظر إلى ثواب المصيبة في الآخرة، وأنّ منفعتها أعظم بكثير ممّا لو استُبقيت له في الدنيا؛ وهذا يخفف الحزن على المصيبة، فيتبدّل إلى فرح بثوابها في الآخرة.

٢- القناعة في القلب: العبد المؤمن بالآخرة لا يعطي للحياة الدنيا بالا، ولا يعتبرها مستقرّه ومثواه، بل يجعلها مركب عبور، يعبر به إلى الآخرة، ومحطّة وقود، يتزوّد منها حاجته في سيره إلى الله. فهو على جناح سفر، ينبغي أن يتخفّف من الأثقال، التي تعيقه من سرعة الوصول إلى المنزل الحقيقي. ومن حاله كذلك لا يتطلّع إلى المزيد من الدنيا، ولا يتطلّب الكثير من متاعها، إنّما يكفيه القليل من الزاد، ليكون بلغته إلى الراحة الأبدية، والفوز السرمدى في الآخرة. كما وصف النبي صلى الله عليه وسلّم حاله، حينما خاطب عُمر رضي الله عنه، فقال: «يَا عُمَرُ مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، وَمَا لِلدُّنْيَا وَلِي، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلْتُ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكْتُهَا»^(١).

ومن هنا يعلم أنّ المجتمع الذي يؤمن أفرادُه بالحياة الأخرى، وقد استيقنوا أنّ بقاءهم في هذه الدنيا ليس عبثاً، إنّما ليتزوّدوا منها إلى الحياة الباقية لا شكّ أنّه يسير في الحياة، محدود الهدف، مرسوم الخطى، فلا يشغل بما لا يجديه نفعا في الآخرة، ولا يتكلّف فيما لا يعينه على سيره إلى الله، ولا يتكالب أفرادُه على جمع الدنيا وحطامها، بل يقنعون باليسير من العيش، ويكثرون الصالح من الأعمال، التي توصلهم إلى مستقرّ رحمة الله وجنته، ويبدلون قصارى جهدهم فيما يرضي الله، وينجيهم من عذاب الآخرة.

٣- تسليّة المظلومين والمستضعفين: يكثر الظلم في الحياة الدنيا، ويستشري في معظم الأمم والجماعات، إذ النّاس منحرفون عن الفطرة السويّة، والسّحية القويمة، فأصبح معظم الأفراد يوقعون أنواع الظلم بمن دونهم في المنزلة، أو المال، فنرى عددا هائلا من البشريّة يرزح تحت أغلال الظلم، ويئنّ تحت وطأة الاستبداد، فلا صرخ يغيثهم، ولا صاحب نخوة يثور في الدفاع عنهم. وبالرغم من ذلك، فإنّ حوادث الظلم تقع بمرأى ومسمع من العليم الخبير، وهو قادر على

^١ أخرجه ابن حنّان في صحيحه: (٢٦٥ / ١٤)، كتاب التاريخ، باب من صغته صلى الله عليه وسلم، وأحاره عن ابن عباس رضي الله عنهما لفظه. وأخرجه الحاكم أيضا في مستدركه: (٣٤٤ / ٤)، كتاب الرقاق، عن ابن عباس أيضا لفظ مقارب. وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه"، ووافق عليه الذهبي في تلخيصه.

الانتصاف للمظلومين، والانتقام من الظالمين، غير أن حكمته قد جرت بتأخير القضاء العدل إلى يوم الجزاء والحساب، وهو العليم الحكيم. ومن هنا نقول: إذا كان المظلوم يؤمن بالله واليوم الآخر، ويعلم علم اليقين أن حقه لا يضيع، وقضيته لا تنسى، ولا محالة سيلقى النصفة والعدل في محكمة أحكم الحاكمين يكون له ذلك تسليّة، ويخفّ عليه ألم الظلم، ويتحمّل مرارة الجور، وينتلج صدره بعلمه أن أخذ الله تعالى شديد للظالمين، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»^(١).

وقد نفى الله تبارك وتعالى عن نفسه الظلم في غير آية من كتابه، فقال: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)^(٢). وحرّم على نفسه الجور، كما في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا»^(٣). ومفارقة الظالم والمظلوم لهذه الحياة من غير اقتصاص، أو استرجاع حقوق يورد إشكالا كبيرا على تحقيق العدالة الإلهية، إن لم نقدّر البعث بعد الموت، ومن ثمّ انعقاد المحكمة الإلهية للفصل والقضاء بين الخلائق يوم يقوم الحساب. ومن هنا يعلم أن المؤمن باليوم الآخر، الذي وقع عليه الظلم يتسلّى بعلمه أن الله تعالى لا محالة ينتصف له ممن ظلمه، ويردّ حقوقه المسلوقة على أتم وجه، ومن ثمّ فلا يصاب بالعقد النفسية، التي تنتاب غير المؤمنين، ممن امتلأت صدورهم بالكمد والحزن والأسى على ما فاقهم من النصفة، والعدل، ولم يكن في وسعهم استرجاع حقوقهم.

وبهذا أكون قد أنجزت ما أردت تسجيله في هذا الباب، راجيا من الله الكريم أن يمنّ علينا بحسن الخاتمة عند الخروج من هذه الدنيا، وأن يجنّبنا الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب، وهو حسي، ونعم الوكيل.

^١ أخرجه البخاري في صحيحه: (٧٤/٦)، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وكذلك أحد ربك إذا أحد القرى وهي ظالمة إن أحده أليم شديد)، عن أبي موسى رضي الله عنه لفظه.

^٢ سورة فصلت: ٤٦

^٣ أخرجه مسلم في صحيحه: (١٩٩٤/٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم عن أبي در رضي الله عنه لفظه.

الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات

أهم النتائج:

- ١- أن الترغيب والترهيب من أهم مقاصد نزول القرآن، وأهم وسيلة استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله، ويعتبر أساساً لدعوة الرسل قاطبة، ويتوافق مع فطرة الإنسان المجبولة على حب المنافع وكره المضار، بالإضافة إلى أن الخوف من وعيد الله، والرجاء لرحمته من أعظم وسائل انتفاع القلوب بالموعظة الحسنة والهداية الربانية.
- ٢- أن الترغيب والترهيب وإن لم يكن بهذا المصطلح وارداً في القرآن الكريم، إلا أنه جاء بألفاظ أخرى تتضمن محتواه ومغزاه، كالوعد والوعيد، والتبشير والإنذار، والموعظة، والنصيحة، مما يدل على نفس المعنى الذي يدل عليه الترغيب والترهيب، أو بعضه.
- ٣- وقد ورد هذا المبدأ في القرآن على أساليب لغوية متعددة، كالاستفهام، والأمر، والنهي، والترجي، والتوكيد، والمدح والذم، والتقابل والطباق، والتعريض والتصريح، والتكرار.
- ٤- وقد ركز القرآن الكريم بشكل أساسي على هذا الأسلوب بادئ ذي بدء، ونفذ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ذلك في حياته الدعوية المليئة بالترغيب والترهيب، والتخويف، والترجية، الأمر الذي يوضح أهمية هذا الأسلوب في الدعوة والتربية.
- ٥- أن القرآن سلك طريقاً فريداً بالنظر إلى سائر النظم والقوانين، فهو يؤكد على وسيلة الترغيب والترهيب في تربية الأمة على النهج القويم، وتطبيق القوانين والنظم في جميع نواحي حياتهم الفردية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعلاقات الدولية. فهو يلفت أنظارهم إلى الثواب والعقاب مع سنّ القوانين، وإلزام الفرائض، والنهي عن المحرمات.
- ٦- كان من أهم السمات البارزة والمميزات الظاهرة في دعوة الرسل أسلوب الترغيب والترهيب، فلم يكن لديهم وسيلة ضغط على أقوامهم في تبصيرهم بما جاؤوا به من عند الله، غير الوعظ والتذكير والإنذار والتبشير، الأمر الذي جعل هذا الأمر وسيلة مؤثرة وأسلوباً ناجحاً في دعوات الرسل من قبلنا.
- ٧- الترغيب والترهيب مؤثر في النفوس البشرية من خلال إثارة العواطف والانفعالات المغذية لطاقت الإنسان، والمؤثرة إيجاباً أو سلباً في سلوك الإنسان، فالحبة، والرجاء، والفرح، والرحمة

مثلا من الآثار النفسية الإيجابية، المترتبة على الترغيب، كما أن الخوف، والخشوع، والحزن من الآثار السلبية، الناتجة من الترهيب.

٨- وقد تبين في البحث أن لأسماء الله الحسنى وصفاته العلا علاقة وثيقة بالترغيب والترهيب، فأسماءه وصفاته المتضمنة لسعة المغفرة وشمول الرحمة وعموم الإحسان تفيد الترغيب والطمع في رحمة الله ومغفرته، كما أن الأسماء والصفات الدالة على كمال القدرة، ونفاذ المشيئة، والعظمة والكبرياء، والثواب والعقاب، وشدة الانتقام، والعدل والإنصاف تثير عاطفة الخوف والمهابة في نفوس المؤمنين. أما الأسماء المتضمنة للعلم والإحاطة فتفيد الترغيب أو الترهب بحسب حال العبد في الطاعة أو الفسق.

٩- أن القرآن استخدم التذكير بأحوال الموت والقبر، وما يحدث للإنسان فيهما من صعوبات وتسهيلات كوسيلة للترغيب في الطاعة والإيمان، أو الترهب من المعصية والكفران.

١٠- إن أحداث خراب العالم، وما يعقبه من البعث والنشور، وحشر الكائنات في عرصات القيامة، والحساب والكتاب، والعرض والسؤال، وانقسام الناس إلى أصحاب اليمين والشمال لهو أعظم وسيلة وردت في القرآن الكريم للترهيب أو الترغيب.

١١- أكثر القرآن المجيد من ذكر النار، وما تشتمل عليه من الجحيم والسعير، والحميم والسموم، والسلاسل والرقوم، والزمهرير، والقطران، وسائر أنواع العذاب، وفنون العقاب، مما يرهب من مقاساة هذا العذاب، ويزجر من ارتكاب المعاصي والمنكرات.

١٢- تناول القرآن العظيم بالتفصيل ذكر الجنة، ونعيمها، وسرورها، وحريرها، وحليها، وأنهارها، وشرابها، ورحيقها، ونسائها، وحوورها، وغير ذلك من التمتعيات النفسية، والترفيهات البدنية، إلى جانب رضوان الله تعالى، والنظر إلى وجهه تعالى الكريم، مما يثير الطمع في نفوس العباد، ويعظم رغبتهم في الحصول عليها بالمبادرة إلى استكمال خصال الإيمان.

١٣- إن في ذكر الأمم السابقة في القرآن الكريم لعبرة لهذه الأمة، فقد أخبر عن كثير من الأمم المكذبة لرسولهم، الممتنعة عن طاعتهم، مما أدى إلى إهلاكهم وقطع دابرهم، كما أنه تحدث عن قلة قليلة ممن آمن بالرسول واتبع طريقهم، وقد أنجاهم الله تعالى من ذلك الهلاك، ومتبعهم إلى حين. ففي الحالة الأولى ترهيب لمن سلك طريقهم من هذه الأمة، وفي الثانية ترغيب لمن اقتدى بهم من هذه الأمة المباركة.

١٤- وقد رغب القرن الكريم في كثير من الطاعات، كالإيمان، والصلاة، ونصرة الدين، والإنفاق في الخير، وصلة الرحم، وغيرها بذكر ثوابها العاجل والآجل، كما رهب عن كثير من المخالفات كالكفر والشرك، وترك الصلاة، ومنع الزكاة، وخذلان الدين، والبخل، وقطيعة الرحم وغيرها بتسجيل عقوبتها في الدنيا والآخرة.

١٥- ولقد كان للترغيب والترهيب في القرآن أثر بالغ في إصلاح الفرد، بحيث يشمل على أمور تتعلق بحياة العبد الإيمانية، والتعبدية، والأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، الأمر الذي يكفل بإعداد مواطن صالح ينفع دينه ونفسه ووطنه وأمته.

التوصيات:

- ١- تركيز الدعاة على استخدام مبدأ الترغيب والترهيب في التأثير على المدعوين من خلال عرض الآيات الواردة في الموضوع الذي يريدون الدعوة إليه.
- ٢- استخدام الترغيب في الحث على كل عمل نافع للأمة، والترهيب من الزجر عن كل عمل ضارّ بالأمة من خلال التذكير بالثواب والعقاب المترتب على ذلك العمل.
- ٣- الموضوعات التي اشتمل عليها ترغيب القرآن أو ترهيبه كثيرة، فالأحرى بطلبة الدراسات العليا بالجامعات الإسلامية أن يختار كل موضوعا، يجمع فيه الآيات الواردة فيه ترغبا وترهيبا، مع استخلاص الفوائد التربوية، والمناهج الإصلاحية منها.
- ٤- لقد كثر البحث في المناهج الفلسفية، والموضوعات الجدلية في الدراسات العليا في العالم الإسلامي، مما ساهم في انتشار جفاف المشاعر، وجمود العواطف، وقسوة القلوب. ومن هنا ينبغي الإكثار من دراسة المواضيع التذكيرية والوعظية، التي امتلأت منها نصوص الكتاب والسنة، أملا في التأثير على القلوب، وإشعال جذوة الإيمان فيها، مما يساعد على النشاط والعمل في جميع الميادين النافعة للأفراد والمجتمعات، في الدنيا والآخرة.
- ٥- مشاركة كل فرد من المسلمين في تنشيط العمل الدعوي من خلال استخدام نصوص الترغيب والترهيب، وهذه المشاركة يعود نفعها على الفرد نفسه، الأمر الذي يساهم في تقوية إيمانه، ويقظة ضميره تجاه الواجبات، والالتزامات الفردية والاجتماعية. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

- ١- الإتقان في علوم القرآن. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- ٢- اجتماع الجيوش الإسلامية: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: الأولى، مطابع الفرزدق التجارية - الرياض، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م. تحقيق: عواد عبد الله المعتق.
- ٣- الإحكام في أصول الأحكام: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، ط: دار الآفاق الجديدة، بيروت. التحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر.
- ٤- إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ط: دار المعرفة - بيروت.
- ٥- الأخلاق الإسلامية، وأسسها: عبد الرحمن حسن جنبكة الميداني، ط: الخامسة، دار القلم، دمشق، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
- ٦- أسرار التكرار في القرآن، أو البرهان في توجيه متشابه القرآن: محمود بن حمزة برهان الدين الكرمان، ط: دار الفضيلة، التحقيق: عبد القادر أحمد عطا.
- ٧- أسرار ترتيب القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ط: دار الفضيلة للنشر والتوزيع.
- ٨- أسماء الله وصفاته وموقف أهل السنة منها: محمد بن صالح بن محمد العثيمين، ط: الأولى، دار الشريعة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ م.
- ٩- الأسماء والصفات للبيهقي: أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر البيهقي، ط: الأولى، مكتبة السوادي، جدة - السعودية ١٤١٣هـ - ١٩٩٣ م. حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي.
- ١٠- الإصابة في تمييز الصحابة: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥ هـ. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض.
- ١١- أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع: عبد الرحمن النحلاوي، ط: الخامسة والعشرون، دار الفكر - بيروت، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م.

- ١٢- أصول التربية الإسلامية: الدكتور خالد بن حامد الحازمي، ط: الأولى، دار عالم الكتب - الرياض، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ١٣- أصول التربية في ضوء المدارس الفكرية إسلامياً وفلسفياً: الدكتور/ حسن أحمد الحيارى، ط: دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد - الأردن ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ١٤- أصول الدعوة: عبد الكريم زيدان، ط: التاسعة، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- ١٥- أصول السنة: محمد بن عبد الله المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي، ط: الأولى، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية - السعودية، ١٤١٥ هـ. التحقيق: عبد الله بن محمد عبد الرحيم بن حسين البخاري.
- ١٦- الأصول في النحو: أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج، ط: مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت. التحقيق: عبد الحسين الفتلي.
- ١٧- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، ط: دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ١٨- الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم: مناهج جامعة المدينة العالمية، ط: جامعة المدينة العالمية.
- ١٩- الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، ط: الخامسة عشر، دار العلم للملايين، - ٢٠٠٢ م.
- ٢٠- إعلام الموقعين عن رب العالمين: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م. التحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم.
- ٢١- الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر): عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسيني الطالبي، ط: الأولى، دار ابن حزم - بيروت، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٢٢- الأمالي: أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم، ط: الثانية، دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م. عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي.
- ٢٣- الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار: يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني الشافعي، ط: الأولى، أضواء السلف، الرياض - المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م. تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف.

٢٤- الانتصار للقرآن: محمد بن الطيب بن محمد، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي، ط: الأولى، دار الفتح - عمّان، دار ابن حزم - بيروت. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م. التحقيق: د. محمد عصام القضاة.

٢٥- أنوار التزليل وأسرار التأويل: ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي البضاوي. ط: الأولى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤١٨هـ. التحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي.

٢٦- أيسر التفاسير لكلام علي الكبير: جابر بن موسى أبو بكر الجزائري، ط: الخامسة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة - السعودية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٧- الإيضاح في علوم البلاغة: محمد بن عبد الرحمن، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق، ط: الثالثة، دار الجليل - بيروت. تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي.

٢٨- الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة: عبد الله بن عبد الحميد الأثري، ط: الأولى، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٩- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، ط: دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠هـ، بتحقيق صدقي محمد جميل.

٣٠- البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ط: الأولى، دار هجر للطباعة والنشر، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م. التحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي.

٣١- بدائع الفوائد: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٢- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني، ط: دار المعرفة - بيروت.

٣٣- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ط: الأولى، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٣٤- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة. تحقيق: محمد علي النجار.

٣٥- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس: أحمد بن يحيى، أبو جعفر الضبي، ط: دار الكاتب العربي - القاهرة، ١٩٦٧م.

- ٣٦- البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَّكَة الميداني الدمشقي، ط: الأولى، دار القلم- دمشق، والدار الشامية - بيروت، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ٣٧- البلاغة، المعاني: مناهج جامعة المدينة العالمية، ط: جامعة المدينة العالمية - السعودية.
- ٣٨- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط: الأولى، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ٣٩- بناء المجتمع الإسلامي: د نبيل السمالوطي، ط: الثالثة، دار الشروق للنشر والتوزيع - القاهرة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- ٤٠- البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، ط: الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م. حققه: د محمد حجي وآخرون.
- ٤١- تاج التراجم: أبو الفداء قاسم بن قُطْلُوبغا السوداني الحنفي، ط: الأولى، دار القلم - دمشق، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م. التحقيق: محمد خير رمضان يوسف.
- ٤٢- تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى الزبيدي، الناشر دار الهداية. بدون تاريخ.
- ٤٣- تاريخ الإسلام وَوَفَيَاتِ المشاهير والأعلام: محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمَار الذهبي، ط: الأولى، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣ م. التحقيق: الدكتور بشار عوَّاد معروف.
- ٤٤- تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤١٧ هـ. دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- ٤٥- تاريخ دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، ط: دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م. التحقيق: عمرو بن غرامة العمروي.
- ٤٦- تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. تحقيق: إبراهيم شمس الدين.
- ٤٧- التبيان في أقسام القرآن: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، ط: دار المعرفة- بيروت، لبنان، تحقيق: محمد حامد الفقي.

- ٤٨- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري، ط: لجنة إحياء التراث الإسلامي - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - جمهورية مصر العربية. تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف.
- ٤٩- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي، ط: الدار التونسية للنشر-تونس، ١٩٨٤م.
- ٥٠- التحسين والتقيح العقليان وأثرهما في مسائل أصول الفقه: عايض بن عبد الله، ط: الأولى، دار كنوز إشبيليا، الرياض - المملكة العربية السعودية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ٥١- تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، ط: دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٥٢- التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، ط: الثانية، دار النشر: مكتبة المؤيد - الطائف، دار البيان - دمشق، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م. تحقيق: بشير محمد عيون.
- ٥٣- التدرج في دعوة النبي: إبراهيم بن عبد الله المطلق، ط: الأولى، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٧هـ.
- ٥٤- تذكرة الحفاظ: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٥٥- التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي القرطبي، ط: الأولى، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٥هـ. تحقيق ودراسة: الدكتور: الصادق بن محمد بن إبراهيم.
- ٥٦- التربية الاجتماعية في الإسلام: عبد الرحمن النحلاوي، ط: الأولى، دار الفكر - دمشق، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- ٥٧- التسهيل لعلوم التنزيل: أبو القاسم، محمد بن أحمد المعروف بابن جزى الغرناطي، ط: الأولى، دار الأرقم - بيروت، ١٤١٦هـ، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي.
- ٥٨- التعريفات: علي بن محمد الشريف الجرجاني ط: الأولى، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- ٥٩- تعظيم قدر الصلاة: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، الطبعة: الأولى، مكتبة الدار - المدينة المنورة، ١٤٠٦هـ. التحقيق: د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي.
- ٦٠- تفسير ابن فورك: محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني، ط: الأولى، جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م. دراسة وتحقيق: عدد من طلاب الدراسات العليا في الجامعة.
- ٦١- تفسير أبي السعود، (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) : أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٦٢- تفسير أسماء الله الحسنى: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، ط: دار الثقافة العربية، التحقيق: أحمد يوسف الدقاق.
- ٦٣- تفسير أسماء الله الحسنى: عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، ط: العدد ١١٢، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٢١هـ. التحقيق: عبيد بن علي العبيد.
- ٦٤- تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل: الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، ط: الأولى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٢٠هـ. تحقيق: عبد الرزاق المهدي.
- ٦٥- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ط: الثانية، دار طيبة، ١٩٩٩ م. تحقيق: سامي بن محمد سلامة.
- ٦٦- التفسير المظهري: محمد ثناء الله المظهري، ط: مكتبة الرشدية - الباكستان، ١٤١٢ هـ، تحقيق: غلام نبي التونسي.
- ٦٧- تفسير المنار "تفسير القرآن الحكيم": محمد رشيد بن علي رضا الحسيني، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ٦٨- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط: الثانية، دار الفكر المعاصر-دمشق، ١٤١٨ هـ.
- ٦٩- التفسير الميسر: نخبة من أساتذة التفسير، ط: الثانية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م.
- ٧٠- التفسير الواضح: الحجازي، محمد محمود، ط: العاشرة، دار الجيل الجديد-بيروت، ١٤١٣هـ.

- ٧١- التفسير الوسيط للزحيلي: د وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط: الأولى، دار الفكر - دمشق، ١٤٢٢هـ.
- ٧٢- التفسير والمفسرون: الدكتور محمد السيد حسين الذهبي، ط: مكتبة وهبة، القاهرة.
- ٧٣- تقريب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط: الأولى، دار الرشيد-سوريا، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٧٤- التمثيل والمحاضرة: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، ط: الدار العربية للكتاب، الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو.
- ٧٥- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، ط: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٣٨٧هـ. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري.
- ٧٦- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، ط: الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، التحقيق: ابن الخطيب.
- ٧٧- تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور، ط: الأولى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ٢٠٠١م. تحقيق: محمد عوض مرعب.
- ٧٨- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط: الأولى، مكتبة أضواء السلف، الرياض- السعودية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٧٩- التوقيف على مهمات التعاريف: زين الدين عبد الرؤوف المناوي القاهري، ط: الأولى، عالم الكتب - القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٨٠- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط: الأولى، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٨١- الثمر المحتنى مختصر شرح أسماء الله الحسنى: د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ط: مطبعة سفير، الرياض.
- ٨٢- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري، ط: الأولى، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

- ٨٣- الجامع الصحيح سنن الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، ط: الثانية، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
- ٨٤- جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، المسمى بدستور العلماء: القاضي عبد النبي الأحمد نكري، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - لبنان، بيروت، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني.
- ٨٥- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، الحنبلي، ط: السابعة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م. تحقيق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس.
- ٨٦- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري): محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ط: الأولى، دار طوق النجاة، ١٤٢٢ هـ.
- ٨٧- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، ط: الثانية، دار الكتب المصرية - القاهرة: ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.
- ٨٨- الجدول في إعراب القرآن الكريم: محمود بن عبد الرحيم صافي، ط: الرابعة، دار الرشيد- دمشق، ومؤسسة الإيمان - بيروت، ١٤١٨ هـ.
- ٨٩- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ط: الثانية، دار العروبة - الكويت، ١٤٠٧ - ١٩٨٧. تحقيق: شعيب الأرنؤوط
- ٩٠- جمهرة أشعار العرب: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، نضضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي.
- ٩١- جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ط: الأولى، دار العلم للملايين- بيروت، ١٩٨٧ م. التحقيق: رمزي منير بعلبكي.
- ٩٢- الجنة والنار من الكتاب والسنة المطهرة: عبد الرحمن بن سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ط: الثالثة، مطبعة سفير - الرياض. تحقيق: د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني.

- ٩٣- الجنة والنار: عمر بن سليمان الأشقر، ط: السابعة، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- ٩٤- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: الأولى، دار المعرفة - المغرب، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٩٥- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ط: المكتبة العصرية - بيروت، التحقيق: د. يوسف الصميلي.
- ٩٦- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: محمد بن أبي بكر، بابن قيم الجوزية، ط: مطبعة المدني- القاهرة.
- ٩٧- حاشية السندي على سنن النسائي: محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي، ط: الثانية، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ٩٨- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي، ط: الأولى، دار إحياء الكتب العربية - مصر، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- ٩٩- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ط: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
- ١٠٠- خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي، أبو بكر بن علي الحموي الأزراري، ط: الأخيرة، مكتبة الهلال، ودار البحار - بيروت، ٢٠٠٤ م. تحقيق: عصام شقيو.
- ١٠١- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، ط: الأولى، مكتبة وهبة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
- ١٠٢- درء تعارض العقل والنقل: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية الحنبلي الدمشقي، ط: الثانية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م. تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم.
- ١٠٣- درة التزليل وغرة التأويل: محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي، ط: الأولى، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية - مكة المكرمة، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م. تحقيق: د/ محمد مصطفى آيدين.

- ١٠٤- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: الحافظ أحمد بن علي بن محمد العسقلاني ط: الثانية، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الهند، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- ١٠٥- دعوة الرسل عليهم السلام: أحمد أحمد غلوش، ط: الأولى، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ١٠٦- دلائل الإعجاز في علم المعاني: أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، ط: الثالثة، مطبعة المدني- القاهرة، ودار المدني - جدة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م. تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر.
- ١٠٧- الرد على المنطقيين: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية الحنبلي الدمشقي، ط: دار المعرفة، بيروت- لبنان.
- ١٠٨- الرسالة القشيرية: عبد الكريم بن هوازن القشيري، ط: دار المعارف - القاهرة، تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف.
- ١٠٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥ هـ.
- ١١٠- الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: دار الكتب العلمية - بيروت.
- ١١١- روضة المحبين ونزهة المشتاقين: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- ١١٢- زاد المسير في علم التفسير: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط: الأولى، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٢٢هـ. تحقيق: عبد الرزاق المهدي.
- ١١٣- زاد المعاد في هدي خير العباد: محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية، ط: السابعة والعشرون، مؤسسة الرسالة- بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية- الكويت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ١١٤- الزهد والرقائق لابن المبارك: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
- ١١٥- سنن ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، ط: دار إحياء الكتب العربية، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

- ١١٦- السنن الصغرى للنسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ط: الثانية، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.
- ١١٧- سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ط: الثالثة، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٩٨٥م.
- ١١٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن أحمد ابن العماد الحنبلي، ط: الأولى، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ١١٩- شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة: د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ط: مطبعة سفير - الرياض.
- ١٢٠- شرح السنة: محيي السنة الحسين بن مسعود البغوي، ط: الثانية، المكتب الإسلامي، دمشق- بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش.
- ١٢١- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، ط: الأولى، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، الرياض، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م. تحقيق: د. عبد الحميد هندراوي.
- ١٢٢- شرح العقيدة الطحاوية: محمد بن عليّ المعروف بابن أبي العز الحنفي، الدمشقي، ط: العاشرة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد الله بن المحسن التركي.
- ١٢٣- شرح صحيح البخاري: ابن بطلال أبو الحسن علي بن خلف، ط: الثانية، مكتبة الرشد، السعودية - الرياض، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م. تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم.
- ١٢٤- شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ط: الأولى، مكتبة الرشد بالرياض، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م. تحقيق وتخرّيج: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد.
- ١٢٥- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: دار المعرفة، بيروت-لبنان، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ١٢٦- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، ط: الرابعة، دار العلم للملايين - بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- ١٢٧- صحيح ابن حبان بترتيب ابن لبان: محمد بن حبان ، التميمي، البُستي، أبو حاتم. وترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، ط: الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م. حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط.
- ١٢٨- صحيح ابن خزيمة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري، ط: المكتب الإسلامي - بيروت. تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي.
- ١٢٩- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت. المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- ١٣٠- صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة: علوي بن عبد القادر السَّقَّاف، ط: الثالثة، الدرر السنية - دار الهجرة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م.
- ١٣١- صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، ط: الأولى، دار الصابوني للطباعة والنشر - القاهرة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- ١٣٢- طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ط: الثانية، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣ هـ. التحقيق: د. محمود محمد الطناحي.
- ١٣٣- طبقات المفسرين للداوودي: محمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي المالكي، ط: دار الكتب العلمية - بيروت.
- ١٣٤- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: مكتبة دار البيان، بدون تاريخ.
- ١٣٥- طريق المهجرتين وباب السعادتين: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: الثانية، دار السلفية، القاهرة - مصر، ١٣٩٤ هـ.
- ١٣٦- العبودية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية، ط: السابعة، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م. تحقيق: محمد زهير الشاويش.
- ١٣٧- علم الاجتماع والمجتمع الإسلامي: الدكتور مصطفى شاهين، ط: دار إحياء التراث - القاهرة، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- ١٣٨- علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»: أحمد بن مصطفى المراغي، ط: الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

- ١٣٩- عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته: محمد أشرف بن أمير بن علي الصديقي العظيم آبادي، ط: الثانية، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥هـ.
- ١٤٠- غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: شمس الدين، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، ط: الثانية، مؤسسة قرطبة - مصر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ١٤١- غريب القرآن المسمى بزهة القلوب: محمد بن عزيز السجستاني، أبو بكر العزيري، ط: الأولى، دار قتيبة - سوريا، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، التحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران.
- ١٤٢- فتاوى السبكي: أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، ط: دار المعارف، بيروت - لبنان.
- ١٤٣- فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى: اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، ط: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء - الرياض.
- ١٤٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ط: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، بتحقيق محب الدين الخطيب.
- ١٤٥- فتح البيان في مقاصد القرآن: محمد صديق خان القنوجي، ط: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م. تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.
- ١٤٦- فتح القدير: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط: الأولى، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ.
- ١٤٧- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية: أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي التميمي، ط: الثانية، دار الآفاق الجديدة - بيروت، ١٩٧٧م.
- ١٤٨- الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، ط: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، التحقيق: محمد إبراهيم سليم.
- ١٤٩- الفصل في الملل والأهواء والنحل: أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، ط: مكتبة الخانجي - القاهرة، بدون تاريخ.
- ١٥٠- الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي: الدكتور مصطفى الحنّ، الدكتور مصطفى البغا، علي الشربجي، ط: الرابعة، دار القلم - دمشق، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

- ١٥١- الفوائد: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: الثانية، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- ١٥٢- الفوز الكبير في أصول التفسير: أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ «ولي الله الدهلوي»، ط: الثانية، دار الصحوة-القاهرة، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٦م.
- ١٥٣- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، ط: السابعة عشر، دار الشروق- بيروت، القاهرة، ١٤١٢هـ.
- ١٥٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير: عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي القاهري ط: المكتبة التجارية الكبرى-مصر، ١٣٥٦هـ.
- ١٥٥- القاموس المحيط: محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، ط: الثامنة، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- ١٥٦- القرآن وعلم النفس: الدكتور محمد عثمان نجاتي، ط: السابعة، دار الشروق - القاهرة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ١٥٧- قضية التكفير بين أهل السنة وفرق الضلال في ضوء الكتاب والسنة: د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، ط: مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي، الرياض.
- ١٥٨- القيامة الكبرى: عمر بن سليمان الأشقر، ط: السادسة، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ١٥٩- كتاب أصول الدين: جمال الدين أحمد بن محمد الغزنوي الحنفي، ط: الأولى، دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م. تحقيق: د. عمر وفيق الداعوق.
- ١٦٠- كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، ط: دار ومكتبة الهلال. التحقيق: د مهدي المخزومي، ود إبراهيم السامرائي.
- ١٦١- كشف القناع عن متن الإقناع: منصور بن يونس البهوتي الحنبلي، ط: دار الكتب العلمية، لبنان-بيروت.
- ١٦٢- الكشف عن حقائق غوامض التزويل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، ط: الثالثة، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٧هـ.

- ١٦٣- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مصطفى بن عبد الله كاتب جلي القسطنطيني، المشهور باسم حاجي خليفة، ط: مكتبة المثنى - بغداد، ١٩٤١م.
- ١٦٤- كشف المشكل من حديث الصحيحين: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط: دار الوطن - الرياض. التحقيق: علي حسين البواب.
- ١٦٥- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أيوب بن موسى الكفوي، الحنفي، ط: مؤسسة الرسالة - بيروت، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري.
- ١٦٦- لا تحزن: عائض بن عبد الله القرني، ط: مكتبة العبيكان - الرياض.
- ١٦٧- لباب التأويل في معاني التنزيل: علي بن محمد بن إبراهيم الشيعي أبو الحسن، المعروف بالخازن، ط: الأولى: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥ هـ ، تحقيق: محمد علي شاهين.
- ١٦٨- اللباب في علوم الكتاب: عمر بن علي بن عادل الحنبلي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية- بيروت/ لبنان، ١٤١٩ هـ-١٩٩٨م. تحقيق: عادل أحمد، وعلي محمد معوض.
- ١٦٩- لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور، ط: الثالثة، دار صادر-بيروت، ١٤١٤ هـ.
- ١٧٠- اللمع في العربية: عثمان بن جني، ط: دار الكتب الثقافية-الكويت. المحقق: فائز فارس.
- ١٧١- مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ط: الرابعة، دار القلم- دمشق، ١٤٢٦ هـ-٢٠٠٥م.
- ١٧٢- مباحث في علوم القرآن: مناع بن خليل القطان، ط: الثالثة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤٢١ هـ-٢٠٠٠م.
- ١٧٣- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد، ط: دار نهضة مصر - القاهرة. تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة.
- ١٧٤- المجتمع والأسرة في الإسلام: محمد طاهر الجوابي، ط: الثالثة، دار عالم الكتب-بيروت، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.
- ١٧٥- مجموع الفتاوى: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية - المملكة العربية السعودية، ١٤١٦ هـ-١٩٩٥م. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم.

- ١٧٦- مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ط: الأولى، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر. ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م. تحقيق: طلعت بن فؤاد الحلواني.
- ١٧٧- محاسن التأويل: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم م، ط: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٨ هـ. تحقيق: محمد باسل عيون السود.
- ١٧٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: عبد الحق بن غالب، المعروف بابن عطية الأندلسي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٤٢٢ هـ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي.
- ١٧٩- مختار الصحاح: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنفي الرازي، ط: الخامسة، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م. التحقيق: يوسف الشيخ محمد.
- ١٨٠- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية، ط: الثالثة، دار الكتاب العربي-بيروت، ١٤١٦ هـ-١٩٩٦ م. تحقيق: محمد المعتصم بالله.
- ١٨١- مدارك التزويل وحقائق التأويل: أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، ط: الأولى، دار الكلم الطيب-بيروت، ١٤١٩ هـ-١٩٩٨ م. تحقيق وتخريج: يوسف علي بديوي.
- ١٨٢- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي بن سلطان محمد، الملا الهروي القاري، ط: الأولى، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ١٨٣- المستدرک علی الصحیحین: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، ط: الأولى، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٤١١-١٩٩٠. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- ١٨٤- مسند أبي يعلى: أبو يعلى أحمد بن علي التميمي، الموصلي، ط: الأولى، دار المأمون للتراث-دمشق، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م. تحقيق: حسين سليم أسد.
- ١٨٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ط: الأولى، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون. إشراف: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي.
- ١٨٦- مسند الدارمي المعروف بـ سنن الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، التميمي السمرقندي، ط: الأولى، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢ هـ-٢٠٠٠ م. التحقيق: حسين سليم أسد الداراني.

- ١٨٧- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس، ط: المكتبة العلمية - بيروت.
- ١٨٨- معالم السنن: أبو سليمان حمد بن محمد البستي المعروف بالخطابي، ط: الأولى، المطبعة العلمية - حلب، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.
- ١٨٩- معاني القراءات: محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروي، أبو منصور، ط: الأولى مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- ١٩٠- معجم الأدباء: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ط: الأولى، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م. التحقيق: إحسان عباس.
- ١٩١- المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، ط: دار الحرمين - القاهرة. التحقيق: طارق بن عوض الله، وعبد المحسن بن إبراهيم.
- ١٩٢- معجم الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، ط: الأولى، مؤسسة النشر الإسلامي - قم/ إيران، ١٤١٢هـ. التحقيق: الشيخ بيت الله بيات.
- ١٩٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: الثانية، دار الحديث - القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٩٤- المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر - محمد النجار، ط: دار الدعوة بتحقيق: مجمع اللغة العربية، القاهرة.
- ١٩٥- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم: جلال الدين السيوطي، ط: الأولى، مكتبة الآداب - القاهرة / مصر، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م. تحقيق: أ. د محمد إبراهيم عبادة.
- ١٩٦- معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ط: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. بتحقيق عبد السلام هارون.
- ١٩٧- معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: حسن عز الدين الجمل، ط: الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، ٢٠٠٣ - ٢٠٠٨م.
- ١٩٨- معنى لا إله إلا الله: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي، ط: الثالثة، دار الاعتصام - القاهرة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م. تحقيق: علي محيي الدين.

- ١٩٩- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، ط: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ٢٠٠- مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير: محمد بن عمر بن الحسن الملقب بفخر الدين الرازي، ط: الثالثة، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٢٠هـ.
- ٢٠١- مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر السكاكي الخوارزمي أبو يعقوب، ط: الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. تحقيق والتعليق: نعيم زرزور.
- ٢٠٢- المفتاح في الصرف: عبد القاهر الجرجاني، ط: الأولى، مؤسسة الرسالة-بيروت، ١٩٨٧م.
- ٢٠٣- المفردات في غريب القرآن: الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ط: الأولى، دار القلم، الدار الشامية-دمشق، بيروت، ١٤١٢هـ. تحقيق: صفوان عدنان الداودي.
- ٢٠٤- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، ط: الأولى، المكتبة العصرية، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. التحقيق: نعيم زرزور.
- ٢٠٥- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، ط: الأولى، الجفان والجابي - قبرص، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي.
- ٢٠٦- الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ط: مؤسسة الحلبي، بدون تاريخ.
- ٢٠٧- من أساليب التربية في القرآن الكريم: الدكتور/عثمان قدرى مكانسي، ط: الأولى، دار ابن حزم-بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ٢٠٨- من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي: كمال الدين عبد الغني المرسي، ط: الأولى، دار المعرفة الجامعية - القاهرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٢٠٩- منازل السائرين: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي، ط: دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٢١٠- مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها: علي أحمد مذكور، ط: دار الفكر العربي-بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ٢١١- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، ط: الثالثة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- ٢١٢- المنتقى شرح الموطأ: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي الأندلسي، ط: الأولى، مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٣٢هـ.

- ٢١٣- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، ط: الأولى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، تحقيق: محمد رشاد سالم.
- ٢١٤- المنهاج الواضح للبلاغة: حامد عوني، ط: المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة.
- ٢١٥- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ط: الثانية، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٣٩٢ هـ.
- ٢١٦- منهج التربية الإسلامية: محمد بن قطب، ط: السادسة عشرة، دار الشروق - القاهرة،
- ٢١٧- منهج السلف في الوعظ: أبو يزيد سليمان العربي بن صفية، ط: الأولى، مكتبة دار المنهاج، الرياض - السعودية، ١٤٣١ هـ.
- ٢١٨- الموسوعة العربية، ط: هيئة الموسوعة العربية، دمشق، سوريا ٢٠١٢ م.
- ٢١٩- الموسوعة الفقهية الكويتية: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، ط: الثانية، دار السلاسل - الكويت، ط: الأولى، مطابع دار الصفوة - مصر، ط: الثانية، وزارة الأوقاف - الكويت، من ١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ.
- ٢٢٠- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط: الرابعة، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠ هـ. إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني.
- ٢٢١- موسوعة فقه القلوب: محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، ط: بيت الأفكار الدولية، الرياض - السعودية.
- ٢٢٢- موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية: محمد بن عبد الرحمن المغراوي، ط: الأولى، المكتبة الإسلامية، القاهرة - مصر، النبلاء للكتاب، مراكش - المغرب.
- ٢٢٣- موطأ الإمام مالك: مالك بن أنس المدني، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م. صححه ورقمه وخرج أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.
- ٢٢٤- ميزان الاعتدال في نقد الرجال: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، ط: الأولى، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م. تحقيق: علي محمد البجاوي.

- ٢٢٥- النبوات: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ، المعروف بابن تيمية الحراني الحنبلي
الدمشقي، ط: الأولى، أضواء السلف، الرياض - المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ -
٢٠٠٠م. تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان.
- ٢٢٦- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي
الجوزي، ط: الأولى، مؤسسة الرسالة - لبنان- بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م. المحقق: محمد
عبد الكريم كاظم الراضي.
- ٢٢٧- النشر في القراءات العشر: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، ط:
المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية، تحقيق: علي محمد الضباع.
- ٢٢٨- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن
عبد الله بن حميد، ط: الرابعة، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة.
- ٢٢٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر البقاعي، ط: دار الكتاب الإسلامي
-القاهرة.
- ٢٣٠- النهاية في غريب الحديث والأثر: المبارك بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير، ط: المكتبة
العلمية-بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي.
- ٢٣١- هداية القاري إلى تجويد كلام الباري: عبد الفتاح بن السيد عجمي المرصفي المصري
الشافعي، ط: الثانية، مكتبة طيبة، المدينة المنورة.
- ٢٣٢- هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة: الشيخ علي محفوظ، ط: دار الاعتصام، القاهرة.
- ٢٣٣- الهداية إلى بلوغ النهاية: مكي بن أبي طالب، ط: الأولى، مجموعة بحوث الكتاب والسنة،
جامعة الشارقة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م. تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا
والبحث العلمي-جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي.
- ٢٣٤- الوابل الصيب من الكلم الطيب: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط: الثالثة،
دار الحديث - القاهرة، ١٩٩٩م. تحقيق: سيد إبراهيم.
- ٢٣٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن
خلكان، ط: الأولى، دار صادر - بيروت، ١٩٩٤م. تحقيق إحسان عباس.

فهرس الأحاديث

م	طرف الحديث	الصفحة
١	أَتَدْرُونَ فِيمَ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	٢٨٢
٢	أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا	٢٢٦
٣	اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ	٤٧٢
٤	أَثْقَلُ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ الْخُلُقُ الْحَسَنُ	٥٠٥
٥	اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ	٣٤٠
٦	إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ	٢٨٠
٧	إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوْ الْمُؤْمِنُ فَعَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ	٤٩٨
٨	إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا	٣٦٥
٩	إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا، فَلْيَصِلْ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا	٤٢٧
١٠	إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذُنٌ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ	٣١٣
١١	إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ	٥٣٣
١٢	أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ	٢٥
١٣	أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا	٤٣٠
١٤	أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ	٥٠٧
١٥	أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ	٣٥١
١٦	أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ	٢٧١
١٧	أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ	١٧٨
١٨	أَلَيْسَ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى الرَّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمَشِّيَهُ عَلَى وَجْهِهِ	٢٩٤
١٩	إِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا مَاتَ غُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ	٢٨١
٢٠	إِنَّ الْحَمِيمَ لَيَصَبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَيَنْفُذُ الْحَمِيمُ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ	٣٢٧
٢١	إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ	٣٦٧
٢٢	إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ	٢٧٩
٢٣	إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ	٢٧٩

٢٤	إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ	٤٧٧
٢٥	إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَنْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ	٢٢٨
٢٦	إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ	٥٣٧
٢٧	إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ	٢٥٢
٢٨	إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغِرْ	٥٢٧
٢٩	إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرِ	٣٦٤
٣٠	إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ	٥٠٥
٣١	إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ	٤٥٥
٣٢	إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْعَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ	٣٥٢
٣٣	إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ. فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا، حَفِظَ دِينَهُ	٤٩٥
٣٤	إِنَّ أَوَّلَ آيَاتِ خُرُوجِهَا، طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ	٢٨٧
٣٥	إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ	٤٢٩
٣٦	إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرَكَ الصَّلَاةَ	٤٢٨
٣٧	أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ	٢٢١
٣٨	إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ مُحَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُونَ مِثْلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ	٣٥٤
٣٩	إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا	٣٥٥
٤٠	إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ	٤٥٩
٤١	إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ	٢١٣
٤٢	أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ	٢٩٢
٤٣	أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيُظَنَّ بِي مَا شَاءَ	١٦٦
٤٤	إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ	٥٢١
٤٥	أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ	١٤٤
٤٦	انْفِذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ	١١٩
٤٧	إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ خُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا: "كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ"	٢٩٢
٤٨	إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ	١٣٩

٤٩	إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ	١٢٣
٥٠	إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا	٢٨
٥١	بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا	٤٢١
٥٢	بَشَرُوا وَلَا تُنْفَرُوا، وَيَسَرُّوا وَلَا تُعَسِّرُوا	١٢٤
٥٣	بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ	١١٨
٥٤	بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ	٤٢٨
٥٥	تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ	٣٢٠
٥٦	تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ	١٦٥
٥٧	ثُمَّ يَفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ	٢٨٤
٥٨	ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا	٢٨٨
٥٩	جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ	٤٤٨
٦٠	حُبِّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النَّسَاءِ وَالطِّيبِ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ	٤٢٨
٦١	الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ	٤٧
٦٢	الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ	٥١٧
٦٣	رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ	٤٢٨
٦٤	رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ	٤٧٩
٦٥	شَهْرُ الصَّبْرِ، وَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَوْمُ الدَّهْرِ	٥٠١
٦٦	الصَّلَاةُ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ	٤٢٩
٦٧	الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفَرَاتٌ	٤٣٣
٦٨	ضِرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ، مِثْلُ أَحَدٍ، وَغِلْظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثِ	٣٢٦
٦٩	عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ،	٤٣٦
٧٠	عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: فَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ	٥٢٠
٧١	العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ	٤٣٧
٧٢	فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْظُرِ السَّاعَةَ	٥٠٩
٧٣	فَبَيْنَا أَنَا أُمَشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي	١٢٠

٧٤	فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى	٤٣٠
٧٥	قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى التَّكْبَةِ يُنَكَّبُهَا	١٨٣
٧٦	قدمت عليّ أمي، وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدتهم، فاستفتيت	٤٧٩
٧٧	قُمْ يَا بِلَالُ فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ	٤٢٨
٧٨	كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّامَةِ	١٢٦
٧٩	كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ	١٢٥
٨٠	كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعثُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ	٣٧٩
٨١	كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ	٤٤١
٨٢	الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ	٥١٢
٨٣	كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا، وَكَفَى بِالْبَقِيَّةِ غِنًى، وَكَفَى بِالْعِبَادَةِ شُغْلًا	٢٧٢
٨٤	كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إِنَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ	٣٣٢
٨٥	كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ	٥٢٧
٨٦	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ	٢٦٨
٨٧	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَلٌَّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجَ	٢٨٨
٨٨	لَا تَزُولُ قَدَمًا عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ	٣٠٩
٨٩	لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُطِّعَتْ وَحُرِّقَتْ، وَلَا تَتْرُكْ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا	٤٣٧
٩٠	لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَأَاهَا النَّاسُ	٢٨٧
٩١	لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، يَا بِنْتَ الصَّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ	١٧٦
٩٢	لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ	٥١٢
٩٣	لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ	٥٢٥
٩٤	لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ	١٦٦
٩٥	لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ	١٦٤
٩٦	لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ	٤٩٣
٩٧	لَتُنْتَفِضَنَّ عَرَى الْإِسْلَامِ عُرُوءَةٌ عُرُوءَةٌ، فَكُلَّمَا انْتَفِضَتْ عُرُوءَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ	٤٢٩
٩٨	لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلَحَاءُ	٢٦٣

٩٩	لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ، قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ	١٢٦
١٠٠	لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ	٢٢٦
١٠١	اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ	٢٠٩
١٠٢	اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ	١٨١
١٠٣	اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ	٤٣٢
١٠٤	اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَخِيهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ	٢٧٧
١٠٥	لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الرِّقْمِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا	٣٣١
١٠٦	لَوْ أَنَّ لَا تَدَافِقُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ	٢٨٠
١٠٧	لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا	٤٧٨
١٠٨	لَئِنْ كُنْتُ كَمَا قُلْتُ، فَكَأَنَّمَا تُسْفَهُمُ الْعَمَلُ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ	٤٧٨
١٠٩	مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ	١٨٠
١١٠	مَا بَيْنَ التَّفَخُّتَيْنِ أَرْبَعُونَ	٢٩١
١١١	مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ	٤٨٤
١١٢	مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبَ وَلَا فِضَّةً، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ	٤٧٣
١١٣	مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبَ وَلَا فِضَّةً، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ	٣٤١
١١٤	مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ	٤٧١
١١٥	مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُلْبِغُ - أَوْ فَيَسْبِغُ - الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ	٣٥١
١١٦	مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ	٢٧٨
١١٧	مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا	٤٩٩
١١٨	مِثْلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمِثْلِ قَوْمٍ اسْتَهْمُوا عَلَى سَفِينَةٍ	٣٩١
١١٩	مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثْلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعًا أَفْرَعَهُ لَهُ	٤٧٣
١٢٠	مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ	٢٧٦
١٢١	مَنْ أَحَقَّ النَّاسَ بِحَسَنِ صَحَابِي، قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ، قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ	٤٧٨
١٢٢	مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافَى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فَكَأَنَّمَا	٤١٦
١٢٣	مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ	٣٥٢

١٢٤	مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تُودِي فِي الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ	٣٥١
١٢٥	مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ	٥٢٧
١٢٦	مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	٤٣٧
١٢٧	مَنْ خَافَ أَذْلَجَ، وَمَنْ أَذْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ	٣٧١
١٢٨	مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ تَبِعَهُ	١١٨
١٢٩	مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ	٤٤٦
١٣٠	مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ	٢٦٣
١٣١	مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ	٥٢٣
١٣٢	مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عَذَّبَ	٥٢٩
١٣٣	مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنَعَمُ لَا يَيْئَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ	٣٦٠
١٣٤	الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا	٤٩٧
١٣٥	نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ	١٥٤
١٣٦	نَزَلْتُ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، فَيَقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ	٢٧٩
١٣٧	هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ	٣٢٠
١٣٨	هَلْ تَذَرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ	٣٠٥
١٣٩	وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفِّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَحَفَّ عَلَيْهِ	٢٩٩
١٤٠	وَاللَّهُ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً	٣٦٨
١٤١	وَاللَّهُ لِلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ	٢٢٨
١٤٢	وَاللَّهُ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ	٣٨٦
١٤٣	وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفِينَ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ	٢٩٥
١٤٤	وَعَظَّمْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ	١٢٥
١٤٥	وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ الْمُرْسَلِينَ	١٤١
١٤٦	وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخٌ سَوْفَهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ	٣٦٣
١٤٧	وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ	٥٠١
١٤٨	يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ، فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةً	٢٢٨

٢٦	يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا	١٤٩
٥٣٧	يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا	١٥٠
٥٣٦	يَا عُمْرُ مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، وَمَا لِلدُّنْيَا وَلِي، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا	١٥١
٢٩٢	يُنْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ	١٥٢
٢٧١	يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ	١٥٣
٣٥٦	يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا	١٥٤
٣٣٦	يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَبُونَ	١٥٥

فهرس الأعلام

م	الاسم	الصفحة
١	ابن الأثير الجزري: أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الشيباني	٥٦
٢	ابن الأثير الجزري: أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيباني	٨٦
٣	ابن الصلاح: تقي الدين أبو عمرو عثمان الكردي الشهرزوري	٤٦
٤	ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله	٢٤
٥	ابن تيمية: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحنبلي	١١٦
٦	ابن جرير الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير	١٢٧
٧	ابن جني: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي	٧٧
٨	ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد ابو الفضل العسقلاني	٢٩
٩	ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي القرطبي	٤٢٠
١٠	ابن رجب الحنبلي: أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد البغدادي	١٧٨
١١	ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي المالكي	٤٣١
١٢	ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي	٥
١٣	ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري	٢١١
١٤	ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء الرازي	١٣
١٥	ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري	١٠٦
١٦	ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر شمس الدين الحنبلي	٢٤
١٧	ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير، القرشي، أبو الفداء	٤
١٨	ابن منظور الإفريقي: محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل الأنصاري	١٤
١٩	أبو السعود: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي	٥
٢٠	أبو القاسم القشيري: عبد الكريم بن هوازن النيسابوري الصوفي	١٨٢
٢١	أبو الوليد الباجي: سليمان بن خلف بن سعد	١٥
٢٢	أبو بكر الباقلاني: محمد بن الطيب بن محمد المالكي	٩٢
٢٣	أبو حيان: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الأندلسي	٨٧

٢٤	أبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي، البصري، النحوي	١٦
٢٥	الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي	١٩
٢٦	الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل	٢٨٠
٢٧	الأشقر: عمر بن سليمان	٣١٩
٢٨	الالوسي: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني	٤٩
٢٩	البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي	٢٨
٣٠	البغوي: محيي السنة الحسين بن مسعود الشافعي	٢١١
٣١	البقاعي: برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن	٢٢
٣٢	البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين الخراساني	٢١٠
٣٣	الجرجاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن	٨١
٣٤	الجنيد البغدادي: أبو القاسم بن محمد بن الجنيد الخزاز	١٧٧
٣٥	الجوهري: أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي	١٤
٣٦	الحسن البصري: أبو سعيد ابن أبي الحسن يسار	١١٧
٣٧	الخانز: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الشيعي	٦٧
٣٨	الخطابي: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم البستي	٤٦
٣٩	الراغب الاصفهاني: الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم	١٣
٤٠	الزجاج: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري البغدادي	٢٠٩
٤١	الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر	٥
٤٢	الزمرخشري: أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر	٧٤
٤٣	السبكي: تقي الدين علي بن عبد الكافي الأنصاري	٤٢٠
٤٤	السعدي: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله التميمي	٢٣
٤٥	سيبويه: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي البصري	٧٣
٤٦	الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار	١٨٩
٤٧	الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليماني	١٦٢
٤٨	عبد الرحمن النحلوي	١٤

٤٩	عبد الكريم زيدان	١٤
٥٠	عبد الله ابن شقيق العقيلي	٤٢٨
٥١	عز الدين بن عبد السلام السلمي أبو محمد	١٩٩
٥٢	الغزالي: محمد بن محمد أبو حامد الطوسي	٣٠
٥٣	فخر الدين الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي البكري	١٤٢
٥٤	القاضي عياض: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبي	١٤١
٥٥	قتادة بن دعامة السدوسي	٣٣١
٥٦	القرظي: أبو حمزة محمد بن كعب ابن سليم ابن أسد	٢٨٣
٥٧	مجاهد ابن جبر أبو الحجاج المخزومي المكي	٢٨٣
٥٨	محمد بن المتوكل: أبو عبد الله اللؤلؤي المقرئ	١٩
٥٩	المروزي: محمد بن نصر بن الحجاج	٤٣٨
٦٠	مصطفى مسلم	١٩٩
٦١	مقاتل بن سليمان ابن بشير الأزدي الخراساني أبو الحسن	٢٨٣
٦٢	النووي: محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الحزامي الحوراني	١٢٤
٦٣	ولي الله الدهلوي: أحمد بن عبد الرحيم العمري	٩٩

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
التمهيد	١١
المطلب الأول: بيان معنى الترغيب لغة واصطلاحاً	١٢
المطلب الثاني: بيان معنى الترهيب لغة واصطلاحاً	١٨
المطلب الثالث: بيان أهمية الترغيب والترهيب	٢٢
الباب الأول: أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن وموقف المفسرين منه	٣٢
تمهيد	٣٣
الفصل الأول: الأسلوب اللغوي للقرآن الكريم في الترغيب والترهيب	٣٤
تمهيد	٣٥
المبحث الأول: كلمات في القرآن الكريم ذات صلة بالترغيب والترهيب	٣٧
المطلب الأول: التذكرة	٣٨
المطلب الثاني: الموعظة	٤٢
المطلب الثالث: النصيحة	٤٦
المطلب الرابع: البشارة والندرة	٤٩
المطلب الخامس: الوعد والوعيد	٥٦
المبحث الثاني: طائفة من الأساليب اللغوية للقرآن الكريم في الترغيب والترهيب	٦٠
المطلب الأول: الأمر	٦١
المطلب الثاني: النهي	٦٦
المطلب الثالث: الاستفهام	٧٠
المطلب الرابع: الترجي	٧٣
المطلب الخامس: أسلوب المدح والذم	٧٧
المطلب السادس: التوكيد	٨٠

٨٥	المطلب السابع: التقابل والطباق
٩١	المطلب الثامن: التصريح والتعريض
١٠٦	المطلب التاسع: التكرار لآيات الترغيب والترهيب
١١٤	الفصل الثاني: أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن الكريم وأثره في الدعوة والتربية.
١١٥	المبحث الأول: أهمية الترغيب والترهيب في الدعوة والتربية
١١٦	المطلب الأول: مفهوم الدعوة إلى الله وفضلها
١٢٠	المطلب الثاني: أهمية الترغيب والترهيب في الدعوة
١٢٧	المطلب الثالث: مفهوم التربية وأهميتها في الإسلام
١٣٠	المطلب الرابع: أهمية الترغيب والترهيب في التربية
١٣٢	المبحث الثاني: الترغيب والترهيب نهج الرسل في دعوتهم
١٣٣	المطلب الأول: مفهوم الرسل ومقامهم في الدين
١٣٧	المطلب الثاني : مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام
١٤٢	المطلب الثالث: أسلوب الترغيب والترهيب في دعوة الرسل
١٥٨	المبحث الثالث: آثار الترغيب والترهيب في النفس البشرية
١٥٩	المطلب الأول: مفهوم الأثر والنفس البشرية
١٦١	المطلب الثاني: الآثار النفسية الإيجابية
١٧٣	المطلب الثالث: الآثار النفسية السلبية
١٨٥	الفصل الثالث: موقف المفسرين من أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن الكريم
١٨٦	تمهيد
١٨٧	المبحث الأول: الجمع بين الترغيب والترهيب في القرآن
١٨٨	المطلب الأول: الحكمة في الجمع بين الترغيب والترهيب في القرآن
١٩٠	المطلب الثاني: الموازنة بين الترغيب والترهيب في القرآن
١٩٤	المبحث الثاني: الترغيب والترهيب وأثره في التناسب بين الآيات
١٩٥	المطلب الأول: المناسبة، مفهومها، وفائدتها، وأوجه الارتباط بين الآيات.
١٩٧	المطلب الثاني: اتجاهات المفسرين في المناسبة بين الآيات

٢٠١	المطلب الثالث: أثر الترغيب والترهيب في المناسبة بين الآيات
٢٠٥	الباب الثاني: أنواع الترغيب والترهيب في القرآن الكريم وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع
٢٠٦	الفصل الأول: الترغيب والترهيب بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا
٢٠٧	تمهيد
٢١٤	المبحث الأول: الأسماء والصفات الدالة على العلم والإحاطة وإفادتها للترغيب والترهيب
٢١٥	المطلب الأول: الأسماء والصفات المشتملة على العلم والإحاطة
٢٢١	المطلب الثاني: إفادة علم الله تعالى للترغيب في القرآن
٢٢٣	المطلب الثالث: إفادة علم الله تعالى للترهيب في القرآن
٢٢٥	المبحث الثاني: الأسماء والصفات المتضمنة للمغفرة والرحمة وإفادتها للترغيب
٢٢٦	المطلب الأول: سعة رحمة الله تعالى وآثارها، ومغفرته وشمولها
٢٢٩	المطلب الثاني: الأسماء والصفات المشتملة على الرحمة وآثارها
٢٣٥	المطلب الثالث: إفادة رحمة الله تعالى ومغفرته للترغيب في القرآن
٢٣٦	ملاحظة: في علاقة أسماء الرحمة بالترهيب
٢٣٧	المبحث الثالث: الأسماء والصفات المشتملة على كمال القدرة والعظمة، وعاد المشيئة، وإفادتها للترغيب والترهيب
٢٣٨	المطلب الأول: الأسماء والصفات الدالة على القدرة والعظمة ونفاذ المشيئة
٢٤٦	المطلب الثاني: الترغيب والترغيب في صفات القدرة والعظمة ونفاذ المشيئة
٢٤٩	المبحث الرابع: الأسماء والصفات الدالة على الحكم والعدل، والثواب والعقاب، وإفادتها للترغيب والترهيب
٢٥٠	المطلب الأول: الأسماء والصفات المتضمنة للحكم والعدل، والثواب والعقاب
٢٥٧	المطلب الثاني: الترغيب المستفاد من الأسماء والصفات الدالة على الحكم والعدل، والثواب والعقاب
٢٥٩	المطلب الثالث: الترغيب المستفاد من الأسماء والصفات الدالة على الحكم والعدل، والثواب والعقاب
٢٦١	الفصل الثاني: الترغيب والترهيب بأحوال الموت والقبر والقيامة ومصير العباد
٢٦٢	تمهيد: الإيمان باليوم الآخر وأهميته في الدين
٢٦٦	المبحث الأول: الترغيب والترهيب بأحوال الموت والقبر
٢٦٧	المطلب الأول: حقيقة الموت، وأحواله في القرآن الكريم
٢٧١	المطلب الثاني: الترغيب والترغيب بالموت وأحواله

٢٧٨	المطلب الثالث: إثبات عذاب القبر ونعيمه في الكتاب والسنة
٢٨١	المطلب الرابع: الترهب والترغب بعذاب القبر ونعيمه
٢٨٥	المبحث الثاني: الترهب بأحوال الحشر والقيامة الكبرى
٢٨٦	المطلب الأول: البعث والحشر والترهب بهما
٢٩٧	المطلب الثاني: أهوال يوم القيامة والترهب بها
٣٠٤	المطلب الثالث: الحساب يوم القيامة والترهب به
٣١١	المطلب الرابع: الانصراف عن الموقف و جواز الصراط
٣١٨	المبحث الثالث: الترهب من النار وأهوالها
٣١٩	المطلب الأول: التعريف بالنار ووصفها في القرآن الكريم
٣٢٦	المطلب الثاني: أوصاف أهل النار وأحوالهم فيها
٣٣٦	المطلب الثالث: الأسباب والأعمال الموصلة إلى النار
٣٤٣	المطلب الرابع: التخويف من النار والترهب بها
٣٤٩	المبحث الرابع: الترغب في الجنة ونعيمها
٣٥٠	المطلب الأول: التعريف بالجنة ووصفها في القرآن
٣٥٦	المطلب الثاني: صفة أهل الجنة ونعيمهم فيها
٣٦٦	المطلب الثالث: الأعمال والأسباب الموجبة للجنة
٣٧١	المطلب الرابع: الترغب بالجنة ونعيمها
٣٧٤	الفصل الثالث: الترغب والترهب بذكر أحوال الأمم السابقة
٣٧٥	تمهيد: أهمية قصص الأنبياء والرسل في القرآن الكريم
٣٧٨	المبحث الأول: تحذير الرسل أممهم من عقاب الله وترغيبهم في ثوابه
٣٧٩	المطلب الأول: علاقة الرسل مع أممهم في القرآن الكريم
٣٨٣	المطلب الثاني: تحذير الرسل أممهم من عقاب الله وغضبه
٣٨٦	المطلب الثالث: ترغب الرسل أممهم في ثواب الله ورضاه
٣٩٠	المبحث الثاني: الترغب والترهب بتعجيل العقوبة لمخالفني الرسل وإنحاء أتباعهم

٣٩١	التمهيد: مفهوم العقوبة الربانية وتوصيفها
٣٩٤	المطلب الأول: الترهيب بتعجيل العقوبة لمخالف الرسل
٣٩٧	المطلب الثاني: الترغيب بإنحاء الرسل وانتصارهم مع أتباعهم
٤٠٩	الفصل الرابع: الترغيب في الطاعات والترهيب من المعاصي
٤١٠	تمهيد: أهمية الترغيب في الطاعات والترهيب من المعاصي
٤١٢	المبحث الأول: الترغيب في الإيمان والترهيب من الكفر
٤١٣	المطلب الأول: مفهوم الإيمان لغة وشرعا
٤١٤	المطلب الثاني: الترغيب في الإيمان بنصوص القرآن
٤٢٠	المطلب الثالث: مفهوم الكفر لغة وشرعا
٤٢١	المطلب الرابع: الترهيب من الكفر بنصوص القرآن
٤٢٦	المبحث الثاني: الترغيب في الصلاة والترهيب من إضاعتها
٤٢٧	المطلب الأول: مفهوم الصلاة ومكانتها في الإسلام
٤٣١	المطلب الثاني: الترغيب في أداء الصلاة وإقامتها
٤٣٧	المطلب الثالث: الترهيب من ترك الصلاة وإضاعتها
٤٤٠	المبحث الثالث: الترغيب في نصره الدين والترهيب من خذلانه
٤٤١	المطلب الأول: المراد بنصرة الدين وأهميته
٤٥١	المطلب الثاني: الترغيب في الدعوة إلى الله والترهيب من تركها
٤٥٧	المطلب الثالث: الترغيب في الجهاد والترهيب من تركه
٤٦٤	المبحث الرابع: الترغيب في الإنفاق والترهيب من البخل
٤٦٥	المطلب الأول: مفهوم الإنفاق و البخل لغة وشرعا
٤٦٦	المطلب الثاني: الترغيب في الإنفاق بنصوص القرآن
٤٧٢	المطلب الثالث: الترغيب من البخل بنصوص القرآن
٤٧٥	المبحث الخامس: الترغيب في صلة الرحم والترهيب من قطيعتها
٤٧٦	المطلب الأول: مفهوم صلة الرحم وقطيعته وحكمهما
٤٨١	المطلب الثاني: الترغيب في صلة الرحم بنصوص القرآن

٣٨٤	المطلب الثالث: الترهيب من قطيعة الرحم بنصوص القرآن
٤٨٦	الفصل الخامس: أثر الترغيب والترهيب في إصلاح الفرد والمجتمع
٤٨٧	التمهيد
٤٨٩	المبحث الأول: أثر الترغيب في الإيمان والترهيب من الكفر في إصلاح الفرد والمجتمع
٤٩٠	طائفة من آثار تحقيق الإيمان واجتناب الكفر
٤٩٤	المبحث الثاني: أثر الترغيب في العبادات والترهيب من إضاعتها في إصلاح الفرد والمجتمع
٤٩٥	أولاً: آثار الترغيب في الصلاة والترهيب من تضييعها
٤٩٨	ثانياً: آثار الترغيب في الزكاة والترهيب من تركها
٥٠١	ثالثاً: آثار الترغيب في الصوم والترهيب من تركه
٥٠٢	رابعاً: آثار الترغيب في الحج والترهيب من تركه
٥٠٥	المبحث الثالث: أثر الترغيب في الأخلاق الحميدة والترهيب من الذميمة في إصلاح الفرد والمجتمع
٥٠٥	أولاً: الترغيب في الصدق والترهيب من الكذب
٥٠٧	ثانياً: الترغيب في الوفاء بالوعد والعهد، والترهيب من الخلف والغدر
٥٠٩	ثالثاً: الترغيب في أداء الأمانة والترهيب من الخيانة.
٥١٠	رابعاً: الترغيب في العدل، والترهيب من الظلم
٥١٢	خامساً: الترغيب في التواضع والترهيب من الكبر
٥١٥	المبحث الرابع: أثر الترغيب والترهيب بأسماء الله وصفاته في إصلاح الفرد والمجتمع
٥١٦	أولاً: أثر الأسماء الدالة على العلم والإحاطة
٥١٧	ثانياً: أثر الأسماء المتضمنة لسعة المغفرة وشمول الرحمة
٥١٩	ثالثاً: أثر الأسماء الدالة على القدرة والعظمة ونفاذ المشيئة
٥٢٢	رابعاً: أثر الأسماء الدالة على الحكم والعدل والثواب والعقاب
٥٢٤	المبحث الخامس: أثر الترغيب والترهيب باليوم الآخر في إصلاح الفرد والمجتمع
٥٢٥	أولاً: الأثر الإيماني للترغيب والترهيب باليوم الآخر
٥٢٩	ثانياً: الأثر التعبدي للترغيب والترهيب باليوم الآخر

منهج القرآن في الترغيب والترهيب وأثره في إصلاح الفرد والمجتمع

٥٣١	ثالثا: الأثر الأخلاقي للترغيب والترهيب باليوم الآخر
٥٣٥	رابعا: الأثر النفسي للترغيب والترهيب باليوم الآخر
٥٣٨	الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات
٥٤١	فهرس المراجع والمصادر
٥٦١	فهرس الأحاديث
٥٦٨	فهرس الأعلام
٥٧١	فهرس الموضوعات

